

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ۚ ﴾ (٢٥٨)
[البقرة] فمأذا يقول هذا المعاند ؟ ﴿ فَبُهِتَ ۚ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨)
[البقرة]

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب في حوارهِ مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففي كل موقف كان يقول : ﴿ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ (٢٩) [طه] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

ونلاحظ في أسلوب الآية صيغة الإفراد في ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ۖ ﴾ (٥٨) [الروم] ثم تنقل إلى صيغة الجمع في ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٥٨) [الروم] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً : أنت مبطل ، فلماذا ؟ قالوا : لأن الرسول حين يكذبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فاعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكانهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو : يكون المعنى ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ۖ ﴾ (٥٨) [الروم] يعني : كل الرسل ﴿ مُبْطِلُونَ ﴾ (٥٨) [الروم] أي : كاذبون تخلفون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويكذبوا رسله ، ككفار مكة الذين سمعوا في رسول الله حين فتر عنه الوحي فقالوا : « إِنْ رُبَّ مُحَمَّدٍ قَلِيلٌ » (٧) .

(١) بُهِتَ : دهش وتحمير . [القاموس القويم ١/ ٨٦] قال ابن منظور في لسان العرب -

مادة : بهت : « انقطع وسكت متحيراً » .

(٢) عن جندب بن عبد الله البجلي قال : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فالت امرأة

فصالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فانزل الله ﴿ وَالصُّحُفِ (٢) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٣) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٤) ﴾ [الصحفي] رواد البخاري ومسلم ، وفي رواية قال جندب :

أيلاً جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه - قاله ابن كثير في

تفسيره (٥٢٢/٤) .

وهم لا يدرون أن الوحي كان بجهد رسول الله ، وكان يشق عليه في بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملوني زملوني ، دثروني دثروني . وكان جبينه ينفصد عرقاً ، وكان ﷺ يقول عن الملك : « وضمنني حتى بلغ مني الجهد »^(١) .

وما ذلك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية : لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لمسيدينا رسول الله في صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو في مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان^(٢) .

إذن : مسألة فتور الوحي وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحي حتى يزول عنه الألم والعناء ، وعندها يشتاق للوحي من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له نربة على تلقية من الملك ، فشرق الإنسان إلى الشيء يجعله يتحمل المشاق في سبيله ، ويهون عليه الصعاب ، كالذي يسير إلى محبوبه

(١) قالت عائشة رضي الله عنها : « لقد رأيت ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٢) كتاب بدء الوحي . قال ابن حجر في الفتح (٢١/١) : « شبه جبينه بالعرق المقصود بمبالغة في كثرة العرق ، والقصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه . ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام (فيجيبه) ، فأخبرني عن الإيمان (فيجيبه) ، فأخبرني عن الإحسان (فيجيبه) ، فأخبرني عن الساعة (فيجيبه) قال عمر : ثم قال ﷺ : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . أخرجه مسلم في صحيحه (٨) كتاب الإيمان . وكذا البخاري في صحيحه (٥٠) ولكن من حديث أبي هريرة .

فلا يبالى حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار .
والوحي لقاء بشري بملكي ، فلما أن ينتقل الرسول إلى مرتبة
الملك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث في
بداية نزول الوحي فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع
الوحي .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح] أى : جعلناه خفيفاً لا يجهدك . ويقول سبحانه في الرد
عليهم : ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ [الضحى]

فمعجيب أن يقولوا « إن رب محمد قلاه » فيعتفرون برب محمد
ساعة الشدة والضيق الذي نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب
محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحي ودعاهم إلى الإيمان كفروا
وكذبوا .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الروم] أى : كتكذيبهم لكل آية
تأتيهم بها ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾ [الروم] أى
ختمها وأغلقها .

فإن قلت : فمن المصلحة أن تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل
شيئاً من الهداية والنور . تقول : الختم على قلوب هؤلاء لا يكون إلا
بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أمل في هدايتهم
ولا جدوى من سماعهم .

والحق - سبحانه وتعالى - ربٌ يعين عبده على ما يحب ويلبى له
رغبته ، حتى وإن كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبره ، فأعانهم
الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ،
ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أن حذرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ،
حذرناهم أن يستديموا الحزن ، وأن يألّفوه مخافة أن يوافقكم الله على
هواكم في محبة الحزن وعشقه ، فتتوالى عليكم الأحران وتتتابع
المصائب ، إياكم أن تدعوا باب الحزن موارباً ، بل أغلقوه بمسماير
الرضا ، فالحزن إن ظل بك غلن يدع لك حبيباً .

وكذلك نقول : إن شغل عنك شخص فلا تُنكّرهُ بنفسك ، بل أعنه
على مجرك ، وساعده بالأُ تذكرة .

فإذا قلت : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ،
فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم ؟ نقول : لأن عدم العلم
نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة
على وجوده تعالى ، فلم ينظروا في هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة
على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ عن الله ، إذن :
فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أن كذبوا الرسل وأنكروا الآيات ، اتتوقف مسيرة
الدعوة ، لأنهم صمّوا أنانهم عنّها ؟ لقد خلق الله الكون ونثر فيه
الآيات التي قدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات
التي تثبت صدق الرسل في البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع
بهذه الآيات : لأن مُلكه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصيتنا ،
فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن : فالحسم في هذه

المسألة : نَعُكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ يَا مُحَمَّد ، وَاثْبُتْ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

اصبر على كرمهم ، واصبر على لئيمهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك وللمن يؤمن بك ، اصبر على هذا كله : لان العاقبة في صالحك ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ ﴾ [الروم] وقد وعد الله رسله بالنصرة والغلبة ، ووعد الله حق ، فتأكد أن النصر آت .

لكن ما دام النصر آتياً ، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين ؟ ولماذا كل هذه المشقة والعناء في سبيل الدعوة ؟ قالوا : لان الله تعالى يريد أن يُصَحِّصَ أَتْبَاعَ مُحَمَّد ، وأن يُدْرِبَهُمْ عَلَى مسئولية حمل أمانة الدعوة وشعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى أهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .

فلا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الثَّبَاتِ عَلَى الْمَبْدَأِ الَّذِي لَا تَوَعَّزُهُمُ الشَّدَائِدُ ، والدليل على ذلك أنهم يُؤَدِّونَ وَيُضْطَهَدُونَ فَيَصْبِرُونَ ، وهذه أهم صفة فيمن يُعَدُّ لِحَمْلِ الْأَمَانَةِ .

لذلك نقول : إذا رأيتَ منهجاً أو مبدأً يفدق على أصحابه أولاً ، فأعلم أنه مبدأ باطل ؛ لان المبدأ الحق يضحى أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قبل أن يأخذوا منه ، لماذا ؟ لان صاحب المبدأ الباطل لن يجد مَنْ يناصره على باطله إلا إذا أغراههم بالمال أولاً .

واشتري ذممهم ، وإلا فماذا يلجئ إلى مبدأ باطل ، ويحمله على اتباعه ؟ إذن : لابد أن يقبض الثمن أولاً .

أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤَجَّلٌ للآخرة . فهو ممَّنًى بأشياء فوق هذه الدنيا يؤمن بها ويعمل من أجلها ، فتهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله في سبيل هذا المبدأ .

وفي رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تُحَدَّثُ لرسول الله آية أو هزة تهزُّ الناس ، وكان الشدة غريبال يميز هؤلاء وهؤلاء . حتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللراء إلى العالم كله .

فالله يقول لنبيه : اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُزِيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم وبيئوا لك في الخفاء فانتصرت على تبييتهم ، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .

إذن : فاطمئن ، فنحن لهم بالمرصاد ، ولن نُسَلِّمَكَ أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب في الدنيا ، وتراه بعينك ، أو في الآخرة بعد موتك : ﴿ فَأَمَّا نَرِيكَ بِعَضِّ أَلْيَدِهِمْ أَوْ نَتَوَلَّيْكَ ﴾ **فَالْيَا يَرْجُونَ (٧٧)** [غافر]

ومن هذا العقاب الذي نزل بهم في الدنيا ورآه سيدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْلٍ وَأَسْرٍ وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضى الله عنه وما أدراك ما عمر ، فقد كان القرآن ينزل على وفق رايه ، ومع ذلك لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القدر] تعجب وقال : أي جمع هذا الذي سيُهْزَمُ ، ونحن عاجزون حتى عن حماية

أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله ﴿ سَهْزَمُ
الْجَمْعُ رِيْلُونُ الدُّبُرِ ٤٥ ﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ٦٠ ﴾ [الروم] الوعد : هو
البشارة بخير لم يات زمنه الآن ، وفرق بين الوعد بالخير من إنسان ،
والرعد من الله تعالى ، فوعدك قد يتخلف لأنك أين أغيار ، ولا تملك كل
عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير
نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق ... إلخ .

إذن : الأغيار التي تتبلك أو تتناهب أو تنتاب قبيحة ما تؤديه من
الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدت .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أن نحتاط لهذا الأمر . فيقول سبحانه :
﴿ وَلَا تَقْسُورُنَّ إِشْيَءَ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ٢٣ ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿ ٢٤ ﴾ [الكهف]
فاربط فعلك بعزيمة الله التي تُيسر لك الفعل ، ولا ينبغي أن
تجزم بشيء أنت لا تملك شيئاً من أسبابه .

فلما : هب أنك قلت : سألقاك غداً في المكان الفلاني ، وسأعطيك
كذا وكذا ، فأنت قلت هذه المقولة ووعدت هذا الوعد وأنت لا تضمن
أن تعيش لغد ، ولا تضمن أن يعيش صاحبك ، وإن عشتما لغد فقد
يتغير رأيك ، أو يصيبك شيء يعوقك عن الوفاء ، إذن : فقولك إن
شاء الله يحميك أن تُوصف بالكذب في حالة عدم الوفاء : لأنك وعدت
ولم يشأ الله ، فلا دخل لك في الأمر .

فالوعد الحق يأتي ممن ؟ من الذي يملك كل أسباب الوفاء ،
ولا يمنعه عنه مانع .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُوكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٥ ﴾ [الروم] خف
الشيء : لم يعد له ثقل ، واستخف غيره : طلب منه أن يكون خفيفاً ،

فمثلاً حين تقسو على شخص يأتي آخر فيقول لك : خف عنه .
واستخفه مثل استقره يعنى : حركه وذبذبه من ثباته ، فإن كان قاعداً
مثلاً هب واقفاً .

لذلك نقول فى مثل هذه المواقف (خليك ثقيل .. فلان بيستفزك
يعنى : يريد أن يخرجك عن حطك وثباتك .. متيقاض خفيف .. إلخ)
ونقول للولد (نر) يعنى تفأ انهض ، وعنه قوله تعالى ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مِنْ
أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ (٦٤) [الاسراء]
إنن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات
الذى هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أن يستفزك القوم ، أو يُخرجوك عن
ثباتك . فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك فى دعوتك ولا تقلق !
لان الله وعده بالنصرة ووعده الله حق . والحق سبحانه ساعة يُرخي
العنان لمن كفر به إنما يريد أن يُخرج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم
عذر . ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون فى الدنيا ، والباقي
سيرونه فى الآخرة .

والله يقول : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِنَّهُمْ لَهُمُ
الْمَنْصُورُونَ (١٧٧) وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٨) ﴾ [الصافات]

ومن سيرة الإمام على - رضى الله عنه وكرّم الله وجهه - علمنا
أنه ابتلى بجماعتين : الخوارج الذين يكفرونه ، والشيعه الذين يؤلهونه
ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله :

(١) أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس المقيم
٢٥٧/١] .

• ملك فيك اثنان : محبوب غال ، ومبغض قال ^(١) ^(٢) .

ويروى ^(٣) أنه - رضى الله عنه - كان يصلى يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ [الزمر] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن على لما أرادته الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون ﴾ [الروم] بمعنى : لن أخرجني عن ثباتي وحلمي ولن تستقرني .

والعظمة في هذا الموقف أن يرد على لنؤه بالقول الشافى من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولم لا ، وهو على بن أبى طالب الذى أوتى بأعاً طويلاً فى البلاغة والفصاحة والحجة .

ومعنى : ﴿ الذين لا يوقنون ﴾ [الروم] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع ، فيصير عقيدة فى القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .

(١) القلى : البغض . قل ابن سينا : قلته قلى وقلاء : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فشركته . [لسان العرب - مادة : قلى] .

(٢) عن علي بن أبى طالب قال : دعاني رسول الله ﷺ فقال : « إن فيك مثلاً من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالعنزل الذى ليس به ، ألا وإنه يهلك من اثنان : محبوب مفرط يفرطنى بما ليس فى ، ومبغض يحمله شتائي على أن يبهتني ، ألا وإنى لست بنبي ولا يوحى إلي ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت ، أوردته البيهقي فى مجمع الزوائد (١٣٢/٩) وعزله للبزار وأبى يعلى الموصلى .

(٣) أوردته ابن كثير فى تفسيره (١٤٠/٢) من عدة طرق

- من طريق قتادة - رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

- من طريق علي بن ربيعة - رواه ابن جرير .

- من طريق أبى يعلى - رواه ابن أبى حاتم .

سُورَةُ الْقِسْمَانِ

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَمَآنِ

سبوا أن فصلنا القول في الحروف المقطعة في بدايات اسور ،
ودكرت كل ما يمكن أن يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول والله أعلم
بحرانه ، لأننا مهما أوتينا من العلم فلا نصل إلى غاية هذه الحروف ،
وسيتل فيها من المعاني ما نعجز نحن عن الوصول إليه

فإن قلت فما فائدة هذه الحروف لمقطعة إن كانت غير معلومة
العمنى ؟ نقول نحن نتأقشكم بإعقل وبالمناطق ، فالقرآن نزل
بأسلوب عربي وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والملاغة راسخين

(١) سورة لقمان هي السورة رقم (٣١) في ترتيب المصحف الشريف عدد آياتها ٣٤ آية
وهي سورة مكية ترتيب بعد سورة الصافات ، وقبل سورة صفا قال القرطبي في
تفسيره - هي مكية غير آييين قال قتادة أولهما هو وا لقمان في الأرض من شجره ألام
(٢) ﴿ لقمان ﴾ إلى آخر الآيتين وقال ابن عباس ثلاث آيات ، أولهن هذه الآية إلى قوله
بحالني يا الله ير أن الله يؤنج الليل لي النهار ويؤنج النهار لي الليل ﴿ لقمان ﴾

وأصحاب التعبير الجميل والآراء لرائع ، وفرد في قریش التي جمعت في لغتها كل لغات القبائل العربية . وقد خرج منها صناديد كذبوا محمداً وكفروا بدعوته ، قبل سماعها منهم من يقول مثلاً ما معنى (الم) أو (حم)

والله لو كان فيها مطعن ما تركوه . إذن هذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول هي من حروف التيسير التي كان يستخدمها لعرب في كلامهم فهي مثل (ألا) في قول الشاعر^(١) .

ألا هني بصحك فاصبحنا ولا تُنقِ حُصور الأندريا^(٢)

فالأداة للتنبيه ، وثاني أهمية التنبيه في أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقته ويرتبه ويضعه ، ويدير المسائل بنسب ذهنية في ذهنه . لكن السامع قد يكون غافلاً ، مُفصلاً بالكلام دون استبعاد ، فيقوته منه شيء فنأتي حروف التنبيه نُخرج من عقله ، وتستوعب انتباهه ، فلا يفوت من كلامك شيء ، إذن أبسط ما يقال في هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب في كلامهم

وسبق أن بيّنا أن القرآن منبئ كله على الوصل في آياته وسوره ، بل في آخره وأوله بقول (من الجنة والناس بسم الله الرحمن

(١) مو - عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتوب أبو الأسود ، شاعر جاهلي ، ولد في شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة وتجول فيها وفي الشام وبعرق وجد ، هو من الهذلي الشجعان ، أشهر شعره معلقته التي فيها هذا البيت . توفي نحو ٤٠ هـ [الأعلام للزركلي ٨٤/٥]

(٢) الحصن القدح العظيم والأندرياء قرى بالشام ومعنى البيت ألا استعظي من يودك لتها الساقية ويسمي الصبح بحدك العظيم ولا تخرجي صبر هذه القرى [شرح المعاني السبع للروزي ص ١٦٥]

الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك في الايات والسور وكان الله تعالى يريد منك ألا تفصل آية من القرآن عن التي بعدها ، لذلك يقولون عن قارئ القرآن هو الحال المرتحل ، فهو حال في آية أو سورة ، مرتحل إلى التي تليها

إلى الوصل سمة عامة في القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة في بدايات السور ، فهي قائمة على القطع ولا يقول ما ألف لام ميم ، لكن يقول ألف لام ميم ، فلماذا اختلفت هذه لحروف عن السمة العامة للقرآن كله ؟

قلوا لبيدك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، ويست محدد حروف كغيرها من حروف القرآن ، لذلك خالفت نسق القرآن في الوصل ، لأن لها معنى مستقلاً تؤديه

ويفسر هذا قول النبي ﷺ « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »^(١)

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾

تلك اسم إشارة لمؤنث مثل ذلك لمذكر ، وهي عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبعد ، سواء أكان في المكان أو في المكانة وانحزلة ، ثم الكاف للخطاب وتأتي بمسبب المصاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنى أو جمعاً .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ، وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه

فنقول في خطاب امجد المذكر . تلك . وللمقردة المؤنثة تلك
والمثنى تلكما . إنج . ومن ذلك قول امرأة العزيز في شأن يوسف
عليه السلام ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ ۝ (٣٢)﴾ [يوسف] فذا اسم
إشارة ليوسف ، واللام للبعد وكن ضمير لمخاطبة جمع لمؤث

ونقول تعالى في خطاب موسى ﴿فَذَلِكَ بُرْهَانُ مِنْ رَبِّكَ ۖ ۝ (٢٢)﴾
[القصاص] أي اليد والعصا ، فذا اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب
والإشارة هنا ﴿فَذَلِكَ بُرْهَانُ مِنْ رَبِّكَ ۖ ۝ (٢٢)﴾ [القصاص] لمؤث وهي الآيات ،
والمخاطب سيدنا رسول الله ﷺ وأمه تتبع له القرآن الكريم مرة
يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول الكتاب
و الفرقان أو القرآن ولكل منها معنى

فالكتاب دل على أنه يكتب ويحويه السطور ، والقرآن دل على أنه
يقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هي المهمة التي يقوم بها
أن يفرق بين الحق والباطل

وهنا قال ﴿فَذَلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۖ ۝ (٢٠)﴾ [الاسراء] فيوصفه
بالحكمة ، أما في أول البقرة فقال ﴿فَذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى ۖ ۝ (٢)﴾
[البقرة] فلم يوصف بالحكمة إنما نعى عنه أن يكون فيه ريب
أي شل

وكلمه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۖ ۝ (٢)﴾ [البقرة] تؤكد لنا صدق الرسول في
البلاغ عن الله ، وصدق الملك الذي حمله من اللوح المحفوظ إلى
رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِدَّةَ ذِي الْعَرْشِ
مَكِينٍ ۖ ۝ (٢٠)﴾ [التكوير]

وقال عن سيدنا رسول الله في شأن تبليغ القرآن ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ

عليها بعض الأقاويل (٤٤) لأحدا منهُ باليسمين (٤٥) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ ابْنَيْنِ
(٤٦) ﴿٤٦﴾ [الحاقة]

إبْنِ فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُعَيَّر فيه حرف واحد ،
وسيطل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أن تقوم الساعة ، وسنطل
نقرأ ﴿ لا ريب فيه .. ﴾ (٢) ﴿٢﴾ [البقرة]

ويقرؤها من بعدنا إلى قيام الساعة فقد حكم الحق سبحانه بأنه
لا ريب في هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإبْنُ شككوا في
شيء من كتاب ربنا فعلمنا أن نقرأ ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين ﴾ (٢) ﴿٢﴾ [البقرة]

فهذه قضية حكم الله بها ، وهي معتدة وباقية ما بقى الدنيا ، كما سبق أن
قلنا ذلك في قوله تعالى ﴿ سُرِبِهِمْ ثَابِئاً فِي الْأَبَاقِ وَلِي أَنفُسِهِمْ ﴾ . (٥٢) ﴿٥٢﴾
[فصلت] فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل من عاصر نزول القرآن ،
ومستقبل من يأتي بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل من تقوم الساعة عليهم

فالقرآن لم ينزله الله ليُفْرَغ كل أسرارهِ وكل معجزاته في قرن
واحد ، ولا في أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون
عطاء ، الله يريد للقرآن أن يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل
العصور ، وتقف على أسرارهِ ومعجزاته وآياته في الكون

ومعنى ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ (٢) ﴿٢﴾ [القلم] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة
إمّا يُوصَف بالحكمة من يعصم ، فالمعنى الكتاب الحكيم أي
الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله أو الحكيم مُرسله ومعنى
حكيم هو الذي يضع الشيء في موضعه ، ولا يصع الشيء في
موضعه إلا الله ، لأنه هو الذي يعلم صدق الشيء في موضعه

أما نحن فهتدي إلى موضع الشيء ، ثم يتبين لنا خطؤه في

موضعه ، ونصطر إلى تغييره أو تعديله ككثير من المخترعات التي قلنا انها تخدم البشرية قد رأينا مصارها ، واكتويًا بمارها فيما بعد فكل آية ذكرت ناحية من نواحي كمال القرآن وجهة من جهات عظمت ، إذن فهي لقطاب مختلفة لشيء واحد متعدد الملكات في الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات في الآية بعدها

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

هذا يقول سبحانه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) [السان] أما في صدر سورة البقرة فيقول ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) [البقرة] وعرّف بين المعنيين ، فالتقوى تقتضى الإيمان ، ومطلوب الإيمان الاقتراض يعني أن تؤدي ما فرضه الله عليك .

أما مطلوب الإحسان ففوق ذلك ، فالإحسان في الأداء أن تحسن في كَمِّه وأن تحسن في كيفه تحسن في كيفه بأن تستصحب مع العمل الإخلاص بالمعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحسن في كَمِّه بأن تعشق التكليف حتى تؤدي فوق ما فرض عليك ، فدل أن تصلي ركعتين تصلي ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسان في الكم

والتقوى من عجائب النواوين القرآني كم سبق أن قلنا ، فالقرآن يقول (اتقوا الله) ويقول (اتقوا النار) ، والمعنى عند التحقيق واحد : لأن اتق النار يعني جعل بينك وبينها وقاية وحاجزاً بمنحك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً ، لأن المؤمن دائماً يكون في محبة الله

إما اجعل بينك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتق صفات المنكفم الجبار القهار ، الخ ، لأنك لست مطيقاً لهذه

لصفات ، ولا شك أن النار جدي من حد الله ، ومتعلق من متعلقات صفات الجلال إذن فالمعنى واحد

ولبعض يأخذون بالظاهر فيقولون كيف يتقى الله والتقوى أن تبعد شيئاً صاراً عنك ؟ نقول نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى والمتقون هم الذين يحيون أن يتقوا الله بالألأ يكونوا كافرين به . وما نام الإنسان اتقى الكفر فهو مُحسن ومؤمن ، فالقرآن مرة يأتي باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدى كل منهما معنى جديداً

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله عن الإحسان في حديث جبريل قال ، أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ،^(١)

فحين توازن بين صدر سورة البقرة ، وبين هذه الآية ﴿ هُذَى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) [لقمان] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هي لقطات إعجازية كل منها يؤدى معنى ، وإن ظن البعض في النظرة السطحية أنه تكرار ، لكن هو في حقيقة الأمر عطاء جديد بو تأملته

فهنا وصف الكتاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمة والهدى هو الدلالة على الخير بأقصر طريق ، وقد نزل القرآن لهداية قوم قد ضلوا ، قلما هداهم إلى اصواب وأراهم الدور أراد أن يحفظ لهم هذه الهداية وألأ يخرجوا عنها فقال ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ (٣) [لقمان] يعنى من رحمة الله بهم ألأ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى

١) حديث منلق عليه أخرجه البخارى في صحيحه (٥) وكذا مسلم في صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب وهو حديث جبريل الطويل الذى يمثل في صورة رحن « شديد بياض البياض شديد سواد اشعر ، لا يرى عليه أثر السهر ، ولا يعرف مما أحد ، نسال رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان

كما في قوله سبحانه ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء) بالمعنى شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بالآل يمرض أبداً بعد ذلك

ثم يقول الحق سبحانه

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤)

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هي كل صفاتهم ، أنهم بقيام الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالأخرة هم يوقنون ؟ قالوا لا لكن هذه الصفات هي العمدة الأساسية والحق سبحانه يريد من خلقه سواسية في العبودية ، وهذه اسواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع

وفي الصلاة باذات تحلى هذه المساواة ، وبها يظهر عز الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عز وجل ، ثم هي تتكرر خمس مرات في اليوم والليلة

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالركاة مثلاً تجب مرة واحدة في العام ﴿رَأَتُوهُ حَقًّا يَوْمَ وُعْدِهِ﴾ (١٤) [الأنعام] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هي عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة لعبده ولا تسقط عنه بحال أبداً ، لذلك شرعت صلاة المريض والمسافر والحائض الح

وفي الصلاة استنطاق للعبودية في الخلق جميعاً ، حيث ندخل

أقدارنا حين تحلج نعالنا على باب المسجد . هي الصف الواحد ،
الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع والوصيع . نقصد
الوضيع في نظر الناس ، وربما لا يكون وصيعة عند ربه - فجميع
هنا سوء ، ثم حين يرى الكفار والوفساء والسادة معنا في الصفوف
خاضعين لله أدلاء ترون بيننا الفوارق ويدك في نفوسهم الكبرياء ،
فلا يتعالى أحد في مجتمع المسلمين على أحد

ولمتزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التي
فرصها الله علينا بالمباشرة ، أما باقي الكاليف فقد مُرضت بواسطة
الوحي . وسبق أن ضربت مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر
هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعي الموظف
المختص إلى مكتبه ، ويلقى إليه الأمر مباشرة

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، واحد حظاً بالقرب
من الله تعالى والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمة وحرصه عليهم
وعلى أن يبالوا هم أيضاً هذا القرب من حصرت تعالى ، فأجابه ربه ،
وجعل الصلاة حضوراً للعبد في حصرتة تعالى . وقرناً كقرب رسول
الله في رحلة المعراج

لذلك خاطبه ربه بقوله ﴿رَسُوفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٥٠) . [القصي]
فقال سيدنا رسول الله « إنن ، لا أرضى وواحد من أمتي في
لنار »^(١)

وكما تحدث الصلاة استطرارق عبودية تحدث الركاة في المجتمع

١) أخرج المطيب في ، تلخيص المتشابه . عن ابن عباس رضي الله عنهم قال لا يرضى
محمد ، وواحد من أمة في النار . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً
به قال . رماء إن تحمل أمة الجنة كلهم

استحراقاً اقتصادياً ، فيعيش الحميم الغنى والفقر عيشة كريهة مُيسرة ، فلا يشنع واحد حتى النحمة ، والآخر يموت جوعاً . وما نالك بمجتمع لا يتعاضد فيه الكبير على الصغير ولا يدخل فيه الغنى على الفقير ؟ إن في الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله

وقد فرض الله الزكاة للمقراء ، لأن الله سبحانه حين يستدعى عبده إلى كونه لا بُدَّ أن يضمن له مقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوت شخصاً إلى بيتك لا بُدَّ أن تكرمته ، وأن تُعد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والصفوة ورقامية المأكل والمشرب . الخ

فإنه سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمبهم وكافهم ، وعليه سبحانه أن يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير العادر قوته ، بذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهي صلاتٌ والأولى صلاة

وبهذه المسألة قصة في الأدب العربي ، فيروى أن ابن المدبر وكنيته أبو الحسن . كان الشعراء يقصدونه لليل من عطاياه ، يقولون إن الله تفتح اللهأى أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أن يأخذوه إلى المسجد ولا يتركوه حتى يصلى لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوا الذهاب إليه إلا أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام البشري ، ذهب إليه وقال عندى شعر أحب أن أنشده لك .

(١) الله أفضل العطايا وأجرها ويقال به إعطاء الله إما كان جواداً يعطي الشيء الكثير والأهات بحمة حمراء من الحنك من أقصى سقوف الفم [لسان العرب - حاشه لها]

فقال أتدرى ما الشرط ؟ قال نعم ، قال قل ما عندك ، فقال

أردنا من نبي حسن مديحا كما بالمدح تنتج الولاة

يعنى يذهب الشعراء إليهم لينالوا من حيراتهم

فقلنا أكرم الثقلين طورا ومن كفيه جلة والفرات

وقالوا يقبل المدحاة لكر جوارزة عيهر الصلاة

فقلت بهم وما تغنى صلاتي عيالى بما لشار الركاه

فيأمر لي بكسر الصناد منها فتصبح لي الصلات هي الصلاة

فلما تجرأ عليه أحدهم وسال لمايا تعاقب من لم يعجبك شعره

بصلاة مائة ركعة ؟ فقال لانه إما مسىء وإما محسن ، فإن كان

مسيئا فهي كفره لإساءته في شعره ، وإن كان محسنا فهي كجارة

لكذب هي .

ثم يقول سبحانه في وصفهم ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُرْقَنُونَ ﴾ (٤)

[القمار] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضى أن يعمل بمهجة الله في (اعمل

كنا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله

وإن بهرب من عقابه في الآخرة ، وأما محاسنور على أعمالنا ، فلم

نخلق عبثا ، وإن نترك سدى ، كما قال سبحانه ﴿ الْحَسْبُ لَنَا

خَلْقُكُمْ عِثًّا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١٠٠)

[المؤسسون]

ونلاحظ هنا في الأسلوب تكرار صمير الغيبة (هم) فقال ﴿ وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ يُرْقَنُونَ ﴾ (٤) [القمار] وهذا يدلنا على أن الإيمان بالآخرة أمر

مؤكد لا شك فيه . ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم

محاسنون ، وأن الله لم يكلفهم عبثا مع هذا يؤكد الحق سبحانه

على أمر الآخرة ، لأنها مسألة بعيدة في نظر الناس ، وربما غفلوا

عنها لبُعدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذي يرويه

أمامهم كل يوم ولكن عادة الإنسان أن يستبعد في حق نفسه
لذلك يقول الحسن البصري ^(١) ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من
يقين الناس بالموت

أما انكفار فيكفرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به ، لذلك أكد الله عليه
ولما سأل النبي ﷺ حذيفة ^(٢) رضى الله عنه « كيف أصبحت
يا حذيفة » قال أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال « لكل حق حقيقة فما
حقيقة إيمانك » قال عرفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي دهيها
ومدرها ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعمون ، وإلى أهل
النار في النار يُعذَّبون » فقال ﷺ « عرفت فالرم »

وقوله ﴿يُؤْمِرُونَ﴾ [الجمار] من الدقيق ، وهو الإيمان الراسخ
الذي لا يتزعزع ، ولا يملأ عليه شك فيطفو إلى العقل ليناقش من
جديد وسحق أن قلنا إن المطومة تتدرج على ثلاث مراحل علم
ايقين ، وعين اليقين وحق اليقين

علم اليقين إذا أحبرك به من تثق به ، فإذا رأيت ما أحبرك به

(١) هو الحسن بن أبي الحسن أمير سبيد السمرى - مثلاً بالمدينة - وحفظ كتاب الله في
خلافة عثمان وسمعه يحطب مرات كان عالماً رفيقاً ثقة حجة مأموناً عادداً بصيكا كثير
العلم فصيحاً جميلاً رسيماً مات سنة عشر ومائة ، وله ثمان وثمانون سنة [تذكرة
الحفاظ للمعيني ٧١ ، ٦]

(٢) ما ورد كان في حق الحارث بن مالك الانصاري أورده الهيثمي في مجمع الرواة
(٥٧/١) رهراء للطبراني في المعجم الكبير (٣ ٢/٢) وقال الهيثمي « فيه ابن لهيعة »
وكذا أورده عن أس بن مالك أن النبي ﷺ له وحلاً يقال له حارثة في بعض سكك
المدينة فقال كيف صممت يا حارثة ؟ الحديث وعرواه طبرار وفيه يوسف بن عطية
لا يحتج به

(٣) المعبر قطع الطريق اليابس وهو الطريق المعبسك [نصاب العرب - مادة معبر]

فهو عين اليقين ، فإذا باشرت ذلك بنفسك فهو حق اليقين

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك إن البيت الحرام في مكة وصفته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه توسعات كذا وكذا هذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين فإذا رأيت الحرم فهي عين يقين ، فإن يسر الله لك الحج أو العمرة فداشركه بنفسك ، فهو حق اليقين

ولحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب في سورتين ﴿الْهَاجِمُ﴾
النَّكَارُ (١) حَتَّى رُتِمَ الْعَمَامُ (٢) كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ (٤)
كَلَّا بَلْ نَعْمُونَ عِلْمُ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَسَأَلَنَّا يَوْمَهُدٍ عَنِ النَّجْمِ (٨) ﴿النَّكَارُ﴾

وبلث حين يمرود على انصراف ويرون النار بأعينهم رأى العين

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرِيحٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

لكن ، هل القرآن نزل هدى للمعتقين ، وهدى للمحسبين فحسب ؟ قلنا إن الهدية تأتي بمعنيين هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دل الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (٧)﴾ [قصص]

فالحق سبحانه دل الجميع لأبهم عباده ، فمنهم من قبل الدلالة واقتنع بها فأمن ، ومنهم من رفضها فكفر ، أما الذي قبل دلالة الله وأمر به فيريده الله هداية أخرى ، هي المعونة على الإيمان يُسْحِبُهُ

إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليه ، كما قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا
زَادُمْ هُدًى وَأَنَا هُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١٧)

[محمد]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول ﴿أُولَئِكَ
عَلَى هُدًى﴾ (٥) [لنما] والمتكلم هو الله - عز وجل - فلا بُدَّ أَنْ نتأمل
المعنى ، ربما عز وجل يريد أَنْ يقول لنا نعم القرآن هدى ، لكن إياك
أَنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعه بشيء ، إنما المتمتع بالهداية
أنت ، فحين تكون على لهدى يدك ويسير بك إلى الخير ، فالهدى
كأنه مطية يُوصِّلُكَ إلى الخير والصلاح ، فأنت مُسْتَعِلٌ على الهدى أَنْ
قبلته ، وإنْ كان هو مُسْتَعْلِيًا عليك تشريعاً

ثم هو هدى مَنْ ؟ ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (٥) [لنما] ممن لا يستدرك
عليه ، فإنْ دَلَّكَ بِحَقِّ ، وَهَبْ أَنْ البشر اهتدوا إلى شيء فيه
خير ، لكن بعد فترة يعارضونهم أنفسهم هذا الطريق ، ويكتشفون
له مضاراً ومثالب ، ويستدركون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ،
وكم هي القواصين البشرية التي ألغيت أو عدلت ؟

إنَّ الهداية والدلالة الحق لا تكون إلا لله ، والقانون الذى ينبغي
أَنْ يحكمنا ونطعمنا إياه لا يكون إلا لله ، لماذا ؟ لأن البشر ربما
ينتفصرون من قوانينهم وقد تتحكم فيهم الأهواء أو يميلون لشخص

على حساب الآخر ، أم الحق سبحانه وتعالى فهو وحده سبحانه
الذي لا ينتفع بشيء مما شرع لعباده ، ولا يحاسب أحداً على حساب
أحد ، والعبد كلهم عباده وعنده سواء

لذلك يطمئننا الحق سبحانه على تشريعه وعدالته سبحانه ، فيقول
﴿ مَا تَعْدُ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [البقره] يعني اطمئنوا ، فربكم ليس له
صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يظلم الناس فيحاسبه ، فأنتم جميعاً عنده
سواسية

ثم هناك فَرَقٌ بين هُدى من الله ، وهُدى من الرب ، فالرب هو
الذي ربَّك هو لدى أوجدك من عدم ، وأمدك من عُدَم وأعطاك قبل
أن تعرف السؤال ، وتركك تربع في كونه وتتمتع بنعمه

لذلك يُعلمك ربك ، إياك أن تسألني عن رزق غد ، لأنني رزقُك
قبل أن تعرف أن نسأل ، ثم لم أطايع بحسادة عد ، إِنْ لِيَكُنَّ الْعَبْدُ
مؤدباً مع ربه عزوجل

وهكذا نتبين أن الربوبية عطاء ، أما الألوهية فتكليف

ثم محبر الحق سبحانه عنهم بحبر آخر ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
[القصص] فالعلاج نتيجة الهدى الذي ساروا عليه واتبعوه ، كما
قال تعالى ﴿ قَدْ أَفْحَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام]

العلاج أصله من صلاحة الأرض بالحرث والبذر والسقي . الخ ،
فاستعارها أسلوب القرآن للعمل الصالح ، ووجه التشبه بين الأمرين
واضح فالعلاج يلقي الحبة فيضاعفها له ربه سبعمئة حبة ، كذلك
العمل الصالح يُضَاعَفُ لحسابه ، فالحسنة عند الله بعشر أمثالها إلى
سبعمئة ضعف ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقره]

واقراء في كتاب الله هذا المثل ﴿مِثْلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَمْعَ سَابِلٍ فِي كُلِّ مَسْلَةٍ فَإِنَّهُ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٠٦)﴾ [البقرة]

وتأمل الاستدلال هنا ، كانت الأرض وهي مخرقة لله تعطى
كل هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها ؟ إنهم لاشك
مفحورون أي فانثرون بالثمره الصيبة لتي تفوق ما بذلوه من مشقة ،
كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أصعاف ما وُضع فيها
ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوًا الْحَدِيثَ
فِيُصِلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَغْيِرْ عِلْمَهُ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة
لنبي أنبيه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من
لناس يتمتعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجت سوقه ولما
انتشر بين الناس أضراراً والواناً
لذلك يرى للصلوات فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر

(١) سبب دخول الآيات قال الكلبي ومقاتل : دخلت في النظر بين الحادث ، وذلك أنه كان يخرج
تاجراً إلى عارس فيسرى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريباً ويقول لهم : إن محمداً
عليه الصلاة والسلام يحدثكم حديثاً عاد وشوب : وأنا أحدثكم بحديث وعستم
واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستمعون حديثه ويدركون استماع القرآن ، فدخلت منه هذه
الآيات

وقال مجاهد : دخلت في شراء العيان والمضارب [أسباب دخول سواجدي ص ١٩٧]

١١٥٨١

لنظل مكاسيهم ، ونظل بهم سيادتهم على العلق وعبوديتهم لهم واستنراب خيراتهم .

وطيحي إن وجد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف في وجهه ، لا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونه ويشككون في نويهم بل ويوجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدي مرة أخرى

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله ﷺ في شعب أبي طالب ، ثم يكرهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن حياتهم تقوم على هذا لصلال فلا بد أن يحافظوا عليه

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الدين يحاربون الحق ويقفون في وجه الدعوة إلى الإيمان يعرقون تصامماً أنهم لو تركوا الناس سمعون مبهج الله وداعى الخير لا بد أن يميؤا إليه ، لذلك يحولون بين أذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا لناس ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه .. ﴾ (٢١) [ممت]

وما ذلك إلا لأنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمانيته للقلوب بخلو بيانه ، فلو سمعته الأذن العربية لأد وأن تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهي إلى الإيمان

فإن ما أفلت منهم أحد ، وانصرف لى سماع الحق أنوة بصوارب أخرى وصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل

وقوله سبحانه ﴿ ومن الناس ﴾ [٢١] [لقان] من هنا للتبعيض أى الناس المستقيدون من الضلال ، والذين يسوؤهم أن ياتم الناس

جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ، وهدى واحد ، لأن هذه الوحدة تقضى على تميزهم وجبروتهم وظلمهم في الأرض ، لذلك يبذلون مصارى جهدهم في الضلال ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله . ﴾ (١٦) [النمل]

قوله تعالى ﴿ يشتري ﴾ (١٦) [النمل] من الشراء الذى يقابله البيع ، والشراء أن تدفع ثمناً وتأخذ فى مفاطه سُتْمَاناً ، وهذا بعدما وجد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفى هذه الحالة فكل سلعة صناعة وكل سلعة مستحقة وكل منهما بائع ومُشْتَرٍ

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ (٢٠) [يوسف]

والمعنى شروه أى باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله . ﴾ (٢٧) [البقرة]

أى يبيعها ، إذن الفعل (شَرَى) يأتى بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنه يدل على الشراء الذى يُدْفَعُ له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم حاشعين له لا ينشرون بآيات الله ثمناً قليلاً . ﴾ (١١٩) [آل عمران]

وقوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (١١١) [التوبة]

وعدة تدخّر الباء على المتروك تقوى اشتريت كذا بكنا

وحين نتأمل قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْرَ الْحَدِيثِ﴾ (٦) [لعمار] نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب الشيء المشتري ، ثم إلى ثمن يدعم فيه ، وببيت الشراء لشيء مفيد إنما ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ (٧) [لقمان] وهذه سلعة خسيصة .

إس هؤلاء الذين يريدون أن يصدوا عن سبيل الله تحمّلوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصفوا بالضحية لأنهم رضوا بسلعة خسيصة ، والأدهى من ذلك والأمر منه أن يضعوا هذا في مقابل الحق الذي جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وشكرهما ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُرْدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (٧٣) [الحورى]

فأى حق هذا الذى يوصفون به ؟

وكلمة النهو ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب فى عدة آيات ، قدّمت اللعب على اللهو فى قوله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلْآخِرَةِ حِجْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٧) [الأنعام]

ومضى قوله تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (٢٨) [الحديد] وقدّمت اللهو فى قوله تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌ وَلَعِبٌ﴾ (٢٩) [المنكوت]

قدّمت الآيات اللعب فى آيتين ، لأن اللعب أن نضع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب لأطفال ، يعنى حركة لا هدف بها ونقول عنها (لعب عيال) وسُمّيت لعباً ، لأن اطفال يلعب قبل أن يُكَلَّفَ شيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات

لكن إذا تنقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء
مطلوب منه ، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذَا
رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَبْغَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِلًا ۖ﴾ [التوبة]

إس فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن
مطلوب منك

هآية سورة العنكبوت التي قدمت اللهو على اللعب تعنى أن أمور
الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وإن للفساد قد علم واستشرى
الاشتغال بغير المطلوب عن المطلوب ، وهذه أبلغ في المعنى من تقديم
اللعب ، لأن اللعب لم يكنه عن شيء

لكن ، ما اللهو الذي اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن
دعوة الإسلام ؟ إنهم لما سمعوا القرآن سمعوا فيه قصصاً عن عاد
وثمود ، وعن مدين وفرعون الح ، فارادوا أن يشغلوا الناس بمثل
هذه القصص

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس
وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن دستم وعن الأكاسرة وعن ملوك
حمير ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصها
عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول الله

وآخر يقول يل جاء أحدهم بمعنى تغنيهم أعالي حاجنة متكسرة

ومعنى ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ [اليمان] قال العلماء هو كل ما يلهى
عن مطلوب الله ، وإن لم يكن في ذاته في غير مطلوب الله لهواً ،
وعليه فالعمل الذي يلهى صاحبه من صباغة أو زراعة الخ يعد من
اللهو إن شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى

ومن التصرفات ما يعد لهواً ، وإن لم يشغلك عن شيء كالغناء

والعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أن صاحبته الموسيقى والآلات
الطرب والحركات الحليعة المأجحة ، وبغتهاذ القداسي رأيهم في هذا
الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والدين يريدون أن يُجيزوا هذه
المسألة يأخذون من كلام القدماء زوياً وبُطْقودها عسى غير كلامهم

نعم ، ادح علماؤنا الأُس بالغدء في الأفراح وفي الأعياد اعماماً
عسى قول النبي ﷺ لاسى ذكر الصديق الذي رأى جاريسين بعيان في
بيت رسول الله فبهرهما ، وقال أمزمار الشيطان في بيت رسول
الله ، فقال ﷺ « دعهم ، فإنما في يوم عيد »^(١)

وكذلك أباحوا الأناشيد التي تقال لتلهب حماس الجنود في الحرب ،
أو لتي يتشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب
العمل ، أو المرأة التي تهجد ولدها لينام

ومن ذلك حدة^(٢) الإبل لتسرع في سيرها ، وقد قال ابن عباس
لأنجشة^(٣) « رفقاً بالقوارير »^(٤) فشبه النساء في لطمهن ورقتهن

(١) حديث منقول عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٧) . وكذا مسلم في صحيحه (٨٩٢)
كتاب العيدين من حديث عائشة رضي الله عنها ، وفي لفظ مسلم أنها كانتا « تغلمان بما
تقارن به الأنصار يوم معك » أي « كان غناء من الشجاعة والقتل والحدق في القتال
ويوم ذلك مع لا مفسدة فيه » قاله النووي في شرح مسلم . وكذلك في لفظه « وليست
بمبدية » قال النووي « أي ليستا ممن يتقن بعدة المصريات » و الشريفة والنوري
والتعريض بالعواش والنشيب مائل الجمال وما يحزن القوس »

(٢) الحدو سوق الإبل وإيقادها ، أي من أكثر الأشياء على سوقها وبغتها [بمعنى
المرح - مادة حدا]

(٣) قال البلازي كان أنجشة حبشياً يكنى أبا مارية . وقد كان حمر الصوت بالحداء
[الإحليل في تغيير لصحابة ٦٨/١] ترجمة (٢٥٩)

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٢٢) من حديث ابن
ابن مالك قال كان أم سليم مع نساء النبي ﷺ ، وهي يسوق بهن سواك فقال النبي
الله ﷺ « أي انصته رويداً سركك بالقوارير »

بالقوارير ، فإذا ما أسرعتُ بهن الإبل هُرَّتْ بهن لهودج ، وهذا يشقُّ على النساء

يذن لا ماصع من كل نصٍّ له عرض منبيل ، أما إن أهاج العرائز فهو حرام والكلام هنا عن مجرد النص لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة العرائز في البشر بذلك مسميها غريزة ، لأن لها عملاً وتفاعلاً في نفسك بسون أي مؤثرات خارجية ولها طاقة لا بُدَّ أن تتحرك ، فإن أثرتها أنت ثارت ونزعت إلى ما لا تُحمد عقباة

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشعور ثلاث يدرك بحواسه ، ثم وجدان يتكوّن في النفس نتيجة للإدراك ، ثم لنزوع والعمل الذي يترحم هذا الوجدان

ومن رحمة الله بنا أن الشرع لا يتدخل في هذه المسألة إلا في مرحلة النزوع ، فيقول لك قف لا تمدّ يدك إلى ما ليس بك ، ومثّلنا لهذه المسألة بالوردة تراها في البستان ويُعجب منظرها ، وتحب رائحتها فتعشقها وهذا لك ، فإن مددت يدك لتقطّعها بقولك الشارع قف ليس من حقك

إذن ماالشارع الحكيم لا يتدخل في مرحلة الإدراك ، ولا في المواجهات إلا في مسألة واحدة لا يمكن الفصل فيها بين الإدراك والوجدان والنزوع لأنها جميعاً شيء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التي لا تحر له لهذا هذه المسألة بالذات °

قالوا لأنها لا تقف عند حد الإعجاب بالمنظر إنما يورثك هذا الإعجاب انفعالا خاصا في نفسك ، ويورثك تشكلا خاصا لا يهدأ ، إلا بأن تترع ، مرحمة بك يا عدي أنا سأندخل في هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعك من مجرد الإدراك ، لأنك إن أبركت وجدت ، وإن

وجدت نزعتي إلى ما تجد فأنتمت في أعراض الناس أو كبت في نفسك ، فأصبرت بها ، وربك يريد أن يُتركك من الإثم ومن الإضرار بنفسك ، فالأسلم لكم أن تغضوا أنصاركم

إِنَّ لا تَقُلُ الغناء لكن قُلُ النصر نفسه إِنَّ حَثَّ عَلَى ضَيْلَةٍ فهو حلال وَإِنْ أَهَاجَ العرائر فهو حرام وباطل ، كالذي يُشَيَّبُ بالمراه ويدكر مفاتنها ، فهذا حرم حتى في غير الغناء ، فهذا ما أصفيت إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمة وتضاعف إثمها

أما ما تراه الآن وما سمعه مما يُسمونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وحلاعات وموسيقى صاحبة ، فلا شك في حرمة .

فكل ما يُخرج الإنسان عن وقاره ووزانته وكل ما يجرح المشاعر المهدية فهو حرام ، ثم إن لغناء صوت فإن حرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهَيَّج ، تسعمل فيه الأمدى والأرحل والرعيان والوسط ، ألج فيها كله باطل ومحرم

ولا ينبغي للمؤمن الذي يملك رمام نفسه أن يقول إنهم يعرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدي بها ، ويميز بين العث والسمين ، والحق والباطل فكن أنت حكماً على ما ترى وما تسمع بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك ، ويبدت أنت الزمام إن شئت سمعت وإن شئت أعلقت الجهار فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أن يحيرك على سماع أو رؤية ما تكره

ففي رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة بصوم يومه ، ويقوم ليله ، ويبغى أن نكرم ، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان للنهوى يتناقى والصيام ، فإن سألهم قالوا الناس مختلفو الأمزجة راحسا أن توفر لهم أمزجتهم ، لكن للمؤمن

ولاية على نفسه وهو يملك رمامها ، فلا داعي أن تتهم أحداً ما دام الأمر في يدك ، وعليك أن تحفظ الولاية التي ولاك الله ، فإن فعلت فهي يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية

ثم إن ما يحلّ من العناء مشروط بوقت لا يكون ممة عامة ولا عادة ملحة على الإنسان يجعلها دينه ، لذلك يقول النبي ﷺ « رُوحُوا القلوب ساعة بعد ساعة »^(١)

ومؤلاء المعنوي والمغنيات الذين يُدخون في اغتاء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يثيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ويلهبون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة . اح

إذن القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم العناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير لغرائز ، ويُخرجك عن سَمَتِ الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا حق ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخل له بالقناء

بكن ، لماذا يكفون أنفسهم ويشترون لهُو الحديث ؟

لعلة كما قال الحق سبحانه ﴿ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [نصار] وفرق بين من يشتري الدهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر صلاله على نفسه وبين من يقصد أن يصير ويضلل غيره ، لذلك فعليه تنعة اصلاًتين صلاله في نفسه وإضلاله لغيره

وقوله ﴿ لهُرُ الْحَدِيثِ ﴾ [نصار] لا يقتصر على لعناء

(١) أورده العجلوني في كشف الحفاء (١ ٥٢٤) وعراه النجاشي وأبو نعيم والقصاصي عن أسد زعمه وقال وشهد به ما في مسلم وغيره من قوله ﷺ « يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥٠) عن حنظلة الأسدي

والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب

وقوله تعالى ﴿بَغِيرَ عِلْمٍ﴾ [الفجر] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة في البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذي يشتري سلعة ، بحيث يكون بيعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال ؛ لذلك يقول الحق عنهم ﴿فَمَا رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ﴾ [السورة] والسبيل هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق وهو الصراط المستقيم الذي قال الله تعالى عنه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة] لذلك نقول في علم الهندسة المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين

وقوله ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [الفجر] أي السبيل ؛ لأن السبيل تُدَكَّرُ وتؤنث ، تُدَكَّرُ باعتبار العريق ، كقوله تعالى ﴿وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف] وتؤنث على اعتبار الشريعة ، كقوله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، ثم يسحرون من أهل الصلاح ، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والدهج القويم ، ويُسَفِّهون رأيهم وأفعالهم

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الفجر] أولئك أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الفجر] ووصف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذي يضرب وده ليُعلمه ويُرَبِّيه ، فهو يصربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه إنما لكي لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى على حد قول اشاعر

فَقَسَا لِيْزُحْرُوْا وَمَنْ يَّكُ حَازِمًا وَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلٰى مَنْ يَّرْحَمُ

إِنَّ فَمَنْ الْعَذَابُ مَا هُوَ تَذْكِيرٌ وَتَطْهِيرٌ أَوْ تَرْضِيَّةٌ وَتَكْرِيمٌ
لِمُسْتَقْبَلٍ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ عَذَابًا تَجَاوِزًا ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا يُعَدُّ
عَذَابًا

وفى هذا المعنى قال الزمخشري^(١) رضى الله عنه الملك يكون عنده لحام ، فيفعل ما لا يرضى سيده ، فأمير صاحب الشرطة أن يأخذه ويعتبه حزاء ما فعل ، فيأخذه لشرطى ويُعْتَمُه بقدر لا يتعداه . لأنه يعلم أنه سيعود مرة أخرى إلى خدمة السيد ، فالعذاب فى هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الحام ليس مهيباً له لكن إن قال به حذ هذا الحام وقصه عن الخدمة أو افصله ، يعنى ليست له عردة فلا شك أن العذاب سيكون مهيباً وأليماً

فالعذاب إن سُمِّيَ عذاباً يكون إكراماً لمن تحب وتريد أن
تظهره . أما العذاب المهين فهو لمن لا أمل في عودته ، والإهانة
تقتضي الأبدية والخلود

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَىٰ عِشْرَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾

كَانَ فِي آدِيهِ وَقَرَأْتُمْهُ بِعَذَابِ الْإِيمِ ﴿٧﴾

(١) هو جار الله أبو القاسم محبوب بن عمر الرمخشري (توفي عام ٥٣٨ هـ) صاحب
« الكشف عن حقائق عوامص التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل » وهو من تلاميذ
المعزة الذين قلوا بالمعزلة بين المرئيين في حق العصاة والمبشرين باعتبروهم لا مؤمنين
ولا كافرين وقالوا بأنه يسب على الله إدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار وقالوا
بعدم سمات الله وكلها تصديا خلقوا فيها أمم السنة

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَتُنْكِرُهَا .. (١٦) ﴾ [نصار] بعد قوله ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُصَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (١٧) ﴾ [نصار] يدلُّ على حرص النبي ﷺ على تليغ أمر دعوته حتى من يعلم عنه أنه صلُّ عن نفسه ، بل ويريد أن يضل غيره

ومعنى ﴿ وَلِي (١٦) ﴾ [نصار] بمعنى أعرض وأعطانا (عرض أكثافه) كما بقول ، وتولى وهو مستكبر ﴿ وَلِي مُسْتَكْبِرًا (١٧) ﴾ [نصار] أي تكبر على ما يدعى إليه . نت دعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً في ذلك لما لجأت إلى باطل لتشتريه [إن فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل ؟

ولماذا تتكبر وليس عندك مقومات الكبر ؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول شيء إن كان عندك مثله فكيف وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه ؟

بذن فاستكبارك في غير محله ، والمستكبر دائماً [إنسان في غفلة عن الله ، لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس - وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس - لكنه غفل عن الله ، ولو استنصر حلال ربه وكبرياءه سبحانه لاسحى أن يتكبر ، فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال اتقى لا تبغى ، لا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه

لذلك نسمع في الأمثال العامة (إلى ملوش كبير يشتري له كبير) فإن كان لي كبير خافى الناس واحتمرت به ، كذلك المؤمن يحتمى بكبرياء ربه ، لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه

إذن فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿كَأَنَّ فِي أُنْفِهِ وَقْرًا﴾ (٧) ﴿[لقمار] أي ثقل وصمم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧) [لقمار] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا في الحير ، فهي الإخبار بأمر سار لم يأت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أن تظهر النتيجة

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكم بهم والسخرية منهم ، كما تنهكم من التلميد المسهم منقول له أبشرك رسيت هذا العام واستخدام لبشرى في العذاب كأنك تنقله فجأة من الابساط إلى الانقاص ، وفي هذا إيلاء للنفس قبل أن تُقاسى ألم العذاب ، فالتلميد الذي نقول له أبشرك يستشعر الخير بالبشرى ، ويطن أنه مح مح لكن يُفجأ بالحقيقة التي تؤلمه

والشاعر يُصرّر لنا هذه الصدمة الشعرية بقوله

كما أبرقت يوماً عطاشاً عمامة فلما رَوْها أقشعت وتجلت^(١)

ويقول آخر

فاصبحت من ليلي العداة كقبيض على الماء خائنه فُروج الأصابع
لذلك يقولون ليس أشد على العيس من الابتداء امطمع ياني
بعده لانتهاه الموشس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجيين الذي بلغ به
العطش منهاه ، ورحا السحان ، إلى أن جاء له نكوب من الماء ،
ففروح واستشعر ، وظن أن سجنه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب
إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض

(١) انقشع الغيم وانقشع وتفتح الربح أي كَشَفَتْه فَانْقَشَعَ وتفتح السحاب أي بصدع
واقبح [بسنن العرب - مادة قسح] واليبس لكثير عرة في ديوانه (ص ١٧) وعراء
له شهاب الدين محمود الحلبي في : حسن التوسس ، (ص ١٢١)

ولا شك أن هذا ألم وأشدُّ على نفس اسجين ، ولو رقص السحر
أن يأتي له بالماء من البنية ككأ أحفأ ألماً وهذا الفعل يسمونه
، بأس بعد إصماع ، فقد ابتدا معه بداية مُطمعة ، وانتهى به إلى بهايه
موتسة نعود بالله من القبض بعد السط

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتوكل
والاستكثار ﴿بشرة بعداب أليم (٧)﴾ [لقمان] فعذابهم مرة (مهين)
ومرة (أليم)

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات في مقابل الدين يشترون
لهو الحديث ليصلوا عن سبيل الله ، وهذه سمة من سمات الأسلوب
القرآني ، لأن ذكر الشراء مع مقابله يوضح المعنى ويعطيه حسناً
كما في قوله تعالى

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَهِيَ نَعِيمٌ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَهِيَ جَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الانطار]

فالجمع بين المتعاطلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأن يجد
أعداءه من الكفار الذين غاظوه وضطهدوه وعدُّوه يجدهم في النار .

ولنا إن الحق - سبحانه وتعالى - حينما يتكلم عن الإيمان
يردده بالعمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٨﴾﴾ [لقمان]
لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتصدق بها ، لكن ما قيمة هذا
الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه ؟

وكذلك في سورة العصر ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَىٰ حُسْرًا (٢) إِلَّا الْيَاسِينَ﴾ [العصر] ففائدة الإيمان بالعمل بمقتضاه ، وإلا لما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع ، لذلك إن اكتفيت بالإيمان بكلمة يقال دور عمل ، فقد جعلت الإيمان حجة عليك لا حجة لك

ومعنى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٨)﴾ [لقمان] أي الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشيء الصالح عليه أن يزيد من صلاحه ، وإن لم تقدر فلا أقص من أن تدع الصالح على صلاحه فلا تفسده

ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨)﴾ [لقمان] فهي جنات لا جنة واحدة ، ثم هي حدت النعيم المقيم الذي لا تقوته ولا يفوتك ثم يقول لحق سبحانه

﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١﴾

حين يتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذي ضل وأصر ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى في تناول عذابهم ، ألا يرى أن الله تعالى قال في عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود للنعيم الحيات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة لجمع ، ثم أخبر عنها أنها ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا (٩)﴾ [لقمان]

والوعد بسبحدم دائماً لعنة بخير يأتيك ، وقلنا إن العبد بعد ،
وقد لا يفي بوعده ، لأنه لا يملك كل مقومات الوفاء ، أما الوعد إن
كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا
يمتنعه أحد عن تحقيق ما راد ، لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل
الذي أراد أن يذم آخر فقال له الدليل على أن الله ليس له شريك أنه
خالقك ، ولو كان له شريك لقال له لا داعي لأن تخلق هذا

لذلك يعلمنا الحق - سبحانه وتعالى - أن نردف وعْدنا بقولنا إن
شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نَتَّهم مالكذب إذا
لم نَف ، وعندهما لي أن نقول أرئت ولكن الله لم يُرد ، فبطلت
المسألة في ساحة ربك عز وجل

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلمتني بشيء
فلم أقصه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأت وقته بعد ، وعم أن
الأمر لا يُقضى في الأرض حتى يُقضى في السماء ، فلا تعصب ولا
تتحامل على الناس ، فالأمر ليس بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله

بذلك حين تتوسط لأخيك في قضاء مصلحة وتُقضى على يديك
المؤمن الحق الذي يؤمن بقدر الله يتدب مع الله فيقول قَضَيْتَ مَعِيَ
لا بى ، يعنى شاء الله أن يقضيها فأكرمى أن أتكلم فيها وقت
مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن جاء الشفاء عسى لا بى

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدد
العاص نُقضى ونُعد ، وحين ترى الحامل والمعاق يُقرب ويعلى أرفع
المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحقرمه لذاته فاحترم قدر الله فيه

فامسائل لا محرى في كَوْن الله بحركه (ميكانيكية) ، إنما بقدر
الله الذى يرفع من يشاء ويضع من يشاء وله سبحانه الحكمة البالغة

في هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة إن الله تعالى خلق
القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسَيِّرُونَهَا

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا بدليل قوله تعالى ﴿يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِبْثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (١٩) أَوْ يَرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِبْثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا (٢٠)﴾ [الشورى]

فبعد هذه الآية لا يقل أحد إن فلاناً لا ينحب أو فلانة لا تنحب
لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قدر الله في
العقم لجعل الله كل من يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى
قال ﴿يَهْبُ (١٩)﴾ [الشورى] فالمسألة في كس حالاتها هبة من الله
تعالى لا تحل لأحد في لذكورة أو الأنوثة أو العقم فلماذا - إذن -
قبلت هبة الله في الذكور ، ولم تقبل هبة الله في العقم ؟

وسبق أن تحدثنا عن وأد البنات قبل الإسلام لأن البنت كانت
لا تتركب الحيل ، ولا تدافع عن قومها ولا تحمل السلاح الح
فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن
ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة
والإسلام يرى من هذا الصراع ، لأن الرجل والمرأة في الإسلام
متكاملان لا متضادان ، وعجيب أن يرى من النساء من تتعصب ضد
الرجال وهي تُجَنِّ إن لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأقصيتهن

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعلمنا أن من يحترم قدره في
إحباب البنات يقول الله له لقد احترمت قدرى فسوف أعطيك على
قدرى ، فيعطيه الله البين ، أو يُيسّر لبناته أزواجا يكونون أبرّ به من
أولاده وأطوع

ثم ألا ترى أن الله تعالى قدم البذات في لهة ، فقال ﴿يَهْبُ لَمَنْ
يَشَاءُ إِنَّا نَاهِي لَمَنْ يَنْهَى الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى] لما بنا ، لأنه سبحانه
دعلم محبة الناس للذكور ﴿وَإِذْ بَشَّرْنَا أَحَدَهُم بِالْأُنْثَىٰ ظُلُّ رَجْهَهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ
كَظِيمٌ (٥٨)﴾ يتوارى من القوم في سوء ما بشر به (٥٩) [السل]
وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾ [نجم] العزيز الذي
لا يغلِبُ ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿الْحَكِيمُ (٦)﴾ [نجم] أي
حين يعد ، وحين يفى بالوعد

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان القطري بوجود الإله

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ
فِي الْأَرْضِ رَوَايَ أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَتَرَوْنَهَا مِنْ كُلِّ
دَانَةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَبْنَيْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١)﴾

أولاً ذكر الحق سبحانه آية كويبة لم يدعها أحد لنفسه من
الكفار أو من الملاحدة ، وهي آية موجودة ومشاهدة وبعد أن قال
سبحانه أن خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأت من
يعارضه فيقول بل أنا خالق السماء والأرض

وسبق أن قنت إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يقم
لها معارض فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو

(١) ماد يميز تحرك وأفتر وماد الأرض اضطرب ورويات يقول تعالى ﴿وَالْقِي فِي
الْأَرْضِ رَوَايَ أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ (١)﴾ [نجم] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توارى البحر
العميقة [القاموس القويم ٢/ ٢٤٦]

احالِق فَقَدْ انْتَهَتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو ؟ هل يرى أن واحداً آخر أخذ منه لَحَقُّ ، ولمذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه ؟ أو أنه لم يَدْرُ بشيء فهو إله (نائم على وجهه) ، وفي كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد

لذلك قال تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (١٨) ﴾ [آل عمران] ، وهذه شهادة الدات للذات ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أن يوجد معارض

وسبق أن مثَّلنا لذلك - والله المثل الأعلى - بجماعة جلسوا في مجلس فلما انقضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا في مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقلُّ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال - والله لقد نسيت حافظة نقودي هنا ، فلا شك إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدعها واحد آخر منهم

والحق سبحانه يقول هي إثبات هذه القضية ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا الْأُنْجُورُ إِلَى ذِي الْعَرْشِ مِثْلًا (٤٣) ﴾ [الأنعام] أي لذهبوا يبحثون عن أخذ منهم لخلق والناس ، وأخذ منهم الأنوية

فإن قالوا نحن آلهة لكن موقنا إله أكبر يرُدُّ الحق عليهم ﴿ مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥٠) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى ﴿ بَعِيرٌ عِمْدُ ثَرَوْهَا (١٦) ﴾ [النمل] حين تدور في أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلية ﴿ ثَرَوْهَا (١٦) ﴾ [النمل] تحمى معنيين إما هي فعلاً بغير عمد ، أو بها عمد لكن لا تراها ﴿ بَعِيرٌ عِمْدُ ثَرَوْهَا (١٦) ﴾ [النمل] يعني لا ترى بها

عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقبييسكم
 على قلت ، فما هذه العمد التي لا تراها ؟ لبعض يقول هي
 الجاذبية وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفي مؤنة
 البحث في هذه المسألة فيقول سبحانه ﴿ .. وَيُمسك السماء أن تقع
 على الأرض إلا بإذنه ﴾ (٦٥) [الحج]

إِنَّ لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا مَسْوُكَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ ، وَكَي لَا حَارَ فِي كَيْفِيَةِ ذَلِكَ يُقَرِّبُ اللَّهُ لَنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِمِثَالٍ مُشَاهِدٍ لَنَا ، فَالطَّيْرُ يَمْسِكُهُ اللَّهُ فِي جَوْ السَّمَاءِ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي حَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ .. (٧٩) ﴾ [التحل]

وهي موصوع آخر يقول الحق سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [٤٤] [مطر] إذن فهو سبحانه يمسكها يقاوم ، لكن لا نعرفه نحن ولا نذكره .

والسمااء فى اللغة كل ما علاك ماظنك ، فالغيم الذى يحلوك
وتراه قريباً منك يُعد من السمااء بدليل قول الله تعالى ﴿ وَأُنزِلْنَا مِنَ
السمااء ماءً ﴾ [لقمان] والماء يدرل من الغيم ، لا من لسموات العلا ،
والفرق بينهما أن الغيم تراه فى مكان دون آخر ، وتراه مُتقطعاً
مفقطراً ، أما السمااء العليا فهى بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور

وحين تكلم لحق سبحانه عن الأرض والسماء قال إنها سبع سماوات ، ولم يقل سبع أراضي ، بل ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق] يدل على أن الأرض سبع كالسماء ، وإن كانت السماء كل ما أظنك بالأرض كل ما أظنك ، لكن أين هذه الأراضي السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع وأخبرنا النبي ﷺ أنه مرَّ بها في رحلة المعراج فقال في الأولى كذا وكذا ، وفي الثانية كذا وكذا ، وما دامت السماء كل ما أظلك ، والأرض كل ما أظلك والجنّ

فى السماء الأولى مثلاً سموهم السماء الثانية ، ورضهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا

ثم بقول سبحانه ﴿وَرَأَى فِي الْأَرْضِ رَاسِيَ﴾ (١) [الفجر] أى الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتحلل منها ، والعلة فى خلق الجبال الرواسى على الأرض ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (٢) [الفجر] أى تعمل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لم حباحت إلى ما يشتهي

إس فالأرض متحركة وما خلقت الجبال إلا لتثبيتها وصيوط حركتها فسئت هذه الآية على صدور ليطرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك فى قوله تعالى ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمْدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (٨٨) [النمل]

إذن فالجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض ، فإن قلت ولماذا لا نراها ؟ بقول لأن وحدة المكان تجعلك لا تدرك هذه الحركة ، فالمتجدد فى مكان لا تختلف مرائى الأشياء بالنسبة له .

فلو تصورت أن هذا المسجد الذى يحضننا صُمِّمَ على هيئة رَحَى تدور بنا ، فهل نشعر بدورانه وبحر تدور بدورانه ؟ لا نشعر ، لعلنا ؟ لأن مواقعنا من بعض ثابته لا تتغير ، كذلك مواقعنا من أماكن ، لذلك لا نشعر بالحركة لكن نشعر بالحركة حين نقيس متحركاً بثابت ، فلنفتح الباب مثلاً أو لشباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك

إذن لا يمكن لمن على الأرض أن يشعر بحركتها لأنه يتحرك معها ، وما دامت الجبال أوتاداً فى الأرض وهى - أى الجبال - تمر مر السحاب فلا ند أن الأرض كذلك تمر وتحرك بنفس الحركة ،

وحركته الحدال ليست دائية إنما هي تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير دائية ، إنما هي تابعة لحركة الرياح

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخلق الجبال ﴿وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ (٥)﴾ [القصص] وسبق أن أوضحنا أن الجبال تمثل محارن بلقوت الذي به قوام الحياة للإنسان والحيوان والذي ينشأ من الزرع ، وبينا أن الطبقة الخارجية للجبال تتغلب بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء لمطر إلى الوديان متزايد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام . ومن لجبال أيضاً يتكون الماء في الأنهار أو في مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه .

ومن حكمت تعالى أن جعل الجبال راسية ثابتة وحملها صلدة وإلا لو كانت هشة لاندثرت الأمطار وقسمتها في عدة سموات ثم حرمت الأرض من الخصوبة التي تستمدتها من الجبال ، لذلك يقول الله تعالى ﴿وَمَا تُرْقَى إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٦)﴾ [الحجر] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الحصنة التي يُكوَّنُها القرير الذي يتفقت من الحدال عاماً بعد عام

واقرا إن شئت قوله تعالى ﴿قُلْ أَلَيْسَ لَكُمْ مُرُودٌ بِلَيْدِي خَلَقْتُ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَعَلَّقُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٧)﴾ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها . (٨) [فصلت]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب سا الأرض ، وجعلها صلدة لأنها محزن الخصب الذي يمدُّنا بالزرع الذي به قوام حياتنا ومن رحمة الله بالإتساع أن جعل فيه داتيه استبقاء الحياة ، فإن منع عنه الطعام أو الشراب تغذي من المخزون في جسمه ، فيأخذ

أولاً من الدهن ثم من اللحم ، ثم من العظم ، ذلك قلنا إن العظم هو آخر محارص الفوت في جسم لإنسان ، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا ﴿إِنِّي وَهِيَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم]

يعنى قد بلغت آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة فكان من رحمه الله بالخلق أن جعل حتى شره الإنسان للصدم واشرب رجمة به ، حيث يتحول الرائد عن طاقته وحسبته إلى محزون في جسمه ، فإذا انقطعت به السبل أو تعذر عليه الصدم والشراب ستمد مما في جسمه

كذلك من رحمه الله بالإنسان أن جعله يصبر على طعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما في جسمه من محزون الطعام والشراب ، أما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق ورفير ، لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته في خلقه ألا يملك الهواء لأحد ، فلو ملكه عدوك متى قبل أن يرمى منك

وقوله ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [نمل] بث أى نشر ، والدابة كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدب على الأرض وكل ما يمشى على الأرض له دبيب يسمعه في الحيوان الضخم مثلاً لكن لا يسمعه في النملة مثلاً فهي أيضاً لها دبيب بدليل قولنا فلان يسمع دبة النملة إن لها دبيب على الأرض ، لكن أن من التي تستطيع أن تسمعه

وقوله تعالى ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [نمل] كل تعنى سوراً كلياً بصم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعنى كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض وقوله (من) يدرج من الصغير إلى الكبير فتدل على الشمول

ومن هذه الدواب ما أحبه الله ومنها ما حرمه ، لذلك يقول البعض ما دام الله حَرَّمَ هذه الحيوانات فعلا الضرورة في خلقها ، وهو كل شيء مخلوق يُؤكل .

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ، لأن به مهمة أخرى يؤديها

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لرحمته بخدمك في ناحية أخرى ، فمعه ما يمد الحيوانات التي يأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها هي غير الأكل ، فالشعبان مثلاً لا يرى فيه إلا أنه مخلوق ضار لكن ألم نحتاج إلى سُمِّه الآن ، وجعله مُصِلاً مافعاً ، ألسنا ننتفع بجلوده ، ابلخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده في نواح أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً البعض يقول ما دام الله تعالى حرمه فلماذا خلقه ؟ سبحان الله هل خلق الله كل شيء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أن تأكل كل شيء ، لأن الله جعل لك طعامك الذي يناسبك ، تأكل مثلاً لتسترول ، كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقودها المناسب به ، فالسيارة التي تعمل بالبترول مثلاً لا تعمل بالسولار الخ ، فربك أعطاك قوتك كما أعطى بغيرك من المصنوعات أصواتها .

لذلك إذا بطرت في غابة لم تعد إليها يد الإنسان بعد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات الخ دون أن تجد فيها رائحة كريهة أو منظرًا مُنفراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات تحدث بينها وبين بعضها توارس ينشئ ، فالضعف منها والمريض طعام للقوى ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر وهكذا ، فهي محكمة بالعريضة لا بالعفل والاحتيار

وكل شيء لا يدخل للإنسان فيه يسير على أدق نظام فلا تحد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالته يد البشر ، ولك أن تذهب إلى إحدى الحدائق أو المتنزهات في شم النسيم مثلاً ل ترى ما تتحركه يد الإنسان في الطبيعة

لكن لماذا وُصف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرن وجوده بالفساد ؟ نقول لأنه يساوي الأشياء بعير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث في الطبيعة هذا الفساد

وسبق أن بينا أن الإنسان لا قدرة له على شيء من مخلوقات الله إلا إذا دلّ لها الله له ويسرهما لخدمته بدليل أن الولد الصغير يركب القيل ويسحب الجمل ويبيحه ويحمّله الانتقال في حين لا قدرة لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلّل لنا هذا ، ولم يُذلّل لنا هذا

ثم يقول تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَسْمَاءٍ مَاءً فَاثْبَتَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الأنعام] من السماء أي من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا يزل من السماء ، إنما من العمام ﴿ فَاثْبَتَا فِيهَا ۖ ﴾ [الأنعام] أي في الأرض ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الأنعام] زوج أي نوع من البسات فهي كلمة تدل على مفرد لكن معه مثله ، والبعض يظن أنهم تعني اثنين وهذا خطأ ، لذلك يقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرن بغيره

وقال تعالى عن التكاثر ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَفِيفًا وَوَجِيفًا ﴾ [التكاثر] (الداريل) مسمّى الذكر (زوج) ومسمّى الأنثى (زوج)

ومثلها كلمة (نواام) فهي تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولد

وحده إنما معه غيره والبعض يقول (توأم) ويقصد الاثنين ، إنما
الصواب أن يقول هما توأمان

ووصف الحق سبحانه لروح أى النوع من النسات بأنه ﴿ كريم
(١) ﴾ [القمار] لأنه يعطيك مكرم وسحاء ، فاحبة تعطيك سبعائة حمة
وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق مر وجل ؟
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ
دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾

والكلام هنا موجه للمكابرين والمعاندين الجاحدين لآيات الله
﴿ هذا .. (١) ﴾ [القمار] أى ما سبق ذكره لكم من خلق السماوات
بغير عمد . ومن خلق الجبال الرواسى والدواب وإنزال المطر وإحياء
النبات الخ

هذا كله ﴿ خلق الله . (١) ﴾ [القمار] فم يدعه أحد لمسه ، وليس
له فيه شريك ﴿ فأرونى ماذا خلق الذين من دونه .. (١) ﴾ [القمار] أى
الذين اتحدتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم . حيث لا واقع له يستدلون به ،
ولا حتى بالمكابرة ، لأن الحق أبلغ^(١) والباطل لجلج^(٢) ، لذلك لم

(١) أبلغ الحق ظهر ويقال هذا أمر أبلغ أى واضح والبلوج الإشراف وصيغ أبلغ من

البلج أى مشرق مسمى وكذلك الحق إذا للضح [لسان العرب - مادة بلج]

(٢) اللجلج المحتلط الذى ليس بمستقيم [لسان العرب - مادة لجلج]

بسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أن يقول آلِهتنا
خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، ولم يستطيعوا الرد رغم
كفرهم وعنادهم

والحق سبحانه في الرد عليهم بين لهم أن المسألة لا تقف عند
عدم قدرتهم على الخلق ، إنما لا يعرفون كيف خلّقوا هم أنفسهم
﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَدِّينَ
الْمُضِلِّينَ عَصُدًا (٥٦) ﴾ [الكهف]

وهي قول الله ﴿ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَدِّينَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا (٥٦) ﴾ [الكهف] دليل
على صدق القرآن ومظهر من مظاهر إعجازه ، فقد أحسبنا الحق
سبحانه أنه سيُوجد مُصنوع يصلون الناس في مسألة الخلق ،
ويصرفونهم عن الحق بكلام باطل

وفعلاً صدق الله وسمعنا من هؤلاء المضلين من يقول إن
الأرض قطعة من الشمس انفصلت عنها وسمعنا من يقول إن
الإنسان في أصله قرد .. الخ ، ولولا هذه الأقاويل وغيرها ما صدقت
هذه الآية ، ولجاء أعداء الإسلام يقولون لذائس المضلون الذين
أخبر عنهم القرآن ؟

فكان كل كلام يناقض ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ (١٦) ﴾ [النمل] هر كلام
مُضِلٌّ وكان هؤلاء المضلين - في عجلة منهم ودون قصد - يؤيدون
كلام الله ﴿ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَدِّينَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا (٥٦) ﴾ [الكهف]

ويجد هذه المسألة أيضاً في سنة رسول الله ﷺ حيث يطلع

سُورَةُ التَّوْبَةِ

○ ١١٦.٧ ○

عَلَيْكَ مِنْ حِينَ لآخر مَنْ يَكْرِ سَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَيَقُولُ بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ
كِتَابُ اللَّهِ ، فَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ حِلَالٍ حَلَلْنَاهُ وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ
حَرَمْنَاهُ

وعندنا نقول سبحان الله ، كان الله تعالى أقامكم بليلاً على
صِدْقِ رَسُولِهِ فَقَدْ أَخْبَرَ الرِّسُولَ عَنْكُمْ ، وَعَمَّا تَقُولُونَ فِي حَقِّ
سِنَةِ ، حَيْثُ قَالَ « يَوْشَكَ رَجُلٌ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَرْبِكَتِهِ ، يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ
عَنِ قَسِيقُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حِلَالٍ
حَلَلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَمْنَاهُ »^(١)

ومعنى ﴿ هُنَا حَقُّ اللَّهِ . . (١١) ﴾ [القمان] أى مصروفاته ﴿ نَارُوسِي
مَادَا حَقُّ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ . (١٢) ﴾ [القمان] ولن مطب منك خلقاً كخلق
لسماء والأرض والحيار ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ،
بل اخلقوا أقل شئ في الموجودات التي ترونها ، وليس هناك أقل من
لدياب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْتَفُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا
هُ . (٧٣) ﴾ [الحج] بل وأبلغ من ذلك ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الدِّيَابُ شَيْئاً لَأُ
يَسْتَفْذُوهُ مِنْهُ ضَعُفُ الطَّالِبِ وَالْمُطْلَبِ ﴾ (٧٤) [الحج]

ثم يختم الحق سبحانه الآية بقوله ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
(١) ﴾ [القمان] أى ضلال محيط بهم من كل اتجاه ، والضلال المبين
لمحيط لا تُرْجى معه هداية ، قلن يهتدى هؤلاء ، وما عليك إلا أن
تصبر على دعوتك يا محمد حتى يُبْدِكَ اللَّهُ حَيِّراً مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَيَكُونُونَ
بِكَ جُوداً يُؤْمِنُونَ بِكَ ، وَيَنْصَرُونَ لِدَعْوَتِكَ وَقَدْ كَانَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢)
والدارقطني (٢٨٦/٤) في مسنده من حديث المقام بن معد بتركب رضى الله عنه

ثم يقول الحق سبحانه

(١)
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ
وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ عِوَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

الحق سبحانه آتاه فبر أن يخلقنا ، وآتانا بعد أن حلفنا بالمهج
ثم وإلى إلنا بمواكب الرسالات التي نحصر إلى كل بيئة المهج الذي
يناسبها وقيل ر يخرج آدم عليه السلام لتحمل عبء هذه الخلافة
أعطى الله له تحربة هذه التجربة معادها أن يحافظ على مهج ربه
هي (اعمل) و (لا تفعل) وأن يحذر كيد الشيطان

وقد مر آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يحثيه الله للنبوة
وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أن كلف بالنسوة فيقولون
كيف يعصى آدم ربه ، وهو نبي والنبى معصوم ؟

ونقول نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال
شراً عادياً ، لذلك قال سبحانه في حقه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَهُوَ﴾ (١٢١)
ثم اجتياه ربه فتاب عليه وهدى ﴿١٢٢﴾ [طه]

١) كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، قال ابن عباس فيما أخرجه عنه الإمام أحمد
في الزهد وابن أبي شيبة وغيرهما ، وقال سعيد بن المسيب [إن لقمان عليه السلام كان
أسود من سواد مصر ، ذا مشاقر ، أمطاه الله الحكمة ومعه النبوة] أخرجه ابن جرير
وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم ، وأورد السيوطي هذه الآثار في الدر المنثور
(١٦/٩ ، ٥١٠) وقال العروضي هو لقمان بن يعقوب بن ناحور بن نوح قال وهب
ابن منبه كان ابن أحد أثرياء وقال مقاتل ذكر أنه كان ابن حالة أيوب انظر تفسير
القرطبي (٦/٥٣١٦)

سُورَةُ النَّمْلِ

﴿١١٦﴾

إذن جاء لاجتناء بعد المعصية ، فإن قلت فما الداعي للعصيان يصدر من آدم ، وهو يُعد للنوبة ؟ قالوا لأنه أبو البشر ، والبشر قسماً بشر معصومون وهم الأنبياء ، وبشر ليست لهم عصمة وهم عامة الناس غسبر الأسياء ، ولا بُدُّ لآدم أن يعتل النوعين لأنه أبو الجميع ممثلاً العشر عامة حين وقع في المعصية ، ومثلاً الأسياء حين احسأه ربه وتد علمه ، هجمع بذلك بين الملحطين

هنا يقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا..﴾ [يعلم] والإنتاء نُطْلِقُ على الوحي مع الفارق بينهما فإن أطلق الوحي فإنه يصرف إلى الوحي للرسول بمنهج من الله ويعرف الوحي عامة بأنه إعلام بخفاء ومن ذلك قوله تعالى في الوحي للملائكة ﴿يُذِيعُ يُوْحَىٰ رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَاتَّبِعُوا أَمْرًا..﴾ (١٧) [الأنفال]

ويُوْحَى للبشر ، فإن تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ..﴾ (٧) [التقصير]

ويُوْحَى للحيوان ﴿وَوَحْنِي رَبِّكَ إِلَى الْتَحْلِ أَنْ اتَّحِدِي مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا..﴾ (١٨) [اسحل]

ومن ذلك أيضاً يُوْحَى الشياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجن ﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ..﴾ (١١٦) [الأنعام]

كذلك يُوْحَى الله إلى أهل الخير من أتباع الرسل ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَمْشُوا بِبِوَسْطِي..﴾ (١١) [المائدة]

هذا في المعنى اللغوي للوحي وهو إعلام بخفاء ، فإن قصدت الوحي أشعرعى الاصطلاحى فهو إعلام من الله لرسوله بمنهجه

وهذا التعريف يُخرج كل الأنواع السابقة

والحق سبحانه عبّر عن الإيتاء اليميم بقوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ
يُكَلِّمَهُ اللَّهُ لَا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ
﴾ (٥١) [الشورى]

والإيتاء يُعصد به الإلهام ، ويكون حين تتوفر للإنسان آلة
استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والباطن من الحق سبحانه
وتعالى ، وآلة الاستقبال لا تصلح للاستقبال من الله تعالى ، لا إذا
كانت على مواصفات الخالق سبحانه صانعها ومسدعها ، كما يلتقط
(الراديو أو التليفزيون) الإرسال ، فإن انقطع عنك الإرسال فاعلم أن
جهاز استقبالك به عطب ما الإرسال فموجود لا ينقطع والله تعالى
المثل الأعلى

وبه سبحانه إرسال نائم إلى عبادته ، لا يلتقطه إلا مَنْ صعد آلة
استقباله ، وحلعت لتلقى عن الله وهذه الآلة لا تصلح إلا إذا كانت
على المنهج فى الفعل ولا تفعل ، لا تصح إذا تكونت من الحرام
وتغذت به ، لأن الحرام يفسد كيماوية الفطرة التى خلقها الله فى
عباده يوم أن أخذ عليهم العهد

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ﴾ (١٦٢) [الأعراف]

فهذه الدرية لو ظلت على حالها من الصفاء يوم كانت فى طهر
آدم ويوم أخذ الله عليها العهد ، ولو التزمت منهج ربها فى (افعل)
و (لا تفعل) كانت أملاً لإلهام الله ، لأن آلة استقبالها عن الله
سليمة

وتأمل فى وحى الله إلى أم موسى ﴿نُؤْتِيهِ فِإِذَا خِفْتُ عَلَيْهِ



فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. ﴿٧﴾ [الفصل]

مَأْيُ آلَةٍ اسْتَقْبَالَ هَذِهِ الَّتِي اسْتَقْبَلَتْ هَذَا الْأَمْرَ وَنَهَضَتْهُ دُونَ أَنْ تَنَافُسَ ، وَاطْمَأْنَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تُفَكِّرَ فِيهِ ، وَكَيْفَ تَقْتَنِعُ الْإِمَامُ أَنَّ الْمَوْتَ الْمُحَقَّقَ يُنْجِي وَلِيدَهَا مِنْ مَوْتٍ مُظَنُّونَ ؟

لِذَلِكَ نَقُولُ إِذَا صَادَفَ الْإِلَهَامُ آلَةَ اسْتِقْبَالٍ سَلِيمَةٍ بِإِمَامِهِ لَا يَوْجِدُ فِي أَنْفُسِ مَا يَصَادَرُهُ ، وَلَا مَا يَحْدُثُ عَنْ دَلِيلٍ ، فَصَامَتْ أُمُّ عُرْسِي وَبَغِذَتْ الْأَمْرَ كَمَا أُلْقِيَ إِلَيْهَا ، هَذَا هُوَ الْإِيْيَاءُ

وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿لَوْ جَدَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَسَّاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿٣٠﴾ [الكهف] وَالْعَبْدُ الصَّالِحُ " لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ، وَمَعَ ذَلِكَ أَنَا اللَّهُ بَدُونَ وَاسْطَةً ، فَكَانَ هُوَ مُعَلِّمًا لِلنَّبِيِّ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ عَلَى مَهَبِ مُوسَى ، وَأَخْلَصَ لِلَّهِ تَعَالَى فَسَأَلَهُ اللَّهُ مِنْ عِنْدِهِ

وَاقْرَءْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَمَنَّوْا اللَّهُ أَنْ يُجْعَلَ لَكُمُ فُرْقَانًا﴾ ﴿٢٩﴾ [الأنفال] وَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْرَارًا﴾ ﴿١٧﴾ [محمد]

إِذْ كُلُّ مَا عَلَيْنَا لَنَأْخُذَ إِلَهَامَاتِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ أَنْ نَحْتَقِظَ بِصِفَاءِ

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٩٢/٣) : « هَذَا هُوَ الْحَمْدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا بَلَغَتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْمَسْحُوبَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَاحْرَجَ الْبُخَارِيُّ (٢/ ٣٤) وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا سَأَلْتُ الْخَمْرَ ، لَاحَ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بِبَيْتِهِ » هَذَا هُوَ تَهَيُّزٌ مِنْ خَلْفِهِ حَضْرَاهُ . » أَوْرَدَهُ السَّيْرُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٥/ ٤٢) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي مَتْنِ الْبَاهِيِّ (٤٣٤/٦) : « قَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ كَسَّ الْحَمْدُ فِي أَيَّامِ أَفْرِيدُونِ فِي قَوْلِ عَامَّةِ عُلَمَاءِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَكَانَ عَلَى مَقْبَعَةِ دِي الْفَرَسِيِّ الْأَكْبَرِ » وَاحْرَجَ النُّقُشُ أَحْبَارًا كَثِيرَةً قَدْ عَلِيَ بِقَائِهِ لَا تَقْرَأُ شَيْءًا مِنْهَا حُجَّةً ، قَالَ ابْنُ عَصِيَّةٍ . »

البنية التي خلقها الله لتظل بمواصفات خالقها ، ثم نسير بها على منهجه تعالى في افعل ولا تفعل ، وكان سيدنا لقمان من هذا النوع الصامى الصابر البقى ، الذي لم يخالط جسمه حرام وادى لا يغفل عن منهج ربه . لذلك آناه الله الحكمة ، وقال فيه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (١٢) ﴿لَقْمَانَ﴾

وقد اختلف العلماء فيه أهو نبي أم غير نبي ، ولعلنا أنه غير نبي^١ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح واجمهور اجمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس ، دقيق الإدراك والحس كما قلنا هو الأصل الأول في المعلومات ، وكان لقمان لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحس المرهف والإدراك الدقيق العميق ، فتكون لديه مدركات ومواجيد دقيقة تحتمر في نفسه ، فيجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التي تنسوس حركة حياته فيسعد بها في نفسه ، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعمير الحسن ، كذلك كان لقمان^٢

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : خير الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة ، فاختر الحكمة على النبوة ، فآتاه جبريل عليه السلام وهو قائم ، فبصره الحكمة ، فاصبح يخطي بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة ؟ وقد هيؤك ذلك ؟ فقال : لو أنه أرسل إلي بالنبوة عرمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنك أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيرني ، فدفعت لي أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلي . أورده السيوطي في الدر المنثور (٥١١/٦) والقرطبي في تفسيره (٥٢١٧/٧)

(٢) عن أبي الدرداء أنه ذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتي من أهل ، ولا مال ولا حسب ولا حصال ولكنه كان رجلاً صمصة [الشديد الصليب المجمع الخلق] سكتاً ، طويل التفكير عميق النظر ، لم يمد بهراً قط ولم يره أحد يبرق ولا ينمض ولا يبور ولا ينفوط ولا يحتسل ولا يبيت ولا يصحك . كان لا يعبد مطلقاً مطلقاً إلا في قول حكمة يستعبد بها [عراء السيوطي في الدر المنثور (٥١٢/٦) لابن أبي حاتم]



والعلماء أبحاث حول شخصية لقمان وحسنيته ، فمنهم من ذهب إلى أنه كان أسود اللون غليظ الشفتين كأهل جنوب إفريقيا ، لكنه مع ذلك كان أبيض القلب نقي السريرة ، تخرج من بين شفثيه اعيططين الحكم الرقيقة والمعاني الدقيقة^(١)

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا ينظر إلى أحوالكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »^(٢)

لذلك حين ترى من هو أقل منك في مال ، أو صحة ، أو جاه أو منظر فلا تغتر بذلك ، وانظر وتأمل ما تميز به عليك ، لأن لحائق سبحانه - كما قلنا - ورع فصله بين عباده بامساوى ، يحدث يكون مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ولا تفاضل بين المجموعات إلا بالتقوى ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح^(٣)

فالذين يحلو لهم أن يقسموا المهن مثلاً إلى مهن شريفة وأخرى حقيرة نقول ليس هناك مهنة حقيرة ما دام المجتمع في حاجة إليها ولا يستقيم حركة الحياة إلا بها ، فكيف تحقرها ؟ وكيف تحقر أهلها ؟

(١) مما يروى من أخبار لقمان الحكيم أنه قال لرجل يعسر إليه أن يكتب تراعى غليظ الشفتين فيه يهرج من بينهما كلام رقيق ، وفي كتبه تراعى أسود ففهم أبيض [تفسير القرطبي ٥٢١٧/٧]

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٧٥٦٤) . وأحمد في مسنده (٢٨٥/٢) (٥٢٩) وابن ماجة في سننه (٤١٤٢) واللفظ بمسلم

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١١ ٥) عن أبي بصرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وأخرجه أبو يعقوب في حلية الأولياء (٢/ ١٠) عن أبي بصرة عن حابر بن عبد الله قال : حدثنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق ، فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لمجسي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ،

والله لو قعد انوزراء في بيوتهم أسبوعاً ما حدث شيء . لكن لو تعطل
عمال السطافة مثلاً أو الصرف الصحي ليوم واحد لحدثت مشكلة ،
ولأصبحت الدنيا (حرارة)

وكيف يحقر هذه المهن ويحقر أصحابها ، وهم يرهبون بايسير ،
ويتحملون ما لا يطقه غيرهم ؟ كيف نحقرهم ، والله تعالى يقول
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا حَيْرَ مِنْهُمْ
[المحرات] ﴾ (١١)

فإن قلت ما دام ليس نبياً ، فكيف يؤتيه الله ؟ نقول بالمدد
والإلهام الذي قال الله فيه ﴿ إِنْ تَشَاءُوا اللَّهُ يُجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٢٩)
[الأنفال] فمن يحافظ على مواصفات التكوين بمطلق الله يأخذ من الله
مباشرة

كما لو طلب منك ولدك مبلغاً من المال يتأخر به في السوق
فتعطيه مبلغاً كبيراً تُحرّبه به ، فإنّ قلح وربحت تجارته يطمئن قلبك
فتريده أضعاف ما أخذ في المرة الأولى . كذلك الإنسان إن أحسن
صحبته لربه دوم الله عليه فضله وواسى إليه فيضه

لذلك يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز^(١) ما قصر بنا في علم ما
نجهل إلا عدم علمنا بما علمنا . يعني لو كنا أهلاً للزيادة لرادت
لو كنا مأمونين على ما علمنا فوظفناه في حركة حياتنا لحاءت
فيوضات إشرافيه وعطاءات من ربا مصنفه لا ينهي . أم إن أخذنا

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي أبو حفص ولد بالمدينة (٦١١هـ) وشا
بها ، وولي إمارة اللويد ، ثم استقرره سبعمائة بين عبد الملك بالشام ، وولي الخلافة بعده
من سليمان سنة ٩٩ هـ ، قبويع في مسجد دمشق ، ومنع سباً على من أبي طالب وكان
من سنة من الأمويين يسيره على العنابر ، توفي وهو من الأربعين من عمره عام
(١٠١ هـ) مدة خلافته ستين ونصف

اعلم فالقياض حاساً ولم نعمل به ، فما الداعي للزيادة ، وأنت لم تستفد بما عندك ؟

وكما تكلم العلماء في شخصية لقمان وحسينه تكلموا في حكمته فسأله أحدهم وقد تبسط معه في الحديث ألم تكُن عبداً تخدم ملأنا ؟ قال بلى قال فهم أوتيت الحكمة ؟ قال باحترامى قسر ربى ، وأدائى الأمانة فيما وليت من عمل وصدق الحديث ، وعدم نعرصى لما لا يعينى^(١)

وهذه الصفات كافية لأن تكون مبهجاً لكل مؤمن ، ولأن يطق صاحبها بالحكمة ، والله لو كانت فيه صفة الصدق في الحديث لكانت كامة

لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة وهو لعبد الأسود ، فاتاه الله بالحكمة مباشرة ، وهو ليس نبياً ولا رسولاً ، وسميت إحدى سور القرآن باسمه ، وهذا يدل على أن الإنسان إذا اعتدل مع الله وأحصى في طاعته فإن الله يعطيه من فيضه الواسع ، فيكون له ذكر في مصاف الرسل والأنبياء

ويروى من حكمة لقمان أن سيده أمره أن يذبح له شاة ثم يأتيه بأطيب مَصْفَتَيْن فيها ، فذبح الشاة وجاءه بالقلب واللسان ، وفي اليوم التالي قال له اذبح لى شاة وأتني بأخيث مَصْفَتَيْن فيها ، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان فسأله ألم تأت بهما بالأمس على أنهما

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ، كتاب الصمت ، (حديث رقم ٦٧٥) ط دار الإعتصام ١٩٨٦ م وابن جرير عن عمرو بن قيس قال مر رجل بلفظ عليه السلام والناس بعده فقال نسب عبد بنى فلان ؟ فقال بلى قال ألسنت الذى كتب ترعى عند جبن كما وكذا ؟ قال بلى قال فما الذى بلغ بك ما أرى ؟ قال تقوى الله ، وصدق الحديث واداء الأمانة وهول السكوت عما لا يعينى وتورده السيوطى في الدر المنثور في التفسير المأثور (٥١٦/١)

أطيب مضغتين هي الشاة ؟ قال بى فليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا شيء أخش منها إذا خبأ^(١)

وبعد لقمان جاء سيدنا رسول الله ﷺ يُعلمنا هذا الدرس فيقول
« ألا إن في الجسد مصعة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »^(٢)

ويقول ﷺ في حديث آخر « من حفظ ما بين لحييه^(٣) وما بين رجليه دخل الجنة »^(٤)

ويروى أن لقمان كان يعنى أندس ، وكانوا يثقون بكلامه ، وكان ذلك قبل داود عليه السلام ، فلما جاء داود كف لقمان عن الفتيا ، فلما سألوه لماذا امتنعت عن الفتيا ؟ فقال - وهذه أيضا من حكمته ألا اكتفى إذا كُفيت ؟

يعنى لماذا أتمسك بها وقد بعث الله لى من حملها على ، وهو يعلم تماما أنه مجرد عبد صالح (أى أنه أخذ الحكمة من منازلهم

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وإس جرير عن خالد الزهري ، فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦٦/٦)

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٥١/٢) وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وتعمام الحديث « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالزعرور يرى حرل الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه الحديث

(٣) اللحيين : جانبا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل دى لحي [لسان العرب مادة لحا]

(٤) أخرجه ابو يعقوب في حلية الأولياء (٢٥٧/٣) من حديث سهل بن سعد بهذا اللفظ ، وأصله في البخاري (٦٤٧٤) عن سهل باللفظ « من بصر لى ما بين لحييه وما بين رجليه أصغر له الجنة »



كما يقال) ، اما يارد فرسون من عند الله ، ومن الحكمة أن يفسح له هذا المجال ، ويرك له ساحة الفُتيا في القوم معه يأتى بأفضل مما عند لقمان ، لذلك تركها له عن رضا وطيب خاطر

والعصر يقول إن الله حيرته بين ر يكون نبياً أو حكيماً ، فقال أما وقد حيرتني يا رب ، هاأنا أختار الراحة وأترك الابتلاء أما إن أردتها يا رب عزيمة فأنا سأقبلها سماعاً وطاعة لأبي أعلم أنك لن تحذلني^١

والحق سبحانه يُنطق لقمان بأشياء من الحكمه يسبق بها النبوه ، يبين لنا أن الإنسان من الممكن أن يكون ربانياً ، كما جاء في الحديث القدسي : عبيدي ، أظعنن تَكُنْ رماييا ، تقول لشيء كُنْ فيكون^٢

ذلك لأن فضل الله ليس له حدود ، وليس عليه حرج ، وبأبه تعالى مفروح ، المهم أن تكون أهلاً لأن تلج هذا الباب وأن تكون

(١) أخرج الحكيم الترمذي في بولدر الأصغر عن أبي مسلم الحولاني رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إن لقمان كان عبداً كثير التفكير حسن الطل كثير المصمت أحب الله فحبه الله تعالى فمن عليه بالحكمة ، تودى بالخلافة قبل داود ، فقير له يا لقمان من لك أن يجهلك الله حنيفه يحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان إن أجبرني ربي فقلت ، فإني أعلم أنه إن فعل بك أعاصي وعصمتي وإن حيرني ربي قننت العاقبة وبم أسأل ابتلاء ، أورده السمرطى في الدر المنثور (٥١١/٦)

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٦٥ ٦) سمو هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال من عادي لي ودياً فقد أنشئت بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » الحديث قال الطوفي (سليمان عند القوى المبرصري ب ٧١٦ هـ) اتفق العلماء ممن يعتمد بقوله ن هذا مجاز وكتابة عن نصرة الصد وتأييده وإعنته ، حتى كأنه سبحانه عز وجل معه من عبده مائة ثلاث التي يستعين بها .

في معبه ربك دائماً

ومما يُروى من حكمة لقمان أنه غاب في سفرة ، ثم عاد فلقى
تابعه ، فقال له ما حال أبي ؟ فقال مات ، فقال لقمان الآن
ملكْتُ أمري ، ثم سأل فما حال زوجتي ؟ فقال ماتت ، فقال
حددتُ فراشي ، ثم سأل عن أخيه ، فقال ماتت ، فقال ستر الله
عروسي ، ثم سأل عن أخيه ، فقال مات ، فقال انقسم ظهري^(١)

وهذا الكلام لا يصدر إلا عن حكمة ، فكثيراً ما يفرح الابن -
خاصة لعاقل - بموت أبيه لأنه سيقرب له المال يتمتع به ، أما لقمان
فيقول عندما علم بموت أبيه الآن ملكْتُ أمري ، لأنه في حياة أبيه
كان له أمر ، لكن أمره ليس في يده ينفذ في يد أبيه ، فلما مات أبوه
صار أمره بيده

وهذه الحكمة نوضح لنا قول النبي ﷺ : أنت وما ملكت يدك
لأبيك^(٢) كأنه من العيب أن تقول في حياة أبيك أنا ملك كذا وكذا
أما الآن فقد تجاوز الأبناء كل هذه القيم ، ونسمع الآن يقول لأبيه
اكتب لي كذا وكذا

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في روايته عن عبد الله بن دينار بن لقمان قدم من
سمر ملقب علام في الطريق فقال ما فعل أبي ؟ قال مات قال الحمد لله ملكت
أمري قال ما فعل أمي ؟ قال ماتت قال ذهب همي قال ما فعلت أمراي ؟
قال ماتت قال جدد فراشي قال ما فعلت أختي ؟ قال ماتت قال سمعت
عروسي قال ما فعل أخي ؟ قال مات قال انقطع ظهري أورده السيوطي في الدر
سنن (٥١٩/٦)

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال أتني أعرابي رسول الله ﷺ فقال إن أبي يزيد بن
يحيى قال : أنت ومالك نوالك إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال
الأولاد من كسبكم فكلوه هنيئاً ، أخرجه أحمد في مسنده (١٧٩/٢ ، ٢١٤) وأبو نادر
في سننه (٢٥٢)

أما قوله « جدد فراشي » فهي كلمة لها معنى كبير أنا لا أدخل الحديدية على فرش القديمة حتى لا أجرح مشاعري أو أسي لا أتزوج إلا بعد وفاء زوجتي الأولى ، ذلك لأن العيرة طبع في النساء

وكانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكر السيدة خديجة فقد دخلت فاعلمت بنت محمد ﷺ على أنها مَعْصِيَةٌ فقال ﷺ « ما أعصيت يا أم أبيها » فقالت والله إن عائشة قالت لي إن رسول الله تروح أمك ثيباً ، ولم يتزوج بكراً عيرى ، فقال لها رسول الله « إذا أعادت عليك هذا القول - وانظر هنا إلى أدب النبوة في الرد وفي سرعة الخاطر - فقول لي لها ولكن أمتي تزوجت رسول الله وهو بكراً ، وتزوجت فيه أنت وهو ثيب »^(١) هذا كلام النبوة ومن بعدها لم تُعدها عائشة مرة أخرى

وقد يقول قائل وكيف تغار عائشة ، وهي م المؤمنين وزوج رسول الله ؟ قالوا هذه الغيرة لها معنى فقد عقد رسول الله عليها وهي بنت السادسة ، ودخل بها وهي بنت التاسعة^(٢) ، وقد جاور ﷺ الخمسين من عمره ، ومع فارق السن بينهما رضيبت عائشة برسول الله لأنها رأت فيه من مرآة نوره ما جعلها تغار عليه رغم كبر سنه وصغر سنها فلم تنظر إليه على أنه رجل عحور يكرها ، بل رأت

(١) لقد كانت عائشة تغار من خديجة رضي الله عنها ، رغم أن رسول الله ﷺ ما تزوج عائشة إلا بعد وفاء خديجة ، ومن هذا ما أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٢٧) باب فضائل خديجة أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ « ما تذكر من مجور من عجائز تودى حمراء الشدقين ، هلكت في اندهر ، أدركك الله خيراً منها » فتعجب ربه ﷺ ورجع عائشة عاضياً « والله ما يبدلني الله خيراً منها » أصاب بي حين كثر الناس ، وصدقني بك كدسي الناس ووسئني بمالها إذ حرمي الناس ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء ،

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت سب سنين ودخل علي وأنا بنت سبع سنين ولقد دخلت عليه وأنا لالعب السات مع الجراري مسدح ينفخ من صواحب فيخرج رسول الله ﷺ فيسرهني على أخرجه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (١ ، ٥٩) - ط مكنة النجاشي - هيئة الكتاب



وساعة تسمع من الله تعالى ﴿وَلَقَدْ﴾ [الفجر] فدعنا أن هنا
قَسَمًا فالواو وار القسم ، والمقسم عليه مُؤَكَّد باللام ومُؤَكَّد بقَد التثنية
تفيد التحقيق

قوله سبحانه ﴿آتَيْنَا﴾ [الفجر] الحق - سبحانه وتعالى -
في إتيانه للأشياء بمعنى تعدى ما قدره لمن قدره من خير ظاهر ومن
خير مستور وقبل أن يخلق الله الإنسان خلق له ، فجاء الإنسان
الأول (آدم عليه السلام) وطرا على كور فيه كل مقومات حياته من
هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب . الخ

وكل ذلك مُسَخَّر له تسخير لا دخل للمتفجع به فيه ، وهذا أول
الإيتاء ، بل قبل ذلك ، وفي الأول قبل أن يخلق الإنسان خلق له
مُقومات مادته ومُقومات قيمه وروحه - أي أوجدها .

لأننا نعلم أن كل صانع قبل أن يقدم على صنعة لا بد أن يحدد
الغاية ، ويضع الهدف منها أولاً ، لا أن يصنع الشيء ثم يظفر فيه لشيء
شيء يصح هذا الشيء ، كذلك لا بد أن يسبق الصنعة منهج صياستها .

فالمرق سبحانه قبل أن يخلق الإنسان وضع له مقوماته المادية
والمعنوية ، والمنهج الذي يصلحه وحدد الهدف من وجوده ، بذلك
ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه المسألة في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ
(١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣)﴾ [الرحمن] فقبل أن يخلق الله
الإنسان وضع لمنهج الذي به صياسته ، وهو القرآن الكريم

إذن فمعنى الإيتاء أن يعدى الله ما قدره من خير ظاهر أو خير
مستور لمن قدره ، ولخير يكون على نوعين : خير يقيم لمادة ، وخير
يقيم لقيم الروحية ، المادة تقوم بالهواء والطعام والشراب الخ ،
والقيم تقوم بالوحي والمنهج الذي حمله الرسل بأفعل ولا تفعل .



والله تعالى آتى كثيراً من حلقه ، فلماذا حصّر لقمان بِلذات .
فَقَالَ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ . . (٢)﴾ [لقمان] ؟ قالوا : لأن الله
تعالى حين يأمر الرسل بأمر يُسلِّعوه يُعد الرسل لهذا الأمر ، وكأن
الحق سبحانه يريد أن يقول لنا : إن العطرة السليمة تهتدى إلى الله ،
وإلى المطلوب من الله بدون وحى ، وبدون إعداد

ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - من أنه كان
يُحدِّث سيدنا رسول الله بالأمر ، ويقترح عليه مبادئ الرضى موافقاً
لرأيه ، فكيف يتسعى لعمر أن يقترح على رسول الله وفى وجوده ،
وهو المشرع الثانى بعد القرآن ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أن يثب لنا أن العطرة السليمة إذا
صعدت لله نستطيع أن نهتدى إلى الأشياء ، ونصير إلى الحق قبل أن
ينزل الوحي به

ذَن : فالإيتاء من الله لا يأتى عبثاً ، فالإيتاء الاول كان لأدم عليه
السلام ، وأدم شاء الله أن يجعله خليفة له فى الأرض ولا يعنى هذا
أنه أول المخلوقات فى الأرض ، والحق سبحانه لم يَقْرْ (نسى أول
ما خلقت خلقت آدم ، وبدل قوله تعالى ﴿وَالْجَانَّ حَقَّاهُ مِنْ قُلْ مِنْ
نَّارِ السَّمُومِ (٧٧)﴾ [الحجر]

ومسألة الخلق هذه هيبة على الله ، بدليل قوله تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ
يُدْهِمُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (٣٩)﴾ وما ذلك على الله بعبير (٢) ﴿ [إبراهيم]
فالمسألة ليست بدرجة حدثت مرة واحدة ، ولن تحدث بعد ذلك

والعلماء كلام طويل فى عوالم أخرى غير عالمنا كعالم الجن^(١) ،

(١) قال ابن سيده : الجن نوع آخر غير النجس وبقل : الجن خلق بين الجن والإنس وقال
العلاء : الجن كلاب الجن [نفس العرب - مائة - جن]

وعالم البنّ . وعالم الجن وعيرها مما لا يعلمه إلا الله ، لكنّ إن حدثك المصلّون الذين يريدون أن يستتركوا على الدين ويقولون إن الحفريات أثبتت وجود مخلوقات قبل آدم ، فكيف تقولون إن آدم أول مخلوق ؟

وسقول لهؤلاء : لم يقل أحد إن آدم أول مخلوق على الأرض . إنما هو وإن هذا الجنس البشري انتهى بسميه « إنسان » لكن سبقتة أجناس أخرى ، وشاء الله أن يجعل آدم خليفة في الأرض ثم أخبر الملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ (٣) [البقرة]

والله حين يحبر الملائكة هذا الخبر لا يستشيرهم ، إنما ليبين بهم أمراً واقعاً ، وخصّ الملائكة بهذا الإخبار ، لأنه سيكون لهم دور مع هذا الخليفة الجديد إذن فالذين قال الله لهم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ (٣) [البقرة] يمسوا كل الملائكة ، إنما الدين لهم دور ومهمة مع هذا المخلوق أما باقي الملائكة فلا يدرون بآدم ، ولا يعرفون عنه شيئاً وليس في بالهم إلا الله

واقرآن الكريم يشيرنا إلى هذه المسألة إشارةً دقيقة في قوله تعالى مخاطباً إبليس لما رفض السجود لآدم ﴿أَسْتَكْبِرُ أَمْ كُنْتُ مِنْ أَنْعَامٍ﴾ (٣٥) [ص] والمعالون هم الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود

وقلنا إن الله تعالى كرم آدم حين خلقه تعالى وبأشر خلقه بيده سبحانه . ولم يخلقه كباقي المخلوقات (يَكْرُ) ، لذلك جاء في حثية المقد على إبليس ﴿قَالَ يٰٓإِبْلَيسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ﴾ (٧٥) [ص]

إذن مباشرة الخلق يلبد دليل على العناية بالمخلوق ، لأن اليد هي الآلة الفاعلة لأكثر الأشياء ، وحتى الآن نفخر بعض اليد بقول { هذا الشيء يدوي } يعنى لم تصنعه آلة صماء ، إنما يد معكر يتقن الصنعة

وقى مسألة خلق آدم - عليه السلام - يخلو للبعض أن يقول هو الذى أخرجنا من الجنة ، فهل قال الله تعالى قبل أن يصدر أول بيان عن آدم أنى خلقه للجنة ، ثم عصى آدم ربه وتسبب فى أن يخرج منها ؟

لم يقل ذلك ، إنما قال ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً . (٣)﴾ [البقرة] فهو - إذن - مخلوق للأرض وما الجنة التى دخلها إلا حنة التجربة لا جنة الصد ، والبعض يظن أن كلمه الجبه إذا أُصْلِفَتْ تعنى جنة الآخرة وهذا خطأ بدليل قول الله تعالى ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا يِعْرِضْنَهَا مُصْبِحِينَ (١٧)﴾ [النجم]

وقوله تعالى ﴿وَاصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٢٢)﴾ [الكهف]

فالجنة فى اللغة هى المكان الملىء بالأشجار الكثيفة التى تستر من يسير فيها كما تستره أيضاً عن البيئة الخارجية لأنها تكفيه بما فيها عن الاحتياج إلى غيرها فيها كل مقومات الحياة ، ومن ذلك الجنة التى دخلها آدم ، لأن الله تعالى أراد أن يصنع لآدم تدريباً على مهمة الخلافة ، ولم لا ونحن ندرّب كل صاحب مهمة على مهمته قبل أن يقوم بها ، حتى لاعب الكرة

وحين نأخذ المندرب لتدريبه على أداء مهمته لا بد أن توفر له كل مقومات حياته ، ونكفل له بكل ما يعينه على أداء مهمته ، فنقدم له

إقامة كاملة من طعام وشراب ومسكن إلخ وكذلك فعل الله تعالى
لآدم فقال له ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥) [البقرة]

وحين نقارن بين ما أمّنه الله لآدم وما حظّره عليه نجد أنه تعالى
أباح له كُلُّ مَا فِي الْجَنَّةِ ولم يحرم عليه إلا هذه الشجرة التي
أوضحها وبينها له كما نلاحظ قوله تعالى ﴿لَا تَقْرَبَا﴾ (٣٥) [البقرة]
وهم يَقُلُّ لَا تَأْكُلَا . لأن القرب من الشيء قد يُعْرَى بمداولته ،
فاحيط أنت لنفسك بعدم اقرب منه

وهذا التدرّيب لآدم فيه إشارة رمزية لكل تكليف من الله لحلقه في
(افعل) و (لا تفعل)

ثم يدكّر الحق سبحانه آدم بالمقدمة العدائية التي حدثت بينه
وبين إبليس وينصحه بأن يحذر هذا العدو ، لأنه أُمِّي أَنْ يَسْحَدَ لَهُ
لما أمره الله بالسجود استكباراً وعُتُوّاً

والله حين يأمر بالسجود لآدم إنما يريد السجود للأمر والانصياع
له ، لا السجود لآدم في ذاته . لذلك نجد لأمر من الله تعالى يختلف
باحتلاف المأمورين ، فمرة ينهى عن شيء ويأمر بمثلته يبرى مدى
تصباطك للأمر والنهي

منى لأمج مثلاً يأمرك أَنْ تُقْبِلَ حجراً ، وَأَنْ تَرْمِيَ حجراً آخر
وترجمه ، وهذا حجر وذاك حجر ، إذن فالهجرية غير منظورة ،
لكن المنظور فيه إلى الأمر أو النهي .

وبصرف النظر عن المصلحة أو الحكمة من الأمر أو النهي . ومثلاً
حيثما يتعدى الماء يشرع السيمم بدلاً من الوضوء ، فيأتى من يقول

الوصوء بالنظافة ، فما النظافة هي التيمم ، وهو يُلَوِّثُ احسب »

ونقول فرق بين النظافة ولتطهير ، والمراد من اتيمم التطهير بشيء هو اصل في مادتك وتكوينك ، فالمسألة انضباط في صاعة الامر بان تفعل شيئاً تجعله مقدمة لصلاتك ، كأنك لا تقبل على الصلاة إلا بتهيئة ، وأيضاً لأن الصلاة بها قوام روحك وحياتك ، وحبك في الاصل ومادتك من الماء الذي تستخدمه في الوصوء والقرباب الذي تستخدمه في التيمم

إذن لهتين المادتين رمزية يجب أن تُلحظ في الدخول على الله في الصلاة ، ولا يليق بالمؤمن أن يُفلسف أمور العبادات ويبحث عن علتها والحكمة أو المصلحة من أدائها إنما يكفي أن يقول علة هذا الأمر أن الله أمر به أن يفعل ، وعلة هذا الحكم أن الله أمر به ألا يفعل

لذلك ورد عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال لو كانت المسألة بالعقل لكان أسهل الخُفُّ أوَّلِي بالمسح من أعلاه ، إذن المسألة صاعة والتزام للأمر وينتهي ، لذلك من غير المناسب أن نقول إن من حكمة الصوم أن يشعر الغنى بالهم الجوع ، فيعطف على الفقير لأنني سأقول لك إذن لماذا يصوم الفقير ؟

ونوضح هذه المسألة صريفاً مثلاً وما دُللنا تكرره قلنا إن أمر شيء على المرء صيحته ، فإن أصابته علة فأول ما يعمل عقله

(١) عن علي رضي الله عنه قال « لو كان النبي يبرأى بكان أسهل الخُفُّ أوَّلِي بالمسح من أعلاه » وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهره حقه ، أخرجه أبو داود في سننه

يبحث عن الطبيب المتخصص في مرضه فيذهب إليه ، ثم يسلم له نفسه ليفحصه ، ثم يكتب له الدواء فيأخذه ويتناوله دور ر يسأل عن علته ، أو لماذا وضعه الطبيب ، لماذا ؟

لأن الطبيب مؤتمن بعد أن تعلم ودرس وتخصص ، فانت لا تسأله ولا تناقشه لماذا كتب لك هذا الدواء وهو مع ذلك إنسان وعرضه للخطأ والنسيء والنسيان ، ومع ذلك لا يناقش إن عله تناول لدواء أن الطبيب وصفه في رعدة كل أمر عند الأمر به

والأمر في العبادات هو الحق - سبحانه وتعالى - فلا يلين بالمؤمن بعد أن آمن بالله وبحكمته وقدرته أن يبحث ليعلم الحكمة من كل أمر يأتيه من ربه عز وجل

يعود إلى آدم عليه السلام وأن الجنة التي دخلها كانت للتدريب والتحرية ولم تكن حنة لخلد تدرب فيها آدم على كل (اعمل) وعلى لا تعرف (لا تعرف) واحذر الشيطان فإنه عدو لك ، وسوف يوسوس بك ، ويفويك ، لأنه لا يريد أن يكون عاصياً وحده ، يريد أن يجرك معه إلى جماعة المعصية

وظل آدم وروجه ياكلان كما قال تعالى من الجنة رعداً حيث شاء دون أن يفريا هذه لشجرة التي مینها الله لهما إلى ر ووسوس لهما الشيطان وأغراهم بالأكل منها ، مع أن الله تعالى حذرهما وأعطاهم حفة ساعة صد للشيطان ووسوسه ، ومع ذلك حدثت من آدم العقله

وهذه العقله الله يُبَّه بها ذرية آدم من بعده أن الشيطان لن يدعكم ، وسوف يدخل عليكم بالأعبيه وحيله ، كما دخل على أبيكم آدم ، فكفروا منه على حذر واحثوا بعقولكم ما يلقى عليكم من وساوس

فَالله ، ماذا قال إبليس لأدم حين أغواه بالأكل من الشجرة ؟ قال ﴿ مَا يَهْكُمَا رُبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَسٍ وَتَكُونَا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٦) [الأعراف]

إليس من المبتدق أن يقول ولمادا لم تاكل انت معها يا إبليس فتصير ملكا وتصير من االعالمين ، ولا يمنعك فتقول ﴿ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٢٦) [الحجر] إذن كان على ادم أن يقتبه الى مكاييد الشيطان والاعيه

ثم يُنْهَى الحق - سبحانه وتعالى - من خلال هذه القصة إلى أن الشيطان سيأتيها في مقام الصاعة فلو أن آدم وزوجه ذهب إلى هذه الشجرة وأكلا منها ما وسوس لهما فهذا دليل على أنهما احتاطا للأمر فلم يقربا من الشجرة تنفيذاً لأمر الله ، لذلك تدخل الشيطان

إذن يقول إن الشيطان لا يتدخل إلا في مجال الطاعة ، أما المعصية فصاحبها كناه مؤنة الوسوسة ، الشيطان يذهب إلى المسجد لا يذهب إلى لخمارة ، لأن الذي يذهب إلى الخمارة صار شيطاناً في ذاته ، فما حاجته لإبليس ؟

لذلك يقول تعالى حكية عن إبليس ﴿ لَا أَفْعَدُ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) [الأعراف] أي في مواضع الخير وطرق اصلاح والهداية لا يضل أعمالهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، ونحن نلاحظ ذلك في صلاتنا مثلاً ، فقد تنسى شيئاً ونحاول أن نتذكره فلا نستطيع ، وعادة رأيت تصلى تذكره

قلو أبداً أحداً (الروشنة) من خالقنا عز وجل وبمجرد أن يبرز غفنا الشيطان يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بقله الشيطان ،

وعلم أننا لسنا في غفلة ، وأننا نكشف الأعيه . ونعرف حيله .
 وصدق الله العظيم حين قال ﴿ وَإِنَّمَا يَرْمِئُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ
 بِاللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [الأعراف]

وقد وصف الله الشيطان بأنه حناس . يعنى إذا ذكر الله حسن
 وتساءل فإن جاءك هذا الحاطر الشيطاني - حتى وإن كنت تقرا
 القرآن - قل بحرارة وقوة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ليعلم أن
 الأعيه لا يخفى عليك فيبصرف عقل ، أما أن تخضع له فإنه يعطيك
 فقط طرف الخيط . ويقذف لك ياباً يشعلك به ، ثم يتركك أنت (تَكُرُّ)
 هذا الخيط من نفسك ، ويذهب هو (يستعمل) واحداً غيرك

والشيطان رعم علمه . إلا أن فيه تعقيداً بدليل أنه أعلن عن
 حيلته وأظهر لنا مكايده قبل أن يكيدها بها ، فقال ﴿ لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ
 صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (٢٦) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ لَأَتِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
 خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِهِمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف] ، فالذى يدير
 المكايده ويتأمر على غيره لا يعلن عن مكايده مقدماً ، ونحن أيضاً كان
 علينا أن نحذر هذه المكايده خاصة ، وقد أعلن عدونا عنها

ولك أن تلاحظ في خملة إبليس أنه يأتيك من جهاتك الأربع ،
 ومعلوم أن الجهات ست . فلماذا لم يذكر فوقنا وتحتنا ؟ قايوا لأن
 هاتين الجهتين محجرتان بطر إلى الله عز وجل ، فالعبد ينظر إلى عز
 الربوبية في عليائه ودل العبودية إذا اتجه في سجوده إلى أسفل

إن هانت هي معية ربك في هاتين السجودتين ، والشيطان لا ينال
 منك إلا وأنت بعيد عن معية ربك ومثلًا لذلك ، والله المثل الأعلى ،
 فلما كان الغلام إذا كان يسير في يد أبيه وفي صحبته ، لا يجرؤ أحد
 من أمثاله على الاعتداء عليه ، إنما إن سار وحده فهو عرضة للإيذاء

وهذا دليل على علم إبليس وعلى مكانته . ونلاحظ هذا أيضاً في قوله ﴿لَأُعَوِّثَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إلا عبدك منهم المخلصين (٨٣) ﴿[ص]﴾ كانه يقول لربه أما لا أقترّب من عبدة الدين هم على حصانتك . وفي معيتك

والتعفيل الأكبر على إبليس أنه مع علمه بمقام ربه يتمرد على أمره . حين يأمره بالسجود فلا يسجد

ب. ثم الله تعالى آدم وحذره من كيّد إبليس ، وكان عليه أن يحذر والأ تدخل عليه حيلة الأكل من الشجرة إلا أنه في غفلة منه عن أمر ربه أكل من الشجرة ، فلما حالف الأمر احتلفت طبيعته . وبدأ له ولروجه السوءة ، وكانت المرة الأولى التي يشعر فيها آدم بعموره عند خروج الغائط

لكن ، ما الفرق بين فتحة دخول الطعام (الفم) وفتحة خروجها ، ولماذا أصبحت هذه عورة ، وهذه غير عورة ؟

قالوا لأن آدم حال طاعته لأمر ربه في الأكل من ثمار الجنة كان يأكل بطهي ربه ، وهو مهوى بحكمة وبقدر معلوم . يكفي مقومات الحياة ولا يريد عنها . لذلك لم يَنُوقْ في بطن آدم فضلات ، ولم يوجد عنده عارات أو أرياح ، فلم يشعر في هذه الحالة بحاجة إلى النعوط فكانت الفتحتان متساويتين ، هذه فتحة ، وهذه فتحة

فلما خالف آدم أمر ربه وذق الشجرة احتلفت الأغذية في بطنه ، وحدث لها تفاعلات ونتاج عنها فضلات وأرياح ، ولما أحس بها آدم كفر منها وأصابه الحجل ، وشعر أنها عوره ينبغي أن تُستتر ، فالصبيح السليم لا بُدَّ أن يفر منها ، لذلك أخذ يزِيل هذا الأذى عن نفسه



ويستره بأوراق الشجر ، ومدد ذلك لحين لم يستطع آدم أن يسد هذه الفتحة ، ولن تسد

إذن الحق سبحانه جعل الدربة لآدم في اجبة هذه ، وهياً به فيها طعامه ، ونهاه عن نوع بعبه^(١) ، فأمره ونهاه وعلمه وحذره ، فلما وقع في امحافة وأعوه الشيطان ولم يعمل بمصلحة ربه أخرج به إلى الارض بهذه التجربة ، لتكون رمزاً له ولذريته من بعده أن سررت على منهجى ووفق أوامرى فى (فعل) و (لا تفعل) فلن تحد عوره فى الكون كله ، ونحن نرى ذلك فعلاً فى حركة حياتنا فى الكون ، فلا نرى عورة فى المجتمع ولا حلاً إلا إذا حولت أوامر الله

هذا هو الإتيان الأول ، بعد ذلك قدر الله غفلة البشر فأرسل إليهم الرسل بالمنهج فكان إتيان آخر ، كما قال تعالى ﴿وَأْتَيْنَا دَاوُودَ زُورًا﴾ [الزمر: ١٦٣] وقال فى عيسى عليه السلام ﴿وَأْتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [٢٧]

(١) قال تعالى ﴿وَوَقْنَا بَيْنَ آدَمَ وَزَوْجِهِ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مَعَهَا وَعَمَّا حَيْثُ شَقَمُوا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] قال ابن كثير فى تفسيره (٧٩/١) : اختلف فى هذه الشجرة ما هى ؟

الكرم (العنب) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما

الحنطة رعبه اليهود

التينة قاله مجاهد وقتادة وابن جريج

السنبلة قاله ابن عباس

المطه قاله أبو مالك

البر قاله وهب بن منبه

قال ابن كثير فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله والصواب فى ذلك أن يقال إن الله عز وجل شاء بهى آدم وزوجه من أكل شجرة يعيبها من أشجار الجنة من مائر أشجارها مأكلاً منها ولا عيب بهى شجرة كانت على النعس ، لأن الله لم يصنع عباده ليللاً على ذلك فى القرآن ولا من السمة المسيئة وذلك علم إذا علم لم ينع العالم به علمه وإن حمله حمل لم يضره جهله به

وهذا الإيتاء من الله يتم في حقاء ، لذلك يُسمونه وحياً ، وهو من الغيبيات . قاله تعالى لا يمدُّ يده فيعطى النبي أو الرسول شيئاً حسبياً ، ومن هنا ارتبط الإيمان بالعيبية دون المحسَّات ، فأنا لا أقول مثلاً آمناً بأبى فاعد في مسجد الشح سليمان وأمامي جمع من لإحوة الخ إدى لا يُدَّ أن يكون الإيمان بأمر عيبي

الحق - سبحانه وتعالى - يؤبى على موالى العصور أدياءه معجزات ويؤتيهم منها يسوس حركة الحياة ولا يقتصر إيتاء الله على المرسل ، إنما يؤتى غير المرسل ، ويؤتى الحيوان . الخ

ثم يعطينا الحق سبحانه نموذجاً للحكمة اتى آتاهما لقمان ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ ۚ ۞ ﴾ [لقمان] هذه من الحكمة الأولى في الوجود ، لأنك إن شكرت الله على ما قدَّم لك قبل أن تُوحَّد وعلى ما أعطاك قبل أن تسأل ، وعلى ما هدى جوارحك لتؤبى مهمتها حتى وأنت نائم ، كانه تعالى يقول لعباده ناموا أنتم مريكم لا تأخذنه سعة ولا نوم

فإن شكرك الله يهزم أول لينة من لينات الاغترار ، هالذى يفسد خلافة الإنسان في الأرض أن يفتنر بما أعطاه الله وبما وهبه ، ويسبى أنه حييفة ، ويعتبر نفسه أصيلاً في الكون ، والشكر لله تعالى يكون على ما قدَّم لك من نعم

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البص] أى تشكر الله على ما سبق . فقد ولدت لا تعلم شيئاً ، ثم تكون عندك آلات الإدراك والعلم ، فعلمت وملأت قلبك بالمعاني الجميلة لذلك يشكر الله عليها ، فجعل هذه الآلات لك ، علته أن تشكر أى على ما مضى

ثم هناك شكر آخر ، لا على ما فات ، لكن شكر هو في ذاته
نعمة جديدة ونأمل في ذلك قول الله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ
الرَّيَّاحَ مُبْشِرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُخْرِجَ أَفْكَكُمْ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
(٤٦) ﴾ [الروم] هذه كلها نعم يعطف عليها بقوله ﴿ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(٤٦) ﴾ [الروم]

فعطف لشكر على النعم السابقة يعنى أنه في ذاته نعمة ، وإلا
لقال كما في الآية السابقة ﴿ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [سجدة]
والشكر بهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى ﴿ لئن شكرتم
لَأزيدنكم .. (٧) ﴾ [إبراهيم] فهذا شكر لما سبق ، وهذا شكر لما هو
آت

والشكر في قوله تعالى ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٧) ﴾ [نمل] موجه إلى
الله تعالى ، فكيف إذا توجه الشكر في اسباب تناوله إلى غير الله ،
كأن نشكر صاحب البيت الذي قدم لك معروفاً مثلاً ؟ قالوا : لو تأملت
شكر غير الله ممن قدم لك معروفاً يستوجب الشكر لوحدته بؤرول إلى
شكر الله في النهاية

لذلك قالوا لا تشكر الله إلا حين تشكر من ساق لك الجميل على
يديه ، يعنى حله سبباً في قضاء حاجتك ثم إن الذى قدم لك
جميلاً ، ما قدمه لك وما أترك على نفسه ، لا لأن الله أمره بذلك ،
ودعاء إليه وأثابه على فعله ، فإذا سلسلت الشكر لانتهى إلى شكر
الله تعالى

ثم يقول سبحانه ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ
عَنِ حَمِيدٍ (١٧) ﴾ [نمل] علماً أن الشكر لله هو أول الحكمة ، فلماذا ؟

لأن مَنْ يشكر نعوذ إليه ثمرة شكره

وياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أن تشكره ، فشكرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى ، كيف وقد رسع سبحانه الكافر لدى كفره ، ولم يقطع عنه نعمه ، ذلك لأنه سبحانه على عن خلقه ﴿ ومن كفر فإن الله غنيٌ حميدٌ ﴾ (١٢٠) [النمل] لأنه سبحانه يعرف أنه رب ، حتى للكافر ايجاد

ولنلاحظ في الأسلوب هنا عظمة وروعة ففي الشكر قال سبحانه ﴿ ومن يشكُر ﴾ (١٢٠) [النمل] ما في الكفر فقال ﴿ ومن كفر ﴾ .. (١٢١) [النمل] ولم يقل ومن يكفر ، وفرق بين الأسلوبين ، والكلام هنا كلام رب ، ففي الشكر جاء بالفعل المضارع ﴿ يشكر ﴾ .. (١٢٠) [النمل] الدال على الحال والاستقبال فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر

وكأنه - سبحانه وتعالى - لا يريد من عبده الدوام على كفره ، فلعل يتوب ويرجع إلى ساحه الإيمان ، فجاء بالفعل الماضي ﴿ كفر ﴾ (١٢١) [النمل] أي في الماضي فحسب ، وقد لا يعود في المستقبل وهذا مظهر من مظهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم ،

ومعنى ﴿ حميدٌ ﴾ (١٢٠) [النمل] من صبع المبالغة على وزن « فاعيل » وتأتي مرة بمعنى « فاعل » مثل رحيم ، ومرة بمعنى « مفعول » مثل قتل أي مقتول والمعنى هنا ﴿ حميدٌ ﴾ (١٢٠) [النمل] أي محمود وجاءت هذه الصفة بعد ﴿ غنيٌ ﴾ (١٢٠) [النمل] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذي حلم عليه ، ولم يعامله بالمثل

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَنْتَنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ
إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢)

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكم لقمان التي رواها القرآن الكريم ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ (٢) [نفس] قوله ﴿وَإِذْ﴾ (٢) [لقمان] أي أنكر يا محمد حين قال لقمان لابنه ، ونوجيه حكمة لقمان وبصيحته لانه مدلنا على صدق ما روى عنه أنه كان يفتي الناس ويعطهم قمل سيدنا داود عليه اسلام . فلم جاء داود أمسك لقمان وقال ألا اكتفى وقد كُفيت ، ثم وجه بصائحته لمن يحب وهو ولده

ولذلك ، فالإمام أبو حنيفة - رضوان الله عليه - عندما شكاه القاضي ابن أبي ليلى^(١) إلى الخليفة أمه يقند شكواه وأحكامه ، فأرسل إليه الخليفة بأن يترك الفتوى ويبدأ هو في بيته إذ جاءته ابنته وقالت له يا أبي حدث لي كذا وكذا - تريد أن تستفتيه - فهاذا قال لها وهي ابنته ؟ قال سألني أباك حماداً ، فبين أمير المؤمنين نهامي عن الفسأ

وقد رُوي أن يتكلم الإنسان مع عامة الخلق ، وبين أن يتكلم مع

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، الأنصاري الكوفي ، ناصي فقيه من أصحاب الرأي ولد ٧٤ هـ ولى القضاء والحكم بالكوفة لبني أمية ، ثم بنى العباس ، واستمر ٣٢ سنة له أخبار مع الإمام أبي حنيفة وغيره . مات بالكوفة عام ١١٨ هـ عن ٧٥ عاماً (الاعلام للبركلى ١٨٩/٦) (تذكرة الحفاظ للذهبي ١٧١/٦)

ولده ، فالإنس هو الإنسان لوحيده هي الوجود الذي يؤد أبوه أن يكون الابن أفضل وأحسن حالاً منه . ويتمنى أن يُعْرَضَ ما فاتته في نفسه في ولده ويتدارك فيه ما فات من خير

ومعنى ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ . (١٣) ﴿ [إنسان] الوعظ هو التذكير بمعلومة غلبت من قبل مخافة أن تُنسى ، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة إنما يُنبه غيبك إلى شيء موجود عندك ، لكن غفلت عنه ، فهناك فرق بين عام يعلم ، وواعظ يعظ ، والوعظ للابن يعنى أنه كان على علم أيضاً بالمسائل ، وكان نور الوالد أن يعظه ويُذكّره

ويلحظ في أسلوب الآية أن الله تعالى لما أحبر عنه قال ﴿ وَإِذْ قَالَ لِقَمَانُ لِابْنِهِ ﴾ . (١٤) ﴿ [لقمان] ولما تكلم لقمان عن ابنه قال ﴿ بَنِي ، (١٣) ﴿ [بنس] ولم يقل يا ابني فصغره تصغير اللطف والترقيق وليوحى له أنك لا تزال في حجة إلى بسانحي وإياك أن تظن أنك كبرت وتزوجت فاستغيت عني

وأول عظة من الوالد للولد ﴿ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ . (١٥) ﴿ [بمن] وهذه قصة العقائد ، لذلك بدأ بها ، لأنه يريد أن يصحح به مفهومه في الوجود ويلف بطره إلى أن الأشياء التي نعم بها آبائك وأجدادك لا تزال تعطى في الكون ، ومن العجيب أنها باقية ، وهي تعطى في حين يموت المعصى المستفيد بها

وتأمل منذ خلق الله الكون كم جيل من البشر انتفع بالشمس ومع ذلك اندثروا جميعاً وما زالت الشمس باهرة كدأب أنقمر والهواء والحباب الخ فكيف و أنت سيد هذا الكون يكون حاتمك أطول عمراً منك ؟

إن على العاقل أن يتأمل ، وعلى الإنسان الذي كرمه الله على

سائر المخلوقات أن يقول لا مدُّ أن لي عمراً أطول من عمر هذه المخلوقات التي تصدمني . وهذا لا ينأى إلا حين تصل عمرك في الدنيا بعمرك في الآخرة ، وهذا يستدعي أن تؤمن بالله والآن تشرك به شيئاً ، فهو وحده سبحانه الذي خلق لك هذا كله وأعدَّ لخدمتك قبل أن توجد

واقرا ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [القصص]

فكيف تدعى أن لك شركاء في الخلق ، وهم أنفسهم لم يدعوا أنهم آلهة ، أو أنهم خلقوا شيئاً في كون الله ؟ كيف وأنت تسير في الصحراء ، ترى الحر بعجت فتأخذه وتُسويّه وتجعله إلهاً ولو هبَّت الريح لأطاحت به ؟

ثم ما المنهج الذي جاءكم به هذه الآلهة بم أمرتكم وعمّ نهكم ؟ ماذا أعدت من نعيم لمن عبيدها ، وماذا أعدت من عذاب لمن كفر بها ؟ إذن فهذه آلهة بلا تكليف والعبادة في حقيقتها أن تطيع العابد أمر معبوده ، إذن هي آلهة باطلة لا يحقّ بطلانها على العقل

لذلك يقول لقمان ﴿ إِنَّ الشُّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان] نعم الشرك ظلم ، لأن الظلم يعني نُقِلَ حق الغير إلى الغير ، وقمة الظلم ومنتهاه أن تأخذ حق الله ، وتعطيه لغير الله ، ألا ترى أن الصحابة ضجّوا لما نزل قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ يُبْسَوْنَ بِمَصَاهِمِ ظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام]

(١١) عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية يا الذين آمنوا وهم يبسوا بمصاهم بظلم (١١٧) [الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ قال إنه ليس الذي تصور ألم تسعوا الحمد الصالح ﴿ إِنَّ الشُّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك ، حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٧٦) وكذا مسلم في صحيحه (١٢٠١) كتاب الإيمان

وقالوا يا رسول الله ، ومنَ منْ لم يخالط إيمانه ظلم « فهذا
رسول الله من روعهم وطمأنهم أن المراء بالظلم هنا ظلم النعمة أي
المشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢) [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً أُمَّهُ
وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ
أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٤)

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه ، أم هي كلام جديد من الله
تعالى جاء في سياق كلام لقمان ؟ قلنا " هو من كلام الحق تبارك
وتعالى ، دليل قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَلَنْ جَاهِلُكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي
مَا لَيْسَ نَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُنصِبْهُمَا ..﴾ (١٥) [لقمان]

ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته
لابنه ، فجاءت وكأنها حكاية عنه

وصعني ﴿وَوَصَّيْنَا ..﴾ (١٤) [لقمان] يعنى علما ووعظنا ، وهما
يدلان على معلومات تتحدى بعلمنا ويذكر بها هي وعظنا ، ويؤقضى بها

(١) قيل إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه أحبب الله به عبده ، ي قد نغمس لأمته
لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والدك فإن الله وصى بها في طاعتهم مما لا يكون
شركا ومعصية لله تعالى

وقيل إنه قال لقمان لابنه لا تشرك وتحن وصيتا الإنسان بوالديه حسنا ، وأمر الناس
بها وأمر لقمان به أبوه

قال القرطبي في تفسيره (٥٢٢٠/٧) ذكر هذه الاموال القشيرية والصحيح أن هاتين
الآيتين برلتا في شأن سعد بن أبي وقاص وعليه جماعة المعسرين

حين جمعنا كل الجير في كلمة واحدة ، لذلك ناسى ﷺ عندما حصب الذس في حجة الوداع^(١) ذكر أمهات الفضائل ، لماذا ؟ لأنه آخر كلامه إليهم والموقف لا يناسب أن يذكر فيه تفاصيل الدين كله ، فاكتمل بذكر أسسه وقواعده كالرجل مئاً حين تحضره الوفاة يجمع أولاده ويوصيهم ، فيحتر الأمور الهامة والخلاصة في أضيق نطاق

الله تعالى يقول ﴿ وَرَضِيَ الْإِنسَانُ بِرَأْسِهِ .. ﴾ (١١) [النساء] والوصية بالنولدين بالذات تُخَذُّ رَقْعَةً واسعة في كتاب الله في هذه الآية ذكر عنة الوصية ، فقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ . ﴾ (١٢)

وفي خمس آيات أخرى وردت كلمة (أحساناً) ، في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴾ (٨٣) [البقرة]

وفي سورة النساء ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴾ (٣٦) [النساء]

وفي الانعام ﴿ قُلْ بَعَالُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . ﴾ (١٥١) [الانعام]

وفي الإسراء ﴿ وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تُعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . ﴾ (٢٣) [الإسراء]

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قال في خطبة هذه الحجة ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا معرض ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، الخطبة بتمامها أوردها ابن هشام في السيرة النبوية (٤/٦٠٣ ، ٦٠٤)

وفي الأحقاف ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً
ورضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ..﴾ (١٥) [الأحقاف]

وفي آية واحدة وردت كلمة (حسناً) في سورة العنكبوت
﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ..﴾ (٨) [العنكبوت]

وفي آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين
الكلمتين (حسناً وإحساناً) هي الآية التي نحن بصدد الحديث
عنها

لكن ، ما الفرق بين (إحساناً) و (حسناً) ؟ الفرق أن الإحسان
مصدر أحسن ، وأحسن حدث ، تقوى أحسن فلان إحساناً ، أما
حسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصغر لهذه المادة كما تقول فلان
عادل فوصفته بالعدل ، فإن أردت أن تبالغ في هذا الوصف تقول
فلان عدل أي في ذاته ، لا مجرد وصف له

إنّ فحسناً أكد في الوصف من إحساناً ، فلماذا جاءت في هذه
الآية بالذات ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ [العنكبوت] قالوا
لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسّ قعة العقيدة ، فسوف يطلب
الوائدان من الابن أن يشرب به

لذلك احتاج الأمر أن توصي الابن بالحسن في ذاته وفي أسمى
توكيدهاته فلم يُقرّ هنا (إحساناً) إنما قال (حسناً) حتى لا يظن أن
دعوتهما إياه إلى الشرب مبرر لإهانتهم . و التحلى بهما ، لذلك
يُعلمنا ربنا ﴿ فلا تُصعبهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ (٥٥) [لقمان]

وإن كانت الوصية هنا بالوالدين إلا أن حيثيات الوصية خاصة
بإلام ﴿ حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ﴾ (٦٠) [لقمان] فلم

يذكر شيئاً عن دور الأب . لماذا ؟ قالوا لأن الكلام هنا كلام رب . وما عليك إلا أن تعمل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى سقائه

الله تعالى يدكرنا هنا بدور الأم خاصة ، لأنها تصعب لك وأنت صغير لا تدرك صنعها ، فهو مسنور عنك لا تعرفه أم أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كبيرك وإدراكك للأمور من حولك ، فالابن يعرف ما قدم أموه من أجله

فكان أفعال الأب وجدت حين تم تكوين لعمر العقلي الواعي ففهم الابن ما فعل أموه . وكثيراً ما سمع الابن أبوك ذهب إلى كذا . أبوك أحضر لك كذا . وهنا الأمر عندما يأتي أبوك الخ ، فدور الأب طاهر على خلاف دور الأم ، لذلك ذكره الحق ببارك وتعالى هنا ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ﴾ [النجم]

ويأتي من يقول أليس الابن ببيضة النقاء الأب والأم بهما فيه سوء ؟ ونقول بلى لكن مشقة الأم فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة ، وبولا أن الله تعالى ربط النسل بالشهوة ليرهد الناس فيه لما تتحمله الأم من مشاق ، ولما يتحمله الأب من تعبات الأولاد

وتعرف قصة المرأة التي ذهبت تقاصي زوجها لأنه يريد أن يأخذ ولدها منها فقالت للقاصي وقد قال لها أليس الولد ولدكما معاً ؟ قالت بلى ، ولكنه حملة حقاً ووضعه شهوة ، وحملته وهنا على وهن . فحكم لها

ومعنى ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ﴾ [نجم] أي ضعفاً على ضعف ، والمرأة بدانتها ضعيفة فاجتمع لها ضعفها الذاتي مع ضعف بسبب الجسد الذي يتعذى منها ، ويكبر في أحشائها يوماً بعد يوم ، لذلك قلنا إن من حكمة الله تعالى في خلق الرحم أن يجعله قابلاً

لستمرد والاتساع ليحتوى الجنين فى مراحل الحمل المختلفة إلى أن
يربد الحبل ريادة لا يتحمسها اتساع الرحم فينفجر إيداً مولادة
إنسان جديد وخلق آخر كما قال تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأَهُ حُلُقًا آخِرًا تَبَارَكَ
اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٨)

[المؤسوس]

والجنين كان خلقاً تابعاً لأمه فى غذائه وفى تنفسه وحركته ، لكن
حينما جاء أمر الله وأذن بميلاده أنشأ خلقاً آخر له مقومات حياة
مستقلة غير متصل بأمه

ويقولون فى هذه العملية (القر طش) كما تنفجر البالونة إذا
نفخت لدرجة أكثر مما تتحمل ، ومن العجيب أن الرحم يتسع بقدره
الله لعدة ثوانى كما نرى ونسمع

ومن عظمة الخالق سبحانه فى مسألة الرزق أن رزق الجنين يأتى
منفصلاً عن رزق أمه ، فكل منهم رزق لا يأخذه الآخر ، ومعلوم أن
المرأة حين يُقَدَّرُ لها حمل يقطع عنها الدم الذى كان ينزل بصفة
دورية حال فراغ الرحم من الحمل هذا الدم هو الذى جعله الله غذاءً
لجنين الجديد .

أما إذا لم يُقَدَّرْ لها حمل فإن جسمها يطر هذا الدم ويتخلص منه
ولا يستفيد منه ، لماذا ؟ لأنه ليس غذاءها ، وكان الحلق - عر وجن -
يُنْبَهُنا أن نكل من رزقه الذى لا يتعداه إلى غيره

وأيضاً من حكمته تعالى فى وَصْع الجنين فى بطن أمه عند
الولادة أن ينزل برأسه ، وهذا هو الوضع الطبيعى لولادة طفل سليم ،
لأن أول ضروريات الحياة لطفل ساعة يفصل عن أمه أن يتنفس ،
فإذا نزل برأسه - وهذا الوضع يحاول أطباء الولادة التأكيد منه -
استطاع التنفس حتى وإن تعسر نزول باقى جسمه ، أما إن نزل

الطفل يحكس هذا الوضع فإنه يحتنق ويموت قبل أن يتم نزوله

ثم يقول سبحانه ﴿وَلِصَالِهِ فِي عَامِينَ ..﴾ (٤٤) [لقمان] الفصل

أى لانفصال عن الأم فى مسألة الرضاعة ومنه يسعون ولد الذقة الذى استخفى عن لبنها افضيل أى اذى فصل عن أمه ، وأصبح قادراً على أن يأكل وأن يعيش دون مساعدتها ، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للام

أما العملية الجنسية التى أثمرت الولد فكانت شركة بينهما ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أن للام الدور الأكبر وعليها العبء الأكبر فى مسألة الأولاد لذلك كان لها الحظ الأوفر فى وصية لنبى ﷺ للصحابى لدى سألته مَنْ أَحَقُّ بِإِنْسَانٍ بِحُسْنِ صَحَابَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فقال ﷺ أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك^(١) ، فأعطى كلاهما على قدر ما قدم

ومسألة الفصال هذه شُرحت فى آيات أخرى ، فعلى سورة البقرة ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .

﴾ [البقرة] وهذه تؤكد ﴿وفصاله فى عامين ..﴾ (٤٥) [لقمان]

وفى آية أخرى نجمع الحمل والرضاعة معاً ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ..﴾ (٤٦) [الأحقاف] ويحصم العامين من الثلاثين شهراً يكون الناقى ستة أشهر وهى أقل مدة للحمل

وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام على - رضى الله عنه - حبيب

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧١) ، وكذا مسلم فى صحيحه

(٢٥٤٨) كتاب البر والصلة ، من حديث أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

فقال يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابى ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال أمك

قال ثم من ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال ثم أبوك .

رأى عمر رضي الله عنه يريد أن يُقيم أحد على امرأة ولدت لستة أشهر ، لأنه يعتقد أن مدة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر يا أمير المؤمنين ، الله يقول غير ذلك فقال وحاشا يقول الله ، فذكر على الآيتين السابقتين

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۖ ﴾ (١٥) [الأحقاف]

والأخرى ﴿ وَأَن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۖ ﴾ (١٦) [لقمان]

ثم بين له على أن أقل مدة الحمل بناءً على هاتين الآيتين ستة أشهر ، فقال عمر يتس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن

وقوله تعالى ﴿ أَن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۖ ﴾ [لقمان] فإنه تعالى هو المستحق للشكر أولاً ، لأنه سبحانه هو الذي أنشأ من عدم ، وأمد من عدم ، ثم الوالدان لأنهما السبب في الإيجاد وإشياء الولد

فكان أحق بسبحانه مسبب أعلى ، لأنه خلق من لا شيء ، والوالدان سبب من أسباب الله في الوجود ، إذن لا تحسن شكر الله

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١٥٧/٤) : قد استدل على رضي الله عنه بهذه الآية ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۖ ﴾ (١٥) [الأحقاف] مع التي في بقار ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ۖ ﴾ (١٦) [لقمان] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنبط قوى صحيح ووافق عليه عثمان وجماعته من الصحابة

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه (٤٥٧/١) والبيهقي في شعب الإيمان من أبي سعيد الحمري عن : ححشا مع عمر رضي الله عنه ، فلما سمع الطراب استقبل الحجر فقال : يا أبا بكر أنك حجر لا تسمع ، وهو حديث طويل وأبوه أن عمر رضي الله عنه قال : أعوذ بالله تعالى أن أعيش في قوم لست منهم يا أبا الحسن ، ، وذلك بعد أن قال له على بن ربه يصر ويضع ، ليس يشهد يوم القيامة لمن قبله

الحالِق الأول والمسبَّب الأعلى حتى تُحسِنَ شكر الوالدين وهما
السبب الثاني في وجودك

فقله سبحانه ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [النمل: ٢٤] [لقمان]
أي على الإيجاد ، لكن في موضع آخر ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا
رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] وهذه للإيجاد وللتربية وللعناية ، فكما أن
هناك أئمة للإيجاد هناك أئمة للتربية ، فكثيراً ما نجد الطفل يربيه غير
أبيه وغير أمه ، ولا بُدَّ أن يكون لهؤلاء نصيب من الشكر ومن الولاء
والبر ما دام أن الله تعالى ذكرهم في العلة ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا
رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [٢٤] [الإسراء]

والعلة تدور مع المفعول وجوداً وعدمًا ، فإذا لم يكن
للأب الحقيقي وجود ، فالأبوه لمن رأى ، وبه نفس حقوق الأب من
حيث الشكر والبر والمودة بل ينبغي أن يكون حقّه مصاعفاً ،
لأن في الأب الحقيقي عطف البهيم على النضع ، وفي الأب
المربّي عطف الدين على الدين وهذه مسألة أخرى غير مجرد
الأئمة

لكن ، هل شكر الله أولاً دُرِّية على أن تشكر الوالدين ، وهما
السبب المباشر في وجودك ؟ أم أن شكر الوالدين دُرِّية على أن تشكر
الله الذي خلقك وأوجدك ؟ نقول ههنا ، فشكر الله يستلزم شكر
الوالدين ، وشكر الوالدين ينتهي إلى شكر الله

وقوله ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [٢٤] [لقمان] أي المرجع ، والمعنى
أسي أو صيك بأهم شيء فاحذر أن تخالف وصفتي ، لأنني أقدر على
أن أعاقب من خالف

ثم بقول الحق سبحانه^(١)

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

يؤكد الحق سبحانه على أمر الوالدين ، وكأثره سبحانه استندل
غير مستدرك ، فليس لأحد أن يستدرك على الله وكان واحداً كان
يناقش رسول الله ﷺ في أمر الوالدين وما نزل في شأنهما فسأل
كيف لو أمراني بالكفر ، أكفر طاعة لهما ؟ لذلك جاء الحكم من الله
في هذه المسألة

وهي آية لعنكوت ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ
لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [لعنكوت]

(١) سبب نزول الآية قال سعد بن أبي وقاص : نزلت في هذه الآية ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ
تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان] كنت رجلاً
براً بأمي فقد أسلمت قالت يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لقد منيتك هذا
أو لا أكل ولا أشرب حتى موت صغير بي فبقى يا قاتل أمه قتله يا أمه لا تعلمي
هأني لا أذع دسي هذا لشيء . فمكنت يدي لا تأكل . فأصبحت قد جاهدت ، فمكنت
يوماً آخر وبيته وقد اشتد جهدي ، فلم رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك
عانة نفس فخرجت بغياً بغياً ما تركت دسي هذا لشيء . فإن شئت فكلني وإن شئت فلا
تأكلني فلما رأيت ذلك أكلت فبرئت هذه الآية أورده السيوطي في الدر المنثور
(٥٢١/٦) وهؤلاء لا يسمي والمبايراني ومن مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية

فذكر فيهم (حَسَنًا) ولم يقل فيها ﴿ وصاحبيهما في الدنيا معروفًا ﴾ .. (١٥) ﴿ [قمار] فكان كلمة الحُسْن ، وهي الوصف الحامع لكل مدلولات الحُسْن أُعْتُبُ عن المصاحبة بالمعروف .

ومعنى ﴿ جَاهِدَاك ﴾ .. (١٥) ﴿ [قمار] مقول حامد وحهد . جهد أى فى نفسه ، أما جامد مفعيها مفاعلة مع العير مقول جاهد علان فلاناً مثل قاتل ، فهي تدل على المشاركة فى الفعل كما لو قلت شارك عمرو ريداً ، فكل منهما فاعل ، وكل منهما مفعول ، لكن تغيب لفاعلية فى واحد ، والمفعولية فى الآخر

بمعنى ﴿ وإن جَاهِدَاك ﴾ .. (١٥) ﴿ [قمار] لا تعنى مجرد كلمة عرصاً فيها عليك أن تشرك بالله ، إنما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذب إلى محارباتهما فى الشر بالله ، فإذن حدث منهما ذلك فمصيحتى لك ﴿ فَلَا تُظْلِمُهُمَا ﴾ .. (١٥) ﴿ [قمار]

ثم إياك أن تتخذ من كفرهما ودعوتيهما لك إلى الكفر سبباً فى اللد معهما ، أو قطع الرحم ، فحتى مع الكفر يكون لهم حق عليك ﴿ وصاحبيهما فى الدنيا معروفًا ﴾ .. (١٥) ﴿ [قمار] ثم إنهما كفرا بى أنا ، وأنا الذى أوصيك بهما معروفًا

وقوله تعالى ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ .. (١٥) ﴿ [قمار] أى إن تكون وحدك ، إنما سببك أُنَاسٌ قَطَعُ نَابُوا وَأَنَابُوا فَكُنْ معهم ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ .. (١٥) ﴿ [قمار] أى مأواكم جميعاً

قالوا إن هذه الآية نزلت فى سعد بن أمى وقاص ، الذى قال

فيه رسول الله ﷺ . « حالي سعد ، فليُرني امرؤ حاله »^(١) ولما سلم سعد عصيت أمه^(٢) - وكانت شديدة الحب له - فكادت تُجِرُ وحلعت لا تأكل ولا تشرب ولا تفتسل ، وأنْ تَتَحَرَّى في حرِّ الشمس حتى يرجع عن دينه ، فلما علم سعد بذلك قال : «عوها والله لو عصتها الجوع لأكلت» . ولو عصتها العطش لشربت» ، ولو أذاها القمل لاغتسلت» ، أما فلن أحمده عن الدين الذي أبا عليه . فنزلت ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ﴾ (٢٥)

ولو أن احدى نكرا بالله ويريد لغيره من المؤمنين أن يكفر معه كابي أو غيره ، ثم يرى وصيه الله به رغم كفره لعلم أن الله تعالى رب رحيم لا يستحق منه هذا الجحود .

وسبق أن ذكرنا الحديث القيسى الذي قالت فيه الأرض : « رب اذن لي أن أخسف بامر آدم ، فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك وقالت السماء : رب اذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب اذن لي أن أعرق ابن آدم فقد طعم حبيبك ، ومنع شكرك » . إلخ ، فقال الحق تبارك وتعالى : لو خلقتهم لرحمتهم^(٣) »

١) ذكره ابن حجر العسقلاني في « الإصابة » (ترجمة ٣١٨٧) وعراه للترمذي من حديث جابر قال : أتى سعد فقال للنبي ﷺ : « هذا خالي فليُرني امرؤ حاله » وأمرجه الحاكم في مستدركه (٤٩٨ ٣) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يصرجاه وابن سعد في الطبقات (١٢٨ ٣)

٢) هي حمنة بنت سفيان بن أمية . قال ابن حجر العسقلاني في « الإصابة » في تمييز الصحابة ، (ترجمة ٣١٨٧) في ترجمة أبيها سعد : « هي بنت عم أبي سفيان بن حرب ابن أمية »

٣) أورده الإمام الترمذي في إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ونقظه : « ما من عبد يعصر إلا سقاه من الآرض أن يحسف به » واستأنس بشفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً فيقول الله تعالى للارض والسماء : كفَّا عن عبادي وإمهلاه فإنكما لم تخلقاها ولو خلقتما لرحمتما ولعنه يشرب إلى فمقر له . ولطه يستبدل صالحاً فأنزل له حساباً .

ذلك لأنهم عباد الله ، صنعوه . ومن رأيتم صاحب صنعة يُحطّم
صنعيته ، وجاء في الحديث النبوي « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم
سقط على بعيره ، وقد أضله في أرض فلاة »^(١)

إذن فنعّم الرب هو

ويُروى أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - جاءه ضيف ، قرأى
أن سمّته غير سمّت المؤمنين ، فسأله عن دينه فقال إنه من عبّد
البار ، هرد إبراهيم السبب في وجهه ، فأنصرف الرجل ، فعاتب الله
بنيه إبراهيم في شأن هذا الرجل فقال يا إبراهيم ، تريد أن تصرفه
عن دينه لضيفة ليلة . وقد وسعته طوال عمره ، وهو كافر بي^(٢)

فأسرع إبراهيم حلف الرجل حتى لحق به وأحضره بما كان من
عتاب الله له فقال الرجل نعم الرب رب يعاتب أحبابه في أعدائه ،
ثم شهد ألا إله إلا الله

فلو أن الكافر الذي يريد الكفر لغيره يعرف أن الله يوصي به وهو
كافر ، ويرقّق له القلوب لئلا إلى ساحة الإيمان بالله . لذلك كثيراً
ما يقابل أصحاب ديانات أخرى بعشعشعون الإسلام فتحاربوه ، فيخصب
عليهم أهلهم عنقول الواحد منهم كُنْ في دينك الجديده أبرّ بهم من
دينك القديم ، ليسلموا محاسن دينك ، فضاعف لهم أبر ، وضاعف
بهم المعروف ، لعل ذلك يرقّق قلوبهم ويعطفهم نحو دينك

(١) حديث متفق عليه - أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٠٩) وكذا مسلم في صحيحه
(٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وفي لفظ عبد مسلم ، لا أشد فرحاً
بتوبة عبده ، حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحته يارض فلاة ، فانقلبت معه وعليها
طعامه وشرايه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها تد أنيس من راحته . وبينما
هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده . فأحد بسطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي
وأنا ربك . حمداً من شدة الفرح +

وتأمل عظمة الأسلوب في ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ (١٥) [نقص] فلم يقل مثلاً أعطاهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضي متابعتها وتفقد شأنهما بحيث يعرف الابن حاجة أبيه ، ويعطيها قبل أن يسألا ، فلا يلحتهما إلى دل السؤال ، وهذا في ذاته إحسان آخر

كالرجل السدى طرق باب صديق له ، فلما فتح له الباب أسر له الصديق بشيء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكي مسألته زوجته لم تبكي وقد وصلتته فقال أبكي لأبى لم أتفقد حاله فأعصيه قبل أن يذل نفسه بالسؤال

والحق - تبارك وتعالى - خير يقول بعد الوصية بالوالدين ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَبِئْكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) [نقص] إنما لينتهما أن الرز بالوالدين ومصاحبتهم بالمعروف لن ينسى لك ذلك ، إنما سيكتب لك ، وسيكون في مبرارك ، لأنك أطعت تكليبي وأمرى ، وأديت ، فلك الحياء لأنك عمت عملاً إيمانياً لا بد أن تثاب عليه

﴿يَبْنِيٰ إِيَّاهَا إِن تَكُ مَشْفٰلَ حَبْرٍ مِّنْ حَرَدَلٍ
فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦)

﴿ينسى ..﴾ (١٦) [نقص] نداء أيضاً للتلطف والترقيق ﴿إنها إن تَكُ مَشْفٰلَ حَبْرٍ مِّنْ حَرَدَلٍ﴾ (١٦) [نقص] يريد لقمان أن يدس ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هي صفة العلم المطلق الذي لا تحصى عليه خافية وكأنه يقول له إياك أن تظن أن ما يغفى على الناس

بحفى على الله تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) ﴿[الملك]

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من حردل ، حتى إن كانت في باطن صخرة ، أو في السموات ، أو في الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها

وقبلاً إن امستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفى بخفايا خلقه ، وعند قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ الْخَبْرُ مِنْ لَقَوْلٍ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (١١) [الانباء] يقولون الله يمتز بعلم ما تكتُم ، فكيف يمتز بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول الحق سبحانه في قوله ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْخَبْرُ مِنْ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (١٠) [الانباء] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْرَ الجماعة في وقت واحد ، ومُخَلِّئاً بذلك بعظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أن تُفَيِّرَ بينها ، وترجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر بسمعه الجميع ، أما الحق - تبارك وتعالى - فيعلم كل كلمة ، ويعلم مَنْ نطو بها ويرد كل لفظ إلى صاحبه إذن من حقه تعالى أن يمتز بعلم الجهر ، بل إن عِلْمَ الجهر أعظم من عِلْمِ السر وأبلغ

وقوله تعالى ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ﴾ (١٦) [النجم] أى وزن حبة الحردل ، وكانت أصغر شيء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس لبقلة ، وليس لك الآن أن تقول وهل حبة الحردل أصغر شيء هي

الوجود ، فالقرآن ذكرهما مثالا للصَّغَر على قدر معرفة اندس
بالأشياء عند بزوبه ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الدرة
والأقل منها

لذلك لما اخترعوا في ألمانيا أسطوانة تحطيم الحומר الفرد (أى
الجزء الذى لا يثحزأ) واستطاعوا تمثيت الدرة ، ظنوا أن في هذه
العملية مأحداً على القرآن ، فقد ذكر القرآن الدرة ، وجعلها مقياساً
ديبياً في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) ومن يعمل
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٨) [الزلزلة] لكن لم ينكر لأقل منها ، ومعلوم أن
الجزء أصغر من كله

ويقول قراتم شيئاً وغابت عنكم أشياء ، ولو كان لديكم إمام
بكلام الله لعلمتم أن هذه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولما ستتوصلون
إليه فيما بعد ، واقراءوا إن شئتم قول الله تعالى عن الذرة ﴿ وَلَا
أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس]

بل يقول إن الاحتياط هنا احتياط مركب فلم يقل صغير إنما
قال (أصغر) وهذا يدل على وجود رصيد في كلام الله لكل مَفْتَتْ
من الدرة

وقوله ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا
اللَّهُ ﴾ (١٦) [لقمان] ﴿ فِي صَخْرَةٍ .. ﴾ (١٦) [لقمان] أى على حبة
الوجود ، وفي أضيق مكان ﴿ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٦) [لقمان]
يعنى في المتسع الذى لا حدود له ، فلا في أضيق اصحكم ،
ولا في المتسع يحفى على الله شيء ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. ﴾ (١٦) [لقمان]
واستصحب حشوات الإتيان بها بوصفين لله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ ﴾ (١٦) [لقمان]

وجمع بين هاتين الصفتين ، لأنك قد تكون خبيراً بشيء عاماً
بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه كأن يكون في مكان ضيق
لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بأداة دقيقة كالمقاط مثلاً ، فالخبرة
موجودة لكن ينقصك اللطف في الدحول

والحق - سبحانه وتعالى - لطيف مهم صغرت الأشياء ودقَّتْ
يصل إليها ، فهو إذن عليم بخير كل شيء مهما صغر ، قادر على
الإتيان به مهما دقَّ ، لأنه لطيف لا يمدعه مانع ، فصفا اللطف هذه
للتغلغل في الأشياء

ونحن نعلم أن شيء كلما دقَّ ولطَّف كان أعنف حتى في
المطلقات الصارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمن بيتاً في
الحسلاء ، ورد أن يؤمَّن نوافده من الحيوانات والحشرات الصارة ،
فوضع على النوافد شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات
الكبيرة ثم تذكر العنران والثعابين مضيق الحديد ثم تذكر الدياب
والناموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقَّ ، إذن كلما كان عبدوك
لصيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر

فقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٦) لقمان يعني لا يعوزه
علم بالمكان ، ولا سهولة ويسر في الوصول إلى الأشياء

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى
الآن بشيء من التكاليف إنما حرص أن ينهيه أنك قد آمنت بالله
وملك منهجه واستمعت إياه ، فأطع ذلك المنهج في الفعل ولا تفعل
لكن قبل أن يباشر منهج ربك في سلوكك علم أنك معامِل مع إله
قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شيء فادخل على
المنهج بهذا الاعتقاد

وإناك أن تغلب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإناك إن لم تكن
تراه فإنه يراك ، واعلم أن عمك محسوب عليك وإن كان في صخرة
صماء ضيقة ، أو في سماء ، أو في أرض شاسعة

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى في الحديث القدسي : يا عبادي
إن كنتم تعتقدون أنني لا أراكم فالحل في إيمانكم وإن كنتم تعتقدون
أنني أراكم ، فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟ ^(١)

بعد ذلك يدخل لقمان في وعظه لورده مجال التكليف ، فيقول له

﴿يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَاصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْاُمُوْرِ﴾ (١٧)

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامه الصلاة ، والصلاة هي الركن
الأول بعد أن تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن
الصلاة لأهميتها فُرِصت بالمباشرة ، ولأهميتها جعلت ملازمة للمؤمن
لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تسقط عنك بسبب
أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج فإذا سقطت عنك هذه الأركان
لم يبق معك إلا الشهادتان والصلاة ، لذلك جعلها النبي ﷺ عماد
الدين

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث عن لسان بعض العارفين ، حيث جاء في حية الأويبة
(٨ ١٤٢) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد عظمي ، قال اتق الله أن يكون الله أهون
الناظرين إليك

(٢) حديث « الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين »
قال الحافظ العراقي في تخرجه للإحياء (١٤٧/١) « رواه البيهقي في الشئب مسند
صغفه من حديث عمر » وقال الملا علي القاري في « الأسرار العرفوة » (حديث
٥٧٨) قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط إنه غير معروف ،

ولذلك بدأ بها لقمان ﴿يُحْيِي أَقْمُ الصَّلَاةِ ۚ﴾ [١٧] ﴿[القمر] لأنها استدامة إعمار الولاء لله تعالى خمس مرات في اليوم والليّة ، محيين يباديك ربك (الله اكبر) فلا ينبغي أن تتشغل بمخلوق عن نداء الخالق وإلا فما موقف الأب مثلاً حين يبادي وده فلا يجيبه ؟ فحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب

ثم تأس النداء لصلاة الذي امتدت إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقره سيدنا رسول الله الله أكبر الله أكبر ، يعنى أكبر من كل ما يشغلك عنه فسيذك أن تعتذر بأعمل في راعه أو صناعة أو تحارة عن إقامة الصلاة

وقد ناقشت أحد أطباء الجراحة في هذه المسألة ، فقال كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت به بالله لو اضطررت لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال أذهب ، فقلت فالصلاة أولى ولا تعتقد أن الله تعالى يكلف العبد تكليفاً ، ثم يضر عليه مايساع الزمن له بدليل أنه تعالى يراعى وقت العبد ومصلحته وإمكاناته ، فعلى السور مثلاً يشرع بك الجمع والقصر

فبإمكانك أن تؤفق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما مجمع التقديم أو التأخير ، وكم ينسع وقتك وبحلو من مشغولية العبادة إذا جمعت الظهر والعصر جمع تقديم ، والمغرب والعشاء جمع تأخير في آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمع تأخير ، فتصليهما قبل لمغرب ، ثم تصلى المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إن المسألة فيها سعة . ولا حجة لأحد في ترك الصلاة بالذات أم الدين يقوون في مثل هذه الأمور ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة] وأن هذا ليس مني وسعني فنقول لهم

لا ينبغي أن تجعل وسعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم في
الوسع ، وما دام ربك - عز وجل - قد كفك فقد عم سبحانه وسعك
وكفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رخص إذ حرجت العدة عن
الوسع

وقال ﴿ أفم الصلاة ﴾ (٧) ﴿ لقمان ﴾ لأن الصلاة أول اكتمال في
الإحجام لمنهج الله ، وبها يكتسب إيمان الإنسان في ذاته ، وسبق أن
قيل إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان
الإسلام هي الخمس المعروفة ، أمّا أركان المسلم فهي الملازمة له
التي لا يسقط عنه بحال ، وهي الشهادتان والصلاة ، وإن كان على
المسلم أن يؤمن بها جميعاً ، لكن في العمل قد يسقط عنه عدا الصلاة
والشهادتين

ثم سبق لقمان لم يده أن الإيمان لا ينفك عند حد الاستجابة لهدى
الركنين الأساسيين ، إما من الإيمان ومن كمال الإيمان أن تحب لأخيك
ما تحب نفسك فيقول له ﴿ وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ﴾ (١٦) ﴿
[يقول] فنشغل بعد كمالك بقدامة الصلاة ، بأن تأمر بالمعروف وتنهى
عن المنكر ، فبالصلاة كملت في ذاتك وبالأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفي ذلك كمال الإيمان

وأنت حين تأمر بالمعروف وتحين تنهى عن المنكر لا تظر أنك
تصدق على الآخرين ، إنما تؤدي عملاً يعود نفعه عليك ، فيه تجد
سعة الراحة في الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ، لأنك أديت
التكاليف في حين قصر غيرك وتخاذل

ولا شك أن في الترام غيرك وفي سيره على منهج الله راحة لك
أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يشقى بهذه العثة العذبة الخارجة عن
منهج الله

ومن إعرار العلم أنك لا تنفع به الانتفاع الكامل إلا إذا عدّيته
للمير فإنّ كتمته انتفع الآخرون بحسبك وشقيت أنت بشرهم
إذن لا تنفع بحبر عيرك إلا حين تؤدي هذه الفريضة ، فتأمر غيرك
بالمعروف ، ونهيه عن المنكر وتحب بهم ما تحب لنفسك ، وبذلك
تال الحظين ، حظك عند الله لا يك أدبٌ ، وحظك عند الناس لا يك في
مجتمع متكامل الإيمان يفعل ولا يضر

وأك هنا أن تلحظ أن هذه الآية لم تقرر إقامة الصلاة بإيتاء
الزكاة كمادة الآيات فغالباً ما تقرأ ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ .
(٤٣) ﴿

وحين مستقرىء كلمة الزكاة في القرآن الكريم نجد أنها وردت
اثنيتين وثلاثين مرة . ثنتان منها ليست في معنى زكاة المال
المعروفة بالماء العام إنما بمعنى التطهر وذلك في قوله تعالى في
قصة الخضر وموسى عليهما السلام ﴿أَقْتُلْ نَفْسًا رَكِيَةً بِغَيْرِ
نَفْسٍ .. (٧)﴾ [الكهف]

ثم قوله تعالى ﴿فَأَرَادَا أَنْ يَبْدُلَهَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾
(١٠) ﴿ [نكهف]

والمعنى طهرناهم حينما رفعت عنهم نأباً من أبواب الفتنة في
دين الله

ولموضع الآخر في قوله تعالى ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾ .
(١٣) ﴿ [مریم] فالمعنى وهبنا لمريم شيئاً تزكيتها به . ذلك لأن الزكاة

أول ما تتعدى تتعدى من واجد لمعدهم ، ومريم لم تتزوج فهي معدمة
في هذه الحاجة ، لذلك وفيها الله انعماء الحاص من ناحية أخرى حين
نفخ فيها الروح من عنده تعالى

وفي موضع واحد جاءت الزكاة بمعنى زكاة المال لكن غير
مقرنة بالصلاة وذلك في قوله تعالى ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ دُونِ الْيَرْبُوتِيِّ فِي
أَمْوَالِ الْبَاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ
هُمْ لَمُضْغَمُونَ (٣٠)﴾ [الدوم]

وفي هذه الآية قال لقمان لولده ﴿يَنْبَغِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ
بِالْمَعْرُوفِ (١٧)﴾ [لقمان] ولم يقل وأت الزكاة ، فماد .

يبيغى أن نشير إلى أن القرآن جمع بين الصلاة والزكاة ، لأن
الصلاة فيها تضيحية بالوقت والوقت زمن لعمل ، والعمل وسيلة
الكسب والمال ، إذن ، ساعة تصلى فقد ضحييت بالوقت الذي هو
أصل المال ، فكان في الصلاة تصدقت بمائة في المائة من
المال المكتسب في هذا الوقت أما في الزكاة فأنت تتصدق بالعشر ،
أو نصف العشر أو ربع العشر ، ونسب لك معظم كسبك ، قالوا ف
أن الزكاة في الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسها

نن لما كانت الزكاة في كل منهما ، قرر القرآن بينهما إلا في
هذا الموضع ولما تتأمله تحده من دقائق لاسلوب القرآن ، فالقرآن
يحكى هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولما فيه ملحظان

الأول أن الله تعالى لم يكلف العبد إلا بعد سن الملوغ إلا في

الصلاة . وحمل هذا التكليف مُوحهاً إلى الوالد أو ولي الأمر ، فأثابه أن يكلف ولده بإصلاة وأن يعاقبه إنْ أهمل في أدائها . ذلك ليربى عند ولده إدْرَبَةٌ على الصلاة ، بحيث يأتي سنُّ التكليف ، وقد أنفَسها الولد وتعود عليها ، فهي عبادة تحتاج في البداية إلى مرار وأخذ ورد ، وهذا أنسب للسنِّ المعكَّرة

والرَّاد يُكَلِّف ولده على اعتبار أنه الموجد الثَّامِي له . والسبب المباشر في وجوده ، وكأنَّ الله تعالى يقول أنا الموجد لكم جميعاً وقد وَكَّلْتُكَ في أنْ تُكَلِّفَ ولدك ، لأنَّ معروفتَ ضاهر عنده ، وإياديك عليه كثيرة . فأنت القائم بمصالحه المُكَلَّبِي برغباته ، فإنْ أمرته قبل منك وأطاعك فهي طاعة بشمها

وظالما وكسنتك في التكليف قطيعي أنْ أُوَكِّلَ في العقوبة . فإنْ حدث تقصير في هذه المسألة فالمجالبة منك ، لا من الولد . لأنني لم أَكَلِّفْهُ ، إنما كَلَّمْتُكَ أنت

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة . لأنه مُكَلِّف بهذا الأمر ، فلولده ما يراى صغيراً بدليل قوله ﴿يَسْبِي ۖ﴾ (١٧) ﴿[بقمار]

فالتكليف هنا من أبولده . فإنْ كان الولد بالغاً حان هذا الأمر فالمعنى لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة

أما البركة ، وهي تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا . وهذه من حكمة لقمان وبقَّة تعبيره ، وقد حكاهما لنا القرآن الكريم بأخذ منها مبادئ نعيش بها

ثانياً . إنْ كَلَّمَهُ بالركاء فقال أقم الصلاة وآتِ الركاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكية له في وجود والده . بدليل

قول الرسول ﷺ « أنت ومالك لأبيك »^(١) وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال إني ملكتُ أمري^(٢) فأمره ليس ملكاً له هي حياة أبيه ، لذلك لم يأمر وبه بالزكاة ، فالزكاة هي ذمته هو ، لا في دمه ولده .

ومأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكُمْ فَمِنْ ذَلِكَ أَوْ مِنْ صَدِيقِكُمْ ..﴾ (١٧)

فإنه تعالى رفع عنا الحرج أن نأكل من هذه البيوت ، ونلاحظ أن الآية ذكرت الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقي أن يقول بعد أمهاتكم أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا لأنها داخله في قوله بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكت يده ملك لأبيه

ثم يقول لقمان لولده ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ..﴾ (١٧) [لقمان]

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إن أبي أجهل مالي فقال « أنت ومالك لأبيك » وقال رسول الله ﷺ « إن أولادكم من أطير كسبكم وكلوا من أموالهم » أخرجه أبو حنيفة في سننه (٢٢٩٢) وأحمد في مسنده (١٧٩/١) وانلفظ لأبى حنيفة

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في رواه الرهد عن عبد الله بن دينار عن لقمان قدم من سفر غنيته علام في الطريق فقال ما فعل أبي ؟ قال مات قال الحمد لله ملكت أمري [الدر المنثور ٥١٩/١]



اصبر - حمل النفس على التجلُّد للأحداث ، حتى لا تمس الأحداث
على نفسك بالجزع ، فانت أمام الأحداث تحتاج إلى قوة مصاعفة ،
فكيف تُضعف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع بما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم فالذي
يسقط مثلاً ، فتتكسر ساقه ، أو الذي يقاخته المرض .. الخ هذه أقدر
ساقها الله إليك بلا سبب فلا غريم لك فيها ، لذلك يجعلها في
ميرانك إما أن يعلى بها درجاتك ، وإما أن يكفر بها سيئاتك ، لذلك
كان الكفار يفرحون إذا أصاب المسلمين مصيبة ، كما فرحوا يوم
أُحد وقد ردَّ الله عليهم وبين غيائهم ، وقار سبحانه ﴿ قُلْ لَنْ
يُصِيبَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ۖ ۞ ﴾ [التوبة] ونأمل انجر والمحرور
(لنا) ولم يقل كتب علينا ، إذن فالمصيبة في حساب (له)
(علي) فلماذا تفرحون في المصيبة تقع بالمسلمين ؟

وأوصى بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن
الذي يتعرض لهذين الأمرين لا بدَّ أن يصيبه سوء من جراء أمره
بالمعروف أو نهي عن المنكر ، فإن تعرضت لإيذاء فاصبر ، لأن هد
الصبر يعطيك حزاء واسعاً

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبي ﷺ في قوله « مَنْ رَأَى
مَنْكراً فليغيِّرْهُ بيده ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَبِقَلْبِهِ ، وَبِكَ أضعف الإيمان »^(١)

فالله أمرك أن تُغيِّر المنكر ، لكن جعل لك تقدير المسألة ومدى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٩) كتاب الإيمان ، وأصله في مسنده (٢٠/٢) ٤٩

(٥٢) ، والترمذي في سننه (٢١٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

إمكانك فيها ، فالدين يريدك مُصلحاً لكن لا يريد أن تلقى بنفسك إلى
التهلكة . فلك أن تُعَيِّرَ الممكر بيدك فتضرب وتمنع إذا كان لك ولاية
على صاحب المنكر . كأن يكون ولدك أو أهلك .. إلخ

فلك أن تصر به مثلاً إن رأيت سيحارة في فمه ، أو أن تكسر له
كأس الخمر إن شربها أو قمزق له مثلاً ورق « الكوتشينة » . فإِنَّ
بم تُكْرُ لك هذه الاستطاعة فيكفي أن تُغَيِّرَ بلسانك إن كانت لديك
الكلمة الطيبة التي تداوى دوى أن تجرح الأخير . ودوى أن يؤدي
النصح إلى فتنه فيكون ضرره أكثر من نفعه

فإن لم يَكُرْ في استطاعتك هذه أيضاً . فليكن تغيير المنكر
بالقلب . فإن رأيت مكرراً لا يملك إلا أن تقول اللهم إن هذا منكر
لا يرضيك لكن أيعدُّ عمل القلب تغييراً للممكر وأنت مطالب بأن تُعَيِّرَه
بيدك يعني إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تمير من الواقع شيئاً ؟

قالوا لا يحدث التغيير بالقلب ، لا إذا كان القلب تابعاً للقلب .
فالقلب يشهد أن هذا منكر لا يرضى الله ، والقلب يساند حتى
لا تكون متدافعاً ، فأنت أنكرت عليه الفعس ، ولا استطاعة لك على أن
نمسه ، ولا أن تنصحه . فلا أقل من أن تعزله عن حياتك وتقاطعه
وإلا فكيف تُعَيِّرَ بقلبك إن أنكرت عليه فعله وأبقيت على وده
ومعاملته ؟

إن لا يكون التغيير بالقلب إلا إذا أحس صاحب المنكر أنه في
عزلة . فلا تهنته في فرح ولا تعريه في حزن . وإن كنت صاحب
بحاره ، فلا تنع له ولا تشتر منه الخ

ومن استشرى اباطيل وتبجح أهل الفساد وأهل المنكر إلا لار
الناس بحرمونهم ويعاملونهم على هذه الحال بل ربما زاد احترام

لباس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم

فلتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علمنا ربنا - تبارك وتعالى - هذه الفضية هي قوله سبحانه ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفرون بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا منهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ (١٢٠) ﴿

ويقول سبحانه في آية أخرى ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسب الشيطان فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْكُفَرِى الطَّائِفِى (٨-٢٠)﴾ [الأنعام]

والنبي ﷺ في قصة الثلاثة^١ الذين حلقوا بغير عذر هي غزوة تبوك ، يُعلمنا كيف يعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم في روضة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الحاضر ، وعن أقرب الناس إليه

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتدوا برسول الله فقبل علانيتهم وترك سرايرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يحدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أن يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشى و (يتمحل) في الناس يكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد وكعب بن مالك^٢ يتسور على ابن عتبة الحديفة ويقول

١ الثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومبارزة بن الرزاه عامري
٢ هو كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري شاعر رسول الله ﷺ ، له ليس بنت زيد من بني سمية كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد الحديفة مع أصحاب من الأنصار ، شهد أحد والحديفة والمشاهد كلها ، مع جلا بيوك ، رزاه الله عليه ، ذهب بصره في آخر حياته وتوفي عام ٥ هـ في خلافة معاوية ، وهو يومئذ من ٧٧ عاماً أي أنه ولد ٢٧ ق هـ

له تعلم أني أحب الله ورسوله فلا يجيبه ويصني بحوار الرسول
يلتمس أن ينظر إليه ، فلا ينظر إليه^(١)

وبما نجت هذه المصطفية على هذا المستوى أعلاها الشرع
وتسلسل بها إلى الخصوصيات في اليد فعزل هؤلاء الثلاثة عن
زوجاتهم ، فامر كلًا منهن ألا يقربها زوجها إلى أن يحكم الله في
أمرهم^(٢) . حتى أن واحدة^(٣) من هؤلاء جاءت برسول الله وقالت
يا رسول الله ، إن زوجي رجل كهدة الشوب (يعني ليست له رغبة
في أمر النساء) فأذن لها رسول الله في أن تخدمه على ألا يقربها

طر هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً في هذا الامتحان العام وعشره أيام
في الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص ،
وهكذا علمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة ، فعزل

(١) يروى ما كتب به مالك هذه الأيام بعصية فيقول : أم هلال بن أمية ومراة بن
الريضة فامسكنا وقعدا في بيوتها يكيان وما أنا مكت أشبه القوم وأجندهم فكانت أخرج
مأشوق الصلاة وأطوب في الأسواق ولا يكلمني أحد . وشي رسول الله ﷺ مسلم عليه ومو
في مجلسه بعد الصلاة بأقول في نفسي من حرك شعيتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلي
قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني
[صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩] كتاب البرية

(٢) جاء رسول الله ﷺ إلى كتب به مالك يقول له : يا رسول الله ﷺ يا أمرك
أن تعتزل امرأتك فقلت : أطلتها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل امشركها ملاً تقربها
[صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩]

(٣) هي حولة بنت عاصم ، امرأة هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خضعوا [قاله ابن حجر
في الفتح ١/٢٧١] ويروى مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) وأبوحاري في صحيحه (٤١١٨)
بن امرأة هلال بن أمية جاءت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية
شوخ مسانح ليس له خادم فبهن نكره أن أخدمه ، قال : لا ولكن لا يقربك فقلت : إن
والله ما به حركة إلى شيء . والله ما زل بيكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذه

اجتمع عنهم أبلغ من عراهم عن المجتمع لذلك كان وقع هذه العرلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكى قصته ويقول لقد صافت بي الارض على سعتها والحق يقول بي وصف حالهم ﴿ حَتَّى إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَلُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١١٨) [التوبة]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرج الله عن هؤلاء الثلاثة ونزل قومه تعالى ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١١٨) [التوبة]

فأسرع أحدهم^١ يبشر كعباً بهذه الشئرى فطار كعب فرحاً بها وقال فوالله ما صكتُ أن أجمع عليه شأى كلها ، ثم أسنغير ثيباً أذهب بها إلى رسول الله^ص

إذن ينبغى أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم فى السحون ، لكن من يصم لنا استقامة المجتمع فى تنفيذ هذه العزلة كما نفذها امجتمع المسلم على عهد رسول الله^ص

نعور إلى ما كما يتحدث عنه من أن المصنعة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها عريم فإن الصبر عليها مؤن ، فالأمر بينك وبين ربك أما إن كان لك فى المصنعة عريم كأن يعتدى عليك أحد فيحرق

(١) هو حمزة بن عمرو الأسلمى ، ذكره ابن حجر العسقلانى فى الفتوح (شرح حديث رقم ٤٠١٨)

(٢) قطعة من حديث كعب بن مالك التى أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠١٨) وكما مسلم فى صحيحه ، (٢٧٦٩)

زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيت غريمك هاجت نفسك وعلى السدم في عروقك فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر

لذلك يقول سبحانه في هذه المسألة ﴿وَلِمَنِ صَبْرٌ وَغَيْرُهُ إِنِّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ (٤٣) [الشورى] فأكد لها باللام ، لأنها تحتاج إلى طاقة أكثر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم وعدا من المواضع التي وقف عندها المستشرقون يلتصمون فيها مأخذاً على كلام الله

يقولون ما الفرق بين قول القرآن ﴿إِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ (٤٣) [الشورى] وقوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ (٤٣) [الشورى] ثم أيهما أوسع من الأخرى ، فإن كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة

ويقول في الرد عليهم كل من الآيتين طيبة في سياقها ، فالتى أكدت باللام جاءت في المصيبة التى لك فيها غريم وبحاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففي المصيبة التى ليس لك فيها غريم فهي بينك وبين ربك ، والصبر عليها هين يسير

لذلك فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليصفى النفس ويجمع ثورتها فيقول ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَبْعَةٌ مِّثْلُهَا ..﴾ (٤٠) [الشورى] لتقف النفس عند حد الرد بالمثل ، ثم يرقى المسألة ، ويفتح باباً للعفو ﴿يَمَنْ عَمَّا رَأَيْتُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (٤١) [الشورى] وقال في موضع آخر ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَيْسَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (٦٣) [الحل]

فحين يبيع لك ربك أن تأخذ بحقوقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح في يدك ، لذلك كثيراً ما نرى - خاصة في صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالنثار - القاتل يأخذ كفته على يديه ، ويحل به على ولى الدم ، ويُسلم نفسه إليه ، وعندها لا يملك ولى الدم إلا أن يعفو

حتى في مسألة القتل والفصاحش جعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها بل ويسمى الطرفين خوة في قوله تعالى ﴿فَمَنْ عَمِيَ لَهُ مِنْ أَحِبِّهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءَ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ (١٧٨) . [البقرة]

ففي هذا الجو وفي أثناء ما تسيل الدماء يحدثنا ربنا عن الصفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك قرعاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أن تتعدأ أخذ الحق بيدك

فإنه تعالى حائق النفس البشرية ويعلم ما جعلت عليه من الغرور وما كُنه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادئ ، لكنه - سبحانه وتعالى - لا يبنى الحكم على ارتفاع المباحج في الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التي خلقه عليها ، فليس الخلق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ، لذلك أعطاك حق الرد بالمثل على من اعتدى عليك ﴿وَجَرَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (١٧٩) [الشورى] وقال ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ (١٨٠) [النحل]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة مكان ، فمن لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التي تُوقعه عند حد المثلية التي أمر الله بها ؟

وسبق أن بينا أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ،
 أتستطيع أن تصر به مثل صرته لا تريد عليها ، لأنك إن ردت صرته
 ظالماً ، واقرا بقية الآية ﴿ فَمَنْ عَمَّا أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) ﴿

[الشرى]

وسبق أن ذكرنا قصة المراسى اليهودى التى اتفق مع مديبه على
 أن يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يؤد فى الموعد المحدد ، ومعلأ جاء
 مرعد السدد ولم يف المدين فرفع اليهودى أمره إلى لقاضى
 وحبره بشرطه - وكان القاضى موثقاً فدور الله بصيرته ، فقال
 لليهودى نعم لك حق فى أن تنفذ ما اتفقا عليه وسأعطيك السكين
 على أن تأخذ من المدين رطلاً من لحمه فى ضربة واحدة ، بشرط إذا
 ردت عنها و نقصت أخذه من لحمك

وعندها انصرف اليهودى ، لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق فكان
 الله تعالى بهذا الشرط - شرط المثلية فى الرد - بلغت انتهاك إلى أن
 العفو أولى بك وأصلح

إذ يُحدثنا الحق - تبارك وتعالى - عن العفو وعن الإحسان فى
 المصيبة التى لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أحسدت حقاك الذى
 قررته لك فقد أرحمت نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذى تكفل الله لك به
 إن أنت عفوت

وكان لحق تبارك وتعالى - يريد أن يولد من أسباب لفضاء
 أسباباً للولاء ، فالذى كان من حقاك أن تقتله ثم عفوت عنه أصبحت
 حياته ملكاً لك ، فهل يفكر لك فى سوء بعدها ؟

لذلك يعلمنا ربنا ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هُوَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
 عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) ﴿

[افصلت]

وأذكر أني حاءني مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتي هي أحسن مع خصمي ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقئت له عليك أن تراجع نفسك ، لأنك ظننت أنك دفعت بالتي هي أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعت بالتي هي أحسن لصدق الله معك ، ورأيت خصمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أن تُجرب مع الله والتجربة مع الله شكٌ

والنبي ﷺ يعلمنا أن نبقي على يقين لتوكل سارياً دون أن نفكر كيف يحدث وقصة الصحابية أم مالك^(١) شاهدة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبيها ، فتصنع مما راد عن حاجتها وحاجه أولادها ربداً ، وكانت تهدي منه إلى رسول الله ﷺ هي عكة^(٢) عندها ، فكان أهل بيت رسول الله ﷺ يفرغون هذه العكة في آبيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك^(٣) والله ما أصبت إداماً إلا من هذه لعكة ، وكانت كلما احتاحت الإدام أفرغت العكة فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خيل لها في يوم من الأيام أنها أسرفت في استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفذ ، فأخذتها وعصرتها فلم تجد فيها شيئاً فصنت أن رسول الله غضب

(١) هي أم مالك الأنصارية ذكرها ابن حجر لستقلاسي في «الإصابة في تمييز الصحابة» (٢٧٨/٨)

(٢) العكة أصغر من القرية للسمن وهو رقيق صغير [لسان العرب - مادة عكة]

(٣) حديث مسند (٢٢٨٠) عن جابر بن عبد الله أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ هي عكة لها سمداً عابثها بنوها فيسألون الأدم ، وليس عندهم شيء ، فلنعد إلى الذي كانت تهدي فيه للمسيح ﷺ فنجد فيه سمداً فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأنت النبي ﷺ فقال عصرتها قالت نعم قال لو تركتها ما زال قسماً

منها ، فذهبت إليه وقصّت عليه هذه المسألة ، فقال لها ﷺ
 « أعصرتيها يا أم مالك ؟ » فقالت نعم يا رسول الله فأخبرها أن
 التحربة مع الله شدٌ وأنها لو لم تعصرها ولم تظن هذا الظن لبقيت
 العكة على حالها ، وكما تعدرت منها^(١)

وتلخص أن كلمة (أصايك) والمصيبة قتل على أنها واقعه بت
 ولن تجو منها لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ،
 والمسألة مسألة وقت إلى أن يصلك هذا السهم الذي أطلق عليك ،
 فإياك أن تقول لو أني فعلت كذا لكان كذا ، فما سُميت المصيبة
 بهذا الاسم إلا لأنها صائبك لا يستطيع أن يفرّ عنها كما يقولون
 عز الموت تأكد أنك ستموت ، وعمرك بمقدار أن يصلك سهم
 الموت

وكلمة ﴿مِنْ عَرَمِ الْأُمُورِ﴾ (٧) [القميل] يقول فلان له عرم ،
 ونسمع القرآن يقول ﴿إِذَا عَرَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . . (٥٩)﴾ [آل عمران]
 اعرم الفرس المقطوع به ، والذي لا مخلص عنه ، ومنه ما جاء في
 قول لقمان لما حبره ربه بين أن يكون رسلاً أو حكيماً ، فاختر
 البرحة وترك الابتلاء ، لكنه قال يا رب إن كاتب عرمة منك فسمعاً
 وطاعة ، يعنى أمراً مفروضاً يتمشى ألا نحيد عنه

والعزم يعنى شحن كل طائفات النفس لفعل والقطع به ، فالصلاة
 على الميت مثلاً لا تُسمّى عزيمة ، لأنها فرض كفاية إن فعلها البعض
 سقطت عن الباقيين ، على خلاف لصلاة التامة في اسفر مثلاً حيث
 يعتبرها الإمام أبو حنيفة عزيمة لا رحمة ، فإن أتممت الصلاة هي

(١) قال النووي في شرحه بصحيح مسلم (٤٦/١٥) « قال العمدة الحكيم فرديك
 عصرها مصداق للتسلّم والتوكّل على ربي الله تعالى ويتضمن التدبير والأخذ بالحوار والقوة
 وتكلم الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى ونقله معوقب ماعله برواه

السفر أسأت^(١) ، عملاً بقول النبي ﷺ « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »^(٢)

والمعنى لا ترد يد الله المبسوط لك بالتيسير في الصلاة أثناء السفر

ثم يعتمد في هذا الرأي على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فرغت في الأصل مثني مثني ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر إذن فصلاة السفر مع الأصل فلو أتمعت الصلاة في السفر أسأت

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَقْصِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨)

معنى تصغر من الصغر ، وهو في الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذي يميل بخذه ، ويُعرض عن اعاس تكبراً ، ونسمع في اسامية يقولون لمتكبر (فلان ماشى لاوى رقبته)

بقول الله تعالى ﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ..﴾ (١٨) [الناس] واحتيال

(١) الجنبية والمالكية مفتوون على أن يصار لصلاة الرخصة في السفر سنة مؤكدة ، ولكنهم مختلفون في الجزاء المترتب على تركه فالحنفية يقولون من أتم يكون مسيئاً بترك الوجوب وهو إن كان لا يمتد على تركه مالار ولكنه يحرم من شناعة النبي ﷺ يوم القيامة أما المالكية فيقولون إذ ترك المصلي فلا يؤاخذ على تركه ولكنه يحرم من ثواب السنة المؤكدة فقط ولا يحرم من شناعة النبي « [الفقه على المذاهب الأربعة ١/٤٧١] دار بحاء التراث لمريي

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٢) وابن حبان (٥٤٥ ، ٩١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

هذا التشبيه بالذات كان الحق سبحانه يُبَيِّنُهَا أَنْ التَّكْثُرَ وَتَصْغِيرَ الْحَدِّ
دَاءٌ فَهَذَا دَاءٌ جَسَدِي ، وَهَذَا دَاءٌ حَلْقِي رَقَدَ تَنَنَّهُ الشَّاعِرُ إِلَى هَذَا
الْمَعْنَى فَقَالَ

فَدَعُ كَأَنَّ طَائِعٍ لِلزَّمَانِ فَإِنَّ الزَّمَانَ يُقِيمُ الصَّعْرَ

يَعْنِي إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرْفَعِ الزَّمَانُ تَقْوِيمَ صَعْرِ الْمُنْكَبِرِ ، فَدَعُهُ
لِلزَّمَانِ هُوَ جَسِيرٌ يَتَقَوَّيْمُهُ ، وَكَثِيرًا مَا يَرَى نَمَازِجَ لَأَدَسٍ يَكْرَهُوا
وَيَجْبُرُوا ، وَهَمَّ الْآنَ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ قِيَامًا أَوْ قَعُودًا ، بَلْ
لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّبَ الطَّيْرَ عَنْ وَجْهِهِ

وَالْإِنْسَانُ عَادَةٌ لَا يَتَكَبَّرُ إِلَّا إِذَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ بِمِيزَةٍ عَنْ
الْآخَرِينَ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ مَنْ رَأَى مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ يَكْسِرُ وَتَوَاضَعُ وَقَوْمُ
مَنْ صَعْرُهُ ، وَمَثَلًا لِذَلِكَ بِ (فَتَوَةَ) الْحَارَةِ الَّتِي يَجْلِسُ عَلَى الْقَهْوَةِ
مِثْلًا وَاصْبَحَ قَدَمًا عَلَى قَدَمٍ ، غَيْرَ مُنَالٍ بِأَحَدٍ ، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ
(فَتَوَةُ) أَحْرَ أَقْوَى مِنْهُ بَحْدَهُ تَلْقَانِيَا يَفْتَدِلُ فِي جَسَدِهِ

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَفْسِرُ لَنَا الْحِكْمَةَ الَّتِي تَقُولُ (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ
إِلَيْهِ) لَمَّا بَدَأَ لَنَا الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِ مَرَّةً بِهَ فِتْرَةٍ كَانَ صَعِيفًا مُحْتَاجًا
وَأَسْبَقَتْ قُوَى فَاحِشَتِهِ إِلَيْهِ ، وَقَدِّمَتْ لَهُ الْمَعْرُوفَ الَّذِي قَوْمُ حِمَاةِ
فَأَصْبَحَ لَكَ يَدٌ عَلَيْهِ ، وَكَلِمَا رَأَى تَكْرَرَتْهُ بِفِتْرَةٍ صَعِيفَةٍ ، ثُمَّ إِنَّ الْأَيَّامَ
دَوَّلَتْ دَوْرَ بَيْتِ الْحَلْقِ ، وَالصَّعِيفُ يَصْبِحُ قَوِيًّا وَيَحِبُّ أَنْ يُعْلَى نَفْسُهُ
بَيْنَ مَعَارِفِهِ ، لَكِنَّهُ لَا يَدُّ أَنْ يَتَوَاضَعَ حِينَئِذٍ يَرَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ،
وَكَانَ وَجُودُ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ هُوَ الْعَقِبَةُ أَمَامَ عُلُوِّهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ ، لِذَلِكَ
قِيلَ (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ)

ثُمَّ إِنَّ الَّذِي يَنْكَسِرُ يَنْعَفَى أَنْ يَتَكَبَّرَ بِشَيْءٍ ذَا سِيئَةٍ لَا شَيْءٍ
مُوهَبٍ لَهُ ، وَذَا رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ مِزَةً مِنَ الْآخَرِينَ فَانْصَرِفْ فِيمَا
تَمِيرُوا هُمْ بِهِ عَلَيْكَ ، وَسَاعَةً تَنْطَرُ إِلَى الْحَلْقِ وَإِخَالِقَ تَحْدُ كُلَّ مَخْلُوقٍ
لَهُ حَمِيلًا



لذلك دروى قصة الحارة التى كانت تداعب سيديها ، وهى تريها وتدعو لها بفارس الأحلام ابن الحلال فقالت سيدتها لكنى مشفقة عليك ، لأنك سوءاء لى يطر 'أحد إليك ، فقالت الجارية يا سيدتى اذكرى أن حُسْنَك لا يظهر لأعين الناس إلا إذا روا قُبْحى فالذى تراء أنت قبيحاً هو فى ذاته جميل لأنه يبدى جمال الله تعالى فى ملاقاة القدرة . ثم قالت يا هده لا تعصمى الله بشيء من هذا اتعيبين النقش أم تعيبين النقاش ؟ ولو أدركت ما فى من أمانة التناول لك فى كل ما أكلف به وعدم أمانتك فيما يكلفك به أبوك لعلمت فى أى شيء أنا حميلة

ويقول الشاعر فى هذا المعنى

فَالْوَجْهَ مِثْلُ الصَّنْعِ مُبِخٌ وَاشْفَرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
خُدَانُ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حَسَنًا وَالضُّدُّ يَطْهَرُ حَسَنَةُ الضُّدِّ

والله تعالى يعلمنا هذا الدرس فى قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا حَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ..﴾ (١٦) [الحجرات]

فإذا رأيت إنساناً دونك فى شيء مفتش فى نفسه ، وانظر فلا بد أنه متميز عليك فى شيء آخر ، وبذلك يعنذر الميراث

فالله تعالى ورع المواهب بين الخلق جميعاً ، ولم يحاب منهم أحداً على أحد ، وكما قلنا مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر

وسبق أن ذكرنا أن رجلاً قال لسفمان لقد عرمتك عبداً أسود غليظ الشفاه ، تحدم فلاناً وترعى الغنم فقال لسفمان نعم ، لكنى

أَحْمِلْ قَلْبًا بَيَضَ . وَيُحَرِّجُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْ الْخَلِيضَتَيْنِ الْكَلَامَ الْعَدَبَ الرَّقِيقَ^(١)

وَيَكْفِي بَقْمَانٍ فَحْرًا أَنْ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ كَلَامَهُ ، وَحَكَاهُ فِي قِرَائِهِ وَحَمَلَهُ خَالِدًا يُتْلَى وَيُنْعَدُّ بِهِ ، وَيَحْفَظُهُ اللَّهُ بِحِفْظِهِ لِقِرَائَتِهِ

وَلَنَا مَلْحَظٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ (١٨) [لِقَمَار] فَكَلِمَةُ لِلنَّاسِ هُنَا لَهَا مَدْخَلٌ ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لِمَنْ يُصَعِّرُ خَدَّهُ لَا تَدْعُ النَّاسَ إِلَى الْعَصْيَانِ وَالْتِمَرْدِ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ بِتَكْبِيرِكَ عَلَيْهِمْ وَإِطْهَارِ مَزَايَاكَ وَسِتْرِ مَزَايَاهُمْ ، فَقَدْ تَصَادَفَ قَبِيلُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَتَمَرَّدُ عَلَى اللَّهِ وَيَعْتَرِضُ عَلَى قُدْرِهِ فِيهِ حِينَمَا يَرَاهُ مُتَكَبِّرًا مُتَعَالِيًا وَهُوَ حَقِيرٌ مُتَوَاضِعٌ ، هَذَا كُنْتَ مُسَحْتَرَفٌ صَعْرًا وَ (كَيْفَ) تَكْبِيرٌ ، فَلْيَكُنْ ذَلِكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ ، كَانَ تَقِفُ أَمَامَ امْرَأَةٍ مَثَلًا وَتَفْعَلُ مَا يَحِلُّ لَكَ مِمَّا يُشْنَعُ عِنْدَكَ هَذَا الدَّاءُ

فَكَانَ كَلِمَةُ ﴿لِلنَّاسِ . .﴾ (١٨) [لِقَمَار] تَعْنِي أَنْ اللَّهَ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَمْنَحَ رَوْيَةَ النَّاسِ لَكَ عَلَى هَذَا الْحَالِ لِأَنَّكَ قَدْ تَقَفْتَ الضَّعَافَ فِي دِينِهِمْ وَفِي رَحْمَتِهِمْ عَنْ رَبِّهِمْ

ثُمَّ يَقُولُ لِقَمَانِ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (٢٨) [لِقَمَار] الْمَرَحُ هُوَ الْاِخْتِيَالُ وَالتَّبَحُّثُ ، فَرُبُّكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ تَمْشِيَ فِي الْأَرْضِ ، لَكِنْ يَمْنَعُكَ أَنْ تَمْشِيَ مَشْيَةً لِمُتَعَالَى عَلَى النَّاسِ ، الْمُحْتَبَالِ بِنَفْسِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُنَا ﴿فَافْضِنُوا فِي مَا كَبِهَتْ وَأَكْلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ الشُّورُ﴾ (٣٠)

(١) وَرَدَّ الْعَرَطِيُّ فِي تَعْسِيرِهِ (٥٢١٧/٧) : قَالَ لِرَجُلٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتَ تَرَاهُ غَلِيظَ الشَّحْمَيْنِ لِأَنَّهُ يَحْرِجُ مِنْ بَيْنَهُمَا كَلَامَ رَقِيقٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تَرَاهُ أَسْوَدَ فَغَلِيظِي أَبْيَضَ ،

فالمشي في الأرض مطلوب ، لكن بهيئة خاصة تمشي مشياً سوياً معتدلاً ، فتمر - رضى الله عنه - رأى رجلاً يسير متماوتاً فهره . وقال ما هذا التماوت يا هذا . وقد وهب الله عافية ، دعها لشحوخك^(١)

ورأى رجلاً يمشى مشية لشطار^(٢) - يعنى قُطَّاع الطرق - فنهاه عن القفز أو الجرى والإسراع في المشى

إس المطلوب في المشى هيئة الاعتدال ، لذلك سيأتى فى قول لقمان ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (٩) [لقمان] يعنى لا تمش مشية المتهاك المتماوت ، ولا تقفز قفز أهل الشر وقُطَّاع الطريق

﴿إِنَّ لِلَّهِ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٨) [لقمان] المختال هو الذى وحد له مربة عبد الناس ، والمخور الذى يجد مربة فى نفسه ، والله تعالى لا يحب هذا ولا ذاك ، لأنه سبحانه يريد أن يحكم الناس بعمداً المساواة ليعلم الناس أنه تعالى ربُّ الجميع ، وهو سبحانه المتكبر وحده فى الكون وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أن يتكبر علينا غيره ، على حد قول الناظم

والسُّجُود الذى تجتره من ألوف السُّجُود هيه مَجَاةٌ

فسجودنا جميعاً للإله الحق يحمينا أن تسجد لكل طاغية ولكل

(١) أورده القرطبي فى الإحياء (٢٩٦/٢) أنه يُروى عن عمر بن الخطاب ؓ أنه رأى رجلاً يصاغر رقبته ، فقال يا صاحب الرقبه ارفع رقبته ليس المشغوع فى الرقبه إنما المشغوع فى القلوب ،

(٢) لشطار جمع شاطر ، وهو الذى أميا أهله ومؤدبه حينئذ قال أبو إسحاق قول الناس فلان شاطر معناه أنه أخذ فى بحر غير الاستواء ، ولذلك قبل له شاطر لأنه نباتع عن الاستواء [لسان العرب - مادة شطر]

متكبر متجبر ، فكان كبرياء الحق - تبارك وتعالى - في صالح العباد

ثم يقول لحق سبحانه على لسان لقمن عليه السلام

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْصِ مِنْ صَوْتِكَ
إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾

القصد هو الإقبال على الحدث ، يقال لا تقيض فيه لطرفين
يعنى توسطاً واعتدالاً ، هذا في أمشي ﴿وَأَعْصِ مِنْ صَوْتِكَ﴾ .
(١٩) ﴿لَقَمَنُ أَيْ أَحْفَصُهُ وَحَسَنُكَ مِنْ لَأْدَاءِ مَا بَلَغَ الْأَدْنُ

لكن ، لماذا جمع السياق القرآني بين المشي والصوت ؟ قالوا
لأن الإنسان مطلوبات في الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما
بالمشي فأننا لا أمشي إلى مكان إلا إذا كان لي فيه مصلحة
وغرض - وما بالصوت فإذا لم أستطع المشي إليه ناديته بصوتي
إذن إما تذهب إلى مطلوبك ، أو أن تستدعيه إليك ولقصد أي
التوسط في الأمر مطلوب في كل شيء لأن كل شيء له طرفان
لا بد أن يكون في أحدهما مبالغة ، وفي الآخر تقصير ، لذلك قالوا
كلا طرفي قصد الأمور ذميم .

ثم يقول سبحانه مُشَبَّهًا الصوت المرتفع بصوت الحمار ﴿إِنْ
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) ﴿لَقَمَنُ﴾ والبعض يفهم هذه الآية
مهماً بظلم فيه الحمير ، وعادة ما يتهم البشر الحمير بالغباء وبالدلة
لذلك يقول الشاعر

وَلَا يُنِيمُ عَنِّي صَيْحُ بُرَادٍ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَالُ عِزُّ الْحَيِّ وَالْوَقْدُ



هذا عسى الخسف مربوطاً برمته وذا يُشَدُّ فلا يرى له أحدٌ

ونعيب على الشاعر أن يصف عير الحى - والمراد الحمير - بالذلة ، ونقرمه فى هذه الصفة بالوتد الذى صار مصرب المثل فى الذلة حتى قالوا (أذل من وتد) لأنك تدقّ عليه بالآلة الثقيلة حتى يتعلق بصعين ، فلا يعترض عليك ، ولا يتبرم ولا يعيئه أحد بالحمير مُسَخَّر ، وليس ذليلاً ، بل هو مذلّل لك من الله سبحانه

ولو تأملنا طبيعة الحمير لوحدنا كم هى مظلومة مع البشر ، فالحمير تحمله لحمل الصباح ونقادورات ، وتتركه ينام فى اوجس فلا يعترض عليك ، ونريده دابة للركوب فتنظفه وتضع عليه السرج ، وفى فمه اللعاب ، فيسرع بك إلى حيث تريد دون تذمر أو اعتراض

وقابوا فى الحكمة من علو صوت احمار حين ينهق أن احمار قصير غير مرتفع كالجمال مثلاً ، وإذا خرج لطلب المرعى ربما ستره قلّ أو شجرة فلا يهتدى إليه صاحبه إلا إذا بهق ، فكان صوته آلة من آلات البادية الطبيعیه ولارمه من بوارمه الضرورية التى تناسب طبيعته

لذلك يجب أن نفهم قول الله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [نمل: ١٦] منهيق الحمير ليس مُنْكَراً من الحمير ، إنما المنكر أن يشبه صوت الإنسان صوت الحمير ، فكأن نهيق الحمير كمال فيه وصوتك الذى تشبهه مُنْكَرٌ مدموم منك ، وإلا فما ذنب الحمير ؟

إنك تلاحظ الجمال مثلاً وهو أضخم وأقوى من احمار إذا حملته حملاً فإنه (ينْعَرُ) إذا ثقل عليه ، أما الحمير فتُحْمَلُهُ فوق طاقتها فيحمل دون أن يتكلم أو يبدى اعتراضاً ، الحمير بحكم ما جعل الله به من العريزة ينظر مثلاً إلى (القناة) فإن كانت فى طاقتها قفز ،

وَأَنَّ كَانَتْ فَوْقَ طَافِقِهِ امْتَنَعَ مَهْمَا أَجْدَرَهُ عَلَى عُرْوِهَا

أَمَّا الْإِنْسَانُ فَيَدْعُوهُ عُرْوُهُ بِنَفْسِهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ مَا لَا يَطِيقُ وَيُقَالُ
إِنَّ الْحَمَارَ إِذَا نَهَقَ فَإِنَّهُ يَدْعِي شَيْطَانًا^(١) . وَعَلِمْنَا بِالتَّجَرُّبَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ
وَمِنْهَا الْحَمِيرُ تَشْعُرُ بِالزَّلْزَالِ قَبْلَ وَقْعِهِ ، وَأَنَّهَا تَقْطَعُ قَسِيودَهَا وَتَعْرِضُ
إِلَى الْحَلَاءِ ، وَقَدْ لَوَحِظَ هَذَا فِي رِلَالِ أَغَادِيرِ الْمَغْرِبِ ، وَلاَحْطَاهُ فِي
رَيْزِلِ عَامِ ١٩٩٢ مَ عِنْدَمَا هَاجَتِ الْحَيَوَانَاتُ فِي حَدِيقَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَبِيلَ
الزَّلْزَالِ

ثُمَّ إِنَّ الْحَمَارَ إِذَا سَارَ بِكَ فِي طَرِيقٍ مَهْمَا كَانَ طَوِيلًا فَإِنَّهُ يَدْعُو
بِكَ مِنْ نَفْسِ الطَّرِيقِ دُونَ أَنْ تُوجِّهَهُ أَنْتَ . وَيَذْهَبُ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى
دُونَ أَنْ يَتَعَدَّاهُ ، لَكِنَّ الْمُتَحَامِلِينَ عَلَى الْحَمِيرِ يَقُولُونَ وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ
حَمَارٌ لِأَنَّهُ لَا يَقْصُرُ ، إِنَّمَا يَصْعِقُ الْحَطَوَةَ عَلَى الْحَطَوَةِ ، وَبِحَرِّ
نَقُولِ بَلْ يُمَدِّحُ الْحَمَارَ حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَقْصُرْ ، لِأَنَّهُ مُحْكَمٌ
بِالْغَرِيزَةِ

كَذَلِكَ الْحَالُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (٥) [الجمعة]

فَمَتَى نَثَبْتُ الْفِعْلَ وَنَفْيَهُ فِي أَنْ وَاحِدٍ ؟ الْمَعْنَى حَمَلُوهَا أَيْ
عَرَفُوهَا وَحَفَظُوهَا فِي كَتَبِهِمْ وَفِي صُدُورِهِمْ . وَلَمْ يَحْمِلُوهَا أَيْ
لَمْ يُوَدِّعُوا حَقَّ حَمْلِهَا وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا ، مِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿كَمَثَلِ الْحَمَارِ
يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (٥) [الجمعة] فَهَلْ يُعَدُّ هَذَا ذِمًّا لِلْحَمَارِ ؟ لَا لِأَنَّ
الْحَمَارَ مَهْمَتُهُ الْحَمْلُ فَحَسَبَ ، إِنَّمَا يُدَمُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا كِتَابَ اللَّهِ

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ « إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ نَاسَلُوا اللَّهَ فِي فَضْلِهِ فَإِنَّهَا
رَأَتْ مَلَكًا » وَابنُ سَمْعَانَ مَهْيِيقُ الْحَمَارِ فَتَحَوَّنَا بِأَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا « خَرَجَهُ
الْبَحَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٢ ٢) ، وَحَمْدٌ فِي مُسْتَدْرَكِ (٢٠٧/٢ ، ٢٢١ ، ٢٦٠)

التنقل منها ، كما سحر الله الشمس والقمر إلخ ، فعلى الرغم من أن كثيراً من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأب الشمس في يوم من الأيام أن تشرق عليهم ، ولا امتنع عنهم الهواء ، ولا ضئت عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها ، لماذا ؟ لأنها مسخرة لا اختيار لها

ولا تفهم من ذلك أن الله سخر هذه المخلوقات رغماً عنها ، فهذا فهم سطحي بهذه المسألة ، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذي خيّر ، إنما الحقيقة أن الكون كله خيّر ، وهذا واضح في قول الله تعالى

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٣) [الأحزاب]

إذن فالجميع خيّر ، خيّرَت السموات والأرض والجبال باحتارت أن تكون مسخرة لا إرادة لها ، وخيّر الإنسان فاختار أن يكون محتاراً ، لأن له عقلاً يفكر به ويقارن بين البدائل

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تحصص ما ينفعك من الأشياء في الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج ، والدليل على ذلك أنك إذا صدت طيراً وحبسته في قفص ومنعته من أن يطير في السماء وتريد أن تعرف أهو مسخر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام ؟ مافتح له باب القفص ، فإن ظلّ في صحبتك فهو مسخر لك ، راض عن بقائه معك باللحمة التي يأكلها أو المكان الذي أعدته له ، وإن خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مسخر لك ، ولا يحق لك أن تستأنسه رغماً عنه .

لذلك سيدنا عمر - رضي الله عنه - لما مرّ بعلام صغير يعب بعصفور أراد أن يعلمه درساً وهو ما يزال (عجينة) طليعة ، فأقنعه

أَنْ يَبِيعَهُ الْعَصْفُورَ ، فَلَمَّا اشْتَرَاهُ عَمْرٌ وَصَارَ فِي حُورَتِهِ أَطْلَقَهُ ، فَقَالَ
الْغُلَامُ : فَوَ اللَّهِ مَا قَصُرْتُ بَعْدَهَا حَيَوَانًا عَلَى الْأَنْسِ بِهِ

وَسَبِقَ أَنْ تَكَلِّمَنَا عَنْ مَسْأَلَةِ التَّسْخِيرِ ، وَكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ الْجَمَلَ
الضَّمْحَ بِحَيْثُ يَسُوقُهُ الصَّبِيُّ لِصَغِيرٍ وَلَمْ يُسَخَّرْ لَكَ مِثْلُ الدَّرْعِ
فَلَوْ لَمْ يُنْزَلْ اللَّهُ لَكَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ وَيَجْعَلُ فِي حَدِّكَ مَا اسْتَطَعْتَ
أَنْتَ تَسْحِيرُهَا بِقُوَّتِكَ

وَقُوَّةَ تَعَالَى ﴿وَأَسْمِعْ عَلَيْكُمْ بَعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (٢٠) [الْقَارِ]
أَسْمِعْ أَيْ وَأَكْمُرْ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ سَيِّدِنَا دَاوُدَ ﴿أَنْ أَعْمَلَ
بَابِدَتٍ﴾ (٢١) [سَبَأ] أَيْ دَرْعًا سَاتِرَةً مُحْكَمَةً تَقِي لَأْسَهَا مِنْ
صَرِبَاتِ السِّيفِ وَطَعْنَاتِ الرِّمَاحِ ، وَالْأَدْرُوعُ تُجْعَلُ عَلَى الْأَعْصَاءِ
الْهَامَةِ مِنَ الْجِسْمِ كَالْقَلْبِ وَالرِّئْتَيْنِ ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى دَاوُدَ أَنْ يَصْنَعَ
الدَّرْعَ عَلَى هَيْئَةِ الصُّلُوعِ ، لَيْسَتْ مَسَاءً ، إِنَّمَا فِيهَا نَتَوَاتُ تَتَحَطَّمُ
عَلَيْهَا قُوَّةُ الضَّرْبَةِ ، وَلَا تَتَزَلَّجُ فَتَنْصِيبُ مَكَانًا آخَرَ

وَرُوي أَنَّ لِقْمَانَ رَأَى دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَعْمَلُ الْحَدِيدَ بَيْنَ
يَدَيْهِ فَتَعَجَّبَ ، بَكَنَهُ لَمْ يَبْأَدِرْهُ بِالسُّؤَالِ عَمَّا يَرَى وَأَمَلَهُ إِلَى أَنْ أَنْهَى
مَنْ صَنَعَتَهُ لِلدَّرْعِ ، فَأَخَذَهُ وَلَبَسَهُ وَقَالَ : نَعَمْ لَبِئْسَ الْحَرْبُ أَنْتَ
فَعَالَ بَقْعَانِ الصَّمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ فَظَلَّتْ حِكْمَةٌ تَتَرَدَّدُ إِلَى آخِرِ
الرَّمَانِ

فَمَعْنَى أَسْمِعْ عَلَيْكَ السَّمْعَةَ أَتَمَّهَا [تَمَامًا] يَسْتَرْعِبُ كُلَّ حَرَكَةٍ

(١) أَخْرَجَ الْمُسْكِرِيُّ فِي الْأَمْنَالِ وَالْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ لِقْمَانَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ كَانَ عَمَلًا لِدَاوُدَ ، وَهُوَ يَسْرِدُ الدَّرْعَ ، فَجَسَّ يَسْطُ هَكَذَا يَمِيدُ - جَعَلَ لِقْمَانُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ يَقْتَضِبُ وَيُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَ وَتَسْمَعُ حِكْمَتَهُ أَنْ يَسْأَلَ ، فَلَمَّا مَرَّ بِهَا صَبَّهَا عَلَى نَفْسِهِ
وَقَالَ : نَعَمْ دَرْعُ الْحَرْبِ هَذِهِ فَقَالَ لِقْمَانُ : الصَّمْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ كُنْتُ أُرِيدُ
أَنْ أَسْأَلَكَ فَسَكَتَ حَتَّى كَفَيْتَنِي

حياتكم ، ويمسكم دائماً بمقومات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شيء ،
لا في استبقاء الحياة ، ولا في استبقاء النوع ، لأن الذي خلق سبحانه
نعم كل ما يحتاجه المخلوق

أما إذا رأيت قصوراً في ناحية ، فالقصور من ناحية الخلق في
أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون ، أو استنبطوا خيرات الكون
لكن بخلوا بها وصنوا على غيرهم وهذه هي آفة العالم في العصر
الحديث حيث نجد قوماً قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط ،
وأحرين جدوا ، لكنهم مضوا بشمات جدهم وربما فاصت عنهم
احييات حتى ألقوها في البحر وأطفوها في الوقت الذي يموت فيه
آخرون جوعاً وقرصاً

إن فائدة العالم ليس في أنه لا يجد ، إنما في أنه لا يحسن
استغلال ما يجد من خيرات ، ومن مقومات الله تعالى في كونه .
فقوله تعالى ﴿وَأَسْخِ عَلَيْكُمْ نَعْمَهُ ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ﴾ [النجم: ١٠] مده
حقيقة لا ينكرها أحد فهل تتذكرون أنه خلقكم وخلق لكم من
أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون ؟

هل تتذكرون أنه خلق السموات بما فيها من الكواكب والمجرات
وخلق الليل فيه منامكم ، والنهار وفيه سعيكم على معاشكم ؟ ثم في
أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة وبغير الظاهرة ، وحمل
لكل منها محلاً ومهمة تؤديها دون أن تشعر أنت بما أودعه الله في
جسمك من الآيات والمعجزات ، وكل يوم بطلع علينا العلم بجديد من
نعم الله علينا في أنفسنا وفي الكون من حولنا

معنى ﴿ظَاهِرَةٌ ..﴾ [١٠] ﴿إِلْقَامًا﴾ أي التي ظهرت لنا ﴿وَبَاطِنَةٌ ..﴾
[١١] ﴿إِلْقَامًا﴾ لم يصل إليها بعد ، ومن نعم الله علينا ما ندركه
ومنها ما لا ندركه

تأمل في نفسك مثلاً الكليتين وكيف تعمل بداخلك وتصفي الدم من البولينا ، فبدنيه وأنت لا تشعر بها ، أول ما فكر العلماء في عمل بديل لها حال فشلها صمموا جهازاً يملأ حجرة كبيرة ، كست نصف هذا المسجد من المعينات لتعمل عمل الكليتين ، ثم تبين لهم أن الكُلية عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب

وقالوا إن الفشل الكلوي عبارة عن عدم تنبيه المائة خلية المناطق بها العمل في الوقت المناسب يعني المائة الأولى أدت مهمتها وتوقفت دور أن يسبب السمائة الأخرى ، ومن هندسة الجسم البشري أن خلق الله للإنسان كليتين ، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها

أما السمع الناطقة فمعه ما يُكتشف في مستقبل الأيام من آيات ونعم ، فمعد عدة سنوات أو عدة قرون لم نكن نعرف شيئاً عن الكهرباء مثلاً ، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العجلة والبحار الخ

كلب نعم ظاهرة لنا لأن ، وكانت مستورة قبل ذلك أظهرها النشاط العمى والبحث والاستنباط من معطيات الكون وحين تحسب ما أظهره العلم من نعم الله تجده حواشي ٢ / وسنة ٩٧ / عرفها الإنسان بالصدقة

وقلنا ، إن أسرار الله ونعمه في كونه لا تنامي وليس لأحد أن يقول إن ما وضعه الله في الأرض من آيات وأسرار أدى مهمته ، لأنه ما يبقاه الحياة الدنيا ، ولا يتوقف إلا إذا تحقق قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَحَدَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَزُكِّرَتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّا هَا ﴾

أَمْراً لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً^(١) كَأَن لَّمْ تَعَنْ بِالْأَمْرِ . ﴿٣١﴾ [يوس]

وفي الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئاً آخر وكان الحق تعالى يقول لنـ لقد رأيتم آياتي في الدنيا واستوعبتموها فتعالوا لأريكم الآيات الكبرى التي أعدديها لكم في الآخرة

ففي الآخرة سأبشركم بشيء آخر ، بحيث تأكلون ولا تتعوطون ولا تتألمون ، وتمر عليكم الأعوام ولا تضييرون ولا تمرضون ولا تموتون لقد كنتم في الدنيا تعيشون بأسبابي أما في الآخرة فأنتم معي مع المسبب سبحانه ، فلا حاجة لكم للأسباب ، لا لشمس ولا لقمر ولا إلح

لذلك نقول من أدب العلماء أن يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا ، لأن آيات الله وبعمه مطمورة في كونه تحتاج من يُنقب عنها ويستفثها مما جعله الله في كونه من معطيات ومعدات

وسبق أن قلنا إن كل سرٍّ من أسرار الله في كونه له ميلاد كميلاد الإنسان ، فإذا حان وقته أظهره الله ، أما يبحث العلماء ولا جاء مصادفة تكررماً من الله تعالى على خلقه الذين قصرت جهودهم عن الوصول إلى أسرار الله تعالى في كونه

وهي هذا إشارة ومقدمة لأن يؤمن بالغيب الذي أخبرنا الله به فما دُمنا قد رأيت بعمه التي كانت مطمورة في كونه فيتبين علينا أن نؤمن بما يحبرنا به من الغيب ، وأن نأخذ من المشاهدة دليلاً على ما غاب

١ من هذا قوله تعالى ﴿وَخَلَقْ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً حَامِلِينَ﴾ (٥) [الأنعام] أي كالذراع المحصول

أي أملكناهم [القاموس القويم ١/ ١٥٦]

واقراً في هذه المسألة قول الله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِندِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ﴾ (٢٥٥) [البقرة] أي شاء سبحانه أن يوجد هذا الغيب ، وأن يظهر للناس بعد أن كان مطموراً ، فإن صادف بحثاً جاء مع البحث ، وإن لم يصادف جاء مصادفة وبلا أسباب ، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم

أما الغيب الذي ليس له مَعْدَمَاتُ توصل إليه ، ولا يطلع عليه إلا الله فهو لمعنى بقوله تعالى ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ۚ ﴿٢٧﴾ [الجن]

وقال سبحانه ﴿ظَاهِرَةٌ وَّابِئَاتُ﴾ (٢٠) [الفرقان] لأن الظاهرة تلتفتنا إلى الإيصال بالله واجب الوجود الأعلى ، والباطنة يحررها الله لمن يأتي بعد ، ثم يدحر دحاراً آخر ، بحيث لا يظهر إلا حين يكون مع الله هي حنة الله

وقد حاول العلماء أن يُعَدِّدُوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة ما يعطيه لنا في الدنيا ظاهراً ، والباطنة ما أخبرنا الله بها ، فمثلاً حين برز الجهاد في سبيل الله تُعَدُّ لذلك عُدَّتُهُ من سلاح وجنود الخ وتأخذ بالأسباب ، فيؤيد الله بجنود من عنده لم تروها ، كما قال سبحانه ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِي مَعَكُمْ﴾ (١٢) [الأنعام]

والرسول ﷺ يحبرنا ببعض هذه النعم الباطنة ، فيقول « للمؤمن ثلاثة هي له وليست له - يعني ليست من عمله - ما الأولى أن المؤمنين يصبون عليه ، وأم الثانية فحمل الله له ثلث ماله بوصى به يعني لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه ، وكان المنطق أن تستعيد بما لك وأنت حي فإذا ما انتهيت فليس لك منه شيء وينتقل إلى لورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذي

شرعه ، فمن النعم أن يباح لك التصرف في ثلث ما لك توصى به
لَتُكْفَرَ بِهِ عَنْ سَيِّئَاتِكَ وَتُظْهَرَ بِهِ ذُنُوبُكَ أما الثالثة إن الله تعالى
ستر مساويك عن خلقه ولو فصحك بها لندمك أهلك وأحببك
وأقرباك »^(١)

إن من أعظم النعم عيباً أن يحجب الله انقيابك عن خلق الله .
ولو حُيِّرَتْ أَىُّ إِنْسانٍ أَحَبَّ أَنْ تَعْرِفَ عَيْبَ الْإِنْسَانِ وَيَعْرِفُوا عَيْبَكَ ؟
فلا شك في أنه لن يرضى بذلك أبداً

والنبي ﷺ يوضح هذه المسألة في قوله « لو تكاشفتم
ما تدهنتم » يعنى لو ظهر المستور من عيب الإنسان واطلع الناس
على ما في قلبه لتركوه إن مات لا يدفنونه . ولقالوا دعوه للكلاب
تأكله . جزاء له على ما فعل

لكن لما ستر الله عيوب الناس وجدنا حتى هدى الإنسان يُسرع
بحمله ودفنه . كما قال القائل صحا الموت أسباب اعداؤه بيضا . لكن
من غباء الإنسان أن يبتش عن عيوب الآخرين ، وأن يتتبع عوراتهم .
فهل ترضى أن يعاملك الناس بالمثل . فيقتنعون عوراتك . ويبحثون
عن عيوبك ؟

ثم إن سيرة واحدة يعرفها الناس عنك كفيّة بأن تزهدهم في كل

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ وَأَسْبَحَ عَلَيْكُمْ حَسَةً
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠) [نفساً] قال أما الظاهرة بالإسلام وما سوى من جلتك وما أصبح
عليك من رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوئ عهلك . يا ابن عباس إن الله تعالى
يقول ثلاث جعلتهن للمؤمن صلاة المؤمنين عليه من بعده . وجعلت له ثلث ماله أكثر
عه من حظائمه وستورت عليه من مساوئ عمله فلم أفضحه بشيء منها . ولو أبديتها
لأبدته أهله فمن سواهم » أخرجه ابن مردويه والبيهقي والدينوري وابن الجارر [ذكره
السيوطي في الدر المنثور ٥٣٥/٦]

حسبناك ، والله تعالى يريد أن يتمتع الناس بعضهم ببعض ليثري
حركة الحياة

ثم يقول تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٠) [لقمان]

المجادلة الحوار في أمر ، لكل طرف فيه جود ، وكل منهم
لا يؤمن برأى الآخر ، والجدل لا يكون إلا في سبيل الوصول إلى
الحقيقة ، ويسمونه الجد الحتمي ، وهذا يكون موضوعياً لا لدن
فيه ، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المبين ، وفيه تقابل الرأي
بالرأي ليثمر الجدل

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِآثَرِهِ
أَحْسَنُ ۖ ﴾ (٤٦) [المنكوب] أما الجدل الذي يريد فيه كل طرف أن يعلى
رأيه ولو بالباطل فهو معاراة وسفسة لا توصل إلى شيء

والجدل مأخوذ من الجد أي القتال ، والشئ حين يُقتل على مثله
يقويه ، كذلك الرأي في الجد يُقوّى الرأي الآخر ، فإذا ما انتهيا إلى
الصواب تكتفا على إظهاره وتقويته فالجدل المراد به تقوية الحق
وإظهاره

فإن كان الجد غير ذلك فهو معاراة يحرص فيها كل طرف على
أن يعلى رأيه ولو بالباطل

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من ألهب الجدل في الله على
غير علم ولا هدى ولا كتاب مبين ، فيقومون مثلاً في جدالهم اللكون
إبه موجود ؟ وإن كان موجوداً أهو واحد أم متعدد ؟ وإن كان
موجوداً أيعم الجرشات أم للكلمات ؟ أيراول ملكه كل وقت ؟ أم أنه

خلق الفونين . ثم تركها تعمل في الكون رُسِيره ؟ كأن الله تعالى
زول سلطانه في الملك مرة واحدة

ومعلوم ن الله تعالى قِيوم أى قائم على مُمر الخلق كله هي كل
وعت وايدلين على ذلك هذه المعجزات التي حرقت النواويس لتدل
على صدق الرسل هي لبلاغ عن الله . كما عرفنا هي قصة إحراق
إبراهيم - عليه السلام - فلو أن المسألة إنجاء إبراهيم من النار لما
مكّنهم له منه ، أو مكّنهم منه ومن إلغائه في النار . ثم ارسل على
النار سحابة تُطفئها

لكن أراد سحابه أن يشعوا النار وأن يلقوا بإبراهيم فيها ،
ومع ذلك يخرج منها سالماً ليروا بأعينهم هذه المعجزة الخارقة
لقانون النار ليكبتهم الله . ولا يعطيهم الفرصة ليخدعوا الناس
ولو آلمت إبراهيم من قصصهم لوجدوا هذه الفرصة ولقالوا
لو أمسكنا به لعلنا به كذا وكذا

ومعنى ﴿بغير علم﴾ .. ﴿٢﴾ [القصص] العلم أن تعرف قصيه وتجزم
بها ، وهي واقعة وتستطيع أن تدلّ عليها فإن كانت القضية التي
تؤمن بها غير واقعة ، فهذا هو الجهل ، فالحامل لا يوضع في مقابل
العالم ، لأن الجهل لديه علم بقضية لكنها مظنة وهذا يتبعك في
الإفناع ، لأنه ليس خالي الدهن ، فيحتاج أولاً لأن يخرج من ذهنه
القضية الباطلة وتحل محلها القضية الصحيحة ، أما الأمل فهو خاسي
الذهن من أي قضية

فإن كانت القضية التي تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أن تدلّ
عليها ، كالولد الصغير الذي علمناه أن (الله أحد) وسبقت في ذهنه
هذه المسألة ، لأن آياه أو معلمه لقّنه هذه القضية حتى أصبح

عقيدة عنده ، والذي يُدَلِّل عليها مَنْ لَقَّيْهَا لَهُ إِلَى أَنْ يَكْفُرَ . ويستطيع
هو أن يُدَلِّل عليها .

والعلم أنواع ، منها وأولها العلم البديهي الذي نصل إليه بالبديهة
دون بحث فمثلاً حين يرى الإنسان يتنفس نعلم أنه حيٌّ بالبديهة ،
ونعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا
الخ

وإذا نظرت إلى معلومات الأرض كلها تجد أن أم هذه المعلومات
اسديهة . فعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريات تستخدم الأولى منها
مقدمة لإثبات الثانية ، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا

وحين تعيد تسلسل النظريات الهندسية فإنك لا بدَّ عائد إلى
النظرية الأولى وهي بديهية تقول : د التقى مستقيم بأخر نتج عن
هذا الالتقاء زاويتان قائمتان

إذن سنعقد النظريات لا بدَّ أن تعود إلى أمر بديهي مبثوور في
كبر الله المهم من يبتفت إليه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى
﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) ﴿

فقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِرُ فِي اللَّهِ ..﴾ (٢٠) ﴿ [لنفس أي
وجوداً وصفاتاً] ﴿ بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبيِّن ﴾ (٢) ﴿ [العلم] يعني
أن الحدل يصحَّ إن كان بعلم وهدى وكتاب مبين ، فإن كان بغير ذلك
فلا يُعدُّ حدلاً إنما وراء لا طائل من وراءه

ومعنى الهدى أي الاستدلال بشيء على آخر ، كالعربي الذي
ضل في الصحراء فلما رأى على الرمال بَعراً وإثراً لافندام استأنس

بها . وعلم أنه على طريق مطروق ولا بُدَّ أن يمرَّ به أحد ، فلما عرضت له قصية الإيمان استقبل عليها بما رأى فعال^(١)

البصرة تدل على التعبير . وانقدم تدل على المفسر ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج . نجوم تزهو ، وبحار تزخر^(٢) . ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

فإنسان حين ينظر في الكون وهي آياته لا بُدَّ أن يصل من خلأها إلى الخالق عز وجل ، مما كان لها أن تتأني وحدها ، ثم إنه لم يدعها أحد لنفسه ممن يكرور وجود الله ، وقلنا إن الله الأشياء التي مراها لا يمكن أن توجد هكذا بدون صانع ، فمثلاً الكوب الذي شرب فيه هل رأينا مثلاً شجرة تطرح لنا أكواباً ؟

إن لا بُدَّ أن لها صانعاً فكر في الحاجة إليها فصنعها بعد أن كان الإنسان يشرب الماء عبثاً^(٣) أو نزحاً بالكف ، وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق الخفيف إلا بعد بحث العلماء في عناصر الوجود ، أيها يمكن أن يعطيني هذه الرائحة الشفافة ، فوجدوا أنها تُصنع من الرمل بعد صهره تحت درجة حرارة عالية فهذا الكوب الذي يمكن

(١) هو قس بن ساعدة بن عمرو الإيادي أحد حكماء العرب ومن كبار خطائهم في الجاهلية ، كان أسقف مجرا ، طالت حياته وادركه اليأس قبل النبوة ورأه في سوق مكة . تونس نحو ٢٢ ق هـ [الأعلام للزركلي ١٩٦/٥]

(٢) هذا الجزء من خطبة خطبها قس في سوق عكاظ أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإني وعيتم فيتعفوا إنه من عائش مات ، ومن مات مات وكل ما هو قات آت ، مطر ونبات ، وأوراق وفواكه إلى هي السماء بحيرا وإن قس إلا من لعبدا ، لئن ناج وسعده ذات برار وأرض ذات رناج وبحار ذات دجاج . [ذكرها البيهقي في دلائل النبوة ١٠٨/٢]

(٣) العرب شرب الماء من غير مصفٍ رقيق . أن يشرب الماء ولا يتعفى [لسان العرب مادة عجب]



أَنْ نَسْتَغْنِي عَنْهُ أَحَدٌ مِّنْ حَبْرَةٍ وَقَدْرَةٍ وَعَمَّا . إلخ

فما بالك بالشمس التي تتير الكون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أن تكلّ أو تملّ أو تتخلف يوماً واحداً وهي لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار . أليست جذيرة بأن نسال عمّن خلقها وأبعدها على هذه الصورة ؟ خاصة وأنها فوق قدرتنا ولا تنالها إمكانياتنا

هذه هي الآيات التي نأخذها بالأدلة . لكن هذه الأدلة لا توصّلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً . لكن العقل لا يصر في إسي هذا الخالق من هو . وما سمعه ، إذن لا ندّ من بلاغ عن الله على يد رسول يبلغنا من هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته ، وماذا أعدّ لمن أطاعه . وماذا أعدّ لمن عصاه

وعرق بين التعقّل والتصوّر . والذي أتعب الفلاسفة بهم خلطوا بينهما ، فسالتعقل أن أنظر في آيات الكون . وأرى أن لها موجداً ، أمّا بتصوّر فبأن أنصور هذا الموجد . شكله ، اسمه ، صفاته . إلخ وهذه لا تنسّى بالعقل ، إنما بالرسوم الذي يأتي من قبل الإله الصريح

وسبق أن ضربنا مثلاً - والله تعالى المثل الأعلى - قلنا لو أننا نحس في مكان مطلق وطرق الباب طارق . فكلنا يتفق على أن طارقاً بالباب لا جلاّف في هذه ، لكن تختلف في تصوّره ، فواحد يتصور أنه جل . وآخر يقول طفل . وآخر يتصوره امرأة ، وواحد يتصوره بشيراً ، وآخر يتصوره نذيراً . إلخ

إذن اتفقنا في التعقّل ، واختلفنا في التصوّر . ولكي نعرف من الطارق فعليتنا أن نقول من الطارق ؟ يعلن هو عن نفسه ويحبرنا

مَنْ هُوَ ؟ ولماذا جاء ؟ وينهى لنا هذا احلاف .

كذلك الحق - تبارك وتعالى - هو الذي يخبرنا عن نفسه ، لكن كيف يتم ذلك ؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أن ينجلي الله عليه بالخطاب بأن يكون مُعداً لتلقى هذا الخطاب ، لا أن يحاطب كل الناس

وقد مثلنا لذلك أيضاً (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذي لا يتحمل التيار المباشر ، بل يحتاج إلى (ترانس) أو مضخم يعصيه الكهرباء على قدره وإلا حرق حتى في المديات لاند من قوى يستقبل ليعطى الضعيف

والحق سبحانه يُعد من خلقه مَنْ يتلقى عنه ، ويُبلغ الناس فيسلكم الله الملائكة ، والملائكة تكلم الرسل من البشر ، ذلك يقول سبحانه ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً .. ﴾ (٤١) ﴿ [الشورى] وإلا لو كلم الله جميع البشر فما الحاجة للرسل ؟ لذلك لما سئل الإمام علي رضي الله عنه : أعرفت ربك محمد ، أم عرفت محمداً بربك ؟ فقال : لو عرفتُ ربي بمحمد لكان محمد أوثق عندي من ربي ولو عرفتُ محمداً بربي . فما الحاجة إذن للرسل ؟ لكن عرفتُ ربي بربي ، وحاء محمد فبلغني مراد ربي مني إذن لا بد من هذه الوسطة

والحق سبحانه يعطينا في القرآن مثلاً يوضح هذه المسألة في قوله تعالى عن سيدنا موسى ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ (١٣) ﴿ [الاعراف] فبماذا أجابه ربه ؟ ﴿ قَالَ لَنْ قَرَأَنِي .. ﴾ (١٤) ﴿ [الاعراف] ولم يقل سبحانه أنا لا أرى ، والمعنى لو أعددتك الإعداد المناسب لهذه الرؤية لرأيت بديل أنا سبغ في الأحرار على هيئة يرى فيها الله عز وجل ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ (٢٦) ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ (٢٧) ﴿ [القيامة]

وعن المقابل يقول عن الكفار الذين سيُحرمون هذه الرؤية ﴿كَلَّا
إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ (١٥)﴾ [المطففين]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للحبل وهو الحسن الأقوى من
موسى مادة وصلابة اندك الحبل ، ونظر موسى إلى الحبل المتجلى
عليه فحرَّ صَعَقًا ، فما بالك لو نظر إلى المتجلى سبحانه ؟

إذن الحق سبحانه حينما يريد أن يصاطب أحداً من خلقه
أو سيجلي عليه يُعِدُّه لذلك ، ويربِّيه على عينه كما قال عن موسى
﴿وَلَنُصْعِ عَلَى عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه] وقال في موضع آخر ﴿وَاصْطَلَحْتَ
لِنَفْسِي (٤١)﴾ [طه] ثم يقوم هذا المربي الذي رباه الله بتربية الخلق

وقد ربي محمد ﷺ أمته في ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن الله
تعالى خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقت تربيته لناس وقتاً طويلاً
بذلك يصطفى الله الرسل ويعطيهم من احصائهم ما يُمكنهم من
تربية الامم بعد أن رباهم الله ، وامتنعهم على عينه

إذن كن ولا بُدَّ من إرسال الرسل لبلاغ عن الله من هو ،
ما اسمه ؟ ما صفاته ؟ ما مطلوباته ؟ ماذا أعدَّ لمن أطاعه ؟ وماذا أعدَّ
لمن عصاه ؟ إنَّ ذلك فأول دليل على بطلان الشرك أن تقول للذي
يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله في العبادة ومائاً قالت
لك هذه الأشياء ؟ ما مطلوباتها ؟ ما مردها منك ؟ وإلا فلما أنا
تعبده والعبادة هي أوضح معانيها طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه ؟

فإنَّ قُلُوبَ إِنْ لَمَّا تَبَيَّنَتْ عَقُولُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَنْ يَعْبُدُوا هَذِهِ
الْأَشْيَاءَ ، يَقُولُ لَأَنْ التَّدْبِيرُ طَبِيعَةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَمَرْكُورٌ فِي
الْعَطْرَةِ الَّتِي مَطَّرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا ، وَسَبَقَ أَنْ أَوْضَحْتُ أَنَّ كُلَّ مَنْ فِيهِ
ذَرَّةٌ حَيَّةٌ مِنْ أَبِيهِ دَمٍ - عَسَى السَّلَامُ - لَمْ يَطْرُقْ عَلَيْهَا الْقَنَاءُ ، وَإِلَّا لَمَّا
وُجِدَ الْإِنْسَانُ وَهَذِهِ الدَّرَّةُ فِي كُلِّ مَنْ هِيَ الَّتِي شَهِدَتْ الْعَطْرَةَ ،

وشهدتُ الخلق ، وشهدتُ العهد الذي أخذته الله علينا جميعاً ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ .. (١٧٢) ﴿[الأعراف]

فإن حافظة على إشراقية هذه الذرة هيك ، ولم تُعرضها لما يطمس نورها - ولا يكون ذلك إلا بالسَّير على منهج خالقك وبناء لذات جسمك مع أحسن الله إن فعلت ذلك أنار الله وجهك وبصيرتك

لذلك جاء في الحديث أن العهد يشكو يقول « دعوتُ فلم يُسجب لي ، لكن أتي يستحب له ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام » كيف وقد طمس الذرة النورية فيه . وعمل عن قنور صيانتها ؟ وقراً قوله تعالى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هَٰذَا فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْفِ﴾ (١٧٣) رَمَنَ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٧٤) ﴿[طه]

فالمعيشة الصنك والعياد بالله تأتي حين تطمس النورية الإيمانية وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التي شهدت خلق الله ، وشهدت له بالربوبية ولو حافظة عليها لظلت كل التعاليم واضحة أمامك وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التي جرَّت عبيك المعيشة الضنك . وانقرأ قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ .. (٧٩) ﴿[الأنفال] أي نوراً يهديكم وتفرقون به بين الحق والباطل

واحق سبحانه يوضح لنا ما يطمس الفطرة الإيمانية وهما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٥ ١٦) من أبي هريرة قال قال ﷺ : « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنَّمَا يُحِبُّ اللَّهُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [مائدة] وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا يُحِبُّ اللَّهُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [مائدة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أوبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وعدي بالمعصية أتاني مستجاب فذلك »

أمران لعقلة والتي قل الله عنها ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الاعراف] والقُدوة التي قال الله عنها ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ ﴾ [الاعراف]

فالذي يطمس الفطرة الإيمانية اغفلة عن المبهج هذه الغفلة تُوجد جيلاً لا يتمسك بمبهج الحق ، وبذلك تكون العقبة في الجين الأول اغفلة ، لكن في الأجيال اللاحقة الغفلة والقُدوة السيئة ، وهكذا كلما تنقصى الأجيال بزاد الغفلة ، وترداد القُدوة السيئة ، بذلك يوالى الحق سبحانه إرسال الرسل بيزيح عن الخلق هذه الغفلة ، ويوجد لهم من جديد قُدوة حسنة ، ليقارنوا بين مبهج الحق ومنهج الخلق

ممن رَدَّ أَنْ يَجَادِلَ فِي اللَّهِ فَلْيَجَادِلْ بِعِلْمٍ وَبِهَدْيٍ وَبكِتَابٍ مُنِيرٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَوَصَفَ الْكِتَابَ بِأَنَّهُ مُسَرِّدٌ بَدَلْنَا عَلَى أَنْ الْكِتَابَ الْمُسْتَوْبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُنِيرًا ، لكنه قد يفقد هذا البور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ومسيان وكتمان . إلخ

وقد أوضح الله تعالى هذه المراحل في قوله تعالى . ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ ﴾ [الأنعام]

ثم ﴿ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْهُدَى ۖ ﴾ [السجدة]

وإن كن الإنسان يُعذّر في النسيان ، فلا يُعذّر في الكتمان ، ثم الذي نجا من النسيان ومن الكتمان وقع في التحريف ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۖ ﴾ [المائدة] وليتَّهم اقتصرُوا على ذلك ، إنما خُلقُوا من عند أنفسهم كلاماً ، ثم نسبوه إلى الله ﴿ قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ ﴾ [السجدة] فانواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها في اليهود

إِنَّ هَالِكَب لَتَنِي بِأَيْدِيهِمْ لَا تَصْلِحُ بِلَجْدٍ فِي اللَّهِ ، لَأَسْهَأُ تَقْصِدُ اِجْم
وَالْعَجَّة وَالْهَدَى ، وَلَا تُعَدُّ مِنَ الْكُتَابِ الْمُنِيرِ الْمَشْرِقِ لَدَى يَخْوٍ مِنْ
التَّضْيِيبَاتِ وَالْعَجُوتِ ، فَجَوَاتِ النِّسْيَانِ وَالْكَتْمَانِ ، وَاتَّحْرِيفِ وَلَاخْتِلَاقِ

هَمَّ يُرِيدُ أَنْ يَجَاسَ فِي اللَّهِ فَلْيَجَادِلْ بِنَاءً عَلَى عِلْمٍ بِدَهْمٍ أَوْ هَدَى
اسْتِدْلَالِي ، وَ كِتَابٍ مُدِيرٍ ، وَالْكَتَبِ الْمُنْرَلَةِ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا صَحُفُ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى ، وَمِنْهَا رُبُّرُ الْأَوَّلِينَ ، وَالزُّبُرُ نَزَبٌ عَلَى سَيِّدَتِنَا رَارِدٌ ،
وَالْتُورَاهُ عَلَى مُوسَى ، وَالْإِنْجِيلُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .
هَذِهِ كُلُّهَا كُتُبٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لَكِنْ هَلْ طَرَأَ عَلَيْهَا حَالَةٌ عَدَمِ الْإِنَارَةِ ؟

مَقُولٌ نَعَمْ لِأَنَّهَا اتَّصَمَتْ بِشَهَوَاتِ الشَّرِّ فِيهَا وَسَامَوَاتُهَا الَّتِي
شَرُّهُنَّهَا وَأُخْرِجَتْهَا عَنِ الْإِشْرَاقِيَّةِ وَالنُّورَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا وَهَذَا
نَتِيجَةُ السُّلْطَةِ الزَّمْنِيَّةِ وَهِيَ أَفْسَى شَيْءٍ فِي تَعْيِيرِ الْمَنَاجِ

هَذِهِ السُّلْطَةُ الزَّمْنِيَّةُ الَّتِي مَنَعَتْ الْيَهُودَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ،
وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِعَثَّتِهِ فِي بِلَادِ الْحَرْبِ ، وَيَعْلَمُونَ مَوْعِدَهُ وَأَوْصَافَهُ ، وَأَنَّهُ
﴿ خَاتَمُ الرُّسُلِ ﴾ لَئِنْ يَقُولُ الْقُرْآنُ عَنْهُمْ ﴿ يَهْرُقُونَهُ كَمَا يَهْرُقُونَ
أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٧) ﴿

وَيَقُولُ عَنْهُمْ ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ لِحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤) ﴿
[نِسْقَةٌ] لَئِنْ ، سَيِّدُنَا عَمِيدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ يَقُولُ عَنْ سَيِّدَتِنَا رَسُولِ اللَّهِ
وَاللَّهُ لَقَدْ عَرَفْتُهُ حِينَ رَأَيْتُهُ كَمَعْرِفَتِي لَأَيُّنِي ، وَمَعْرِفَتِي لِمُحَمَّدٍ أَشَدَّ

(١) الزُّبُرُ : جَمْعُ زُبُرٍ ، وَهِيَ الْكُتَابُ زُبُرُ الْكُتَابِ يَرْبُرُهُ كَتَبَهُ فَهُوَ مَرْبُورٌ ، وَزُبُرٌ أَيْ
مَكْتُوبٌ [الْقَامُوسُ لِقَوْمِ ٢٨٣/١]

(٢) يُرْوَى عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّهُ عَرَفَ مُحَمَّدًا كَمَا تَعْرِفُ وَلَدَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ
وَأَكْثَرَ ثَبَلِ الْأَمِيْنَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَمِيْنَ فِي الْأَرْضِ بِعَثَّتِهِ فَعَرَفْتُهُ ، وَإِنِّي لَا أَدْرِي مَا كَانَ
مِنْ أَمْرِ ، ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١١٤/١)

ويحكي القرآن عن أهل لكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم لقد أظل زمان نبي جديد نسيقكم إليه ويقتلكم به قتل عاد وإرم^(١) وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين^(٢) [البقرة]

لماذا ؟ لانهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التي كانت لهم ، والريادة التي أحصوها في العلم والاقتصاد والحرب إلح لقد كانوا يُعدّون واحداً منهم يُخصّونه ملكاً عليهم في المدينة ليلة هاجر إليها رسول الله ، فلما دحسها رسول الله لم تعد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله فرفض هذا الملك الجديد

إذن فكل الكتب السمارية لحقها التحريف والتعيير فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيادات التي بحميتها كما حمى القرآن ، وما ذاك إلا ليظهر شرف نبي الحاتم فلكتب السابقة للقرآن حاءت كتب أحكام ، ولم تكن معخرة هي دتها ، فبالرس السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المصحح ، فموسى عليه السلام معجزة العصا واليد إلح وكتبه ومنهجه الثوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته أن يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى برب الله وكتابه ومنهجه الإنجيل

أما محمد ﷺ فمعجزته ركتابه ومنهجه هو القرآن ، فهو منهج

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٤/١) نقلا عن ابن إسحاق عن شراح من الأنصار

(٢) هو عبد الله بن أبي بن مسعود قال سعد بن عباد رسول الله ﷺ إنا والله يا رسول الله لقد كنا قبل الذي خصصنا به منك ومن عبداً بقدمك أردنا أن نعبد على رأس

عبد الله بن أبي أناس وملكك عبداً [لورده البيهقي في دلائل النبوة (٥٠٠/٦)]

ومعجزة سنصاحب الزمان إلى أن تقوم الساعة لأن رسالته هي الرسالة الحاتمة ، فلا بد أن يكون كتبه ومعجراته كذلك فيقول هذا محمد وهذه معجراته

أما الرسائل السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها وبولا أن الله أحبرها بها ف عرفنا عنها شيئاً وما صدقنا بها ، وسبق أن شبهناها بعود الكسريت الذي يشعل مرة واحدة رآه من راء ، ثم يصبح خبراً ، لذلك لا نستطيع أن نقول مثلاً هذا موسى عليه السلام وهذه معجراته ، لأنها لم تر هذه المعجزة

ولما كانت الكتب السابقة كتباً تحمل المبهج وليست معجزة في ذاتها ترك الله تعالى حفظها لأهلها الذين آمنوا بها وهذا أمر تكليفي عرّضه لأن يطع ، ولأن يعصى فكان منهم أن عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب في هذه الكتب

يقول تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهِ الرُّسُلُ الَّذِينَ آمَنُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبِيُّونَ وَالْأَحْسَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ (٤٤) [المائدة]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء فاعلم أنها للطب استحضرتك كذا يعنى طليت منك حفظه ، مثل استقهمت يعنى طليت الفهم ، وستحرجت واستوضح الخ

فما جرب الخلق في حفظ كلام الخلق فم يؤدوا ولم يحفظوا تكفل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن وقال ﴿إِنَّا نَحْنُ بَرُّنَا الدَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٣٩) [المر]

لذلك ظل القرآن كما نزل لم تنله يد لتحرّيف أو الزيادة

أو النقصان ، وصدق الله تعالى حين قل في سورته ﴿وَلَا يَكُنْ لَكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ..﴾ (٦) [البقرة] لا الآن ، ولا بعد ، ولا إلى قيام الساعة حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا لا يوجد كتاب موثَّق في التاريخ إلا القرآن

والعجيب في مسألة حفظ القرآن أن الذي يحفظ شيئاً يحفظه ليكون حجة له ، لا حجة عليه ، كما تحفظ أدب الكمبيوتر التي لك على خصمك ، أما الحق سبحانه وتعالى - فقد ضمن حفظ القرآن ، والقرآن ينبيء بأشياء ستوجد فيما بعد ، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويُسحِّله على نفسه ، إلا إذا ضمن صدق وتحقق ما أخبر به وإلا لما حفظه ، إذن حفظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شيء في الكون أبداً يناقض كلام الله في القرآن ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٧) [النساء]

وسبق أن قلنا إن القرآن حكم في أشياء مستقبلية الخلق فيها اختيار هيأى احصاء الخلق وفق ما حكم مع انهم كافرين بالقرآن مكذبون له ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به وكان بإمكانهم أن يمتنعوا ، لكن هيهات فلا يتم في كون الله إلا ما أراد ،

لكن ، ماذا نفس قمينٌ يحدث في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ ظفته إلى العلم ، وإلى الهدى ، وإلى الكتاب المسر

مدعوهم إلى النظر في الآيات الكونية ، وفي البدهيات التي تثبت وجود الخالق عز وجل مدعوهم إلى الهدى ، والاستدلال وإلى النظر في المعجزة التي جاء بها رسول الله ﷺ يخبر وهو في شدة الحصار الذي ضربه عليه وعلى كه كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر إلخ

أَلَمْ يُخَسِّرِ الْقُرْآنَ فِي هَذِهِ الْأَنْعَاءِ مَقُولَهُ تَعَالَى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر] حَتَّى أَنْ سَيَدَنَا عَمْرٌ لِيَتَعَجِبَ أَيُّ جَمْعٍ هَذَا ، وَمَنْ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى حِمَايَةِ أَنْفُسِنَا ؟ فَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ بَدْرٍ وَرَأَى بَعْضُهُ مَا حَقَّ بِالْكَفَّارِ قَالَ صَدَقَ اللَّهُ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر]

أَلَمْ يَقُلِ الْقُرْآنُ عَنِ الْوَلِيدِ مِنَ الْمَعِيرَةِ^(١) ﴿سَنَسْفَعُ عَلَى الْحَرَطُومِ﴾ [القلم] وَفِعْلًا ، لَمْ يَعْرِفُوا الْوَلِيدَ يَوْمَ بَدْرٍ بَيْنَ الْقَتْلَى إِلَّا بِضُرْبَةِ عَلِيٍّ حَرَطُومَهُ^(٢) أَلَمْ يُشِيرْ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ إِلَى مَصَارِعِ انْقِرَاطِهِ فَيَقُولَ وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيهِ هَذَا مَصْرَعٌ فَلَانٌ ، وَهَذَا مَصْرَعٌ فَلَانٌ^(٣) ، ثُمَّ تَأْتِي الْمَعْرَكَةُ وَيُقْبَلُ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

وَالْحَقُّ سَبَّحَنَهُ أَعْطَانَا فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَدْرُسُ عَلَى أَمَةِ كِتَابٍ يُنُورُ لَنَا آمَاضِي ، وَيُنُورُ لَنَا الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبِلَ . وَسَبَّحُوا أَنْ قُلْنَا إِنْ

(١) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ (٦٦٢/٨) : اختلف في الذي الوليد منه ، فقيل هو الوليد بن

سميرة وذكره يحيى بن سلام في تفسيره ، وقيل الأسود بن عبد يغوث وذكره سديد بن

داود في تفسيره ، قيل الأحنس بن شريق وذكره بسهيلي في القنيبي .

(٢) عن ابن عباس في قوله ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمُ﴾ [١٠٠] [القلم] قَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ لَهُ

رَبْعَةٌ مِثْلُ رُبْعَةِ الشَّاةِ يَعْرِفُ بِهَا قَالِ سَبَّيْطِي فِي الدَّرِّ الْمَثْفُورِ (٨ ٧٤٩)

« أَخْرَجَهُ ابْنُ خَالَتِي وَالْمَسَائِي وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْثُومٍ وَابْنُ نَعْمٍ » وَهُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِمَعْنَى

فِي تَوْبِهِ ﴿سَنَسْفَعُ عَلَى الْحَرَطُومِ﴾ [١٠٠] [القلم] قَالَ يَوْمَ يَدْرُ فُحْطَمَ بِالسَّبَبِ فِي الْقَتْلِ

وَمِنْ يَذْكُرُ أَمَةَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَعِيرَةِ

(٣) أَخْرَجَهُ سَيِّدُ مِرْ صَدِيقُهُ (١٧٧٩) عَنْ حَدِيثِ ثَمَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَابْنِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ

(٢١٩ ، ٢٥٨) أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « هَذَا مَصْرَعٌ فَلَانٌ » وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ

هَذَا وَهَافًا ، قَالَ لَمَّا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعٍ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ



الغيب دونه حجب الزمان ، أو حجب المكان ، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجب الزمن الماضي وما سيحدث في المستقبل يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل ، أما الحاضر الذي تعيشه فيحجبه عنك المكان ، بل وقد يكون في نفس المكان وتجلس معه ، لكنك لا تعرف ما في صدري مثلاً

وكل هذه الحجب حرقها الحق سبحانه لرسوله ﷺ فمثلاً في عروة مؤتة^(١) لما بعث النبي ﷺ جيشه إليها ، ونفى هو في المدينة قال خبر ورع القيادة يحمل الراية فلان ، فإذا قُتل يحملها فلان فإذا قُتل يحملها فلان وسمى هؤلاء الثلاثة ، ثم قال فإذا قُتل لثالث فاحتاروا من بينكم من يحمله^(٢)

وحلّس النبي ﷺ بين أصحابه في المدينة ، وأحد وصف لهم المعركة وصفاً تفصيلياً ، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبي ﷺ وهو في المدينة

رقد نهتنا هذه المسألة إلى السر في تسمية مؤتة (عروة) وكانوا لا يقولون عروة إلا للتي شهدها رسول الله بنفسه أما التي لا يخرج فيها فتسمى (سرية) فلما أخبر ﷺ بما يدور في المعركة مع بُعد المسافات اعتبرها المسلمون عروة

بل وأبلغ من ذلك ، فالحق سبحانه كشف لرسوله ﷺ ما يدور

(١) وقعت عروة مؤتة في جمادى الأولى عام ٨ هجرية ، وموتة قرية من أرض البقاء من الشام وسمى أيص عروة جيش الأمراء ، وقد كانت غزوة شديدة استشهد فيها حطو ابن أبي طالب ، وريد بن حارثة وعبد الله بن رواحة قاتلوا فيها الروم

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [٤٦٦٢] ، وأبيهقي في دلائل النبوة (١ ٢٦٦) وفيه أن رسول الله ﷺ بعثهم قبل أن يجرى تحير

المجادلة

ثم يقول الحق سبحانه

كلمة ﴿مَا أُرِلَ اللَّهُ﴾ .. (٢٠) [لأنهم] عامة تشمل كل الكتب المنزلة .
وأقرب شيء في معناها أن يقولوا : انزعوا ما أُرِلَ الله على رسلكم الذين
آمَنتم بهم ، ولو معتم ذلك لَسَلَّمْتُمْ بصدق رسول الله وقررتكم برسائله .

لَكِنْ يَأْتِيهِمْ رُدُّهُمْ (بَلْ) وَبَلْ تَعْبُدُوا إِصْرَابَهُمْ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿تَبِعْ﴾
مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا . ﴿٦٦﴾ [تَقَار] وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿قَالُوا بَلْ تَتَّبِعُ مَا
أَلْفَحَا عَلَيْهِ آيَاتُنَا ..﴾ ﴿٦٧﴾ [البقرة]

(١) قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية (٢٢٣/٤) أي يفعلون هذا ويقولون ما نحرون من الكلام وإيهام السلام وإيهام هو شتم في الباطن ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول به في الباطن لأن الله يعلم ما نسرره ولو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعذبنا الله بالعقوبة هي الدية فقال الله تعالى ﴿ حَبِطَ لَهُمْ جَهَنَّمَ بَصُورُهَا فَنِعَسَ الْمُبْصِرُ ﴾ كما في المجادلة.

سما انفرق بين (وجدنا) و (ألقينا) وهما بمعنى واحد ، قالوا لأن أعمار المحاطين مختلفة في صُحبة آياتهم وابتاثر بهم ، فبعضهم عاش مع آياته يُقْلِدُهم فترة قصيرة ، وبعضهم عاصر الآباء فترة طويلة حتى ألف ما هم عليه وعشقه ؛ لذلك قال انقرآن مرة (الْفَيْئَا) ومره (وَحَدَّثَا)

والاختلاف الثاني نلاحظه في احتلاب تذييل الآيتين ، فمرة يقول ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧)﴾ [البقرة] ومرة أخرى يقول ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٤)﴾ [المائدة]

سما الفرق بين يعقلون ويعلمون ؟

الذي يعقل هو الذي يستطيع بعقله أن يستنبط الأشياء ، فإذا لم يكن لديه العقل الاستنباطي عرف المسألة ممن يستنبطها ، وعليه فالعلم أوسع دائرة من العقل لأن العقل يعلم ما عقله ، أما العلم فيعلم ما عقله هو وما عقله غيره ، فقوله (يَعْلَمُونَ) تشمل أيضاً (يَعْقِلُونَ)

إذن إذا نفى العقل لا يُنفى العلم ، لأن غيرك يستنبط لك فالرجل الريفى السسيط يستطيع أن يدير التلفزيون مثلاً ويستفيد به ويتجول بين قنواته ، وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعة عمل هذا الجهاز الذى بين يديه ، إنما تعلمه من الذى يعلمه ، فالإنسان يعلم ما يعقله بذاته ، ويعلم ما يعقله غيره ، ويؤديه إليه ، لذلك فنفى العلم دليل على الجهل المطبق الذى لا أمل معه فى إصلاح الحال .

ونلاحظ أيضاً أن القرآن يقول هنا ﴿قَالُوا بَلْ تَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاؤُنَا .. (٢١)﴾ [لقمان] ، ومضى موضع آخر يقول ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاؤُنَا (١٤)﴾ [المائدة] فقولهم نتبع ما وجدنا عليه آباءنا

فيه دلالة على إمكانية اتباعهم الحق ، فالإنكار هنا بسيط ، أما الذين قالوا ﴿ حسبا ﴾ (٤٠) [العائد] يعنى يكفينا ولا يريد عسره ، فهو دلالة على شدة الإنكار ، لذلك فى الأولى نفى عنهم العقر ، أما فى الأخرى نفى عنهم العلم ، فحجَز الآيات يأتى مناسباً لصدرها

وهنا يقول تعالى فى تنزيه هذه الآية ﴿ أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ (٦٠) [لعمري] لأن آباءهم ما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام والكفر بالله إلا بوسوسة الشيطان فالشيطان قَدْرٌ مشترك بينهم وبين آباءهم

وهذا يدلنا على أن مساعد الإغواء مرة تأتى من النفس ، ومرة تأتى من الشيطان ، وبهما يُطمس نور الإيمان وبور المنهج فى نفس المؤمن

وسبق أن بيينا أنك تستطيع أن تفرق بين المعصية التى تأتىك من قبل الشيطان ، والتى تأتىك من قبل نفسك ، فالشيطان يريدك عاصياً على أى وجه من الوجوه ، فإذا تأيأت عليه فى ناحيته فلك إلى ضحية أخرى

أما النفس فتريد معصية بعبثها تقف عندها لا تتحول عنها ، فالنفس تميل إلى شئ بعينه ، ويصعب عليها أن تتوبَ منه ، ولكل نفس نقطة ضعف أو شهوة تفصلها ، لذلك بعض الناس لديهم كما قلنا (طفاشات) للنفس ، لأنهم بالممارسة والتجربة يعرفون نقطة الضعف فى الإنسان ويصلون إليه من خلالها ، فهذا مدخله كذا ، وهذا مدخله كذا

لكن يرى الكنبريس ممن يقعون فى المعصية يُلقون بالتبعة على

الشيطان ، فيقول الواحد منهم لقد أعوانى الشيطان ، ولا يهتم نفسه ، وهذا يكذبه الحديث النبوى فى رمضان
« إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار ، وصُفدت الشياطين »^(١)

فلو أن لمعاصى كلها من قتل الشيطان ما رأينا معصية فى رمضان ، ولا ارتكبت فيه جريمة أما وتقع فيه المعاصى وترتكب الجرائم ، فلا بُدَّ أن لها سبباً آخر غير الشيطان ، لأن الشياطين مصفدة فيه مفيدة

ثم يقول الحق سبحانه

وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
وَأِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢﴾

يعنى مَنْ أراد أن يخلص نفسه من الجدل بغير علم ، وبغير هدى وبغير كتاب منير فعليه أن يسلم وجهه إلى الله ، لأن الله تعالى قال فى آية أخرى ﴿ قَالِ فِعْرَتٌ لِّأَعْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٨٢] ﴿ [ص] ﴾ ثم استثنى منهم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [١] [الحجر] وقال سبحانه ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴾ [٦٥] [الإسراء] ومعنى ﴿ يُسَلِّمُ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. ﴾ [٢٢] [الأنعام] أخلص وجهه فى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١ ٧٩) ، وإمام أحمد فى مستدركه (٢٥٧/٢) من حديث

أبى هريرة رضى الله عنه

عبادته لله وحده . وبذلك يكون في معية الله ، ومن كان في صديقه ربه
فلا يجرؤ الشيطان على عوينه ، ولا يصيب وقته معه ، إنما ينصرف
عنه إلى غافل يستطيع الدخول إليه . فالدخول ينجيك من الشيطان أن
يسلم وجهك لله

وقد صرياً لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير في صحبة أبيه
فلا يجرؤ أحد من الصبيان أن يعتدي عليه ، أما إن سار بمفرده فهو
عرصة بذلك لا يسلم منه بحال ، كذلك العبد إن انفلت من يد الله
ومعينه .

وهذا المعنى ورد أيضاً في قوله سبحانه ﴿ يَلِيَّ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ
لِلَّهِ ۖ ﴾ [البقرة] وهذا قال ﴿ يَلِيَّ اللَّهِ ۖ ﴾ [٢٢] ﴿ [لقمان] فما الفرق
بين حرفي الجر إلى ، اللام ؟

استعمل (إلى) تدل على أن الله تعالى هو الغاية والغاية لا بد
لها من طريق سبهاية يوصل إليها أما (للام) فتعني الوصول لله
مباشرة دون قطع طريق ، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلا بدرجة
عالية من الإخلاص لله

فعوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ۖ ﴾ [٢٢] ﴿ [لقمان] يعني
أنت على الطريق الموصول إلى الله تعالى وأنت تؤدي ما أمترضه
عليك .

ومن إسلام الوجه لله قول ملكة سبأ ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سبا] الكلام هنا كلام ملكة ، فلم تقل أسلمت
لسليمان ، لكن مع سليمان لله ، فلا عضاضة إذن

وإسلام الوجه لله ، أو إخلاص العمل لله تعالى عمية دقيقة تحتاج

من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة ، لأن النفس لا تحلو من هفوة ، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله ، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب أصيب والسمعة ، فيخالط العمل شيء من الرياء ولو كان يسيراً

لذلك ، فإن سيدنا رسول الله ﷺ يتحمل عنا هذه المسألة ويطمئن المسمم على عمله ، فيقول في دعائه « اللهم اني أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك »^(١)

والنبي ﷺ ليس مطعة ذلك ، لكن الحق سبحانه علمه ان يتحمل عن أمته كما تحمل الله عنه من قوله تعالى ﴿ قَدْ نَعِمَ بِهِ لِيُخْرِكَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ .. ﴾ (٣٧) [الأنعام] أي أنك اسمى عندهم من أن تكون كاذباً

﴿ وَلَنُكْرِئَ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَعْجُدُونَ ﴾ (٢٣) [الأنعام]
وقوله تعالى ﴿ قَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى .. ﴾ (٧٢) [لقمان]
كلمة استمسك تدل على القوة في الفعل والتشبيث بالشيء . كما نقول (ثبت فيه) ، وهي تعني طلب أن يمسك ، لذلك لم يقر مسك إنما (استمسك)

وأول مظاهر الاستمسك أنك لا تطمئن إلى ضعف نفسك ، فيكون تمسكك بالعروة الوثقى أشد ، كما لو أنك ستنزل من مكان عال على حبل مثلاً فتتشبث به بشدة . لأنك إن تهاوتت فسي الاستمسك به

(١) قال سقمان بن عبيدة كان من دعاء مطرف بن عبد الله « اللهم إني أستغفرك مما ثبت إليك منه ثم عدت عنه واستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفك لك به واستغفرك مما رجعت أمي أردت به وجهك ، فخالط قلبي منه ما قد علمت » ذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص ٢٧) وانظر حلية الأولياء (٢٠٧/٢)

سقطت ، وهذا دليل على ثقتك بصعب نفسك وأنه لا يُجديك من
لهلاك ، ولا راقى لك إلا أن تستمسك بهذا الحبل

كذلك الذي يُسَمُّ وجهه لله ويُمسك بالعروة الوثقى فليس له لا
هذه مُنجية وراقية

وكلمة ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى..﴾ (٢٦) [بممار] العروة هي اليد التي
تمسك بها الكور أو الكوب أو الإبريق ، وهي التي تفرق بين الكوب
والكاس ، هالكاس لا عروة لها ، إلا إذا شُرب هبها الشراب الساحن
فيجعلون لها يداً

ومعنى ﴿الْوُثْقَى﴾ (٢٢) [بممار] أى المحكمة ، وهي ثانيث
أوثق نقول هذا أوثق ، وهذه وُثْقَى ، مثل أصفر وصُفْرَى وهي
تعنى الشيء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بصله فإن كان دلواً فهي
وُثْقَى بالدلو وإن كان كروياً فهي وُثْقَى بالكوب فهي الموثقة
النسب لا يقطع ، ولا تفصل عن أصلها

والعُرْوَة تختلف باختلاف الموثق ، فإن صنع العروة صانع
غشٍّ ، جاءت ضعيفة هشّة ، بمجرد أن تمسك بها ينخلع هي يدك ،
وهذا ما نسميه ، الغش التجاري ، وهو حتيال لتكوير السلعة رخيصة
يقبل عليها المشتري ، ثم يكون الممّوص في ارتفاع قطع الغيار كما
مدى في السيارات مثلاً ، فتدري أسسارة رخيصة وسطر إلى ثم قطع
الغيار تحده مرتفعاً

إذن إرادة عدم التوثيق بها مقصد عند المنتفع ، فإذا كان الموثق
هو الله تعالى فليس أوثق من عُرْوَتِهِ

وفي موضع آخر يقول الحق عنها ﴿وَاتَّخِذُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَهَرَّقُوا .. ﴿٢٣٩﴾ [ال عمران] فالعروة الوثقى هي حبل الله المتين لذي يجمعنا فلا يتفرق ، لذلك في الاصطلاح تسمى المتحة في الثوب والتي يدخل فيها الأزرار (عروة) لصادا ، لأنها هي التي تجمع لثوب ، فلا يتفرق .

وفي آية أخرى وصف العروة الوثقى بقوله سبحانه ﴿ لا يفصام لها .. ﴾ ﴿٢٤٠﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿٢٤٢﴾ [نمل] ي مرجعها ، فلا تهن أن الله تعالى خلقنا عبداً ، أو أنه سبحانه يتركنا سدى ﴿ أَلَمْ نَسْجُدْ لَهُمَا خَلْقْنَاهُمْ عِبَادًا وَأَنْكُمُ إِلَهَانَا لَا تَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٢٥٠﴾ [المؤمنون] ولو تركنا الله تعالى بلا حسب لكان المنحرف الذي أعطى لنفسه شهواتها في اندب أوفر حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليخسر عبده الذي آمن به . وسار على منهجه ، أو يسلمه للظلمة والمنحرفين

وإذا كانت لله تعالى عاقبة الأمور أي في الآخرة ، فإنه سبحانه يترك لنا شيئاً من ذلك في الدنيا تصنعه بدواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها ، ومن ذلك مثلاً ما نحريه من لامتحانات للطلاب آخر العام لتمييز المجدد من الخامل ، وإلا تساوى الجميع ولم يداكر أحد ، ولم يتفوق أحد ، لذلك لا بد من هذا الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة فإذا كنا نُجْرى هذا المبدأ في دنيانا ، فلماذا نستنكره في الآخرة ؟

مهل يبيق بهذا العالم الذي خلقه الله على هذه الدقة ، وكوَّنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا مَمْلأً يستشري فيه الفساد ، ويرتع فيه المفسدون ، ثم لا يحاسبون ؟ إن كانت هذه هي العاقبة ، فيا حساره كل مؤمن ، وكل مستقيم في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾

بعد أن بيّن الحق سبحانه أن إليه مرجع كل شيء ونهاية الأمور كلها ، أراد أن يُسَلِّيَ رسوله ﷺ فقال ﴿وَمَنْ كَفَرَ ..﴾ (٢٧) ﴿[نفس]﴾
أي بعدما قلباه من الجدل بالعلم وبالهدى وبالكتاب المنير ، وبعدما
بيّنه من ضرورة إسلام الوجه لله مَنْ يَكْفُر بعد ذلك ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ
كُفْرُهُ ..﴾ (٢٨) ﴿[نفس]﴾

وهذا لقول من الله تعالى لرسوله ﷺ يدل على أن الله علم أن
رسوله يحب أن تكون أمته كلها مؤمنة ، وأنه يحزن لكفر من كفر
منهم ويؤلمه ذلك وقد كرر القرآن هذا المعنى في عدة مواضع ،
منها قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) [الكهف] ويقول ﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) ﴿[شعراء]﴾

فإنه تعالى يريد أن يقول لرسوله أنا أرسلتك للدلاغ محسب ،
فإذا بلغت فلا عليك بعد ذلك ، وكثيراً ما نجد في القرآن عتاباً لرسول
الله في هذه المسألة ، وهو عتاب لصالحه لا عليه كما نعتب ولدك
الذي أجهد نفسه في المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبي ﷺ ﴿عِيسَى وَتُولَى﴾ (١) أن جاءه
الأنبياء (٢) وما يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكِّي ﴿٣﴾ ﴿[عيسى]﴾



والعقاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن الذي جاءه يستفهم عن أمور دينه ، وذهب يدع الكفار والمكذبين به ، فكأنه يختار الصعب لشاق وترك السهل ليسير . إذن فالعقاب هنا عقاب لصالح لرسول لا صده ، كما نظر البعض في فهمهم لهذه الآيات كذلك الأمر في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ ﴾ (٦) [لتحريم] فإنه يعاتب رسوله لأنه صيّر على نفسه ، فحرّم عليها ما أحله الله لها .

ثم يقول سبحانه ﴿ لِيَا مَرْجُعُهُمْ ۖ ﴾ (٧٣) [الفرار] معنى ذ لم تر فيهم عاقبة كفرهم ، وما ينزل بهم في الدنيا ، فسوف يرجعون إلينا وبحاسبتهم في الآخرة . كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿ وَإِنَّمَا تَرْيَكُ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ ۖ ﴾ (٧٤) [عاف] أى ترى بعينك ما ينزل بهم من العقاب ﴿ أَوْ تَتَوَفَّيْكُمُ الْإِلَهَاءُ يُرْجَعُونَ ﴾ (٧٧) [عاف]

إذن ﴿ لِيَا مَرْجُعُهُمْ ۖ ﴾ (٧٣) [الفرار] هذه هي الخاية البهائية . وهذه لا تمنع أن تُرى فيهم أشياء تُظهر عرتك وانتصارك عليهم وانكسارهم ودلتهم أمامك . وهذا ما حدث يوم لفتح يوم أن دخل النبي مكة منتصراً ومتواضعاً يطأطئ رأسه^(١) يادب وتواضع ، لأنه

(١) قد مرّ كثير من تفسيره (٤/ ٢٨٦) ، اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة (المعريم) فقيل : مرّت في شأن عادية ، مع أن رسول الله ﷺ كُنت له أمه يطؤها هم ترون به عائشة وجهه حتى حرمها . والصحيح أن ذلك كان في مجزئته العسل ، فمن عاصمة قلّاب كان النبي ﷺ يشرب مسلاً عند ربيب بنت جعش . ويكثّر عندهما متولطت أنا وحفصة على أيّته

دخل عليها فنقل به أكلت مغاير فقال ابن عودبه ولا تعبدي بذلك أحداً . هـ بتصرف (٧) يذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٠٩) : أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معجوراً يشقه برد حبرة حمراء ، (أى أنه كان متلعماً بنصف برد من برود اليمن ، عمامة يعبر دروبه) . ورسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من العرش ، حتى ينثوثة ليكاد يمس رأسه الرجل . والمثنون هم ما ثبت على الدق ونحوه سفلاً . وقيل هو طوبها وما تحتها من شعرة

يعلم أن النصر من الله . وكأنه ﷺ يقول لأهل مكة لقد كنتم تريدون الملك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأبواصع به ، وهذا هو الفرق بين عزة المؤمن وعزة الكافر

لذلك لما تمكن رسول الله من رقابهم - بعد أن فعلوا به ما فعلوا - جمعهم وقال قولته المشهورة « يا معشر قريش ما تعلمون أني فاعل بكم » قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(١)

ولذلك أن تلحظ تحول الأسلوب من صيغة الإفراد في ﴿وَمِنْ كَمَرٍ لَا يَحْمِلُهُ﴾ [٢٣] إلى صيغة الجمع في ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ﴾ [٢٤] ولم يقل إلى مرجعه . لأن من هي البعة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلها ، فمن أردت لفعلها فأفردتها ، وإن أردت معناها فاجمعها

وقوله تعالى ﴿فَتَبَيَّنَهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ [٢٥] [نعمان] لأننا نسجته عليهم وبحصيه كما قال سبحانه ﴿حَصَاهُ اللَّهُ رِسْوَةً﴾ [٢٦] [المجادلة] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٢٧] [نعمان] أي بدأت الصدر ومكوناته يعلمها الله حتى قيل أن تُترجم إلى بزرع سلوكي عملي أو قولي ، والله يعلم ما يحتج في صدورهم من حقد أو غل أو حسد أو تأمر

و ﴿عَلِيمٌ﴾ [٢٨] [آل عمران] صيغة مبالغة من العلم وفرق بين عالم وعليم عالم ذات ثبوت لها العلم ، أما عليم فذات علمها داسي ، لذلك يقول تعالى ﴿وَفَرَّقَ كُلَّ دِينٍ عِلْمٍ عَلِيمٍ﴾ [٢٩] [يوسف]

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٢/١) أن رسول الله ﷺ قال بعد أن فتح الله عليه مكة يا معشر قريش - يرون أني فاعل فيكم - قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال « اذهبوا فأنتم الطلقاء »

ثم يقول الحق سبحانه

نَمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ
إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

الحق سبحانه يبين لكل مؤمن ألا يغتر بحال الكفار حين يراهم في حال رغد من العيش ، وسعة وعافية وتمكُن ، لأن ذلك كله متاع قليل ، والحق سبحانه يريد من أتباع الأسماء أن يدخلوا الدين على أنه تصحية لا معصم

وسبق أن أوضحنا أنك تستطيع أن تفرق بين مبدأ الحق ومبدأ الباطل شيء واحد ، هو استهلال الاثني عشر فالداخل في مبدأ الحق مستعد لأن يضحى ، والداخل في مبدأ الباطل ينتظر أن يأخذ المقابل ، لذلك ضحى المسلمون الأوائل في سبيل دينهم بالأنفس والأموال ، وتركوا بلادهم وأبياءهم لماذا ؟ لأنهم مكلفون بأداء مهمة إنسانية عالمية ، لا يحملها إلا من كان مستعداً للعطاء ، أما أصحاب الدعوات الباطلة كالشيعية وغيرها فلا تد أن يأخذوا أولاً

ذلك روى أن صحابياً حين سمع من رسول الله ﷺ البشري بالجنة وأنه ليس بينه وبينها إلا أن يحارب فيقتل ألقى تمرات كانت في يده ، ولم ينتظر حتى يمضفها ، وأسرع إلى المعركة مبتغياً الشهادة وظامعاً فيما عند الله ، وقد سمع منهم في ساحة القتال أن ينادى أحدهم هبى يا رياح الجنة وأحر يقول إني لأجد ريح

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد أريد أن أقتل فإني أنا ؟ قال في الجنة ألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قتل أخرجته البخاري في صحيحه

على قوة الأخذ وقدرته . أما الضعيف فلا مزية في أحده ، كالذي يريد أن يحطم الرقم القياسي مثلاً ، فإنه يعتمد إلى أعلى الأرقام فيحطمها ليثبت جدارته

ومن ذلك أيضاً نرى أن لقرآن لما أراد التحدى ببلاغته وفصاحته يحدى العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة وقر الأداء اليبسى ، ولا معنى لأن يتحدى عبياً لا يهدر على الكلام

ومعنى ﴿بَصَطْرُهُمْ﴾ (٢٤) [نفس] تلجئهم أي تضيق عليهم الحقائق بحيث لا يحدرون إلا العذاب الغيظ ، أو أن فترة الحساب وما قبل العذاب أشد من العذاب نفسه كما جاء في الحديث من « أن الشمس تدنو من الرؤوس حتى يسمعني الناس » لانصراف ولو إلى النار »^(١)

ووصف العذاب هنا بأنه ﴿عِظٌّ﴾ (٢٥) [عس] والعلط يعس السمك فإمعنى أنه عذاب كبير يصعب قنقلة النفس منه ، فلو كان رقيقاً لربما أمكن لإفلات منه ثم يعود السياق إليهم

وَلَيْسَ سَأَلَتْهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

(١) من صحيح مسلم من حديث اسعقباد بن الأسود قال سمعت النبي ﷺ يقول « تنسى الشمس يوم القيامة من العشق حتى تكون منهم كسمقباد مبل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرة ، فعلم من يكون إلى كنبية ، ومنهم من يكون إلى ركنية ومنهم من يكون إلى حقوية ، ومنهم من يجمع [إجماعاً] » التذكرة للقرطبي ص ٢٧٤

هذا إمام لهم ، حيث شهدوا بأنفسهم أن الله تعالى هو حاقق السموات والأرض ، وتعجب بعد ذلك لأنهم ينصرفون عن عبادة الخالق سبحانه إلى عبادة من لا يخلق ولا يرى ولا يسمع

لذلك بعد هذه الشهادة منهم ، وبعد أن قالوا (الله) يُتبعها الحق سبحانه بقول ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۖ ۞ (٢٥) ﴾ [نمل] أى الحمد لله ، لأنهم أقروا على أنفسهم وبحس في معاملاتهم نفس مثل هذا فحين يعترف لك خصمك تقول الحمد لله

ومده الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة ، فحين يعترف لك الخصم بما تريد تقول الحمد لله وحين يُخلصك الله من أى أحد الأشرار تقول الحمد لله أى الذى نَحانا من فساد هذا المفسد

فلو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء ، أو قُطِّع الطريق فنقول الحمد لله أى انذى حُلُمنا من شره ، وأراح منه البلاد والعباد ، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ لَقَطَعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (١٥) ﴾ [الأنعام]

كذلك يقال حينما يُبصف المظلوم ، وتُرد إليه مظلمته ، أو تظهر براءته ، كما سنقول إن شاء الله - فى الآخرة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ (٣٧) ﴾ [طه]

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِيمُنْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۞ (٦٢) ﴾ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبؤاً من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴿ (٦٢) ﴾ [الزمر]

والحمد لله تُقال أيضاً عند خلوصك إلى غاية تُخرجك مما كنت فيه

من الضيق ، ومن اثمهم ، ومن الحزن . وثقال حين ندخل الجنة .
ونعم بنعيمها ونعلم صدق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها

هذا كله حمد على نعمه ، وهناك الحمد الأعلى ألم تقرأ الحديث
القدسى « إن الله يتجلى على خلقه المؤمنين في الجنة فيقول
يا عبادى ، ألا أريدكم ؟ فيقولون وكيف تريدنا وقد أعطيتنا ما لا نرى
رأيت ، ولا أذى سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » قال أحل عليكم
رضواي ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً ^(١) فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى ﴿ وَنَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَقُصِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٥) [المرم]

هذا هو الحمد الأعلى فقد كت في الحمد مع النعمة . وانت الآن
فى الحمد مع انعم سبحانه

ثم يقول سبحانه ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) [النمر] وهم أهل
العقله عن الله ، أو ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) [النمر] أى اعلم الحقيقى ،
النافع ، وإن كانوا يعلمون العلم من كتاب غير منير ، أو يعلمون
العلم الذى يحقق لهم شهواتهم

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٦)

(١) حديث مشرق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) وكذا مسلم فى صحيحه
(٢٨٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، ولعله إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل
الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول من رضىتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى
وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك فيقول أنا أعطيتكم أفضل من ذلك قالوا يا رب
وأي شيء مصر من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواي فلا أسخط عليكم بعده أبداً

بعد أن سجّل الله تعالى عليهم اعتراهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض ، أراد سبحانه أن يُسبِّحَ لها أن السموات والأرض ظرف لما فيهما . وفيهما أشياء كثيرة منها ما نعرفه ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، مما في (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما في الخزانة من حواهر وأموال أو أوراق هامة أنفس من الخزانة وأعم لذلك قلت إياك أن تجعل كتاب الله حاملة لشيء هام عندك ، لأنه أغلى من أي شيء فينبغي أن تحفظه ، لا أن تحفظ فيه

وكان في الآية إشارة إلى أنهم كما أقرّوا الله تعالى بخلق السموات والأرض ينبغي أن يقرّوا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدي إليها كل ذي فكر سليم . فما دامت السموات والأرض لله فله ما فيهما ، وهب أن لك قطعة أرض تمتلكها ثم عثرت فيها على شيء ثمين ، إنه في هذه الحالة يكون منك شرعاً وعقلاً

ويبغى للعقل أن يتأمل هذه المسألة لله تعالى ما في السموات وما في لأرض ومن هذه الأشياء الإنسان الذي كرّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وعلى منها ، مدليل أنها مُسَخَّرَةٌ لخدمته الحيوان والنبات والجماد فهو يصح أن يكون الخادم أعظم من سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس لكون ويتساءل أيكون الجماد الذي يخدمني أطول عمراً مني ؟

إذن لابد أن لي حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التي تخدمني وهذا لا يكون إلا هي الأخرة

حيث تذكر اشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان
إن أنت محتاج لما في الأرض ولما في السماء من مخلوقات
الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنى عنها لا يستفيد
منها شيء ، والله سبحانه حق ما هو غنى عنه ، لذلك يقول ﴿ إِنَّ
اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [النحل: ٢٦] لأنه سبحانه بصفات اكمال خلق
فلم يرد الحق صفة كمال لم تكن له ، فهو مخي قيل أن يوجد من
يحييه ، معز قبل أن يوجد من يعره

وقلنا إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيدة ، بل لأنه
شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال

فمعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [النحل: ٢٦] أى الغنى المطلق لأن
له سبحانه كل هذا الملك في السموات وفى الأرض ، بل جاء في الحديث
القدسى أن السماء والأرض بالنسبة لمالك الله تعالى كحلفة القاه ملق في
فلاة ، فلا يظن أن ملك الله هو مجرد هذه لمخلوقات النى بعلمها ،
رغم ما توصل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية

فإنه سبحانه هو الغنى العنى المطلق ، لأنه خلق هذا لخلق وهو
غنى عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله فى خدمتهم ، فكان من الواجب
لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [النحل: ٢٦]
وحميد فعيل بمعنى محمود وهو أيضاً حامد كما جاء فى قوله
تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٥٨] لكن ، شاكر لمن

(١) عن أنس بن مالك قال سئل رسول الله ﷺ عن الكرسي فقال ﷺ ، وأندى مجلسي بيده
ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن قضى
العرش على الكرسي كقض الفلاة على تلك الحلقة ، أخرجه ابن جرير الطبري فى تاريخه
(١ / ١٥) وابن حبان (ص ٥٢ موارد الظمك) ، وأبو يعقوب فى الحلية (١ / ١٦٦)

قالوا إذا كان العبد يشكر ربه وقد علمه الله أن الذي يحييك
تحييه يبغى عليك أن تُحيييه بأحسن منها ، فربك يعاملك هذه
العمامة ، فإن شكرته يزدك ، وهذه الزيادة شكر لك على شكر
لربك أى مكافأة لك

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبحرُ
يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِذَتْ
كَلِمَتُ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى ﴿ من شجرة ﴾ (٢٧) [النساء] من هنا تفيد لعدم
أى من بداية ما يُقال له شجرة ، ولفرق بين أن تقول ما عندي
مال ، وما عندي من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من
المال الذي لا يُعتد به أما (من مال) فقد بعيت جنس المال قليلا
وكثيره وتقول ما في الدار أحد وربما يكون فيها طفل مثلا
أو امرأة ، أما لو قلت ما في الدار من أحد ، فهذا يعنى خلوه من
كل ما يُقال له أحد

والشجرة هي النبات الذي له سيق ، وقد تشابكت أغصانها ،
ومن ذلك قوله تعالى ﴿ لهما شجر بينهم .. ﴾ (٥) [النساء]

أما النبات الذي ليس له ساق فهو العُشب أو اللحم الذي ينتشر
على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا توجد منه
لأقلام ، إنما من الشجرة ذات الفصوص والفرع

وقد ذكر القرآن الكريم هذين النوعين في كلام ميجر ، مقال
سبحانه ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾^(١)
[الرحمن] فالشمس والقمر ﴿بِحُسْبَانٍ ۝﴾ [الرحمن] أي حساب دقيق
محكم ، لأن بهما حساب الزمر ، ﴿والنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾^(٢)
[الرحمن] أي في حصوله لله تعالى

وكلمة النجم هنا يصح أن تُصاف إلى الشمس والقمر ، ويصح أن
تُصاف للشجر ، فهو لفظ يستخدم في معنى ، ويؤدي معنى آخر
بصيغة ضميره

وقد بدء الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال

أراعي النجم في سيري إليكُم ويرعاه من البئدا جوادِي

فهو يضر إلى نجم السماء يهتدي به في سيره ، ويرعى حواده
نجم الأرض ، ومن ذلك أيضاً كلمة العير فتأتى بمعنى الذهب
والعصاة وبمعنى الجاسوس ، وبمعنى غير الماء وبمعنى العين
المبصرة

ومعنى ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ۝﴾ [نقان] أي
يعينه ويساعده إن نفد ماؤه ولك هنا أن تسأل لماذا جعل الإمداد
للماء ، ولم يجعله للشجر ؟ قالوا لأن القلم الواحد يكتب بحبر كثير
لا حصر له ، فالحبر مظنة الانتهاء ، كما أن الشجر ينمو ويتجدد ،
أما ماء البحر فثابت لا يزيد

واقراً أيضاً في هذه المسألة ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ
رَبِّي لَفُتِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَقْدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝﴾ [الكهف]
والعدد سبعة هنا ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ۝﴾ [نقان] لا يُراد به العدد ،

إما يراد به أكثره كما في قوله تعالى ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ..﴾ (٢٢) [الطلاق] فهذه في مجرتنا الشمسية أما بالك باسماوات في المجرات الأخرى ، وقد علمنا أن السماء هي كل ما علاك فأظلك

إذن يرد العدد سبعة على سبيل الكثرة ، ولعرب كانوا يعبرون هذا العدد بهاية للعدد ، لأن العدد معناه لأرقام التي تبين المعدود ، فهناك فرق بين العدد والمعدود ، ولما تبيّن هذا الفرق استطعت أن نرد على المستشرقين في مسألة تعدد أزواج ، فالعدد يعني ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ أما المعدود ، فما يعبر هذه الأعداد .

والرسول ﷺ حينما أراد أن ينهي اتعدد المطلق للزوجات لما أمر الله عليه أن يأمر الناس أن مَرَّ معه أكثر من أربع زوجات أن يُمسك أربعاً منهن ويقارن الباقيات^(١)

وكان عبد رسول الله في هذا الوقت تسع زوجات لم يشملهن هذا الحكم ، فقالوا لماذا استثنى الله محمداً من هذا الحكم ؟ وكيف يكون عنده تسع وعند أمته أربع ، ولم يفتوا إلى مسألة العدد والمعدود هل استثنى الله تعالى رسوله في العدد أم في المعدود ؟

نعول استثناءه في المعدود ، لأنه تعالى خاطب نبيه في آية أخرى ﴿لَا يَحُرُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ﴾ (٥٢) [الأحزاب] فعرض على رسول الله أن يقتصر على هؤلاء ، لا يريد عليهن ، ولا يتزوج بعدهن حتى لو مَثَّرَ جميعاً

(١) حريج الإمام مالك في الموطأ (ص ٥٨٦) كتاب الطلاق بإلزام أن رسول الله ﷺ قال : « جل عن ثقبك اسم وعنده عشر نسوة حين أسلم لثقبك » أمسك منهن أربعاً وقارن سائرهن ، ورواه الترمذي في سننه (١١٢٨) من حديث يزيد بن عمر عن النبي ﷺ أمره أن يمسك أربعاً منهن . رسمى الرجل : غيلان بن سلمة الثقفي .

إِنْ لَمْ يَسْتَنْتِ فِي الْعِدَّةِ ، وَإِلَّا لَكَارَ مِنْ حَقِّهِ إِذَا مَاتَتْ وَاحِدَةً مِنْ زَوْجَاتِهِ أَنْ يَتْرُوجَ بِأُخْرَى ، وَإِنْ مَتْنِ حَمِيحًا يَأْتِي بِعِيْرِهِنَّ

وَلَكِنْ أَنْ تَقُولَ وَلِمَاذَا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْتِثْنَاءَ فِي الْمَعْدُودِ لَا فِي الْعِدَّةِ ؟ قَالُوا لِأَنَّ زَوَاجَاتِ عَسِيرِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا طَلَّقَهَا زَوْجُهَا لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِغَيْرِهِ ، لَكِنَّ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَمَهَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَمَحْرَمَاتٌ عَلَيْهِمْ فَإِنْ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ إِحْدَى زَوَاجَاتِهِ بَقِيَ بِلَا رَوَاحٍ

لِدَاكَ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَمْسَكَ زَوَاجَاتِهِ النَّسْعَ شَرِيطَةً أَلَّا يَزِيدَ عَلَيْهِنَّ فِي حِينَ يُبَاحُ لِبَغَيْرِهِ أَنْ يَتْرُوجَ بِأَكْثَرٍ مِنْ تِسْعٍ ، بِشَرَطِ أَلَّا يَبْقَى مَعَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعٍ ، وَعَلَيْهِ ، فَهَذِهِ الْحُكْمُ ضَيِّقٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي حِينَ وَسَّعَ عَلَى أُمَّتِهِ

وَنَعْلَمُ أَنَّ مَعْظَمَ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ كُنَّ كَبِيرَاتٍ فِي لِسْنٍ ، وَبَعْضُهُنَّ كُنَّ لَا رُبَّةَ لَهُنَّ فِي مَسْأَلَةِ الْإِرْجُلِ ، لَكِنَّهُنَّ يَحْضَرْنَ عَلَى شَرَفِ الْإِسْتِثْنَاءِ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَعَلَى شَرَفِ كَوْنُهُنَّ أَمَهَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ، لِذَلِكَ كَانَتْ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ تَتَنَازَلُ عَنْ قِسْمِهَا فِي الْبَيْنُوَّةِ لِحَصْرَتِهَا مَكْتَفِيَةً بِهَذَا الشَّرَفِ^(١)

إِنْ التَّعْرِيقُ بَيْنَ الْعِدَّةِ وَالْمَعْدُودِ حُلُصْنَا مِنْ إِفْكِ الْمُسْتَشْرَفِينَ ، وَمِنْ تَحَامُلِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَاتِّهَامِهِمْ لَهُ بِتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ وَأَنَّهُ ﷺ وَسَّعَ عَلَى نَفْسِهِ وَضَيَّقَ عَلَى أُمَّتِهِ

وَمَسْأَلَةُ الْعِدَّةِ وَالْمَعْدُودِ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ وَاسِعَةٌ حَبَّرَتْ حَتَّى الدَّارِسِينَ لِلْحَرْفِ ، فَلَا شَكَالَ فِي الْعِدَّةِ وَحَدِّ الْعِدَّةِ اثْنَانِ ، لِأَنَّا نَقُولُ فِي الْعِدَّةِ الْمَذْكُورِ وَاحِدٌ وَالْمَوْثُوثِ وَاحِدَةٌ وَلِلْمَثْنِ الْمَذْكُورِ اثْنَانِ ،

(١) فَعَلَبَ هَذَا سَوْدَةُ بِنْتُ رَمَةَ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ لَيْسَتْ بِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي مَقَابِلِهَا إِلَّا يَطْلُقُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَأْخُذُ لِحْصِي ﷺ ، أَيْ قِيَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَأْسَ لَيْسَتْ بِعَائِشَةَ وَإِنْ لَا أَرِيدُ مَا تَرِيدُ الْمَسَاءَ . الْإِمَامِيَّةُ لِابْنِ حَبَرٍ (١١٧/٨)

والمؤنث اشتار فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وبأنيثاً ، لكن الخلاف
يبدأ من لعدد ثلاثة حيث يذكر العدد مع المعدود المؤنث ، ويؤنث
مع المعدود لمذكر ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

قالوا لاحظ أن التذكير هو الأصل ، ولذلك احتاج التأنيث إلى
علامة ، أما المدكر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة تقول . قلم
وتقول دواة فاحتاجت إلى علامة للتأنيث فهي المزع والمذكر هو
الأصل

وتعمل إلى الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، تقول ثلاثة ، أربعة ،
خمسة ، ستة ، إلخ فالعدد نفسه مني على التاء ، وليست هي تاء
التأنيث ، لأنها أعداد مجردة بلا معدود ، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد
وبه تاء لا نضيف إليه تاء أخرى ، إنما نحذف التاء فيكون الحذف هو
علامة التأنيث ويبقى العدد مع المذكر على الأصل بالتاء

عما حكاه العدد سبعة بالذات ، قالوا إن العدد واحد هو الأصل
في الأعداد ، لأن العدد ينشأ من ضم واحد إلى آخر ، فواحد هو
الحامة التي تتكون منها الأعداد فتضم واحداً إلى واحد وتقول اثنين
وتضم إلى الاثنين واحداً ، فيصير العدد ثلاثة وهكذا .

ومعلوم أن أقل الجمع ثلاثة ، والعدد إما شفع وإما وتر الشفع
هو الذي يقبل القسمة على الاثنين ، والوتر لا يقبل القسمة على
الاثنين والله تعالى يقول ﴿ وَالشَّعْ وَالْوَتْرُ ۚ ﴾ [المعج] فبدأ بالشفع
وأوله الاثنان ثم الثلاثة ، وهي أول الوتر أما الواحد فقد تركناه لأنه
كما قلنا الخامسة التي يتكون منها جميع الأعداد

وما دام الله تعالى قال ﴿ وَالشَّعْ وَالْوَتْرُ ۚ ﴾ [المعج] فلاشك
أول الشفع ولثلاثة أول الوتر وأربعة ثاني الشفع ، وخمسة ثاني

الوتر ، وستة ثالث الشفع وسبعة ثالث الوتر

وقلنا إن الجمع أقله ثلاثة ، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وترأ وزوجاً ، و انتهت عند هذا العدد ، فإذا أرادوا العد أكثر من ذلك أتوا بوزي يسعونها وأو الثمانية وقد سار القرآن الكريم في أحكام العدد هذه على ما سار عليه العرب .

وقرأ إن شئت هذه الآيات ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها ..﴾ (٧١) [الزمر]

أما في الجنة فيقول سبحانه ﴿وسيق الذين آمنوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ..﴾ (٧٢) [الزمر]

فما الفرق بين الآيتين ؟ ولماذا جاءت للواو في الثانية ، ولم تذكر في الأولى ؟

قالوا لأن ﴿فُتحت﴾ .. (٧١) [الزمر] في الأولى جواب شرط وهذا الجواب كأنه يكذبونه وينكرونه والشرط تأسيس ﴿حتى إذا جاءوها ..﴾ (٧١) [الزمر] ماذا حدث ؟ ﴿فُتحت أبوابها ..﴾ (٧٢) [الزمر] فما هل كان المؤمنون المتقون الذين يذهبون إلى الجنة يكذبون بهذا اليوم ؟

إذن ف ﴿فُتحت﴾ .. (٧٢) [الزمر] هنا لا تكون جواباً ، لأنهم يعمدون بقبيل أنها ستفتح ، أما الجواب سيأتي في ﴿وقال لهم خزنوها عليكم طيبم فادخلوها خالدين﴾ (٧٣) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نحبوا من الجنة حيث نشاء فنعلم أجر العاملين ﴿(٧٤)﴾ [الزمر]

وبما كانت أسراب النار سبعة لم يذكر الوار ، أما في الجنة فذكر

الواو . لان أبوابها ثمانية

كذلك اقرأ قول الله تعالى ولاحظ متى تستخدم الواو ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ
إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاحًا خَيْرًا مِنْكَ مِمَّنْ مَاتَ مَزْمَنَاتٍ قَائِمَاتٍ﴾ تائبات
عابدات ساحات^(١) ثبات وأبكارا^(٢) ﴿التحرير﴾

تجد الواو قبل الثمانية ، ذلك لان العرب تعتبر السبعة منتهى
العدد بما فيه من روح وفرد

وقوله تعالى ﴿وَلَبَحْرٌ يُّبَدِّلُهُ﴾^(٣٧) [لقمان] أي يجعل مدادا
لكلمات الله ﴿مَا بَدَعَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٣٨) [لقمان] كلمات الله هي
السبب في إيجاد المقدورات العجيبة ، لان الله تعالى يقول ﴿لَمَّا
أَمَرَهُ د. أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣٩) [يس] فكل مراد من شيء
سنة كن

رهما عجيبة يسقى أن يماثلها فالله تعالى يقول للشيء وهو لم
يُحْدِثْ بعد (كن) ، كان كل الأشياء موجودة في الأزل ومكتوبة ،
تنتظر هذا الأمر (كن) فتسر إلى الوجود كما يقول أهل
المعرفة أمور بيديها ولا يبتدئها

إذن ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ ..﴾^(٤٠) [لقمان] هي كن وكل مرادات الله في
كونه ما علمنا منه وما سنعلم ، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة
ألم يقل في عجيب من أمر عيسى عليه السلام ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا
إِذْ هُوَ رَزَقَهُ رُوحَ قَهْ ..﴾^(٤١) [النساء] والمعنى أنه لم يحق بالطريق

(١) الذات العظيم للناكر لله تعالى اعاند رالعانت القائم بجميع أمر الله تعالى ؛ لسان
العرب مادة قنت]

(٢) الساحات الصائحات وسياحة هذه الأمة الصيام ولزوم المسجد [لسان العرب -
مائة صبح]

الطبيعي في خلق البشر من أب وأم إنما خلق بهذه الكلمة (كن)
لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أن يثبت لنفسه طلاقة القدرة في الإيجادات ،
وأنه سبحانه يخلق كما يشاء ، مرة يخلق بلا أب وبلا أم ، كما خلق
آدم عليه السلام ، ومرة يخلق بأم دون أب كما خلق عيسى عليه
السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء
إذن القسمة العقلية موحودة بكل وجوها

إذن مع طلاقة القدرة لا اعتماد للأسباب ، فأتت إن أردت أن
تكون مثلاً قطره الماء ، فعليك أن تأتي بالأكسوجين والهيدروجين
بطريقة معينة ليخرج لك الماء وإلا فلا ، أما الخالق - عز وجل -
فيخلق بالأشياء وبدون شيء لأن الأشياء بالنسبة لله تعالى ليست
فاعلة بذاتها ، وإنما هي فاعلة بمراد الله فيها .

ثم يقول سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان] والعزيز هو
الذي يغلب ولا يُغلب ويُقهر ولا يُقهر ، ولا يستدرك أحد على معه
حتى لو كان محدثاً لعقله هو وتأمل معنى العزة ، وكيف وردت في
هذا الموقف من قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي
إِلَهِينِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ
كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْنِمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي بَصِيصِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة] إلى أن يقول ﴿ إِنْ تَعْدِبْهُمْ فِيهِمْ عِبَادُكَ وَإِنْ
تَعْفُرْ لَهُمْ فَبِكَ أَنْتَ أَعَزُّ الْحَكِيمِ ﴾ [المائدة]

والمعنى لعيسى بفتضى أن نقول في عرف البشر فيك أنت
العفور الرحيم فالمقام مقام مغفرة ، لكن عيسى عليه السلام يأتي

بها ، لا من ناحية انفران و ارحمة ، ونا من ناحية طلاقة القدرة والعزة التي لا يستدرك عليها أحد .

﴿يَبُذُّكَ أَتَى الْعَرْشِ الْحَكِيمِ﴾ (١٦٨) [المائدة] والمعنى لو قال الناس بماذا عرفت بهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أعلم ولا أعظم ، ولا يستدرك أحد على حكى ، بنى دليل لآية بالعمة لعمرة الله تعالى فى خلقه .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بُعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ

وَاحِدَةٍ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١٨)

الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قصبة البعث والفسامة ، ويريد سبحانه أن ينصب للناس فى حركة حياتهم موازين الحزاء ، لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للحزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أن يستغنى عن الحزاء ثواباً وعقاباً إلا من كان معصوماً أو مسخراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فعل الخير ، والمسخّر لا خيار له فى أن يفعل أو لا يفعل

بنى إذا لم يتوهر مبدأ الجراء ثواباً وعقاباً فى غير هدين لا مد أن يرجع فساد ، إذا لم يثبت المحتار على الفعل ، ويعقب على الترن اضطربت حركة الحياة ، حتى فى المجتمعات التى لا تؤمن بإله وضعت بنفسها هذا القانون ، قانون الثواب والعقاب .

راحق - سبحانه وتعالى - يعطينا مثالا لهذا المسدأ فى قوله تعالى من قصة دى افرين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ

شيء سبأ (٨٤) فأتبع سبأ (٨٥) ﴿ [الكهف]

أراد الحق سبحانه أن يبين أن الرجل الممكن في الأرض له مهمة هذه المهمة هي شكر الله على التمكين ولا يكون إلا بإقامة ميزان العدالة في الكون ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ (٨٤) ﴿ [الكهف] أي هي رأى العين ، وإلا فهي لا تغرب أبداً إنما تغرب من جماعة في مكان ، وتشرق على جماعة في مكان آخر

﴿ وَحِذَّاهَا تَغْرِبُ فِي عَيْنِ حِمَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعْدَبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَبًا ﴾ (٨٥) ﴿ [الكهف]

ولا يفوض إسان في أن يُعَدَّبَ أو يتخذ الحسنى إلا إذ كانت لديه مقاييس وميزان العدل ، وقد قال الله عنه ﴿ وَتَنبَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ سبأ (٨٤) ﴿ [الكهف] أي نعمة وميزاناً لتوزيع هذه النعمة ، فلم تقصر نعمة الله عليه في أنه صاحب سلطان وجبروت ، إنما عنده المقومات الحياتية ، وعنده ميزان العدالة الذي يضبط استتراق النعم في الكون كله

فالذي خُيِّرَ في أن يفعل أو لا يفعل أراد أن يبين مسحة في أنه لم يأخذ الاختيار وسيلة لتثبيت الأهواء ، بذلك قال بعده ﴿ وَأَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴾ (٨٧) ﴿ [الكهف] هذا هو العقاب ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَهُوَ جَرَاءُ الْحَسَنِ وَسَنُقَرُّ لَهُ مِنْ أَمْرِ يَسَّرَ ﴾ (٨٨) ﴿ [الكهف] أي بعد أن نال ثوابه ، نعظيهِ فوق ذلك حوافز تشجعه ، ونقيم له حفلة تكريم معرى غيره بأن يسلك مسلكه

إذن ففضيلة الثواب والعقاب أمر لازم ، وإذا كن هذا في الأمور الحياتية الجبرئية ، فهو أولى في أمور الدين ، القيم التي تسيطر على كل صرازين الحياة ، لا بُدَّ من وقت للثواب والعقاب ، وإلا استشرى

الطم واعتار الناس وقضى عليهم وأخذ منهم كل فتع الحياة
فانتفع بذلك المفسد ، وحاب كل من التزم بدين الله وقيم مدهجه
لذلك تحد الحق - تبارك وتعالى - يؤكد دائماً على مسألة البعث
والقيامة والحساب وترى أعداء الدين يحاولون أن يشككوا في هذه
القضية ، وأن يزحزحوا الناس عن الإيمان بها بطرق شتى
فالفلاسفة لهم في ذلك دور ، ولملاحدة دور ، ولأهل الكتاب
دور لذلك تحد التوراة مثلاً تكاد تخلو من إشارة عن اليوم الآخر
وهذا أمر غريب لا يمكن تصويره في كتاب ونبين سماوي ومنهج
حياة

وما ذلك إلا لأن أهل البوراء أرادوا أن يُرحلوا الناس عن أمور
عدة لئلا ينسوا لأنفسهم سلطة زمنية مادية ، حتى إنهم طمعوا في أن
يرتقوا بهذه السلطة حتى يصلوا إلى الله تعالى ، كما حكى القرآن عنهم
﴿ وَذَقْتُمُ يَمُوسَى لِسْ ثَمْسِ لِسْ حَتَّى بَرَى إِلَهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة]
ولما أنزل الله عليهم المنّ وهو مادة حنّوة كطعم السقشدة جعلها
تتساقط عليهم ، وأنزل عليهم السوى ، وهى طيور مثل السماء تنزل
عليهم جاهزة مُعدة لئلا يرفضوا عطية الله لهم وطعامه الذى أعزّ
من أجلهم وقالوا هل يريد طعاماً نصنعه بأيدينا وقالوا ﴿ لِي
نُصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ .. (٦٦) ﴾ [البقرة] فقال لهم ﴿ اذْهَبُوا مَصْرًا
يَا أَيُّهَا لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ .. (٦٦) ﴾ [البقرة]

وما دام الامر بالنسبة هؤلاء مادياً فلا بُدَّ أن يصرح نفسه عن

(١) المصير واحد لانصار ومصّروا الموضوع جعده مضرًا وقال الليث المصير في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها البلى والصدقات [لسان العرب - مادة مصر]

الآخرة وعن القيامة والحساب ، لذلك راحوا يُشكِّكون فيها أما الفلاسفة فقلوا حين يبعث الله إنساناً بعد الموت وعد تحلّت أعضاؤه وصارت تراباً ، ثم عرست في هذا المكان شجرة فتفدّت من هذا التراب ، واكل إنسان آخر من ثمارها وانتقلت إليه بعض خلايا وحزنيات الأول ، فإذا كان هناك بحث أتت هذه الجرثبات مع الأول ثم مع الآخر ؟ فإن كانت مع الأول فهي نقص في الآخر والعكس هذه هي شبهة لفلاسفة

وقد تخبط الفلاسفة هذا التخبط ، لأنهم لم يفتنوا إلى شيء في الوجود يعطى قيمة للعبيات ، وقد أوضح هذه المسألة فقلنا لهم لو أن إنساناً يزن مائة كيلو مثلاً أصيب بعرض أفقده أربعين كيلو من وزنه ، فماذا يعني هذا النقص بالنسبة للشخص نفسه ؟

هذه المسألة بتحكم فيها أمران العداء والإخراج ، ففي فترة لنمو يكون الداخل للجسم أكثر من الخارج ، أما في فترة الشيخوخة مثلاً فالخارج أكثر ، فمن قوزن الأمران كانت حالة من الثبات لا يزيد فيها الشخص ولا ينقص ، وهي فترة الثبات

فالشخص الذي نقص من وزنه أربعون كيلو ، ثم شفاه الله وعادت إليه عافيته حتى راد وزنه وعاد إلى حالته الطبيعية ، فهل تغيير لشخص حال نقصان وزنه ؟ وهل تغيير حال عودته إلى طبيعته ؟ أم ظلت الشخصية والذاتية هي هي ؟

إذن المسألة في تكوين الجسم ليست درات وجزيئات بل هي شخصية معنوية خاصة وإن تكوّنت من جزيئات المادة وهي الستة عشر عنصراً التي تكوّن جسم الإنسان وانتهى تبد بالأكسوجين وتنتهى بالمنجيز ، وهي نفس لعناصر المكوّنة لبرية

الأرض لتي نأكل منها وهذه العنصر بنسب تختلف من شخص لآخر

والحق سبحانه وتعالى يقول ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (١) [و] يعنى يعرف ما نقص من كل نفس كذا من الحديد وكذا من الأكسوجين ، وكذا من المسفور الخ إذن حين يبعث الله لإنسان بعد الموت يبعث هذه الشخصية المعنوية بهذه الأجزاء المعروفة ، فيأتى الشخص هو هو

ومن القصص السبى آثارها فى مسألة النعت والالتباسات التى يحاولونها يقولون الله تعالى يخلق الإنسان فى مدة تسعة أشهر ، أو ستة أشهر ، يمر خلالها بعدة مراحل : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم يكسو هذه العظام لحماً ، هذا للإنسان الواحد ، فكم تستغرق إعادة خلق البشر من لئس آدم عليه السلام حتى قدم الساعة ؟

ويقول بقدر دكرهم كيفية خلق سلاله الإسراء والنسب تستغرق تسعة أو ستة أشهر لكن لم تذكروا خلق الأصل ، وهو آدم عليه السلام وقد خلقه الله على هيئته وصورته التى كان عليها ، فلم يكن صغيراً وكبيراً ، بما خلق كبيراً مستوياً كاملاً ، ثم نُعجب فيه الروح

ثم إن عنصر لفعل هى الفعل ، والفاعل ، والمنفعل ، يُضاف إليها الزمن الذى سيتم فيه الفعل فإنا أريد أن أنقل هذه (الحملة) من هنا إلى هناك ، فنقلنا فعل ، وأما الفاعل ، والحملة هى المنفعل ، ثم الزمن الذى يستغرقه الحدث ، والزمن يعنى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمن ، فإذا أردت أن تعبط ثوباً بطريقة يدوية فلأنه يأخذ منك وقتاً طويلاً ، فإن خطه بالمكينه أخذ وقتاً أقل بكثير

إذن فمن الفعل يتناسب مع قوة المعامل ، وتذكرون أنه في الماضي كانت الشوارع تصلاء بمصائب الرب ، وكان لكل منطقة عامل يصعد على سلم إلى كل مانوس ليشتله ، أما الآن فتستطيع أن تنير مدينة بأكملها بضغطة زر واحد إذن كلما رابت القوة قل الزمن

فتعال إذن إلى مسألة ابعد والإعادة بعد الموت أمر يقوتك أنت لتجسبها بما يناسب قوتك وقدرتك ، بها بقوة الله عز وجل ، والله لا يعالج الأمور كما نفعل ولا يراولها ، إنما يفعل سبحانه كُنْ إذن فالهمل بالفسفة لله تعالى لا يحتاج إلى زمن تُورع فيه جزئيات الفعل على جزئيات الزمن

ولم تستبعد هذا في حق الله تعالى ، وقد أعطاك ربك طرفاً منه رغم قدرتك المحدودة ، ألسنت تجلس في مثل هذا المجلس فتحرانا جميعاً مرة واحدة في نظرة واحدة ، كذلك تسمع الجميع دفعة واحدة ، ألسنت تقوم بمجرد أن تريد أن تقوم وتنفعل جوارحك لك بمجرد أن يخطر لفعل على بالك ، أفكر أنت في العضلات لتي تحركت والإشارات لتي تمت بداخلك لتقوم من مجلسك

وقد سبق أن أوضحنا هذه المسألة حين قارنا حركة لإنسان في سلاسلها وطواعية الحوارح لمراد صاحبها بحركة الحفار مثلاً ، فهو لا يؤدي حركة لا بالضغط على زر خاص بها

فإذا كنت أنت أيها العبد تفعل لك حوارحك وأعضائك بمردت في الأشياء ، فهل تستبعد في حق الله أن يفعل بكلمة كُنْ ؟ كيف وأنت ذاتك تفعل بدون أن تقولها ، مجرد الإرادة منك تفعل ما تريد

فإن قلت كيف يفعل الحق سبحانه بكلمة كُنْ ، وأنا أمعن بدون أن أقولها ، بقول نعم أنت تفعل بدون كُنْ ، لأن الأشياء ليست

منفصلة لك أنت ، إما هي مُسَخَّرَةٌ بِكُنْ الأولى حين قال لله لها كونى
مُسَخَّرَةٌ لإرادته ، إذن أنا أفع بدون كُنْ ، لأنها ليست فى مقدورى
أنا ، فكان كُنْ الأولى من الله تعالى هي كُنْ بما جميعاً

وبهذا الفهم استطعنا تفسير حادثة الإسراء والمعراج ، واستجعبا
الرد على منكريها ، والله يقول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَمِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ..﴾ (١) [الإسراء]

فلما سمع الكفار بالحادثة أنكروها وقالوا كيف ونحن نصرب
إليها أكباد الإبل شهرًا ؟ نعم أنتم تضربون إبيها أكباد لإبل شهرًا ،
لأن فعلكم يحتاج إلى زمن ومزاولة نورع فيها جزئيات الفعل على
جزئيات الزمن . أمّا محمد فلم يقل سرّيت ، فيكون هي الفعل كأحدكم
إما قال أسرى بى

إذن فهو محمول على قدرة أخرى فانفعر لا يُسبب إليه إنما
إلى حاملة إلى الله وقلنا كلما رادت القوة قل الزمن ، فإذا كانت
القوة قوة الحق - تبارك وتعالى - فلا زمن ، لذلك يقول سبحانه فى
ممسالة الخلق والإعبار به ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُم إِلَّا كَفَسٌ وَاحِدَةٌ ..﴾
(٢٨) [لقاب]

فالامر بسير على الله ، لأن خلق النفس الواحدة ، خلق جميع
الانفس يتم بكنْ ، فالمسألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستة أشهر

وصرنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بصناعة الربادى مثلاً ، فأنت
تأتى باللبن وتضع عليه المادة المعروفة وتتركه فى درجة حرارة
معينة فيتحوّل تلقائياً إلى الزمادى الذى تريده ، فهل جلست أمام كل

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١) ومسلم فى صحيحه -

(١٧) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه

علبة تحولها بنفست . أم أنك عملت العملية المعروفة في هذه الصنعة ، ثم تركت هذه المواد تتفاعل بذاتها ؟

كذلك شاء الله تعالى أن يوجد الإنسان جنيناً في بطن أمه . وأن تجرى عليه أمور لنمو بطبيعته ، إذن خلق الإنسان لا يقاس بالسعة لله تعالى بالرمز ، وقد حلّ لنا الإمام على كرم الله وجهه هذه القصية حينما سئل كيف يحاسب الله الناس جميعاً من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة في وقت واحد ؟

فقال يحاسبهم جميعاً في وقت واحد ، كما أنه يرزقهم جميعاً في وقت واحد ، لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن

ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢٨) [لقمان] سميع وبصير صيغة مبالغة من السمع والبصر ، وقلنا إنك وأنت العبد المحبوق تستطيع أن ترى هذا اجمع مرة واحدة في نظرة واحدة ، وكذلك تسمعه ، فم بالك بسمع الله تعالى وبصره ؟

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَيسَخِّرُ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ ٢٩ ﴾

(٢٩) سئل الإمام عبيد بن أبي طالب كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال كما يدرقلهم على كثرتهم [شرح نهج البلاغة - للشريف الرضي - طبعة دار الشعب ص ٤ : ٤ فقره

هذه آيات كونية واضحة مرئية للجميع للمؤمن والكافر ، للطائع والعاصي ، ، فالحق سبحانه يوزع لنا الوقت بين ليل ونهار ، لكنه ليس توزيعاً متساوياً (ميكانيكياً) ، بحيث يكون كل منهما أربعاً وعشرين ساعة ثابتة على التقدير الجبري كما يقولون ، لذلك نرى اليوم ينقص مثلاً عن الأربع وعشرين ساعة عدة دقائق تصاف إلى زمن الليل أو العكس

لذلك قلوا من أيام بطلموس السنة ٣٦٥ يوماً وخمسة ساعات ، وخمس وخمسون دقيقة ، واثنى عشرة ثانية بالدقة بعدها انتهوا إلى أن السنة ٣٦٥ يوماً وربيع يوم عن طريق الجبر ، فكل ثلاث سنين نحذر الرابعة ويقولون سنة بسيطة ، وسنة كنيسة أى طويلة ، فالتى تقدر القسمة على أربعة سنة كنيسة ، لذلك نجد شهر فبراير في هذه السنة ٢٩ يوماً ، ذلك لعرض اليوم

وكلمة يوم تعني الليل والنهار ، لكن القسمة بينهما ليست متساوية فالحق - تبارك وتعالى - صمغته الحكمة أراد أن يوزع الحررة والبرودة على كل مناطق المعمورة ، ويعطى لكل منطقها ما تحتاجه لتثبت أرضها ، وتعطيف نحن مقرمات حياتنا - نديل أن من النباتات ما لا ينمو إلا فى الصيف ، ومنها ما لا ينمو إلا فى الشتاء ، كذلك فى الاعتدال الربيعى والاعتدال الحريى .

لذلك ، عرفنا أخيراً أن الخالق سبحانه جعل لمحور الأرض ميلاً بمقدار ٢٣.٥ درجة عن مستوى مدارها ههى بدن غير مستوية ، فهى فصل الشتاء يكون القسم الأكبر منها مواجهاً ليل ، ولآخر مواجهاً للنهار فتعد ليل الشتاء أطول من ليل الصيف وأبرد منه ، ويبغ ليل الشتاء أقصى ما يمكن من الطول وهو ١٢ ساعة فى شهر كيهك .

حتى أن الفلاحين يقرلون في كيهك (كياك صبحك مساك قوم من
يومك حصر عشاك)

ومقابل ذلك في فصل الصيف فكان ميل محور الأرض سر^١ من
أسرار هندسة هذا الكون ، ففي الحادى والعشرين من حزيران
(يونيو) يبدأ الانقلاب الصيفى . وفى الثالث والعشرين من كانون
الأول (ديسمبر) يبدأ الانقلاب الشتوى . ثم الاعتدال الربيعى فى
الحادى والعشرين من آذار (مارس) ، والاعتدال الحريفى فى الثانى
والعشرين من أيلول (سبتمبر) وفى الاستواء الربيعى والاستواء
الحريفى تحد أن الليل مساو للنهار . وجو^٢هما معتدل لا حر ولا برد

فقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْخِذُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ .. (٢٩) ﴾ [نجم] يعنى لا تظن أن الليل والنهار قسمة
متساوية ، لأن الله تعالى بحكمته يدخل جزءاً من الليل فى النهار
و جزءاً من النهار فى الليل ، فيريد فى أحدهما وينقص من الآخر
حكمة أرادها سبحانه وتعالى لصالح الإنسان ، وإمداداً له بمسؤوليات
حياته لتعلم أن ما يطرأ على الليل والنهار من تغيير الأشياء بها
مناط فى الحكمة الإلهية العليا

وحين نُقسَمَ اليوم إلى ليل ونهار - وهى قسمة كما قلنا ليست
رتبية ولا متساوية - فإن الليل مهمة فى الحياة والنهار مهمة ، كما بين
لنا سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۚ (١) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٢) ﴾ [النجم]

معنى اللباس أن تسكن فيه وتكن وتستر نفسك ، لذلك عرفنا فيما
بعد أن الضوء أثناء النوم أمر غير صحى ، وفهمنا قول رسول الله
« أظعنوا لمصابيح إذا رقيتم »^(١)

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٤) وللمد فى مسنده (٣٨٨/٢) عن جابر بن

والحق سبحانه يوضح لنا هذه امسألة في قوله تعالى ﴿وَلَصَحِيَ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢)﴾ [الصحرى] ويقول . ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَعِشَى (٣) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٤)﴾ [الليل] ليبين لك أن لكل منهما مهمة في حركة حياتك ، فالنهار للحركة والليل لسكون وعيك لا تخلط بين هاتين المهمتين دون داع . وقد استثنينا من هذه القاعدة من تحتهم عليهم طبيعة عملهم أن يعملوا بالليل ويرتحو بالنهار

والخالق عز وجل جعل في حركة الليل والنهار أسراراً وعجائب يبقي أن نتنزه إليها بمعطيات العلم ومن حكمة الخالق سبحانه أن جعل لكل سر في الكون ميلاً يولد فيه ، ونشر أسرار كونه على حلقه ولم يُظهره بحيل واحد وإلا لرب كشف القرآن كل أسرارها بالأمية التي عصرت نروله لانصرفت عن الدعوة الجديدة بتكديب هذه الغشاي التي لم تصدقها العقول حتى في العصر الحديث ورغم تقدم العلوم مثلاً بما قال لعلماء بكروية الأرض ودورانها حول الشمس بم نصدق هذه الحقائق حتى جاءت الصور اعصائية التي تؤكد ذلك

وقلنا إن ميلاد سر من أسرار الكون قد يصادف بحثاً من البشر ، فيأتى السر ويظهر على أنه نتيجة لهذا البحث ، وإلا أظهره الله للناس بالمصادفة رحمة بهم وتفصيلاً عليهم ، بذلك بعد أن معظم الاكتشافات جاءت صدفة ، لم يسع إليها البشر ولم يذهبوا إليها بمقدمات

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الليل والنهار يقول كلاماً عاماً يفهمه كل معاصر لمرحلة من مراحل التقدم العلمى ﴿وَجَعَلْنَا لِّلَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ . (١٢)﴾ [الإسراء]

ويقول ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

شَكَرُوا ﴿١٢٦﴾ [الفرقان] ومعنى خلفه يعنى يخالف أحدهما الآخر
ويأتى بعده ، وهذا صحيح الآن فمن يرى الليل يخلف النهار ،
والنهار يخلف الليل ، لكن كيف تتصور هذه المسألة فى بدء الخلق ؟

لو أن البدية كانت بخلق الأرض مواجئة للشمس ، فالنهار ذى
أولاً ليس خلفه لشيء قبله ، ثم تغيب الشمس قبشاً الليل ليكون خلفه
لنهار ، وفى لمقابل إن وحدث الأرض غير مقابلة للشمس ، فالليل
هو الأول ليس خلفه لشيء قبله

إس لا يحل لنا هذه المسألة إلا قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حُلَّةً ۚ ۞﴾ [الفرقان] أى من بداية الخلق وهما خلفه
وهذا لا يتأتى ولا يسوغ إلا إذا كانت الأرض مكورة بحيث يكون
الجزء المقابل للشمس منها مكوناً للنهار ، والجزء الآخر لليل فى وقت
واحد ، فلما سحرت الأرض فى دورانها صار كل منها حُلَّةً للآخر ،
إذن معطيات القرآن يهضمها العقل ، ولا يعارضها أبداً

تذكرون فى اثلاثينيات وبالتحديد عام ١٩٢٨ فسروا السموات
السبع بأنها الكواكب السبعة السيارة التى تدور حول الشمس ذلك
ليقربوا الخلق للناس ريشاء الله - سبحانه وتعالى - أن يكتشفوا
بعدهم ، بصور (ثم (بلونو) فصارو بسعة كواكب ، وظهر الله لهم
فساد هذا التأويل

وفى الكون عجائب كثيرة يعرفها حتى عن طريق الكفار ، وكان
الله سحر حتى الكافر ليثبت إيمان المؤمن فإذا كنا قد عرفنا اليوم
عدتنا على الأرض ، وأنه ليل ونهار يُكوَّنان أربعاً وعشرين ساعة
فماذا يعنى اليوم بالنسبة للكواكب الأخرى ؟

لما عرفوا أفلاك الكواكب الأخرى التى تدور حول الشمس وجدوا

أعربها لشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المريخ ، ثم
المشتري ثم زحل ، ثم ببتون ، ثم بلوتو ، وهو أبعد الكواكب عن
الشمس

ومن عجائب اسبوع في هذه الكواكب أن يوم الزهرة مثلاً ٢٤٤
يوماً بيومنا نحن ، أما العام فميساوي ٢٢٥ يوماً بيومنا ، فكان يوم
الزهرة أطول من عامها ، كيف ؟ قالوا لأن المدار مختلف عن مدار
لأرض ، فاسبوع نتيجة دورة الكوكب حول نفسه ، ولعام نتيجة دورة
الكوكب حول الشمس

وقوله تعالى ﴿ وَسَحَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ .. ﴾ (٢٩) ﴿ [نفس] ولكِ ن
تلاحظ دقة الأداء القرآني في الانتقال من الفعل المضارع ﴿ يُولِجُ ﴾
(٣٠) ﴿ [نفس] إلى الماضي ﴿ سَحَّرَ .. ﴾ (٢٩) ﴿ [نفس] ففي الكلام عن
حركة اللير واليهار قال ﴿ يُولِجُ .. ﴾ (٢٩) ﴿ [نفس] ولما تكلم عن
الشمس والقمر قال ﴿ سَحَّرَ .. ﴾ (٢٩) ﴿ [نفس] لماذا ؟

قالوا لأن التسخير تم مرة واحدة ، ثم استقر على ذلك ، أما
إيلاج الليل في النهار ، وإيلاج النهار في الليل فامر مستمر يتكرر كل
يوم ، فتناسه المضارع الدل على التكرار

وقوله تعالى ﴿ كُلُّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٢٩) ﴿ [نفس] أي
إلى غاية محدودة لذلك سمي لعمر النهائي الأجل والمراد
بالأجل المسمى يوم القيامة فكان الحائق سبحانه صمم لما استمرار
لشمس والقمر إلى قيام الساعة ، فاطمئنا

ثم أي عظمة هذه في كوكب مضيء ينير العالم كله منذ خلقه الله
وإلى قيام الساعة ، دون صيانة ودون قطعة غيار ، ذلك لأنه مبني
على استسخير القهري الذي يسمع الاختيار ، فليس لشمس أن تمتنع

عن الشروق وكذلك القمر ، ومن العظمة في الألوية هذه ارحمانية الرحيمة التي تحتضن اجمعين المؤمنين بها والكافر

وفى هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (٢٩) ﴿[القمار]﴾
وفى مواضع أخرى ورد بلفظ ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .. (٢) ﴿[الرعد]﴾ باللام
بدلاً من إلى وكذلك فى سورتي فاطر (١٢) والرحم (٥) وبكل من
الحرفين معنى ﴿إِلَى أَجَلٍ ..﴾ (٣٦) ﴿[القمار]﴾ تعطيها الصورة لمشية
الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل . إما ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (١٣) ﴿[

وكما أن الليل مهمة والنهار مهمة ، كذلك لشمس مهمة ، والقمر مهمة بينهما في قوله ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس]

وهي موضع آخر قسار سبحانه ﴿يَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ
مُزْجِجًا وَحَمَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الرحمن] فالصياح بالشمس فيه
نور وحدادة ، على خلاف نور القمر الذي يناسب حالاً لا حرارة

ومن عجائب أمر القمر أننا كُنَّا نحسبه قطعة من اللؤلؤ مضيئة في السماء ، حتى إن أشعراء درجوا على تشبيهه بالمضيوية بالقمر ، ولو عرفوا حقيقة القمر التي عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التشبيه ، فقد أطلعوا العلم أن القمر ما هو إلا حجارة وجسم معتم لا يصيء بذاته ، إنما يعكس فقط ضوء الشمس ، لذلك بما شئنا أحد الشعراء مضيئته بالقمر أنكرت عليه هذا الشبه

شَبَّهَتْهَا بِالدَّرِّ فَاسْتَفْضَحَتْ وَقَابَلَتْ قَوْلِي بِالسُّكْرِ

أَي تَكَلَّفَتْ انْضِحَتْ

وَسَقَّهْتُ قَوْلِي وَقَالَتْ مَتَى سَفَجْتُ حَتَّى صَرَّتْ كَالسُّدْرِ

وَلَكِنْ أَنْ تَسْأَلَ فَمَنْ أَيْنَ عَرَفَتْ سَمِجَةَ السُّدْرِ رَأَتْهُ حَجَارَةً لَا جَمَلَ فِيهَا ؟ تَجِيبُ فِي حَيْثُ نَقُولُ

السُّدْرُ لَا يَرْتَوِ بِعَيْنٍ كَمَا أَرْتَوِ وَلَا يَنْسِمُ عَنْ ثَغْرِ وَلَا يَمِيطُ الْمَرْطُ عَنْ نَاصِيَةٍ وَلَا يَشُدُّ الْعَقْدُ فِي نَحْوِ مَنْ قَبَّاسٍ بِالسُّدْرِ صَفَائِي فَلَا زَالَ أَسِيرًا فِي يَدِي هَجْرِي

إِذَنْ فَحَقِيقَةُ الْقَمَرِ الَّتِي عَرَفْنَاهَا أَحْيَا آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الطَّاهِرَةِ وَابْتِاطُنَةِ فِي الْكَوْنِ أَطْلَعَنَا اللَّهُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِ الْعَمِّ ، فَلَمْ تَيْسَّرْ لِلْبَشَرِ لَصْعُودَ إِلَى سَطْحِهِ عَرَفْنَا أَنَّهُ جَسْمٌ مُعْتَمٍ ، وَصُخُورٌ لَا تُثِيرُ بَدَانَتَهَا ، نَمَا تَعَكْسُ أَشْعَةُ الشَّمْسِ تَتَّصِلُ إِلَيْنَا هَادِئَةً حَالِمَةً ، وَكَأَنَّ الْقَمَرَ كَمَا يَقُولُونَ (يَصْنَعُ مِنَ الْفَسِيحِ شَرِبَاتٍ)

وَمِنْ حِكْمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَنْ تَكُونَ الشَّمْسُ مِيرَانًا لِمَعْرِفَةِ الْيَوْمِ وَالْقَمَرُ لِمَعْرِفَةِ الشَّهْرِ وَهُوَ الْأَصْلُ فِي لَذِكَايَاتِ لِأَنَّ لَهُ شَكْلًا مُمِيزًا فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ عَلَى خِلَافِ الشَّمْسِ لِذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ صَيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَدَارَ لَعَلَّمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِصَابِ .. ﴾ (٥٠)

وَتَتَجَلَّى عَظَمَةُ التَّكْلِيفِ الْإِلَهِيِّ وَارْتِقَابُهُ بِالْقَمَرِ فِي فَرِيضَةِ الْحَجِّ مَثَلًا بَحْثُ دَنَقُلٍ مَوْعِدِ الْحَجِّ عَلَى مَدَارِ لَعَلَّمَا كُلَّهُ ، فَمَرَّةً يَأْمُرُ فِي الصَّيْفِ وَآخَرَى فِي الشِّتَاءِ الْخُ مِمَّا يُيسِّرُ لِلْحَاجِّ مَا يَنْاسِبُ كَلًّا

منهم من الجسو الملائم ، ويقطع الأعذار في التخفيف عن أداء هذه
الفريضة

إنر بالتوقيت القمري يأتي الحج في كل أوقات السنة ، لذلك
قال البعض إن ليلة القدر دائرة في العام كله إذا ما قارن التوقيت
الشمسي بالتوقيت القمري ، فإن تعديا على أن ليلة القدر هي السابع
والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفي العام
التالي توافق الثاني ، ثم الثالث وهكذا وهذا من رحمة الله تعالى
بعباده .

ثم يقول سبحانه ﴿رَأَى اللَّهُ بَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [النمل ٢٦] وما
دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذي يهيء لكم صلاح العمل
بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ، لذلك شرع لكم الأعمال التي تنظم
حركة حياتكم وحركة عبادتكم ، لذلك حدد رمضان مثلاً بدخل بالليل
فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم
مجموع به اناس

وقوله ﴿رَأَى اللَّهُ بَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [النمل ٢٦] معطوفة على
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوْجِزُ...﴾ [النمل ٢٦] فالتقدير وألم تر أن الله بما
تعملون خبير

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

قوله تعالى ﴿دَلِيلٌ ۝ ٣٠﴾ [لقمان] إشارة إلى ما تقدم ذكره من دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل ، وتسحير الشمس والقمر . ذلك كله ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ۝ ٣١﴾ [لقمان] فكل ما تقدم بشأ عن صفة من صفات الله وهو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، فكان ناموس الكون بكل أملاكه وبكل المخلوقات فيه له بضم ثابت لا يتغير ، لأن الذي خلقه وأبدعه حق ﴿دَلِيلٌ ۝ ٣٢﴾ [لقمان] **الْحَقُّ ۝ ٣٣﴾**

وما دام الله تعالى هو (الحق) فما يدعون من الشركاء هم الباطل ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ۝ ٣٤﴾ [لقمان] ، فلا يوجد في الشيء الواحد حقان ، فإن كان أحدهما هو الحق فعيره هو الباطل ، فالحق واحد ومقابل له الباطل وأي باطل قطع من عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل .

كيف وهي حجارة صوّروها بأيديهم وأقاموها ليعبدوها من دون الله ، والحصارة حماد من حمادات الأرض ، والحماد هو العبد الأول لكل المخلوقات ، عبد للنبات وعبد للحيوان ، وعبد للإنسان ، لأنه مُسَخَّرٌ لخدمة هؤلاء جميعاً

فكيف بك وأنت الإنسان الذي كرمت ربك وجعل لك عقلاً مفكراً تتدبى بنفسك وترضى لها أن تعبد أدنى أجناس الوجود ، وتتخذها شريكاً مع الله ، وأنت ترى الريح إذا اشتدت أظاحت باللات أو بالعري وأبقته على الأرض ، وربما كُسرت براعه فاحتاج لمن يصلح هذا الإله إذن ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ۝ ٣٥﴾ [لقمان]

لذلك ، قتل في الحروب التي تنشب بين الناس بها لا تنشب بين حقيين لأن الحقيقة لا يوجد فيها حقان ، إنما هو حق واحد ،

والآخر لا بدُّ أن يكون باطلاً ، أو تنشأ بين باطلين ، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها في الغالب لا تطول ، لأن الباطل رهوق

والعاقبة لا بدُّ أن تكون للحق ولو بعد حين ، أمم الباطل هببه رهوق إنما تطول للمعركة إن نشبت بين باطلين . فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله ، فتظل اسرُوب بينهما حتى يتهاكما ، وتنتهي مكاسب طغيان كل منهما ، ولا يردهما إلا منبئة الحق إلى لتصالح بعد أن فقد كل شيء

لذلك نرى هذه الظاهرة يصفاً في توزيع التركات والموارث بين المستحقين لها حيث ينشعب بينهم الخلاف والطعن والحقو إلى القضاء والمحامين حتى يستنفد هـ كلة جزءاً كبيراً من هذه التركة . حتى إذا ما صفت ما كان بها من أموال جُمعت بالباطل ترى لأطراف يميلون إلى الاتفاق والتصالح وتقسيم ما بقي

واقراً إن شئت حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصَابَ مَالاً مِنْ مَهَوشٍ^(١) أَذْهَبَهُ اللَّهُ مِنْ نَهَابٍ^(٢) » ومعنى مهوش يعنى بالتهويش أو كما نقول (ييهش) من هنا ومن هنا ، وطبعي أن يذهب الله هذا لمال في الباطل وما لا قائده منه

وسبق أن أعطينا مثلاً لمصارف المال الحرام بالآب يرجع إلى بيته ، فبعد ابنه مريضاً حرارته مرتفعة فيسرع به إلى الطبيب

(١) المهوش مكاسد السوء فهو كل مال يُصاب من غير حلة ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك [سنن العرب - مادة هوش]

(٢) النهابر المهلك أي أذميه الله في مهالك وأمور متبذرة [لسان العرب - مادة نهبر]

(٣) أورده النجاشي في كشف القضاء (٢ / ٢٦٢) وعزاه للخصاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً ، وأبو سيمه ضعيف ولا صحة له قال الثقي السبكي لا يصح

ويصيبه لرعب ويتراءى له شبح امرض ، فيعق على ابيه المئات
أما الذي يعيش على انكشاف ويعرق في كسب عيشه بالحلال فيكفيه
في مثل هذه الحالة قرص أسبرير وكوب ليمون ، فالأمر صاب ماله
من مهاوش ، والآخر أصابه من الحلال

مقول الله تعالى ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [غسر] يعني
أن الحق هو انظاهر وهو العالب فإن قلت كيف وضح يرى الباطل
قد يعلو على الحق ويظهر عليه ، ويعبر نعم ، قد يعلو الباطل لكن
إلى حين وهو في هذه الحالة يكون حمدياً من جنود الحق كيف
حينما يعلو الباطل وتكون له صولة لا بد أن يعص الناس ويؤذيهم
ويديفهم وبلاته ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه ويتشوقون إليه

إذن لولا الباطل ما عرفنا ميزة الحق ، ومثال ذلك الأم انذى
يصيب النفس الإنسانية فينبهها إلى لمرض ، ويظهر بها علتها ،
فتطلب الدواء فالألم جندى من جنود اشفاء ، وقلنا سبق أن
الكفر جندى من جنود الإيمان

لذلك لا تحزن إن رأيت الباطل عالياً ، فذلك من صالح الحق
وامرأ قول رب عز وجل ﴿ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾
[الرعد] يعني بإحد كل واحد على قدره وسعته من الماء
﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ [الرعد] وهو القش راغقت الذي
يحميه اماء ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ﴾
كذلك يضرب الله الحق والباطل .. [الرعد] أى مثلاً لكل منهما

﴿ فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ [الرعد] يعني مطروداً متبعداً
من الجعوة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد]

وبعد أن بيّن الحق سبحانه وتعالى أنه ﴿الْحَقُّ﴾ ﴿٤٠﴾ [القصص] وأما غيره من آلهة المشركين هم الباطل ذكر لنفسه سبحانه صفتين أخريين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٤١﴾ [القصص] العلي الكبير يقولها الله تعالى ويقولها رسوله ﷺ ويقولها نحن ، لأن الله قالها ، ولأن النبي الصادق أخبرنا بها ، لكن المسألة أن يشهد بها من كفر بالله

لذلك يعلمنا ربنا - تبارك وتعالى أن نحمد الله حينما يشهد الكافر لله رغم كفره به ، كما ورد في الآيات السابقة ﴿وَلَيْسَ سَأْتَهُمْ مِنْ حُلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [النحل]

فهذه الشهادة منهم تستحق من المؤمن أن يقول الحمد لله لأنها شهادة جاءت ممن كفر بالله وكذب رسوله وحاربه ، وأيضاً تنظر إلى هذا الكافر الذي ثابى على منهج الله وكذب رسوله حين يصيبه مرض مثلاً ، أو يستطيع أن يثأر على المرص كما ثأى على الله ، هذا الذي ألف ائتمرد على الله أئتمرد إن جاءه الموت .

واقرا قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صِلْ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ..﴾ ﴿٤٢﴾ [الإسراء] أى لا يجدون أمامهم ساعة الكرب والهلاك إلا الله لأن الإنسان في هذه الحالة لا يخدم نفسه ولا يكذب عليها بالله أرايتم إنساناً أحاطت به الأمواج ، وأشرف على الهلاك يدعو يقول يا هبل ؟ إذن الله هو العلي وهو الكبير ، وعيره شرك وباطل

وسبق أن صرنا مثلاً للإنسان ، وأنه لا يفش نفسه ، ولا يخدعها خاصة إذا مزلت به ضائقة بالعلاق أو حكيم الصحة كما كانوا يملقون عليه ، فهو يداوى أهل القرية ويسخر من طبيب الوحدة

الصحية ، ويتهمه بعدم الخبرة ، لكن حين مرض وبده وأحس بالخطر
أحد لولد وتسأل به في طلام الليل ، وذهب إلى الطبيب

فله وحده العلو ، والله وحده الكبرياء ، مدليل أن الكافر حين
تضطره أمور الحياة وتلجئه إلى ضرورة لا مخرج منها لا يقول إلا
يا لله يا رب

فانه هو العلى بشهادة من كفر به ، ثم أريد صفة (لعل)
بصفة (الكبير) ، لأن العلى بجور أنه علا بطعيار وعدم استحفاق
للعلو ، لكن الحق سبحانه هو العلى ، وهو الكبير الذي يستحق هذا
العلو

ثم يفتن الحق سبحانه إلى آية أخرى من آياته في الكون

﴿ الْقُرْآنَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض آيات الكونية البعيدة عنا أراد
سبحانه أن يعطينا نموذجاً آخر لآيات التي بين أيدينا في الأرض
فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. ﴾ (٣١)
[القمار] ألم تر يعني ألم تعلم ﴿ أَنَّ الْفُلْكَ .. ﴾ (٣٢) [القمار] أي
السفن

وربما أن سيدنا رسول الله لم ير هذه السفن في البحار ، ولم تكن
قد ظهرت السفن العملاقة التي نراها اليوم كالأعلام ، كما في قوله

سبحانه ﴿وَلَهُ الْخُورُ الْمُشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٤) [الرحمن]

ومتى وجدت النوارج العالية التي تشبه الجبال والمكوثة من عدة أدوار ، لم توجد إلا حديثاً ، ذى فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا مِنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُظْهِرَهُمْ صَفًّا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) [الرحمن]

ومن يبحث في القرآن يجد فيه الكثير من هذه الآيات التي تثبت صدق القرآن وصدق رسول الله في البلاغ عن الله .

ونذكرنا قصة المرأة التي أسلمت لما قرأت التاريخ الإسلامي ، وقرأت في سيرة رسول الله أن المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبدلونهم حماية له من أعدائه . وفجأة صرف رسول الله هؤلاء الحرس من حوله وقال لهم لقد أنزل الله عليّ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٦٧) [المائدة] فوقفت المرأة عند هذه الآية وقالت والله لم أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه في حياته

وقد في معنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ (٣) [النمل] أنها بمعنى ألم تعلم ، لأن إعلام الله لك أثق من رؤية عيني

وكلمة ﴿نَجْرِي فِي الْبَحْرِ نَعْمْتَ اللَّهُ﴾ (٤١) [النمل] الجري حركة تودع فيها مكاناً إلى مكان آخر . هذا التوديع إما أن تمشي الهوينا أو تجري لكن ما هي نعمة الله في حريها ، أولاً كانت أول سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر^(١) ، وكان

(١) الدُّسُر مسامير خشبية وشرطها التي تشد بها والدُّسار المسامير ويقول تعالى

﴿وَحَمَلْنَاهُنَّ عَلَى ذَاتِ الْأَرْوَاحِ وَدُسُرًا﴾ (١٠٧) [النمل]

الفاطس منها فى السماء حوالى شهر واحد يزيج من الماء بهجم وزن السفينة فإذا ما وصعت عليها ثقلاً فإياها تغطس بمقدار هذا الثقل ، حتى إذا ما راد وزن الماء المراح عن وزن السفينة وحمولتها فإياها تغرق

وهذه الفكرة هى التى تُستخدم فى الغواصات ، فبالورن يتم التحكم فى حركة الغواصة تحت الماء ، والآن نرى السفن العملاقة والننى نُصنع من الحديد ، والعجيب أن هذا الحديد الصلب يحمله الماء السائل اللين ويجرى به ، ثم تأتى الريح فتدفع السفن إلى حيث تريد حتى وإن كانت تسير عكس جريان الماء ويتمكن ربان السفينة من التحكم فى حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة ومتوحيه الشراع بطريقة معينة فتسير السفينة حسب ما أراد حتى لو كان اتجاهها عكس اتجاه الريح ، ويسمون هذه الحركة (تسفيح)

لذلك يقول سبحانه عن حركة السفن ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فُيَظُنُّ رَوَاكِدَ عَنِ ظَهْرِهِ﴾ (٣٣) [اشورى]

وكان الحق سبحانه يريد أن يبين لنا أن أقل الأشياء كثافة بقوة الحق له يحمل أكثر الأشياء كثافة ، وانظر إن شئت إلى حركات النقل الثقيل هذه الجرارات العملاقة التى تحمل عدة أطنان من الحديد مثلاً على أى شىء تسير وتتحرك ، إنها تسير وتتحرك على الهواء المصفوط فى عجالاتها ، والذي يأخذ قوته من هذا الضغط بحيث إذا زادت فى ضغط هذه العجلات تقوى على نفسها متنفجرة

وقوله تعالى ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ (٣٠) [المر] أى من عجائبه فى كونه حاصلة فى البحار ، ففى الماضى كب لا نرى من المخلوقات فى الأعماق إلا السمك الذى يصطاده الصيادون ، أما الآن ومع تطور

علوم البحار وطرق التصوير تحت الماء أصبحنا نرى في أعماق البحار عجائب أكثر مما مراه على اسياسة

ثم يقول تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [٢١] لقمان قوله تعالى ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ ..﴾ [٢١] لقمان توحى بأن آيات الله في كونه كثيرة لكن على الإنسان أن يبذل جهداً في البحث عنها واكتشافها وعليه أن يكون صبوراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء فإننا ما رأينا ما في أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [٢١] لقمان والشكر لا يكون إلا عن نعمة حدث لم نكن موجوده من قبل

إس الحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نستقبل آياته هي الكون استقبال بحث وتامل وبطرق لا استقبال عجلة وإعراض . كما قال سبحانه ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [٢٥] يوسف

وتقديم صبور على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستبصار والاكتشاف يؤتي نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [٢٦]

(٢٦) خترة - خدره - أفتح القبر فهو خترة وختار - صيغة مبالغة [القاموس القويم

معنى ﴿عَشِيَهُمْ مَرَجٌ﴾ (٣٧) [القمار] يعنى عطاهم واحتواهم ، لذلك قال ﴿كُلُّ ظُلُمٍ﴾ (٣٨) [نفس] جمع طُلَّة ، وهى لنى تعلو الإنسان وتظلمه . ولا يكون العوج كذلك إلا إذا علا عن مستوى الإنسان ، وخرج عن رتبة الماء وسجسجه . ومن ذلك قول الله تعالى ﴿وَإِذْ تَقِفُ^(١) الْجِبِلَّ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ طُلَّةٌ﴾ (٣٩) [الأعراف]

وأت تشاهد هذه المظاهر ، إذ كنت فى عرض البحر ، فترى الموجة من بعيد أعلى منك ، وأنها حتماً ستطمسك حتى إذا ما وصلت إليك شامتت فيها مطهراً من لحاف الله بك حيث تتلاشى وتمر من فحنك سلام ، وهذا شيء عجب وبعمة تستوجب الشكر

فاموج إن شئ محض ، لذلك لما عشيهم وأدقوا الهلاك ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٤٠) [القمار] دعوا الله رغم أنهم كفروا به . لكن المرء فى مثل هذه الحال لا يحدع نفسه ولا يكذب عليها ، فالأمر حد ، فلم يدعوا اللات أو العزى ، ولم يقل أحد منهم يا هـ ، إنما دعوا الله بإخلاص لله ، فإن كانوا ملتفتين لدين آخر فى عبادة الأصنام ، ففى هذا الموقف لا بُدَّ أن يخلصوا لله ، لأنهم واثقون أن الأصنام لن تنفعهم ، وأنها لا تمسك لهم صبراً ولا بقاءً . ولن يكون النفع وكشف البلاء إلا من الله الحق فإن قلت ما دم الأمر كذلك ، فما الذى صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ؟

(١) انشق الزعرع والهز والجدب والبعض وينق الشراء جديه واقتلعه [نفس العرب]

قلنا إن التدبير طبيعة في النفس البشرية ، وهذه الطبيعة نافية في ذرات كل إنسان منذ خلق الله آدم وأخذ من صلبه نريته وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (١٧٧) ﴿[الأعراف] فشهدوا

فكل واحد منا فيه ذرة شهدت هذا لعهد ، وهذه الذرة هي مصدر لإشراقات في نفس المؤمن وعليه أن يحافظ عليها بأن يأخذ قسرون صيانة هذه الذرة من حلقها لا أن يطمس نورها بمخالفة قسرون صيانتها الذي وضعه له ربه عز وجل فيكون كمن قال الله فيه ﴿وَمَنْ أَغْرَصَ عَنْ دِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٦٤) ﴿[طه]

الذي ﴿يُوضِحُ لَنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِقَوْلِهِ « كل مولود يولد على الفطرة ، فمأواه يهودانه ، أو ينصرانه أو ، يمجسانه »^(١)

فالنفس الإنسانية محير ما دام فيها الإشراقيات الإلهية الأولى التي شهدت أن الله هو الرب ، لكن إذا تصببت فلا بد أن تحدث الحيرة ويدخل الفساد

إذن اتدبير طبع في النفس ، لكن التدبير الحق له مطلوبات ومنهج فاعل كذا ولا تفعل كذا وهذا يريد أن يرصى نفسه بأن يكون متديناً ، لكن يريد أن يربح نفسه من مطلوبات هذا التدبير فمماذا يفعل ، يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات به ، وقد توجرت هذه هي عبادة الأصنام

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٧٥) وكذا مسلم في صحيحه

(٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الحديث

لكن يقول من عبد الأصنام لا بد أن يأتي عليك الوقت الذي لا تلتفت فيه إلى الأصنام ، بل إلى الإله الحق الذي هربت من مطوياته وأصرفت عن عبادته لا بد أن تلجئك الأحداث إلى أن تلود به ، لذلك يقولون في المثل (إلى متحش تشوف وجهه ، يحوحك الزمن لفقاه)

فأينم أعرضنم عن الله وكفرتنم به ، فما مرلت بكم الأحداث وأحاصت بكم الأمواج صرتم أرنب ، فمأذا الآن تلجئون إلى الله ، لعاداً لم تستمروا على عذركم وتكبركم حتى على الله ؟

ثم يقول تعالى ﴿ لَدُنَّا بِهِمْ إِلَى أَبَرْ فَمَهُمْ مُّصَّصٌ ﴾ . (٣٢) ﴿ لقنن ﴾ وكان ينبغي عيهم بعد أن اعترفوا أن الله هو الإله الحق الذي يُنجأ إليه ويستغاث به ، وبعد أن نجاهم وأسعفهم ، كان ينبغي عليهم أن يؤمنوا به ، وأن يطيعوه وأن تؤث فيسهم هذه الهرة التي زلزلتهم ، لا أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والإعراض عن الله ، وطاوع نفسه وشهوته

هذه هي حال الكافر حينما يتعرض للاشلاء والتسميص ، فإنه ينتكس ولا يرعوى على خلاف المؤمن فببه إن تعرض لمثل هذا الاحسار يرداد إيماناً وبقياً

والمقتصد هو البين بين ، تأخذ الأحداث والخطوب ، فقره إلى الله حال الكرب ، أشدة ، لكنه إذا كشف عنه تردد وصعفت عبده هذه الروح تدلن أن الله تعالى يذكر في مقابل المقتصد نوعاً آخر منهم غير مقتصد ﴿ وما يجعد بآياتنا إلا كل حنار كفور ﴾ (٣٢) ﴿ لقنن ﴾

فمنهم من بهت كفره حينما تنه عيه الوزع الإيماني ، لكنه لما نحا غرته لدنيا من جديد ، ومنهم الجاحد الخنار أي الخادر

ولك أن تلحق العقيلة بين حبار وحثار . وبين شكور وكفور
ثم يحاطب الحق سبحانه الناس ، فيقول

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي
وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٢﴾

حطاب الحق سبحانه لعدده دنانها للناس سل على أنه تعالى يريد
أن يسعدهم جميعاً في الآخرة . وسبق أن ذكرنا الحديث القدسي الذي
تقول فيه الأرض يا رب ثدن لي أن أخسف بآبن آدم وقال
البحار بعرقه إلح ، فكان الرد من الخالق عز وجل « دعوى
وخلقى فلو خلقتموهم برحمتهم إن قابوا إلى فأنا حديبهم . وإن
لم يتوبوا مات طيبهم »

وقوله تعالى ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ (٣٢) [القمم النقيى أن تجعل
بيتك وبين ما يصرل وقاية ثقيك وثحيك ، لذلك يقول تعالى في آية

(١) بورده بقرالى في إحياء علوم الدين (٤ ، ٥٢) من قول بعض السلف ونظفه . ما من
عبد يعصى إلا استأنس مكانه من الأرض أن يخسف به . واستأنس سقعه من السمعة أن
سقط عليه كفاً . يقول الله للأرض والسماء كفاً عن عبدى رأيهلاه مؤنكاهم تحلقه
ولو خلقتماه لرحمتهم . وبطله يتوب من ما عور به ، ولعله يستبدل صانحاً مبدل له

أخرى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ.. (١٣١)﴾ [آل عمران] وهما بمعنى واحد ، لأن معنى اتقوا الله احصلوا بيبكم وبين صفات جلال ربكم واسبقمه وجبروته رقاية ، وكذلك فى اتقوا النار

فاحطاب هذا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، والله تعالى يريد أن يدخلهم جميعاً حيز الإيمان والطاعة ويريد أن يعطيهم ويمنّ عليهم ويعيهم ، وكأنه سبحانه يقول لهم لا أريد لكم نعم الدنيا فحسب إنما أريد أن أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة

وكذلك النى ﷺ ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له كما ذكرنا فى قصة اليهودى الذى تهموه ظالماً بسرقة درع أحد امسمين ، وقد عزّ على المسلمين أن يرمى واحد منهم بالسرقه فجعلوها عند ليهودى ، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله فأداره فى رأسه كيف يتصرف فيه ؟

فاسمعه الله ، وأنزل عليه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (٥٠)﴾ [النساء] لا بين لمؤمنين فحسب ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْكَافِرِينَ حَصِيماً (١٠٠)﴾ [النساء] أى لا تحاصم لصالح الحائن ، وإن كن مسلماً ، فلناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان

وفرق بين اتقوا ربكم واتقوا الله ، لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية عطاء الربوبية إيجاد من عدم وإمداد من عدم ، وتربية للمؤمن ولكافر أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر ، فاختار هذا الرب الذى خلق وربّى ، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً من الواجب عليكم أن تحصلوا تقوى الله شكراً نعمته عليكم ، وإن كنتم قد كفرتم بها

ولا تنتهى المسألة عند تقوى الرب فى الدنيا ، إنما ﴿وَاحْشُوا يَوْمًا

لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ .. ﴿٣٣﴾ [لقمان] أى حافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتي ظرفاً ، وتأتي اسماً مُتصِرفاً ، فهي ظرف إذا كان هنال حدث سيحدث فى هذا اليوم كما تقول حدثت شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أما لو قلت حدثت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شيء فى هذا اليوم ، أى من اليوم نفسه

بالمعنى هنا ﴿وَاحْشَوْا يَوْمًا .. ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان] لأن اليوم نفسه محبب بصرف النظر عن الجراء فيه ، وفى هذا اليوم ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان] حصن من الوالد والولد ، لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم حصن الوالدين فى الوصية المعروفة ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. ﴿٦٤﴾﴾ [لقمان]

ثم ذكر حثيات هذه الوصية وقال ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ ﴿٦٤﴾ [لقمان] فجعل لهما فصلاً وميزة ومدرلة عند الله ، حتى أصبحا مضية انفع حتى يوم القيامة ، فإراد سبحانه أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا أَنْ ينفع الوالد لولده ينقطع فى الآخرة فكلٌ منهما مشغول بنفسه فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه

وفى سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ ﴿٢٨﴾ [البقرة] أى مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أبداً كان

والآية بهذا اللفظ وردت فى موضعين اتفقا فى الصدر ، واحتلها فى انفطر ، وهى تتحدث عن نفسين الأولى هى النفس الجازية أى التى تتحمل الجزاء ، والآخرى هى النفس لمجزية التى تستحق العقوبة فالآية التى نظرت إلى النفس المجزى عنها ، جاء عجزها ﴿وَلَا يَقْبَلُ

منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ .. (١٢٣) ﴿ [البقرة]

ومعنى عدلٌ أى فدية ، فالنفس لمجرى عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تياس ، بل تبحث عمن يشوع لها من أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع

أما النفس الحارية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإن لم تقبل عرضت لعدس والفدية ، لذلك جاء عجز الآية الأخرى الذى اعتبر النفس الحارية بتقديم الشفاعة على العدل إذن دليل الآية الأولى عائد على النفس المحرى عنها ، ودين الآية الثانية يعود على النفس الحارية

وهنا ﴿ لا يحصى والد عن ولده ﴾ (٣٦) ﴿ [فما] لأن الوالد مظنة الحنان على الولد ، وحين يرى الولد ولده يُعذَّب ويود أن يعفيه فقدم هنا (الوالد) ثم قال ﴿ ولا مولود هو جار عن والده شيئاً ﴾ (٣٧) ﴿ [فما] مقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أن يقول ولا يحصى ولد عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، ومرتق كبير بين ولد ومولود ، لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أن يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأبى الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألا يطمعوا فى أن يدفعوا شيئاً عن آثامهم الذين ماتوا على الكفر

لذلك لم يقل هنا ولد إنما مولود ، لأن المولود هو المباشر للوالد ، والمولود يقبل للنجد وإن علا فهو وده ، والحد وإن علا والده ، فإذا كانت الشفاعة لا تقبل من المولود لوأده المباشر له فهي من

باب أوّلِي لا تُقبلُ لحدٍّ ، لذلك عدل عن وك إلى مولود ، فالمسألة
كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصَفُ كلام

لكن ، متى تجرى الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا
الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى
الوالد ولده يتألم سارع إلى أن يشفع له ويدفع عنه الألم . أما الولد
فلا يدفع عن أبيه لأن ألمه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة . فالوالد
يشفع في الإيذاء والولد يشفع في الإهانة . فكل منهما مقام

ثم يقول سبحانه ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ شَيْئًا ۖ لَئِنْ كَانَ مَعَكُمْ الْغَفَارُ﴾ [لقمان: ٢٣] عرفنا أن الوعد إخبار بشيء يسر لم يأت وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشيء يؤذي لم يأت وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أن تستعد به ، وتأخذ قسماً أسبابه فهو يشجعك على العمل والسعي ابدى يُحقق لك هذا الوعد كأن تعد ولدك مثلاً بجائزة إن نجح في الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ، لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه

إذن الوعد حق ، وكذلك الوعيد حو ، لكنه خصُّ الوعد لأنه
يجلب للنفوس ما تحب ، مَّا الوعيد فقد يجمعها من شهوة تحبها ،
ووضحنا هذه المسألة بأن الحق - سبحانه وتعالى - يتكلم في النعم
أن منها نعم إيجاب ، ونعم سلب

تتضمن (٣٥) فأي آلاء ربكما تكذبان (٣٦) ﴿

إِذَا كَانَتْ لَجْنَةٌ وَمَا فِيهَا نِعْمًا تَسْتَخِرُ الشُّكْرَ وَيَمْتَنُّ إِلَهُ بِهَا عَلَيْنَا . فَأَيُّ نِعْمَةٍ عَلَى الشُّوَاطِئِ وَالذَّارِ وَالْعَذَابِ ؟ قَالُوا هِيَ نِعْمَةٌ مِنْ حَيْثُ هِيَ تَحْدِيرٌ وَتَصْوِيفٌ مِنَ الْعَذَابِ لِيَتَنَبَّهَ عَنْ أَسْبَابِهِ . وَيُحِبُّ إِلَهُ

قيل أن تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غرة ، وببها إلى
الخطر قيل أن تقع فيه

وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا لَّأَنَّهُ وَعَدَ مِمَّنْ يَمْلِكُ الْوَفَاءَ مَا وَعَدَ وَإِلَّا مَا
وَعَدَ بِهِ ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء فوعده
لا يُوصف بأنه حق ، لذلك قال سبحانه في سورة الكهف ﴿وَلَا
تَقُولْ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَبْدًا﴾ (٦٣) ﴿لَأَنَّهُ أَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ..﴾ (٦٤) [الكهف]

فانت وإن كنت صادقاً فيما وعدت به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى
أن تقي بما وعدت ، فإن بقيت فقد تنغير الأسباب فتحول بينك وبين
الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب

س ثاب ودع الأمر لمن يملك كل أسباب إنقاذ الوعد وقُلْ
سأفعل كذا إن شاء الله حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول
أردت أن الله لم يشأ

وكأثر رنا - عز وجل يريد أن يدارى كذبت ويستتره علينا ،
يريد ألا يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترب المشيئة له
سبحانه . وكأثر قدر الله في الأشياء صبابة لعبيده من عبيده لذلك
كثيراً ما يقول حكيماً لا نستطيع الوفاء هذا قدر الله ، وماذا أفعل
أنا ، والأمر لا يقضى في الأرض حتى يقضى في السماء

وما دمت قد آمنت بقدر الله والحكمة منه ، فلا تعضب مني ، إن لم
أف لك وأنت كذلك ، والعامل يعلم تماماً حين يقضى أمراً لأحد أن
قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله
للأمر ، فكان الله كرمه بأن يقضى الأمر على يديه ، لذلك قلنا إن
الطبيب المؤمن يقول جاء الشفاء معي لا بي وأن الطبيب يعالج
والله يشفي إن لا يوصف الوعد بأنه حق إلا وعد الله عز وجل

وما دام وعد الله حقاً عليك أن تفعل ما وعدك عليه بالخير
وتحفظ ما توعدك عليه بشرّ ، والأ تفرك الحياة ﴿لَا تُعْرِكُمْ الْحَيَاةُ
لَدُنْيَا﴾ [نجم] أي تزيينها وزخرفها ، فهي سراب حادع
ليس وراءه شيء ، واقرأ قول الله تعالى ﴿أَلْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
وَأَنكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥]

والحق سبحانه يصرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُفَرِّمَ بها ، وإنما
نحتاط في الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هي
محال للعمل للأخرة ومصمار للتسابق إليها

يقول تعالى في هد المثل ﴿وَاصْرَبْ لَهُم مَّثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
﴿٤٥﴾ [الكهف] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبغ في تحقيرها من
أنها دنيا ﴿كَذَٰبُ أُنثَىٰ مِنْ النَّسَاءِ فَخَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا
تُدْرِوهُ الرَّيَاحُ﴾ [٤٥] [الكهف] نعم ، كذلك الدنيا تزدهي ، لكن سرعان
ما تزول ، تبدأ بقاءً مقنعاً مغرياً ، وتنتهي انتهاءً مؤسفاً

وقوله تعالى ﴿وَلَا يُعْرِكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾ [نجم] والغرور
بالفتح الذي يعرل في شيء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر
الجاهلي وهو يحاطب محبوبته فيقول

فَنَطِمُ مَهْلًا نَعْصَ هَذَا التَّدَلُّ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ صَرْمِي^(١) فَأَجْمَلِي
أَغْرُكَ صَمِي أَنْ حَكَّ قَاتَلِي وَأَنْتَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلُ
فمَعْنَى عَرُكَ أَدْخَلَ فِيكَ الْغُرُورَ ، بحيث تُقْبَلُ عَلَى الْأَشْيَاءِ .

(١) هو الشاعر امرؤ القيس ، والبيت من معلقته التي أولها

نَفَا نَكَّ مَرُّ دَكْرِي حَبِيبٍ وَمَرُورٍ بِسَقَطِ الْوَلَى بَيْنَ الدُّخُولِ وَخُورِ

(٢) الصرغم القطع سادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع مسويماً يسمى الهجر وقطع صفة

السودة [القاموس القويم ١/ ٢٧٥]

وتتصرف فيها هي كنف هذا الغرور وعلى ضوئه

والغُرُور بالفتح هو الشيطان وله هي غروره طرق والوان
فغرور للطائعين وغرور للعاصين لكل منهما مدخل خاص فيعرّ
العاصي بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا
أنوه تعهر الله له لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى ﴿بِأَيِّهَا
الْإِنْسَانُ مِ غُرُوكَ بَرِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي حَقَّقْتَ لِسَوَّكَ فَعَدْلَكَ (٧)﴾
[الانصار] فتجابه هو عزّتي كرمه لأنه خلقني وسوّاني هي أحسن
صورة وعاملني بكرم وبلّني ، حتى أصابني الغرور بذلك ، ولو أنه
عر وجن قسا عليّ ما اغرورني

وكان لأحدهم دين خمسة صاغ فضة عند آخر فردّها إليه . فلما
نظر فيها الدائن وجدّها ممسوحة فأنعدها إليه ، فقال المدين والله
لو كنت كريماً لقبلتها دون أن تنظر فيها

فأخذ الراجع هذه الواقعة وأراد أن يعظ بها الدائن ، وكان يصلي
صلاة لا خشوع فيها فقال له إن صلاتك هذه لا تعجّبتني ، فهي تقرّ
لا خشوع فيها أرأيت لو أن لك ديناً فأعطاك صاحب الدين بقرباً
ممسوحة قدّمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل والله لو كنت كريماً أفسها
ولا أردّها

ثم يقول الحق سبحانه محتثاً سورة لقمان

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ
الْعَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

بعد أن حذرنا ربنا - تبارك وتعالى - من الغرور في الحياة الدنيا
يُذَكِّرنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وقيامة وساعة ﴿يُنذِرُ اللَّهَ عَنْهُ
عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ﴾ [٣٩] [الغفار] والساعة لا تعنى القيامة فحسب إنما
لكل منا ساعته ، لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته

نصارى ٥ لأنه انقطع عمله ، ولا يمكنه نداد ما فاته من الإيمان أو
العمل الصالح ، فكأن قيامته قامت بموته

وقلنا إن عمر الدنيا بالنسبة لك هو مقدار عمرك فيها ، وإن كان
عمر الدنيا على الحقيقة من لدن آدم - عليه السلام - إلى قيام
الساعة ، لكن ماذا استفدت أنت من عمر غيرك ؟

إن لا ينبغي أن تقول إن الدنيا طويلة ، لأن عمرك فيها
قصير ثم إن لا تعلمه ، ولا تستطيع أن تتحكم فيه ، وكما أنهم الله
الساعة أبهم الأجل لأن في إيهامه أنفع الدين فلما أبهم الله الأجل
جعل النفس الشريرة تتربص في كل لحظة ، فكل لحظة تمر عليك يمكن
أن يأتبك فيها الموت

وهكذا أشاع الموت في كل الزمر ، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن
يتنبه الإنسان ويحشى أن يموت وهو على معصية ، فالإيهام هنا هو
عين الدين

وقلنا إن الذين ماتوا من لدن آدم عليه السلام يبعثون في
قبورهم طوال هذه المدة فإذا ما قامت القيامة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ
يَلْسُوا إِلَّا عَنَسِيَّةً أَوْ سَهَابًا﴾ [٤٠] [البارعات] لماذا ؟ قالوا لأن قياس
الزمن إنما يتأتى بالأحداث ، فحيث لا توجد أحداث لا يوجد زمن

ومثلنا لذلك بأهل الكهف الذين مكثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين
وإربابوا تسعاً ومع ذلك لما سأل بعضهم بعضاً ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبْنَا

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . ﴿١٩﴾ [الكهف]

لماذا ، لأن النوم يخلو من لأحداث ، فلا يشعر النائم فيه بالمرس كما أنهم لما رأى بعضهم بعضاً بعد هذه الفترة رآه على حالته التي بام عليها لم يتأثر بمرور هذه المدة ، ولم تتغير هيئته فأقصى ما يمكن تصوُّره أن يقول لبثنا يوماً أو بعض يوم

وكذلك الحال في قصة العُمرير الذي قال الله عزَّ ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿٢٠﴾ [البقرة] لأن هذه هي أطلول مدة يمكن أن ينامها الإنسان

ثم أخبره ربه ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢١﴾ [البقرة] ويريد الحق سبحانه أن يُدَلِّل على صدق الرجل في قوله يوماً أو بعض يوم ، وعلى صدقه تعالى في قوله مائة عام ، فيقول سبحانه ﴿وَنَظَرُ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ . ﴿٢٢﴾ [البقرة] أي لم يتغير

وهذا دليل على صدقه في يوم أو بعض يوم ﴿وَنَظَرُ إِلَى حِمَارِكَ .. ﴿٢٣﴾ [البقرة]

وهذا دليل على صدق الحق - تبارك وتعالى - في قوله ﴿مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢٤﴾ [البقرة] فكلا القولين صدق ، لأن الله تعالى هو القابض الباسط ، يقبض الزمن في حق قوم ، ويبسطه في حق آخرين

وهذه الآية جمعت خمسة أمور استأثر الله تعالى بعلمها ﴿إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِنَفْسٍ الْمَنَّةَ وَيَرْبِّطُ الْعَيْثُ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ إِلَّا وَعَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٢٥﴾ [الأنعام]

فهل هذه هي كل الغيبيات في الكون ؟ نقول هي انكون غيبيات

كثيرة لا نعرفها ، فلا نُدْرِك هذه الخمس هي المسنون عنها ، وحاء
اجواب على قدر السؤال ، بالله لو هبَّت الريح ، وحملت معها بعض
ارمال أنعرف أين هبت هذه الذرات ، وفي أي ناحية ، أنعرف
ورق الشجر كم تساقط منها ٥

هذه كلها غيبيات لا يعلمها أيضاً إلا الله ، أما نحن فلا نعلم حتى
عدد النعم التي أنعم الله بها علينا ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (٣١)
[إبراهيم]

بذن فهذه نماذج لما استأثر الله بعلمه ، لأن الله تعالى قال
﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا
نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧٧) [لقمان]

فله تعالى في كونه أسرار لا تُحصى ، أجل الله ميلادها ، لنعلم
أنه في كل يوم يحل ما عند الله ، وكل يوم يطلع علينا العلماء
والباحثون بحديث من أسرار الكون - هذا ونحن لا نزال في الدنيا .
فما بالناس في الآخرة ، وفي الجنة إن شاء الله ٥

وقد أخبر النبي ﷺ عنها فقال : « فيها ما لا عين رأت ولا أدب
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١)

والإنسان يكتسب المعلومات ، إما برؤية العين ، أو بسماع الأذن ،
ومعلوم أن رقعة السمع أوسع من البصر ، لأنك لا ترى إلا ما تراه
عيال ، لكنك تسمع لمرائي الآخرين ، ثم أنت تسمع وتري موجوداً ،

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادي
الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أدب سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . مصدق ذلك في
كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ عَيْنٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْتَبَرُ بِهَا كَانُوا يَحْمِلُونَ ﴾ (١٧) [المائدة]
أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) ، وحمد في مسنده (٤٦٦/٢) . ورواه ترمذي في
الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبي هريرة

لكن هناك ما لا يحظر على قلب بشر يعنى أشياء عجيبة لم تطرأ على
بشر أحد ، وفى ذلك يقول سبحانه ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَاءَ بِهَا كَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢١) [السجدة]

وقد ورد فى أسباب نزول مفاتيح الغيب هذه أن رجلاً من
محارب اسمه لحارث بن عمرو بن حارثة أنى رسول الله ﷺ
وبال يا رسول الله أريد أن أعرف متى الساعة ، وقد ندرت
بذرى ، وانتظر المطر فمضى يدرى ، وامراتى حامل ، وأرب أن تلد
ذكراً ، وقد أعددت لليوم عُدَّتَهُ ، فعاداً أعد لعد ، وقد عرفت موقع
حياتى فكيف أعرف موقع مماتى ؟

هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عبد الله تعالى
﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرُّيُوحَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ عَدَا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . ﴾ (٢٤) [المان]

وعجيب أن ترى من خلق الله من يحاول أن يستدرك على مقولة
الله فى هذه العيبيات الخمس ، كالذين حاولوا أن يتنبأوا بموعد قيام
الساعة وقد كذبوا جميعاً ولو قدر لهم الإيعان بالله والعلم بما
قله الله فى قيام الساعة ما تجرأ منهم أحد على هذه المسألة

وقبلاً إن الحق سبحانه أخفى موعد الساعة لئلا يستشعرها
دشماً ، وفى كل وقت ، حتى الذين لا يؤمنون بها ويشككون فيها
وإذا ما استشعرها الناس عملوا لها واستعدوا لأموالها ، كما أحمى
الله عن الإنسائ ساعة موته ومكان أحله ، وجعل الموت يدور على

(١) قال اللمحذى فى أسباب النزول (ص ١١٨) : رأت أمة : زاد الله عنده علم الساعة
(٢) [القصص] فى الحديث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصه بن أهل البادية التى
المنى ﷺ فسأله عن الساعة ووعدها وقال : من أرحمنا حديثه فمضى يدرى ومركت
وامراتى حُملتى فماداً تلد ؟ وقد عمدت أبى وندب نساء أرضى أموت ؟ ما نزل الله تعالى بعد
الآية

العباد على غير قاعدة

فمنهم مَنْ يموت بعد دقائق من مولده ، ومنهم مَنْ يعمر مئات
السنين كما أنه سبحانه لم يجعل للموت مقدمات من مرض
أو غيره ، فكم من مريض يُعافى ، وصحيح يموت ، كم يقولون
كيف مريضكم ؟ قال سيئ مات ، وصدق انقلب

فلا تحسب السُّقْمُ كأس الممات وإنْ كان سَقْمًا شَدِيدَ الْأَثَرِ
فَرُبَّ عَلِيلٍ تَرَاهُ اسْتَفَاقَ وَرُبَّ سَلِيمٍ تَرَاهُ اسْتَقَرَّ
كذلك الموت لا يرتبط بالسُّقْمِ

كم بُودِرَ غداة كَعَابٍ وَغُودِرَتْ أُمُّهَا الْعَجُوزُ
يجوزُ أَنْ تَهْلِيءَ الْمَيَايَا وَالْحَدُّ فِي الدَّهْرِ لَا يَحُورُ

إِذْ أَحْفَى اللَّهُ الْقِيَامَةَ وَخَفَى الْمَوْتَ ، لِيُطْلَ عَلَى ذِكْرٍ لَهُ نَتَوَقَّعُهُ
فِي كُلِّ لَحْظَةٍ فَنَعْمَلُ لَهُ ، وَلِنَتَوَقَّعَ دَائِمًا أَنَّنَا سَنَلْقَى اللَّهَ ، فنعد للأمر
عُدَّةً ، لَأَنَّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَدِمَتْ قِيَامَتُهُ ، لَأَنَّهُ انْقَطَعَ عَصَمُهُ ، فَفِي إِبْهَامِ
موعد القيامة وساعة الموت عَيْنُ الْيَسْرِ لِكُلِّ مَعْمَا ، فالإبهام أشاعه
فِي كُلِّ وَقْتٍ

وقوله ﴿ وَيُزَلُّ الْعَيْتُ ﴾ (٢٤) [لقمان] وهذا أيضاً ، ومع تقسُّمِ
العلوم حاول البعض انتبهُ به بناءً على حسابات دقيقة لسرعة الرياح
ودرجة الحرارة إلخ ، وربما صحَّتْ حساباتهم ، بكن فاتهم أنَّهُ
أفدراً في الكون تحدث ولا تدخل في حساباتهم ، فكثيراً ما تُفاجأ
بتغيُّرِ درجة الحرارة أو اتجاه الريح ، فتقلب كل حساباتنا

لذلك من عجائب الخلق أنك كلما امتدحت من لشمس وهي مصدر
أحرارة تقلُّ درجة الحرارة ، وكسما انتعشت عنها زادت درجة

الحرارة ، إذن المسألة ليست روتينية ، إنما هي قدرة لله سبحانه ،
والله يجمع لك الأسباب ليثبت لك صلاحة قدرته التي تقول للشيء كُنْ
فيكون

السنا نُؤمر في الحج بأن نُقبل حجراً ونرمي آخر ، وكل منهما
إيمان وطاعة هذا يُدسى وهذا يُداس ، هذا يُقبل وهذا يُقتبل ،
لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد منا الالتزام بأمره ، وانصياع أنفس
المؤمنة للرب الذي أحيا ، والرب الذي كُلّف

وقوله تعالى ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ (٣٤) [لقد] هذه أيضاً
من معجزات العيب ، وستظل كذلك مهما تقدمت العلوم ومهما ادّعى
الخلق أنهم يعلمون ما في الأرحام ، والذي أحدث إشكالاً في هذه
المسألة الآن الأجهزة الحديثة التي استطاعوا بها رؤية الجين ،
وتحديد نوعه أذكر أم أنثى ، فهذه الخطوة العلمية أحدثت بلبلة عند
بعض الناس فتوهموا أن الأطباء يعلمون ما في الأرحام ، وبناءً عليه
ظنوا أن هذه المسألة لم تعد من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بها

وقول أستم بسلطان العلم علمتم ما في الأرحام بعد أن تكون
ووصحت معالمه ، وكتملت خلقت أما الحاق - عر وجل - فاعلم
ما في الأرحام قبل أن تحمل الأم به ، ألم يُبشّر الله تعالى نبيه زكريا
عليه السلام بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمه ؟ ونحن لا نعلم هذا
العيب بذرائنا إنما بما علّمنا الله ، فالطبيب الذي يُحبرك بنوع الجين
لا يعلم الغيب ، إنما معلّم عيب

والله - تبارك وتعالى - يكشف لبعض الخلق بعض الغيبات ،

(١) قال ابن منظور في : معاني العرب - مادة بوس [: البؤس التقبيل ، عارسي مغرب
وقد بوسة بيوسه ،

ومن ذلك ما كان من الصديق أبي بكر رضي الله عنه حين أوصى ابنه عائشة - رضي الله عنها - قبل أن يموت وقال لها يا عائشة إنما هما أخوات وأختاك فتعجبت عائشة حيث لم يكن لها من الإحوة سوى محمد وعبد الرحمن ، ومن الأخوات أسماء ، لكن كان الصديق في هذا الوقت متزوجاً من بنت خارجه . وكامت حاملاً وبعد موته ولدت له بنتاً^(١) فهل نقول إن الصديق كان يعلم لغيب ؟ لا ، إنما أعلم من الله . إذن الممنوع هنا العلم الدائى أن تعلم بدائك

ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين ، إما من صورة الأشعة أو لفحاصيل التي يجريها على عينة من الجنين ، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب ، و (لسطارة) أن تجس المرأة الحامل أمامك وتقول لها أنت إن شاء الله ستلدن كذا أو كذا ، وهذا لا يحدث أبداً

ثم يقول سبحانه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا .. (٣٤)﴾ [لقار] الإنسان يعمل ، إما لئلايه ، وإما لأخراه فالمعنى إما تكسب من الخير المادي لئلايك للعيش ، وإن كس من مسالة التكليف ، فالنفس إما تعم الخير أو الشر ، الحسنه أو السيئة والإنسان في حقيقته عرضة للتغير

لذلك يقال في الأثر « يا ابن آدم ، لا تسألني عن رزق غد ، كما لم أطلبك بعمل غد »

وقوله تعالى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ يَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقار] وهذه المسألة حدث فيها إشكال ، لأن رسول الله ﷺ أخبر الأوصار

(١) هي أم كلثوم بنت أبي بكر لها حبيبة بنت خارجه بن زيد وكانت حاملاً بها عند

وفاة أبي بكر وولدت بعده [ابن سعد في السبقات ٣/ ١٥٥]

أنه سيموت بالمدينة حينما وزع الغنائم على الناس جميعاً ما عدا الأنصار ، لذلك غضبوا ووجدوا في أنفسهم شيئاً ، لأن رسول الله حرمهم ، لكن سيدنا رسول الله جمعهم وتلطف معهم في الحديث واعتترف بهم بالفضل فقال : والله لو قُلتُم أني حُتُّ مطروءاً فأوبتموني فأنتم صادقون وفقيراً فأعزيتموني فأنتم صادقون لكن ألا تحبون أن يرجع الناس بالنشأة والبيعير ، وترجعون أنتم برسول الله ، وقال في مناسبة أخرى : « المحبب محياكم ، والممات مماتكم »^(١)

إذن نرى رسول الله أنه سيموت بالمدينة ، والله يقول ﴿ وما تدرى نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدرى نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت ﴾ . (٥٤) ﴿ [بقدر] يقول الأرض منها عام وحصص ، فأرض المدينة شيء عام ، نعم سيموت بالمدينة ، لكن في أي بقعة منها ، وفي أي حجرة من حجرات روحانه ، إذن إذا علمت الأرض العامة فإن الأرض

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٤٢٢) عن عبد الله بن ربيعة عن عامر قال : لما أمد الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤنفة قلوبهم ولم يُعَد الأنصار شيئاً فكانهم وجدوا به لم يُصَبِّهم ما أصاب الناس قسطنطهم فقال يا معشر الأنصار ألم نجعلكم طليلاً فهاتكم الله بي ، وكنتم مطرئين فالفكم الله بي وعالاه ما عاتكم الله بي كذب قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمي قال ما يمنعكم أن تهيبوا رسول الله ﷺ قال كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمي قال لو شئتم قستم جنتكم كذا وكذا ألا ترخصون أن يدفع الناس بالنشأة والبيعير ، وتهيبون بانبئ ﷺ إلى رجالكم ، ألا الهجرة نكت امرأة من الأنصار ، ولو سلك الناس نادياً وشعباً لمسكت وادى الأنصار وشعباً الأنصار شعار ، والناس دثار ،

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨) رواية (٨٦) كتاب الجهاد والسير أنه قال للأنصار في حديث هون : « أنا محمد عبد الله ورسوله ما جرت إني الله وإليك ما يحيا محياكم وما يمات مماتكم ،



الخاصة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد

يُروى أن أبا جعفر المصنوع الخليفة العباسي كان يحب اسحابة
ويحرص عليها ، وبحاف الموت ، وكان يستشير في ذلك المسحجين
والعراقين ، فأراد الله أن يقطع عليه هذه المسألة ، فأراه في المنام أن
بدأ تخرج من البحر وتمدد إليه ، وهي مفرحة الأصابع هكذا ، فأمر
بإحصار من يعبر به هذه الرؤيا فكان المتفائل منهم ، أو الذي يبعي
بغافه يقول به هي خمس سنوات وأخرون قالوا خمسة أشهر ، أو
خمسة أيام أو دقائق

إلى أن انتهى الأمر عند أبي حنيفة رضى الله عنه فقال به إنه
يريد الله أن يقول لك هي خمسة لا يعلمها إلا الله ، وهي ﴿إِنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْعَمَلُ بِهِمْ مَا هِيَ لِأَرْحَامٍ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا
تَكْسِبُ عَدَا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ..﴾ (٣٢) [القمار]

وما دامت هذه المسائل كلها مجهولة لا يعلمها أحد ، فمن
المناسب أن يكرر ختام الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) [النمل]

إس الحق سبحانه يريد أن يُريح خلقه من الشكر في هذه
المسائل الخمس وكل ما يجب أن يعلمه أن المقادير تحرى بأمر الله
لحكمة أرادها الله وأنها إني حل مسمى وأن العلم بها لا يُقدم
ولا يُؤخر ، بالله مد يحدث لو علمت ميعاد موتك ؟ لا شيء أكثر من
أنك ستعيش نكداً حريباً طوال الوقت لا تجد للحياة لذة

لذلك أحضى الله عنا هذه المسألة لتقبل على الله بثقتنا في مجريات
قدر الله فينا

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر

هذه من الحروف المقطعة المبدية على الوقف ، على خلاف آيات القرآن التي بُدِيتْ كَمَا نَلَّنَا على الوصل من أول القرآن إلى آخره . من على وصل آخره بأوله لذلك ينبغي أن تقراء القرآن على الوصل ما دام نفسك يساعذك ، ولا تقف إلا إذا انقطع النفس ، فتقف وتُسْكِن الحرف الذي وقعت عليه

وقد قال علماء القراءات وليس في القرآن من وقف وجب ، لأنه

(١) سورة السجدة هي السورة رقم (٣٢) في ترتيب المصحف الشريف ، وهي سورة مكية ، لا ثلاثيات ثلاث بركات بالمدينة ، وهي قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَانُوا مِنْكُمْ كَانُوا فَلَسُوا لَا يُسْجَرُونَ﴾
أب الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى كلما كانوا يقاتلون (١٩) وأما الذين فسقوا فمأواهم النار (٢٠) [السجدة] عدد آياتها ٣ آية . بولت بعد سورة المؤمنين وقين سورة الطور

بُنِيَ عَلَى الْوَصْلِ ، فَلَا تَقِفْ إِلَّا إِذَا خَافَ نَفْسُكَ ، لِذَلِكَ جَعَلُوا فِي
الْقُرْآنِ مَوَاصِعَ لِلْوُقُوفِ ، وَتُرْسِمَ فِي الْمَصْحَفِ (صِلَى ، قَلَى ، ج) ،
لَكِنَّ الْأَصْلَ الْوَصْلَ

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْأَوْصَحَ مِثَالٌ عَلَى الْوَصْلِ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ كَلِمَةَ النَّاسِ فِي
آخِرِ سُورَةِ النَّاسِ ، وَهِيَ آخِرُ الْقُرْآنِ لَمْ تَأْتِ سَاكِنَةً ، إِنَّمَا مَنصَرَكَةً
بِالْكَسْرِ (النَّاسِ) ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ حَلْكَ فِي النَّاسِ فَحَلَّكَ تَرْحَلُ
إِلَى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ ، فَلَا تَقْطَعُ الصَّلَاةَ بَيْنَ
آخِرِ الْقُرْآنِ وَأَوَّلِهِ ، وَسَمَّيْنَا قَارِئَ الْقُرْآنِ لِدَلَالَةِ « الْحَالِ الْمَرْتَحِلِ » .

وَهَذَا تَأْتِي ﴿ أَلَمْ ﴾ [السجدة] بَعْدَ مَفَاتِحِ الْعُجْبِ الْخَمْسَةِ الَّتِي
سَبَقَتْ فِي آخِرِ سُورَةِ الْقَمَامِ ، وَكَأَنَّهَا مُلْحَقَةٌ بِهَا ، فَهِيَ سِرٌّ اسْتَأْثَرَ
اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ وَنَحْنُ فِي تَفْسِيرِنَا لَهَا بِحُومٍ حَوْلَهَا ، لِذَلِكَ كُلُّ مَنْ
فَسَّرَ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ فِي مَبَادِيَةِ السُّورِ لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَعْنَاهُ ، لِأَنَّ تَفْسِيرَاتِنَا كُلَّهَا اجْتِهَادَاتٌ تَحُومُ حَوْلَ الْمَعْنَى الْمُرَادِ ،
لِذَلِكَ نَحْنُ لَا نَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي كُلِّ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، إِنَّمَا فِي هَذِهِ
الْآيَاتِ وَالْحُرُوفِ بِالذَّاتِ

وَكَيْفَ بَنَّا حِينَ يَجْمَعُنَا اللَّهُ تَعَالَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ
مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ، كَيْفَ بَنَّا حِينَ نَسْمَعُ هَذَا الْقُرْآنَ مُنَاشِرَةً مِنَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ؟ لَا شَكَّ أَنَّنَا نَسْمَعُ كَلَامًا كَثِيرًا غَيْرَ الَّذِي سَمِعْنَاهُ ، وَمَعْنَاهُ
كَثِيرَةٌ غَيْرَ الَّتِي تَوْصَفُنَا إِلَيْهَا فِي اجْتِهَادَاتِنَا وَعِنْدَهَا نَسْتَعْرِفُ مَرَادَاتِ
اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْحُرُوفِ ، وَنَسْتَعْرِفُ كَمْ قَصُرَتْ عَقُولُنَا عَنْ فَهْمِهَا
وَكَمْ كُنَّا أَعْيَاءَ فِي فَهْمِنَا لِمَرَادَاتِ رَبِّنَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ ﴾ [السجدة] عَادَةً يَأْتِي بَعْدَ هَذِهِ الْحُرُوفِ
بِالْمُقَطَّعَةِ أَمَّا يَحْصُرُ الْكِتَابَ الْعَرِيزُ

وهذا يقول سبحانه

﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ لَعَالَمِينَ﴾

مادة (نزل) وردت في القرآن بلفظ نزل ، ورسّل ، وأنزل
أنزل تدل على التعدية يعنى أن الله تعالى عدّى القرآن من اللوح
المحفوظ ، إلى أن يناسر مهمته في السماء لدنيا وهذا الإنزال من
الله تعالى

أما نزل فالتسزيل مهمه الملائكة لذلك يقول تعالى في الإنزال
﴿إِنَّا أُنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [القدر] أى من اللوح المحفوظ إلى
السماء الدنيا ، ثم تنزل به الملائكة منجّماً حسب الاحداث وفى ذلك
يقول تعالى ﴿يُرِلْ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٢)﴾ [الشعراء]

ويقول سبحانه ﴿وَبِالْحَقِّ أُنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٤)﴾ [الإسراء]
فقد كان محفوظاً عندما في اللوح المحفوظ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ
(٦٩)﴾ [الواقعة] ثم نزل به الروح الأمين جبريل

وما دام ﴿نزل به .. (٩٣)﴾ [الشعراء] فهذا يعنى أن القرآن نزل
معه فقول ﴿يُرِلْ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (٢٣)﴾ [الشعراء] تسوى تماماً
﴿وَبِالْحَقِّ أُنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٤)﴾ [الإسراء] ، فالنزل يُنسب مرة
إلى القرآن ، ومرة إلى الروح الأمين

ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلب أنه جاء
من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كذلك تتلقّى من جهة أعلى منك
وارفع ، وما دُمّت تتلقى من جهة أعلى منك هَيَّأَكَ أَنْ يَصْرَبَكَ العكز
لناحية أخرى

لذلك يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ في أمر التكليف ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ۖ﴾ (١٠) [الانعام] فبحن نعمهم أن تعالوا بمعنى تعال أي أقبل ، لكنها تحمل مع هذا المعنى معنى العلو أقبل دانياً إلى متعال تعال من أوضاعك الأرضية إلى علو ربك في الملأ الأعلى

تعال بمعنى لا تأخذ من نفسك ولا من مسار لك ، إنما ارتفع وحدّ من الأعلى ، ارتفع عن مستوى الأرض وعقولهم وأفكارهم وحدّ من الذي شرّع لك ، لأنه لا بدّ أن تكون عنده أمور ومواصفات آمن لك وأسلم لأن علمه أوسع فلا يُشرّع لك اليوم ما ينقصه غداً

ثم إن شرعه لك يستوعب كل نواحي حياتك وأقضيته ، وهذه المواصفات لا تكون إلا في الحق - بشارك وتعالى - وهو سبحانه أرحم بك من الوالدة بولدها فلا يُشرّع لك إلا ما يُصحك ثم هو سبحانه ليس له عرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع ، كما نرى في تشريعات المنشر للبشر

وقد رأينا الرأسماليين حينما شرّعوا قانوناً جاء يخدمهم ، وليكونوا هم أول المنتفعين به ، لذلك سرعان ما نهاوى ، لأن شرط المشرّع الحق ألا ينتفع هو بما يُشرّع ، وعليه فلا مشرّع حق ، لا الله

لذلك رأيت حتى غير المؤمنين بالله من الكافرين أو المشركين بعد أن تعصّم الأحداث وتحقق قوانينهم في حلّ مشكلاتهم يلجئون إلى حلول لها من قوانين الإسلام

ولم سكّنت في سان فرانسيسكو عن قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة) وفي موضع آخر ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) [الصف]

قالوا لنا هذا يعني أن الإسلام ظهر على الأرض منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فما بالنا نرى الآن أكثر أهل الأرض من غير المسلمين ؟

فقلت في الرد عليهم والله لو فهمتم أسرار اللغة وتاملتم هذه الآية لوجدتم أن الرد فيها مواجدة تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ لِكَافِرُونَ﴾ (٨) ﴿الصف﴾ والآخرى تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) [التوبة]

إذن فالكفر والشرك موحودان مع وجود الإسلام وليس معنى الظهور هنا أن يطمس هؤلاء ، أو أن يُقضى عليهم قضاء مبرماً ، إنما يظهر عليهم بحيث يُضطرون إليه ، ويلجئون إلى أحكامه ، رغم عدم إيمانهم به ، وهذا أبلغ في الظهور ، أن تأخذ بما في القرآن وأنت غير مؤمن به ، لأنك لا تجد حلاً لقضاياك إلا فيه

وأوضح مثال على ذلك بهم هاجموا شرع الله في مسألة الطلاق وفي مسألة تعدد الزوجات ، وابهموا الإسلام بالوحشية ، إلج ثم تضطروهم أقصى الحياة ومشاكلها أن يشرعوا الطلاق ، وأن يأخذوا به على مرأى ومسمع من افتيكاس ، فمذا جرى ؟ فقول لهم هل أسلمتم وامنتم ؟ لا ، إنما لجأت إليه ، لأن فيه الحل لهذه المشاكل التي أحاطت بنا

فهذه إذن شهادة العدو لدين الله وهذا هو أعظم الإظهار للإسلام على هذه الأديان ، لأنهم لو أسلموا لقالوا عنهم أخذوا بهذا الشرع لأنهم أسلموا ، إنما هاجموا يأخذون به وهم به كافرون مشركون

ومعنى ﴿لَا رِبَّ لَهُ﴾ (٢) [السجدة] أي لا شك فيه وقلنا إن لنسب في القضايا أي نسبة شيء لشيء ، ما مجرم بها أو غير مجرم بها ، فلو قلنا الأرض كروية هذه قضية جرم بها

الآن ، ونستطيع التدايل على صحتها دليلاً حسيّاً ، بهذه قضية واقعة ومحروم بصحتها ، وعليها دليل من الكون

فإن كانت القضية عرّ محروم بها ، فهي بين ثلاث حالات إما فيها شكّ أو ظنّ أو وهم الشك أن تتساوى الكفتان الإثبات والنفي ، والظن أن تغلب جانب الإثبات فلا تجزم به إنما نرجّحه فإن غلبت الأخرى وحصلتها هي الرجحة ، فهذا توهم

وهنا قال سبحانه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ۞ [السجدة] لَا شَكَّ فِيهِ ، ففي الشكّ ، وهو تساوى النفي والإثبات ، وما دام قد نفي اتساوى ، فهذا يعنى أنه أراد أن يثبت الأعلى أى أنه حق لا يرقى إليه الشك

رجلة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ۞ [السجدة] جملة اعتراضية بين ﴿ الْكِتَابِ ۚ ۞ [السجدة] وبين ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ ۞ [السجدة] وما دام أنه ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ ۞ فلا بُدّ أنه حق لا ريب فيه ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترناه بل هو الحق من ربك لتسذرقوا ما أنتمهم من بذر من قبلك لعلهم يندوك ۚ ۞

عجيب أن يقل العرب كلام الله بهذا الاتهام ، وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، وقد بلغوا في هذا شأناً عظيماً ، حتى جعلوا لكلام معارض وأسواقاً ، كما نقيم لأن المعارض لمنتجتنا ولا يُعرض في المعارض هذه إلا السلع الحيدة محرّ المحرّ ، فعلى الإسلام كان هي عكاظ ودي المجاز مصمار للقول ، ولالأداء البياسي بين الأدباء والشعراء

فمحببٌ منهم ألا يميزوا كلام الله عن كلام البشر خاصة وقد تحدّاهم وتحديّ فصاحتهم وبلاغتهم أن تأتي بآية واحدة من مثله ، ومعوم أن التحدي يكون للقوى لا للضعيف ، فتحديّ القرآن للعرب يُحسبُ لهم وهو اعتراف بمكانتهم ومكانة لغتهم ، فهو إذن - شهادة بهم ، ويكفيهم أن الله تعالى أدخلهم معه في مجال لتحدي

وبما عجزوا عن الإتيان بمثله راحوا يتهمونه ويتهمون رسول الله مرة يقولون شاعر ، ومرة ساحر ، وأخري يقولون محنون ، ومرة يقولون بل يُعلّمه ذلك أحد الأعاجم . إلح ، وهذا كله فلاس في الحجة ، فهم يريدون أن يُكذّبوا رسول الله ﷺ ، أما القرآن في حدّ ذاته ، فلا يحصى عليهم أنه كلام الله وأن البشر لا يقولون مثل هذا الكلام ، بدليل أن الوليد بن المغيرة لما سمعه قال « والله ، إن أعلاه بمثمر ، وإن أسفله لمفدق وأنه يعلو ولا يُعلى عليه »^(١)

لذلك لما لم يجدوا في القرآن مطعناً اعترفوا بأنه من عند الله ، لكن كاب اعتراضهم أن ينزل علي هذا الرجل بالذات ﴿ وقالوا لو لا نُزل هذا القرآن على رجلٍ^(٢) من القرّيتين عظيم^(٣) ﴾ [الرعد: ١٨] فكأنوا

(١) جمع من مرش إلى الوليد بن المغيرة ، فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا المرسوم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (يقصد محمداً) فاجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تتجلبوا فيكذب بعضكم بعضاً فس قائل إنه كامن وقائل مجنون وقائل إنه شاعر وقائل إنه ساحر فردّ كل أقوالهم ، ثم قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أحله لعدق وإن مره لعدة ، وما أنتم بضائين من هذا شيئاً لا عرّف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء يقول هو ساحر يهرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتكفروا عنه بذلك ، السيرة النبوية لابن هشام (٢٨٤/١) .

(٢) حنظل العظماء في تحديد الرجل العظيم المعضود فمن مكة الوليد بن المغيرة أو عتبة ابن ربيعة ومن الطائف عروة بن مسعود أو عسير بن حبل ياليل قال ابن كثير في تفسيره (١٢٧/١) « الظاهر أن مرادهم رجل كسر من أي البلدتين كان » والقرّيتين مَثْ مكة والطائف

يَنْتَظِرُونَ أَنْ يُنْزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى عَظِيمٍ مِنْ عِظَمَائِهِمْ أَوْ مَلِكٍ مِنْ أَصْوَاتٍ ،
لَكِنْ أَنْ يُنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ هَذَا الْيَقِينِ الْفَقِيرِ ، فَبِهَذَا لَا يُرْضِيهِمْ ، وَقَدْ رَدَّ
الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ..﴾ (٣٢) [الزحرف]

يعنى إذا كنا قد قسمنا بينهم أمور الدنيا وما يتفاضلون به من
عرصتها ، فهل نتروك لهم أمور الآخرة يُقسمونها على مواهم
وأمزجتهم ؟ والرسالة رحمة من الله يختص بها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ..﴾ (١٣٤) [الأنعام]

وهذا يعنى أنهم انتهوا إلى أن القرآن معجز ، وأنه من عند الله
لا غبار عليه ، والذي قراه منهم ، ويقر أنه حق قال ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ
هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ
الِيمٍ﴾ (٣٧) [الأنفال]

وهذا الكلام لا يقول به عاقل ، وقد دلَّ على عبائهم وحققهم
، وكان الأولى بهم أَنْ يَقُولُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ
فَأَقْدِمَا إِلَيْهِ

وقد رَدَّ القرآن على كل افتراءاتهم على رسول الله وفتنَّدهم
جميعاً ، وأظهر بطلانها ، لما قالوا عن رسول الله إنه محتور رَدَّ الله
عليهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا مَا يَسْتَظِرُّونَ (١) مَا أَنْتَ بِمَعْتَدٍ بِرَبِّكَ بِمُجْتَوٍ (٢) وَإِنْ
لَكَ لَأُخْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [الأنعام]

والمجنون لا يكون أبداً على خلق عظيم ، لأنه محكوم بالعريضة
لا يختار بين البدائل وانتصرفت كالحيوان ولا يبدشأ عن ذلك خلق
كريم .

أما الإنسان السَّوِيُّ فإنه يحقار بين العدائل المتعددة ، فلو عندى عليه إنسان فقد يردُّ عليه . بمثل هذا الاعتداء ، وقد يفكر فى المثلية ، وأن اعتدائه قد يزيد فيميل إلى التصامح ، واحد يكلم غيظه وآخر يربل كل أثر للعنط . ويعمى الآخر على ذلك من الله ، عملاً بقوله تعالى ﴿ لَا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور] وكان الله يشجعنا على عمل الخير .

لذلك لما سئل الحسن البصرى كيف يصاب الله منّا أن نحس إلى من أساء إلينا ؟ قال هذه مَرَاقٍ فى مجال الفصائل ، وقد أباح الله لك أن تردَّ الإساءة بمثلها ﴿ وَجَرَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [النور] لكن يترك الباب مفتوحاً أمام أريحية النفس المؤمنة ﴿ فَمَنْ عَمِلَ وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النور]

ثم إذا حسبنا هذه المسألة بمقاييس العقل ، فإن الخلق كلهم عيال الله . وهم عنده سبجته سواء ، فمأنا لو اعتدى أحد عيالك على الآخر ؟ لا شك أنك ستكون فى حاسب لمظلوم ، فماخذته فى حضنك وترعاه وتعطف عليه وكذلك الحق - تبارك وتعالى - يكون فى جانب عنده إذا ظلم . وقد قال أحدهم ألا أحسن إلى من جعل الله فى حاسى ؟

من هنا يقولون أنت لا تكسب كثيراً من الأخيار ، إنما كل كسب

(١) مراد هذه الآية من أبى بكر الصديق حين حلف أن لا يقع مسطح بن أثارة بنافعاً أبداً بعدما قال من عائشة ، فلما أبهر الله براءة عائشة رفضى الله عنها شرح الله يعطف الصديق على قريبه ونسيبه مسطح وكان ابن خالة الصديق وكان مسكيناً لا من له إلا ما ينق عليه أبو بكر وقد صوب الحد عن الزلة التى رلها من حق عائشة فدرل قوله تعالى ﴿ لَا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور] . عند ذلك قال الصديق نى والله إن محب أن تغفر لى ب ربى ، ثم رجع إلى مسطح ف كان يصبه من البقرة [تفسير ابن كثير ٢٧٦، ٢]

لك يأتي من الأسرار حين يستشرون منك وخصم إليهم ، لك يقولون فلان هذا رجل طيب ، لكن من يمشى معه لا يستفيد منه حسنة أبداً لمادا ؟ يقولون لأنه خادم للجميع ، وحمل خذه (مداساً) لمن معه ، فلا يجعل أحداً (يستفتح) منه بحسنة

وروى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه تبسم في مجلس مع أممائه ، فقالوا ما يضعك يا رسول الله ؟ فقال « رأيت ربي ، وقد أحطس بين يديه خصمير ، فقال أحدهما يا رب إن هذا ظلمني فخذ لي حقي منه ، فقال كيف أخذ لك حقلك منه ؟ قال أعطني من حسناته بقدر ما أساء إلي ، فقال ليست له حسنات ، فقال فخذ من سيئاتي واضرح عليه ، فقال أويرضيك ألا تكون لك سيئة ؟ قال إن ، يا رب كيف أقصى حقي منه ؟ قال انظر يمينك ، فنظر الرجل يمينه ، فوجد قصوراً وساتين وجناناً ، مما لا عين رأت ، ولا أدرك سمعت ، ولا حطر على قلب بشر ، فقال لمن هذه يا رب ؟ قل لمن يدفع ثمنها ، فقال وما ثمنها يا رب ؟ قال أن تأخذ بيد أحيب إلى الجنة ، معجبت من رب يصلح بين عباده »^(١)

هذا عن قلوبهم عن رسول الله ﷺ مجنون ، أما قولهم ساحر فلو أن عليها ميسور ، فإذا كان محمد ساحراً ، سحر من آمن به ، فبما لم يسحركم أنتم أيضاً ؟ فكونكم سالمين من السحر دليل على أنه ﷺ ليس ساحراً ، بل هذا كذب وافتراء على رسول الله

أما قلوبهم شاعر ، فهذا عميق منهم ، وهم أمة كلام وبلاغة .

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤ ٥٧٦) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه قال الذهبي « عماد ضعيف وشيخ لا يعرف » وكذا أخرجه ابن بكر بن أبي داود النسجستاني في « البعث والنشور » (من ٤٩ ، ٥٠) كلامه من حديث أسير بن مالك رضي الله عنه

وهم أكثر خلق الله تمييزاً للشعر من النثر ، وخير من يفرق بين الأساليب وطرق الأداء ، وقد تولى الله تعالى الرد عليهم ، فقال ﴿وَمَا عَلَّمَاهُ اشْعَرُ مَا يَنْبَغِي لَهُ . (٤٩)﴾ [يس]

وفى سورة الحاقة يقول سبحانه ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمَرُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدْكُرُونَ (٤٢)﴾ [الحاقة]

فمن خانت كل هذه الحيل ، وكذبت كل هذه الافتراءات قالوا بل له شيطان يعلمه وكانوا يقولون ذلك للشاعر البليغ الذي لا يشق له عسر في الفصاحة وحسن الأداء حتى جعلوا لهؤلاء الجن مكاناً خاصاً بهم ، فقالوا (وادي عسر) وهو مسكن هؤلاء الجن الذين يُلهمون البشر ويُعلمونهم

والشعر كلام موروثة مُفْقَى ، وله محور معروفة ، فهل القرآن على هذه الشاكلة ؟ لا ، إنما هو افتراء على رسول الله كافتراءهم عليه هنا

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣)﴾ [السجدة]

فقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ (٣)﴾ [السجدة] ثم تعنى أن لها مقابلاً يعنى أيقولون كذا ، أم يقولون افتراه ، فمد هذا المقاس ، المقابيل ﴿تُرِيْلُ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [السجدة] فالمعنى أنصديقون بأن هذا الكتاب من عند رب العالمين ، وأنه لا ريب فيه ؟ أم يقولون افتراه محمد ، فأم هنا جاءت لتقضى ما يفهم من الكلام اسابق عليها

وقوله ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ .. (٢)﴾ [السجدة] تعريف أن (بل) تأتي للاستدراك لكنها هنا ليست للاستدراك إنما لإبطال قولهم ﴿افتراه (٣)﴾ [السجدة] كما لو قلت ريد ليس عندي بل

عمرو ، فأفادت الإضراب عما قبلها ، وإثبات الحكم لما بعدهم وهم يقولون امسراه والله يقول ﴿يَلْهُو الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ..﴾ (٣) [السجدة] فكلامهم واتهامهم باطل والقرآن هو الحق من عند الله

وقلنا إن ﴿الْحَقُّ﴾ (٣) [السجدة] هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه اتعير ، لذلك فالحقائق ثابتة لا تتغير أبداً ، كيف ؟ هب أن حادثة وقعت نتج عنها مدع ومدعى عليه وشهود ، واجتمعوا جميعاً أمام القاضي وقد يحدث أن يُعير أحدهم أقواله أو يشهد بشهود شهادة زور

بكن حبرة القاضي ونزته تكشف الحقائق وتظهر كذبهم حين يضرب أقوال بعضهم ببعض ويسألهم ويحاورهم لى أن يصل إلى الحقيقة ذلك لأن الواقع شيء واحد ، ولو أنهم يصفون واقعاً لاتفقوا فيه ، ولباقه القاضي هي التي تظهر الباطل المتناقض وتبطله وتُحق وتعلب الحق الذي لا يمكن أن يتناقض

كالقاضي الذي اجتمع أمامه خصمان ، يدعى أحدهما على الآخر أنه أحد منه مالا ولم يردّه إليه فقال للمدعى عليه بر رددته إليه في مكان كذا وكذا ، فأبكر المدعى ، فقال القاضي للمدعى عليه اذهب إلى هذا المكان ، فاعل هذا المال وقع منك هناك ، وذهب الرجل وأبطأ بعض الوقت فقال للقاضي للمدعى لقد أبطأ صاحبك ، فقال أبطأ لأب المكان بعيد ، فوقع في الحقيقة التي كان يذكرها

ثم يقول سبحانه ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ ..﴾ (٢) [السجدة] ومعلوم أن سبحانه رسول الله جاء بشيراً ونذيراً لكن حصّ هنا النذير ، لأنه جاء ليصلح معتقدات فاسدة ، وإصلاح الفاسد لا بد أن يسبق ما يبشر به ، ولم يأت ذكر الإشارة هنا ، لأنهم

ما سمعوا للندارة ، وما استفادوا بها

لكن قوله تعالى ﴿ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١٣) [سجدة]
مصطدم لفظياً بقوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (١٤)
فاطر [وقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١٥) [إسراء]
وليس بين هذه الآيات تناقض لأن المعنى ما أتاهم من نذير قريب
ولا مانع من وجود نذير بعيد ، كما قال تعالى ﴿ يَأْهُلُ الْكِتَابُ قَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَمِنْ الرُّسُلِ .. ﴾ (١٦) [المائدة]

ولا ، فمن أين عرفوا أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، كما
حكى القرآن عنهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ
قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (٢٥) [نصار] وهذا أثر من آثار الرسل لسابقين ، كما
كان فيهم أدس متنعون لمبهج لدين الحق ، وانذين سماهم الله الحففاء ،
وهم انذين لم يسجدوا لصنم ، ولم يحرموا عن لفطرة السوية

وقوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢٦) [السجدة] لعل تفيد الرجاء
والرجاء من الله كأنه واقع متحقق لأن الله تعالى يحب لعباده جميعاً
أن يؤمنوا به ، ليأخذوا جميل عطائه في الآخرة كما أخذوا عطائه
في الدنيا . وهم جميعاً خلقه وصنعتهم رسوق أن ذكرنا الحديث
القدسي « . دعوني وما خلقت ، إن تآمروا إلي فإنا حسدهم ، وإن لم
يتوبوا إلي فإنا طيبهم . » (٢٧)

(١) آية المرآة في إحياء علوم الدين (٥٢/١) من قول بعض السلف ولفظه : ما من
عبد يحمي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يحسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن
ينقط عليه كسفاً . فيقول الله تعالى للأرض والسماء كُفُّا عن عسدي وامهلاد فإنكما لم
تخلقا ، وبر خلقكما لرحمتكما . وبه يترب إلى فاعرف به ، ولعله يستعمل صالحاً ما يبدى
له حساس

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قصبة من قضايا أصول الكون

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

يجبرنا الحق - تبارك وتعالى - أنه خلق السموات والارض وما
بيهما بخدمة الإنسان ، وهو المكرم الأول في هذا الكون ، وجميع
الأحبار في خدمته حيوانا ونسأنا وحمارا ، فهو سيد في هذا
الكون لكن هل أخذ هذا السيد سيادته بذاته وبفعله ؟ لا إنما أخذها
بفصل الله عليه ، فكان عليه أولاً أن يشكر من أعطاه هذه السيدة على
غيره

وهذا السيد عمره ومروره في الحياة عبور ، فعمره فيها يطول
أو يقصر يمتد إلى الموت ، في حين أن الجمادات التي تخدمه عمرها
أطول من عمره ، وهي حادمة له فكان بزاماً عليه أن يتأمل هذه
المسألة كيف يكون عمر الخادم أطول وأبقى من عمر السيد
المخدوم ؟

ذن لابد أن لي عمراً آخر أطول من هذا ، عمراً يناسب تكريم
الله لي ، ويناسب سيادتي في هذا الكون ، بهب الآخرة حيث تندثر
هذه المخلوقات التي خدمتني في الدنبا وأبى أنا ، لا أعيش مع
الأسباب ، إنما مع المسبب سبحانه ، فلا أحتاج إلى الأسباب التي
خدمتني في الدنيا ، إنما أجد كل ما أشتهيه بين يدي دون تعب ودون
سئى وهذه ارتقاءات لا تكون إلا لمن يطيع المرقى المعطى

لذلك الحق - سبحانه وتعالى - يلفتنا ويقول صحيح أنت أيها
الإنسان سيد هذا الكون وكل مخلوقاتي هي خدمتك ، لكن خلقها أكثر
من خلقك

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ كُلِّ شَيْءٍ ..﴾ (٥٧) [غافر]

لماذا ؟ لأن للناس أعماراً محددة ، مهما طالّت لا بُدَّ أَنْ يسهي إلى
أجل ، ثم إن هذه الأعمار لا تسلم لهم ، إنما تفتابها الأغيار ، فالغنى
قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والقوى قد يضعف ، أما الشمس
والقمر والنجوم والكون كله فلا يتعرض لهذه الأعيار فما رأينا
الشمس أو القمر و النجوم أصابتها علة وانتهت كاسيها الإنسان ثم
أنت لست مثلها في العظمة المستوعبة ، لأن قصارى ما فيك أنك
تخدم نفسك أو تخدم البيئة التي حولك ، أما هذه المخلوقات متخدم
الكون كله

فإذا أقر - حتى الكفار - بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض
إذن فهي دليل أول على وجود الحق تبارك وتعالى

ومسألة خلق السماوات والأرض من الأشياء التي استأثر الله
بعمها وليس لأحد أن يقول كيف خلقت ولا حتى كيف خلق
الإنسان ، لأن مسائل الخلق لم يشهدا أحد فيخبرنا بها ، لذلك يقول
تعالى ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ
مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١) [الكهف]

فسماهم الله مُضِلِّينَ والمضِلُّ هو الذي يحثج بك إلى طريق
باطل ، وبصرفك عن الحق ، وقد رأينا فعلاً هؤلاء المضلِّين وسمعنا
افتراءاتهم في مسألة خلق السماوات والأرض

إذن خلق السموات والأرض مسألة لا تُؤخذ لا ممن خلو

لذلك قص لنا ربنا - تبارك وتعالى - قصة خلق آدم ، وقص لنا قصة خلو السموات والأرض ، لكن الطوق حدث ومعل ، والفعل يحدث إلى زمن تعالج فيه الحدث ونراوله ، والإشكال هنا في قوله تعالى ﴿ في ستة أيام .. ﴾ [السجدة] ، فهل الحدث بالنسبة لله تعالى يحتاج إلى زمن ؟

الفعل من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً ، حيث يورع حزنات الفعل على حزنات الزمن ، أما في حقه تعالى فهو سبحانه يفعل بلا علاج للأمور ، بما يقول للشئ كن فيكون ، أما قوله تعالى ﴿ في ستة أيام .. ﴾ [السجدة] فقد أوصحنها بمثال ، والله المثل الأعلى

قد أنت حين تصنع الزبادي مثلاً تأتي بالحليب ، ثم تضع عليه حميرة زبادي سبق إعداده ثم تتركه في درجة حرارة معينة سبع أو ثمانى ساعات بعدد تجد الحليب قد تحول إلى زبادي ، فهل تقول إن صناعة الزبادي استغرقت مئى سبعاً أو ثمانى ساعات ، لا ، إنها استغرقت مجرد إعداد العواد اللازمة ثم أخذت هذه المواد تتفاعل بعضها ببعض ، إلى أن تحولت إلى المادة الجديدة

كذلك الحق - تبارك وتعالى - خلق السموات والأرض بأمره (كن) ، فنقاعلت هذه الأشياء مكوّنة السموات والأرض

ومسألة خلق السموات والأرض في ستة أيام عولحت في سبع سور من القرآن ، أربع منها تكلم عن خلق السموات والأرض ولم تعرض لما بينهما ، وثلاث تعرضت لخلق السموات والأرض وما بينهما ، هي لأعراف مثلاً وفي يوسف ، وهود

والحديد^(١) تعرضت الآيات لخلق السموات والأرض فقط

وفي الفرقان والسجدة رق^(٢) فتكلمت عن البهيمة ، فكان
السموات والأرض ظرف خلق أولاً ، ثم خلق المظروف في الظرف ،
وهذا هو الترتيب المنطقي أن تُعدَّ الظرف أولاً ، ثم تضع فيه
المظروف

وقوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [١] [السجدة] الله يحاطب بهذه
الآيات العرب ، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشمس
والقمر ، فكيف نقول سبحانه ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ..﴾ [٢] [السجدة] ولم
تخلق بعد لا الشمس ولا القمر ؟

نقول المعنى خلفها هي زمن يساوي ستة أيام بتقديرنا نحن
الآن ، وإلا فالיום عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، ألم يقل سبحانه
وتعالى ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٣] [الحج] أي
في الدنيا

وقال عن اليوم في الآخرة ﴿تُعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

(١) هذه الآيات الأربعة هي

﴿وَبِذِكْرِ اللَّهِ الْوَحْدَانِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [١] [الأعراف]

﴿وَبِذِكْرِ اللَّهِ الْوَحْدَانِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٢] [يونس]

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٣] [هود]

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٤] [الحديد]

(٢) أما الآيات التي أضيف فيها ما بين السموات والأرض فهي

﴿لَهُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٥] [الفرقان]

﴿وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٦] [السجدة]

﴿وَلَقَدْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٧] [ق]

(٣) عرج معرج صعد رُحلاً وارتفع | القاموس القويم ٢/ ١٣٠

كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿١٤﴾ (المعارج) فَلِلَّهِ عَالِي تَقْدِيرِ الْيَوْمِ فِي الدُّنْيَا ، وَلِلْيَوْمِ فِي الْآخِرَةِ

وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَمْ يُفْصَلْ لَنَا مَسْأَلَةُ الْخَلْقِ هَذِهِ إِلَّا فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ) هِيَ الَّتِي قُصِّتُ الْقَوْلُ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَهَذِهِ مِنْ عَوَائِدِ هَذِهِ السُّورَةِ

مَقَالَ تَعَالَى ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُوكُمْ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤) وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿ ١٥ ﴾ [فصلت] هَذِهِ سِتَّةُ أَيَّامٍ ﴿ سُبْحَانَ مَنْ سَمَّى إِلَى السَّمَاءِ وَمَنْ دَحَى عَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِهَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَاتَا أَنْتِهَا طَائِعِينَ ﴾ (١٦) فَقَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴿ ١٧ ﴾ [فصلت] وَهَكَذَا يَصْنَحُ الْمَجْمُوعُ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ

إِنْ كَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَ سِتَّةِ أَيَّامٍ فِي الْإِجْمَالِ ، وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ فِي التَّمْصِيلِ ، قَالُوا : الْأَعْدَادُ يُحْمَلُ مُجْمَلًا عَلَى مَفْصَلِهَا ، لِأَنَّ الْمَفْصَلَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُضْمَرَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ، أَمَّا الْمَجْمَلُ فَهُوَ الزَّيْلُ وَأَعَدُّ مَعَى قِرَاءَةِ الْآيَاتِ

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُوكُمْ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤) وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا . ﴿ ١٥ ﴾ [فصلت] وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ لَوْزِمِ الْأَرْضِ ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴾ (١٦) [فصلت] بَلَى إِنَّ هَذِهِ اللَّوْازِمَ تَانِعَةٌ لَهَا مَعَهَا

فَالْمَعْنَى فِي تَقْدِيرِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، فَالْبِرْمَانِ الْأَوَّلَانِ دَاخِلَانِ فِي الْأَرْبَعَةِ كَمَا لَوْ قُلْتَ سَبْعَتُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى صَبَا فِي سَاعَةٍ ، وَالْيَاسَكَنْدَرِيَّةُ فِي سَاعَتَيْنِ . السَّاعَةُ الْأُولَى مَحْصُوبَةٌ مِنْ هَاتَيْنِ السَّاعَتَيْنِ

فالحق سبحانه خلق الارض في يومين وخلق ما يلزمها في تئمة
 الاربعة الايام . والزم تئمة للزم لأن الحدث يُتِمُّ الحدث .
 المحصنة النهائية ستة ايام ، وليس هناك خلاف بين الآيات ﴿وَلَوْ كَانَ
 مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَحَّدُوا فِيهِ اَحْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٢٧) ﴿[النساء] ومن العجيب أن
 يأتي هذا التفصيل في (فُصِّلَتْ)

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْشِ ..﴾ (٢٨) ﴿[السجدة] الحق -
 تبارك وتعالى - يحاطب الخلق بما يُقَرَّبُ الاشياء إلى اذهابهم . لأن
 الملوك أو اصحاب الولاية في الارض لا يستقرون على كراسيهم إلا
 بعد أن يستتب لهم الامر

بمعنى ﴿اسْتَوَىٰ .﴾ (٢٩) ﴿[السجدة] بعد وجلس واستقر كل
 هذه المعاني تنسب الآية لكن في إطار قول الحق سبحانه وتعالى
 ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..﴾ (٣٠) ﴿[الشورى]

فكما أن الله تعالى وجوداً ليس كوجودك ، وسَمْعاً ليس كسمعك ،
 وفِعْلاً ليس كفعلك ، فكذلك له سبحانه اسوء ، لكن ليس كاستوائك
 وإذا دخلت حجرة الجلوس مثلاً عند شيخ البلد وعند العمدة والمحافظ
 ورئيس لجمهورية ستجد مستويات متباينة ، كل على حسب
 ما يداسه ، فهذا كالنشر يتفاوتون في انشيء الواحد فهل تُسَوَّى
 بيننا وبين الخالق عز وجل ؟

بالمعنى إذن ﴿ثُمَّ سَوَّىٰ عَلَى الْمَرْشِ .﴾ (٣١) ﴿[السجدة] استتب له
 امر الخلق . ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ..﴾ (٣٢) ﴿[السجدة]
 الولي من يليك ويكون قريباً منك ، وإليه تلجأ في الأحداث ، فهو
 ملجأك الاول والشفيع الذي يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك ، فالولي
 هو الذي ينصرك بنفسه ، أمّا الشفيع فهو يتوسط لك عند مَنْ

يُصْرِكُ ، فَلَيْسَ لَكَ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
لِذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِذَا مَعَكُمْ الصُّرُفُ فِي الْبَحْرِ مِنْ مَنْ تَدْعُونَ
إِلَّا إِيَّاهُ ۚ﴾ [الإسراء] ﴿٦٧﴾ فَلَا أَحَدٌ يَنْحِيكُم ، وَلَا أَحَدٌ يُشْعِفُكُمْ إِلَّا اللَّهُ
﴿فَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة]

كَانَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ يُجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى مَا لَكَ دَائِمًا ، فَلَا تَعْمَلُ عَنِ
اللَّهِ لِأَنَّكَ أَنْتَ غَيْرُ الْأَحْدَاثِ تَتَنَاطَلُكَ ، فَلَا يَسْتَقَرُّ بِكَ حَالٌ وَأَنْتَ
بَيْنَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ ، وَالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ

لِذَلِكَ تَذَكَّرْ دَائِمًا أَنَّهُ لَا وَلِيَّ وَلَا نَصِيرَ لَكَ إِلَّا اللَّهُ وَإِذَا
سَتَحْصَرُ ذَلِكَ دَائِمًا طَمَآنٌ قَلْبِكَ ، وَلَمْ لَا وَأَنْتَ تَسْتَدِ إِلَى وَلِيٍّ وَاسِيٍّ
يَهْبِطُ لَا يَجِدُكَ أَبَدًا ، وَلَا يَنْحِي عَنْكَ لَحْظَةً ، فَإِذَا حَاطَ هَذَا الشُّعُورُ
قَلْبَكَ أَقْبَلْتَ عَلَى الْأَحْدَاثِ بِجَسَارَةٍ ، وَإِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى الْحَدَثِ بِجَسَارَةٍ لَمْ
يَأْخُذْ الْحَدَثُ مِنْ قُوَّتِكَ شَيْئًا ، لِأَنَّ الَّذِي يَخَافُ الْأَحْدَاثَ يُضْعِفُ قُوَّتَهُ
لِفَاعِلَةٍ

فَمَثَلُ صَاحِبِ الْعِيَالِ الَّذِي يَخَافُ الْمَوْتَ فَيَبْرِكُهُمْ صَعَارًا لَا عَاقِلَ
لَهُمْ لَوْ رَاجَعَ نَفْسَهُ لَقَالَ لَهَا وَلَمْ الْخَوْفُ عَلَى الْعِيَالِ مِنْ بَعْدِي ، هَلْ
أَنَا خَلَقْتُهُمْ ، أَمْ لَهُمْ خَالِقٌ يَرْعَاهُمْ وَيَجْعَلُ لَهُمْ مِنَ الْمَجْتَمَعِ الْإِيمَانِي
آيَةً مُتَعَدِّدِينَ ، لَوْ قَالَ لِنَفْسِهِ ذَلِكَ مَا أَهْتَمَ لَأَمْرِهِمْ وَصَدَّقَ الَّذِي قَالَ
مَادِحًا أَنْتَ طَرُتَ بِأَيُّتِهِمْ إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ

وَقَالَ آخَرُ

« قَالَ ذُو الْأَنْبَاءِ لِيُنْبِئِي لَا أَنَا لِي »

وَمَنْ لَا ؟ وَقَدْ كَعَلَ الْإِسْلَامَ لِلْأَيْتَامِ أَنْ يَعْيشُوا فِي ظِلِّ الْمَجْتَمَعِ
الْمُسْلِمِ أَفْضَلَ مِنْ عَيْشِ مَنْ لَهُ بَ وَام

إدى فالإنسان حينما يعلم أن له سداً من ألوهية قادرة وربوبية لا تُسلمه يستقبل الحوادث بقوة ، ويقين ، ورض ، وإيمان بأنه لن يُسلم أبداً ما دام له إيمان برب وكلمة رب هذه ستأتى على ياله فُسراً فى وقت الشدة ، حين يحمله الناس وتُعيبه الأسباب ، فلا يجد إلا الله - حتى لو كان كافراً لقال فى الشدة يا رب

وقوله تعالى ﴿مِنْ دُونِهِ ..﴾ (١) [السجدة] يعنى لا يوجد غيره ، وإنْ وُجد غيرُ فبتحذير الله للغير عيك ، فاختير أياً كان فمرده إلى الله ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿يُذِئِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥)

فى هذه الآية ردٌ على العلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وحالق بكنه سبحانه راوٍ سلطانه فى ملكه مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وحق القوانين ، ثم تركها نعم فى إدارة هذا الكون ، ويقول لا بل هو سبحانه ﴿يُذِئِرُ الْأَمْرَ ..﴾ (٥) [السجدة] أى أمر الحق وهو سبحانه قُبُوم عليه

ولا مما معنى ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ..﴾ (٢٥) [البقرة] إن قلنا بصحة ما تقولون ، بل هو سبحانه خلق الكون ويُذِئِرُ شئونه على عنه عز وحل والدليل على قيوميته تعالى على خلقه أنه خلق الاسباب على رتبة خاصة ، فإذا أراد سبحانه خرق هذه الرتبة

بشواذ تخرج عن القرائين المعروفة كحرق لإبراهيم - عليه السلام - قانون الإحراق ، وكما خسر لمرسى - عليه السلام - قانون سيولة الماء ، ومسألة حرّ القرائين في الكور دليل على قديميته تعالى ، ودليل على أن أمر الخلق ما يزال في يده سبحانه

ولو أن المسألة كما يقول الفلاسفة لكان الكون مثل المصبة حين تصبته ثم تتركه ليعمل هو من تلقاء نفسه ، ولو كان الأمر كذلك لانبطقت الدر اتى ألقى فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً

لذلك لما سئل أحد العارفين عن قوله تعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن] ما شأن ربك الآن ، وقد هبّ أن القلم قد جهّ ، قال أمور يديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين

إذن مسألة الخلق إبداء لا ابتداء ، فأمر الخلق مُعدة جاهزة مُستقاة ، تنتظر الأمر من الله لها بالظهور

وقلنا هذا لمعنى في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس] فكلمة ﴿يَقُولُ لَهُ﴾ . . . ﴿(٨٢)﴾ [يس] قتل على أن هذا الشيء موحود بالفعل ينتظر أن يقول الله له اظهر إلى حين الوجود

(١) عن أبي الدرداء روى الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن] قال « من شأنه أن يغير شيئاً ، ويخرج كروباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين » قال السبكي هو الدر المنثور (٧ ٦٩٩) « أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده وابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر »

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (٥) ﴿[السجدة]﴾ ثم تعود إليه سبحانه النتائج ﴿ثُمَّ يَفْرُجُ إِلَيْهِ ..﴾ (٥) ﴿[السجدة]﴾
فإنه سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثم يستقل منها ، لأن المديرات أمراً
من الملائكة لكل منهم عمله واحتصاصه ، وهذه المسألة نسحبها في
عالمنا عملية المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلف مجموعة من
موظفيه بالعمل ، ثم لا يتركهم إنما يابعهم ليستفيد العمل ،
بل ويحاسنهم كلاً بما يستحق

والملائكة هي التي تعرج بالنتائج إليه سبحانه ﴿فِي يَوْمٍ كَذَلِكَ﴾
مقداره ألف سنة بما تعدون ﴿[السجدة]﴾ فالعود سيكون للملائكة ،
وحظر الملائكة ليس كخطوك ، لذلك الذي يعمل البشر في ألف سنة
تعمله الملائكة في يوم

ومثال ذلك ما قرأناه في قصة سليمان - عليه السلام - حين
قال ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرُهَا قُلْ أَنْ يَأْتِيَنِي مُسْلِمٌ﴾ (٣٨) ﴿[المر]﴾

وهذا الطلب من سليمان - عليه السلام - كان على ملا من الإنس
والجن ، لكن لم يتكلم بشيء ، ولم يتصد أحد منهم لهذا العمل إنما
تصدى له عفريت وليس جنّاً عادياً ، والعفريت جنى ماهر له قدراته
الخاصة ، وإلا نفى الجن أيضاً من هو (لجن) لا يجيد مثل هذه
المهام ، كما في الإنسان تماماً

قال العفريت ﴿أَنَا أَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ (٣٩) ﴿[المر]﴾
وهذا يعني أنه سيستغرق وقتاً ، ساعة أو ساعتين أما الذي عده علم
من الكتاب مقل ﴿أَنَا أَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..﴾ (٤٠) ﴿[المر]﴾

يعنى فى طرفه عين لما عنده من العدم ، لذلك بما رأى سليمان العرش مستقراً عنده فى لمح لبصر . قال ﴿ قَدْ هَدَانِ رَبِّىَ قَصْدًا يَلِىُّونِى أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ﴾ (٤٠) [المن]

إنى الفعل يستغرق من الزمن على قدر قوة افاعل ، كلما رادت لقوة قل الزمن ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا على الإسراء والمعراج

ومعنى ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٥) [السجدة] أى من سنينكم أنتم
ثم بقول الحق سبحانه

﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦)

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ .. ﴾ (٦) [السجدة] إشارة إلى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم متابعة الأمر ونتائجه ، هذا كله لأنه سبحانه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. ﴾ (٦) [السجدة] وأنه سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦) [السجدة] فالحق سبحانه يعلمنا أن الأمر لا يدان بتقاع اامامور

وقلنا إن عالم الغيب تعنى أنه بالأولى يعلم الشهادة لكن ذكر الحق سبحانه علمه بالشهادة حتى لا يظن أحد أن الله غيب ، فلا يعلم إلا الغيب وقد بينا معنى الشهادة هنا حينما تكلمنا عن قول الله تعالى ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا نَكْتُمُونَ ﴾ (١٠) [الانباء]

والجهر أو الشهادة يعنى الجهر المحتلظ حين تتداخل لأصوات فلا تستطيع أن تميزها مع أنها جهر أمامك وشهادة ، أما الحق سبحانه فيعلم كل صوت ويردّه إلى صاحبه فعلم الجهر هنا أقرى من علم الغيب .

ومعنى ﴿لَعَزِيزٌ ۝٦﴾ [السجدة] أى الذى لا يُغلب ولا يُقهر
فلا يَبْويهِ أحد عن علمه ، ولا عن مراداته فى كونه ، ومع عِزِّه فهو
سبحانه (الرحيم)

﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾

الخلقُ إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة وليس
عشاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالحائق - عر وجل - قل أن
يخلق بعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التى سيؤديها ، لذلك يخلق
سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدي هذه المهمة

وقد يُحِيلُ لك أن بعض المخرقات لا مهمة لها فى الحياة ، أو أن
بعضها كان من الممكن أن يُخلق على هيئة أفضل مما هى عليها

وتذكر هنا الرجل الذى تأمل فى كون الله فقال ليس فى الإمكان
أندعُ ممب كان والولد الذى رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد
المستقيمة ، فيلويها ويغوجها ، فقال الولد لأبيه لماذا لا يترك الحداد
عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدي
مهمتها إلا باعوجاجها وتأمل مثلاً الخمَاف وآلة جمع الثمار من على
الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدت مهمتها .

وفى ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوى الذى قال فيه
لبنى عليه السلام - عن النساء - إنهن خلُقن من ضلع ، وإن أعوج ما فى

الضلع أعلاه ، فإنَّ ذهبه تقيمه كسوته ، وإنَّ تركته لم ينلْ أعوج ،
فاستوصوا بالنساء ^(١)

وحين تتأمل الصلوع في تفصك الصدري تجدُ نهب لا تؤدى
مهمتها في حماية القلب والرئتين إلا مهدد الهيئه المعوجة التي تحنو
على أهم عَصْرَيْن في جسمك فكأن هذا الاعوجاج رأمة وحشو
وحماية وهكذا مهمة المرأة في الحياة ، ألا تراها في أثناء الحمل
مثلاً تنفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وصغته كانت أشدَّ
رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إنَّ هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة في حق النساء
ولا إنقاصاً من شأنهن لأن هذا الاعوجاج في طبيعة امرأة هو المتمم
لمهمتها ، لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة
امرأة تقتضى هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته في
الحياة ، حيث يناط به العمل وترتيب الأمور فيما ولَّى عليه

إنَّ خلق الله كلاً لمهمة ، وفي كل مثلاً مهما كان فيه من نقص
ظاهر - مَبْزَة يمتاز بها ، فالرجل الذي يراه لا عقل له ولا دكاء عنده
نقول - لماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قوي البنية ، يحسن من
الأنقال والمشاق ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت
عيبه في قصر قامته ، لكن يراها غيرك ميرة من مرأياه ، وربما
استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ونقارن بين أعداد التلاميذ في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢١) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٦٨) من حديث
أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يعنى أنها خلقت من أعوج
أجزاء الضلع فلا يتعبها الانتعاج بها إلا بالمسير حتى تعودها »

المرحلة الابتدائية . وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالي ، وكم منهم يساقطون في الطريق ؟ و«وأنهم جميعاً حدوا شهادات عليا لما ستقام لحال . وإلا فسنُ للهن المتوضعة والحرب وغيرها » إذن لا بد أن يوجد هذا التفاوت لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف بقدور حصه ، وقيمة كل مرء ما يُحسبه مهما كان عمله

لذلك قلنا إنه لا ينبغي لأحد أن يتعالى على أحد ، لأنه يستازعه في شيء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ، لأن الجالو عز وجل وزع المواهب بين الخلق جميعاً ، ويسكني ن تقرأ قول الحق سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ .. ﴾ [الحجرات]

فإنه تعالى ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ﴾ (٧) [السجدة] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيأة لها ، وتعجب من تصريف القدر في هذه المسألة فتجد أحويين ، يعمل أحدهما في العطور ويعمل الآخر في الصرف الصحي وتجد هذا راضياً بعمه ، وهذا راضٍ بعمله

حتى أنك تجد أناس الدين خلقهم الله على شيء من النقص أو الشذوذ حين يرصى الواحد منهم بقسمة الله به وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إن ضرب شخصاً بهذه اليد الكنعاء كم هي قوية وكم يحافظه الناس لأجل قوته ؟ وربما يحيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السوي

فإن قلت إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزاى موجوداً ، فأى إحسان فيه ؟

بقول والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناس الإيمان ، كما أنه لولا وجود أنظم وأنظالمين بما شغبر الناس بطعم العدل ، إذن

فالحق سبحانه يخلق النشء ، ويخلق من صده دفعا له

ثم يقول سبحانه ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ﴿المرجدة﴾ فالإنسان الذي كرمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من اطين وهو أدنى أجناس الوجود ، وقبلا إن جميع الأجناس تنتهى إلى خدمة الإنسان الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النباتات ، ثم الجماد ومن احماد خلق الإنسان

وقد عوض الله عن وجل الجماد الخادم بباقي الأجناس حين أمر الإنسان المكرم بأن يُقْبَلَ في فريضة كُتِبَ عليه مرة واحدة في العمر وهي فريضة الحج ، فأمره بأن يُقْلَّ الحجر الأسود ، وأن يتعبد لله تعالى بهذا التقصيل ، لذلك يتزاحم الناس على الحجر ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر لتعالى في النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد

وسبق أن سبنا أن المفرضين الذين يحبون أن يستدركوا على كلام الله قالوا ، إن الله تعالى قال في مسألة الخلق مرة ﴿مِنْ مَّاءٍ ..﴾ (٦) ﴿المرسلات﴾ ومرة ﴿مِنْ تَرَابٍ ..﴾ (٣٧) ﴿الكهف﴾ ومرة ﴿مِنْ حَبِّ طِينٍ﴾ (١٧) ﴿المؤمنون﴾ ومرة ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ (٣٤) ﴿الحجر﴾ الخ ، فأى هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا إن هذه مراحل مختلفة للنشء الواحد ، والمراحل لا تقتضى لنية الأولية ، فالماء والتراب يُكوْنان الطين فإذا تُرك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ العسور ، فإذا تُرك حتى يجف ويحمأ فهو لصصال ، فهذه العناصر لا تعارض بينها ، ويجوز لك أن تقول إن الإنسان خلق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين

ولمرد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم - عليه السلام - ثم

أخذ الله سلالاته من ماء مهين ، والسلالة هي خلاصة الشيء .
فالحائق سبحانه حقاً أولاً من الطين ، ثم جعل بنا الأزواج والتناسل
الذي نتج عنه رجال ومساء

ثم يحتفظ بحالى سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة فى هذه المسألة ،
وكانه يقول لى إياك أن تعهم أنتى لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا
أستطيع أن أخلق بلا زوجية كى خلقت آدم ، وأخلق من رجل بلا
امرأة كما خلقت حواء وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقت عيسى
عليه السلام

وقد تتوهم علاقة الزوجية ويجعلها الله عقياً لا ثمرة لها . وهكذا
تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقية فى هذه المسألة ، وافرأ
إن شئت ﴿لله عند السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء
إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩) أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء
عقياً إنه عليم قدير (٥٠)﴾ [الشورى]

إذن هذه مسألة طلاقة قدرة الحائق سبحانه ، وليست عملية
(ميكانيكية) لأنها هبة من الله ﴿يهب لمن يشاء إناثاً .. (٤٩)﴾ [الشورى]
ولاحظ أن الله قدّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذى لا يهصله الناس أن
يولد لهم ولكن تجد الذى يررقه الله بالبنث فيفرح بها ، ويعلم أنها هبة
من الله يعوضه الله بزواج لها يكون أطوع له من ولده

كما أنه لو رضى صاحب العقم بعقمه وعلم أنه هبة من الله
لَعَوَّضَهُ اللهُ فِي أَبْنَاءِ الْآخِرِينَ . وشعر أنهم جميعاً أبناءه ، ولماذا تقبل
هبة الله فى الذكور وفى الإناث ، ولا تقبل العقم وهو أيضاً هبة
الله ؟

ثم الست ترى من الأولاد مَنْ يَقْتُلُ أَبَاهُ ، وَمَنْ يَقْتُلُ أُمَّهُ ؟ إذن

المسألة تحتاج منا إلى لرضا والتسليم والإيمان بأن العُقم هبة . كما
أن الإنجاب هبة

ثم إن خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من
البداية على صورته القائمة الكاملة . فحقه الله رحلاً مسجولاً ، فم يكُنْ
مثلاً طعلاً ثم كبر وجرت عليه سنة التطور ، لا إنما حقه الله على
صورته أي على صورة آدم

والبعض يقول خلق الله آدم على صورته أي على صورة
الحق ، فالصير يعود إلى الله تعالى ، والمراد على صورة الحق
لا على حقيقة الحق ، فانه تعالى حيٌّ يَهْب من حياته حياة ، والله قوي
يهب من قوته قوة ، والله عني يهب من عذاه عني ، والله عليم يهب
من علمه علماً

لذلك قيل « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ » ، لأنه سبحانه وهبكم صفات من
صفات تحليهِ ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية
وتخلّقوا بها ، ومثلاً كُنْ قريبا على الطالم ، صعباً متواضعاً للمظلوم ،
عنى حدِّ قول الله تعالى في صفات المؤمنين

﴿ أَشَدُّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ (٢٩)

وقال ﴿ دَلِيلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَءٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ (٥٥)

وهذه الصفات لمتناقضة تجتمع في المؤمن ، لأنه ليس له طبع ولحد ،
إما الموقف والتكليف هو الذي يصفه وينوبه إلى الصفة المناسبة

(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « خلق الله آدم على صورته » طوله ستون ذراعاً ،
أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٣٧) ، وذكر مسلم في صحيحه (٢٨٤١) أي خلقه
على صورته التي استمر عليها إلى أن أُنْطِط وإلى أن مات ، دفعاً لترهم من يظن أنه لما
كان في الجنة كان على صفة أخرى (نقله ابن حجر من فتح الباري ٣/١١)

وقلنا إن علماء التحاليل في معاملهم أثبتوا صدق القرآن في هذه الحقيقة ، وهي خلق الإنسان من طين حبيما وجدوا أن العناصر لمكونة لحسم الإنسان هي ذاتها العناصر الموجودة في التربة ، وعددها ١٦ عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم الفيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ثم لبوتاسيوم الخ

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ (٨)

النسل هو الأنجال والذرية والسلالة خلاصة الشيء تُنس منه كما يُنس السيف من غمده فالسلالة هي أجود ما في الشيء ، ولذلك يقول فلان من سلالة كذا وفلان سليل المجد يعني في مقام المدح حتى في الخيل يحتفظون بها بسلالات معروفة أصيلة ونُسحلون لها شهادات ميلاد تثبت أصلها سلالتها

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو مني الرجل وبويضة المرأة

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿مَّهِينٌ﴾ [السجدة] لأنه يجري في محرى أصول ، ويذهب مذهب إذا لم يصل إلى لرحم ، وفي هذا الماء المهين عجائب ويرحم الله العقاد^(١) حين قال إن أصول ذرات العالم

(١) هو عباس محمود إبراهيم العقاد ، أصله من دمياط بمصر انتقل أسلافه إلى السطة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل في د عقادة الحرير ، معروف بالعقاد ولد بلسوان عام ١٨٨٩ من أم كردية ، تعلم في مدرستها الابتدائية وكان موظفاً بالسكة الحديد وبوراره الأوقات بالفاخرة ثم معلماً في بعض المدارس الأهلية وانقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف ظل اسمه لأمراً مدة نصف قرن ألف خلالها ٨٢ كتاباً أشهرها العبقريات توفي بالفاخرة عام ١٩٦٤ من ٧٥ عاماً [الأعلام ٢/ ٢٦٦]

كله يمكن أن تُوضع في نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف
الرجل في امره الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن المسألة دقة تكوين
وعظمة خالق ، ففي هذه الدرة البسيطة خصائص إنسان كامل فهي
تحمل لونه ، رحنسه ، وصفاته ، الخ

وسبق أن قلنا في عالم الذر إن في كل ما ذرة وجزيئا حيا من
لذر أبيه آدم عليه السلام .
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ تَرْسُوْنَهُ وَنَنفِخُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِنَا ۖ وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيْلًا مَّا تَشْكُرُوْنَ ۝١﴾

وهذه التسوية كساب أولا للإنسان الأول الذي خلقه الله من
الطين ، كما قال سبحانه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيْهِ مِنْ رُّوْحِنَا فَسَبَّحُوا لَهُ
سَاحِدَايْنِ (٢١) ﴾ [الحجر] وقد مر آدم - عيه السلام - في هذه التسوية
بالمراحل التي ذكرت كذلك الأمر في سلالته يسويها لخالق - عز
وجل - وتمر بمثل هذه المراحل من نطفة ، ثم من عقة ، ثم من
مضفة الخ ، ثم تُنفخ فيه لروح

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خلقه ، فإن الله تعالى يحسن من
المشاهد بنا دليلا على ما عاب عتسا وإن كنا لم نُسهد الخلق فقد
شاهدنا الموت ، واموت نقض للحياة وللخلق ومعلوم أن نقض

(١) قال الشيخ أبو يحيى ركبنا الأنصاري من كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يتبس في
القرآن » [ص ٢٢٤] « المراد بـ (روحه) جبرين والا فانه مدرك من الروح الذي
يقوم به الحسد وتكون به الحياة ، وانضاه إلى نفسه تشريفا وإشعارا بأنه خلق عجيب
مناسب للمقام

الشيء يأتي على عكس بنيه ، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدمًا .

كذلك الحال في الموت ، أول شيء فيه خروج الروح ، وهي آخر شيء في الخلق ، فهذا خرجت الروح تصلب الجسد ، أو كما يقولون (شصب) وهذه امرحلة أشبه بمرحلة الصلصالية ثم يبتن وتتغير رائحته ، كما كان في مرحلة الحمأ^(١) المسبوت ، ثم يحلل هذا الجسد ويتبحر ما فيه من مائية وتبقى بعض العناصر التي تتحول إلى تراب ليعود إلى أحله الأول

إذن خذ من رؤيتك لموت دليلاً على صدق ربك - عز وجل - فيما أخبرك به من أمر الخلق الذي لم تشهده .

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ .. ﴾ (٩)

[السجدة] سبق أن تكلمنا عن هذه الأعضاء وقد قرر علماء وظائف الأعضاء مهمة كل عضو وحارحة ، ومنى يبدأ هذه احارحة في أداء مهمتها ، وانتوا أن الأدن هي الجارحة الأولى التي تؤدي مهمتها في الطفل ، بدليل أنك إذا وضعت اصبعك أمام عين الطفل بعد ولادته لا (يرمش) ، في حين يفرع إن أحدثت بجواره صوتاً ذلك لأنه يسمع بعد ولادته مباشرة ، أما الرؤية فتأخر من ثلاثة إلى عشرة أيام

لذلك كانت حاسة السمع هي المصاحبة للإنسان ، ولا تنتهي مهمتها حتى في النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم

(١) اللحم الطين الأسود ومسبور أي مصبوب في قالب إسائي ، أو مصور بصورة إسائي أو طين كالقمار صالح للتصوير والعقل [القاموس القويم ١ / ٣٤٦]

وهذه المسألة أوضحتها الحق سبحانه في قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أن يُنمِمْ أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف في صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات لمتوحشة لذلك صرب الله على آذانهم وعطل عندهم هذه الحاسة كما قار سبحانه ﴿ فَصَرَّنا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١٦) [الكهف] إذن الأذن هي أول الأعضاء أداة لمهمتها ثم العين ، ثم بقى الأعضاء ، وآخرها عملاً الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجرد ويلعب دون أن يشعر بشيء ، لماذا ؟ لأن جهاره العصى لم يتضج بعد ، فلا يشعر بهذه الحرارة

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ويتقدم البصر إلا في آية واحدة هي قوله تعالى ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ (١٢) [السجدة] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة ، وفيه يفاجأ الكفار بأحوال القيامة ، ويأخذهم المنيطر قبل أن يسمعوا الصوت حين ينادى المنادى

ومن عجائب الأدب البياني في القرآن أن كلمة أسمع يقبلها أبصار ، لكن المذكور هنا ﴿ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (٦) [السجدة] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا لأن الأذن ليس لها عطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاء يُسدُّ عليها ويمنع عنها المرئيات ، فإذاً فهو سمع واحد لى ولك وللجميع الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أراه أنا

ولم يأت البصر مفرداً - في هذا السياق - إلا في موضع واحد هو قوله تعالى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٠) [الإسراء] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولين والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بد أن يكون واحداً

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والابصار والافئدة بعد الحديث عن مسألة الخلق ، لأن الإنسان يُولد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الاعضاء والحواس يتعلم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [الحج]

إذن هذه الاعضاء ضرورية بوجود الإنسان الحليفة في الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بد له من اكتساب المعلومات ، وإلا فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا إن الإنسان لكي يتعلم لا بد له من استكمال هذه الحواس المدركة ، كل منها في مناطه ، فاللسان في الكلام ، والعين في الرؤية ، والأذن في السمع ، والأنف في الشم ، والأيامل في اللمس

وقلنا إن هذه الحواس هي أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواس أخرى ، ذلك احتاط العلماء بهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم « الحواس الظاهرة » ، وبعد ذلك عرفنا حسة أبين التي نعرف بها رقة لقمش وسُمكه ، وحاسة العضل التي نعرف بها الثقل

إذن حينما يُولد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأن منكم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة

فلا بُدَّ له أن يتكلم ليفهم معهم ، وقبل ذلك لا بُدَّ له أن يسمع ليتعلم الكلام

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع فالطفل الذي يُولد في بيئة عربية ينطق بالعربية والذي يعيش في بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فما تسمعه الأذن يحكيه للسان فإذا لم تسمع الأذن لا ينطق اللسان

لذلك سبق أن قلنا في سورة النجم في قول الله تعالى ﴿صُمُّكُمْ﴾ (١) [النجم] أن النكم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع فالسمع - إذن - هو أول مهمة في الإنسان ، وهو الذي يعطيني الأرضية الأولى في حياتي مع المجتمع من حولى

ومعلوم أن تعلم القراءة مثلاً يحتاج إلى معلم يسمع منه النطق فهذه ألف وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة

وبالسماع يتم البلاغ عن الله من السماء إلى الأرض ، لذلك تقدّم ذكر السمع على ذكر البصر

والحق سبحانه لما تكلم عن السمع بهذه الصورة قال أنا سأسمع أسماء الأشياء فهذه أرض ، وهذه سماء الخ لذلك حينما نعلم التلميذ يقول له هذه عين ، وهذه أذن ،

وبعد أن يتعلم التلميذ من مظهر القراءة يستطيع بعد ذلك أن يقرأ بذاته فيحتاج إلى حاسة البصر في مهمة القراءة فإذا أُنم تعليمه واستطاع أن يصحح قراءته بنفسه ، واختمرت عنده المعومات التي اكتسبها بسمعه وبصره استطاع أن يقرأ أشياء أخرى غير التي قرأها

له معلمه . واستطاع أن يربى نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده حلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ ﴾ [السجدة] فالمعاني تتجمع بهذه الحواس حتى يصير الإنسان سَوِيًّا لديه الملكة التي يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأننا سمعت من أبي ، وأبى سمع من أبيه ، وتستطيع أن تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبى البشر جميعاً ، فَإِنْ قُلْتَ فَمَنْ سَمِعَ آدَمَ ؟ نقول سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها ﴿ وَعَنَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة]

وهذا أمر مطلق لأن اللغة المسعوعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول هذا يعنى أن اللغة توقيفية لا تدخل لنا فيها بمعنى أننا لا نستحدث فيها شيئاً

ويقول نعم ، اللغة أمر توقيفى ، لكن أعطى الله آدم الأسماء وعَلَّمَهُ إِيَّاهَا وبهذه الأسماء يستطيع أن يتفاهم على وضع غيرها من لأسماء فى المعلومات التى تستجد فى حياته

(١) عن ابن عباس قال علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ، ونابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل ، وجبل ، وسمار وأشياء بك من الأمم وغيرها [أورده السيوطى فى التر المشرور ١/ ٢١٦ وعزّه لابين جريو لطبرى] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٢) علَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ كُلَّهَا دَرَاتِمًا وَصِفَاتِهَا وَفَعَالِيهَا كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ حَتَّى الْمُسَوِّدَ وَالْفَسِيحَ يَعْنِى أَدْوَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ الْمُكَبَّرَ وَالْمَصْغَرُ .

والأ فكيف سمعنا (الراديو والتلفزيون الخ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدُّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أن يوجد مُسمًاه ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التي تقرر هذه الاسماء وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المجمع على تسمية الهاتف مسرة والتليفزيون تلفاز .. الخ

إن أتبنا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ، لأنها تعبر عن المعاني التي نريدها وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التي تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت فوقيعة ، وانتهت وضعية

وقوله تعالى بعد هذه لنعم ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة] دليل على أن هذه لنعم تستوجب الشكر ، لكن قليل مَّا من يشكر ، وكان ينبغي أن نشكر المعجم كلما سمعنا وكلم أصرنا ، وكلما عملت عقولنا وتوصلت إلى جديد

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينهي ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهي ، فبحر مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرت وبأدائنا للعبادة التي فرضها الله علينا وفي عيد الأضحى نفرح ، لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام - تحمل عنا الفداء بولده ، لكي يعفينا جميعاً من أن يفدى كل مَنَّا ، وينقرب إلى الله بذبح ولده ، ولا لكانت المسألة شقة علينا ، لذلك نفرح في عيد الأضحي ، وبذبح الأصاحي وبؤدى السُّك في الحج

وما دام المؤمن ينبغي له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات فلماذا لا نفرح كلما صلينا أو صُمنا أو رُكُننا ، لماذا لا نفرح عندما يطمع الله بعمل المأمورات ، وترك المنهيات ، لماذا لا نفرح في الدنيا حتى ياتي يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وتنال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

وَاقْرَأْ إِنْ شِئْتَ قَوْلَ رَبِّكَ ﴿إِنَّ الدِّينَ أَمْرٌ وَعَمَلٌ﴾ الصَّالِحَاتُ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ فِي حَنَاتِ النَّعِيمِ (١) دَعَاؤُهُمْ
فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ لَيْسَ بِهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَبِ الْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١) ﴿

[يونس]

﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَهِيَ تَأْتِي
خَلْقَ حَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾

معنى ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ .. (١)﴾ [السجدة] أى نجبنا فيها ،
واندثرنا درانتا ، بحيث لا يعرف أين ذهبنا ، وإلى أى شىء انتقلت
إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿تَأْتِي لَقَى خَلْقَ حَدِيدٍ (١)﴾
[السجدة] يعنى أخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١)﴾
[السجدة] بل تفيد الإصرار عن كلامهم السابق وتقرير حقيقة أخرى ،
هى أنهم لا يفكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿بَلْ هُمْ
بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١)﴾ [السجدة] لأن مسألة الحشر مستحسنة أن
ينكروها ، لأن الدليل عليها واضح

كما قال سبحانه ﴿أَفَعَبَابٌ هَٰؤُلَاءِ لَا يَنْفَعُهُمْ شِقَاقُهُمْ هَٰؤُلَاءِ
جَدِيدٌ (١٥)﴾ [ز] والذي خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من
موجود لأن دراتك وحاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البدء ،

(١) عَنِ الْأَمْرِ يَعْنِي عَجْرٌ عَنِ الْفُحْصِ بِهِ فَقَرَنَهُ ﴿أَفَعَبَابٌ هَٰؤُلَاءِ لَا يَنْفَعُهُمْ شِقَاقُهُمْ هَٰؤُلَاءِ جَدِيدٌ (١٥)﴾ [ز] أى
لم يعجز ولم ينفع شقاقهم هؤؤلاء بالخلق الأول وكذلك لن يعجز عن الخلق الثاني يوم القيامة ، وهو
برهان على إمكان البعث بعد الموت ، فمن من قدر على الخلق أول مرة يكون قادراً من باب
أول على الخلق مرة ثانية [القاموس القويم ٢/ ٢٦]

لذلك قال سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴾
﴿٢٧﴾ [الروم]

إذن تكذيبهم ليس للبعث في حد ذاته ، إنما بلقاء الله وللحساب
لكنهم ينكرون البعث ، لأنه يؤدي إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء
الله ، فينكرون المسألة من بدايتها

﴿قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾

تلحظ هنا أنهم يتكلمون عن البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّهُ
يَهْدِي سَبِيلَنَا ..﴾ ﴿١٠﴾ [السجدة] ومعلوم أن البعث إيجاد حياة ، فإذا
بالقرآن يُحدثهم عن الوفاة ، وهي نقض للحياة ، ليُدْكَرَهم بهذه
الحقيقة

ومعنى ﴿يَتُوفَّيْكُمْ﴾ ﴿١١﴾ [السجدة] من توفيت ربنا من المدين
أي أحذته كاملاً غير مفقود ، والمراد هنا الموت ، والتوفى ينسب
مرة إلى الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَتُوفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ﴿١٢﴾ [الزمر]
وينسب لملك الموت ﴿قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ..﴾
﴿١٣﴾ [السجدة] وينسب إلى أعوانه من الملائكة ﴿حَتَّىٰ إِذَا حُيِّدُوا عَنْ
الْمَوْتِ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [الأنعام]

لأن مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سبحانه ، فهو وحده
واهب الحياة ، وهو وحده صاحب الأمر في نقضها وسلبها من
صاحبها ، لذلك حرم الله القتل ، وجعل القاتل ملعوناً ، لأنه يهدم

ببيان الله ، فإذا قدر الله على إنسان الموت أين لملك لموت في ذلك ،
وهو عزرائيل

إذن هذه المسألة لها مراحل ثلاث التوفى من الله يأمر به
عزرائيل ثم يأمر به عزرائيل ملائكته امرؤكين بهذه المسألة ، ثم
يفض الملائكة هذا الأمر

وتأمّن لفظة ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ..﴾ [الأنعام] أي أخذته كاملاً ،
فلم يقلْ أعدمته مثلاً ، لذلك نقول قبضت روحه أي ذهبت إلى
حيث كانت قبل أن تنفخ فيه ذهبت إلى الملا الأعلى ، ثم تحلّ
الجسد وعاد إلى أصله ، وذاب في الأرض ، جزئية هنا وجزئية هناك ،
كما قالوا ﴿أَنبَدَا صُلْبًا فِي الْأَرْضِ أَنَا وَلَهُيْ حَلْقٌ جَدِيدٌ ..﴾ [السجدة]

فالذي يُتوفى لم يُعدم ، إنما هو موحود وجوداً كاملاً ، روحه
وجسده ، والله قادر على إعادته يوم القيامة ، لذلك لم يقلْ أعدمنا
وهذه المسألة تحلّ لنا إشكالاً في قصة سيدنا عيسى - عليه السلام
فقد قال الله فيه ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَسْعَىٰ إِبْنِي مُتَرَفِّعًا وَرَفَعْتُكُمُ إِلَى ..﴾
﴿٥٥﴾ [آل عمران]

فالبعض يقول إنه عليه السلام توفى أولاً ، ثم رفعه الله إليه
ولصواب أن واو العطف هنا تعيد مطلق الجمع ، فلا تقتضي ترفيعاً
ولا تعقيباً ، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ
أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ ..﴾ (٧) [الأحزاب]

والخطاب هو للنبي محمد ﷺ ونوح عليه السلام قبله

فالمعنى هنا أن الله تعالى قدّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى - عليه السلام - تراءى من الوفاة ، فقدّم الشيء الذي فيه شك أو جدال ، وما دم قد توقّاه الله فقد أحده كاملاً غير منقوص ، وهذا يعنى أنه لم يُصلّب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً

وقوله تعالى ﴿ قُلْ يَتُوفَّاكُم مِّلْكُ الْمَوْتِ . ﴾ [السجدة] جاءت رداً على قولهم ﴿ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتَىٰ لَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ . ﴾ [السجدة] فالحق الذي قال أن خلقت الإنسان لم يقل وأنا ساعده إنما سأتموه وهو عندي كامل بروحه وبذراته التكوينية ، والذي خلق في البدء قادر على الإعادة ، وجمع الدرات التي تشتتت

وقوله عن ملك الموت ﴿ الَّذِي وَكَّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة] أى يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا يهرب منه ولا فكاك ، كما قال أهل المعرفة الموت سهم أطلق إليّ فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة كما قلنا فى المصيبة وأنها م سميّ مصيبة إلا لأنها ستصيبك لا محالة

وقوله ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة] أى يوم القيامة

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَوْ قَرَّبْتَ إِذَ الْمُجْرِمُونَ فَاكْشُرُوا رُءُوسِهِمْ
عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ
صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

تصور لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق

المجرم ذليلاً إلى ما يستحق من العذاب . كأن ترى مجرماً مثلاً تسوقه الشرطة وهو مكبل بانقيود بذوق لإهنة والملة ، فتشفي نفسك حين تراه يتال جزاءه بعد أن أتعب الدنيا وأداخ الناس

وفي هذا المشهد يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، وهو أول مخاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمته ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة] أي حالة وجودهم أمامهم ناكس رؤوسهم وتقدير جواب الشرط لرئت أمراً عجيباً يشفي صدرك مما فعوه بك

وتلاحظ في هذا الأسلوب دقة الأداء في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ .. [السجدة] فلم يقر مثلاً ولو تعلم ، لأن إحصاء الله كانه رؤيا العين ، فحين يحبرك الله بأمر ما علم أنه أصدق من عينك حين ترى ، لأن عينك قد تصدعك ، أم إحصاء الله لك فهو الحق

ومعنى ﴿ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ .. [السجدة] النكس هو جعل الأعلى أسفل ، والراس دائماً في الإنسان أعلى شيء فيه

وقد وردت هذه العادة في قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام ، وعلق العاس على كبيرهم ﴿ ثُمَّ نُكِيسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنبياء]

بعد أن عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم فقالوا ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنبياء]

وورد هذا اللفظ أيضاً في قوله تعالى ﴿ وَمِنْ نَعْمَةِ نَكَّسَهُ فِي الْخَلْقِ أَهْلًا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس]

والمعنى نرجعه من حال لقوة والعتوة إلى حال الضعف والهرم
وعدم القدرة كما قال سبحانه ﴿وَمَكِّمُ مِّن يُّرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ
لَا يَعْلَمُ فِيهَا عِلْمٌ شَيْئًا﴾ (٧) [الحج]

فبعد القوة يتكىء على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيصير ،
ويُعمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس في الحَقِّ ،
وحين نتأمله نقول الحمد لله لو عاقبنا من هذه القسرة وهذه
التنكيسة ونعلم أن الموت لطيف من الله ورحمة بالعباد ، ألا ترى أن
من وصل إلى هذه المرحلة يصيبق به أهله ، وربما تمثّلوا وفاته
ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رؤوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هي العقوبة
فاحذر المحالفة ، فمَنْ تكسر وتعطرس في الدنيا نُكِّسَتْ رأسه في
الآخرة ومن توضع لله في الدنيا رُفِعَتْ رأسه ، وهذا معنى الحديث
لشريف : « من تواضع لله رفعه »^(١)

وفي تنكيس رؤوس المحرمين يوم القيامة معنى آخر ، لأن الحق
- سبحانه وتعالى - سيقبل في كل محالف في الآخرة من جنس ما
نعم في الدنيا وهؤلاء الذين نُكِّسَ الله رؤوسهم في الآخرة فعلوا ذلك
في الدنيا وأقرأ بن شئت قول ربك ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ
لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ﴾ (٥) [مرد]

أي يطأطئون رؤوسهم ، لكي لا يواجهوا رسول الله ، غلحق
صولة وقوة لا يثبت اسطل أمامها ، لذلك نسمع من أصحاب الحق

(١) خرج أبو يعقوب في حلية الأولياء (٦/٨) من حديث أبي هريرة قال قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله » ، وكذلك (١٢٩/٧) عن عمر بن الخطاب أنه قال : « فيها الناس تواضعوا فبأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تواضع لله رفعه الله »

تعالى واجهني ، هات عيني في عيبك ولا بد أن يستحزى أهل لبائل ، وأن يحبوا عن المواجهة لأنها ليس في صالحهم

وهذا العجز عن المواجهة يدعو الإنسان إلى ارتكاب أفعاع الحرائم ، ويصل به إلى القتل ، والقتل لا يدل على القوة إنما يدل على عجز وضعف وجبن عن المواجهة ، فالتقاتل قرينة لا يستطيع أن يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قريباً يواجه حياته

ومن العذب الذي يأتي من حس ما فعل الإنسان في الدنيا قول الله تعالى في الذين يكذبون الذهب والفضة ولا ينعقونها في سبيل الله ﴿ وَالَّذِينَ يَكُفِّرُونَ الْذهبَ وَالْفِضةَ وَلَا يُعْطِيهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبْشُرُهُمْ فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٩) يوم يخفى عنهم في نار جهنم فنكروا بها حبهم وحنوبهم وظهورهم هذا ب كرتهم لأنفسكم فدوروا ما كنتم تكفرون ﴿٣٥﴾ [شوة]

سبحان الله كأنها صورة طبق الأصل مما فعلوه في الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيعجب في وجهه ، ثم تعرض عنه ، ويعطي جنه ، ثم يعرض عنه ويعطيه ظهره ، ويأتي العذاب بنفس هذا التفصيل إذن على العاقل أن يحذر هذه المخالفات فمن حسنها يكون لعذاب في الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القرآن قالوا أبصرنا وسمعنا ، فحذف الفعل هنا يدل على أن القوم ليس سهلاً عليهم ، لأنه إقرار بحطهم الأول وإعلان لذلة التوبة

وقلنا إن هذه هي الآية الوحيدة التي تقدم فيها البصر على السمع ، لأن الساعة حين تأتي بأهوالها ترى الهول أولاً ، ثم نسمع ما نراه

لذلك يقول تعالى مُصَوِّراً أثر هذا الهول ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢) [الحج]

وهي معرض حديثنا السابق عن الحواس السمع والبصر والفؤاد فاتنا أن نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهي قول الله تعالى ﴿خُتِمَ ۚ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧) [البقرة]

جاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع في لحن لانهما اشتركا فيه أما لبصر فاختص بشيء آخر ، وهو الغشاوة التي تغطي ابصارهم ، ذلك لان الآية السابقة في السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى في العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سبب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الابصار

لكن أي شيء أبصروه ؟ وأي شيء سمعوه في قولهم ﴿رَبَّنَا أَبْصُرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ .. (٦٦) [السجدة] ؟ أول شيء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عَذْرًا﴾ (٣٩) [الزمر] وحده سبحانه ليس معه شريك من شركاء الذين عبدوهم في الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه ولي ، ولا شفيع ، ولا نصير

ومعنى ﴿سَمِعْنَا﴾ (٦٤) [السجدة] أي ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدقنا الرسول في البلاغ عنك ، وأنه

(١) أي عطاء فاحكم عطاء ما فهم لا يدهمون ولا يسمعون [القاموس القويم ١/ ١٨٧]
قال أبو إسحاق معنى حتم وطمع في اللغة راعد وهو التعسية على الشيء والاستيثاق
من أن لا يدخله شيء [لسان العرب - مادة ختم]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَنَهَاوْا لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢)

هنا قد يسأل سائل لماذا جعل الله الناس مؤمناً وكافراً وصانعاً وعاصياً ، لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق لملائكة طائعين مُنْعَذِينَ لأوامره سبحانه ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) [التحريم]

كذلك الأرض والسماء والجبال الخ . كلها تُسَبِّحُ الله وتعبده ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (٤١) [النور]

وقال ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَعْقِلُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴾ (٤٤) [الإسراء] ، وبعد ذلك يعطى الله تعالى لبعض خلقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال في حق داود عليه السلام ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ (٧٩) [الأنبياء]

نعم ، هي تُسَبِّحُ أيضاً مع غير داود لكن الميزة أنها تشترك معه في تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون بشيئاً واحداً

وعرفنا في قصة الهدد وسليمان - عليه السلام - أنه كان يعرف قصصه التوحيد على أتم وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذي قال عن بلقيس ملكة سبأ ﴿ وَحَدَّثَهَا وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَقَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٦٤) [الملء]

وقال ﴿أَلَا يَسْتَعِدُّوْا لِلّٰهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفَوْنَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ [التعل]

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يُدَلِّلَ خُلُقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ
يَجْعَلُ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً ، وَمِنَ الْقُوَّةِ ضَعْفًا ، وَاتَّخَذَ إِلَى حَالِ الْمُؤْمِنِينَ
الْأَوَائِلَ ، رَكْمًا كَانُوا أَذِلَّةً مُسْتَضْعَفِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا رَفَعَهُمُ اللَّهُ
بِالإِسْلَامِ وَجَعَلَهُمْ سَادَةً

ومشهوره قصة الصَّدِيقِ أَبِي بَكْرٍ لَمَّا أَدْخَلَ عَلَيْهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ
أَمْثَالَ عَمَارٍ وَبِلَالٍ . وَتَرَكَ صَنَائِدَ قَرِيشٍ بِالبَابِ ، فَعَاتَقَهُ أَبُوهُ عَلَى
ذَلِكَ كَيْفَ يُدْخِلُ الْعَبِيدَ وَيَتْرَكُ هَؤُلَاءِ السَّادَةَ بِالبَابِ ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ
يَا أَبِي ، لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ الْخَسِيسَةَ ، وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ وَرَمَتْ
أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَدْخُلَ الْعَبِيدُ قُبُلَهُمْ ، فَكَيْفَ بِهِمْ حِينَ يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ
تَبْلَهُمْ ؟

وعجيب أن يصدر هذا الكلام من الصَّدِيقِ أَبِي بَكْرٍ ، مَعَ مَا عُرِفَ
عَنْهُ مِنَ اللَّيْنِ وَرِقَّةِ الْقَلْبِ وَالْحِلْمِ

وهذا لون من تبديل الأحوال واجتماع الأصدقاء ، وقد عرض الحق
- تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْرَمُوا
كَأَنُومًا مِنَ اللَّهِ أَنُومًا يَضْحَكُونَ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَعَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ [المطعمين]
يعنى يسخرون منهم ويهزأون بهم ، كما سَمِعَ مِنْ أَهْلِ
الْبَاطِلِ يَقُولُونَ لِلْإِنْسَانِ الْمُسْتَقِيمِ (حَذَا عَلَى جَبَاحِكَ)

(١) المية كل ما عاب وهو كل شيء عائب مستور بالعيب الذي في السماوات من

المطر وبنى لأرض من النبات [لسان العرب - مادة حب]

وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد . إنما إذا عبدوا إلهي أهلهم كرروا هذا الاستهزاء . وتجهجوا به . وفرحوا لإيذائهم لأهل التقوى والاستقامة ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَصَالِحُونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) [المطعمين] لکن ینہی الحق سبحانه هذا الموقف بقوله ﴿ عَلَیْہِمْ اَذِینَ آمَنُوا مِنَ الْکُفَّارِ یَصْحَکُونَ ﴾ (٣٤) علی الأرائک ینظرون (٣٥) [المطعمين] ثم یسألهم الله ﴿ هَلْ تُؤِثُّبُ الْکُفَّارُ مَا کَانُوا یَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦) [المطعمين]

فهنا يقول الحق سبحانه لا تفهموا ان أحداً تآبى علیّ . من خلقی . إنما أردت بهم الاختير . ثم أحسرتهم بما أحبّ ان يفعلوه . فيريد الله ان يعلم علم وقوح بمرّ آمن به . وهو يملك ألا يؤمن . والا فهو سبحانه عالم أرلاً . لتكون الفعل حجة على أصحابه . إى إياک ان تظنّ أنک باختيارک کسوت فہر العلی

وسبق ان قلنا ان الدين ألغوا التمرّد على الله إيماناً به . فكفروا وتمردوا على طاعته فعصوه . الح بقول لهم ما دُمتم قد تعودتم التمرّد على أوامر الله فلماذا لا تتمردون على لمرص مثلاً أو على لموت ؟ إدى أنت عند رعم أنك

يقول سبحانه ها ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىا ۖ ﴾ (١٣) [السجدة أى لجعل الناس كالملائكة . وكالمخلوقات المسيرة التى لا اختيار لها وسبق ان قلنا ان المخلوقات كلها حيّرت فى حمل لامة . وليس الإنسان وحده . بكن الفرو ان ابن آدم أحد الاخبار مُفصلاً . وبقيّة اخلق اخذوا الاختيار جملة . ملين قوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُلًا ﴾ (٧٧) [الاحزاب]

ومعنى الهداية في ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ .. (١٢) ﴿[سجدة] أى هدى المعونة ، وإلا فقد هدى الله جميع الناس هدى الدلالة على طريق لحير ، فالذى أخذ بهدى الدلالة وقال على العين والرأس يأخذ هدى المعونة ، كما قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ هَتَدُوا رَادَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١٧) ﴿[محمد]

ولكى نفهم الفرق بين الهديين ، اقرأ ﴿وَأَمَّا تُمُودَ فِهْدِيْنَاهُمْ﴾ . (١٧) ﴿[مصلح] أى دللناهم وارشدناهم ﴿فَاسْتَجِيبُوا أَعْمَى عَلَى الْهُدَى﴾ .. (١٦) ﴿[مسك]

ثم يقول سبحانه ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن نَّجْوَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٤) ﴿[اسمعة]

الحق سبحانه يريد أن يثبت لحلقه أنه هو الأولي بالحكمة في الخلق ، بدليل أن الذى يشذ عن مراد الله لا بد أن يعسد به المجتمع ، كما يرى المجتمعات تشقى بكفر الكافر ، وبمعصية العاصي

والحق سبحانه يترك الكافر بكفر باختياره ، والعاصي يعصى باختياره ليؤذى الناس بإثم الكافر وبإثم العاصي ، وعندها يعودون إلى تشريع الله ويلجئون إلى ساحته سبحانه ، ولو أن الناس عملوا بشرع الله ما حدث فساد في لكون ولا خلل في حياتهم أبداً

لذلك نفرح حينما ينتقم الله من أهل الكفر ومن أهل المعصية ونقول الحمد لله الذى أراح منهم البلاد والعباد

إس مخالفة منهج الله في القصة كفراً به سبحانه ، وفي غيرها معصية لأمره هو الذى يبين مزايا الإيمان وحلاوة التشريع وقلنا

إن التشريع يجب أن يأخذه المكلف أحداً كاملاً بما له وبما عليه ، فإلله
كلّفك ألا تسرق من الناس ، وكلّف للناس جميعاً ألا يسرقوا منك

ومعنى ﴿وَلَسَكُنْ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي ۖ﴾ [السجدة] أى وقع وثبت
وقطع به . ويأتى هذا المعنى بلفظ سبق . كما فى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ
كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْغُرَابِيِّينَ﴾ [الصافات] وفى قصة نوح عليه السلام
﴿فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ شَيْءٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ۖ﴾
[المؤمنون]

وقال تعالى حكاية عن الكفار فى حوارهم يوم القيامة ﴿فَحَقُّ
عَلَيْكَ قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة]
عرفنا أن الله تعالى خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً يملأونها وخلق النار
وخلق لها أهلاً يملأونها ، فليس فيهما أزمة أماكن ، فالجنة أُعِدَّتْ
لتسبع جميع الخلق إن آمنوا ، وكذلك النار أُعِدَّتْ لتسبع الخلق جميعاً إن
كفروا

لذلك حين يذهب أهل الجنة إلى الجنة يرثون أماكن أهل النار
فيها ، كما قال سبحانه ﴿وَنُودُوا أَن تَبْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]

والجنة أى الجن والعقاريت

(١) حرج ابن صحبة فى مسنده (٤٣٤٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ
« ما منكم من أحد إلا به منزلان منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فعمل
أشار ووث أهل الجنة منزلته عند موله تعالى ﴿أُرْسِلْتُمْ هُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثًا﴾ [المؤمنون] »
قال البوصيرى فى الروايات هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قَدْ رَوَّوْا بِمَا نَفْسُكُمْ لَفَّ بِيَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسَبْنَاكُمْ
وَدُّوْا عَذَابَ الْجُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤)

والتقدير روقوا العذاب ، كما جاء في آية أخرى ﴿ دُوقُوا مِنْ
سَفَرِ ﴾ (٤٨) [الفجر] ويقال هذا لزعماء ورءوس الكفر ﴿ دُقْ بِكَ أَسْتَ
الْعَرَبُ الْكَرِيمُ ﴾ (١٩) [الدخان]

وحسب حاسة التدوق ، لأن كل وسيلة إدراك قد تتصل بلون من
لوان الدرف في الحياة ، أمّا الدوق فيتصل بمعداد الحياة وهو الأكل
والشرب وبهما قوام حياة الإنسان فهما ضرورتان للحياة لا مجرد
ترف فيها

ومى موضع آخر يُبين لنا الحق سبحانه أثر الإذاقة ، فيقول عن
القرية التي كثرت ربها ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْعَقُونَ ﴾ (١١٢) [الزلزال] وتصور أن يكون الجوع لباساً يستولي على
لجسم كله ، وكأن الله تعالى يريد أن يُبين لنا عضة الجوع ، التي
لا تقتصر على البطن فحسب ، إنما على كل الأعضاء ، فقال ﴿ لِبَاسٍ
لِجُوعٍ ﴾ (١٢٧) [الزلزال] لشمول الإذاقة ، فكان كل عضو في الجسم
مسيذوق ألم الجوع ، وهذا المعنى لا يؤديه إلا اللفظ الذي اختاره
القرآن .

وقد فطن الشاعر إلى هذه لشمولية التي تستولي على الجسم
كله فقال عن الحب الإنهى حين يستشرف في القلب ويفيض منه
ليشمل كل الحوارج ، فقال

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَتِيرُ مَوَدَّتِي فَأَحْسُنْ مِنْهَا فِي الْفُؤَادِ دَبِييَا
لَا عُضْوٌ لِي إِلَّا وَفِيهِ صَبَابَةٌ^(١١) فَكَأَنُّ أَعْصَانِي خُلْفَتُنْ قُلُوبَا
وَعَلَّةُ هَذِهِ لِإِزَافَةِ ﴿بِمَا سَيِّئُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [١١] ﴿[السجدة]
يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي حَدَّثْنَاكُمْ عَنْهُ . وَحَدَّرْنَاكُمْ مِنْ أَهْوَالِهِ . فَلَمْ
نَأْخُذْكُمْ عَلَى عَرَّةٍ . لَكِنْ نَهَنَّاكُمْ إِلَى سُوءِ الْعَاقِبَةِ . فَلَا عِصْرَ لَكُمْ الْآنَ
وَقَدْ صَحَّحْنَا لَكُمْ هَذِهِ الْأَهْوَالَ . فَكَأَنُّ مِنْ لَوَاحِبٍ أَنْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا
وَأَنْ تَعْتَبِرُوا بِهَا . وَتَتَأَكَّدُوا مِنْ صِدْقِهَا

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَحِينَ يَرَوْنَ هَذَا الْهَوْلَ وَهَذَا الْعَذَابَ يَنْزِلُ بِالْكَفَرَةِ
وَالْمَكْدُورِينَ يَفْرَحُونَ . لِأَنَّ اللَّهَ بَجَاهِمِ بَيِّمَانِهِمْ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ
وَتَكُونُ عَاقِبَةُ نَسِيرِ لِقَاءِ اللَّهِ ﴿يَا نَسِيرُكُمْ ..﴾ [١٢] ﴿[السجدة]
هَاسِمِ سَيِّئِمْ لِقَاءَ اللَّهِ . وَسَيِّئِمْ تَوَجُّهَاتِهِ . وَأَعْقَلْنِمُ إِذْأَرَهُ وَبَحْدِيرَهُ
لَكُمْ . وَنَحْنُ تَرْكِنَاكُمْ لَيْسَ هَذَا . إِنَّمَا تَرْكِينَاكُمْ مِنْ أَمْتِدَادِ الرَّحْمَةِ
بِكُمْ فَقَدْ كَانَتْ رَحْمَتِي تَشْمَلُكُمْ فِي الدُّنْيَا . وَلَسَمُ أَخْصَرُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ
بِي . بَلْ جَعَلْنَاهَا لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ يُعْطَى الْإِنْسَانَ مُطْلَقَ الْإِنْسَانِ طَالَمَا أَحْدٌ
بِالْأَسْبَابِ . لَا فَرْقَ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ . هَذَا فِي الدُّنْيَا . أَمَّا فِي الْآخِرَةِ
فَيَنْسَبُكُمْ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الَّتِي لَا تَسْتَحْقُونَهَا . بَلْ ﴿وَدُّوْا عَذَابَ
الْحُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٣] ﴿[السجدة]

فَبِإِنْ كُنْتُمْ قَدْ ثَمَرْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ فِي دُنْيَا مَحْدُودَةٍ .
وَعَمَرَكُمْ فِيهَا مَحْدُودٍ . فَإِنَّ الْعَذَابَ الْوَاقِعَ بِكُمْ الْيَوْمَ حَالِدٌ بَاقٍ دَائِمٌ .
فَخَسِرْتُمْ كَبِيرَةً . وَمَصِيبَتُكُمْ قَادِحَةٌ

(١) الصَّابَةُ الشَّوْرُ وَالْعَصْرُ الْعَاصِرُ الْمُسْتَبَاقُ [تَسَالُ الْعَرَبُ - مَادَّةُ حَسْبِ]

وقلنا إن العمل في الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغي أن تُحلَّ
حلاً صحيحاً ، فأنت في الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما مدة
بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة مخلود لا ينتهى فلو أن
النعيم فيها سواء كان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة

ثم إن نعمتك في الدنيا على قدر إمكانياتك وحركتك فيها أما نعيم
الآخرة فعلى قدر إمكانيات الله في الكون ، نعيم الدنيا إما أن يفوتك
أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه

إذن هي صفقة ينبغي أن تُحسب حساباً صحيحاً ، وتستحق أن
يسبيح من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس ، لذلك سماها
رسول الله نجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا ضَلَالَةً
بِالْهَدَىٰ لَمَّا رُبِعَتْ مَقَازِيَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

الحرور السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء في قوله تعالى
﴿ فَعَرَّوْا عَنْهُمْ السُّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ .. ﴾ [النحل] وفي موضع آخر قال
سبحانه في هذا المعنى ﴿ إِنْ أَدْرِي أَوَلَمْ يَلْمِزْ مِنْ قَبْلِهِ .. ﴾ [١٠٧] ﴿
[الإسراء] أى من قبل القرآن ﴿ إِذَا يَخُصُّ عَلَيْهِمْ يَحْرَوْنَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا
﴿ ١٠٧ ﴾ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ [١٠٨] ﴾ [الإسراء]

فالخرور أن تهوى إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود

فى القرآن يتلو هذه المادة (خر) دليل على أنها أصبحت ملكة وآية
فى المؤمن بل ويؤكد لها اسحق سبحانه بقرئه ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا
(١٧) ﴾ [الإسراء] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن فى الدلة ، وهو
فوق السجود الذى يعرفه فى الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة

وتم يذكر الحرور مع الركوع إلا فى موضع واحد ، هو قوله
تعالى فى شان سيدنا داود ﴿ وَطَىٰ دَاوُودُ أَلَمًا لَّمَّا لَمَسَهُ لَجَنتُهَا فَسَوَّىٰ رَبُّهُ وَحَرَ
رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢١) ﴾

وفى موضع آخر قال سبحانه ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ
خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ [الإسراء] فكلمة ازدادوا ذلة ارددوا خشوعاً ، فكأنهم
عشقوا التكليف ، وأحبوا أوامر الله لذلك بالغوا فى الدبة والعبودية لله
تعالى وهذه المسألة تفسر لنا قول النبى ﷺ « أقرب ما يكون
العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء »^(١)

ففى السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهى رمز اعلى والرُفعة
تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل
ثم يقول الحق سبحانه عنهم^(٢)

﴿ تَسْحَفِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٦) ﴾

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة وكذا أحمد فى مسنده (٤٧١/٢)
فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه

(٢) سلب نزول الآية أخرج الدرر (٢٢٥٠ - كشف الاستار للهيثمى) عن بلال بن رباح
أنه قال كنا نجلس فى المجلس وناس من أصحاب النبى ﷺ يصمون بعد المغرب إلى
المساء عرفت هذه الآية ﴿ تَسْحَفِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ (٦) ﴾ [المائدة] وتورده
السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) وعنه للبرار رحمه الله بطبعه عبد الله بن شبيب

التحامي يعنى الترك ، لكن اترك قد يكون معه شوق ويصاحبه ألم ، كما تودع حبيباً وتتركه وأنت غير زاهد فيه ولا قال^(١) له أما الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك ، فهؤلاء المؤمنون الذين يتركون مضاجعهم كان حنوبهم تكره المضجع وتجفوه ، لأنها تتركه إى مدة أبقى وأعظم هى لذة الاتصال بالله ومناجاته

ونذكر هنا أن لإمام علياً رضي الله عنه حينما ذهب ليدعى فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها وقف عند قبر رسول الله وقال السلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، قل عن صفيتك صبرى ورو عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التعرى معطيم فرقتك وقادح مصيبتك موضع تأس^(٢) - يعنى الذى تحمل فقدك يا رسول الله يهون عليه أى فقد بعدك - فلقد وسدتك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاصت بين سخرى^(٣) ونخرى نفسك ، أما ليلى فمسهد^(٤) وأما حرنى وسرمد^(٥) ، إلى أن يحشر الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، هذا وستخبرك أبنتك عن حال أمك وتصرفها على خصمها فأصغها السؤال ، واستخبرها الحال هذا ولم بطل منك العهد ، ولم يخش منك الذكر

ثم لما أراد أن يصرف عن قدر حبيه قال والسلام عليك سلام

(١) قلته قللى ابغضته وكرهته غاية الكرامة فتركته رافضى الشخص [النسخ - مادة فلى]

(٢) السخر الرثة والغلب أى أنها ماتت وهى مسنده إلى صدره والبحر الصدر وهو موضع القلاية منه [النسخ]

(٣) السردى نواف الرمال من قبل أو تهاوى والسردى الدائم الذى لا يتقاع [النسخ - مادة سردى]

مُورَعٌ ، لا قَالَ ولا سَنَمٌ ، فَإِنْ بَصُرَ فَلَاحِةً ، وَإِنْ أَقَمَ فَلَاحِةً
عَنْ سَوَاءِ طَنْ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الصَّابِرِينَ

فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَصَاحِفِ ..﴾ (٦) [السجدة]
أَي تَكَرَّهَهَا وَتَجَمَّعُوا ، مَعَ أَنَّهَا أَعَزُّ مَا يَرْكَنُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَ
رَاحَتِهِ ، فَالْإِنْسَانُ حِينَ تَدْبُ فِيهِ الْحَيَاةُ ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ لَهُ قُوَّةُ
وَبَشَاطَةٌ يَعْمَلُ فِي الْحَيَاةِ ، فَالْعَمَلُ فَرَعٌ وَحُدُودُ الْحَيَاةِ ، وَبِالْقُوَّةِ يَمْشِي ،
وَبِالْقُوَّةِ يَحْمِلُ الْأَثْقَالَ

فَإِذَا مَا أَتَعَبَهُ الْحَمْلُ وَصَعِبَ عَنْ نَفْسِهِ لِيَسْتَرِيحَ ، لَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَمْشِيَ بِدُونِ حَمْلِ ، فَإِنْ أَتَعَبَهُ الْمَشْيُ وَقَفَ ، فَإِذَا أَتَعَبَهُ الْوُقُوفُ
حَلَسَ ، لِذَلِكَ يَحْدُثُ أَنْ تَقُولَ لِصَاحِبِكَ لَوْ سَمِعْتَ أَحْمِلُ عَنْكَ هَذَا
الْحَمْلَ فَيَقُولُ يَا شَيْخَ ، هُوَ أَنَا قَادِرٌ أَنْ أَحْمِلَ بَعْدَكَ

بِشَيْءٍ السَّعْبِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِأَشْيَاءٍ مِنْ ثَقَلِ الْجِسْمِ عَلَى
الْقَدَمَيْنِ فَيَتَعَبُهُ الْوُقُوفُ أَلَا تَرَانَا إِذَا أَطَالَ الْإِمَامُ فِي الصَّلَاةِ
مِثْلًا نَرَارِجَ بَيْنَ الْقَدَمَيْنِ مَرَّةً عَلَى هَذِهِ ، وَمَرَّةً عَلَى هَذِهِ أَمَّا
الْقَعُودُ فَيَرِيحُ الْإِنْسَانُ ، لِأَنَّهُ يُوسِّعُ دَائِرَةَ الْعَصَا أَمَحْتَمَلٍ فَيُثْقَلُ
الْجِسْمُ فِي حَالَةِ الْقَعُودِ يُورَعُ عَلَى الْمَقْعَدَةِ كُلِّهَا ، فَإِذَا بَلَغَ بِهِ التَّعَبُ
حَدًّا بِحَيْثُ تَعَبَهُ الْقَعُودُ فَإِنَّهُ يَسْتَلْقِي عَلَى جَنْبِهِ ، وَيَمُدُّ جِسْمَهُ كُلَّهُ
عَلَى الْأَرْضِ فَيَتَوَزَّعُ الثَّقَلُ عَلَى كُلِّ الْأَعْضَاءِ ، فَلَا يَحْمِلُ الْعَضْوُ إِلَّا
ثِقَلَهُ فَقَطْ

فَإِنْ شَعَرَ الْإِنْسَانُ بِتَعَبٍ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَقَلَّبَ عَلَى جَنْبِهِ الْأُخْرَى
أَوْ عَلَى ظَهْرِهِ ، هَذِهِ كُلُّهَا أَلْوَانٌ مِنَ الرَّاحَةِ لِجِسْمِ الْإِنْسَانِ ، لَكِنَّهُ
لَا يَرْتَاحُ الرَّاحَةَ الْكَامِلَةَ إِلَّا إِذَا اسْتَغْرَقَ فِي النَّوْمِ وَيُسَمُّونَ هَذَا
التَّسْلُسَ مَتَوَالِيَاتٍ عَضَلِيَّةً

والدليل على أن النوم راحة تامة أنك لا تشعر فيه بالألم الذي تشعر به حال اليقظة - إن كنت تعاني من مرض مثلاً - وهذه كلها مشروبات يمر بها المؤمن ، وبالتالي إذا مات استراح أكثر ، ثم إذا بُعث يوم القيامة ارتاح الراحة الكبرى ، فهي مراحل يمر بها إلى أن نرتقى في حصن خلقنا عز وجل .

إن فاصضاجع آخر مرحلة في اليقظة ، ولم تأت إلا بعد عدة مراحل من التعب ، ومع ذلك شوق المؤمنين إلى ربهم ورغبتهم في الوقوف بين يديه سبحانه يُنسيهم هذه الراحة ويُزهِمهم فيها .
محفوظها لنقفوا بين يدي الله .

وفي موضع آخر قال تعالى عنهم ﴿ كَانُوا قَلِيلًا فِي الدُّنْيَا فَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [التَّوْبَةِ] ثم يقول سبحانه ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ . (١٦) ﴾ [السجدة] أي يدعون ربهم وهم على حال التعب ، كان الدعاء مجرد الدعاء يريجهم ، لماذا ولم يُجابو بعد ؟ قالوا لأنهم وضعوا حاجاتهم وطلباتهم عند قادر على الإنقاذ ثم إن حلاوه لقائهم بربهم في الصلاة تُنسيهم التعب الذي يعانون

والمؤمنون يدعون ربهم ﴿ حَوْفًا وَطَمَعًا . (٦) ﴾ [السجدة] أي خوفًا مما حدث مدهم من تقصير في حق الله ، وأبهم لم يُقدّموا لله تعالى ما يستحق من التقوى ومن الطاعة ﴿ وَطَمَعًا . (١٦) ﴾ [السجدة] أي في المفقرة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾ [السجدة] وأمراد هنا الركاة

لذلك نرى في قوله تعالى ﴿ تَعْبُدُونِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..

(١٦) ﴿[السجدة] أن هذا التحفي كان يقصد لصلاة ، لأن القرآن عادة ما يقرر لصلاة بالزكاة ، فقال بعدها ﴿وَمَا رزَقَهُمْ يُفْقُونَ﴾ (١٧)﴾

[السجدة]

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةٍ ۖ
أَعْيُنٌ حَرَّاءٌ يَّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧)

قلنا ، إن الحق سبحانه أخفى أسرار الخير عن الخلق ، ولم يعطهم منها إلا على قدر حاجتهم منها ، فإذا أراد سبحانه أن يجازي عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعلمون من خيرات الدنيا وإمكاناتهم فيها ، إنما يجازيهم بما يعلم هو سبحانه وبما يتناسب مع إمكانات قدرته

وهذه لإمكانات لا تستطيع نحن التعبير عنها لأن ألفاظ اللغة لا تستطيع التعبير عنها ، ومعلوم أن الإنسان لا يضع الاسم إلا إذا وجد المسمى والمعنى أولاً ، بذلك قال تعالى في التعبير عن هذا النعيم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةٍ أَعْيُنٌ﴾ (١٧)﴾ [السجدة]

وقال النبي ﷺ عن الجنة ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ،^١ إذن كيف نُسمي هذه الأشياء ؟ وكيف نتصورها وهي فوق إدراكاتنا ؟ لذلك سنحتاجها بها حين نراها إن شاء الله

(١) العدة كل شيء قرئت به عينك ، يقال أقرأ الله عينك أي بلغك لمببتك حتى تروى نفسك وتذكر عينك فلا تستشرف إلى غيره [لسان العرب - مادة قرأ]

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٤٦٦/٢) ، وابن القيم في حلية الأولياء (٢٦٢ ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

ثم ألا ترى أن الحق سبحانه حينما يعرض عينا طرباً من ذكر الجنة لا يقول لنا الجنة كذا وكذا ، إنما يقول ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُعِدَ الْمُتَفَرِّقُونَ ..﴾ (٣٤) [الرعد] أي أن ما نعرضه عليك ليس هو الجنة . إنما شبيه بها ، أما هي على الحقيقة فعوق بوصف الذي تؤديه اللغة . فإنا أعطينكم الصورة القريبة لأدهاكم

ثم يُنقى الحق سبحانه المثل الذي يضربه لنا من شوائبه في الدنيا . ونأمل في ذلك قول الله تعالى عن نعيم الجنة ﴿مِثْلُ أُجْنَةٍ الْتَمَى رُعْدُ الْمُتَفَرِّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ..﴾ (١٥) [محمد] وكانت آفة الماء عندهم أن يأسن ويتغير في الجرار ، فنقده الله من هذه الآفة

وكذلك هي ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ (١٥) [محمد] وكان العربي إذا سار باللبن يحمض فيعافه ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ..﴾ (١٥) [محمد] وآفة حمر الدنيا أنها تنفثال العقل ، وتذهب به ، وليس في شربها لذة . لذلك ترى شاربها وانعياذ بالله يجرعها مرة واحدة ، ويسكبها في فمه سكباً ، دليلاً على أنها غير طيبة ، وهل رأيت شارب الحمر يمتصها مثلاً كما تمتص كوباً من العصير ، وتشعر بلدة شربه ؟

وقد وصف الله حمر الآخرة بقوله ﴿لَا فِيهَا غُرْلٌ﴾ ولا هم عنها يهرعون^(١) (١٧) ﴿[الصافات]

(١) الغرل الصدع وقيل السكر وقال أبو عبيد الله الغرل أن تنفثال عقوبهم [سسر العرب - مائه غرل]

(٢) أرف القوم بعد شرايهم وأرف القوم إذا ذهب ماء شرهم وانقطع [سسر العرب - مادة ررب] قال السجك من ابن عباس في الحمر أربع خصال السكر والصداع والقوى والبول فتذكر الله تعالى حمر الجنة يذهبها من هذه الخصال . نقله ابن كثير في تفسيره ٧/٤]

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (٦٥) ﴿[محمّد]

فوصف العسل بأنه مُصَفًّى ، لأن آفة العسل عندهم ما كان يعلّق به
من الحصى والشوائب حين يفحلر من بيوت النحل في الجبال ،
مصفى لله عسل الآخرة من شوائب العسل في الدنيا

ومهم بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عظمت إمكانات في
الدنيا ، فلن نرى فيها نهراً من الحمر ، أو من اللبن ، أو من العسل
ثم إن هذه الأنهار تحرى في الحنة بلا شطآن ، من ويتداخل بعصها
في بعض دون أن يطغى أحد منها على الآخر وهذه طلائع القدرة
التي لا حدود لها

إذن الحق سبحانه حين يشرح لنا نعيم الجنة وحين يصفها
يعطينا المثال لا الحقيقة ، ثم يبقى هذا المثال مما يشوبه في الدنيا

ومن ذلك أن العري كان يحب شجرة السدر أي النبق ، فيستظل
بظلها ، ويأكل ثمرها ، لكن كان ينقص عليه هذه اللذة ما يهب من
أشواك لا يد أن تؤذي من يقطف ثمارها ، فلما ذكرها الله تعالى في
نعيم الجنة قال عنها ﴿فِي سِدْرٍ مَجْصُودٍ﴾ (٦٨) ﴿[الواقعة أي
منزوع الأشوك ، فالمتعة به نامة لا ينقصها شيء

ولما تكلم عن نساء الجنة قال سبحانه عن أحور العين ﴿لَمْ
يُظْمَثْهُنَّ﴾ (٦٩) ﴿[الرحمن] فنفى عنهن ما ينقص على

(٦) السدر - شجر النبق والسدر من الشجر سدرار - أحدهما برى لا ينتفع بثمره - وشره
لا يسرع في النبق - والسدر الشاسي يبيت على الماء - وثمره سبق لسفر مر [لأن
العرب - مادة سدر] المجصود - هو الذي خُمد شوكه فلا شوك فيه
(٧) ظمئت العرة - حامت فهي طامث والطمث - الافتصاص وهو الكماح بالقدمية بمعنى
لم يظمتن إسن أي - لم يمسسهن أحد

الرجل جمال المرأة في ابدنيد ، وطمانك أنها بكر لم ينظر ليها أحد قبلك

لهذا قال تعالى عن عيم الجبة ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ۖ ﴾ [السجدة] والقرة والقُرور أى السكون ، ومنه قرّ فى المكان أى استقر فيه ، والمعنى أن الإنسان لا يستقر فى المكان إلا إذا وجد فيه راحته ومقومات حياته ، فإذا أردت أن تستقر فى مكان أو تشتري شقة مثلاً تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق لح

حتى نحن فى تعبيراتنا العامية وفى الريف الذى يحتفظ لنا بحصائص العصرة الذهبية التى لم تُسْهَها زحف الحصارات ولا زحرفة المدينة ، وهذه القطريات تستهوى النفوس وتجذبها ، ندليل أن الإنسان الحضارى مهما بلغ القعة وسكن ناصحات السحاب ، ونوفرت له كل كماليات الحياة لا بدّ أن يأتى اليوم الذى يلجأ فيه إلى أحضان الطبيعة ، فلا ترقّاح نفسه ، ولا تستقر إلا فى اريف ، فيقصي هناك عدة أيام حيث تهدأ هناك نفسه وتستريح من ضوضاء المدينة ، والبعض يسمونها (الويك إند)

فمعنى (قرة أعين) أى استقرارها على شىء بحيث لا تتحول عنه إلى غيره ، والعين لا تستقر على الشىء إلا إذا أعجبها ، ورأت فيه كل ما تصبو إليه من متعة .

ومن ذلك قولنا (فلان عينه ملبانه) يعنى لا يحتاج مزيداً من المرائى غير ما يراه (ولمان عينه فارغة) يعنى لا يكتفى بما يرى ، بل يطلب المزيد ، فيبطل هنا وهناك .

فعى الحنة تقر العيون بحيث لم يحذ لها تطلعات فقد كُلت لها
المعاني فلا ينبغي لها أن تطمع فى شيء آخر إلا الدوام .

لذلك يخاطب الله رسوله ﷺ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِ
أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ ۚ ﴾ (١٣٦) [طه]

فإنسان إذا كانت عينه فارغة تراه رائغ العيسى ، ينظر هنا
وهناك ، ولو كانت عينه (مليانة) لانتهى عندها

ومن معانى مادة (قر) القُر وهو البرد الشديد ، وهذا المعنى
يُكثَّر به عن سرور النفس ، فالعين اسباردة أى المسرورة ، أما
العين الساخنة فهي الحريرة المتألماة

ومن المعانى أيضاً لفرور العين سكونها وعدم حركتها بعة
أو عسى ومن ذلك قول العروة التى سحلت على الخليفة فحدث أقر
الله عينك وأتمم علك نعمتك ففهم الحاصرون أنها تدعو له ، فقال
والله ما دعيت لى ، إنما دعيت على ، فهى تقصد أقر الله عينك يعنى
أسكنها فلا تتحرك ، وأتمم عينك نعمتك أى أزالها لأن النعمة إذا
تمت زالت ، فلا شيء بعد التمام إلا النقصان

ثم نُعلل الحق سبحانه هذا النعيم الذى أحفاه لعباده المؤمنين فى
الحنة بأنه ﴿ جَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧) [السجدة] وهذه أثارت معركة
بين العلماء هى معركة الاحياء مريق قال إن المؤمن يدخل الجنة
بعمله ، كما نصت هذه الآية أى أن الجنة بالعدل لا بالفضل ، ومريق
قال بل يدخل الجنة بفضل الله ، كما جاء فى قول الحق سبحانه

وتعالى ﴿قُلْ بِقِصِّ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) ﴿[يوس]

وقول النبي ﷺ ، من يدخل أحد الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته^(١) .

فلما حُمِيتْ هذه المعركة أرادوا أن يوحّدوا هُدين الرأيين ، ويوفّقوا بينهما ، فقلّوا لقد سبق الله تعالى المكلف بالإحسان ، فخلق له مقومات حياته قبل أن يوجد ، ثم تركه يرتع في نعمه دون أن يطالبه بشيء حتى بلغ سن التكليف

فإذا ما كُلفه الله بعد سابق نعمه عليه ، فعليه أن يطيع هذا التكليف جزاء ما سبق من إحسان الله إليه الإحسان الأول ، وبذلك يكون الجزاء في الآخرة ليس على العمل إنما محض فضل من الله على عباده

إذن حينما تؤدي ما كُلفت بك به كأنك مجارى ريت بطاعته على سابق إحسانه إليه فكان الجنة وبعيمها زيادة وفضل من الله ، فانه سبحانه له الفضل عليك في الأولى ، وله الفضل عليك في الآخرة .

ثم إن الحق - تبارك وتعالى - حين يُشرّع لك ويكلفك ، فشرّعه وتكليفه في ذاته مفضل ، ألا ترى أن الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها ، وأنها تصاعف إلى أصناف كثيرة ، ونحن ملُكّ سبحانه ، يعطينا أو لا يعطينا

(١) تفمده الله برحمته أدخله بها وعمره بها قال أبو عبيد قوله يتغمدني يتغمدي ويتغشائي ويستمر [لسان العرب - مادة غمد]

(٢) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة

وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدّم الإحسان أولاً ،
فيجب على العبد أن يأتى بالإحسان جزء الإحسان ، لأن ﴿ هَلْ حُرِّمَ
الْإِحْسَانُ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن]

وحيث يُحسِن العبد في التكليف يُحبُّه ربه بإحسان آخر ، فيرد
العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان وهكذا يتواصل الإحسان بين
العبد وربه إلى ما لا نهاية

ثم يقول الحق سبحانه^(١)

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ

فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [١٨]

أولاً نلاحظ في اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ،
فكان القياس أن نقول لا يستويان ، إما سياق القرآن ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾
[السجدة] وسبق أن قلنا إن (من وما) الموصولتين تأتي
للمفرد أو للمثنى أو للجمع ، والمذكر والمؤنث ، فمرة يراعى السياق
لفظها ، ومرة يراعى معناها .

والمعنى هنا ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ [السجدة]
الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنه قيلت رداً
لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأرد الحق سبحانه أن يعطيها

(١) بسبب نزول الآية خرج الواحدى وابن مسافر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس
قال قال أنس بن مالك عن أبي سعيد الخدري عن أبي طالب أنا حدُّثُكَ سَدِّدُ وأبسط
منك لسدِّدَ وأما لكنية منك فقال له علي استكت قائم أنت عيسى صرحت ﴿ أفمن كان
مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويون ﴾ [السجدة] [أسباب النزول للسيد علي ص ١٢٦]

العموم لا خصوص السبب ، فرعى السياق خصوص السبب فى مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة] والقاعدة الفقهاء تقول إن العبرة فى القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(١)

وهل إن هذه الآية برئت فى الرايد بن عقبة بن أبى معيط حين حادى علياً رضى الله عنه فقال له أنا أشبُّ منك شبباً ، وأجلد^(٢) منك حذاءً ، وأدرب^(٣) منك لساناً ، وأشدُّ منك سمناً ، وأشجع منك وجداناً ، وأكثر منك مرقاً فردَّ عليه على كرم الله وجهه بما يحصر هذا كله ويطله فقال له اسكت يا فاسق ، ولا موهبة لفاسق

والمعنى إن كنت كما تقول فقد ضيعت هذا كله بفسقك ، حيث استعملت قوة شبابك وجلدك وذرب لسانك وشجاعة وحدتك فى الباطل وفى المعصية ، وصى الصديق عن سبيل الله

وهكذا جمعت الآية بين خصوصية هذا السبب فى ﴿الْمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة] وبين عموم الموضوع فى ﴿لَا

(١) ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يعمدى صوره السبب الخاص لى بظاثرها ، كآيات اللعان ابنى مرت فى قدس هلال بن أمية روحته يسألون الحكم المأخوذ من هذا اللفظ لعمام ﴿والذين يؤمنون بأزواجهن﴾ [البور] غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر ، [صاحته لى علوم

لقرآن - معاد القطر - ص ٨٠ - نشر مكتبة وهبة ١٩٨٨ م]

(٢) الجلد القوة والشدَّة والصبر [لسن العرب - مادة جلد]

(٣) الدرب السان هو الحادُّ القمبل والدرب الماد من كل شيء [اللسان - مادة

درب]

يُسْتَوْرَك (١٨) ﴿ [السجدة] ، فهذا الحكم يتسحب على الجمع أيضاً

وجاء قوله تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِرُونَ ﴾ (٨) ﴿ [السجدة] كأنه جواب للسؤال ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا .. ﴾ (١٨) ﴿ [السجدة] لكن ، لماذا لم يأت الجواب مثلاً لا يستوى المؤمن والفاسق ؟ قالوا لأن هذا الأسلوب يسمى أسلوب الإقناع التأكيدى ، وهو أن تجعل الحسم هو الذى يبطى بالحكم

كما لو قال لك صديق لقد مررت بأزمة ولم تقف بجانبى فتستطيع أن تقول له وقعت بجانبك يوم كذا ويوم كذا - على سبيل الخبر منك لكن الإخبار منك يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، متوجاً إلى أسلوب آخر لا يستطيع معه الإنكار ، ولا يملك إلا الاعتراف لك بالحميل فتقول بصيغة السؤال أَمْ أَدِمْتُ لَكَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ؟ وأنت لا تسأله إلا إذا وثقت بأن جوابه لا بد أن يأتى وفق مرادك وعندها يكون كلامه حجة عليه

لذلك طرح الحق سبحانه هذه المسألة فى صورة سؤال ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا .. ﴾ (١٨) ﴿ [السجدة] ولأنه أن يقول نحن من جوب هذا السؤال لا يستوى مؤمن وفاسق ، ومن يقل بهذا فقد وافق مراد ربه

وما دام أن المؤمن لا يستوى والفاسق ، فكل منهما حزاء يناسبه

﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ

جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٩) ﴿

وإن كانت لفظه (مؤمن) جاءت مفردة فقد أوضحت هذه الآية

أَن الْمَرَادُ الْجَمْعُ ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..﴾ [السجدة]
 أَي الْعَمُومُ ، لِأَنَّهُ أُخِذَ مِمَّا كَانَ مُفْرَدًا جَمْعًا ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا
 الْمَفْرَدَ فِي جِسْمِهِ جَمْعٌ كَثِيرٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَالْعَصْرُ﴾ [١٩] إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَاسِرٌ ﴿[العصر]﴾ فَإِنَّ إِنْسَانَ مُفْرَدًا يُسْتَفْتَى مِنْهُ الْجَمْعُ
 ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [٢٠] ﴿[العصر]﴾ لِأَنَّ لَفْظَةَ الْإِنْسَانِ
 هُنَا تَدُلُّ عَلَى الْجَمْعَةِ ، وَ (أ) فِيهَا الِاسْتِفْرَاقِيَّةُ

فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَنْقُلُنَا مِنَ الْمُؤْمِنِ إِلَى الْعَمُومِ ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾
 [السجدة] ﴿[السجدة]﴾ وَمَنِ الْفَسُوقُ إِلَى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ..﴾ [٢٠] ﴿[السجدة]﴾
 فَهُمَا جَمْعَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ لِكُلِّ مَنَّهُمَا جَزَاءُهُ الَّذِي يَنْاسِبُهُ

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ جَاءَتْ الْمَأْوَى ..﴾ [٢١]
 [السجدة] وَالْمَأْوَى هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَيُلْحَا إِلَيْهِ
 لِيَحْفَظَهُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ عِيسَى وَآمَةِ مَرْيَمَ
 عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿وَأَوْبَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ رَمَعِينَ﴾ [المؤسرون]
 يَعْنِي يُمْكِنُهُمَا الْإِسْتِقْرَارُ فِيهَا ، لِأَنَّ فِيهَا مَقُومَاتُ الْحَيَاةِ (وَرَمَعِينَ)
 يَعْنِي عَيْنَ مَاءٍ

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ ابْنِ نُوحٍ حِينَ قَالَ لِأَبْنَيْهِ ﴿سَارِي
 إِلَى خَبْلٍ يَفْصِمِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [٢٢] ﴿[مود]﴾ فَذَبَّاهُ أَبُوهُ وَخَذَرَهُ ، فَقَالَ
 ﴿لَا عَصَمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمِي﴾ [٢٣] ﴿[مود]﴾

وَنَلْحِظُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ حَيَانَ الْأَوَّةِ مِنْ سَيِّدِنَا نُوحٍ حِينَ قَالَ
 ﴿رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ هَلِي﴾ [٢٤] ﴿[مود]﴾ لَكِنْ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُكَ عَلَى
 هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، إِنَّمَا يُصَحِّحُهَا لَهُ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾
 [٢٥] ﴿[مود]﴾

إِنَّ عَابِدِيَّوَهُ هُنَا لَيْسَتْ بِبُوءَةٍ سَبَّ ، إِنَّمَا بُوءَةُ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ أَلَا

ترى أن سيدنا رسول الله قال لسلطان القارسي وهو من غير العرب
بالمرة « سلّمان منا آل البيت »^(١).

وإن كان النسب ينفع من الآباء إلى الأبناء ، فهذه ليست
خصوصية للأنبياء إنما لكل الناس ، كما قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ
شَيْءٍ﴾ (٢١) [الطوبى]

والصق الأبناء بالآباء في الحقيقة كرامة للآباء أن يحدوا أولادهم
معهم في اجنة جزاء إيمان الآباء وعملهم الصالح ، فإن كان الأولاد
دون سبب التكليف فصحيح أن يالحقوا بالآباء ، بل وتكون منزلتهم
أعظم من منزلة آباءهم ، لأن الأطفال الذين يموتون قبل الرشد ليس
لهم أساكن محددة ، إنما يطلقون في اجنة يمرحون فيها كما
يشاؤون

وقد مثلنا لذلك بالولد الصغير تأخذه معك في زيارة أحد
الأصدقاء فتجلس أنت في حجرة الجلوس ، بينما الولد الصغير
يجري في أنحاء البيت ، ويدخ أي مكان فيه لا يبعده أحد ، لذلك
يسمى الأطفال (دعاميص) الجنة^(٢)

١- عن عمرو بن عوف المرومي قال : حدث رسول الله ﷺ الصديق عام الأحزاب من جم السمر
طرف بني حارثة حين بلغ المداة ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة قباختلف
المهاجرون والأصداء من سلمان القارسي ، وكان رجلاً قوياً ، ففالت الأصداء سلمان
عند وقال المهاجرون سلمان منا فقال رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت ،
أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤١٨ ، ٢) والحاكم في مستدرک (٥٩٨ ، ٢) وصنف
الذهبي إسناده من أجل كثير من عبد الله

(٢) عن أبي حسان قال قلت لأبي هريرة : إنه قد مات لي أبان فما أنت محدث عن رسول
الله ﷺ بحديث تطيب به نفسي ما عن موتاه ؟ قال : نعم ، معاذهم دعاميص الجنة يتلقى
أعدهم أباه - أو قال أبويه - فيأخذ بثوبه كما أخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتنامى حتى
يدخله الله وأباه الجنة ، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٥) ، وكذا أحمد في مسنده
(٤٧٧ ، ٢) (٥١٠)

والبعض هذا يثير مسألة أن الإنسان مرتين بعينه ، ولا ينتفع بعمل غيره . فكلُّ مُعَلَّقٍ من (عرقوبه) كما نقول ، فالبعض يسأل لماذا إذا صلى على الميت والصلاة عليه ليست من عمله ؟ فإن كانت الصلاة عليه لها فائدة تعود عليه فقد انتفع بغير عمله ، وإن لم تكن بها فائدة فهي عبث ، وحاشى لله أن يضع تشريعاً عبثاً .
ونقول هل صليت على كل ميت مؤمناً كان أو كافراً ؟ لا إنما صلى على المؤمنين ، إذن صلاتك أنت عليه نتيجة إيمانك وجزء من عمله ، ولولا إيمانه ب صليتنا عليه .

نعود إلى معنى كلمة (المأوى) ، فاجنة مأوى المؤمن ، تحفظه من النار وأموالها ﴿ نَرَىٰ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٩) [السجدة] أى حراء عملهم الصالح ، ولنزل هو المكان لمعدن لينزل فيه الضيف الطارىء عليك ، لذلك يسمون الفندق (نَرْس) ، فإذا كنت الفنادق القاهرة التي نراها الآن ما أعدده البشر للبشر ، فما بالك بما أعدده رب البشر لعباده الصالحين ؟

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

فَمَا وَهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُخُّوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ فَسَقُوا ﴾ . (٦٩) [السجدة] من الفسوق أى الخروج ، يقول فسقت الباحة يعنى خرجت عن قشورتها ، والمرد هنا الذين خرجوا عن طاعة الله وعن مطلوبات الحق سبحانه ﴿ وَمَا وَهُمْ النَّارُ ﴾ (٦٩) [السجدة] قلنا إن المأوى هو المكان الذى تأوى إليه ، فيحملك من كل مكروه ، فكيف توصف به النار هنا ؟

قالوا المأوى المكاف الذى ينزل فيه الإنسان على هواه وعلى
(كيفه) ، أما هؤلاء فينزلون من رغما عنهم ، أو أن الكلام هنا على
سبق النهمك واسخرية ، كما فى قوله تعالى ﴿ فبشرهم بمداب آليم ﴾
(٦١) ﴿ [ال عمران]

ومعلوم أن البشرى لا تكور إلا بالشيء السّر ، ومثل ﴿ ذق ﴾
إنك أنت لعزيز الكريم ﴿ (٤٩) ﴾ [الحج] وهذا كثير فى أسلوب القرآن
لأنه أسلوب يؤلم الكافرين ، ويحط من شأنهم

ثم يصور لنا الحق سبحانه ما فيه أهل النار من اليأس ﴿ كلما ﴾
أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها. ﴿ (٧) ﴾ [السجدة] وفى موضع آخر
قال عنهم ﴿ وما أدروا ينصالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ (٧٧) ﴿
[الحج] إذن لا أمل لهم فى الخروج ، ولا حتى فى الموت الذى
يريدهم مما هم فيه ، بل تردهم الملائكة فى العذاب ، ويقبضون لهم
﴿ ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ (٢٠) ﴿ [السجدة]

علافاقة نعدت السنان واستولت على كل الاعضاء ، فكل درة فيه
تدق عذاب انذر جزاء ما كانوا يكذبون بها فى الدنيا ، حيث كذبوا
بالأص ، وهو الرجوع إلى الله يوم القيامة

ثم إن عذاب العاصفين لا يقتصر على عذاب الآخرة ، إنما سيكون
لهم عذاب آخر يذوقونه فى الدنيا

﴿ وَلَيَذِيقَنَّ الَّذِينَ الَّذِينَ دُونِ الْعَذَابِ (١)
الْأَكْبَرِ لَعْنَهُمْ رَجُوعٌ ﴾

١ قال ابن عباس يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وأهانتها وما يحل بأهلها مما
يمثل الله به عباده ليقبضوا إليه وروى مثله عن كثير غيره وقال البراء بن عازب ومجاهد
وأبو عبيدة يعنى به عذاب القبر [تفسير ابن كثير ٤٦٢/٣]

﴿العذاب الأدنى ..﴾ (٤١) [السجدة] أى القريب والمراد فى الدنيا
 ﴿دون العذاب الأكبر ..﴾ (٤٢) [السجدة] أى عذاب الآخرة ، وهذا
 العذاب الذى سيصيبهم فى الدنيا مظهر من مظاهر رحمة الله حتى
 بالكافرين والفاسقين ، لأن الله تعالى علله بقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
 (٤٢) [السجدة]

إذن المراد ما يلحقهم من عذاب فى دار التكليف كالأسر والذلة
 والهران من كثرة المؤمنين وقوتهم ، ألم يركب عبد الله بن مسعود^(١)
 مع ما عُرف عنه من ضائلة الجسم^(٢) على أبى جهل فى إحدى
 الغزوات ، وقد طرحه فى الأرض وداسه بقدمه ، ويروى أن أبا جهل
 مظر إليه وهو على هذه الحال وقال : لقد ارتقيت مرتقى صعباً
 يا ربيعة الغم^(٣)

ورصف لعذاب فى الآخرة بأنه العذب الأكبر ، لأنه العذاب
 المحيط الذى لا مهرب منه ولا منجأ

(١) هو عبد الله بن مسعود بن عاتل الهدلى ، من أكابر صحبة رسول الله ﷺ عضلاً وعقلاً
 وقرباً من رسول الله وهو أول من جهز بالقرآن بمكة كان قصيراً جداً فكان الجلوس
 يوارونه ، ولما أتى بيت مال الكوفة بعد وفاة النبي ﷺ ثم قدم المدينة فى خلافة عثمان
 فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً

(٢) قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة كان ابن مسعود رجلاً سميفاً فحسبوا وقال إبراهيم
 التيمي أن ابن مسعود صعد شجرة فجعلوا يضحكون من دقة صائيه فقال رسول
 الله ﷺ أتضحكون منها ؟ بهما أنقل فى الميزان من جن أحد [ابن سعد فى الطبقات
 الكبرى ٢ / ١٤٣]

(٣) كان هذا فى عروة بدر ، حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتماس أبى جهل فى القلبي
 عمر عند الله بن مسعود نأى جهن فوجدته بأحد رمق فوضع رجليه على عنقه ، وقال
 له هل أخراك الله يا عمرو الله ؟ فقال له ألو جهن فقد ارتقيت مرتقى صعباً يا ربيعة
 الغم ثم حذر ابن مسعود رأسه [السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٧]

وقوله سبحانه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١) [السجدة] أى رجاء أن يعودوا إلى ساحة الإيمان وقلنا إن لعل تفيد الرجاء المحقق إن كان الفاعل من الله عز وجل ، أما الرجاء ههنا فـرجاء فى العبد الذى يملك الاحتيار ، لذلك رجع منهم البعض ، ولم يرجع الآخرون ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾
 إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾

هنا أيضاً يعرض علينا رب - تدرك وبغالى - هذه لقضية فى صورة هذا السؤال التقريرى كأنه سبحانه يقول لذ أنا رصبت ذمتكم با عبادى ، فقولوا لى هل يوجد أحد أظلم ممن ذُكر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها والمنطق الطبيعى ن يقول لا أحد أظلم من هذا وهذا إقرار منا بهذه الحقيقة ، لذلك عرضها الحق سبحانه فى صورة سؤال يدل الإخبار بها

ومعنى ﴿ذُكِّرَ..﴾ (٢٢) [السجدة] أى أن رسالات الله إلى خلقه ما هى إلا تذكير بعهد الإيمان القديم الذى أحده الله على عباده حين قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَبْرِكُنَّ﴾ (١٧٢) [الاعراف] وسبق أن قلنا إن فى كل ما ذرأ شهدت هذا العهد وعلى كل ما أن يحفظ إشراقات هذه الدرة فى نفسه بأن يُغنيها بالحلال ، ويعودها لطاعة لتبقى فيه إشراقات الإيمان

كما قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٦) فَأَنهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)
 قَدْ أَفْلَحَ مَن رَّكَاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) [شمس]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ
مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٣)

والإيتاء يختلف ، فهناك مَنْ يُؤْتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معا ،
وهناك إيتاء لكتاب موقوت لزمان موقوت لقوم موقوتين ، وإيتاء
آخر لكل الأزمان ولكل الامكنة

و ﴿الكتاب . (٢٣)﴾ [السجدة] أي التوراة ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ . .
(٢٣)﴾ [السجدة] أي في شك ﴿مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ (٢٣)﴾ [السجدة] لقاء
موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب ؟ إن كان لقاء موسى فهو تشيير
بأن الله سيجمع بين سيدها رسول الله وهو حي بقانون الأحياء
وموسى عليه السلام الميت بقانون الأموات ، وهذا لا يتأتى إلا إذا
كان حديث الإسراء والمعراج في انهم التقى فيه صادقا^(١)

لذلك في القرآن آية يسعى أن نقف عندها ، وأن نتأملها بيقظة ،
وهي قوله تعالى ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ آلِهَةً يَعْبُدُونَ﴾ (٤٥)

هذا تكليف من الله تعالى لمحمد ﷺ أن يسأل الرسل ، فممن
يسألهم ؟ فهذه الآية تنبيه بأنهم لا بُدَّ أن يلتفتوا بهذه الآية في لقاء
موسى والأخرى في لقاء كل الرسل^(٢) إذن علينا أن نصدق حديث

(١) عن أبي عيسى قال ، قال رسول الله ﷺ : « أريت مكة أسرى بين موسى بن عمران ورجلا
ادم طولا جعلا كانه من رجال شنوءة ، ورايت عيسى رجلا سريوع الخفق إلى المصرة
ودياض سيد الراسر - رراء فتادة عن أبي العاليه الرباحي - قال : يعني به ليلة الإسراء
نورده ابن كثير في تفسيره ، ٤٦٢/٣)

(٢) هو قول لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية (الرحرف ٤٥) أي واسألهم
ليلة الإسراء ، غار الأعباء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له [تفسير ابن كثير

الإسراء والمعراج وأن رسول الله ﷺ اجتمع بإخوته من الأنبياء
وحسبى بهم ودار بينهم حوار

أما إذا كان المعنى ﴿عَلَّا تُكُنْ هِيَ مَرِيَّةً مِّنْ لَّقَدْ..﴾ [٢٣] ﴿[السجدة]
أى لقاء الكتاب ، فالتوراة كما قلنا أصابها استحريف والتبديل ، وزيد
عليها وكُذِبَ فيها . يكن سياطيك يا محمد من أهل التوراة أمثال عبد
الله بن سلام من يعرفون التوراة بلا تحريف ويُسرِّبون إليك بها .
هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ
آيَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١٦٣] ﴿[آل عمران]

الم يواجه عبد الله بن سلام^(١) قومه من اليهود ، فيقول لهم
كيف تُكذِّبون محمد ، وقد كنتم تستفتحون به على الدين كُفِرُوا ،
فتقولون لهم لقد أفلَّ رمان نبي يأتي فستبعه ونقتلكم به قتل عاد
وإرم^(٢) لقد تجمعتم من شتى البلاد إلى اصطهركم . وحضتم إلى
يثرب تنتظرون مقدم هذا النبي ، فما بالكم تكذِّبونه ؟

وقال القرآن عنهم ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ ..﴾ [٨٩] ﴿[البقرة]

(١) من عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ
المدنية ، وكان اسمه « الحصين » شهد مع عمر فتح بيت المقدس واليهودية ، ولما كانت
لعنة بين على ومعاوية اتحد سيفاً من حشب واعتزله . وثقام بالمدينة إلى أن مات عام
٤٣ هـ - الإعلام للذكي ٩٠/٤]

(٢) عن إشياح من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهرأ من الجاهلية ونحن أهل شرك
وهم أهل كتاب وهم يعرفون ابن نبيا سيدنا الآن نتبعه قد أفلَّ رمانه فنقتلكم معه قتل
عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره
(١٣٤/١) نقلاً عن ابن إسحاق

ومن لقاء الكتاب الذي وعد به النبي ﷺ ما روي عن عبد الله بن سلام أنه لما أراد أن يؤمن أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهتٌ - يعني يتبحثون بالكذب - فإذا أسلمت قالوا هي ميسر في فاسألهم عني يا رسول الله قبل أن أعلن إسلامي ، فلما اجتمع لليهود سألهم رسول الله ما تقولون عني ابن سلام ؟ فقالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وابن حبرنا ... فقال عبد الله أما وقد قالوا ما قالوا يا رسول الله فاشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقالوا شرب وابن شرباً

فقال عبد الله ألم أقل لك يا رسول الله أنهم قوم بُهتٌ ؟

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ (٢٢) [السجدة] أي جعلنا الكتاب هدى وهذا دليل على أن منهم مهتدين بدليل شهادة القرآني لهم ﴿ مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (١٢٩) [آل عمران]

وقوله تعالى في الآية بعدها

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا حَاصِرُونَ ﴾
﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١٣٠)

أئمة ليس المقصود بالإمامة هنا السلطة الزمنية من بطنهم إنما إمامة القدوة بأمر الله لذلك قال سبحانه ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾

(١) بعدما أسلم عبد الله بن سلام قال يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عني قبل أن يعصروا بإسلامي فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ أي رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا ، وافضلت وابن أفضلنا فقال النبي ﷺ كرايتهم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا أعلقه الله من ذلك ، فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك مخرج إليهم عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا شربنا وابن شربنا ، وتلقصوه قال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٣٨) ، وأحمد بن حنبل (١٨٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢)

.. ﴿١٢﴾ [السجدة] ، فهم لا يصدرين في شيء إلا على هدى من ربهم
وفي سورة الأنبياء قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَابِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ [الأنبياء]

الإيقن هو الإيمان الذي لا يتزعزع ، ولا يطمو إلى العقر ليجث
من جديد ، يعنى أصبحت مسألة مسلماً بها ، مستقرة في النفس

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

تلاحظ على أسلوب الآية أنها لم تقل مثلاً إن ربك يفصل بينهم
إما استخدمت اضمير المنفصل (هو) لبعيد التأكيد والاختصاص ،
فالمعنى لا أحد يفصل بينهم في القيامة إلا الله ، كما قال سبحانه
﴿لَمَّا بَلَغَ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ﴾ ﴿١٦﴾ [عامر]

إذن جاءت (هو) لتقطع لشك في وجود العير
ولك أن تتأمل هذا الضمير في هذه الآيات ، ومتى استعصمه
الأسلوب ، يقول تعالى في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام
﴿فَأَنبَأَهُمُ عَدُوٌّ لِّي﴾ .. ﴿٧٧﴾ [الشعراء] أي الأصنام ﴿إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ
الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ والذي هو يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وإذا
مرصت فهو يشفين ﴿٨٠﴾ والذي يموتني ثم يحييني ﴿٨١﴾ [الشعراء]

فاستخدم لصمير لئال على الاختصاص في الهداية
والإعصام والسقيا والشفاء ، وهذه الأفعال مظنة أن يدعيها أحد
لنفسه ، أما الإحياء والإماتة فهي لله وحده لا يمكن أن يدعيها
أحد ، لذلك بدو هذا التوكيد ، فهي مسأله مسلّم بها لله تعالى

والشك يأتي في مسألة الفصل يوم القيامة ، لأن الله تعالى جعل من الملائكة المديرات أمراً لتدبير أمر الحق وقال سبحانه ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ^(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..﴾ [الرعد] أى تبعاً لأمر الله فيه فقد يعهم البعض أن للملائكة دوراً في الفصل بين الناس يوم القيامة ، كما أن لهم مهمة في الدنيا وتأمل هنا أن الله تعالى ذكر لفظ الربوبية فقال ﴿إِنَّ رَبَّكَ ..﴾ [السجدة] ولم يقل إن الله ، واربوبية كما قلنا عطاء وتربية ، وكأنه سبحانه يقول طمئنوا فالذى سيتولى مسألة الفصل هو ربكم

وقوله سبحانه ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^(٢)﴾ [السجدة] لأن الفصل لا يكون إلا عن نزاع ولذا لا بد أن يكون عن قضية تريد مراجعة من حكم حاكم ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - تكلم عن الرسالة التي أرسل بها رسوله ﷺ ليؤكد هي الناس عقيدة أعلى ، وهي عقيدة الوجود للإله الواحد الذى لا شريك له ، ثم بين أن لنا مع الله لقاء آخر حين تنهى هذه

(١) له معقبات أى ملائكة حفاة ينتهون به يحفظونه ويحفظون أعماله أى المعنى تتعاقب

الملائكة ليلاً ونهاراً [القاموس القويم ٢/ ٢٩]

الديا القابية ، ثم يستقبل حياة خالدة ، إما إلى جنبه إن شاء الله ، وإما إلى نار ويعود بالله

والحق سبحانه حين يعرض آياته في الكون بعرضها لتثبت أنه هو الذي خلق هذه الآيات العجيبة ، ولم يترك سبحانه نظره ونصرفه .
نما لفتنا وسهنا إلى وحب النظر إلى آياته هي الكون ، وحين يأتي من يريد أن ينفه عقلك فاعلم أنه لا يريد أن يخذلك ، أو أن يأخذك على غرة ، فربك يقول لك استقبل كلامي هذا بمتنهي التدبر والتذكر والتعقل .

ولو لم يكن رائقاً من أنه سيحصل بالتدبر والتعقل والتذكر إلى الغاية التي يريد ما لما به عقلك لآياته ، كما ترى عارض السلعة الحنده الواثق من حودتها يعرضها عليك ، ويكشفها لك ، ويدعوك إلى فحصها وتأمل ما فيها ، فهو لا يعمل ذلك إلا بثقته في بضاعته وأنها ستال رضال

أما صاحب السلعة المشوشة ميخدع ويمسك مع أساليب اللب والدوران والتغريب فحين تذهب مثلاً لشراء حذاء وجاء صيقاً يقول لك سيتسع بعدما تمشي فيه ، فإن جاء وسعاً يقول لك أحضر بك واحداً أوسع ؟ بيوهك أنه صيق ، وأساليب هؤلاء مكشوفة لا تحفى على أحد فالدى يريد أن يغش أو يحدع يلف القضايا ليسخرها عن عقلك المدبر المذكر المتمعن .

أما الحق سبحانه ، فكثيراً ما قال في قرآنه أملا يسمعون ، أملا يعقلون ، أملا يتدبرون القرآن ، لذلك من مصلحة الدعوة أن يتمقلها انس ، وأن يتدبروها ، في حين أن بعض أصحاب الديانات الأخرى يقول لك حين تدققه أبعده العقل عن هذه المسألة لماذا ؟ لأنه

واثق أنها لو بُعِثَتْ بالعقل لردّها العقل ولم يقبلها - والحق سبحانه يريد ألا يترك عذراً لأحد في البلاغ ، والدعوة قد بلغت الجميع بلاعاً سليماً واضحاً ، تلك آيات الله في الكون

ثم يأتى الحق سبحانه بآيات معجزة ليثبت صدق الرسول فيجعلها تخالف نواميس الكون فيما نفع فيه القوم ليقطع عليهم الحجة ثم يأتى بآيات الأحكام التى تحمل المنهج بأفعل ولا تفعل ، ويبيّن أن صلاح حركة الحياة فى تطبيق هذا المنهج ويترك للمخالفات أن تُظهر بعض العيوب ، فهذا ما نظرت إلى عيب أو عورة فى لمجتمع عرفت أنها نتيجة طبيعية لمخالفة منهج الله ، فكان المخالفة داتها من مؤكّدات الحكم

ثم يبيّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين من لدن آدم عليه السلام ، لأن الإنسان الذى هو خليفته فى الكون تصيبه غفلة حين ينحرف فى أسباب لدنيا ، ويأخذ عليه كل فكره وكل همه ، فيسى ما طلب الله منه ، فمن عادة الإنسان ألا يتذكر إلا ما ينفعه النفع العاجل ذلك يجد كثيراً من الناس ينسى ما للناس عنده ، ويتذكر ما به عندهم .

والحق سبحانه يقول أنا لم يعدْ لخلقى عندي حجة فقد شرّتهم لهم آيات الكون المُلَقَّنة ، وهى آيات واضحة لم يدّعها أحد بنفسه . ومع كثرة الملحدين والكافرين لم نرَ أبداً من ادعى خُلق الشمس أو القمر ، ولم يقل أحد إسمى أسيّر الريح ، أو أنبت الزرع ، أو أنزل الماء من السحاب .

والحق سبحانه يُنبها أيضاً لا تنسَ أنها الإنسان أنك خليفة لله فى الأرض ، وإياك أن تظن أنك أصيل فيها ، فساعة نظن أنك أصيل

فى الدنيا يتخى الله عت . ويتركك لنفسك فتهلك . كما حدث لقارون
حين وسع الله عليه فى الدنيا . فاغترَّ بما فى يده . وظن أنه من
سعيه وعلمه وحده

فكاست السجدة ﴿فحسباً به وبداره الأرض﴾ (٢١) [الفصل] لئله
الناس جميعاً أن المال ليس مال صاحبه ، إنما هو مُستخف فيه ، ولو
كان ماله لحافظ عليه ، فالحق يردُّ الناس بالأحداث إلى طبيعة الفطرة
الحلاقية . لأن فساد الكون يانى من اعتناء الإنسان نفسه أصيلاً فى
الكون

وسبق أن قلنا إن الإنسان إذا طر فى الكون نظرة فاحصة
عادلة لعلم ما ياتى أن كل شىء لم تتدخل فيه يد الإنسان سليم
ويؤدى مهمته على أكمل وجه . وأن كل فساد فى الكون إنما هو من
تدخُّل الإنسان فيه بغير قانون ربه . ولو تدخل فيه بقانون ربه
لصلحت له الأشياء التى تدخل فيها . كما صلحت له الأشياء التى
م يتدخ فىها

وقلنا إنك إذا رايت عواراً فى الكون فاعلم أنه نتيجة حق مُصنِّع
من حقوق الله فحين ترى فقيراً يتضور جوعاً أو عرياناً لا يملك ما
يستتر عورته . فاعلم أن الأغنياء قصرُوا فى أداء حق الله فى الزكاة
لأن الله تعالى شرعها بحساب . فهو أن القادر اخرج الزكاة المفروضة
فى ماله لما بقى فى المجتمع المحيط به محتاج

ثم يريد منا الحق سبحانه أن نحافظ فى نفوسنا على إيمان
الفطرة وعلى الدرة لإيمانية الأروى التى لم تدخلها الشهوة
ولم يخالطها المصيان . هذه الدرة التى شهدت العهد الأول الذى قال
الله فيه

﴿وَإِذْ أَحَدُ رُسُلِكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُغْيَانِهِمْ دُرَيْتُهُمْ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الاعراف]

أى قبل أن تأخذكم شهوات الدنيا وسبابها فتذكروا هذه الشهادة .
وتقولون ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ أو تقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الاعراف]

فانذى يحافظ على هذه الدرة ، وعلى هذه اللبسة الربانية التي
وضعها الله فيه بيده ، وعلى العهد الذي أخذته الله عليه يبقئ له نور
هذه اعطرة ، وتظل هذه الفورانية متججة في نفسه ، فإن أهملها
طمسها الذنوب والعلة

لذلك فالنبي ﷺ يصرب لما المثل فيقول : تُعْرِضُ الْأَمَانَةُ - أى
التكاليف الاختيارية من الله - على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأما
قلب أشربها نُكْتُتْ فيه مكتة بيضاء ، وأما قلب أنكرها نُكْتُتْ فيه مكتة
سوداء حتى تكور على قلبين أبيض مثل الصفا ، لا تصبره فتنة ما
دأمت السموات والأرض والآحر أسود مُرْبَاداً كالكور مُجَحَّصاً^(١)
ممقوناً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً^(٢) .

فالتطاعات أو الذنوب تتراكم على القلب كما تُصَفُّ عِبدان الحصير
عوداً بحوار عود فيسيخن القلب بالطاعات أو يسود بالمعاصي

(١) مرباداً أسود عليه غبرة وانتريد التلون [السمر - مادة ريد] والكرر المجحى أى
الملل الذى يصب ما فيه وهو هذا المائل عن الاستقامة فشيبه القلب الذى لا يعي خيراً
مالم يزل المائل الذى لا يثبت فيه شيء ، لأن تكوراً إذا مال انصب ما فيه [سائر العرب -
مادة ج ح ي]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٨٦/٥ ، ٥٠٤) ومسلم فى صحيحه (٤٤) كتاب الإيمان
من حديث حذيفة بن اليمان وعنه ، تُعْرِضُ الْأَمَانَةُ .

والإنسان فيه مادة ومعه روح ، الروح في المادة تعطيها الحياة والحركة والفهم والفكر والتصرف ، ومما قبل أن يلتحقا كانا مُسَبَّحِينَ لله تعالى بكل شيء في الوجود مُسَبَّح ﴿كُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ بِمَا صَلَّاهُ وَنَسِيحَهُ﴾ (١٦) ﴿[النور]

وعلى الإنسان أن يفهم هذه الحقيقة ، ون يحافظ على الطبيعة الإيمانية في ذراته ومكوناته لتظل مشرقة نيرة بنور الإيمان فإن عقل عن هذه الطبيعة حدثت الأعيار ، وحدث عدم الانسجام بين ذراته في الذات البشرية ، فحين تحمل إرادتك الحسم والروح على المعصية يكرهك جسمك ، وتكرهك روحك ، لأنك حالفته منهج ضائقها - عز وجل - فهي مُسَبَّحة عابدة وأنت لاه عامل عاصٍ ، لذلك تلعبت روحك وتلعبت أبعاضك

ومن رحمة الله بالعاصي أن ينام فترتاح أبعاضه ، وترتاح روحه من معاصيه ، وتأخذ راحتها في عبادة ربها ، حسرت لا مفاز لها ، ولا معاند من إرادة صاحبها ، لذلك يشعر الإنسان بالراحة عند النوم ، ويقوم منه نشيطاً لما حدث من انسجام وتعادل بين ذرات ذاته أثناء النوم

لذلك ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ كانت تنام عليه ولا ينام قلبه^(١) ، لأن أبعاضه منسجمة دائماً في يومه وفي يقظته ، فإذا رايت

(١) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان ؟ قالت : ما كان يوتر في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة يصلي أربع ركعتين فلا يسأل عن حسنتين وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنتين وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً فنقبت يا رسول الله ، تمام قبل أن توتر ؟ قال : « تمام عيني ولا ينام قلبي » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٦٩) وكذا مسلم في صحيحه (٧٢٨) كتاب صلاة المسافرين

إنساناً يخلب عليه أنه منهُك القوى فاعرف أنه قد أععب ذراته ، وأنها
توهُ الخلاص منه بالعموم ، وكأنها تقول به ثم فهم تعدُّ صالحاً للتعايش
معي

ذن الحق سبحانه يُنبِّها دائماً من هذه العفنة بواسطة الرسل ،
ثم يبرك سبحانه للرسالات التي سبقت أداة تؤيد الرسل الموحدين
وتعينهم على أداء مهمتهم ، لذلك يقول لنا انظروا إلى الرسل الذين
سبقوا ، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين بهم

﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ ۚ ۖ ﴾ [السجدة]
كما قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِعَادٍ (٦) إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ (٩)
وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

هذه الاهرامات التي بُدِ إليها الحاس ، والتي تُعدُّ مزاراً سياحياً
هي آية من آيات الله تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين
للرسل ، فالحق سبحانه لم يترك لأحد من خُنُفِهِ عُدراً بعد أن كشف
له آيات اكرونية تشهد بوحدانيته تعالى وألوهيته ، والمعجزات التي

(١) جبروا الصخر أي قطعوه وبخسروه وصنعوا منه بيوتهم وأسمانهم [القاموس القويم
١٢٥/١]

(٢) نقل ابن كثير في تفسيره (٤ ٥٠٨) أقوال السلف في تأويل الأوتاد

• الأوتاد الجودس الذين يشدون به أمره - قاله ابن عباس

كان فرعون يرتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها - قاله مجاهد وسعيد

ابن جبير

• كان له ملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال - قاله قتادة ،

وقال الاستاذ إبراهيم عبد الفتاح في كتابه : القاموس القويم ٢/٣١٨ ، • نقل المراد

بها الاهرام التي بناها فرعون تشبه الجبال •

تثبت صدق الرسول في البلاغ عن ربه ، ثم آيت الأحكام التي تحمل
أقصى الحياة والتي لا يمكن لبشر أن يستدرك عليها ، والتي تحمل
الحسن الشافي والدواء للناس لكل داءات المجتمع

وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذبين أمام أعينهم ، كما قال
سبحانه ﴿وَأَنكُمْ لَسَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ (٢٧) وبالنيل أفلا
تعقلون (٢٨) ﴿[الصافات]

فها هي آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدة عليهم ، بعضها
فوق الأرض ، ومعظمها مطمر تحت طبقات التري لذلك نجد أن كل
الآثار القديمة يحدوها في الجحريات تحت الأرض ، ولم لا وقد كانت
العاصفة تهب الهبة الواحدة فتبتلع القافلة بأكملها ، فما بالك بهتت
الرياح من أيام عاد حتى الآن إذن حذوا عبرة من مصير هؤلاء

ومعنى ﴿أَو لَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ .. (٢٦) ﴿[الجن] يهدي أي - يدل
ويرشد ويُنشئ ويوضح ، والهداية لها عناصر ثلاثة هاد ومهدي
والنشاء المهدي إليه ، ومادة (هدى) تستعمل في كتاب الله ثلاثة
استعمالات

الأول : أن يذكر الهادي وهو الله عز وجل ، والثاني : أن يذكر
المهدي وهم الخلق ، والثالث ، وهو أن يذكر المهدي إليه وهي
الغاية التي يريد بها الله

وهذا الفعل يأتي مرة متعديا بنفسه ، كما في سورة الفاتحة
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) ﴿[الفاتحة] أي يا الله ، هائل هو الهادي ،
ونحن المهديون ، والغاية هي الصراط المستقيم

ومرة يُعَدَّى الفع باللام كما في ﴿أُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا

.. ﴿٤٣﴾ [الأعراف] فلم يَقُلْ هَذَا هَذَا مرة يتعدى بإسى كما فى
﴿.. واللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢١٣) [البقرة]

فتلاحظ أن الهادى واحد وهو الله تعالى ، والمهدى هو الحَلْوُ ،
لكن لمهدى إليه هو المختلف ، ما فى هذه الآية فالأمر مختلف ،
حيث يقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ..﴾ (٢١٣) [السجدة] فلم تدخل
اللام على المهدى إليه ، إنما دخلت على المهدى ، فلم يَقُلْ الحق
سبحانه ولم يَهْدِ الله هؤلاء القوم لكننا

ولمادنا ؟

قالوا لأن بعض الناس يظنون أن الله حين يهدى إلى الطريق
يُحْمَلُك مشقات التكاليف ، لذلك نرى بعض الناس يتعرون من التكاليف
ويرونَ فيها عبثاً عليهم ومن هنا عبد بعضهم الأصنام ، وعبد
بعضهم لشمس أو القمر . الخ ، لأنها آلهة بدون منهج وبدون
تكاليف ، ليس لها أوامر وليس عندهم نواه ، وما أيسر أن يعبد
الإنسان مثل هذه الآلهة التى لا مطلوبات لها .

والذى يرى فى التكاليف مشقة ، ويرى عبثاً عليه يراها كذلك ،
لأنها تصادم مراد نفسه فى الشهوات وبحث من رغباته ، ومرادات
النفس ريف أعطتك لذة عاجله ، لكن يعقبا حسرة وشر أجل

ومتنبهاً لذلك بالتلميذ الذى يتحمل مشقة لمذاكرة والدرس طمعا
فى التفوق الذى ينتظر حلاوته ، وآخر يفضل اللذة اسريعة العاجلة
فيلعب ولا يهتم ، فيلاقى مدلة لفش والاحقار آخر العام

إذن عليك أن تقرر بين مشقة العمل والنتيجة والثمرة التى تنالها
من ورائه وعندها تهون عليك مشقة التكاليف ، لأن ما ينتظرك من

الاجر عليها اعظم مما قدّمت وأبقى

فالحق سبحانه يريد منا أن نقبل على التكليف ، ونعرف أنها لمصلحتنا نص ، وأنها في الحقيقة تشريف لنا لا تكليف ، لأن الذي كلفني لا يحتاج مني إلى هذا ، ولا يتفجع من عبادتي بشيء ، بل هو سبحانه يتحسن إليّ ، لاكون أهلاً لإنعامه وجديراً بفضله وكرمه

ألم يقل سبحانه ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (٧) ﴿[إبراهيم] فالمسألة إذن منك وإليك ، والله سبحانه له صفات الكمال قدر أن يحلّى عباده

فالإلام في ﴿أر لم يهد لهم ..﴾ [السجدة] أي لصالحهم ومن أجلهم ، وليس عليهم ، فالهدى لصالح المهدى لا الهادى ، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أن الهداية راجعة إليه لقل يد من بلغه عن الله هذا الفضل .

ويؤكد هذا المعنى - لمن فطن - قوله تعالى عن المؤمنين ﴿أرسلناك على هدى من ربهم﴾ (٥) [الشعراء] فالهدى ليس حملاً يحملونه ، إنما مطية يركبونها إلى العاية النبيلة التي أرادها الله بهم .

فما الذي سنّه الله للمؤمنين ودلّهم عليه ؟

يقول سبحانه ﴿كم أهلكنا من قبلكم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ (٢٦) [السجدة] أي انظروا إلى المحافين للرسول من قبلكم ، وكيف أخذهم الله فلم يتركهم من رسله ، بل انتصر الرسل عليهم

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد ، وهي بمعنى كثير كما تقول لمن يكر حميك كم أحسست إليك أي مرات كثيرة لا تعدّ .

والمراد أننا بينا لكم كثيراً من الأمم التي عادت رُسُدها ، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم التي انتهوا إليها

﴿ فَكَلَّا أَحَدُهَا بَدَتْهُ فَمِنْهُمْ ﴾ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَحْدَثَ الصَّبْحَةَ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ [المعكيات]

ومن مصلحتنا نُبَيِّنُ الله لنا عاقبة المكذبين ، لأنه سبحانه إلى الخطر قبل أن نقع فيه وسبق أن أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن قوله تعالى - من سورة الرحمن ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصُرَانِ ﴾ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ [الرحمن] فاعتبر الشواط والدار من النعم التي ينبغي ألا تُكذَّبَ بها ، لماذا ؟ لأنه بيَّنها إليها حتى لا نقع فيها

وقوله تعالى ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ ﴿٢٦﴾ [السجدة] القرن حده العلماء بمائة عام ، لكن هذه المائة تتداخل ، ويقترن فيها عدة أجيال يحتمعون على مذهب أو مبدأ واحد ، فالقرن يقترن بين الجد والابن والحفيد ، هذا إن أردت الزمن وحده ، فإن قرن الزمن بعصر دين من الأديان أو مبي أو ملك ، فقد يطول القرن إلى الألف عام ، كما في عهد نوح عليه السلام

فالقرن مرتبط بما قرن به ، لذلك نقول العصر الحاملي ، عصر صدر الإسلام ، عصر بني أمية ، العصر لعباسي ، عصر المماليك ،

١١ قال قتادة ﴿ مِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ [المعكيات] هم قوم نوح ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَحْدَثَ الصَّبْحَةَ ﴾ قال قوم صالح وقوم شعيب ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ قال قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال قوم نوح وقريش وقومه [الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٤/٦٦٣]

وما نزال حتى الآن نقول عن عصرنا العصر الحديث .

والحق سبحانه يبين لنا في الحياة اتى يعيشها أن الزمن متغير ، إلى أسمى في لماديات ، وإلى أدنى في المعنويات فكما تقدم الرمن احل الدس من رقة الدين وطلتوا منه ، ذلك لان الارتقاءات المادية ينتج عنها حضارات تستهوى النفوس وتغريها ، والنتيجة احدار في القيم وفي الدين ، ولو أن الارتقاء كان متساوياً لساار الامران في حطين مواريين .

لذلك يقول تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّا مَا أَمَرْنَا بِهَا إِلَّا وَالْغَدَاةُ ﴾ [يونس]

ثم إنك لو نظرت إلى جزئيات احصارة في الكون تحد أن الامم صاحبة الحضارات لم تستطع أن تجعل لنفسها وقاية من اندحار حضارتهم ، ولم يستطيعوا صباقتها حتى العصور القديمة كما في العصر الحجري ، ثم عصر البخار ، ونحن الآن في عصر الفضاء

إذن نحن مرتعون فقط في الماديات ، لكن منحدرون في المعنويات ، لكن هل هذا الارتقاء المادي جاء عن امثلاك لمعالم هدى الله في الأرض ؟ لا ، لان الله تعالى بين لنا ﴿ إِنَّ مَخْلُوقَنَا الذِّكْرَ وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ ﴾ [الحجر]

فأنا لذي أمرت ، وأنا الذي صممت حفظه ، فلم أتركه لكم تحفظوه إذن المسألة عن عجز منا ، ولا فكتاب البداية موحود حجة علينا .

وقوه تعالى ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. ﴾ [السجدة] أي اننى لا ألقى لقضايا بدون حجة أو دليل بل هي شاحصة أمامكم بمرون

بِهَا . وَتَرَوْنَهَا لَيْلَ نَهَارٍ كَمَا قَالَ سِجَّانُهُ ﴿وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ (٣٧) وَبِالْذِّلِّ أَفْلا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٨﴾

[الصافات]

ثُمَّ يَقُولُ سِجَّانُهُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفْلا يَسْمَعُونَ﴾ (٣٦) [السجدة] هَالِكٌ يَحْصُهُمْ عَلَى أَنْ يَسْتَمْعُوا إِلَى سِيرِ الْمَكْذِبِينَ الْمَعْتَدِينَ . وَمَا حَاقَ بِهِمْ مِنْ انْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ .

وَيَا لَ الْإِنْسَانَ مِمَّا قَصَرُ عَمْرِهِ ، أَمْ يَرَى ظَالِمًا . وَأَلَمْ يَرِ مَصْرَعَ هَذَا الظَّالِمِ وَعَاقِبَةَ ظَلَمِهِ . فَإِنْ لَمْ يَرِ ظَالِمًا أَلَمْ يُحْدِثْ عَنْهُ ؟ إِنْ مِمَّا يَصْلَحُ حَارَ النَّاسِ أَنْ يَسْتَمْعُوا إِلَى حِكَايَاتِ عَنِ الظَّالِمِينَ وَعَنِ نَهَابَتِهِمْ . وَمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْإِنْتِقَامِ الَّذِي لَا يَنْتَظِرُ الْآخِرَةَ بَلْ يُعْجِلُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَفِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ لَّهِ بَالِغَةٌ . لِأَنَّ الظَّالِمَ رِمَا لَا يَرْعَوِي وَلَا يَرْجِعُ فِي الدُّنْيَا عَنْ ظَلَمِهِ ، فَسَيُطْلَقُ يُعْرَبِدُ فِي الْخَلْقِ مَا أَحْيَاهُ اللَّهُ ، سَكَنَ إِنْ مَسَّهُ شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ ، فَلَرِمَا عَادَ إِلَى رِشْدِهِ . وَإِنْ لَمْ يَعُدْ كَانَ عِبْرَةً لغيره .

لِذَلِكَ قَالَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ لَنْ يَعُونَ ظُلُومَ حَتَّى يَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ وَرِمَا مَنْ رَأَاهُ ظَالِمًا يَرَاهُ مَظْلُومًا ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى نَهَايَةَ ظَالِمٍ فَيَنْتَظِرُ إِلَى مَصَارِعِ الظَّالِمِينَ قَبْلَهُ

وَتَأْمُرُ قَوْلَ رَبِّكَ ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ (١٣٩) [الأنعام] فَكَانَ الظَّالِمُ لَهُ رِسَالَةٌ ، هِيَ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ ظَالِمٍ مِثْلَهُ ، وَهَكَذَا يُهْلِكُ اللَّهُ هَؤُلَاءِ بَعْضَهُمْ بَعْضٌ ، لِأَنَّ اخْتِيارَ طَيِّبِ الْقَلْبِ لَا يُوَدِّبُ ظَالِمًا ، فَإِنْ اعْتَدِيَتْ عَلَيْهِ عِلْبٌ عَلَيْهِ طَابَعِ التَّسَامُحِ وَالْعَفْوِ

أَلَمْ يَقُلْ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ، اذْهَبُوا مَا أَنْتُمْ

الطلقاء « فكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِحَبِيرٍ اجْلِسْ أَمْتُ وَاسْتَرْحِ ،
وَاتْرِكِ لِأَشْرَرِ لِي ، فَسَوْفَ أَرْسِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ هُوَ أَشَرُّ مِنْهُمْ لِيُؤْذِيَهُمْ

وَاحْتَارَ الْحَقُّ هُنَا حَاسَةَ السَّمْعِ ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة]
لِأَنَّهَا وَسِيلَةُ الْإِدْرَاكِ الْمُنَاسِبَةُ لِلْمَوْقِفِ ، فَبِهَا نَسْمَعُ مَا يُحْكِي عَنْ
الطَّالِمِينَ وَبِهَا نَعْتَدُ ، وَفِي مَرْمَعٍ آخَرَ سَيَقُولُ ﴿فَلَا يَصْهَرُونَ﴾ [السجدة]
وَيَقُولُ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس] فَيُنَوِّعُ لَنَا ، وَيُقَلِّبُ كُلَّ
وَسَائِلِ الْإِدْرَاكِ لِيَسْهَلَنَا مِنْ حَلَالِهَا

وَالْمَعْنَى ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة] مَا يُرَوِّى لَهُمْ عَنْ مَصَارِعِ
الطَّالِمِينَ لَقَدْ نَبِّهْنَاهُمْ وَنَذَّرْنَاهُمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ أَشْرَكُوا وَجَعَلُوا سَمْعَهُمْ
(وَدُنَّ مِنْ طَيِّبٍ ، وَوَدُنَّ مِنْ عَجِيبٍ)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ
بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ نَحْنُ وَآبَاؤُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [٢٦]

أَوَّلًا لَكَ أَنْ تَلْحِظَ هَذَا تَرْفُوقَ النِّسْقِ الْقَرَّاسِي بَيْنَ صَدْرِ الْآيَاتِ
وَعِزُّهَا ، فَفِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ قَالَ سَبَّحَنَّهُ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ..﴾ [٢٥]
[السجدة] أَيْ يَدُلُّ وَيُرْشِدُ ، وَالْكَلَامُ فِيهَا عَنْ قِصَصِ تَارِيحِي ،
فَنَاسَحَهَا ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة] أَمَّا هُنَا فَانْكَلَامٌ عَنْ مُشَاهِدِ

(١) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي بَعْضُ أَمَمِ الْعِلْمِ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ نَبِيٌّ خَطَابُهُ عَلَى بَابِ
الْكُفَّةِ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَبَصُرَ عَبْدُهُ ، وَهَرَمَ الْأَحْرَابُ
وَحْدَهُ إِلَى أَنْ قَالَ مَا تَرَوْنَ بَنِي هَاعِلٍ فَيَكُفُّ قَالُوا حَبِيرًا ، أَخَ كَرِيمٍ وَابْنُ أَخِ كَرِيمٍ
قَالَ ادْمُؤُوا مَا بَيْنَ الطُّغَاءِ [رَاجِعِ السِّيَرَةَ الشُّرُوبِيَّةَ لِابْنِ عَشَامٍ ٤/ ٤١٢]

(٢) أَرْضُ جُرُزٍ لَا نَبَاتَ بِهَا كَأَنَّهُ انْقَطَعَ عَمَّا ، أَوْ انْقَطَعَ عَنَّا الْمَطَرُ [لِسَانُ الْعَرَبِ] مَادَّةُ
جُرُزٍ ، فَهِيَ الْأَرْضُ الْحَدِيثَاءُ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا أَوْ الَّتِي أَكَلَتْ نَبَاتَهَا أَوْ هَلَكَ لِأَيِّ سَبَبٍ
[اللُّغَةُ الْقَرِيمُ ١ ، ١٢]

مرثية ، فداسسها ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧) [السجدة] وهذا ينبهي أن يُسمع ، وهذا ينبغي أن يُرى

وفي الآية السابقة قل سبحانه ﴿ أَهْنَكُنَا .. ﴾ (٢٦) [السجدة] لنعتر
بإملاك المكذبين في الماضي . أما هنا فمليفتنا إلى آية من آياته في
الكون ، فيأتي الفعل ﴿ سَوْقُ الْمَاءِ .. ﴾ (٢٧) [السجدة] مصبغة المصارع
الدال على الحدّد والاستمرار ، ففي كل الأوقات يسوق الله السحب ،
هيمزل منها المطر على الأرض (الجر) أي المسجدة فتصبح
مُخضرة بأنواع الزروع والثمار ، وهذه آية مستمرة نراها جميعاً ، ولا
ترال في احوال وفي لاستقبال ، ولأن هذه الآية واقعة الآن نحتاج منا
امشاهدة والتأمل قل في ختامها ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧) [السجدة]

وفي موضع آخر قال سبحانه ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ رِبَةً لَهُمَا
لِيَأْكُلُوا مِنْهُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧) وَثُمَّ لِيَجْزِيَوهَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿ (٨) ﴾
[الكهف] فالجُرُز هي الأرض المقطوع منها النبات ، إما لأن الماء شحٌّ
عليه فجفّ ، وإما أنه استُحصد فحصدته

ومعنى ﴿ سَوْقُ الْمَاءِ .. ﴾ (٧٧) [السجدة] السَّوْقُ حثُّ سرعة ،
لذلك تقول للذي يتعجلت (ما لك سايقاً كده) ، ومعلوم أن السَّوْقَ
يكون من الوراء ، على حلاب القيادة ، فهي من الأمام ، فالذي تسوقه
تسوقه وهو أمامك ، تراه فلا يتقلت منك ، ولو كان خلفك فهو عُرْضة
لأن يهرب منك ، فلا تشعر به

والسَّوْقُ مرة يكون بالسحاب ، كما في قول الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ
الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُقَاهِئُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ .. ﴾ (٦) [طه]

ومرة يكون السَّوْقُ للماء نفسه كما في هذه الآية ، وسَّوْقُ الماء
له عدة مظاهر فانه يسوق الماء من السحاب إلى الأرض ، فبذا درس

إلى الأرض ساقه في الأنهار ، أن سلكه ينابيع في الأرض ليحتفظ لنا
به لحين الحاجة إليه

فربنا - عز وجل - جعل لنا خزانة للماء تحت الأرض ، لا لنحرم
منه حين يوجد ، لكن نجده حين يُفقد ، وكون الماء ينابيع في الأرض
يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا ، فلا يتبخر
ولا محتاج إلى بناء المسدود وغيرها ، مما يحفظ لنا الماء العذب

لذلك يقول النبي ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم
كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً - أرض خصبة -
قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب ، وكان منها أجاب أمسكت الماء ،
فشرب الناس منه وسقوا أنعامهم وزرعهم ، وكان منها قيعان
لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى
والعلم »^(١)

هذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بانعم ، فالأولى
تمسك الماء وتُخرج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس
به ، ولك أن تسأل فما فائدة الثالثة القيعان التي لا تمسك ماء ،
ولا تنبت كلاً ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

يقول هذه القيعان هي التي تسلك الماء في باطن الأرض ،
وصدق الله ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُمْرَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِينَ
(٢٢) [الحجر] وقال سبحانه ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مُّعِينٍ (٢) ﴾ [الملك]

(١) أحاده حماد في مسنده (٣٩٩/٤) رواية عبد الله بن رواد في المسند (٢١٩/٤)
والبحري في صحيحه (٧١) كتاب العلم (٢) ، وكنا نسم في صحيحه (٢٢٨٢) من
حديث أبي موسى الأشعري

إذن هذه القيعة لها مهمة يعرفها مَنْ قَطَعَ لهذه المسألة ، وإلا
فإنه تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً . كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ،
فمنهم مَنْ نرى أثر عَمِهِ خيراً عاجلاً . ومنهم مَنْ يتأخر نَفْعُ علمه
للأجيال القادمة

ثم إياك نُنْظُنُّ أَنَّ الماء حين يسلكه اللهُ يدايِبِعُ في باطن الأرض
يسبح فيها ، أو يحدث له استطراف سائلي يحتلظ فيه العذب بالمالح
لا . إنما يسير الماء العذب في شبه أنابيب ومسارب خاصة
يخلوهم حتى تحت مياه الخليج المالحة

وهذه من عجائب الخلق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما
يوجد برزخ بين المائتين على وجه الأرض ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾
بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] كذلك هناك برزخ للماء بين تحت
الأرض

فلحق سبحانه يلغى أقطارنا إلى هذه الآية المشاهدة ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا
أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُورِ .. (٢٧) ﴾ [السجدة] نعم ، هذه آية
نشاهدها جميعاً ، لكن المراد هنا مشاهدة تَمَعُنْ وتذكر وعطه وتَعَفَّلْ ،
تهتدى من خلالها إلى قدرة الحاق عز وجل

وقوله سبحانه ﴿ أَنَا نَسُوقُ (٢٧) ﴾ [السجدة] فيه دليل على
قيوميته تعالى على الخلق ، فَإِنَّ كَانَ سَوْقُ الماء يتم بواسطة الملائكة
المكلفين به ، إلا أنه تعالى صاحب الأمر الأول والمستمع لعملية
تنفيذه

وقدَّم الحق سبحانه الأنعام على الإنسان في الأكل من الرزق .
مع أنها كلها مخلوقة للإنسان ، لأن الأنعام في الغالب ما تاكل من

الزروع ، وهو ما يزال أخضر لم يصبح بعد ، لياكل منه الإنسان ،
وأيضاً هو سبحانه حين يطعم الأنعام فإنما يطعم مَنْ جعله له فاكهة
طعم ، وهي الأنعام

وأشربنا إلى أن دقة البیان القرآنى اقتضت أن نختم هذه الآية
المشاهدة بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٧٧) [السجدة] لأن هذه مسألة
تتعلق بالبصر

ولك أن تقرأ في مثل هذه الدقة قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ
اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلُ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضَاءٌ أَفَلَا
تَسْمَعُونَ ﴾ (٧٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تَكُونُ فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ (٧٧) [النصر]

فقل في الأولى ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧٦) [النصر] لأنها تتكلم عن آية
الليل ، والسمع هو وسيلة الإدراك فيه ، وقال في الأخرى ﴿ أَفَلَا
تَبْصُرُونَ ﴾ (٧٧) [النصر] لأنها تتكلم عن آية النهار ، والبصر هو
وسيلة الإدراك في النهار ، إن لاحظ دقة الراء وإعجازه لأن
المتكلم إله ورب ، فلا بُدَّ أن تجد كل لفظة في مكانها المناسب

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٨﴾

(متى) يستعهم بها عن لزمان والاستعهم بها مد على أنك

استبطات اشترى فاستفهمت متى يحدث ؟

الرسول ﷺ حين نعت أخضر قرمه أنه مرسل إليهم بمنهج من

الله ، وقد أيده الله بالمعجزات ، وأخبرهم بمصير من اتبعه ومصير من

حالفه وأن ربه - عز وجل - ما كان يرسله إليهم ، ثم يُسلمه أو يتخلى عنه ، فهو لا بُدَّ منتصر عليهم ، فهذه مئة الله في إتيانه ورسله ، حيث قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧١) **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ** (١٧٢) **وَأَنَّ جُنُودَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** (١٧٣) ﴿ [الصافات]

ذلك قلنا إذا رأيت مرقفاً لم ينتصر فيه المسلمون ، حتى في حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة ، فاعلم أن لجندية عندهم قد احتلت شروطها ، فلم يكونوا في حال الهزيمة جنوداً لله متحدرين

وحيث نأمل الأحداث في (أحد) نجد أن الله تعالى يقول للمسلمين لا تظنوا أن وجود رسول الله بيبكم يحميكم أو يُخرجكم عن هذه القضية ، فهذه سنة الله في كونه لا تتبدل

ففي (أحد) حالف المسلمون وأمر رسول الله ، حين نزل الرماة وتركوا أمكنهم طمعاً في الغنائم ، فالتف عليهم المشركون ، وكانت النتيجة لا نقول انهزموا ، إنما هم لم ينتصروا ، لأن المعركة (ماعت) ولرسول موجود بينهم^(١)

والعص يرى في هذه النتيجة التي انتهت إليها الحرب في أحد مأصفاً ، فيقول كيف يُهرم جيش يقوده رسول الله ؟ وهذه المسألة تُحسب للرسول لا عليه ، فالرسول لن يعيش بينهم دائماً ، ولا بُدَّ لهم أن يروا باعيتهم عاقبة محالفتهم لأمر رسول الله ، وأن يشعروا

(١) أمر رسول الله على الرماة عند الله بن جبير أحد بني عمرو بن عوف - والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقط - انصحب الحيز ع بالذبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فأنشبت مكانك لا تؤتين من قبلك - (السيرة لابن هشام ٢ / ١) وأورد البيهقي في دلائل النبوة (٢ / ٢٢٩) أن الرماة يعد بهزائم المشركين تركوا مواضعهم للفرار بالغنائم ، فقال بهم ابن جبير - أنقسم ما قال لكم رسول الله ﷺ ، قالوا - فأتين المأمن فاضطرب من الغيصة ، فقال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً .

بقداسة هذه الأوامر ، ولو أنهم انتصروا مع المشركين لعقدوا الثقة في
أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولم لا رقد خالفوه في أحد وانتصروا !

كذلك في يوم حنين الذي قال الله فيه ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ عَجِبْتُمْ
كُنُوتَكُمْ فَلَمْ نُنْصِرْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِتْ . ﴾ [البقرة]

وكان من إعجاب المؤمنين بكثرتهم أن يقول أبو بكر نفسه لي
نُعَلِّبَ اليوم عن قلة ، لئنك لأفهم الله تعالى درسا وكادوا أن
يَهْزَمُوا لولا أن الله تداركهم في النهاية برحمته ، وتمولت كثرة
الحرب لصالحهم ، وكان التأديب جاء على قدر المخالفة

فالحق سبحانه يعلمنا امتثال أمره ، وأن نخلص في الجندية لله
سبحته وأن ننضبط فيها لنصل إلى العاية منها ، فإن خالفنا حرمتنا
هذه العاية ، لأنى لو أعطيتك العاية مع المخالفة لما أصبح بحكمي
مكان احترام ولا موقير

وهنا يحكي الحق - تبارك وتعالى - عن المشركين قولهم لرسول الله
﴿ سَنَىٰ هَذَا الْفَتْحُ . ﴾ [الأنعام] أي النصر الذي وعدكم الله به ، وقد كان
هذا النصر عامة بعدده المال أمام المؤمنين ، مما زالوا قلة مستضعفة

لذلك لما نزل قول الله تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر]
[القمر] تعجب عمر حتى قال 'ي' جمع هذا ، ونحن لا نستطيع أن
نحمي أنفسنا ؟ لكن الحق سبحانه لم يُطِرْ عليهم هذا الوصع ،
وسرعان ما جاءت بدر ، ورأى عمر بعينه كيف تحقق وعد الله ،
وكيف هُزِمَ جَمْعُ المشركين ، ورددوا بنفسه بعد المعركة نعم
يا رب ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ^(١)

(١) قل عكرمة بن زبلة سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (١٥) [القمر] قال عمر أي جمع يهزم
أي أي جمع يُغَلَبُ قال عمر فلما كان يوم بدر رأي رسول الله ﷺ يش في المرح وهو
يقول : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، عرفت تأويلها يومئذ أوردته ابن كثير في تفسيره
(٢) [٢٢٦] وعمره لابن أبي حاتم

ومن المحيىب أن يدل رسول الله على الكفار وعلى أصحابه وأنصاره بفيض الله عليه ، وأنه أخذهم بنتيجة المعركة قبل حدوثها ، فيقف ﷺ في أرض بدر ، ويشير بعصا في يده إلى مصرع المشركين هذا مصرع أبي جهل ، وهذا مصرع عتبة ، وهذا مصرع الوليد^(١) الح

ممن يستطيع أن يحدد نتيجة معركة بهذا التفصيل ، والمعركة أخذ ورد وكر وفر واختلاط ، مع أنهم لم يخرجوا لحرب ، إنما خرجوا لملاقاة قافلة قريش التجارية ، فما بالك لو خرجوا على حل استعداد لحرب ، وهذه سياخذها الكفار قياساً يقيسون عليه قوة المسلمين الوليدة وسيقذف الله بهذه النتيجة الرعب في قلوب الكفار ، ولم لا وقد انتصرت الغلة المستضعفة غير امجهزة على لكثرة المتعجرفة المسنعة للحرب

والاستفهام هنا ﴿متى هذا الفتح﴾ (٢٨) السجدة ليس استفهاماً على حقيقته ، إنما يراد به الاستهزاء والسخرية ، وجواب الله على هذا الاستفهام يحدد نيتهم منه ، فهم يستبعدون هذا النصر وهذه الغلة التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، لكنهم يستبعدون قريباً ، ويستعجلون أمراً آتياً لا ريب فيه

وقد سحل القرآن عليهم مثل هذا الموقف من قوله تعالى حكاية عن الكفار يقولون لرسولهم ﴿فأنتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ (٧٠) [الاحزاب]

كلمة (الفتح) إن جاءت مُعرّفة بال فخيرها مصموم ، فاعلم أنها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد في مسنده (٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث

أنس بن مالك رضي الله عنه

نعمة محروسة لك سبحانه نعمها ، فإن جاءت بكرة فلا بُدَّ لها من متعلق يوضح الغية منها . أهذا الفتح لك أم عليك . بقوله تعالى في خطاب النبي ﷺ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِياً ﴾ [النجم: ١] على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ . فهو عَنَّم لا عَرَم ، كما يقولون في حسانات البنوك له وعليه

أما الأخرى ، ففي قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا سَوَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النجم: ٤٤]

إنَّ قَنَّهُ لما يفتحه الله عليك ، ولا تعثر به ، وتأمل أهو لك أم عليك ؟ وإياك أن تُطعمك النعمة إذا (دهزمت) لك الدنيا ، فلعلها استدراج وأنت لا تدري . فالفتح يحتمل المعنيين ، واقرأ إن شئت ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النجم: ٣٦] أي احذروا هذه النعمة لا تطعمكم

وكلمة (الفتح) تأتي بمعنى متعددة يحددها السياق . كما قلنا في كلمة العين ، فتأتي بمعنى العين الباصرة تقول رأيت فلاناً بعيني وتقول حُدَّتْ على فلان بعين مني أي بادهن أو الفضة ، وتقول سمحتُ له أن يروى أرضه من عيني أي عين الماء وتقول هؤلاء عيون فلان أي جواسيسه وهذا يسمونه المشتري اللطفي

وكلمه (الفتح) تستخدم أولاً في الأمر المادي تقول فتحتُ لباب أي أزلت مغاليقه . وهذا هو الأصل في معنى الفتح فالحق سبحانه يقول في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ﴿ وَلَمَّا فُتِحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِصَاعِهِمْ رُذْبَ إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف: ٢٥] ففتحوا متاعهم الفتح المادي الذي يزيل عنه الارتطة

وقد يُراد المفتح المعنوي ، كما في قول الله تعالى ﴿ وَإِذَا حُلَا
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَحَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِدَدَ
رَبِّكُمْ ﴾ (٧١) [السفر: أى بما أعطاكم الله ومنحكم من الخير ومن
العلم

ويأتى المفتح بمعنى إظهار الحق في الحكم بين حق وباطل وتجليه
الأمر فيه لذلك يسمى أهل اليمن القاضى (العاتج)

ويأتى بمعنى النصر والعلية ، كما في هذه الآية التي معنا
﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨) [السعدة] ولأنه أن
يقول المؤمنون في إجابة هذا السؤال نحن لا نقول أننا صارقون
أو كاذمون في هذا الخبر لأن هذه مسألة بعيدة عما ، ولا دخل لنا
بها ، إنما هي من الله الذى أخبرنا هذا الخبر ، فنحن لا نوصف فيه ،
لا بصدق ولا بكذب

ولكى يكون الإنسان عادلاً ينبغي أن ينسب الفعل إلى فاعله ،
أرأيت رسول الله ﷺ حين أخبر قومه خبر سرائه قال « لقد أسرى
بى الليلة من مكة إلى بيت المقدس » ولم يقل سرىيت ومع ذلك
سأله القوم أتدعى أنك أنتها في ليلة ، ونحن نصرب إليها أكباد
الإبر شهرًا ، وهذه معالطة منهم ، لا عدم فهم لمقالة رسول الله ،
لأنهم أمة كلام ، ويفهمون جيداً معانى الألفاظ

إذن رسول الله ما سرى بذاته إنما أسرى الله به ، فمن أراد
أن يحدث هذه المسألة فليبحثها في ضوء قدرة الله ، وكيف يكون
الزمن بالنسبة له تعالى ، وقلنا إن الفعل الذى يستغرق زماناً هو

(١١) حديث متفق عليه أخرجه المصنف من صحيحه (٤٧١٠) وكنا معتمد في صحيحه

(١٧٠) كتاب الإيمان ، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه

الفعل العلاجي إنما ربنا - تبارك وتعالى - لا يعالج الأفعال ، فقط يقول كُنْ فيكون . والفعل يتخلف مع زمنه مناسباً عكسياً ، فكما ردت قوه العاقل قلَّ زمن الفعل وعليه لو سببت حادثة الإسراء إلى قوة الحق تبارك وتعالى لوجدت الزمن لا زمن

ثم يجيب لحق تبارك وتعالى عن سؤالهم ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ (٢٨) [السجدة] بما يفيد أنه سؤال استبعاد واستهزاء ، فيقول سبحانه

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٢٩)

أى لم تسألون عن يوم الفتح ؟ وماذا ينفعكم العلم به ؟ إن يوم الفتح إذا جاء أسدل الستار على جراثيمكم ، ولن تنفعكم فيه توبة أو إيمان ، ولن ينصركم الله إلى وقت آخر .

ومعلوم أن الإيمان لا ينفع صاحبه إلا إذ كانت يديه فُسحة من الوقت ، أما الإيمان الذي يأتي في البرع الأخير وإذا ملقت الروح الحلقوم فهو كإيمان هرعور الذي قل حين أدركه لعرق ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَا إِسْرَافِيلُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩) [يونس] فردَّ الله عليه هذا الإيمان ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١) [يونس]

الآن لا ينعكس إيمان لامت مُقْبِل على الله ، وقد فات أوان العزم ، وحرَّ أوان الحساب ، الإيمان أن تؤمن وأنت حريص صحيح تستقبل الحياة وتحبها ، الإيمان أن تؤمن عن طوعية

(١) مال قتادة الفتح القضاء وقال الفرء والقسي معنى فتح مكة قال القرطبي في تفسيره (٧ / ٥٢٧) وأرسل من هذا ما قاله مجاهد قال يعنى يوم القيامة

﴿وَلَا هُمْ يُظْرُونَ﴾ [السجدة] أى ليس لكم الآن إمهال ، لأن
الذى خلقكم يعلم سرائركم ويعلم أمه سبحانه لو أمهلكم لَعُدْتُمْ لما
كنتم عليه ﴿رَلَوْ رَدُّوهُ لَعَادُوا مَا نَهَا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾

هذا لمعنى كما يقول فى العامية (ديبى عرص كفافك) أى
انصرف عنهم ، فلم يعد بينك وبينهم لقاء ، ولا جدوى من مناقشتهم
ولتأمل معهم فقد استنعدوا كل وسائل الإقناع ، ولم يبق لهم إلا
السيف يردعهم ، على حد قول الشاعر

أثاء فلان لم تُقنْ عَقَبٌ بعدها زعيذاً فإن لم يُغنى أغنتْ غرائمه
فقد بلغهم رسول الله وأنذرهم ، فقد بشرهم بالجنة لمن آمن ،
وحذرهم النار لمن كفر فلم يسمعوا إذن

فَمَا هُوَ إِلَّا الْوَحَىٰ أَوْ حَدَّ مُرْهَفٍ

فالعقل الوحى يقنعه والجاهل السيوف يردعه .

وقوله سبحانه ﴿رَاظِرٌ ..﴾ (٣) [السجدة] أمر من الله تعالى
لرسوله ﷺ أى انتظر وعدى لك بالنصر والغلبة ، وقلنا إن وعد
الله محقق ، حيث لا توجد قوة أخرى تمنعه من إيفاء وعده . أما
الإنسان فعليه حين يعد أن يتنبه إلى شره ، وأنه لا يملك شيئاً من
أسباب تفيد ما وعده

لذلك يُعَلِّمُ ربنا ﴿وَلَا تَقُولْ لشيءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٢) إلا أن

يُشَاءُ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ [الكهف] وتعليق أمرك على مشيئة الله عز وجل يحميت أن تكون كاذباً إذا لم تف بم وعدت به ، فأسباب الوفاء بالوعد لا يملكها البشر ، إنما يملكها خالق البشر سبحانه ، فإذا وعد فاعلم أن وعده منحقق لا محالة

وقلنا إيك حين تقول لصاحبك مثلاً سأفانك غداً أو سأفعل لك كذا وكذا ، نعم أنت صادق وتووى الوفاء ، لكنك لا تمك فى لعد سبباً واحداً من أسباب الوفاء ، فربما طرا لك طارئ ، أو منع مانع ربما تعير رأيك الخ

وفرّق بين انتظار رسول الله حين ينفذ أمر ربه ﴿إِنْتَظِرْ﴾ .. ﴿٣﴾ [السجدة] وبين ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ [السجدة] فانتظار رسول الله لشىء محقق ، له رصيد من القوة والعدرة ، أما انتظارهم فتسوين نفس ورسوسة شيطان ، لا رصيد بها من قوة إنفاذ

ومعنى ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ [السجدة] أى ينتظرون أن يحدث لرسول الله ﷺ شىء يمنعه من تبليغ رسالة ربه ، وهذا حمق منهم ، فقد كان عليهم أن يعلموا أن الرسول مؤيد من الله مُرسَل من قبله لهدايتهم ، وما كان الله تعالى ليرسل رسولا ثم يُسلمه أو يخذله ، فسنة الله فى الرسل أن بهم الغلبة مهما قويت شوكة المعاصين لهم

إذن لا سبيل إلى ذلك ، ولا سبيل أيضاً إلى الخلاص منه أو حتى تخويفه ليرتدع ، ويدع ما يدعو إليه من منهج ربه

وقد ورد هذا الانتظار فى موضع آخر بلفظ (التربص) فى قوله تعالى ﴿تَرْبُّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمَتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور]

وفى قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بى إِلاَّ إِحْذَى الْخَاسِرِينَ﴾ ..

(٥٢) ﴿[التوبة] أَيْ مَاذَا تَسْتَطِرُونَ مِنَّا وَنَحْنُ أَمَامَ حُسْنَيْنِ إِمَّا النِّصْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَيْكُمْ ، وَسَاعَتَهَا نُدْحَرُكُمْ وَبُدْلَكُمْ أَوْ الشَّهَادَةِ الَّتِي تَضْمَنُ لَنَا حَيَاةَ انْتَعِيمِ الْبَاقِيَةِ الْخَالِدَةِ ﴿وَمَنْ تَرْتَبِصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا ..﴾ (٥٢)﴾ [التوبة]

يعنى تَرَبَّصُوا مِنَّا ، فَتَحْنُ أَيْضاً فَتَرَبَّصْ بِكُمْ ، لَكِنْ فَرُقْ بَيْنَ تَرَبَّصْنَا وَتَرَبَّصْكُمْ .

وهذه السورة سميت (السجدة) أولاً لأن بها سجدة تلاوة ينبغي أن تسجد لله شكراً عندها ، والسجود يمثل منتهى الخضوع للحق - تبارك وتعالى - فإذا جاءت هذه الآية التي تهز كياب الإنسان يعلمنا ربنا أن يفعل لهرة الكيان ، وأن نسارع بالسجود ، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك في الصلاة

فكان في هذه الآية أمراً قوياً وسراً عظيماً استدعى أن تُخرج السجود عن موقعه بأمر مَنْ شرع السجود الأول إذن لا بُدَّ أن في آيات سجود التلاوة طاقات جميلة من نعم الله تُذكِّرني به والحق سبحانه يريد أن يشعر الخلق أنهم يستقبلون نعماً جديدة ، لا يكفي في شكرها السجود الرتيب الذي نعرفه - فيشرع لها سجوداً خاصاً بها

وفي السورة أيضاً بعض الإشارات التي وقف عليها العارفين وقالوا إنها تصع نماذج لصناعة انفس الإنسانية وعدم بُعدهم عن حكمة خالقها . ومن هذه الإشارات أن العين ترى الأشياء فنقول هذا حسن ، وهذا قبيح ، ذلك من مجرد الشكل الخارجى ، لكن على المرء أن يدامل الأشياء ويعرف معنى القبيح

انقبَحَ ليس م قَبَحٌ في نظرك إنما القبيح الذي يُخرِجُ الحُسْنَ
 التكليفي عن مناطه لأن الخالق - عز وجل - خلق كل شيء حميلاً ،
 كما قال سبحانه ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ۝ (٧) ﴾ [السجدة]
 فإذا قَبَحَ الشيء في بطنك فاعلم أنك نظرت إلى جانب الشكل ،
 واهملت جوانب أخرى ، وقلْ: نننى لم أتوصل إلى سرِّ الجمال فيه
 وسبق أن قلنا إن الخالق سبحانه ينثر امواهب بين خلقه بحيث
 تجد مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان
 فلا تنصر إلى جانب واحد وتقول هذا غنى ، وهذا فقير لكن انظر
 إلى احوال الأخرى
 ويروى أن سيدنا نوحاً عليه السلام رأى كلباً أجرب فبصق عليه ،
 فأطلق الله الكلب الأجرب ، وقال له أتعيبنى أم تعيب خالقي ؟
 والمعنى أنه حقننى لحكمة ، ولمعنى من المعانى
 وصدق لقائل^(١)
 لِلْقَبْحِ وَقْتُ قِيهِ يَظْهَرُ حُسْنُهُ وَيَحْمَدُ مَنْ غَشَّ الْجَنَاءَ نَدَى الْهَدْمِ
 كذلك ينثر الحق سبحانه حكمه ، وينثر حيره في كتابه فلا تغنى
 آية عن آية ، ولا تغنى كلمة عن كلمة ، ولا حرف عن حرف ، لكن
 الصائرا إلى تَتَقَى عن الله هي التي تستطيع أن تقف على سرار
 الله

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه واسمه محمد واسمه أحمد كما ذكر في القرآن ، والإنسان حين يولد يُوضع له اسم يدل على مُسمّاه ، نحسب إذا أطلقه الواضع انصرف إلى المسمى والقوم الذين سمّوا لهم محيط يُعرفون فيه وغيرهم يحسب الأسماء بهم محيط آخر ، فمحمد هذا المحيط غير محمد هذا المحيط

(١) سورة الأحزاب هي السورة رقم ٣٢ هي ترتيب المصحف الشريف ، وهي سورة مدنية عدد آياتها ٧٢ آية . برئت من المنافقين وإيأاتهم رسول الله ﷺ وطعنهم فيه وفي هناكته لنفسه ووجهه ﷺ من آية عمه وبيب بنت جحش ودب دخون بيوت أسبي ، وقد برئت سورة الأحزاب بالمدينة بعد سورة آل عمران وقبل سورة الممتحنة فهي السورة رقم ٨٩ هي ترتيب سور القرآن [راجع الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٢٧]

وتعرف لإنسان يكون بالاسم أو بالكُنية أو باللقب ، فالاسم هو العلم الذى يوضع لمسمى ليُعلم به ويُنادى به ، ويُميز عن غيره ، أما الكنية فاسم صدر دأب أو أم كما نقول أبو بكر ، وأم المؤمنين ، فإن سُمى به بداية وجعل علماً على شخص فهو اسم وليس كنية ، أما اللقب فما أشعر برفعة أو صفة كما نقول فلان الشاعر أو الشاعر الخ

فإذا أطلق الاسم الواحد على عدة مسميات ، بحيث لا تتميز بعضها عن بعض وجب أن تُوصف بما يميزها كاسرة مثلاً عشقتُ اسم محمد فسمتُ كل أولادها (محمد) فلا نُدُّ أن يقول محمد الكبير ، محمد الصغير ، محمد الأوسط الخ

ورسول الله ﷺ له اسم وكُنية ولقب ، أما اسمه فمحمد وقد ورد فى القرآن الكريم أربع مرات

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ ۝ ﴾ [ال عمران]

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَ أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَنْكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ ۝ ﴾ [الاحزاب]

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ۚ ۝ ﴾

﴿ ۝ ﴾ [الفتح]

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ ۝ ﴾ [محمد]

ويُورد باسم أحمد فى موضع واحد هو ﴿ وَمُشَرَّأً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۚ ۝ ﴾ [المند] وسبق أن تكلمنا فى علة هذه التسمية

أما كنيته فأنو القاسم ولقبه رسول الله

وهكذا استوى سيدنا رسول الله العَلَمِيَّة في أوضاعها الثلاثة
الاسم ، والكنية ، واللقب

واللقب يضعه أيضاً الأب أو الأم أو الذس المحييطون بالإنسن
إما يدل على الرمة تفاؤلاً بأنه سىكون له شأن ، أو يدل على
الضعفة وهذه فى العالب تحدث فى الأولاد الذين يخاف عليهم العين ،
فيختارون لهم لقباً يدل على الحطة والضعفة وما أشبهه (بلفاسوحة)
يُعلقونها على الصغر مخافة العين .

أما لقب رسول الله ﷺ فقد اختاره له ربه عز وجل وطبعه أن
ياتى لقبه ﷺ مُشعراً برفعة أهما رفعة هى ليست عند الخلق
محسب ، إنما رفعة عند الخالق ، فلما ولد رسول الله أسماء حده
بأحب الاسماء عنده وقال سَمَّيْهِ مُحَمَّدًا لِيُحْمَدَ فى الأرض وفى
السماء^(١)

ولما ولد القاسم كُنًى به رسول الله فقيل «بو القاسم» ، فلما
اختاره الله للرسالة والسفيرة بينه تعالى وبين الخلق لقبه برسول الله
وبالسى وهذا اللقبان على قدر عظيم من الرفعة لو جاءت من
البشر فما زالت وهى من عند الله ، فأنت حين تصع المقاييس
تضعها على قدر معرفتك وإمكاناتك

فالرسول ﷺ رسول الله وتبى الله بمقاييس الله ، فهو إذن مُشرف
عندكم مُشرف عند من أرسله و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَهُ﴾ ..
﴿١٦٤﴾ [الأنعام]

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية ١/ ١٧ أن أمة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت
تحدث بها أتيد - حين حملت برسول الله ﷺ - فتبين لها أنك قد حملت بعبد هذه الأمة
فهذا وقع إلى الأرض مقولى أعبيد بالواحد من هز كل حاسد ، لم سمّه محمداً

صاحبُ شيءٍ في الإعلام برسول الله أن يقول محمد ، أو أبو القاسم أو رسول الله أو انبي ، والحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُأده باسمه آنذا ، فلم يَقُلْ يا محمد ، إنما بلقبه الذي يُشعر برفعته عند الحق سبحانه . فقال في دعائه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. ﴾ (٦٠) ﴿ [الاحقاف] . ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ .. ﴾ (٦١) ﴿ [العائدة]

ولو تتبعت دعاء الله للرسول من لدن آدم عليه السلام لا تجد رسولا يُؤدى بغير اسمه إلا محمد ﷺ أما لفظ (محمد) فقد ورد في القرآن لكن في غير الدعاء . ورد على سبيل الإيضاح بأن محمدا رسول الله

وحتى في الإخبار عنه ﷺ أخبر الله عنه بلقبه ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .. ﴾ (٦٨) ﴿ [التوبة]

وقال ﴿ رَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٦٩) ﴿ [الفرقان]

إذن في الدعاء استقل بيا أيها النبي ، ويا أيها الرسول أم في الإخبار فلا بُدَّ أن يذكر اسمه (محمد رسول الله) ، ولا فكيف يعرف أنه رسول الله ؟ فيخبر به أولاً اسماً ومُسَمًى .

وؤدى ﷺ بين أيها انبي ، ويا أيها الرسول تعظيماً له ﷺ ، وحين يريد أن تُعظَّم مَنْ نُنَادِي نَسِيقُ الاسم بمقدمات ، نقول يا سيدي فلان يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب لعة الخ

وقد تقدمت (أيها) على المنادى هنا ، لأن الاسم المنادى المحلى بآل لا يُنادى مباشرة لا في لفظ الجلالة (الله) فنقول يا الله فكأن الحق سبحانه توخَّذَ حسي في الدعاء ، هذا في دعاء المهرود

والحق سبحانه نادى رسوله بيسمائها النبى ، وبنائها الرسول .
لرسول هو سفير بين الله وبين خلقه ، ليُبلّغهم منهجه الذى يريد أن
تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلّغ . أما النبى فمرسل أيضاً من قبل
الحق سبحانه . لكن ليس معه شرع جديد . إنما يسير على شرع من
سبقة من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسوة سلوكية لقومه

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات
أمر بها ، ولم يُؤمَر بتبليغها - وهذه مسائل خاصة بالنبوة - وله أمور
أخرى أمر بها ، وأمر بتبليغها

ومعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى
رسولاً بالمعنى الاصطلاحي . وإلا فهُم جميعاً مرسلون من قبل الله

وكلمة (لنبى) مأخوذة من النبأ وهو الخبر المهم ، فالخبر يكون
من البشر للبشر . فمن كان من خالق البشر فهو نبأ أى أمر عظيم
ينبغي الاهتمام به وأصله من النبوة وهى الشئ العالى المستدير
فى وسط شئ مستقر

فحين تقول رأيت فلاناً ليوم . هذا لا يُسمى نبأ إنما خبر
بذلك قال سبحانه ﴿عَمُ يُتَسَاءَلُونَ (٦) عَنِ النَّبِىِّ الْعَظِيمِ (٧)﴾ [النبا] أى
لخبر الهائل الذى هز الدنيا كلها ، وملا الأسماع وزلزل العروش

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿أَتَقْبَلُ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب]
سبق أن قلنا . إن الكلام العربى مُقسَم إلى خبر وإنشاء . فالخبر
نسبة كلامية كانت قبل التصق بها نسبة ذهنية . وبعد التصق بها
كلامية فإن كان لها معنى ومدلول فهى نسبة واقعية ، والحر هو
لقول الذى يُوصَف بالصدق إن طابق الواقع ، ويُوصَف بالكذب إن
خالف

أما الإمشاء فهو مقابل الخبر بمعنى قوٌّ لا يوصف بصدق ولا كذب ، كان نقول لإنسان قف ، فهذا أمر لا يقل لقائله صادق ولا كاذب

فقوله تعالى لنبيه ﴿اتقِ اللَّهَ . (١)﴾ [الأحزاب] هذه نسبة كلامية من الله لرسوله ، ليس حدث مدلول هذا الأمر ، وهو التقوى ، لكن أكان رسول الله ﷺ غير تقى حتى يأمره ربه بالتقوى ؟

يقول بس بالضرورة أن يكون الرسول عصى ، فبأمره الله بتقواه ، لكن الحق سبحانه ينشئ مع رسوله كلاماً بدايةً دون سابقة عصيان أو أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك فى بداية الدراسة اجهد وذاكر دروسك ، وأنت تعرف أنه محند ، لكن لا ندُّ من تقرير المبدأ فى بداية الأمر

ثم إن الحدث يحدث فى أزمنة ثلاثة ماضٍ وحال ومستقبل ، فإذا طلب من شخص فعل شيء هو مقيم عليه بالفعل كقوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الدِّينُ آمَرًا آمَرًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ (١٣)﴾ [نساء]

فالحو سبحانه بأمرهم بالإيمان . مع أنه وصفهم وحاطبهم بلفظ الإيمان ، لأن لمعنى أنتم آمنتم قبل أن أكلمكم ، وهذا الإيمان السابق لكلامى ماضٍ ، وأنا أريد منكم أن تحدثوا إيماناً حديداً حالاً ومستقبلاً ، أريد أن تجددوا إيمانكم ، وأن تستمروا عليه

فمعنى ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتِّقِ اللَّهَ . (١)﴾ [الأحزاب] أى واصل تقوال حالاً . كما فعلتها سابقاً ، وواصلها مستقبلاً . فلا تنقطع عنها أبداً

أو أن تقوى الله أمر يلصق الإنسان بربه . والله كلف بأشياء

ثم أباح لك من جنس التكليف أشياء فإننا قال الله لرسوله ﷺ اتق لله
(١) [الاحزاب] فهي غير قوله لما اتقوا الله فالأمر لنا نحن
بالتقوى أى بغيره فحرص على ، أما فى حق رسول الله ﷺ
بمعنى ادخل فى مقام الإحسان ، وجدده دائماً لأن مراعى القول
من الله لا تنتهى ، كما أن كمالات العطاء على الله لا تنتهى

لذلك قال ﷺ « من استوى يرماه فهو مغبون »^(٢) أى من
استوى يومه مع أمسه فى قربه من الله فهو خاسر لماذا ؟ لأنه
يبقى لمؤمن أن يريد فى قربه وفى مودته ، وعلاقته بالله يوماً بعد
يوم لأن نعم الله عليك متوالية تستوجب شكراً متوالياً ، وحمداً دائماً

كما أن الحق سبحانه لا يكتفى من رسوبه بما يكتفى به من سائر
الحق ، من فالتقوى بالنسبة لرسول الله غير التقوى بالنسبة لسائر
الخلق لتقوى فى حق رسول الله مجانباً واسع ولرسول مع الله
فيوضات لا تنتهى .

ذلك حين يناديك ربك للصلاة فى كل يوم خمس مرات ، فأعلم
أن فضله عليك غير مكرر ، بل فضله متجدد ، فعطافه بك فى الظهر

(١) ذكره الأرنؤئسى فى « التذكرة فى الأحاديث المشتهرة » (ص ١٢٨) بطوله « من استوى
يوماه فهو مغبون ، ومن كل آخر يومه شراً فهو ملعون ، ومن لم يكن على الريانة فهو
فى البصيص فالعوت خير له ومن استاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن شفق من
النار لهى عن الشهوات ، ومن ترقب الموت كان عليه اللذات ومن زهد فى الدنيا فانه
عليه المصيبات » وقال « أسنده صاحب مسند الفردوس (الذهبى) من حديث محمد بن
سرقه عن الحديث عن على بن موعز وهو إسناد ضعيف ، قال الحافظ العراقى فى تحريج
أحاديث الإحياء (٢٢٥/٤) لا أعلم هنا إلا من منام لعدد العريز بن أبى رواد قال رأيت
النبى ﷺ فى الحورم فقلت يا رسول الله ، أوصنى ، فقال ذلك بريادة من آخره رواه
البيهقى فى الرهد

غير عمائه لك في العصر ، غير عفاؤه لك في المغرب ، وهكذا تكون التقوى عملاً متواصلاً ممدداً .

ولذلك يحذروا أهل الحبير أن يداوم مع الله في شيء من الصاعة ثم نقصر عنها كذلك يحذروا لشرع أن ينذر الله ما لا نستطيع لوفاء به . لأنك بالنذر تفرض على نفسك الطاعة ، فأجمل بك أن تظل في مقام التطوع ، إن خفت نفسك للطاعة أدّها ، وإن قصرت فلا شيء عليك

وكذلك تفرض على نفسك شيئاً من الصاعات من جنس ما فرض الله عليك يعني أنك أصبحت لطاعة وحلت بك العبادة حتى ردت الله منها ، فقلت مثلاً نذرت لله أن أهسي من الركعات كذا ، أو أتصدق بك من المال لأنك رأيت في الصلوات الخمس إشراقات وقيوصات من الله فردت منها

والحق سبحانه يطلب مما خير يباديها للصلاة أن تسعى لمسجد ، مع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور لكن المسجد خصص للصلاة ، فينبغي أن تؤدى فيه وأنت في صلاة ما سمعت تسعى للصلاة ، فمن كان بعيد البيت عن المسجد عليه أن يأتي الصلاة في سكرية وودر ولا يخرج عن هذا السمّت حتى وإن تأخر عن تكبيرة الإحرام

وقد ورد في حديث سيدنا رسول الله « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وتوها تمشون وعيكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا »^(١)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧، ٢٢٩ - ٢٧) ، ومسلم في صحيحه (٦٢) كتاب

المساجد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه



وهناك مطلوب إيمان ومطلوب إحسان مطلوب الإيمان هو ما فرضه الله عليك وحساء في الحديث لقدسى « ما تقرب إلى عدى شىء أحب إلى مما هنرسته عليه »^(١)

فإن أردت أن تقترب إلى الله فتقرب إليه بما يحب ومن جسد ما فرضه عليك ، فله أمرك بصلاة وصيام وزكاة فإن حلت لك هذه لعبادات فرد منها فوق ما فرضه الله عليك وحين تريد اعرف أنه مسئلة موراثية الإشراف في العبادة فقلت الله يستحق منى فرق ما كلفى ، وهذا هو مقام الإحسان

وسبق أن تحدثنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّبِيِّينَ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [النار: ١٥-١٨]

وهل فرض الله على عبده ألا يهجع إلا قليلاً من الليل ؟ لا بل لك أن تضى العشاء وتنام حتى صلاة الفجر ، كذلك فى الاستغفار أما الذى لا يهجع من الليل إلا قليلاً ويقوم فى السحر للاستغفار ، فلا بد أنه حلت له العبادة ، وحلا له الوقوف فى حضرة ربه - عز وجل - نحن فى مقام الإحسان .

ثم الإحسان نوعان إحسان كم ، وإحسان كيف ، إحسان الكم بأن تريد على ما فرض عليك فتصلى فوق الفرض وتركى فوق الفرض أم إحسان الكيف بأن تخلص فى عبادتك لله ، وأن تحيد الله

(١) جزء من حديث قدسى ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٢٠) من حديث ابن مبررة وأخرجه أحمد بن مسنده (٢٥٦٦) من حديث عائشة . وقد أفاض فضيلة الشيخ محمد منزلى الشبراوى فى شرح هذا الحديث فى كتاب « الاحاديث القدسية » (١/ ٨٧) بتحقيقنا

كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك^(١) يعنى إذا لم يكن لديك لإشراق والشفافية الى بريك الله ، فلا أقل من أن تعبده على أنه يرك

وساعة تدخل فى مقام الإحسان سأنت حر^(٢) إذن فيما تقدم من لإحسان ، كما قال سبحانه ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِّهِمْ ﴾ (٥١) [التوبة] على حسب ما تخف نفسك للطاعة حفت لخمس ركعات خفت لعشر خفت لحمسة بالمائة فى الركاة حفت لعشرة الخ أنت حر

ألا ترى أن الحق سبحانه لما تكلم عن هذا المقام قال ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلَّذِينَ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١٦) [الزبارب] أم فى الركاة لمفروضة فقال ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْرُومٌ ﴾ (٢٤) [المسارج]

إذن ﴿ بِنَافِئِهَا النَّبِىُّ أُنُقِ اللَّهُ ۚ ۞ ﴾ [الاحزاب] أى تقوى تناسب مقامك من ربك لأن عطاءات الله سبحانه لا تنتهى ، كما أن كمالاته لا تنتهى ، لذلك كان مبيتنا رسول الله يقرب الليل حتى تنفطر قدماه ولما سأله السيدة عائشة بغير هذا وقد عمر الله لك ما نعدم من نبيك ؟ قال « أفلا أكون عبداً شكوراً^(٣) »

يعنى العبادة لا تكون لمجرد انثواب والمعرفة ، إنما هناك درجات ورتقاءات أخرى

(١) هو حديث جبريل مشهور الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه فى صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد وأحد يداله على الإسلام والإيمان والإحسان ، ورسول الله يجيبه
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٢٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٩) من حديث عائشة رضى الله عنها

ولتقوى قلن ان تجعل بينك وبين ما يمكن ان ينشأ منه ضرر لك وقاية ، لكن كيف تجعل بينا وبين ريبنا سبحانه وقاية ، ومهمة لتقوى ان تندمج مع الله في معيته ؟ هذا في حق من يتحكم جيداً في نفسه ، ويحملها على منهج الله

قالوا لان الله تعالى صفات جلال وصفات جمال ولكل صفة منها مطلوب ما الله تعالى غفور رحيم ، وهو ايضاً سبحانه القهار لبحار المنقم ، الله سبحانه هو الصار وهو النافع ، إذن فصفات لحمال هي التي تؤتي الإنسان الخير الذي يحبه ، وصفات الحلال هي التي تتسلط على من يخالف فعلى العبد دائماً ان يظل خائفاً من صفات الحلال راجياً صفات الجمال

إنن تقوى الله تكون بأن تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ، لأنك لست مطيقاً لهذه الصفات ، ولا تطيق مسة حشفة من النار . وهي جند من جنود الله فاحذرها

وعرّسها في مسألة الشفاعة أن الصيام والقرآن يشفعان بصاحبهما وأن الله يُشفع بعض المؤمنين ، ويشفع الأنبياء والملائكة ، ثم بعد ذلك تبقى شفاعاة أرحم الراحمين ، فكيف يشفع الله عند الله^(١) ؟

(١) عن أبي بكر الصديق في حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « غُور عليّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأورى والأحور بصعيد واحد حتى قال ثم يذن ادعوا الصديقين ميشعهم ، ثم يقال ادعوا الأنبياء فيجيء النبي ومعه النصاية ، والنبي ومعه العساة والسنة والنبي ليس معه أحد ثم يقال ادعوا الشهداء ميشعهم ليس أرادوا ، فإذا فعلوا الشهداء ذلك يقول الله أما أرحم الراحمين ، انطلقوا جنتي من كان لا يسرك بي شيء فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٤ ، ١) وأورده الهيثمي في المجمع (٢٧٤ / ١) والسيوطي في « البدور السافرة في أمور الآخرة » (ص ١١٩)

قالوا أى تشفع صفات الجمال عند صفات الجلال ، فحين يذنب لعبد ذنباً تتسلط عليه صفات اجلال لتعاقبه فتتصدى لها صفات الحمال ، وتشفع عندها لتسقط ما لها عنده من حق

ثم يقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ ﴿ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (١) [الأحزاب] فهل حين يتقى رسول الله ربه أيطيع الكافرين والمنافقين ؟ قالوا جمع القرآن بين الأمر بالتقوى والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين على الالتزام نقول أكرم فلاناً وملائاً أيضاً ، فلم تقل لا تكرم إلا فلاناً ، إن فطفت لا تطع الكافرين والمنافقين على ﴿ اتق الله .. ﴾ (٢) [الأحزاب] بالالتزام

ولنبي ﷺ حينف جاء جاء على نظم كوني أعده الله تعالى بحلفه ، وحين خلق الله الحق أخذ على الإنسانية كلها بكل أفرادها من آدم إلى أن تقوم الساعة .. أخذ عليهم العهد ﴿ كُنْتُمْ بَرِيكُم قَالُوا بلى . ﴾ (٣) [الأعراف] وشهدوا لله تعالى قبل أن تنتهيا بهم لمعاصي والشهوات

فإذا أصابت الناس غفلة أو سؤوا هذا العهد بدت الله بهم من رسله من يذكرهم ، لذلك حوِّط النبي ﷺ بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ .. ﴾ (٤) [الرعد]

وقال سبحانه عن الرسل ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. ﴾ (٥) ﴿ الساء يعنى ليسوا مبشرين تقوى وطاعة ، إنما مذكرون بقصية معلومة سلفاً من الأزل ، وما هم ، لا مبشرون بالثواب لمن أطع ، ومندورون بالعذاب لمن عصى ، والحق سبحانه يريد من عباده أن يكربوا على ذكر دائم لهذه الحقيقة والأ يفعلوا عنها

والغفلة تأتي إما من شهوة النفس أو كسلها عن مطلوب شاق

للعادة أو وسوسه من غير مطيع في أدنك ، سواء أكان من شياطين
الإنس أو من شياطين الجن ، كما قال تعالى ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ .. (١٦٢)﴾ [الأنعام]

وقلنا إن المصرف يحسد المستقيم على ستقامته ، لكنه
لا يستطيع أن يتحمل تبعات هذه الصاعقة ، فلا أقل من أن يحاول أن
يجيب المستقيم إليه ، فيوسوس له ويصرفه عن صفة الكمال التي
له ، بذلك حين يوسوس لك صاحبك بشيء من معصية الله فأول شيء
ينبغي أن تفتن إليه أنه نكرهك ، ولا يريد لك الخير الذي يعجز هو
عن إدراكه ، فهو لا يريد لك أن تتميز عليه بشيء

إن الكاسرون والمذهقون اسدين يصادمون دعوة الرسل
لم يقدروا على أن يحملوا أنفسهم على منهج الله ولا أن يلتزموا كما
التزم المؤمنون ، فلا أقل من أن يحولوا بين المؤمنين وبين المنهج
الجديد الذي جاء به رسول الله

وقلنا إن الرسول لم يأت إلا لضرورة ، هي انطماس معالم
المنهج عند المرسل إليهم ، وانعدام الرادع في النفس البشرية أولاً ثم
في المجتمع ككل ، فالإنسان حين يغفل تذكّره النفس اللزامة وترده
عن المعصية ، فإذا ما ضعف سلطان هذه النفس تحكمت فيه النفس
الأمّارة بالسوء وصرفته عن الخير كله ، فلم تنو له رادع إلا هي
المجتمع الإيماني الذي يقوم بدوره في الأمر بالمعروف والنهي عن
المعكر

وهذه هي ميرة الخيرية في هذه الأمة التي قال الله فيها ﴿كُنْتُمْ
حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِالله .. (١٦٣)﴾ [آل عمران]

فإذا بطمس هذا المبدأ فى المجتمع أيضاً حتى لم يُعدّ فيه أمر
بمعروف ولا ناهٍ عن منكر فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء بإيقاظ جديد
برسول جديد ، لكن أمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها وشرفها
برسولها أن الله سبحانه هذه الخيرية بحيث لا يعدم فيها الأمر
بالمعروف ولا النهى عن المنكر أبداً ، لذلك لا نحيى رسول بعد
رسول الله ﷺ ، لأنها أمة مأمونة

ولا بُدَّ للأمة التى تومرت لها هذه الماعة الجساعية الأمرة
بالمعروف الدعية عن المنكر أن يكون لها وعى إيمى وفهم جيد لهذه
المهمة ، وقد وردت فيها مذكرة لإيضاح التفسيرية من سيدنا رسول
الله حين قال « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَكْرًا فَلْيُغَيِّرْهُ يَدُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فِيلسانه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »

فالمشروع قدر عدم الاستطاعة ، فحمل لكل خطوة من أمر
بمعروف أو نهى عن منكر مجالاً منى أغير المنكر يدى ؟ ومتى
أغيره بلسانى ؟ ومتى أعيره بقلبى ؟

أعيره ببدى فيمن أمك الولاية عليه ، حيث أتمكن من التغيير
فإن كان المنكر ممن لا ولاية لى عليه ، فعلى أن أعيره بلسانى فى
ضوء قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَحَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (١٧٥) [اسحق] بالأسلوب الحسن الحميل

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢ / ١٠٧ ، ٥٧) ، وابن ماجه فى سننه (١٢٧٥ ، ٤٠١٢)
واسوداوه فى سننه (١١٤) من حديث يى سعيد الحدرى بلفظ « من رأى منكرًا
فستطاع أن يغيره بده فليغيره بده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه
وذلك أضعف الإيمان

لكن نجد بعض الدعاة يدعون علي غير مصيرة ، فيفعلون مسألة الاستطاعة ولا يجعلون لعدم الاستطاعة مجازاً ، ويميلون إلى تغيير المنكر كله بأيدي وهذا محالف لأمر رسول الله

فإن توقعنا أن يصيبك ضرر فتعير المنكر بقلبك ، لأن أهدف أن تستقلب المحرف إلى جهة الاعتدال ، وهذا لا يتم إلا باللين وبالرفق حتى لا نجتمع عليه شدتين الأولى أن تُخرجه مما يالف ، والثانية أن تُخرجه عما يالف بما يكرهه

ويحطىء الكثيرون في فهم تعبير المنكر بالقلب فيظنون مثلاً أن تقول في نفسك ، اللهم إن هذا منك لا يرضيك وأسا أنكرك هذا مجرد إنكار بالنسب والله لا يريد كلمة تخرج من أفواههم إنما يريد ما عمل القلب الذي يتبعه عمل الجوارح ، فقالنا في هذا الإنكار نسمع لقلبك .

فحين ترى من استشرى في العصيان والطغيان وأنت لا تقدر على بهيه ، لا بيدك ولا بلسانك ولا تستطيع مواحهته فعليك أن تكون كارهاً لعمله معرضاً عنه ، مهلاً له فلا تجامله في حزن ولا تُهذِّئه في فرح ولا تساعد إن احتاج ، الخ

عليك أن تعزله عن مجتمعك ، فإذا فعل معه لجميع هذا الفعل ، وسلوكوا معه هذا المسلك سقط وحده وارتدع

لذلك لم ير النبي ﷺ صنع سجيناً للمسلمين المخالفين ، إنما جعل سجنهم في عزل المجتمع الإيماني لهم ، أو سجن المجتمع عنهم لا يكلمهم ولا يتعامل معهم حتى الروجة عزلها أشرح عن روجها لا يقربها حتى يقصى الله في أمره

أذكرون قصة كعب بن مالك^(١) وكيف عزله المجتمع الإيماني
وكان من الثلاثة^(٢) الذين حلفوا عن رسول الله في عروه بيوك ، حتى
قاطعه أقرب الناس إليه ، فما تسوّر الحديقة على ابن عمه وقال
تعلم أني أحب رسول الله فلم يرد عليه

وتأتى روضة^(٣) هلال إلى رسول الله وقد كان أحدهم للثلاثة أيضا .
وتقول يا رسول الله ، إن هلالاً رجل كبير السن ، ليس له
ما للرجاس في النساء ، فعن لها أحدهم لكن لا بفريقك وقد ظل
هؤلاء في هذه العزلة حتى أن القرآن قال فيهم ﴿وَحَتَّى إِذَا ضَافَتْ
عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْصَبُهُمْ رُغُبًا وَأَدْ لَا مَفْجَأَ مِنَ اللَّهِ
إِلَّا إِلَيْهِ ..﴾ (١١٨) [النوبة]

هكذا التزم لمسلمون لأوائل بشرع الله ، واستطاعوا لا نقر
سجن المخالف إنما سجن المجتمع عنه ، وهذه المسألة هي سبب
الأزمة التي تعيشها بلدنا الآن ، فالمجرم الذي يعيش بيننا ليس
معموماً لأهل المنزل الذي يعيش فيه ، بل لأهل الحي والشارع^(٤)

فهل ذهب واحد منهم إلى تاجر فقال له أعطني كذا فقال

(١) هو كعب بن مالك الأنصاري ، شاعر رسول الله ﷺ ، مه بلى بنت زيد من بني سلمة
كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع سبعين من الأنصار شهد أحداً والصدق والمشاهد
كلها ، إلا تبوك ، مجلف عنها وباب الله عليا ، ذهب بصره في آخر حياته وتوفي عام
٧٧ هـ في خلافة معاوية عن ٧٧ عاماً

(٢) الثلاثة الذين حلفوا هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن ربعي

(٣) هي حول بنت عاصم امرأة هلال بن أمية [قال ابن حجر في الفتح ١٢١/٨] ويروى
مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) والبيهقي في صحيحه (٤٤١٨) أن أمراًته جاءت رسول
الله ﷺ وقالت يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ صائم يمس له خادم ، فهل تكره أن
أخدمه ؟ قال لا ولكن لا يتركك فقلت إنه والله ما به حركة إلى شيء ، والله ما رآل
يكني منذ كان من امره ما كان إلى يومه هذا

لا ليس عندي وقاطعه ؟ هل سَلَّمَ واحد منهم على شخص ، فلم يرد عليه السلام ؟

إن المجمع كله بحمل هذه المسؤولية ويتحمل الإثم عليها ، لأنه تستر على هؤلاء ، لدرجة أن نقول إن لمجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين

وببغى قبل أن تتكلم عن المجرم تتكلم معه تحاوره وتنصحه وتحسن إليه قبل أن تقاطعه نعم هذا المعنى من قول سيدنا رسول الله ﷺ : اعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ،^(١) وبم يقل على سلطان جائر فعمل أن ينصحه ونُشِّع عليه يجب أن تتكلم معه ، وإن نصحه حتى يعلم أنك تريد به الخير ، وتريد أن ترده إلى الحادة فيقبل منك وعلى لأقل لا يصرك ، إما تفتنا إما نُشِّع على المجرم ، وربما نُحمِّله فوق الصدق الواحد ألف كذب لمجرد كراهيتنا له

لذلك قال العربي في صفات الناس إن علموا الخير أخفوه ، وإن علموا الشر أداعوه ، وإن لم يعملوا كذبوا

ذن معنى انتغير بالقلب أن يكون قائلك موافقاً لقلبك ، وهذه لا تُكَلِّم شيئاً ، على خلاف التعبير باليد أو بالسب ، لذلك وصفه رسول الله بأضعف الإيمان ، يعنى أنها مسألة يقوم بها الضعيف

وعزل المجمع عن المجرم تنتهى ظاهرة الإحرام وما استشرى الإحرام إلا حين خاف الناس من المجرمين وتملقوهم وتوددوا إليهم ربما لانتقام شرهم ، ولم لا يرداد المجرم في إجرامه والأمر كذلك ؟

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩/٣ ، ٦١) والترمذي في سننه (٢١٧٤) وحسنه وهو

داود في سننه (٤٢٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري ، ولقد التزمى ، إن من عظم

الجهاد كلمة عند عبد سلطان جائر

لذلك جعل الشرع الحكم الدية في القتل خطأ ليست على القاتل وحده إنما على العاقلة أي على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم 'ببائها' ، والأخذ على أيدي المنحرف منهم لأنهم هي التي ستتحمّل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن في المجتمع

والحق - سبحانه وتعالى - حين وضع المنهج الذي يُطَمِّم حياة الخلق يريد سبحانه لخير لخلق . وهو سبحانه صاحب الخير ولا ينتفع منه شيء ، فهو أب الخلق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً^(١)

ثم هو سبحانه خلق لإنسان وحدد مهمته في الحياة ، ووضع له قانون صيانتها فيها كما أن صانع الآلة يحدد الهدف منها قبل صناعتها ، وحدد لها قانون صيانتها ، فالذي صنع الغسالة مثلاً رأى كيف تتعب المرأة في عملية غسل الملابس فصنع هذه الآلة لتقوم بهذه المهمة ولم يحدث أن صنع صانع آلة ، ثم قال انظروا في أي شيء يمكن أن نستخدم

لذلك ، فَشَلَّ العالم كله يأتي من أن الخلق يريدون أن يحددوا مهمة الإنسان ، ويضعوا له قانون صيانتها ، ويففلون أنه صفة الله ، والذي يحدد مهمة الصنعة هو صنمها ،

والحق سبحانه حدّد لنا مهمتنا في الحياة قبل أن يستدعينا إليها .

(١) قطعة من حديث قدسي طويل ، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البير والصنة ، وأحمد في مسنده (١٥٤،٥ ، ١٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ولفظ الحديث : يا عبادي لو أن أولكم وأهركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وأهركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ،

واقراً إن شئت قول رب ﴿الرحمن﴾ (١) علم القرآن ﴿٢﴾ خلق الإنسان ﴿٣﴾
[الرحمن]

فالحق سبحانه قبل أن يخلق الإنسان وضع به المنهج ، وحدد له مهمته وقانون صيانه في قرآنه الكريم ، كما يحدد الصانع مهمة صناعته أولاً ، فإثر حدث في هذه الصنعة عطب فيجب أن تُرد إلى لصانع ، وإلى قانون الصيانة بأفعل ولا تفعل ، لأنه سبحانه هو الذي خلق ، وهو الذي يعلم ما يصلح صناعته ويضمن سلامتها ، واقراً إن شئت ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (١) [المائدة]

ويقول تعالى ﴿إن سارعتم في شيء فذرؤه إلى الله والرسول ..﴾ (٥٩) [النساء]

إذن عاقبة المجتمع الشرى أولاً أنه يريد أن يُحدد لخلق الله مهمتهم ، وأن يتدخل في صنعة ليست صنعة ثانياً حين يفسد المجتمع يجعلون له ترايس إصلاحية من عندهم ، وهم تركنا الله ندور منهج ، وبدون قانون صيانة ؟

لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو قدوتنا إذا حربه أمر أو عُر عليه شيء يُهرع إلى ربه ، ويقف بين يديه في الصلاة ، كما تعرض أنت ألك أو جهازك على المهندس المختص ، فيصلح لك ما فيه من عصب ، وهذه مسألة مادية يصلحها المهندس بشيء مادي

ما لحق سبحانه فعيب ، فحين يصلحك أنت أيها العبد يصلحك بقانون اعيب ، بحيث لا تدري أنت كيف أصلحك ، المهم حين تعرض نفسك على ربك وعلى خالقك - عز وجل - تعود مُشرح لصدر ، راصياً طيب النفس

الحق سبحانه يقول لرسوله ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ..﴾

(١) ﴿[الأحزاب] لأنهم أهل فساد يمارسونه وينتفعون به ، لذلك لا بد أن يصادموا الحق ، وأن يعترضوا طريقه ، وأساس الفساد في الكون أن يحب الإنسان أن يأخذ خير غيره ، وأن يكون همه من عرق الآخرين ، فبد جاء من يعمل هذا الميراث العائل وقفوا له بالمرصد ، لأن دعوته تتعارض ومبادئهم

والحق سبحانه بين لنا على مدى موكب الرسل جميعاً أنه ما من رسول إلا كان له أعداء ومعاندون ، لكن سنة الله في الرسل أن تكون لهم الثقلة في نهاية الأمر ، كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفُّنَا لِمَادِمَا أَمْرُسُلِ﴾ (١٢) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٣) ﴿وَبَدَأْنَا لَهُمُ الْعَالُونَ﴾ (١٤) ﴿[الصدقات]

إن قال تعالى يريد منا الاستقامة على منهجه ، وأهل الفساد يريدون الانحراف عن هذا المنهج ، واقرأ ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ (١٥٣) ﴿[الأنعام] يعني استقامة على إطلاقها ، فمن منكم يريد فيه التواء أو اعوجاجاً﴾ ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١٥٣) ﴿[الأنعام]

والصراط المستقيم واحد وسبيل الحق واحد ، أما الباطل وانفساد فله سبيل شتى وقد نبهنا سبحانه رسول الله ﷺ إلى هذه القضية حين خطب للصحابه خطأ واحداً مستقيماً ، وعلى جانبيه خصوصاً ، ثم تلا ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

(١) عن عبد الله بن مسعود قال خطب رسول الله ﷺ خطباً بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ (١٥٣) ﴿[الأنعام] أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) والحاكم في مستدركه (٢١٨، ٢) وقال « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »

السُّبُلَ فَصَرَّفَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .. ﴿١٥٣﴾ ﴿[الانعام]

وتعلّمت في علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فلو خطّ مهندس طريقاً مستقيماً بين بلدين مثلاً تراه لو انحرف في بداية الطريق عدة ستيجمات فإنها تبعده عن البلدة الأخرى عدة كيلو مترات

إس الطريق المستقيم هو الذي يُسهّل لك السقر ، ويقرب لك المسافة ، أما السبل المتعددة فإنها تهدر مجهودك وتشقّ عليك ، حتى أنت في لغت العامية تقول لصاحبك (تعال دُغري) أو تقول (يلاش لف ودوران) كذلك يقول لك ربك ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الانعام]

وإن كان طريق الحق واحداً ، فطرق الضلال متعددة ، فواحد فساده من ناحية المال وواحد من ناحية النساء ، وواحد يفسده المنصب والسلطان .. إلخ

فإذا ما جاء رسول من عند الله يكبح جماح هؤلاء لا ند أن يتصادموا معه ، لذلك يبه الحق - تبارك وتعالى - نبيه ﷺ أول مراتب التقوى أن تتقى الله وحده ثم لا تطع الكافرين والمنافقين ، لأنهم يريدون أن يأحدوك للشرك والله يريدك للهدى

وقوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ﴿١﴾﴾ [الاحزاب] يعنى أنه لا مانع أن تطيع غيرهم من أصحاب الرأي والمشورة من المؤمنين فيما لم يأتك فيه أمر من الله ، لذلك نزل سيدنا رسول الله في غزوة بدر على رأى الصحابي الجليل الحباب بن المنذر^(١) لما قال

(١) هو الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري ثم لسلمي قال ابن سعد وغيره شهد بدر وكان يكنى ما عمر قال ابن سعد مات في خلافة عمر وقد راد على الحنسي

له يا رسول الله هذا منزل أنزلك الله . أم هو الحرب والمكيدة ؟
فقال رسول الله ﷺ « بل هو الحرب والمكيدة » ، فقال إن هذا
ليس لك بمنزل^١

وقد أشار سلمان الفارسي^٢ على رسول الله بحذر الحندق فأخذ
بمشورته ، والقاعدة اشترعية تقول لا احتداد مع النص وإذا
لم يكن في المسألة نص فلا مانع من أن تطيع المؤمنين لناصرهم
لك ، المشيرين عليك بالخير

فالحق سبحانه لم يمنع عن رسوله نصح الناصحين ، ولم يحرمه
مشوره أهل الرأي

وقد اختلف الناس حول استشارة الحاكم ، أهى ملزمة له أم غير
مبرمة ؟ وإجابة هذا السؤال في قوله تعالى ﴿ وَشُورِهِمْ فِي الْأُمْرِ إِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ ۝ (١٥٦) ﴾

فللحاكم أن يسمع المشورة ، وإن يقارن بين الآراء ويفاضل
بينها ، ثم يكون له وحده القرار النهائي ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ۚ ۝ (١٥٦) ﴾ [آل
عمران] أي أنت وحدك

وفي العالم المعاصر يرى الاسطمة إذا احتاجت إلى أخذ الآراء في
موضوع ما ترجح الجانب الذي به الرئيس وهذا لا يصح ، فالآراء

(١) لورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٥٩/٢) وعزاه لابن إسحاق ، وتضمنه أن الحساب
« بن الصدر مال » يا رسول الله ، فإن هذا نبي بعثه الله به في هذا
من انقوم منبره ثم تصور ما وراحه من القلب ثم بين عليه حوضاً فتمنوه ماء ، ثم
طافوا القوم فشرب ولا يشربون ، فقال ﷺ « لقد أشرك بالرائي

(٢) سلمان الفارسي صحابي من مقدميهم أصله من مجوس أصبهان عاش عمره طويلاً
حاجب البلاد طلياً للحق وقرأ كتب الفرس والروم واليهود ثم أسلم وأمس برسول الله ﷺ
وقال عنه سلمان هذا أبل أبلد جُهن أميراً على المدائن فأقام فيها إلى أن توفي عام
٣٦ هـ كان يسبح المرحون ويأكل خير الشعير من كسب يده [الاعلام للبروكلي ١١٢/٣]

تقدير للرئيس الطريق ، وتوضح له الصورة ، وله هو القرار الأخير .
لأن الحيثية التي انتقدته من خلالها أنك مشهد له بالتفوي ، إذن فهو
ابدى يرجع أحد الآراء

وفرق بين المشورة والتفويض ، فحين يُفوض رئيس لدولة
شخصاً أو هيئة لدراسة أمر من الأمور أو اتخاذ قرار ، فهي
صاحبة الرأي ، وحين تعرض عليه ما توصلت إليه يعطيها الموافقة ،
لأنه فوضها في هذا الأمر ، إذن التفويض يحدد لك اتخاذ القرار ،
أما المشورة فتقف عند عرض الرأي فحسب

والرسول ﷺ كن لا يريد الخروج لعروه أحد ، لكن لما شاور
صحابته أشاروا عليه بالخروج لما عندهم من العزة والحماس لنصرة
دين الله ، وظلوا برسول الله حتى استعد للحرب وليس لها
ملابسها ، ثم عادوا إلى رآيه ﷺ في عدم الخروج ، فقال ﷺ : « ما
كان لبي يلبس لامة الحرب »^(١)

وحدث ما حدث في أحد ولم ينتصر المسلمون ، أما أبو بكر
رضي الله عنه - فلم يستمع لمشورة المسلمين في حرب اردة رصم
عنها^(٢) ، وقال والله لأقاتلنهم ولو بالذر يعني بالصصى وانتصر

(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأى رسول الله ﷺ أن
يقوم بالعديه يقاتلهم قهراً فقال : يا بني لا يكونوا شجعوا بداراً - تخرج ما يا رسول الله إليهم
بقاتلهم بنحد ورجو أن يصيبوا من الفهشة ما أصاب أهل بدر - فما رآوا برسول الله ﷺ
حتى يس اداته فعدوا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأي رأيك فقال رسول الله ﷺ : « ما
يبغى لى أن يصح أدات بعد أن ليسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » أخرج الحاكم في
مستدرکه (١٢٩/٢) وابن صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي

(٢) قال البهاري في صحيحه (كتاب الاعتصام - باب قول الله تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾)
[آل عمران] (٣٣٨/٣ - فتح الباري) ، لم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إن كان
عده حكم رسول الله ﷺ في الدين فرأوا به الصلاة والركلة وأرادوا تبديل الدين
وأحكامه وقال النبي ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه »

الصديق ، وإليه يرجع الفضل في إنقاذ دين الله من نعمة كادت تذهب
هـ

إن ساجدوا من اختيار الله لرسوله ﷺ مُرَجَّحاً ، فيأخذ منكم
جميع الآراء ، ويستشيركم ، ثم ينفذ هو ما يراه مناسباً
وهنا فرق بين الكافرين والمنافقين ، ولدينا بعض المصطلحات
التي ينبغي أن تكون على علم بمساوئها الإيمان والكفر والنفاق
والحد

الإيمان الإنسان منا له قلب يحمل انوايا ، وبه قلب يعبر عنها
كما قال الشاعر

إن الكلام لفي لفؤاد وإيمان جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
فالإيمان هو الحق الذي يعتقده القلب ، ويقتضيه به ، وبوقفه
اللسان والعصب ، أما إن وافق اللسان القلب في الباطل فهذا هو
الكفر

لذلك قلنا إن الكافر مطلق مع نفسه لأنه نطق بما في قلبه ،
لكنه غير مطلق مع الحق لأنه جحد بقلبه وجحد بلسانه وليس
عنده اختلاف بين القلب واللسان

أما النفاق فهو من يعتقد القلب الكفر ويصممه ، ويعبر اللسان
كلمة الإيمان ، فالمصدق يحلف لسانه قلنه فهو غير مصق لا مع
الحق ولا مع نفسه ، لذلك كان المنافق في الدرك الأسفل من النار
لأنه أشر من الكافر

لذلك لما طرد سيدنا رسول الله من القوم أن يقولوا لا إله إلا
الله قالها الغلة المؤمنة ، واستنعت الكثرة الكافرة بماداً ، لأنهم

يعرفون معناها ، وإلا لَقَالُوا من بداية الأمر ، وانتهت المواجهة بين الإيمان والكفر ، فعدم نُطْقِهِمْ بِهَا دليل على فهمهم لها ومطلوباتها

أما الجاحد فعلى النقيض من الموافق ، فهو مفتع في نفسه ، لكنه لا يقدر على البطق بما يقتنع به من اسحق ، لذلك يقول تعالى عنهم ﴿ وَجَعَلُوا بِهَا اسْتِيفَتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُغْلًا ﴾ (٣١) [النمل] ولما طال الجد بينهم وبين رسول الله قالوا ﴿ الْتَهُمُ بِنُكَاحِ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عَمَلِكْ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣٢) [النمل] بدل أن يقولوا فاعدنا إليه

وبعد أن قالوا في القرآن أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين الخ رفق باطلهم وكشف الله حجبهم ، حين حكى قولهم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣٣) [سجدة]

إذن فالقرآن لا عمار عليه وهو حق ، لولا أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولو نزل على عظيم من عظماء مكة أو لمدينة لأمأ به وهكذا أثبتوا إيمانهم بالقرآن والقرآن يستوجب أن يؤمروا أيضا بمحمد

ومعلوم أن الإسلام صاح صيحته الأولى في أذن من في أذن كعمار مكة وسادة قريش والحزيرة كلها ، وقد كانت لهم الكلمة المسموعة والمنزلة ابرهية بين العرب جميعاً لقيامهم على خدمة الحبيب ، ووهج ملاهم على طرق لتجارة بين الشمال والجنوب

إذن الإسلام لم يستصعب جماعة ليعلن فيهم صيحته الأولى ، إنما اختار السادة ، لكن الله تعالى لم يشأ أن ينتصر الإسلام في مكة ، لأنه لو انتصر هيها لكان من الممكن أن يقال قرم من قريش

تَعْصِيُوا لَوَاحِدٍ مِنْهُمْ لِيَسُوْدُوا بِهِ الْعَالَمَ كُلَّ سِدْوَا الْجَزِيْرَةِ

بِذَلِكَ لَمَّا أَعْلَنَ سَيِّدُنَا رَسُوْلُ اللهِ دَعْوَتَهُ بَيْنَ قَوْمِهِ اسْرَعُوا إِلَيْهِ
يَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ تَزِيدُ مُلْكًا مَلَكْنَاكَ عَسِيْبًا ، وَإِنْ كُنْتَ تَزِيدُ
مَالًا جَمَعْنَا لَكَ الْمَالَ حَتَّى تُصَيِّرَ أَعْمَانَا ، فَقَالِ قَوْلَتَهُ الْمَشْهُورَةَ
« وَانْتَهُ لَوْ رَصَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ
أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا بَرَكْتُهُ حَتَّى يُطَهِّرَهُ اللهُ ، أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ »

فَشَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ لَصَرْحَةِ الْأَوَّلَى فِي أَدْنِ السَّادَةِ أَصْحَابِ الْكَلِمَةِ
وَلِسُلْطَةِ فِي مَكَّةَ وَأَنْ تَكُونَ نَصْرَةَ الْأَدِيْنِ فِي الْمَدِيْنَةِ ، لِتَعْلَمَ الدُّنْيَا
كُلُّهَا أَنَّ الْإِيْمَانَ بِمُحَمَّدٍ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْعَصَبِيَّةَ لِمُحَمَّدٍ ، وَلَيْسَتْ
الْعَصَبِيَّةُ لِمُحَمَّدٍ هِيَ الَّتِي خَلَقَتْ الْإِيْمَانَ بِمُحَمَّدٍ

وَمَعَهُمْ أَيْضًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ ..
([الْأَحْزَابُ]) نَ عَمْرٍ الْكُفْرِيْنَ وَغَيْرِ الْمُنَافِقِيْنَ لَا يَكُوْنُ لَهُمْ أَمْرٌ
يُطَاعُ مَعَ أَمْرِ رَسُوْلِ اللهِ لِأَنَّ الْمَوْمِنَ رَسُوْلُ اللهِ يَتَلَقَّى مِنْ رَسُوْلِ
الله

لَدُنْهُ يُعَدُّ مِنَ الْحَطِّ بِمَكَانٍ أَنْ يَقُوْلَ كَيْفَ فَعَلَ رَسُوْلُ اللهِ كَذَا
وَكَذَا ، فَنُنَاقِشُهُ وَمُسْتَدْرِكٌ عَلَيْهِ ﷺ ، وَكَيْفَ تُجْعَلُ مِنْ بَعْضِكَ أَيْهَا
الْمَوْمِنُ مِيزَانًا وَحَكْمًا يَحْكُمُ عَلَى أَعْمَالِ الرُّسُوْلِ وَيُصْنَعُ فِي الْمِيْرَانِ ،

(١) أوردته ابن هشام في السيرة النبوية (٢٦٦/١) معروفاً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا
لأبي طالب يا أبا طالب إن لك سناً مشرفاً ومروة هيباً ، وإنا قد استسهيبتك من ابن
أخيك علم سهه هذا ، وإنا والله لا نصور على هذا من شتم أئماننا ، وسعيه اخلاصاً ، وعيب
اللبس ، حتى تكفه عينا أو ساربه وإياك في طلب ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فسمعت
دبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له يا ابن أخي ، إن قومك قد حملوك ، فقالوا في كذا
وكذا ، فابوق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فقال له ﷺ هذه المقالة

كس يناقشون مثلاً مسألة تعدد الزوجات ويصل بهم الحد إلى انتقاد رسول الله ، وكأنه يُجرى له محاكمة

وكيف يعارض رسول الله في هذا ، والله تعالى لم يعارضه ولم يُقَلَّ من مسألة الرسالة ، بل ارتضى الله فعن رسوله وباركه . فلا تجعل من نفسك مقياساً على رسول الله ، لأن الأصل أنه هو المقيس الذي نقيس عليه أعمالنا ، فنسأل : أعمل رسول الله ذلك أم لم يفعل ؟ فإن فعل فعلنا

ومن هذا المنطلق سُمي الصديق صديقاً ، فلما حدثوه أن رسول الله يخرج أنه أتى بيت المقدس في ليلة قار إن كان قال فقد صدق^(١)

والحق سمعنا به حين ينهى رسوله عن طاعة الكافرين والمنافقين إنا يُبين له طبيعتهم وحقيقة عاداتهم له . فهم غير محصين له ، وعليه أن يتهم أمرهم إن أمره ويتهم نهيم إن نهوه . وكيف يُحصون في أمره أو نهيه ، وقد جاء ليصادم ساداتهم ، ويكسر جبروتهم وكفرهم ؟

وهبهم مخلصين لك لأنك من فريش ، ويريدون نصرتك فيبقتهم في نصحتهم لك العلم والحكمة ، فلا يصح إذن أن تقارن بين طاعة الله وطاعة هؤلاء ، مهما كانوا مخلصين لك .

كما نلاحظ أن القوم فعلاً طلبوا من رسول الله أشياء فكان الله تنبه قبل أن يطبوا منه إلى ما يُطلب منه من مخالفاتهم وعدم طاعتهم وانطاعة فيها مطيع ومطاع ، وهم يريدون أن يكونوا

(١) نكده القرطبي في تفسيره (١٦ / ٤) وتعامه أنه قيل له : أنصدقه قبل أن نسمع منه ؟

يقال : ابن عقولكم ؟ إنا أنصدقه بحر السماء ، فكيف لا أنصدقه بحر بيت المقدس

والسماء أبرد منها بكثير

مطعين ، ورسول الله طائع محتل لامرهم ، لكن كيف تقلب المسالة بهذا الشكل ، وما جاء رسول الله إلا ليُشرع للناس فيطيعوه ، فهو الذي يأمر ، وهو الذي يطاع

فكان الرسول ﷺ يقول لهم كيف أقاتروا ببيدكم وبين ربي ؟ وقد ثبت ذلك فقد جاء أبو سفيان وعكرمة بن أبي جهل والوليد بن المغيرة والأعور السلمي وانضم إليهم وقد ثقيف ، جاءوا جميعاً إلى المدينة واجتمعوا عند الله من أبي ، وعبد الله بن سعد من أبي السرح ، وقد آمنهم رسول الله فقالوا يا محمد كف عن آلهتنا اللات والعزى ومناة ، وشهد بأن شجاعتهم تُقبل عند الله ، ونريد أن نحفظ حيا كرامتنا ومهابتنا بين العرب ، فمُتّعنا بآلهتنا سعة وأمرنا على ذلك ، ونتركك وشأنك مع ربك^(١) .

فنهاه الله ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ﴾ [الاحزاب: ٨٠] لأنك لا ينبغي أن تتراجع أمامهم في شيء أبداً ، وإلا لكنت خاضعاً لهذه السيادة المرعومة ولاعطيتهم الفرصة حين تطاوعهم ، لأن يقرلوا لقد أطعنا محمد فيصيرون هم الهادين ، وأنت المهدي .

ثم إن هذا الأمر بعدم طاعتهم وهم القادة والصناديد وما زالت الدعوة ولادة تحتاج إلى مهادة مع أعدائها وربما يقول قائل ولم لم يهدنهم رسول الله حتى يشتد عود الدعوة ، فهم سادة اقوم وأصحاب الكلمة والمهانة ؟ لكن منطق الحق يرفض هذه المهادة ويرفض أن يعتمد رسول الله الا على الله ، لذلك قال في الآية

(١) ورد الواحدى في اسباب السور (ص ٢٦) ان قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لا آلهة إلا الله تعالى (٢٦) [الكافرون] مرث في رقط من قديش قايوا يا محمد هم اشيع دينا وشيع دينك بعد آلهتنا منة ، ونصعد إلهنا منة . فإن كان الذي جئت به خير مما بآلهتنا قد شركناك فيه وأحدنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك قد شركك في أمرنا وأحدث بحظك ، فقال محمد الله ان اشرك به غيره

معه **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٣)** [الأحزاب]

ثم يقول سبحانه **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١)** [الأحزاب]
فأعلم غير الحكمة ، العلم أن تعلم القضايا ، أما الحكمة فإن يُوظف
هذه القضايا في أماكنها ، فالعلم وحده لا يكفي . فالصفتان متلازمتان
متكاملتان كما في قوله تعالى **﴿إِنَّ حِزْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوَى
الْأَمِينُ﴾ (٢)** [الفصل]

فالقوى إن كان خائفا لم تنفع قوته ، كذلك إن كان الأمين
ضعيفا فلا تنفع أمانته لذلك لما اشتكى أمير المؤمنين إلى أحد
حاصته من أهل العراق ، يقول **﴿إِنْ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمُ الْقَوَى يَفْجُرُونَهُ ،
وَبِئْسَ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمُ الضَّعِيفَ يُهَيِّنُونَهُ﴾** فقال له **﴿إِنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَيْهِمُ
الْقَوَى فَلَكَ قَرْنُهُ وَعَلَيْهِ فَجُورُهُ﴾** فقال له أمير المؤمنين ما دُعي قد
عرفت هذا فلا أؤلى عليهم غيرك

إس فالعلم يعطيك قضايا الخير كله ، والحكمة أن تصع الشيء
في موضعه ، والفصية في مكانها

ثم يقول الحق سبحانه

**﴿وَأَسْبَغَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٤)**

(١) يمحرون ، يمحرون ويحالفونه ، يمحرون أي يمحرون يمحرون فلا يرمى بهم عرمة
[معنى ما في لسان العرب مادة فجر]

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٥٧٥/٧) : قراءة العامة بقاء على الخطاب وهو اختيار
أبي عبد الله رضي الله عنه وقرا أسلمى وكبو عمرو وابن أبي إسحاق : يعملون ، بالياء على
الحبر ، أي أن الله كان

- بما يعملون من أنواع ما وحي إلينا من ربنا ببلاغ رسنا

- بما يعمل الكافرون والمنافقون من الكذب بالإسلام ومحاربة إيمانهم عن اتباعنا ديننا

نلاحظ هنا مهياً بين امرين الاول ﴿يَأْتِيهَا السُّيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الاحزاب]
 والثاني ﴿وَأَنذِرْ مَا يُوحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ .. (٢)﴾ [الاحزاب]
 وبسببهما النهي ﴿وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (٣)﴾ [الاحزاب] ووقوع
 هذا النهي بين هذين الأمرين ترتيب طبيعي ، لأنك إذا اتقيت الله ستعطي
 منهج الحق ، وهذا يؤذي أهل الباطل وأهل العناد المستعدين به ، فلا
 بد أن يأتوا إليك يوسوسون في أذنك ليصرفوك عن منهج ربك ، وعليك
 إذن أن ترد الأمر إلى ما يوحى إليك وأن تتبعه

وقلنا إن الوحي إعلام بحقاء ، فإن كان علانية فلا بُعد وحي ،
 والله تعالى في وحيه وسائل كثيرة مع جميع خلقه ، فيوحى سبحانه
 إلى أجماده ، لأنه قادر على أن يخاطب الجماد ، كما في قوله سبحانه
 وتعالى عن الأرض ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)﴾ بأن ربك أوحى لها
 (٥) [الرابعة]

ويوحى إلى النحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ
 بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]
 ويوحى إلى غير رسول أو نبي ﴿وَإِذْ وَحَّيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنِ
 آمُوا بِمِثْرِ نَبِيِّ (٦٩)﴾ [الماشية]

وقال ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنِ أَرْضِعِيهِ .. (٧٠)﴾ [القصر]
 هذا هو الوحي في معناه العام ، أما الوحي الخاص فيكون من الله
 تعالى لرسول مُرْسَلٍ من عنده إلى الخلق ، وله طرق متعددة ، فمرة
 يكون بالفتى في الدرع ، ومرة يكون بالوحي بكلام لا يدرى قائله ، ولا
 يعرف مصدره ، ومرة يكون عن طريق رسول ينزل به من الملائكة

بقول تعالى ﴿وَمَا كُنْ لِإِنشَارِ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ
 حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلُ رَسُولًا .. (٧١)﴾ [الشورى]



والقرآن الكريم لم يأتِ بالإلهام ولا بالكلام من وراء الغيب
والْحُجُبِ ، فما جاء عن طريق رسول ملك برز به عسى رسول الله ،
فثبت انقرآن من هذا الطريق

ولا بُدُّ في هذه المسألة من التفارب بين الرسول الملك ، والرسول
البشر ، فكل منهما طبيعته لخاصة ، ولكي يلتقيا لا بُدُّ من أمرين
إما أن يرتفع البشر إلى مرتبة الملائكية بحيث يستقل منها ، أو ينزل
الملك إلى مرتبة البشرية بحيث يستطيع أن يلقنها

سلك جاء في الحديث أن حذرت عليه اسلام برز إلى مجلس
رسول الله في صورة بشرية ليُعَلِّمَ الناس أمور دينهم^(١) وكان النبي
ﷺ في أول الوحي تأخذه قشعريرة ، ويتصبب جبينه عرقاً ، حينما
يأتيه جبريل بالوحي وما ذاك إلا لالقاء الملكية بالبشرية ، فكان ﷺ
يبلغ به الجهد حتى يقول زملوني زملوني ، دثروني دثروني .

وإذا جاءه الوحي وهو جالس مع أصحابه وركبته على ركة أحدهم
يشعر لها بثقل كأنها الجبل^(٢) ، أو يأتيه الوحي وهو على دابة فكانت
تخط^(٣) ، لذلك قرر عن رسول الله الوحي بعد فترة ليستريح من هد
الإجهاد ، وتبقى له حلاوة ما أوحى إليه ، فيتشوق إليه من جديد

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) وكنا مسلم في صحيحه (٨) من حديث
عمر بن الخطاب أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه في صورة رجل شديد
بهاش الشاب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر لسطر ولا يعرفه أحد .

(٢) قال يزيد بن ثابت كاند الوحي أنزل الله على رسوله ﷺ ، ووجدته على إحدى ، فطلب
علي حتى حلف أن يرضي لحندي (أي تكسر وتدق) أخرجه البخاري معاً مجزئاً به
في كتاب الصلاة - باب ما يذكر في القعد - ورواه في تفسير سورة النساء

(٣) عن أبيه بنت يزيد قالت إني لأحده برسمه أصحابه ما به رسول الله ﷺ . ورواه
عليه المائدة كلها فكانت من ثلثها من بعهد الطاقة أخرجه الإمام أحمد بن مسعود

وبعدها خاطبه ربه ﴿الَمْ يَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) ورصعنا عنك وذكرك
(٢) الذي أنقص ظهرك (٣) ورصعنا بك ذكرك (٤) ﴿[الشرح]

والهدف حبيبا يكون غالبا ، ولغاية سامية يهور في سطعها كل
جهد ، وقد عاد الوحي إلى رسول الله بعد شوقي ، وخاطبه ربه
بقوله ﴿وللاخرة خير لك من الأولى﴾ (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى
(٥) ﴿[الضحى]

إدر ثبت انقرآن بالوحي عن طريق الرسول المملك . ولم يثبت
باللهام أو النبوة في البرزخ ، أو الكلام من وراء حجاب . يقول
تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا
الإيمان ..﴾ (٥٦) ﴿[الشورى]

والوحي هذا ﴿واتبع ما يوحى إليك ..﴾ (٦) ﴿[الاحزاب] من من ؟
﴿من ربك ..﴾ (٦) ﴿[الاحزاب] ولم يقل مثلاً رب الخلق نعم هو
سبحانه رب الخلق جميعا . لكن مصمدا ﷺ سيد الخلق ، فهو رب
الخلق من باب أولى وكلمة (ربك) تدل على الحب وعلى الاهتمام
رأه تعالى من يخدمك أبدا وما اتصاله بك إلا بلحير لك ولاملك .

ثم يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٧) ﴿[الاحزاب]
الخبير من وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا اسأل
أهل الخبرة يعني لا يسأل أهل العلم السطحي ، فالخبير هو
الذي لا يغيب عنه شيء

وتلاحظ أن الآية السابقة ختمت بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا﴾ (٨) ﴿[الاحزاب] أى علما بما يشرع ، حكيمًا يصع الأمر في
موضع ، وقال هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٩) ﴿[الاحزاب]
أى بما ينتهى إليه أمرك مع التشريع ، استجابة أو رفضا فربك لن
يُشرع لك ثم يتركك إنما يحبر ما تصنع ، ولو حتى نوايا القلوب .

فَالْخِزْيَةُ تَدُلُّ عَلَى مُنْتَهَى الْعِلْمِ وَعَلَى الْعِلْمِ الْوَاسِعِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى
وَضَحِيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ لُقْمَانَ ﴿يَسْبِيْ اِنتَهَا اِنْ تَكْ مَثْقَالُ حَبَّةٍ
مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰٓاْتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ
اللّٰهَ لَصَلِيْبٌ حَبِيْرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان]

فَالْحَبْرَةُ مِثْلُ عَلَى الْعِلْمِ الْوَاسِعِ الَّذِي لَا تَقْوِيَّتُهُ جَرِيئَةُ مَهْمَا
صَعُرَتْ ، وَاللُّطْفُ هُوَ لَتَفْعَلُ فِي الْأَشْيَاءِ مَهْمَا كَانَتْ دَقِيقَةً ، وَقُلْنَا
إِنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا لَطُفَ هَتَفَ

فَكُنَّ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ لِرُسُلِهِ اَطِئْنِ مَهْمَا صُوِّدِمْتَ مِنْ
خَصْمِكَ ، وَمَهْمَا تَأَلَّبُوا عَلَيْكَ فَرِيْكَ مِنْ وَّرَائِكَ لَنْ يَنْجُلِيَّ عَنْكَ
وَهَؤُلَاءِ الْحَصُومُ حَقَّقِي ، وَأَنَا مُعْطِيهِمُ الطَّاقَاتِ الْمَفْكُورَةَ وَالطَّاقَاتِ
الْعَاقِلَةَ رَاسِطَاتِ الْمَتَّامِرَةِ ، وَسَوْفَ أَنْصُرَكَ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ مِنْ
مَرَاهِلِ كَيْدِهِمْ لَكَ

لِذَلِكَ لَمْ يَقُولُوا عَلَيْكَ مَذْخَرَةٌ وَلَا جِدْلًا وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْكَ حِينَ
يَنْبَغُ لَكَ لِيَصْرَبُوكَ ضَرْبَةً رَّحْلٍ وَحَدًّا ، فَسَتَقْرَى لَدُنْكَ مِيزَانَ الْقِيَاسِ ،
وَحَرَجَتْ مِنْ بَيْنِهِمْ سَالِمًا تَحْتُوْا أَشْرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ، حَتَّى لَمَّا
سَتَعَبَرُوا عَلَيْكَ بِالسَّحَرِ وَبِالْجِنِّ أَحْبَرْتُكَ سَمَا يَدِيرُونَ لَكَ ، وَلَمْ أُسَلِّمْكَ
لِكَيْدِهِمْ

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿وَيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

يَعْنِي إِيَّاكَ أَوْ تَطْلُبُ أَنْ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ سَوْفَ يَسَاعِدُكَ فِي
أَمْرِكَ أَوْ أَنَّهُ يَمْلِكُ لَكَ خَيْرًا وَلَا نَفْعًا ، فَلَا تُحْسِنِ الظَّنَّ بِأَوَامِرِهِمْ وَلَا

بدواهم ، ولا تتوكل عليهم في شيء إنما توكل على الله
ولا ندُّ أن نفرق هنا بين التوكل واستواكل التوكل أن تكون عاجراً
في شيء ، فتذهب إلى من هو أقوى منك فيه وتعتمد عليه في أن
يقضيه لك ، شريطة أن تستند فيه الأسباب التي خلقها الله لك ،
فالتوكل إذن أن تعمل الحوارح وتتوكل القلوب .

وقد صرّب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً في هذه
المسألة بالطير ، فقال « لو توكلتم على الله حقّ توكله ، لرزقكم كما
يرزق الطير تغدو خماصاً^(١) وتروح بطاناً^(٢) »

أما استواكل فإنّ ترفص الأسباب التي قدمها الله لك ، وتقعّر عن
الأحدّ به وتقول توكلت على الله لا إنما استنفدت الأسباب
الموجودة لك من ربك فإنّ عزّت عليك الأسباب فلا تياس ، لأنّ لك
رباً أقوى من الأسباب ، لأنه سبحانه خالق الأسباب

لذلك ، كثير من الناس يقولون دعوتُ الله فلم يستجب لي ،
يقول نعم صدقت وصدق الله معك ، لأن الله تعالى أعطاك الأسباب
فأهملتها فساعة تستنفد أسبابك ، فتثقّ أن ربك سيستجيب لك حين
تلجأ إليه

واقراً قوله تعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
(٦٤)﴾ [المل] والمضطر هو الذي عزّت عليه الأسباب ، وخرجت عن

(١) المعجمة الجرع وهي حلاء البطن من الطعام جوعاً ومضى الحديث أي تغدو الطير

بكره وهي جياح وتروح عشاء وهي مبتلة الأجساد [لسان العرب - مادة جحى]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/١ ٥٢) وابن ماجه في سننه (٤١٦٤) رافضياً

في سننه (٢٢٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال حديث حسن

نطق قدرته ، كما حدث لسيدنا موسى - عليه السلام - حين جبره
فرعون وجنوده حتى قال قوم موسى ﴿ إِنَّا لَمَدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء]
(٦١)

نعم ، مدركون ، لأن البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، هذا
رأى البشر وواقع الأمر ، لكن لموسى منفذ آخر مقال (كلا) يعنى
لن ندرك ﴿ إِن مَعِيَ رَبِّ سَيَهْدِين ﴾ [الشعراء] قالها موسى عن
رصيد إيماني وثقة في أن الله سيستجيب له

وانعصر بقول دعوت الله في كذا وكذا وأخذت بكل الأسباب ،
فلم يستجب لي ، نقول نعم لكذلك لست مضطراً ، بل تدعو الله عن
ترب كمس يسكن مثلاً هي شقة ويدعو الله أن يسكن في فيلا
أو قصر ، فأب في هذه الحالة لست مضطراً

ثم يذكر الحق سبحانه حيثية التوكل على الله ، فيقول ﴿ وَكفى
بِاللهِ وكيلاً ﴾ [الاحزاب] أى بكفك أن يكون الله وكيلاً ، لأنه
لا شيء يتأبى عليه ، ولا يستحيل عليه شيء

وأحكى لكم قصة حدثت بالفعل معنا ، وكنا نسير مع بعض
الإخوان فرأينا رجلاً مكفرف البصر يريد أن يعبر الشارع فقلنا لرميل
بنا اذهب وخذ بيده ، فزّل وعبر به الشارع ثم قال له إلى أين
تذهب ؟ قال إلى العمل رقم كذا في هذا الشارع ، فأخرج صاحبنا
من جيبه عشرة جنيهات ووضعها في يد الرجل ، فلما أمسك بورقة
العشرة جنيهات لم يلتفت إلى المعطى ، إنما رفع وجهه إلى السماء
وقال لا شيء يستحيل عليك أبداً ، ثم قال بصاحبنا يا ببي
أرجعنى مكان ما كنت ؟ فقد قضيت حاجته التى كان يسمى لها ؟

نعم ﴿ وَكفى بَاللهِ وكيلاً ﴾ [الاحزاب] لأنه لا تعوزه أسباب ، ولا

يُثْبِتُهُ عَنْ إِرَادَتِهِ شَيْءٌ ﴿مَا عَدَّكُمْ بِمَقْدُومًا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ...﴾ [النحل] وفي التوكل ملحظ آخر ينبغي أن نتنبه إليه ، هو أنك إذا توكلت على أحد يقضي لك أمراً خاصاً له أن يعرض لك حتى يقضي حاجتك ، فكيف تتوكل على شخص وتعلق به كل أمالك ، وفي الصباح نسبح نعيمه مات فلان ؟

إذن لا ينبغي أن تتوكل إلا على الله الحي الذي لا يموت ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ...﴾ [العنكبوت] واستغن بمقالة الله عن كل شيء ﴿وَكَمَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الاحزاب] ثم يقول الحق سبحانه

(١) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ اَلَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْ قُلُوبِكُمْ وَمَا جَعَلَ اَدْعِيَاءَكُمْ اَبَاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِاَفْوَاهِكُمْ وَاللّٰهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيْلَ﴾

(١) سبب نزول الآية قال مجاهد : نزلت في جميع من سحر القهري وكان رجلاً سيباً هامناً لما سمع فقالت أريش ما جعل الله الاشباه إلا وله قلبان وكان يقول إن لي قلبين أحقل بكل واحد منهما أعمل من عقل محمد ﷺ فلما كان يوم بدر ومزمع المشركون وفيهم يومئذ جميع بن محمر ، تلقاه أبو سفيان وهو معلق بحدي ثعلبه بيده الأخرى من رجله فقال له ما أنا محمر ما حال الناس ؟ قال انهمو ، قال فما مالك إحدى يديك في يدك ولاخرى في رجلك ؟ قال ما شعرت إلا أنهم في رجلي ، وعزموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما سسى سحره في يده [أسباب النزول للواحدي ص ٢١]

(٢) قال القرطبي في تفسيره { ٥٢٧٨/٧ } : أجمع أهل التفسير على أن هذا من في يده من حارته وروى الآثمه أن ابن عمر قال ما كنا ندعو ريد بن حارثة إلا ريد بن محمد حتى نزل ﴿وَدَعُوهُمْ لَا بَالَهُمْ فَبِأَلْسِنَتِهِمُ﴾ [النحل] ،

ليصل الدواء المطبوب جاهزاً إلى الدم مباشرة ليضخه القلب إلى جميع الأعضاء في أسرع وقت. إذن فالدم هو الذي يحمل خصائص الشواء والعافية إلى البدن كله ، والقلب هو (الموتور) الذي يؤدي هذه المهمة ، لذلك عليك أن تحتفظ به في حالة جيدة ، بأن تملأه بالحق حتى لا يفسده الباطل

وسيق أن أوضحنا أن الحير الواحد لا يمكن أن يسع شيئين في وقت واحد فما بالك إن كانا متناقضين ؟ وقد مكّنت هذه العملية بالرحاجة الفارعة أن أردت أن نملأها بالماء لا ند أن يخرج منها الهواء أولاً ليدخل مكانه الماء

كذلك الحال في المعاشي فلا يجتمع حق وباطل في قلب واحد أبداً ، ويسر لك أن تحصل قلباً للحق وقلباً للباطل ، لأن الخلق جعل لك قلباً واحداً رحله محدوداً لا يسع إلا إيمانك بربك ، فلا ترحمه بشيء آخر

ويروى أنه كان في العرب رجل اسمه حميل بن أسد الفهري^(١) وكان مشهوراً باللسن^(٢) والذكاء ، فكان يقول إن لي قلبين أعقل بواحد منهما مثل ما يعقل محمد ، فشاء الله أن يراه أبو سفيان وهو منهمر بعد بدر ، فيقول له يا حميل ، ما فعل القوم ؟ قال منهم مقتول ومنهم هارب ، قال وما لي أراك هكذا ؟ قال مالي ؟ قال نعل في كفك ، ونعل في رجلك ، قال والله لقد طستهما في رجلي ، فضحك أبو سفيان وقال له ماين قلباك ؟

وإذ كان القلب هو المضخة التي تضخ الدم إلى كل الحوارج والأعضاء حاملاً معه الغذاء والشفاء والعافية كذلك حين تستقر عقائد الخير في القلب ، يحملها الدم كذلك إلى الجراح والأعضاء

(١) ذكر ابن حجر العسقلاني هذه القصة في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » ، ١ / ٢٥٥ ، في ترجمة حميل بن أسيد الفهري يكنى أبا معمر ريلقب ذا القلبين وذكرهما أيضاً في ترجمة وهب بن عمير الجمحي (٦ / ٢٢٧) ثم قال : ذكر الثعلبي هذه القصة لجميل بن معمر ، وأن الذي نقله عنه هو أبو سفيان ، وأسند ابن الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن بن عباس يكنى قال جميل بن أسد ،

(٢) السنن الفصاحة والسنن الكلام واللغة [لسان العرب - مادة سن]

فتتجه جميعها إلى طاعة الله قال رُحُلُ تسعى إلى الخير ، والغير
لا تنظر إلا إلى الحلال ، والآخر تسع لقول فتتبع أحسنه ، واللسان
لا ينطق إلا حقاً

فكل الحوارح إذن لا تنضح إلا الحق الذي تشرّفته من طائفت
الخير في القلب

لذلك يُعلم سيدنا رسول الله هذا الدرس ، فيقول : إن في
الجسد مصغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد
الجسد كله ، ألا وهي القلب

ثم يأخذ الحق سبحانه من مسألة اجتماع المتناقضين في قلب
وحد مقدمة للحديث عن قضايا المتناقضات التي شاعت عند العرب
فيقول سبحانه ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي حَوْلهِ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمْ لِلَّذِينَ تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أَنْهَاتَكُمْ ﴾ . (٣) [الاحزاب]

وقد شاع في الجمعية حين يكره الرجل زوجته يقول لها أنت
عسى كظهير عسى ، ومعصوم أن ظهر الأم مُحَرَّم على الابن حرمة
مؤبدة . ذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطلاق ، فلما جاء
الإسلام لم يجعلها طلاقاً إنما جعل لها كفارة كذب ، لأن الروجة
ليست أمأ لك وحدد هذه الكفارة إما عتق رقبة ، أو إطعام ستين
مسكيناً ، أو صيام ستين يوماً^(١)

(١) منقول عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧) وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩)

من حديث المحسن بن بشير رضى الله عنه

(٢) قال تعالى في كفارة الظهار ﴿ وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا يَعُوذُونَ بِمَا لَدُونَا فَمُعْزِرٌ رَقِيعٌ مِنْ
بِلِ ابْنِ يَمَانٍ دَلَّكُمْ تَوَعُّظٌ بِهِ وَاللَّهُ مَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل
أن يمسها فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لظلموا نال الله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين

عذبة أليم (١١) [المجادلة]

وهذه المسألة تناولتها سورة (قد سمع) ﴿ الذين يظهرون منكم من تسانيهم ما هي أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدتهم وإنهم ليقولون مكراً من القول ورراً ﴾ (٣) [المحاذلة] أى كذباً ، لان الزوجة لا تكون أما

فالحق سبحانه جاء بمناقض ، وأدخل فيه متناقضاً آخر ، فكما ان القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله وطاعة اكاشرين والمنافقين فكذلك الزوجة لا تكون أبداً أما ، فهي إما أم ، وإما زوجة

كذلك وجد عند العرب تناقض آخر فى مسألة النبنى ، فكان الرجل يستوسم الولد الصغير ، أو يرى فيه علامات النحابة فسمده ، فبصير ابود ابناً له ، فخلط ببيته كولد ، ويرثه كما يرثه ولده وله عليه كل حقوق الابن

وهذه متناقضة أيضاً كاسبقية ، فكما أن الرجل لا يكون له قلبان ، وكما أن الروحة لا تكون أما بحد ، كذلك المبنى لا يكون ولداً ، فيقول سبحانه ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ (٤) [الاحزاب] الدعى هو الذى تدعى أنه ابن وليس بابن ، وكان هذا شائعاً عند العرب ، وأراد الله سبحانه أن يبطل هذه العادة ، ومثلها مسألة الطهار ، فألقى القرآن هذه العادات ، وقال صعبوا كل شىء فى موضعه فجعل للطهار كفارة ، ونهى عن التبنى بهذه الصورة

والحق سبحانه ساعه يريد أن يلغى حكماً نهدم صاحب الدعوى نفسه ليطبق هو أمام الدس ، لذلك جعل سيدنا رسول الله يبدأ بنفسه ، ويبطل التبنى الذى عنده

تعلمون ن سيدنا رسول الله ﷺ تروج من السيدة خديجة ، وكان

بها منزلة عند رسول الله وقد اشترى لها حكيم من حرام^(١) عنده من سوق لرهيق هو زيد بن حارثة وكان من بني كلب ، سرقه للصوص من أهله وادعوا أنه عبد فباعوه ثم أهدته السيدة خديجة لسيدها رسول الله فصار مولياً لرسول الله ، يخدمه طيلة عدة سنوات ، وما بالكم بمن يكون في خدمة رسول الله ؟

لقد أحب زيد رسول الله ، وعشق خدمته وقال عن معاملته ﷺ : « لقد خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لشيء فعلته لم فعلته ، ولا شيء تركته لم تركته »^(٢)

وعى يوم من الأيام رآه واحد من بني كلب فى طرقات مكة فأخبر أهله به ، فأسرع أبو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلوه عليه ، وأنه عند مسجد ، فذهب إلى سيدها رسول الله ، وأحضره حبر ولده ، وطلب منه أن يعود معه إلى بني كلب

ولكن ، ما كان رسول الله يتخلى عن خادمه الذى يحبه كل هذا الحب ، فقال لأبيه خير ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فأنا له أب ، فلما خيروه قال سيدنا زيد والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً

عندها أحب رسول الله أن يكافئه على هذا الموقف وعلى

(١) هو حكيم بن حرام بن حويلد الأسدي ، عمته خديجة بنت خويلد ورد قبل النبي بـ ١٢ سنة كان من سادات قريش ، وكان صديق النبي ﷺ قبل النبوة وكان يوده ويحبه بعد النبوة ، ولكن بعد إسلامه حتى سلم عام الف في عام وفاته خلاف ولكنه مات وعمره ١٢ سنة [الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٢٢]

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، ٦٣٨ (والنورمدي في سننه (٢٠٦٥) من حديث أس ابن مالك رحمه الله عنه

تمسكه بخدمته ، فتمناه كما تتبني العرب ، وسموه بعدها زيد بن محمد

فلما أراد الحق سبحانه أن يبطل التبنى بدأ بمبتنى رسول الله .
يكون هو القدوة لغيره في هذه المسألة ، فكيف أبطل الله تعالى هذه
المسوة ؟

كان سديا رسول الله قد روج زيدا من ابنة عمه ربيب بنت
جحش أخت عبد الله بن جحش ، وقد تعجب رسول الله في إقذع
عبدالله وريث بهذه الزيجة التي رفضتها زينب^(١) ، تقول كيف أتزوج
زيداً وهو عبد وأنا سيدة قرشية ؟

ثم تروحنه إرضاء لرسول الله وعملاً بقوله تعالى ﴿ مَا كَانَ
مُؤْمِنٌ وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِذَا قُضِيَ إِلَيْهِ أَمْرٌ أَن يَكُونَ لَهُمُ الْحَبِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ
(٣٦) ﴾ [الاحزاب]

لكنها بعد الزواج تعالت عليه أدها من السادة ، وهو من العبيد
فكره زيد ذلك ولم يُطِيقُ فاحباً أن يطلقها فذهب إلى رسول الله
وشمكا إليه ما كان من زينب وعرض عليه رغبته في طلاقها

فقال له رسول الله أمسك عليك زوجك ، فعاوده مرة أخرى فقال

(١) تورده ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤٠/٢) وابن الأثير في آمد لمائة (٢٨٢/٢)
وبن حجر العسقلاني في الإصابة (٥٩٩/٢) وفيه أن رسول الله ﷺ قال عندما احتاره
زيد على أبيه وعمة ، يا من حضر ، شهدوا أن زيدا أمي أخته ويرثني ، فلما رأى ذلك
أبيه وعمة طأنت أنفسهما وانصرفا ،

(٢) لورد بن سعد في الطبقات (٩٨/١) أن ربيب بنت جحش قالت لرسول الله ﷺ
يا رسول الله لا أرحم نفسي وسأ أيم قريش قال غلبي قد ربيته بك فترجها زيد
ابن حارثة

له أمسك عليك زوجك فعارده زيد ، عندها علم رسول الله أن
رغبتهما هي الطلاق ، وكراهيتهما للحياة الزوجية أمر قدرى ، أراد الله
لحكمة ، ولأمر تشريعى جديد ، شاء الله أن يوقع اليغص بين زيد
وزينب ، فيغص زينب لزيد كان تعالياً واستكباراً ، ويغص زيد لزينب
كان اعتراضاً بالنفس

ولكى يبطل الحق سبحانه بنبي رسول الله لزيد قصصى بأن
يتزوج رسول الله من زينب بعد طلاقها من زيد ، ومعلوم أن امرأة
الان محرم على أبيه ، فزواج سيدنا رسول الله من زينب يعنى أن
زيداً ليس ابناً لرسول الله ، ويبطل عادة القبلى ، والآخر المترتب على
هذه العادة

وقد حس رسول الله بشيء في نفسه ، وتردد في هذا الزواج
مخافة أن يقول الناس إن محمداً أوعز إلى زيد أن يطلق زينب
ليتزوجها هو كما يقول بعض المستشرقين الآن وأنه ﷺ كان
يصمر حب زينب في نفسه ، وهذه كلها ابتراءات على رسول الله
فالذى يحب امرأة لا يسعى حامداً لأن يتزوج من غيرها ، وحين يريد
زوجها أن يطلقها لا يقول له أمسك عليك زوجك

ثم لا ينبغي لأحد أن يحوض فيما أحياه رسول الله في نفسه ،
من أنه عاشق أو محب ، لكن ابصر فيما أبداه الله ، فالذى أبداه الله هو
الذى يخفيه رسول الله واقراً ﴿وَتَحْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ
وَتَحْفَىٰ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَاهُ﴾ (٧٧)

إذن الذى كان يخفيه رسول الله هو أنه يخاف أن تتكلم به
العرب ، وأن تقول فيه ما لا يليق به في هذه لمسألة .

ويقول تعالى ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدُهَا وَطَرُهَا رَوَّجْنَاَهَا ﴾ (٣٧) [الأحزاب] لماذا ؟ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم . (٣٧) [الأحزاب]

وهكذا قرّر الحق سبحانه مبدأ إبطال التبني في شخص رسول الله

والحق سبحانه حينما يبطل عادة التبني إنما يبطل عادة دميمة تُقوّض بناء الأسرة ، وتهدم كيانها ، تؤاى إلى اختلاط الأسباب وصياع الحقوق ، فالولد المتبني يعيش في الأسرة كإبنها ، تعامله لأم على أنه ابنها وهو غريب عنها ، كذلك الميت تعامله على أنه حوها ، وهو ليس كذلك ، وفي هذا من الفساد ما لا يحصى على أحد . وأيضا ، فكيف يكون الأب ابنى جعله الله سديا مباشرا لوجودك وتأتي أنت لترث هذه السببية وتقلها إلى غير صاحبها وأنت حين تنكر البتوة السببية في أبيل فمن السهل عليك - إذن - أن تنكر لمسبب الذي خلق أولاً ، ولم لا وقد تجرأت على إنكار الجميل

وكذلك الذي ينكر البتوة السببية يتجرا على أن ينسب الأشياء إلى غير أهلها ، فينسب العبادة لغير مستحقها ، وينسب الخلق لغير الخالق

ولا فلماذا يحثنا الحق دائما على برّ الوالدين ؟ ولماذا قرن بين عبادته سبحانه وبين الإحسان إلى الوالدين في أكثر من موضع من

(١) الوطر هو اللجعة والأربى لما عرج منها وهارقتها روجناها [قاله أبو كثير في تفسيره ٤١١/٢] ويلون في القاموس الفويم ٢٤٢/٢ = ابوطر الحاجة التي يعسى بها الإنسان ويهزم لها وإذا بلغها قيل إنه قضى وطره ، أي حقق رغبته وقضى حاجته ونهى من مرها ويقال فلان قضى وطره من زوجه أي طلقها .

كتبه العزيز ، فقال سبحانه ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الباء] وقال ﴿وَفَصَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا بِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [٢٣]

قالوا لأن الأب هو سبب الوجود المباشر ، فإذا لم تبهه ،
ومكرت أبوه وبمرنت عليها ، فلعنك تنمرد أيضاً على سبب الوجود
الأصلي ، قالوا إني لهما حق البر والإحسان ، حتى لو كانت كاهرين

لذلك ، لما سُئِلَ ﷺ أسرق المؤمن ؟ قال نعم ، أيرمى
المؤمن ؟ قال نعم أيكذب المؤمن ؟ قال لا فالشرع حين
يصبح للجريمة حداً وعقوبة ، فهذا إيدان يابها ستحدث في المجتمع
المسلم أما الكذب فلم يضع له الشارح حداً ، مع أنه أشد من
السرقه ، وأعظم من الزنى ، لماذا ؟

قالوا لأن المؤمن لا بُصُورٌ منه انكذب ، ولا يجترئ هو عليه ،
لأنه إن عُرِفَ عنه الكذب وقال أمامك أشهد أن لا إله إلا الله يمكنك
أن تقول له أنت كاذب

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ذَلِكُمْ﴾ [الاحزاب] أي ما
تقدم من جعل الروح أمّاً ، أو جعل الدّعى ابناً ، فالروحة لا تكون
أبداً أمّاً لأن الأم هي التي ولدت ، كذلك لا يكون للولد إلا أب واحد
﴿ذَلِكُمْ قَسْوَتُكُمْ بِأَفْوَهِكُمْ﴾ .. [٤] [الاحزاب] وهل يكون القول إلا
بأفواه ؟ فماذا أضافت الأمواه هنا ؟ قالوا نعم ، القول بالهم لكن
أصله في الفؤاد ، وما اللسان إلا دليل على ما في الفؤاد ، كما قال
الشاعر

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْقَوَادِ وَإِنَّمَا حُجِرَ السَّانُ عَلَى الْقَوَادِ دَلِيلًا
إِذْ لَا يَدُّ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ نَسَبَةً فِي الْقَلْبِ ، مِنْهَا تَأْتِي النِّسْبَةُ
الْكَلَامِيَّةُ ، فَهَلْ مَا تَقُولُوهُ لَهُ وَاقِعٌ ؟ هَلِ الرُّوْجَةُ تَكُونُ أَمَّا ؟ وَهَلِ
الْوَلَدُ الدَّعَى يَكُونُ ابْنًا ؟ فَهَذَا كَلَامٌ مِنْ مَجَرَّدِ الْإِفْوَاهِ ، لَا رَصِيدَ لَهُ
فِي الْقَلْبِ وَلَا فِي الْوَاقِعِ ، فَهُوَ - إِذْ - مَاضٍ ، أَمَّا الْحَقُّ فَمَا يَقُولُهُ
الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (١)﴾ [الْأَحْرَابِ]
وَالْحَقُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْتَقَدُ فِي الْقَلْبِ مُطَابِقًا لِلْكَائِنِ الْوَاقِعِ .

فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ حَتَّى يَصَارَ عَقِيدَةً عِنْدَهُ ،
وَهُوَ كَلَامٌ غَيْرُ صَحِيحٍ فَصَحِيحٌ يَخْبِرُ بِهَذَا الْكَلَامِ لَا يُسَمَّى كَاذِبًا لَا
أَخِيرَ عَلَى وَفْقِ اعْتِقَادِهِ ، مَعَ أَنْ الْخَبَرَ كَاذِبٌ ، فَهَنَّاكَ شَرَقَ بَيْنَ كَذِبِ
الْخَبَرِ ، وَكَذِبِ الْمَحْبِرِ .

فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَعْمَلُهَا فِي الْأَمْرِ الْمَعْتَقَدِ فِي الْقَلْبِ إِنْ كَانَ لَهُ
وَاقِعٌ ، فَهُوَ صِدْقٌ فِي الْخَبَرِ ، وَصِدْقٌ فِي الْمَخْبِرِ ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْتَقَدُ
لَا وَاقِعَ لَهُ فَهُوَ كَذِبٌ فِي الْخَبَرِ ، وَصِدْقٌ فِي الْمَخْبِرِ .

إِذَا الْأَمْرُ الْمَعْتَقَدُ يَكُونُ حَقًّا ، إِنْ كَانَ لَهُ وَاقِعٌ وَيَكُونُ كَاذِبًا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَاقِعٌ فَإِذَا بِمِ يَكُنْ هُنَاكَ اعْتِقَادٌ فِي الْقَلْبِ أَصْلًا فَهُوَ
مَجَرَّدُ كَلَامٍ مَالِفٍ ، وَهَذَا أَقَلُّ مَرْتَبَةٍ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي نَعْتَقِدُهُ وَهُوَ غَيْرُ
وَاقِعٍ .

فَمَعْنَى ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ (١)﴾ [الْأَحْرَابِ] أَيْ الْوَاقِعَ الَّذِي يَجِبُ
أَنْ يَعْتَقَدَ وَالْإِعْجَازُ هَا لَيْسَ فِي أَنْ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ الْحَقَّ الْوَاقِعَ
بِالْفِعْلِ ، إِمَّا وَيَحْصُرُ بِالشَّيْءِ فَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى وَفْقِ مَا أَحْبَبَ
سُبْحَانَهُ .

واقراء قويه تعالى ﴿سِيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّو الدُّبُرُ﴾ [انقمر]
فالحق سبحانه صادق حين يقول ما كان . ويصدق حين يقول ما
سيكون

والحق سبحانه حين يقول ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ﴾ [الاحزاب]
كانه يقول قارنوا بين قولين قول بالافواه . وقول بالواقع
والاعتقاد . واما كان قول الله اقوى من الاعتقاد فقط فهو من باب
اولى اقوى من القول بالافواه فقط

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الاحزاب] اى يهdy
السبيل الى القول الحق

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا
ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ مَتَّعَدْتُمْ قُلُوبَكُمْ
وَكُنَّا اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

معنى ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ .. (٥) [الاحزاب] يعنى قولوا ريد بن
حارثة كن كيف يُدزع من زيد هذا القاج وهذا الشرف الذى منحه له
سيدنا رسول الله ؟ نعم . هذا صعب على ريد - رضى الله عنه - لكنه
﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ .. (٦) [الاحزاب] لا عندكم انتم

و ﴿أَقْسَطُ﴾ .. (٥) [الاحزاب] افعل تفصيل . نقول هذا قسط وهذا
أقسط . مثل عدل وأعدل ومعنى ذلك أن الذى احتاره رسول الله من
نسبة ريد إليه يُعَدُّ قسْطًا وعدلاً بشرياً . ففى أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أحسنُ بالهوية

وصار أباً لمن اختاره وفضله على أبيه

لكن الحق سبحانه يريد لنا الاقسط والاقسط ان يدعو الأبناء
لأبائهم ﴿ فَإِذَا نُمِ تَعَمَّدُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ ﴾ (٥٠)
[الاحزاب] أى نعرفهم بأنهم إخواننا في الدين

ومعنى الموالى اخذم والنصوة الدين كانوا يقولون لهم
« العبيد » ، فالولد الذى لا يعرف له أباً هو أح لك فى الله مختار له
اسماً عاماً . فتقول مثلاً فى زيد زيد بن عبد الله ، وكنت عبيد الله
تعالى

والبنوة تثبت بأمرين بالعقل وبالشرع ، فالرجل الذى يتزوج
زواجا شرعياً ، وينجب ولداً ، فهو أبه كوناً وشرعاً ، فإذا زنت
المرأة - والعياذ بالله - على فراش زوجها ، فالولد ابن الزوج شرعاً
لا كوناً ، لأن القاعدة العممية تقول الولد للفراش ، وللعاهر الحجر^(١)

كذلك فى حالة الروحة التى تتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجها
أو بعد طلائعها ، لكنها تنجب ستة أشهر ، فتقوم هذا شبهة أن يكون
الولد للزوج الأول لذلك يعدُّ ابناً شرعاً لا كوناً ، لأنه ولد على فراشه

فإن جاء الولد من الزنا - والعياذ بالله - فى غير فراش الزوجية فهو
أبيه كوناً لا شرعاً ، لذلك نقول عنه ، ابن غير شرعى »

كما أن فى قوله تعالى ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ ﴾ [الاحزاب]
تشريعاً للنبي ﷺ ، فلو قال تعالى هو قسطن لكان عمل النبي إذن
جوراً وظلماً ، لكن أقسط تعنى أن عمل النبي قسطن وعَدْلٌ

(١) هو حديث لرسول الله ﷺ أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٩/٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٤٠٩) ،
وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٥٨) كتاب الرضاع - باب الولد للفراش (١٠) من حديث
أبى هريرة رضى الله عنه

وقوله تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (٥٠) [الاحزاب] نُحَرِّجُكَ مِنْ حَرْجٍ كَبِيرٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . فكَثِيرًا مَا نَسْمَعُ وَمِنْ نَقُولُ لَغَيْرِ ابْنَانَا يَا بَنِي عَلِيٍّ سَبِيلَ الْعَطْفِ وَالْبُودَدِ ، وَنَقُولُ لَكِبَارِ اسْرٍ يَا أَبِي فُلَانٍ احْتِرَامًا لَهُمْ

فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَحْتَاطُ لَنَا وَيُعْفِينَا مِنَ الْعَرَجِ وَالْإِثْمِ . لَأَمَّا نَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ لَا نَقْصِدُ الْأَنُوءَ وَلَا الْبِنُوءَ الْحَقِيقِيَّةَ إِنَّمَا نَقْصِدُ تَعْظِيمَ الْكِبَارِ وَتَرْقِيقَهُمْ وَالْعَطْفَ وَالْحُضْنَ بِالصَّعَارِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ إِثْمٌ وَلَا ذَنْبٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، إِنْ أَخْطَأْتُمْ فِيهَا ، وَالْخَطَا هُوَ الْأَلُّ تَذَهَبُ لِي الصُّوَابُ بَكْنَ عَنْ غَيْرِ عَمْدٍ

وَإِذَا كَانَ رَبَّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قَدْ رَفَعَ عَنَّا الْحَرْجَ ، وَاسْمَحَ لَنَا بِاللَّعْوِ حَتَّى فِي الْحَلْفِ بِذَاتِهِ سَبْحَانَهُ فَقَالَ ﴿لَا يُوْحِدُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْرِ فِي يُؤْمِنُكُمْ وَسُكُنَى يُوْحِدُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ (٥١) [المائدة] فَكَيْفَ لَا يُعْفِينَا مِنَ الْحَرْجِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؟

ثُمَّ يَقُولُ سَبْحَانَهُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٢) [الاحزاب] سَبَّوْهُ أَنْ قُلْنَا أَنْ الْفِعْلَ إِذَا أَسْتَدَّ إِلَى الْحَقِّ سَبْحَانَهُ انْحَلَّ بِمِثْلِهِ الزَّمَرُ فَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى زَمَرٌ مَاضٍ ، وَحَاضِرٌ ، وَمُسْتَقْبَلٌ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ خَالِقُ الزَّمَرِ لَدُنْكَ نَقُولُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٣) [الاحزاب] يَعْنِي كَانَ وَلَا يَزَالُ غَفُورًا رَحِيمًا ، لِأَنَّ الْاِخْتِلَافَ فِي زَمَرٍ اِخْتِلَافٌ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ صَاحِبِ الْأَعْيَارِ ، وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ لَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ تَغْيِيرٌ

لَدُنْكَ بَخَافَ نَحْزَ مِنْ صَاحِبٍ لَاغْيِيرُ لِأَنَّهُ مُتَقَلِّبٌ ، وَيَقُولُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ تَعْيِيرُوا مِنْ أَجْلِ رَبِّكُمْ - يَعْنِي مِنْ الْاِسْجَرِافِ إِلَى الْاِسْتِقَامَةِ - لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَتَغَيَّرُ مِنْ أَجْلِكُمْ ، أَنْتَ تَتَغَيَّرُ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ ، لَكِنَّ اللَّهَ لَا يَتَغَيَّرُ مِنْ أَجْلِ أَحَدٍ ، وَمَادَامَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ

لا يتغير ، فالتالى سيقى سبحانه غفوراً رحيماً

وتلحظ فى أسلوب القرآن أنه يقرن دائماً بين الوصفين غفور ورحيم لأن الغفر سلْب عقوبة الذنب ، والرحمة مجيء إحسان جديد بعد الذنب الذى غُفِر ، كأن تُمسك فى يديك لصاً يسرق ، فك أن تذهب به للمشرطة ، ولك أن تغفو عنه وتتركه يتصرف إلى حال سبيله ، وتستتر عليه ، ويدك أن تساعد بما تقدر عليه ليستعين به على الحياة ، وهذه رحمة به وإحسان إليه بعد المغفرة

وقد عُولِجَتْ هذه المسألة فى قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ (٣٦) [الحل] وهذا التوجيه يضع لما أول أساس من أسس المغفرة ، لأنك لا تستطيع أبداً تقرير هذه المثلية ولا تضمن أدماً إذا عاقبت أن تعاقب بالمثل ، ولا تعتدى ، لذلك تلجأ إلى جانب المغفرة ، لكى لا تدخل نفسك فى متاهة اعتداء جديد ، يُوجب الفصاص منك

وسبق أن حكينا قصة المراسى الذى اشترط على مدينه إذا لم يمدد ما عليه فى الوقت المحدد أن يأخذ رطلاً من لحمه ، فلما تأخر اشتكاه المراسى عند القاصى ، وذكر ما كان بينهما من شروط ، فأقره القاصى على شرطه ، لكن ألهمه الله أن يقول للمراسى نعم خذ رطلاً من لحمه لكن بصرية واحدة ، فإن زدت عنها أو نقصت رفيناها من لحمك أنت ، عندها تراجع المراسى ، وتبارل عن شرطه

إن أحار لك الشرع القصاص ماثلاً ليجس هذه المرحلة صعبة الذبذبة ثم يفتح لك الحق سبحانه باب الغفر والصفح فى المرحلة الثانية ﴿وَإِنْ تَعَفَوْا تَصَفُّحُوا وَتَعَفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) [التعبير]

ثم يفسرها بعيشية أخرى ، فيقول سبحانه ﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ال عمران]

ومعنى كظم لعيط أننى لم أنفعل انفعلاً غصبياً ينتج عنه رد فعل انتقامى ، وجعلتُ عصى فى قلبى ، وكظمته فى نفسى ، وهذه المرحلة الأولى أما الثانية فتخرج ما فى نفسك من غيظ وغضب وتتسامح وتغفو

ثم المرحلة الثالثة أن ترتقى إلى مرتبة الإحسان ، فتحسن إلى من أساء إليك وهذه رحمة ، والرحمة أن يميل الإنسان بالإحسان لعازز عنه ، فإن كان الأمر يعكس ذلك فلا تسمى رحمة ، كان يميل العبد بإحسان إلى سيده

هذه صور أتت فيها الرحمة بعد المغفرة ، وهذا هو الأصل فى المسألة ، وقد تأتي الرحمة قبل المغفرة كأن تُعسك بالخص الذى يسرق فتشعر أنه مكروه على ذلك ، وليس عليه أضرار لإحرام ، فيرق له قلبك ونمد يدك إليه بالمساعدة ، ثم يطلق سراحه ، وتغفو عنه ، والرحمة هنا أولاً وتبعتها المغفرة

بعد ذلك لمائل أن يقول ما موقف زيد بعد أن أسخط الله تعالى انتبنى ، فصار زيد بن حارثة بعد أن كان زيد بن محمد ، وكيف به بعد أن سلب هذه النعمة وحُرم هذا الشرف ، أضف إلى ذلك ما يلاقيه من عنف المرجفين ، وألسنة الذين يؤغرون صدره ، ويوقعون بينه وبين رسول الله ، وهو الذى اختاره على أبيه

لا شك أن الجرعة الإيمانية التى سبَّح بها زيد جعلته فوق هذا كله ، فقد تشرب قلبه حب رسول الله ، ووقر فى نفسه قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَرْءَةٍ إِذَا قُضِيَ إِلَيْهِمْ أَمْرٌ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْحِمْرَةُ

من أمرهم.. ﴿٣٦﴾ [الاحزاب]

ثم تاتي الايات لتوضح للناس لستم أحق على زيد من محمد لان محمدا ﷺ أولى بالمؤمنين جميعا من أنفسهم ، لا يزيد وحده

ثم يقول الحق سبحانه

﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَرْجَاهُ أَمَنُهُمْ
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم
مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١﴾﴾

فالمعنى إذا كان النبي ﷺ أولى بالمؤمنين جميعا من أنفسهم
فما بلكم بريد ، إن لستم أحق على زيد من الله ، ولا من رسول
الله ، وإذا كنتم تنظرون إلى الوسام الذي نزع من رد حين صار زيد
ابن حارثة بعد أن كان زيد بن محمد

فلماذا تعترضون أعينكم عن فضل أعظم ، ذله زيد من الله تعالى
حين ذكر اسمه صراحة في قرآنه وكتابه العزيز الذي يتلى ويتعبد
بنلأوته إلى يوم الحساب ، هاى وسام أعظم من هذا ؟ فسقوله تعالى
﴿فَلَمَّا قُضِيَ إِلَيْهَا مِنْهَا وَطَرًا رَوَّحَاكُهَا﴾ ﴿٣٧﴾ [الاحزاب] قول خالدة يجلد
معه ذكر زيد ، وهكذا عوض الله زيدا عما فاته من تغيير اسمه

وقوله تعالى ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ..﴾ ﴿١﴾ [الاحزاب]

ما المراد بهذه الاولوية من النبى ﷺ ؟

قَالُوا هِيَ ارْتِقَاءٌ فِي مَجَالِ الْإِحْسَانِ إِلَى النَّفْسِ ثُمَّ إِلَى الْغَيْرِ فَالْإِنْسَانُ أَوَّلًا يُحَسِّنُ إِلَى نَفْسِهِ ، ثُمَّ إِلَى الْقَرَابَةِ الْفَرِيقَةِ ، ثُمَّ الْقُرْبَةِ الْبَعِيدَةِ ، ثُمَّ عَلَى الْأَبَاعِدِ ، لَدَيْكَ يَقُولُ ﷺ « أبدأُ بِنَفْسِي ، ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ »^(١)

وَيَقُولُونَ أَوَطَارَ النَّاسُ نَحْتَلِفُ بِخْتَلَاَفِ هِمَمِهَا ، فَرَجُلٌ وَطَنَهُ نَفْسَهُ فَيَسِيرُ كُلَّ شَيْءٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا يَرَى نَفْسَهُ لِأَحَدٍ ، وَرَجُلٌ وَطَنَهُ أَبَاؤَهُ وَاهْلَهُ وَرَجُلٌ يَتَعَدَّى لِأَصُولٍ إِلَى الْفُرُوعِ ، وَرَجُلٌ وَطَنَهُ بَلَدَهُ أَوْ قَرْيَتَهُ ، وَرَجُلٌ وَطَنَهُ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَالْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا

فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَدَّى حَيْرَهُ إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ وَالْمُؤَمَّسِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ لَدَيْكَ كَانَ ﷺ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِهِ وَعَلَيْهِ رَيْنٌ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ رِفَاءٌ لَا يُصَلَّى عَلَيْهِ وَيَقُولُ « صَلُّوا عَلَى أَحَبِّكُمْ »^(٢)

وَالنَّظَرَةُ السُّطْحِيَّةُ هُنَا تَقُولُ وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ رَيْنٌ ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ؟

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَذْرَةَ « أَبَدًا يَتَعَسَّكَ بِمِصْبَقٍ عَلَيْهَا ، مِنْ فَضْلِ شَيْءٍ قَلَامًا لَكَ فَإِنْ فَضَّلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ مَدَى قَرَابَتِكَ ، فَإِنْ فَضَّلَ عَنْ بَنِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٩١٧) كِتَابُ الرِّكَاءِ - بَابُ الْإِبْدَاءِ فِي بَنَفْسِهِ مَالِ نَفْسِهِ أَمَّا لَفْظُهُ « ثُمَّ بَعْدَ تَعُولُ » فَقَدْ وَرَدَتْ فِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ مُسْلِمٍ أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ (١٠٣٤) كِتَابُ الزَّكَاةِ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَرَامٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « أَنْفُسُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ظَهْرِ عِشْرَةٍ وَالْبَدَنُ الْعُلْيَا حَبِيرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ »

(٢) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِرَجُلٍ يُصَلِّيُ عَلَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ « صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ فَإِنْ عَلَنَهُ دِينًا » قَالَ أَوْ مَنَانَةً هُوَ عَلَى فَقَالَ ﷺ « بِالْوَفَاءِ » قَالَ دُونَ الْوَفَاءِ فَمَنْ عَلَى عَلَيْهِ أَخْرَجَهُ ترمذی فی سننه (١٠٦٩) وَقَدْ هُنَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

فأبوا - لم يمنع الرسول الصلاة عليه وقال صلُّوا على أخيكم ،
لأنه قال في حديث آخر « مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا - لَمْ
يَقُلْ أَدَاهُ - رَأَى اللَّهَ عَنْهُ »

أما وقد مات دون أن يؤدى ما عليه فغالب الظن أنه لم يكن
يؤبى الأبناء بذلك لا أصلي عليه فلما نزل قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٦) [الأحزاب] حذر رسول الله يتحمل الدين
عمر يموت من المسلمين وهو مدين ، ويؤدى عنه رسول الله وهذا
معنى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٦) [الأحزاب] فالنبي أولى
بالمسلم من نفسه

ثم ألم يقل سيدنا رسول الله ﷺ أمام عمر « لا يؤمن أحدكم
حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وماله ، وأهله وأجمعين » ولصدق
عمر - رضى الله عنه - مع نفسه فقال نعم يا رسول الله ، أنت أحب
إليّ من أهلى ومالى ، لكن نفسى فقال النبي ﷺ « والذي نفسى
بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »

فلما رأى عمر أن المسألة عزيزة فطن إلى الأجواب الصحيحة
فلأيد أن الله أسبق رسوله بحب غير الحب الذى أعرفه ، إنه الحب
العقلى ، فمحمد ﷺ أحب إليه من نفسه ، والإنسان حين يحب الدواء

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦١/٢ - ٤١٧) والبخارى في صحيحه (٢٣٨٧)
وابن ماجة في سننه (٢٤١١) عن أسى هريز

(٢) عن جد رفره بن مسدد قال كسا مع النبي ﷺ وهو أحد بيد عمر بن الخطاب رضى الله
عنه قتال والله يا رسول الله لا أحب إلى من كل شيء إلا نفسى فقال النبي ﷺ
« والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » تن - فائد الآ
والله أحب إلى من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ « إلا يا عمر » ، أخرجه الإمام أحمد في
مسنده (٢٣٦/٤)

المرء إنما يحسنه بعقله لا بمعاملته وكما تحب الولد الذكي حتى لو كن
ابن لعدوك ، أما ابنك فتحبّه بغواملك ، وتحب من يشي عليه حتى لو
كان غيباً متخلفاً

ومشهوره عبد العرب قصة الرجل العنسى الذي رزقه الله مولد
متخلف ، وكبر الولد على هذه الحالة حتى صار رجلاً ، فكان لطالبون
للعطاء يأتونه ، فيُسْتَوْر على هذا الولد ، ويمدحونه إرضاء لأبيه
وطمعاً في عطائه مع أنهم يعلمون ببلأفته وتخلفه إلى أن احتاج
واحد منهم ، فصحوه بالذهاب إلى هذا العنسى وأجروه نقطة صَعَفَ
في يده

وفعلأ ذهب الرجل ليطلب المساعدة ، وجلس مع هذا العنسى في
النهو ، وصحاة نزل هذا الولد على السُّلم كأنه طمس يلعب لا تخفى عليه
علامات الله وانحنى ، فبظر الرجل إلى صاحب البيت ، وقال أهذا
ولدك الذي يدعو الناس له ؟ قال نعم ، قال أراحتك الله منه ،
ولأوراق على الله

وقوله تعالى ﴿وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ ..﴾ [الاحزاب] أي أن
أرواحه ﷺ أمهات للمؤمنين ، وعليه فخبيرة رضى الله عنها أم
لرسول الله بهذا المعنى ، لأنه أول المؤمنين ، لذلك كانت لا تعامله
معاملة الروجة ، إنما معاملة الأم الحانية

ألا تراه كيف كانت تحنو عليه وتحببته أول ما تعرض لشدة
الوحى ونزول الملاك عليه ، وكيف كانت تُطمئنه ، ولو كانت بتاً
صغيرة لاختلف الأمر ، ولا تهتم في عقله إذن رسول الله في هذه
المرحلة كان في حاجة إلى أم رحيمة ، لا إلى زوجة شابة قليلة
الخبرة

وروجاته ﷺ يُعْتَبِرْنَ أَمْهَاتَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ
مُخَاطَبًا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُسَبِّحُوا
أَرْوَاحَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ۖ ﴾ (٥٣) [الاحزاب] لِمَاذَا « لَا لِلرِّجَالِ الدِّينَ
يَخْتَلِفُونَ عَلَى امْرَأَةٍ تَوْجَدُ بَيْنَهُمْ دَائِمًا ضَغَائِرُ وَأَحْقَادُ

فَالرَّجُلُ يُضَلِّقُ زَوْجَتَهُ وَيَكُونُ كَارِهًا لَهَا ، لَكِنْ حِينَ يَتْرُوجُهَا آخِرُ
تَحَلُّوْ فِي عَيْنِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَيَكْرَهُ مِنْ يَتْرُوجُهَا وَهَذِهِ كُلُّهَا أَمْوَرُ
لَا يَنْبَغِي مَعَ شَخْصٍ رَسُولُ اللَّهِ . وَلَا يَصِحُّ مَنْ كَانَتْ زَوْجَتُهُ لِرَسُولِ
اللَّهِ أَنْ تَكُونَ فِرَاشًا لغيره أَبَدًا ، لِذَلِكَ جَعَلَهُنَّ اللَّهُ أَمْهَاتَ لِلْمُؤْمِنِينَ
جَمِيعًا ، وَهَذِهِ الْحَرَمَةُ لَا تَتَعَدَّى «مَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنَاتِهِمْ ، فَمَنْ
كَانَتْ لَهَا بِنْتُ فَلْتَتْرُوجُ مَنْ تَشَاءُ

إِذِنْ لَا يَجُوزُ لِإِنْسَانٍ مَوْسٍ بِرَسُولِ اللَّهِ وَيُقَدِّرُهُ قُدْرَهُ أَنْ يَخْلِفَهُ
عَلَى أَمْرَاتِهِ

لِذَلِكَ كَانَ بَعْدَ الرُّوحَاتِ فِي الْحَاثِلِيَةِ يَمُرُّ لَهُ حَدٌّ مَعِينٌ فَكَانَ
لِلرَّجُلِ أَنْ يَتْرُوجَ مَا يَشَاءُ مِنَ النِّسَاءِ ، قَلَمَا جَاءَ الْإِسْلَامَ أَرَادَ أَنْ يَحْدُدَ
الْعَدَدَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَأَمَرَ أَنْ يُعَسَلَ الرَّجُلُ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ ثُمَّ يَفَارِقُ
الْبَاقِيْنَ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَجْمَعُ مِنَ الزَّوْجَاتِ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ

أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ أَمْسَكَ تِسْعًا مِنَ الرُّوحَاتِ ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ
أَحَدُهَا الْمُسْتَشْرَقُونَ مَا أَحَدًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى شَرْعِ اللَّهِ كَذَلِكَ مَنْ
لَفَّ لَقَمَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

() عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْلَمَ وَلَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ فِي
الْحَاثِلِيَةِ فَأَسْلَمَ مَعَهُ فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ
(١١٢٨) ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ (١٩٥٣) وَمَوْصُوفٍ وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ سَالِكٌ فِي مَوْطِئِهِ
مَرْسَلًا عَنْ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ يُلَظُّ « أَمْسَكَ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا » وَفَارَقَ سَائِرَهُنَّ .

ومقول هؤلاء : أنتم أغبياء ، ومن لفت لعلكم غيبى منكم ، لأن هذا الاستثناء لرسول الله جاء من قول الله تعالى له : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَ مِنْ أَرْوَاحٍ ۚ ۝٥٢ ﴾ [الأحزاب]

يعنى : إن ماتت إحداهن لا تتزوج غيرها ، حتى لو مثنى جميعاً لا يحل لك الزواج بغيرهن من حينئذ ، غيره من أمته له أن يتزوج بدل إحدى زوجاته ، إن ماتت ، أو إن طلقها ، وله أن يطلق مهن من يشاء ويتزوج من يشاء ، شريطة ألا يجمع مهن أكثر من أربع فعلى من صيَّق هذا الحكم ، على رسول الله ، أم على أمته ، من لا تظلموا رسول الله .

ثم ينبغى على هؤلاء أن يُعرفوا بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود . فكون رسول الله يكتفى بهؤلاء التسع لا يتعداهن إلى غيرهن ، فالاستثناء هنا فى المعدود . ولو انتهى هذا المعدود لا يحل له غيره ، ولو كان الاستثناء فى العدد لجاز لكم ما تقولون

ومن ناحية أخرى حين يمكك الرجل أربعاً ، ويفارق الباقي من زوجاته لهن أن يتزوجن بغيره ، لكن كيف بزواجهن ؟ إن طلق حسناً مهن ، وهن أمهات المؤمنين ، ولا يحل لأحد من أمته الزواج مهن ؟ إذن الخير والصلاح فى أن تبقى زوجات الرسول فى عصمته

وما دام ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۚ ۝٦١ ﴾ [الأحزاب] كذلك يجب أن يكون لمؤمنين أولى رسول الله من نفسه ليردوا له هذه التحية ، بحيث إذا أمرهم أطاعوه

ثم يقول تعالى ﴿ وَأَرْوُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۚ ۝٦٢ ﴾ [الأحزاب]

كلمة (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) مأجودة من ارحم . وهو مكان الجبير في بطن أمه . والمراد الأقارب . وحطهم الله أولى ببعض لأن المسلمين الأوائل حينئذ هاجروا إلى المدينة تركوا في مكة أهلهم وأموالهم وديارهم . ولم يشأ أنصار رسول الله أن يتركوهم يفلتوا متجهة إلى الأَنْجُرَانِ

فكانوا من شدة إيثارهم لإخوانهم المهاجرين يعرض الواحد منهم على أخيه المهاجر أن يُصَلِّقَ له إحدى روحاته لئلا يهاجروا . وهذا لون من الإيثار لم يشهده تاريخ البشرية كلها . لأن الإنسان يحود على صديقه بأعلى ما في حوزته ومكة إلا مسألة المرأة . فما فعله هؤلاء الصحابة لون مريد من الإيثار

وحين أخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار هذه المزايا اقتصب أن يرث المهاجر أخاه الأنصاري . فلما أعرز الله الإسلام ووجد المهاجرون سبيلاً للعيش أراد الحق سبحانه أن تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي . فلم تعدْ هناك ضرورة لأن يرث المهاجر أخاه الأنصاري

فقررت الآيات أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض في مسألة الميراث . فقال سبحانه ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ (٦) [الأحزاب] فقد استقرت أمور المهاجرين . وعرف كل منهم طريقه ورثت أموره . والأرحام في هذه

(١) حدث هذا مع عبد الرحمن بن عوف المهاجر من مكة . وسعد بن الربيع الأنصاري . حيث قال له سعد : أخى أبا أكثر أهل المدينة مالا . فانظر شطير مالى فحنه . وتحمى امرأتان فانظر آيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى املاك ومالك . يدوس على السوق . السير مطونه أخرجني ابن سعد فى الطبقات (٣ ١١٧)

الحالة أولى بهذا الميراث

وقوله تعالى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ (٦) [الأحزاب] منسبه إلى أن الإنسان يجب عليه أن يحفظ بضعة اللقاء حتى من آدم عليه السلام ، لأنك حين تتأمل مسألة خلق الإنسان تجد بنا جميعاً من آدم ، لا من آدم وحواء

يُروى أن الحاجب دخل على معاوية ، فقال له رجل بالباب يقول : به أخوك ، فقال معاوية كيف لا تعرف إختوتى وأنت حاجبي ؟ قال هكذا قال ، قال أدخله ، فلما دخل الرجل سأل معاوية أى إختوتى أنت ؟ قال أخوك من آدم ، فقل معاوية نعم ، رحم مقطوعة ، والله لأكوننَّ أول من يصلها

وقوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ (٦) [الأحزاب] الحق سبحانه يترك باب الإحسان إلى المهاجرين مفتوحاً ، فمن حضر منهم قسمة فلنكن به منها نصيب على سبيل الطوع كما جاء في قوله تعالى ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨) [النساء]

وقوله سبحانه ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦) [الأحزاب] أى في أم الكتب اللوح المحفوظ ، أو الكتاب أى القرآن ثم ينقل الحق سبحانه إلى قضية عامة لموكب الرسل جميعاً

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ
وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا عَلِيًّا﴾ (٧)

كلمة (إد، إدا) ظرف لحدث، تقول: إذ جاءك ملائكة فأكرمه، فالإكرام معلق بالمجيء، والمعنى هنا: واذكر إذ أخذ الله من المسلمين ميثاقهم، وهذه قصيدة عمة في الرسل جميعاً، ثم فصلها الحق سبحانه بقوله ﴿وَمِمَّنْ أَوْحَی بِنُوحٍ وَأِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الاحزاب]

الميثاق هو العهد يوحد بين اثنين، كالعهد الذي أخذه الله تعالى أولاً على الخلق جميعاً، وهم في مرحلة الذر، والذي قال الله عنه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (١٧٢) [الاعراف]

فما العهد الذي أخذه الله على النبيين؟ العهد هنا هو الاصطفاء والاختيار من الله لبشر أن يكون رسولاً وسفيراً بين الله تعالى والخلق، وحين يصطفى الله رسولاً ليبلغ الناس شريعته، هذا الاصطفاء لا يرد - إذن - فهو عرض مقدس وحين يقبله الرسول كأنه أخذ عهداً وميثاقاً من الله تعالى بأن يحمل رسالته إلى الخلق، هي - إن - مسألة إيجاب وقبول

فقرره تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ (٧) [الاحزاب] الأخذ هو الحق سبحانه، والماخوذ منه هم النبيون، والميثاق العهد الموثق، والعهد تعاهد وتعاهد بين طرفين على أمر يُحقق الصالح عندهما معاً ولو اختلف واحد منهما ما تم العقد، فإن كان الطرفين متساويين اشترط كل منهما ما يراه بنفسه في العقد.

فإن كن الميثاق من الأعلى إلى الأدنى فهو الذي يأخذ العهد للأدنى لعاداً لأنك جعلته في مرتبة أن يعصى عهداً، ويوثق بينك وبينه أشياء، لذلك يقول الحق سبحانه ﴿وَمِيثَاقَهُ الّلهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ﴾ (٧) [الساعة]

والمواثقة مفعلة بين الطرفين أسم واتعموه به وهو واتقكم به لأن

الرسر حسين مختارهم الله ، لا شك أنه سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا احضر الله رسولا ، فقبول الرسول للرسالة ارتضاء منه بما يريد الله من العهد

وهل رأينا رسولا في موكب الرسائل عُرِضَتْ عليه الرسالة فرفضها ؟ إذن قبول الرسالة كانه العهد جاء من طرف واحد في إلقاء شروطه ، لأنه لطرف الأعلى ، وحيثية التوثيق هي أن الله اختاره ، وجعله أهلا للاصطفاء للرسالة

لذلك رأينا في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - لما اصطفاه الله للرسالة أنس من نفسه أنها مسألة كبيرة بالنسبة له ، لكن لم يردّها ، إنما طلب من الله أن يساعده في هذه المسئولية أخوه هارون ، فقال للحق سبحانه وتعالى ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ^(١) يُصَدِّقُنِي ۚ ﴾ (٣٩) [القصص]

فلم يقل أنا لا أصلح لهذه المسألة ، إنما أدعني لأمر الله ، فانه أعلم حيث يجعل رسالته ، ومسألة العقدة لتي في لسانه يستعين عليها بأخيه

إذن كلمة (الميثاق) تدور حول الشيء المؤكّد المؤثّق ، ومنه قوله تعالى عن الأعداء ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَمْتُمُوهُم ^(٢) فَشَنُّوا الرِّبَاقَ ۖ ۖ ۚ ﴾ (٤) [محمد]

ثم يأتي تفصيل هذه القضية العامة ﴿ وَمَنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ

(١) رداء قواه وإعانه والرداء المعنى والناصر [القاموس القويم ٢٦٠/١]

(٢) أختتموهم علبتموهم وكثروا فيهم الجراح وأخصتته الجراح أوهمته والإنحال في كل

شيء قوته وشدته ، [لسان العرب - مادة شح]

وموسى وعيسى ابن مريم . . (٧) ﴿٧﴾ [الأحزاب]

قوله (مِنْكَ) أى من سيدنا رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين . لكن لماذا قدّم محمداً ﷺ على نوح عليه السلام ، وهو الأب الثانى للبشرية كلها بعد آدم عليه السلام ؟

نعلم أن البشرية كلها من سلالة آدم عليه السلام إلى أن جاء عهد نوح عليه السلام ، فتنقسموا إلى مؤمن وكافر ، ثم جاء الطوفان ولم يبق على وجه الأرض إلا نوح ومَنْ آمَنَ به ، فكان هو الأب الثانى للبشر بعد سيدنا آدم

لذلك يقول البعض إن نوحاً عليه السلام رسالته عامة ، كما أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام عامة ويقول عمومية نوح كانت لمن آمن به ولاهل السفينة فى زمن معلوم ومكان محدد ، أما رسالة محمد فهى عامة فى كل الزمان ، وفى كل المكان

أما تقديم ذكر محمد ﷺ أولاً ، لأن ابواب هذا عادة لا تقتضى ترتيباً ولا تعصياً . إنما هى لمطلق الجمع ، ثم قدم رسول الله لأنه المحاطب بهذا الكلام ، ومن إكرام الله لرسوله أن يبدأ به فى مثل هذا المقام ثم لهذا التقديم ملحظ آخر نفهمه من قوله ﷺ عن نفسه « كنت نبياً وآدم بين الماء والمطين »^(١)

ثم يخص بالذكر هنا نوحاً ، لأنه الأب الثانى للبشر ، ثم إبراهيم وموسى وعيسى فأبراهيم ، لأن العرب كانت تؤمن به ، وتعلم أنه

(١) قال السيوطى فى « تلميح المشتبه » (ص ٢٠٣) « لا اصل له بهذا اللفظ » وقد أخرج الترمذى فى سننه (٣٦٠٩) عن حديث ابن عمر قار « قالوا يا رسول الله وجبت لك المدة » قال « آدم بين الروح والجسد » قال الترمذى حديث حسن صحيح غريب وفى الباب عن ميسرة الفجر

أبو الأنبياء ، وتقدّر علاقته بالكعبة ورفح قواعدها . وأنه قدوة في مسألة الذبح والسقي وغيرها

رموسى وعيسى ، لأن اليهودية والمسيحية ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله ، حيث كان اليهود في المدينة ، واصارى في محران ، وهما 'هل الكتاب الذين كان بينهم وبين رسول الله مواقف شتى وكذب لهم في الجزيرة العربية السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيدة العمرانية والسيادة الحربية . وكانهم هم 'صاحب هذه البلاد

ومن العجيب أن هؤلاء كان الله سبحانه - في ميثاقهم مع أنبيائهم - يحرمهم ليشهدوا لمحمد بصدق دعوته ، لذلك كانوا يستفتحون بمحمد على الذين كفروا ويقومون لعبدة الأصنام لقد أطل زمان نبى سنبغه . وقتلكم به قتل عاد وادم ، فكانوا يعرفون زمان رسول الله وموطنه ، وأنه سيبعث في أرض ذات بحر ، ومن صفاتها كذ وكذب . لذلك لم قطعهم الله في الأرض مما وشتتهم ، جاء المشتغلون منهم بالعلم إلى يثرب ينتظرون بعثته ﷺ

لذلك يقول تعالى ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مَرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَ عِلْمِ الْكِتَابِ ﴾ (٤٣) [الرعد]

إذن فامل لكتاب كان من المفترض فيهم أن يشهدوا لرسول الله بصدق الرسالة ، لكن يحكي القرآن عنهم بعد هذا كله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) [البقرة]

فكيف إذن تم هذا التحول ؟ وكيف تنقلب عقيدة القلب إلى تعمد القلب ؟ قالوا إنها السلطة الرسمية التي أحبوا أن تبقى ، وأن تدوم لهم فقد بعث الرسول وهم أهل مال وتجارة وأهل حرف وعمارة ،

رحموا من رسول الله ومن الدين الجديد أن يسلمهم هذه المكانة وأن يقضى على هذه السيادة لذلك قال القرآن عنهم ﴿بِسْمِ اسْتَرْأَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَرْسُلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَصَابِ عَلَى عَصَبٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ عَذَابُ اللَّهِ لَهُمْ﴾ [المقرة]

لهذا خص بالذكر هـا موكب الانبياء موسى وعيسى عليهما السلام .

ونلاحظ أن لسباق ذكر موسى عليه السلام ، ولم يذكر له آبا . أما في عيسى عليه السلام فقال ﴿عَمَسَى بِي مَرِيمَ﴾ [٧] ﴿[الاحزاب]

وهذا دليل على أنه يؤكد الأصالة في الإنجاب ، فالأب هو الأصل إن وجد مع الروح ، فإن لم يوجد الأب فالأبوة للروح ، لذلك نسب عليه السلام إلى أمه

رجاءت هذه المسألة لتبرهن على طلاقة القدرة الإلهية ، فمسألة الخلق ليست عمية ميكانيكية تخضع لقانون إنما هي قدرة الله التي خلقت آدم بدون أب ولا أم وخلقت حواء من أب دون أم ، وخلقت عيسى عليه السلام من أم بدون أب ، وخلقت سائر الخلق من أب وأم ، وهكذا استوفى الخلق القسمة العقلية في كل صورها

وقوله تعالى ﴿وَأَحَدْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [٧] ﴿[الاحزاب] أي من الانبياء ، والميثاق الغليظ أي المؤكد ، فقد وسَّعه الله وأكده حينما أخرج أنبياءه ورسله أنهم سيضطهدون وسيهاربون من أمهم

لذلك لم يُوصف الميثاق بأنه غليظ إلا في هذا الموضوع ، وفي علاقة الرجل بالمرأة حين يطلقها ، وقد قرص لها مهراً ، مبيتها أن يؤديه إليها ، ولو كان قنطاراً ، يقول سبحانه ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَاهُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [٢١] ﴿[النساء]

فسمى الميثاق بين الروحيين ميثاقاً غليظاً أى قوياً وموثيقاً ، لأنه
فى العرض ، وبم يُوصف الميثاق فيما دون ذلك بأنه غليظ

وهذا الميثاق الذى أحذه الله تعالى على الرسل لمدكرين المبشرين
المبشرين جاء تفصيله فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا
آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلتُصْرِنَهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي^(١) قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]

والشئ الذى شهد الله عليه لا يحتاج إلى قضاء ، لكن لما إذا أخذ
الله هذا العهد ، قالوا لأن الذى لا يؤمن بإله ليس لديه دين يتعصب
له حين يأتى رسول جديد لكن من الصَّعْب على الإنسان أن يكون
له دين ثم يأتى رسول جديد ليرحرحه عن دينه ، وهذا تكمن
المشقة التى يعاينها الرسل

لذلك قال الله تعالى للرسل من تمام ميثاقكم أن تقولوا لأقوامكم
إذا جاءكم رسول مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلتُصْرِنَهُ^(٢) ، ثم
أقرروهم على ذلك ، وأشهدهم عليه فشهدوا ، والمعنى إياكم أن
تتركوا أممكم التى تؤمن بكم بدون أن تضعوا لهم هذه القاعدة ، فعيها
الوقاية لهم

(١) الإصر الإصر القيد والعتد المؤكد وسميت التكاليف أشاقفة إصرأ ، لأنها تشق على
المكلف وتثقل عليه وقوله ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ (٨١) [آل عمران] أى عهدى
[لقاموس القويم ٢١/١]

(٢) أخرج أبو جرير الطبرى عن على بن ابي طالب قال لم يبعث الله نبياً ، أتم عمر بعده لا
أخذ عليه العهد فى محمد ، بشر بعث وهو حى ليؤمن به ، ويبصرته ، وبأمره فيأخذ العهد
على قومه ثم تلا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران]
[ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير المأثور ٢٠٣/٢]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ
وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٨)

اللام هنا هي ﴿لَيْسَ﴾ (٨) [الأحزاب] لام التعليل ، فالمعنى أنا
أخذنا من لئبين الميثاق . لكن لن نتركهم دون سؤال ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ
النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ (٨) [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ..
(٨)﴾ [الأحزاب] . لكن إذا كن الصلح صادقاً ، فكيف يسأل عن صدقه ؟

سؤال الصادق عن صدقه ليس تبكيته للصالح إنما تبكيته لمن كذب
به . سيسأل الرسل أطيعتم هؤلاء ؟ ويقول تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ
فَيَقُولُ مَاذَا أَحْبَبْتُمْ . (٩)﴾ [المائدة] ويسأل الله القوم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ
مَكُم يَقْصُودُ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرِّعُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا .. (٧)﴾ [الأنعام]

فالاستعظام هنا للتقريع والتبكيته لمن كذب

أو يكون المعنى ﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ (٨) [الأحزاب]
أي أنتم بشرتم بأن الإله واحد فأنتم صادقون لأنكم أخذتم هذه
منى ولما قامت الساعة ولم تحسدوا إليها آخر يحمي الكافرين إثر
فقد صدقت فيما أحسرت به ، وصدقتم فيما طعتم عني ، حيث لم
تجدوا في الآخرة إلا الإله الواحد

لذلك يقول سبحانه ﴿وَرَوْحَ اللَّهِ عِنْدَهُ فَرَفَّاهُ حَسَابَهُ﴾ (٣٩)
[النور] ولو كان معه سبحانه له آخر يدافع عن هؤلاء الكافرين
ومعهم من العذاب

كذلك يسأل الرسل عن البعث الذي وعد الله به ولأعوذ لأمهم

وعن الحساب وما فيه من ثواب وعقاب وكان الحق سبحانه يسألهم هل تحبف شيء مما أخبرتكم به ؟ هل قصرت في إثابة المحسن أو معاقبة المسيء ؟ إذن صدق كلامي كله

كما تجس مع ولدك مثلاً تراجع معه المواد الدراسية وتحبف على المناكرة فيؤفق في الامتحان ، ثم تسأله ماذا صنعت في حادة اسؤال الغلابي ؟ فأنت لا تقصد الاستفهام إنما تستعيد معه أمجاد ما أجزه بالفعل تسأله عن توميق الله له ، كذلك الحق سبحانه يستعيد مع الرسل وفعتهم لدين الله وإعلاءهم كلمة الحق في هذه الساعة ولا مرد لها

إذن فسؤال الصادقين عن صدقهم تكريم لهم وشهادة بأنهم أدوا ما عليهم ، وهو كذلك تبكيت لمن كذب بهم^(١)

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُمْ أَسَدِيًّا أَلَيْسَ﴾ [الاحزاب] والفعل الماضي هنا دليل على أن كل شيء معد وموجود سلفاً ، وإن ينشئ الحق سبحانه شيئاً جديداً كذلك قال عن الجنة ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣)

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى خلق الجنة لتسع الناس جميعاً إن آمنوا ، وخلق النار كذلك تسع الناس جميعاً إن كفروا يعني إن تكون هناك أمة أماكن ، فإذا ما أحد أهل الإيمان أماكنهم من الجنة

(١) قال القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٥٣٨٨/٧)

« في أربعة أوجه »

أحدها ليسأل الأنبياء عن بليغهم للرسالة إلى قومهم ، حكاه النقاش

الثاني ليسأل الأنبياء عما يجيبهم به قومهم ، حكاه علي بن عيسى

الثالث ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالعقود الذي أقدمه عليهم ، حكاه ابن شجرة

الرابع ليسأل الأقواء المصدقة عن القلوب المعطمة .

تبقى أماكن الدين كفروا شاعرة . فيقول تعالى للمؤمنين خذوها
أنتم ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٦) [انزحرف]

وقد وصف العذاب مرة بأنه أليم . ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه
عظيم ، ومرة بأنه شديد ، ولكل منها ملحظ ، فالأليم يُلحظ فيه القسوة
والإيلام ، والعذاب المهين يُلحظ فيه إهانة المَعْدَبِ والسيل من كرامته
فمن الناس من يحاول استلذه ، ويظهر تحمل الألم وعدم الاكتراث به
في حين يؤلمه أن تنال من كرامته ، فيعاسده العذاب المهين

لذلك يُروى في الفجلد أن رجلاً دخل على معاوية في مرضه .
وهو يُظهر للناس أنه يحير وصحة على ما يرام ، فقال له الرجل

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أُشْبِثَتْ أَطْفَارُهَا الْعَيْتُ كُلُّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْقُصُ

مفطن معاوية إلى مقصده ، واجبه من نفس قصيدة
أبي ذؤيب^(١)

وَتَجَلْدِي لِلشَّامَتَيْنِ أَرِيَهُمُوا أَسَى لَرِيْبِ الدَّهْرِ لَا أَنْصَعِمُ^(٢)

أما العذاب العظيم فلعظمته في ذاته ، ولكبر حجمه يعني ليس
صغيراً ، أو يكون صغير الجرم . لكن عظمته في صفاته أو في بقاء

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ما من أحد إلا رله عيون في
الجنة ، ومرار في النار . فالكاثر يربث بمؤمن مبرله في النار ، والمؤمن يربث الكافر مبرله
في الجنة . وبذلك قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الرحوب]

أورد السيريني في الدر المنثور (٧ ٣٩٤) ومراه لابن أبي حاتم وابن مردويه

(٢) عراه شهاب الدين محمود الجليلي في كتابه : حسن التوسل إلى صناع التوسل . ص

١٢٢ أبي ذؤيب الهذلي ، وانظر ديوان لهديين القيم الأول ص ٢ [وعراه بن منظور

أبي ذؤيب في النسخ - مادة صمع]

(٣) الصمصمة الخضوع والتبذل والضعف الضعف من كل شيء . ورجل ضعفاء

أي لا رأي له ولا حزم [لسن لعرب مادة ضعيف]

أثره في زمن طويل

ويُوصَفُ العذاب بأنه شديد لشدة المعذب سبحانه ، لأنه سبحانه إذا أحد فأحده أحد عزيز مفتر

ثم نقول لحق سبحانه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ حُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَحُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ١﴾

أرد الحق سبحانه أن يدل على قوله لرسوله في الآيات السابقة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾ [الاحزاب] فجاء بحادثة جمعت كل حلول حصومه ، فقد سبق أن انتصر عليهم معرقتين ، فانتصر أولاً على كفار مكة في بدر ، وانتصر على اليهود في بني النضير وبني قينقاع وهذه المرة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ ومع ذلك لن يؤثر جمعهم في الصد عن دعوتك ، وسوف تُنصر عليهم بجنود من عند الله .

إدب فحبيثة (وتوكل على الله) هي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. (٩)﴾ [الاحزاب] النعمة الشيء الذي يخالف الإنسان بسعادة وبشر وظل استعداده وهذه الصفات لا تتوافر لا في الإيمان ، لأن استدامة النعمة فيه تعدت زمن الدنيا إلى زمن آخر دئم وباقي في الآخرة ، وإن كانت نعمة الدنيا على قدر أسباب ومكاناتك ، فنعمة الآخرة على قدر المعجم سبحانه ، فهي يد نعمه النعم

والله تعالى يخاطب هذا المؤمنين ، ومعنى الإيمان هو اليقين
بوجود له واحد له كل صفات الحلال والكمال ، والله سبحانه دكفى
العقل أن يهتدى إلى القوة الخالقة الواحدة اتى لا تعاند ، لكن ليس
من عمل العقل أن يعرف مثلاً اسم هذا الإله ، ولا أن يعرف مراده ،
كان ولائد من البلاغ عن الله

وسبق أن مثلنا لذلك بمن يطرق علينا اسب ، فنتفق جميعاً بالعقل
على أن صارقاً بالسب ، هذا هو عمل العقل ، لكن من عمل العقل أن
نعرف من هو ؟ أو تعرف مقصده من المعجى ؟ وهذا ما نسميه
التصور

فأهه العقل البشرى أنه لم يمنع باستعقل بلقوه الفاهره الفاعلة
فكان يكفيه أن يتعقل أن وراء هذا الكور قوة ، هذه القوة لها صفات
الكمال التي بها أوجدت هذا الكون ، فإن أردنا معرفة ما هي هذه
القوة فلا بد أن نترك هذا الطارق ليحبرنا عن نفسه ، ويفصح عن
هدفه وسبب مخيئه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول يأتى من عند
الله يحبرنا عن هذه القوة ، عن الله عن أسمائه وصفاته ومنهجه
الذى ارتصاه لحلقه ، وما أعدّه الله لمن أصابه من العاصم ، وما أعدّه
لمن عصاه من العذاب

فمن كذبنا هذا الرسول ، وطلبنا دليلاً على صدقه فى البلاغ أخرج
لنا من المعجرات ما يؤيده وما يحملنا على تصديقه ، لأنه أى بلوى مما
نتبع فيه نحن ، ومن من هوننا ، ومع ذلك عجزنا عن الإتيان بمثله

إذن فاستعقل أول مراحل الإيمان ، لذلك فإن أسسط رد على من
يعبدون غير الله أن نقول لهم : لماذا أمرتكم اللهكم ؟ وعم بهتكم ؟
ولماذا أعدت لمن أطاعها ؟ ولماذا أعدت لمن عصاها ؟ ما المنهج الذى
تستعملكم به ؟

فكان من مطلق العقل ساعة ياتينا رسول من عند الله
أن نستشرف له ، ونقبل عليه ، ونسأله عن اللغز الذي لا يعرف
من أمور الحياة والكون ، كن علينا أن نسمع له ، وأن نصاع
لأوامره ، لأنه ما جاء إلا ليُخرجنا من مأزق فكري ، ومن مأزق عقلي
لايستطيع أحد منا أن يحلّه . كان على القوم أن يتلهفوا على هذا
الرسول ، لا أن يعادوه ويعادوه ، لما لهم من سلطة زمنية ظنوها
باقية

وعوله تعالى ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. (١)﴾ [الاحزاب ما هو
الذكر ؟ العقل حين يتلقى المعلومات من الحواس يفارن بينها
ويُعرِّبها ، ثم يحتفظ بها في منطقة منه تمثل حزيمة للمعلومات . وما
أشبه العقل في تلقي المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) التي تلتقط
الصورة من مرة واحدة ، والناس جميعاً سواء في تلقي المعلومات ،
المهم أن تصادف المعلومة حلو الذهن مما يشغله

وهذه المنطقة في العقل يسمونها بؤرة الشعور ، وهي لا تلتقط
إلا جزئية عقلية واحدة ، فإذا أردت استدعاء معلومة من الذاكرة .
أو من حاشية الشعور ، فالذاكرة هي التي تستدعي لك هذه
المعلومة ، وتُخرجها من جديد من حاشية الشعور إلى بؤرة
الشعور

ثم هناك ما يُسمى بتداعي المعاني . حين يُذكرك شيء بشيء
آخر ، وهناك المميّة ، وهي التي تُلَفّق أو تُزَلّف من المعلومات
المحدبة شيئاً جديداً ، وسمعه التحيل ، فالشاعر العربي حين
أعجبه الوشم باللون الأحمر على بشرة شابة بيضاء تحيلها
هكذا

حَوَتْ كَأَنَّ نَبَاتَهَا فِي نَقْشَةِ الْوَشْمِ الْمُرَوِّدِ^(١)

سَمَكٌ مِنَ الْبِلَلُورِ فِي شَبَلٍ تَكُونُ مِنْ زَبَرْجَدٍ^(٢)

فهذه صورة تخيلية خاصة بالشاعر ، ولا فَمَنْ مَدَّ رَأْيَ سَمَكًا مِنْ
البللور في شبك من زبرجد ، فالشاعر بطرئه الخاصة للصور التي
يراهها ، وسبق أن ذكرنا الصورة التي رسمها الشاعر^(٣) للأحدب ،
فقال

قَصُرْتُ أَضَادِعُهُ^(٤) وَغَاصَ قَدَالُهُ^(٥) فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُصْفَعَ

وَكَأَنَّمَا صُفِّعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً فَاحْسَرُ ثَابِيَةً لَهَا فَتَحَمَّعَا

ومنذ القدم يعبر الشعراء القلب محلاً للحب وللشاعر ، لكن
يخرج عينا هذا الشاعر بصورة أخرى جديدة من نسج خياله
فيقول

حَطَرَاتُ دُكْرِكَ تَسْتَفِيرُ مَسَوْنَتِي فَأَحْسَرُ مِنْهَا فِي الْفُؤَادِ دَسِمًا

لَا عَضْوُ لِي إِلَّا وَفِيهِ صَنَاءٌ فَكَأَنَّ أَعْضَانِي حُقِّنَ قُلُوبًا

(١) الجود العتاة الحسنة الخلق الشابة ، ما لم يخص وقيل الجارية الناعمة { لسان
العرب مادة حود } ، والمورب هي خلق النرج متواجلة في بعضها ولمقصود أن
الوشم متقر متشابك متداخل

(٢) الزبرجد الزمررد وهو الزبرجد يحيا { لسان العرب - مادة زبرجد }

(٣) الشاعر هو ابن الرومي علي بن العباس بن جريج شاعر كبير من طبقة بشار
المتنبي رومي الأهم ، كان جده من موالى بني العباس ، ولد بحداد ٢٢٦ هـ وبشار
بها ومات فيها مسموماً عام ٢٨٢ هـ عن ٦٢ عاماً ، الإعلام للبركلي ٤ ٢٩٧]

(٤) الضاد جمع الاخدح وهو أحد عرقين في جنس البعوض

(٥) القدال جمع مؤنث الرأس من الأسبان { لسان العرب - مادة قдал }

بمعنى ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. (٩)﴾ [الأحراب] لا تمروا على النعم بعفلة لرتابتها عندكم ، بل تذكروها دائماً ، واجعلوها في بؤرة شعورك ، لذلك جعل الله الذكر عبادة ، وهو عبادة بلا مشقة ، فأنت حين تصلى مثلاً تستغرق وقتاً ومجهوداً للوصوء ولتذهاب للمسجد ، كذلك حين يركى نخرج من مالك ، أما الذكر فلا تكلف شيئاً .

لذلك في سورة الجمعة حببما يستدعى الحق سبحانه عباده للصلاة ، يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِئَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَدَرُوا الْبَيْعَ . (٩)﴾ [الجمعة] فيها حركتان حركة إيجاب بالسعي إلى الصلاة ، وحركة سلب بترك البيع والشراء ، وكل ما يشغلك عن الصلاة

ثم يقول تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشُرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. (١٠)﴾ [الجمعة]

وفي موضع آخر قال ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (١٥)﴾ [العنكبوت] فإياك أن تظن أن الله يريد أن تذكره ساعة الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإن كانت الصلاة لها ثلث تؤدي فيه ، فذكر الله لا وقت له ، لذلك جعله الله يسيراً سهلاً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفي في ذكر الله أن تتأمل المرائي التي تمر بها ويقع عليها نظرك لنرى فيها قدرة الله

والحق سبحانه يُذكرنا بنعمه ، لأن النعمة بتوايها على النفس البشرية تتعود عليها النفس ، ويحدث لها رتابة ، فلا تلتفت إليها فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح ، لكن قلما تتذكر أنها آية من آيات الخالق - عز وجل - ونعمة من نعمه ، لأنك تعودت على رؤيتها ، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك

كذلك يلفقنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين
فحين ترى السقيم تذكر نعمه العافية ، وحين ترى الأعمى تذكر نعمة
البصر لح وساعتها ينقبى عليك أن تشكر المنعم الذي عافاك مما
ابتلى به غيرك ، إذن فهذه الشواهد جعلها الله وسائل للإيضاح
وتذكيراً للخلق بنعم الخالق

ولنعمة وردت هنا مفردة ، وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تُعْذِرُوا
عَمَّا آتَاكُمْ مِنَ النِّعَمِ لَا تُخْصِصُوهَا ﴾ (٢٤) [إبراهيم] وقد وقف أعداء الإسلام من
المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أن النعمة فيها مفردة ،
يقولون « كيف تُعْذِرُ » وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فهم
لمعاني وأساليب القرآن

ويقول الذي تروونه نعمة واحدة ، لو تأملتم فيها لوجدتم بدايتها
نعماً متعددة تفوق العدد لذلك استخدم القرآن هنا (إن) الدالة على
الشك ، لأن نعم الله ليست مظنة للعدد والإحصاء كرمال الصحراء هل
تعرض أحد لعدّها ؟ لأنك لا تقبل على عد شيء إلا إذا كان مضنة
العدد ، وإحصاء المعنوي

لذلك ، فالحق سبحانه يوضح لنا إن حاولتم إحصاء نعم الله -
وهذا أمر يحدث - فلن تستطيعوا عدّها ، مع أن الإحصاء أصبح علماً
مستقلاً ، له جامعات وكليات تبحث فيه وتدرسه

وبك أن تأخذ نعمه واحدة من نعم الله عليك ، ثم تتأمل فيها وهي
عناصرها ومكوناتها وقوائدها وصفاتها ، وسوف تجد في طيات
النعمة الواحدة نعماً شتى ، فالتفاحة مثلاً في ظاهرها نعمة واحدة ،
لكن في ألوانها ومذاقها وعناصر مكوناتها ورائحتها واختلاف وتنوع
هذا كله نعم كثيرة

والحق سبحانه جعل نعمه عامة للمؤمن والكافر ، لأنه سبحانه جعل لها اسباباً ، من أحسن هذه الأسباب أعطاه ، حتى لو كان كاهناً .
ثم نلاحظ في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (٣٤) [إبراهيم] أنها وردت في القرآن مرتين ، ولكل منهما تبيان مختلف . مرة يقول تعالى ﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣١) [إبراهيم] . ومرة يقول ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) [الحق]

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لو عامس الميعم عليهم من الخلق بما يقصيه إيمانهم ، وما يقصيه كفرهم . لأعطى المؤمن وسلب الكافر ، لكنه سبحانه غفور رحيم يحلّقه ، فبهاذين الصفتين ينعم سبحانه على الجميع . وما ترفلون فيه من نعم الله عليكم أثر من آثار العفوان والرحمة ، فغفر لكم مسايبكم أولاً ، ولغفر أن تستر الشيء القبيح عنّ هو ذلك

ثم الرحمة ، وهي أن تمتد يدك بالإحسان إلى من دونك ، وسبق أن أوضحنا أن المغفرة تسبق الرحمة ، وهذه هي القاعدة العامة ، لكن قد تسبق الرحمة المغفرة ذلك لأن اسلب الشيء المذموم يتبقي أن يعقب النعمة ، أو أن دفع الضرر مقنم على جلب المنفعة

وقد مثلنا ذلك باللصّ تحده في دارك ، فتستر عليه أولاً حين لا تسلعه لنوليس ثم يرقّ له قلبك ، تستمد يدك إليه بالإحسان . وهنا يسبق المغفرة الرحمة وقد نتصرف معه بطريقة أخرى ، بحيث تقدّم فيها الرحمة على المغفرة ولمغفرة لا تكون إلا من الأعلى للأسفل ، فتستر على القبيح قنحه ، وأب أعلى منه فلا يقال مثلاً للخدام إنه ستر على سيده

ثم يرسل لنا الحق - سبحانه وتعالى - هذه البرقية الدالة على
تأييده سبحانه لعباده المؤمنين ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ "وكان الله بما تعملون بصيراً" ﴿١﴾ [الاحزاب]

هالجنود تُؤذن بالحرب ، وجاءت نكرة مُبهمة ثم جاءت بهاية
هذه المعركة في هاتين الجملتين القصيرتين ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ..﴾ ﴿١﴾ [الاحزاب] وبم يذكر ماهية هؤلاء الجنود ، إلا
أنهم من عند الله ، جاءوا لردّ هؤلاء الكفار وإبطال كيدهم

ثم يأتي بمذكرة تفسيرية توضح مَنْ هم هؤلاء الجنود

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ﴿٢﴾

(١) ذلك يوم الحندق في حروبه الاحزاب قال ابن إسحاق كانت هي شوال من السنة
المسماة ومال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله كانت وقعة الحندق سنة
اربعة ، وهي ربيع قريظة في يوم واحد (تفسير القرطبي ٧ / ٥٣٨٩)

(٢) قال ابن كثير في تفسيره ٢ / ٤٧) هم الملائكة لربهم وانزلت في قلوبهم الرعب
والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول يا ربى فلازل الى فاحتشموه إليه يقولون المجد
الحق ، بما لقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب .

(٣) قال ابن وهب سمعت مالكا يقول ذلك يوم الحندق جاءت قريش من هاهنا ، واليهود
من هاهنا والنجدية من هاهنا قال القرطبي يريد مالك ان الذين جاءوا من فوقهم من
قريظة ومن أسفل منهم قريش وعطفوا [تفسير القرطبي ٧ / ٥٣٨٩]

(٤) زغ البصر اضطرب ولم يحق ما يرى وقوته في وصف فرج بعض الناس في المدينة
حين احاطت بهم الاعداء في حروبه الاحزاب ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿١﴾ [الاحزاب] اي
اضطربت بشدة الفرع القاموس افريقم ١ / ٢٩٤)

هذا وصف لما جرى في عزوه لأحزاب بني حمصت فلول أعداء رسول الله ، فقد سبق أن حاربهم متفرقين ، والآن يجتمعون لحربه ﷺ ، فجاء قريش ومن تبعها من غطفان وأسد وبني فزارة وغيرهم ، وحاء اليهود من بني النضير وبني قريظة ، وعجيب أن يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف

وقلنا إن أهل الكتاب كانوا يستفتحون برسول الله على كفار مكة ، ثم جاءت الآيات لتحول من أهل الكتاب شهداء على صدق رسول الله ، فقال تعالى ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلٌ قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبْنِي رَبِّكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (١٣) [الرعد]

ولو قدر أهل الكتاب هذه الشهادة التي تربها الحق سبحانه بشهادته ، لكان عليهم أن يؤمنوا بصدق رسول الله ﷺ

والمعنى ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ مِنَ الْأَحْزَابِ أَيْ اذْكُرْ يَا مُحَمَّدٌ وَتَخَيَّلْ وَتَصَوَّرْ إِذَا جَاءَكُمْ الْأَحْزَابُ ، وَتَحَمُّعُوا لِحَرْبِ ﴿ مَنِ هُوكُمْ ٢٠ ٢١ ﴾ [الأحزاب] أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ وَهُمْ قَرَيْشٌ وَمَنْ يَتَّبِعُهُمُ مِنَ الْفَرَارِيِّينَ وَالْأَسَدِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ ﴾ وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ٢٢ ﴾ [الأحزاب] أَيْ ذَكَرَ إِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَمَعْنَى رَغَ الْبَصَرُ أَيْ مَالَ وَمِمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (٢٧) [النجم]

ف (زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) يَعْنِي مَالَتْ عَنْ سَمَتِهَا وَسَمَهَا ، وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْعَيْنَ عَلَى هَيْئَةٍ حَاصَةٍ ، بِحَيْثُ تَتَحَوَّلُ إِلَى أَعْلَى ، وَإِلَى أَسْفَلٍ ، وَإِلَى الْيَمِينِ ، وَإِلَى الشَّمَالِ ، وَلِكُلِّ اتِّجَاهٍ مِمَّا فِي اللُّغَةِ يَقُولُونَ رَأَى أَيْ بِحُضْعِ عَيْنِهِ ، وَلَمَّحَ بِمَوْحَرِّ مَوْقِهِ ، وَرَمَقَ أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ أَنْفِهِ الْبُخْ

فَسَمِعَتِ الْعَيْنُ وَسَمِعَهَا أَنْ تَتَحَرَّكَ فِي هَذِهِ الْأَتِّجَاهَاتِ فَإِذَا فَرَعَتْ
 مِنْ شَيْءٍ أَخَذَ لِبَصَرٍ ، مَا لَمْ عَنْ سَمْعِهِ مِنَ التَّحْوِيلِ ، لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى
 ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .. (٩٧) ﴿ [الأنبياء]
 وَقَالَ ﴿ إِنَّمَا يُؤْجِرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٩٨) ﴿ [إبراهيم]
 وَشَحْوَصُ الْبَصَرِ أَنْ يَرْتَفِعَ الْجَفَرُ الْأَعْيَى وَتَثْبُتَ الْعَيْنُ عَلَى شَيْءٍ ،
 لَا تَتَحَرَّكَ إِلَى غَيْرِهِ .

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴿ أَشْجَعُ
 عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ
 الْمَوْتُ إِذَا دُفِنَ الْخَوْفُ سَلَفَوْكُمْ بِالْأَنفَةِ حَدَادَ .. ﴾ (٩٩) ﴿ [الاحزاب]
 لِأَنَّ لَهُمْ سَاعَةً يَسْتَوِلِي عَلَى الْأَعْيُنِ ، مَرَّةً تَشْخَصُ الْعَيْنُ عَلَى
 مَا تَرَى لَا تَتَعَدَاهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ ، وَمَرَّةً تَدُورُ هُنَا وَهَنَا
 تَحْتَ عَنِ مَعْرِفَةٍ وَمَخْرَجٍ مِمَّا فِيهِ ، فَهَذِهِ حَالَاتٌ يَتَعَرَّضُ لَهَا
 الْحَافِظُ الْمَعْرِعُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. ﴾ (١٠٠) ﴿ [الاحزاب] مَعْلُومٌ
 أَنَّ الْحَنَجْرَ أَعْلَى لِقِصْبَةِ الْهَوَائِيَّةِ فِي هَذَا التَّحْوِيلِ الْمَعْرُوفِ ، فَكَيْفَ
 تَبْلُغُ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؟ هَذَا أَثَرُ آخِرٍ مِنْ أَثَارِ الْهَوْلِ وَالْفِرْعِ ، فَحِينَ
 يَدْرَعُ الْإِنْسَانُ يَصْطَرْبُ فِي دَاخِلِهِ ، وَتَرْدَادُ دَقَّاتِ قَلْبِهِ ، وَتَشْطُّ حَرَكَةُ
 التَّنَفُّسِ ، حَتَّى لِيُحْيِلَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ شِدَّةِ ضَرْبَاتِ قَلْبِهِ أَنَّ قَلْبَهُ سَبْجَلَعُ
 مِنْ مَكَانِهِ ، وَيَقُولُونَ مَعْلًا فِي الْعَامِيَّةِ (قَلْبِي هَيْطَ مَسَى)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَتَقْظُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (١٠١) ﴿ [الاحزاب]

أى ظنونا محتلة تأخذهم وتستولى عليهم ، هكل له خنّ بخدم
غرضه ، فالمؤمنون يظنون أن الله لن يُسهمهم ، ولن يتحى عنهم ،
والكافرون يظنون بهم سبتصرون وسيستأصلون المؤمنين ، بحيث
لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك

ونلاحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه لا يكتفى بأن يحكى له
ما حدث إنما يجعله ﷻ يستحضر الصورة بنفسه يقول له اذكر
إذ حدث كذا وكذا

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ هَٰلِكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا ^(١)
زُلْزَالًا شَدِيدًا ۝١٠﴾

﴿ هَٰلِكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [الأحزاب] أى احشرو وامتحبوا ،
فقوى الإيمان قال لن يُسلمن الله والموافق قال هى نهاية الإسلام
والمسلمين ﴿ وَزُلْزِلُوا ۝١٠﴾ [الأحزاب] الزلزلة هى اهزة العنيفة التى
يشتأ عن قوتها تحلخل الأشياء ، لكن لا تقتلعها ، والمراد أنهم
معرضوا لكرب شديد زلزل كنانهم وميز مؤمنهم من منافقهم ، لذلك
يقول تعالى بعدها

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١١﴾

(١) هذا بالقرب من المكان ومالك نلعبه ومالك للوسط ويشار به إلى الوقت أى
عد ذلك اعتبر المومنون يتبين المومن من المنافق [قاله القرطبي فى تفسيره

لمناققون هم أنفسهم الذين هم قلوبهم مرض ، فهما شيء واحد ، وهذا العطف سُمِّيَ به « عطف اعيان »

والعزور أن يحدع إسماعيل شيء عُقِرَ في طاهره ، محزون في باطنه . تقول ما عُكَّ بالشئ الغلابي كأن في ظاهره شيئاً يخدعك ويفرك ، فإذا ما جئت لتحتبره لم تحده كذلك^(١)

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾

﴿ وَإِذْ ۝ (١٣) ﴾ [الاحزاب] هنا ايضاً بمعنى واذكر ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ۝ (١٣) ﴾ [الاحزاب] يثرب اسم للبقعة التي تقع

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال قال المنافقون يوم الاحزاب حين رأوا الاحزاب قد اكتفروهم من كل جانب ، فكافوا في شك وريبة من أمر الله ، قالوا إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم ، وقد جئناهم بهذا حتى ما سمعناهم يبرر أحداً لحاجته ، فأنزل الله ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي لُبِّهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ إِلَّا غُرُورٌ ۝ (١٣) ﴾ [الاحزاب] [ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥٧٧/٦]

(٢) يثرب هي المدينة ، وسماها رسول الله طَيْبَةَ وعانها وقال أبو عبيدة يثرب سم أرض والمدينة ناحية منها . قال السهيلي سمعت يثرب لا الذي دخلها من العاصيو اسمها يثرب ابن عميل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق [تفسير القرطبي ٥٤٧ / ٧] قال ابن كثير في تفسيره : قال السهيلي روى عن بعضهم أنه قال إن لها في المراء أحد عشر اسماً المدينة وطاية وطيبه وانسكيه والجايرة واسجيه والمحبوبة والقاصعة والمهيورة والغدراء والمرحومة (تفسير ابن كثير ٤٧٢/٢) ويقول ابن منظور في لسان العرب [مادة يثرب] : سماها طيبة وطاية كراهية التثريب وهو النوم ، اسعير .

فيها المدينة ، وقد عيّر رسول الله ﷺ اسمها إلى (طَيْبَة)
 ومعنى ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ۖ ﴾ (١٣) [الأحزاب] أى فى الحرب
 ﴿ فَارْجِعُوا ۖ ﴾ (١٤) [الأحزاب] يعنى اتركوا محمداً واتباعه فى أرض
 المعركة واذهبوا ، أو ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ۖ ﴾ (١٥) [الأحزاب] أى على هذا الدين
 الذى تكرونه بقلوبكم ، وتساندونه بقوالكم

ثم يكشف لقرن حيلة مريق آخر يريد القرار ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ
 النَّبِيَّ ۖ ﴾ (١٦) [الأحزاب] أى فى عدم الخروج للقتال ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا
 عَوْرَةٌ ۖ ﴾ (١٧) [الأحزاب] أى ليست مُحَصَّنَةً ، ولا تمنع من أرواحنا
 سوء يقال بيت عورة إذا كان غير مُحَرَّر ، أو غير محكم ضد من
 بطرقه يريد به الشر ، كأن يكون محققاً أو مُدْهِمَ الجدران سهل
 سُلُوقه ، أو أبوابه غير محكماً إلخ .

كما نقول فى اعدامية (مَنَظٌّ) ، لكن الحق سبحانه يثبت كتبهم ،
 ويطل حجتهم ، فنقول ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ ﴾ (١٨) [الأحزاب] فما العلة فى
 ذلك ﴿ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۖ ﴾ (١٩) [الأحزاب] أى من المعركة إشفاقاً من
 نتائجها ومخافة القتل

ثم يقول سبحانه

﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ

لَأَتَوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا سِيرًا ۖ ﴾ (٢٠)

﴿ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ (٢١) [الأحزاب] أى الميوت ﴿ مِنْ أَقْطَارِهَا (٢٢) [الأحزاب] من نواحيها ﴿ ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ (٢٣) [الأحزاب] أى طلب
 منهم أكثر ﴿ لَأَتَوْهَا (٢٤) [الأحزاب] يعنى لكفروا ﴿ وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا

يَسِيرًا (١٤) ﴿ [الأحزاب] يعنى ما يجعل الله بهم لُبًّا وإقامة [لا يسير] .
ثم ينتقم الله منهم ^(١)

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَإِلَهِهِمْ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ
الْأَذِينَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُؤْتُوا

معنى ﴿عَاهِدُوا اللَّهَ﴾ (٥) ﴿ [الأحزاب] أخذ الله عليهم العهد
وقبوه ، وهو ما حدث في بيعة العقبة حين عاهدوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم والمؤازرة . أو يكون الكلام لقوم ^(٢) فأتتهم بدر وفاتهم
أُحِدَ ، فقاتلوا والله لئن وقفنا في حرب أخرى نخلون فيها بلاء حسناً

وعهد الله هو الشيء الذي نعهده الله عليه ، وأول عهد لك مع الله
تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنت بالله فانظر إلى ما طلع منك
وما كُلفك به ، وإياك أن تُخلَ بأمر من أموره ، لأن الاحتلال في أي
أمر تكليفي من الله يُعد نقصاً في إيمانك بالله فلا يليق بك أن تنقص
ما أُكِّدته من الإيمان ، بل يلزمك أن توفي به ، لأنك إن وفيت بها
وفى لك بها أيضاً فلا تأخذ الأمر من جنتك وحدك ، ولكن انظر
إلى المقابل

(١) قال ابن كثير في تفسيره الآية (٣، ٤٧٣) : يحبر تعالى من هؤلاء الذين هم يهولون
إن يروا عورة وما هي بعورة إن يريدون [الأحزاب] أنهم لو دخل عليهم الأعداء من
كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارهم ثم سئلوا الفتنة وهم الدخول في الكفر
نكروا سريعاً ، وهم لا يحفظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع ادبي جوف وفرع
هكذا فسره قتادة رعب الرحمن من ريد وير جرير .

(٢) قال يزيد بن رومان : هم منو حارث ، هم يوم أُحُد أن بعثوا مع بني سمية ، علم من
مبهم ما من عاهدوا ألا يهودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم [قاله

لقوطي في تفسيره ٢٤١٠/٧]

واعلم أن الله مطلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تكنه الصدور ، فاحذر حبيم تعطي العهد أن تعطيه وأنت تدوى أن تحالفه ، إيك أن تعطي العهد خداعاً ، فريك - سبحانه وتعالى - يعلم ما تفعل

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ
أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦)

قوله تعالى عليه ﷺ ﴿ قُلْ (١٦) ﴾ [الأحزاب] أي لهؤلاء الذين يريدون الفرار من المعركة ﴿ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ [الأحزاب] والقرآن هنا يحتاط لمسألة إزهاق الروح وسبق أن تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ، لذلك يقول تعالى عن نبيه محمد ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ (١٦٤)

فالموت لا يقدر عليه إلا واهب الحياة سبحانه ويكون منقضى لروح أولاً بأمر خالقها ، ثم ينبع نقض البنية ، أما القتل فيقدر عليه لخلق ، ويتم أولاً بنقص النية الذي يتربى عليه [زهق الروح] لأن لبنية لم تغد صالحة لاستمرار الروح فيها بعد أن فقدت المواصفات لمطلوبة لبقاء الروح

والفرار لن يجدي في هذه المسألة لأن لهب أجلاً محدداً ، سواء أكان بالله واهب الحياة ، أو كان بفعل واحد من الحق عصي أمر الله ، فهذه لبنية التي بنها الله ، وما جدوى الفرار من المعركة ، وقد رأينا من شهد لمعرب كلها ، ثم يموت على فراشه ، كخالد بن الوليد الذي

يقول لقد شهدتُ مائة زحفٍ أو زهاءها ، وما فى جسمى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، وما أُنذا أموت عى فواشى كما يموت النعير ، فلا نامتُ أعين الجبناء^(١)

ثم يناقشهم القرآن هَبُوا أَنْكُمْ مَرَرْتُمْ مِنْ امْمُوتِ أَوْ لَقِيتُمْ لَكُمْ هَذِهِ السَّلَامَةُ ؟ أَتَخْلِدُونَ فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ ؟ ﴿ وَإِذَا لَا تُنْمَتُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب] وسرعان ما تنتهى الحصة ، وتواجهون الموت الذى لا مفرَّ منه ، وكلنا ذاهب إلى هذا العسير

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سَوْءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [١٧]

المعنى قل لهم يا محمد من الذى ﴿ يعصمكم .. ﴾ [١٧] [الأحزاب] أى يمتنعكم ﴿ من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة .. ﴾ [١٧] [الأحزاب] كما قال فى موضع آخر ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رَحِمَ .. ﴾ [٤٦]

فإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا عاصم لهم ، لأنه لا يمتنع أحد مع الله ، لأنه لا يوجد معه سبحانه إله آخر يدفع السوء عن هؤلاء

(١) ذكره ابن كثير فى « البداية والنهاية » (١١٧/٧) بمراد للواقى عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه

والإشكال الذي يحتاج إلى توضيح هنا قومه تعالى ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ..﴾ (٧) [الاحزاب] فكيف تكون العصمة من الرحمة ؟ قالوا يعصم هنا بمعنى يمنع ، والمعنى لا يمنع أحد من أعدائكم رحمة الله إن أراد الله بكم رحمة .

ونلاحظ على سياق الآية أنها جاءت بأسلوب الاستفهام ، ولم تأت على صورة الخبر ، فلم يقل القرآن لمحمد ﷺ قل يا محمد ، لا يعصم أحد من الله إن أرادكم بسوء ، لأن الجملة الخبرية محتملة للصدق والكذب ، إما شاء الله أن يجعلها جملة إنشائية استفهامية ، ليقررنا هم بأنفسهم هذه الحقيقة . كأنه تعالى يقول لهم لقد أرى صيغ حككم أنتم ، ولو لم يكن الحق سبحانه واثقاً من أن الجواب من يأتي إلا لا أحد لما جاء بالأسلوب في صورة استفهام ، إذن فالاستفهام هنا أكد في تقرير صدق هذه الجملة

كذلك أنت تلجأ إلى هذا الأسلوب في الرد على من ينكر جميلك . فتقول ألم أحسن إليك يوم كذا وكذا ؟ فلا يملك عندهما إلا الإقرار

ثم يقول سبحانه ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٧) [الاحزاب] الولي هو القريب منك وأنت لا تقرب من إلا من نرجو نفعه هو الذي يلبك أو يؤاليك ، فحسب يسبق الحدث ، فإذا ما جاء الحدث حملته حبه لك على أن يدفع عنك

والنصير قريب من معنى الولي ، ويدفع أيضاً عنك ، لكن يأتي دفاعه بعد الحدث ، وقد يكون ممن لا قرابة بينك وبينهم

والمعنى حين يريد الله أحداً بسوء فمن يجد أحداً يحميه من الله ، لا الولي ولا النصير

ثم يقول الحق سبحانه^(١)

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ
لَا يُخْرِنُهُمْ هَلُمُّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨)

قد حرف يفيد التحقيق ، خاصة إذا جاءت من الحق سبحانه ،
ويأتى معها الفعل فى صيغة الماضى . لكن هنا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ .. ﴾ (١٨)
[الاحزاب] فحاء افعل بصيغة المضارع ، وهذا يعنى أن الحدث الذى
يقع الآن سمعته أن الله يعلم المعوقين ، وقد علم أولاً

فإن قلت فالحق سبحانه يعلم قبل أن يكون هناك تعويق ،
نقول فرق بين أن يعلم الأمر قبل أن يقع وأن يعلمه إذا وقع ، فقد
يقول قائل علمت وسوف تجازي عني ما تعلم سابقاً ، لكن
لو تركتني فى المستقبل لن تحدث منى مخالفة إذن فالحق
سبحانه يريد أن يؤكد هذا الأمر والمعوق هو الذى يضع العراقق
أمام مرادك ، ويُنْظِرُ همتك ويَحْذِلُك

وقوله ﴿ هَلُمُّ إِلَيْنَا ﴾ (١٨) [الاحزاب] يعنى أقبل وتعال وكلمة
(هلم) تأتى هكذا بصيغة لمفرد دائماً مع المفرد والمثنى والجمع

(١) أخرج ابن أبى خاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾
(١٨) [الاحزاب] قال هذا يوم الاحزاب انصرف رجل من عند النبى ﷺ فوجد احده
من بنييه شواء ورعيف فقال له ابرهنا فى الشواء والرقيف والحديد ورسول الله ﷺ
بين الرماح والسيوف قال علم إلى لقد بلغ منك وبصاحبك - الذى يُحَلِّبُ به لا يستقى
بها محمد يد قال كذبت - الذى يُحَلِّبُ به - وكان أحياه من أبيه وانه والله لأخبرين
النبى ﷺ بامرئك ، وذهب إلى ابنى ﷺ بحمره فوجده قد مرر جدرين عنه السلام بحمره
﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لَا يُخْرِنُهُمْ هَلُمُّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨) [الاحزاب]

[أوردته السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٩ =]

ومع المذكر والمؤنث ، ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ۖ ﴾ (١٥) [الأنعام] أي هاتوا ، وهذه هي اللغة الفصحى

وفى لغة من لغات تهامة يكحفون بها علامة التثنية والجمع ، فثذكير والناسك ، فثقولون هم وهلمى وهلموا ، ولجمع الإناث هلمن

وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨) [الأحراب] البأس أى الحرب ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَاهُ صِنْعَهُ لِيُوسِلَ لَكُمْ لِيُخَفِّصَكُمْ مِنْ يَأْسِكُمْ ۖ ﴾ (٨٠) [الأنبياء]

وقال سبحانه ﴿ وَالضَّالِّينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۚ ﴾ (٧٧) [البقرة] ففرق بين البأس والبأساء البأس أى الحرب أما البأساء ، فكل ما يصيب الإنسان من مكروه فى غير ذاته كفقْد ولد أو حساره مال إلخ ، أما الضراء فما يصيب الإنسان فى ذاته كمرض أو نحوه

ومن ذلك قول الله تعالى عن سيدنا داود ﴿ وَعَلَّمَاهُ صِنْعَهُ لِيُوسِلَ لَكُمْ لِيُخَفِّصَكُمْ مِنْ يَأْسِكُمْ ۖ ﴾ (٨٠) [الأنبياء]

والمراد صناعة لدروع التى يلبسها الإنسان على مطان المقاتل فيه وعلى أجهزته الحيويه كالصدر والقلب والرأس ، ولها عطاء خاص (السحوة) وتُصنع الدروع مُسِنَّة أى بها تمسوج وتحاريف بحيث تتلقى ضربات السيف بإحكام فلا تنفلت الصرنة إلى مكان آخر فتؤديه

لذلك يقول تعالى لبيبه داود عن هذه الصنع ﴿ وَفَعَلْنَا فِي السَّيِّدِ

(١٠) ﴿ سبًا ۖ أَيْ فِي حِكْمِ هَذِهِ الْخَلْفَاتِ الْمَتَدَاخِلَةِ

وفرق أيضاً هنا بين لبّوس ولباس للباس هو ما يقى الإنسان
تقلبات الجو ، ويستتر عورته أثناء الأمن وسلام الحياة ، وهذه هي
الملابس العادية التى يرتديها الناس

وفىها يقول الحق سبحانه ﴿ وَلِلّٰهِ حَقُّكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَكُمْ
لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ۖ وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ
بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ بَعْمَهُ عَلَيْكُمْ لَعَنَكُمْ تَسْلُمُونَ ﴾ (٨١) [النحل]

أما كلمة (لبّوس) فهى المُعدّة لحالة الحرب كالدرع ونحوها ،
لذلك جاءت بصيغة دالة على التضييم (لبّوس)

وهذه الآية تلفتينا إلى مظهر من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى
المعجز ، فالآية هنا ذكرت (لحر) ، ولم تذكر شيئاً عن المقابل له ،
وهو البرد ، والعلماء عادة ما يلجئون إلى تقدير هذ المحذوف عند
تفسير الآية فيقولون أى تقيكم الحر والبرد ، يريدون أن يكملوا
أسلوب انقرآن ، وهذا لا يجوز

(١) لأكل جمع كنّ وما يُصار أو يستتر فيه الشره والبيوت تكن لاحتياها

القاموس القويم بلقرآن الكريم ١٧٥/٢ [

(٢) السربال الفميص والدرم وقيل كل ما لبس فهو سربال [سلبى العرب عادة
سربل]

(٣) قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة سربل قيل هى قوته تدعى ﴿ سربيل تقيكم
الحر ﴾ [النحل] ، وبه القمص بقى الحر والبرد ماكنى بذكر السر كان ما وفى
الحر وقى البرد -

وقال ابن زحوى ركزياً الانتصارى فى كتابه د فتح الرحمن بكشف ما يسيى هو القوس
، ﴿ سربيل تقيكم الحر ﴾ (٨١) [النحل أى والبرد وإنما حذفه لدلالة صده عليه ، كما
فى قوله تعالى ﴿ يبيد الخير ﴾ (٢١٦) [ق عمران] أى والشر وحسن الحر والحير
بالذكر لأن الحطد بالقرآن أول ما وقع بالعصر والرقاية من الحر أهم بعد أهله لأن
الحر عندهم أشد من البرد والحير مطلوب العباد من ربهم دون الشر ،

وحين نمعن النظر في هذه الآية . نجد أن الله تعالى خلق الظلال لتقياً حرارة الشمس ، وجعل اللباس ، وكذلك جعل لما الأكتان في الجبال ، والله خلق الحر على هذه الصورة التي لا يتحملها الإنسان ، لأن الحر مهمة في حياتنا ، وحرارة الشمس تخدمك في أمور كثيرة ، وإن كانت تصايحك بعض الوقت ، فالحق سبحانه انقذه لتؤدي مهمة خير لك ، ثم حماك بالخل واللبس والأكتان من شرهما

فإن قُتت فهذه الأشياء تقيني أيضاً البارد . بقول (ياك أن نظن أن الداء يأتيك من غطاء ثقيل أو ملابس شتوية ، إنما الداء من ذاتك أنت . فانت تدفئ (البطانية) والفرش لدى نيام عليه ، بدليل أنك ساعة تأتي فراشك لتنام تحده بارداً . ثم بعد مرور ساعات الليل يحده في الصباح دافئاً

إذن فحرارتك الذاتية انتقلت إلى الغطاء عادماًته . وكل ما يؤديه الغطاء انه يحفظ حرارة جسمك بداخله . فلا تتدد في الهواء المحيط بك

لذلك . لما درس العلماء مسألة حرارة جسم الإنسان وجدوا فيها مظهراً من مظاهر قدرة الله ، فالإنسان تُشع منه حرارة تكفي في أربع وعشرين ساعة لعلل سبعة عشر لمرأ من الماء ، ومعدل هذه الحرارة في الجسم ٣٧° ثابتة في قيظ الحر وبرد الشتاء مما يدل على أن جسمك ذاتية مفصلة تماماً عن الجو المحيط بك

ومن عجائب خلق الإنسان أن هذه الحرارة تتفاوت من عضو إلى عضو آخر . والجسم واحد ، فأعضاء حرارتها ما بين ٧° ٩° كالأف والأذن والعين ، ولو زادت حرارة العين عن هذا المعدل

سيفجر ، أما الكبد فحرارته 40° إلح ومعنوم أن الحرارة تُحدث
ستطرافاً في الجسم الواحد ، وفي المكان الواحد

ومن عجائب خلق الإنسان في هذه المسألة العرق الذي يتصبب منك
في حالة تعرضك للحرارة الشديدة ، فيخرج العرق من مسام الجسم ،
ليُطَب من درجة حرارته ، ويحدث عملية تبريد ، كالتى نراها مثلاً في
موتور السيارة ، حتى عند في الفلاحين تحدد الفلاح من كثرة عمله في
الأرض وكثرة عرقه تتكون على جسمه طبقة مثل لجير ، وهذه أملاح
تخرج مع العرق ، لذلك يكثر في هؤلاء الفلاحين أكل (المش)
و (المسخلات) لتعويض نسبة الأملاح المفقودة مع العرق ، إن
فالحق سبحانه لم يقل (واسرد) ، لأن الداء كما رأينا ذاتي

وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨) [الاحزاب] وهذه
لقطة مستثناة إما من الإنبياء ، أو أنهم يأتون البأس ، لكن قلة منهم
يقتلون بهمة ونشاط ، والباقيون أتوا برأ للرمد في أعيون - كما
يقولون ولئلا يَتَّهِمُوا بالتخلف عن رسول الله

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَشْخَعَتْ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ تَدَوَّرُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا
ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ أَشْخَعَتْ عَلَى
الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَغْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١١)

قوله تعالى ﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الاحزاب] لشح في معناه العام هو البخل ، لكن الشحيح اسدى ببخل على الغير ، وقد يكون كريماً على نفسه وعلى أهله . أما البخيل فهو الذى يبخل حتى على نفسه ، لذلك قال تعالى ﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ . (١٩)﴾ [الاحزاب] لبس على أنفسهم^(١)

وأنت حين تتعامل الصفات المدمومة في الكون تجدها ضرورية لحقائق تكوين الكون ، وتجد لها مهمة ، لذلك فطن الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال

إِنَّ الْأَشْحَاءَ أَسْحَى النَّاسِ قَاطِبَةً لَأَنْهُمْ مَلَكُوا الدُّنْيَا وَمَا اسْتَقْبَعُوا
لَمْ يَحْرَمُوا النَّاسَ مِنْ نَعَصِ الدِّى مَلَكُوا إِلَّا لِيُعْطُوا فَمَا كُلُّ الدِّى جَمَعُوا
وأحر يرى للبخل فصلاً عنه ، فيقول

حُرَى الْبَحِيلُ عَلَى صَالِحَةٍ مَنِ احْتَبَاهُ عَلَى نَفْسِي
نعم البحيل خفيف على النفس ، لأنه لم يجد عليك شيء
يأسرك به ولم يستعبدك في يوم من الأيام بالإحسان إليك ، فهو
خفيف على نفسك لأنك لست مديناً له بشيء
وهذا عني حد قول اشاعر

(١) بورد القرطبي في تفسيره (٥٤١٢/٧) عنه اقوال من تاويل قوله تعالى ﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ

(٢) [الاحزاب]

أشحة عليكم أي بالحر من الخديق والذئبة في سبيل الله قاله مجاهد وقناة

وقيل بالقتال معكم

وقيل بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم

وقيل أشحه بديعهم إذا أصابوها قاله السدي .

أَحْسَنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ وَطَالَمَا اسْتَعِيدَ الْإِنْسَانُ بِحُسْنِ
فَالْحِلِّ وَإِنْ كَانَ مَذْمُومًا ، فَقَدْ رَكَّزَهُ اللَّهُ فِي بَعْضِ الطَّبَعِ لِيُجِيرَ
النَّضَادَ وَمَعْنَى « يَعِينُ التَّضَادَ » أَنْ الْبِخْلَ مُقَابِلُهُ الْكَرَمُ ، وَالْحِلَّ
يَعَاوِزُ الْكَرِيمَ عَلَى آدَاءِ مَهْمَتِهِ ، فَالْكَرِيمُ عَادَةً (إِيْدُهُ سَابِيهِ) ، يَنْفَقُ
هَذَا وَهَذَا حَتَّى يَنْفَدَ مَا مَعَهُ ، وَمِنْ أَهْلِ الْكَرَمِ مَنْ يُلْحَأُ إِلَى أَنْ يَبِيعَ
أَرْضَهُ أَوْ بَيْتَهُ فِي سَبِيلِ كَرَمِهِ ، فَمَنْ يَشْتَرِي مِنْهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ
هَذَا مَنْ يَكْتَنِرُ الْمَالَ وَيَبْخُلُ بِهِ »

إِنْ لَوْ نَظَرْتُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ تَجَدَّدَ لَهُ مَهْمَةٌ ، حَتَّى إِنْ
كَانَ مَذْمُومًا ، ثُمَّ إِنْ الْبَحِيرُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ظَرِيفًا لَا يَخْلُو مَجْلِسُهُ مِنْ
ظُرْفِهِ ، فَقَدْ كُنَّا فِي بَوَاقِيرِ شَيْئَانَا نَشْرَبُ الْمَجَازِرَ ، فَكَانَ الْوَاحِدُ مِمَّا
يُخْرِجُ عَلَّةَ السَّجَائِرِ يورِعُهَا عَلَى الْحَاضِرِينَ وَرَبَّمَا لَا تَكْفِي وَاحِدَةٌ
فَأَخْرَجَ الْآخَرَى وَكَانَ فِي مَجْلِسِنَا وَاحِدٌ مِنْ مُؤَلَّاءَ ، فَنَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي
غَيْظٍ وَقِل (يَا قَلْبِكَ يَا أَخِي) .

وَقَدْ كُنْتُ هَذِهِ السَّحَائِرَ سَبَبًا فِي أَنْتَا حُرْنَا عَلَى شَيْئَانَا ، فَكُنْ
لِهَذَا أَثَرٌ بَالِغٌ عَلَيْنَا فِي الْكِبَرِ ، فَلْيَحْمِ الشَّبَابُ شَبَابَهُمْ وَلَا يَدْمُرُوهُ بِمِثْلِ
هَذِهِ الْحَبَائِثِ الْمَحْرَمَةِ

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْرُءُونَ آيَاتِ اللَّهِ تَدْرُؤُ
أَعْيُنُهُمْ ﴾ [الاحزاب] أَيْ فِي سَاعَةِ الْفَرَعِ ، يَأْخُذُ الْفَرَعُ أَبْصَارَهُمْ ،
فَيَنْظُرُونَ هُنَا وَهَنًا ، لَا تَسْتَقِرُّ أَبْصَارُهُمْ ، وَلَا تَسْكُنُ إِلَى شَيْءٍ ،
رَاغَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴿ كَأَلَدَى بُعْثِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. ﴾ [الاحزاب]

وَمِنْ ذَلِكَ الْحَرِّ ، إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرَعِ ، وَتَقْلُبُونَ عِنْدَ الطَّبَعِ ،
كَانَ هَذَا حَالَهُمْ عِنْدَ الْخَوْفِ وَالْفَرَعِ ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ
بِأَلْسِنَةِ حَدِيدٍ .. ﴾ [الاحزاب] مَعْنَى ﴿ سَلَفُوكُمْ ﴾ (١٩) ﴿ [الاحزاب]

أَمْوَالِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ بِالسَّيْفِ . وَقَالُوا لَكُمْ أَعْمَلُوا حَقًّا ، فَقَدْ حَارَبْنَا
مَعَكُمْ وَلَوْلَا نَحْنُ مَا انْتَصَرْتُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ
التَّطَاوُلِ بِالْقَوْلِ وَالْإِيْذَاءِ وَالتَّأْيِيبِ

وهذا كله من معاني (السَّق) ومنه سلق اللحم ونحوه ، وهو
أَنْ يُغْلَى فِي الْمَاءِ دُونَ أَنْ تُضَيَّفَ إِلَيْهِ شَيْئًا ، ومثله السَّحْبُ ، فَكَلَّهَا
مَعَانٍ تَلْتَقِي فِي الْإِيْلَامِ

وعادة ما تجد في اللغة إذا اشترك اللفظان في حرمين ، واختلفا
في الثالث تجد أن لهما معنى عامًا يجمعهما كما في سلق وسلح ،
ومى قطف ، وقطر ، وقطم وكلها تلتقي في الانفصال

وقوله تعالى ﴿بِأَنسَةِ حَدَادٍ .. (١٧)﴾ [الأحزاب] حداد يعني حادة
فصيحة بمرء الفم ، كما في قوله تعالى ﴿فَبَصُرْتُ الْيَوْمَ حَدِيدَ
(٢٣)﴾ [ق]

ومعنى ﴿أَشْحَتٌ عَلَى الْحَيْرِ .. (٢٧)﴾ [الأحزاب] بعد أن قال ﴿أَشْحَتٌ
عَلَيْكُمْ (٢٦)﴾ [الأحزاب] أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ ﴿أَشْحَتٌ عَلَى الْحَيْرِ
(٢٧)﴾ [الأحزاب] أَي فِي عَمْرِهِ

﴿أَوْسَعُ لَمْ يُؤْمَرُوا (٢٩)﴾ [الأحزاب] لَأَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا لَحَمَلُوا أُنْ
الشَّحْ ، شَحُّ عَلَيْهِمْ هُمْ . وَلَيْسَ فِي صَالِحِهِمْ . لَأَنَّ الْكَرِيمَ بِسْتَرْبٍ مِنَ
اللَّهِ الْعَطَاءُ أَمَّا الشَّحِيحُ فَلَيْسَ لَهُ زِيَادَةٌ ، لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى ﴿هَاسِمٌ
هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُتَمَقَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْكُمْ مَنْ يَحْمِلُ وَمَنْ يَحْمِلُ هَاسِمًا يَحْمِلُ
عَنْ نَفْسِهِ (٣٨)﴾ [محمّد]

وربك حير يراك تتفق ممسا أعطاك يريدك ، لأنك مؤمن على
الدرق ، لذلك يقول أحد الصالحين اللهم إنك عرّدتني حيرا ، وعوّدت

خلقك حسيراً . فلا تقطع ما عودتني حتى لا أقطع عن الناس ما عودتهم إنش فإلغطاء استدرار لنعمة الله ، وسبب للمزيد منها وهب أن لك عدة أولاد أعطيت لواحد منهم جنياً مثلاً ، فذهب وشترى به حلوى ، ثم ورعها على إخوانه ، ولم يؤثر نفسه عليهم ، لا بد أنك ستتمنه . وتعطيه المزيد ، لأن الخير في يده يقبض على الآخرين

ونتيجة عدم الإيمان ﴿ فَاحْطِ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١٩) [الاحزاب] أي أنهم عملوا ، لكن أعمالهم لا رصيدها لها من إيمان ، لذلك أحبطها الله في جعلها غير ذات حدود ولا مائدة تعود عليهم وهذه القصة أوضحها القرآن في قوله تعالى ﴿ مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدُ ﴾ (٢٨) [براهيم]

وهذا الإحباط أمر يسير على الله تعالى ، لكن ألقى حق الله تعالى نقول هذا صعب ، وهذا يسير ؟ قالوا كل أمر الله يسير ، لأنه تعالى لا يفعل بمعالجة الشيء ، إنما يفعل سبحانه بكر ، وسبق أن مثلنا لمعالجة الأفعار بمن يريد أن ينقل مثلاً عشرة أرادب من القمح ، فإنه لا يستطيع إلا أن يحملها مَجْرَأَةً ، فينقل (الجول) من هنا إلى هناك ، ثم الآخر ، إلى أن يسهى من الكمية كلها ، ويأخذ في هذا العمل وقتاً يتناسب مع قوته

فلما تقدّم العلم ، وتطور الفكر الإنساني رأينا الآلة التي تحمّل كل هذه الكمية وتنقلها في حركة واحدة ، وبمجرد الضغط على مجموعة من الأزرار والمفاتيح هذا كان العبد المحطوق لله عز وجل قد استطاع أن يصل إلى هذا التيسير مما نالك بالخالق عز وجل

بذلك يقول تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [س] ولا تتعجب من هذه المسألة ، لأن ربك أعطاك في ذاتك شيئاً منها ، بعد أن تستبعد فعل الله تعالى بـ كُنْ ، وأنت ترى حوارك تفعل لمجرد إرادتك للفعل ، مجرد رعبتك في القيام برى نفسك قد فُتت ، دون حتى أن تأمر حوارك وعضلاتك بالقيام

فإن قلتَ فلمأذا لا يأمر الإنسان حوارحه وأعضائه بما يريد ؟ نقول لأنك لا تملك أن تأمرها ، فهي تنقاد لك ولمرادك بأمر الله ، بالاشياء كلها إنما تأتمر بأمر الخالق سبحانه ، ولا تتحلف عن أمره أبداً ، ألم تقرأ عن السماء ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴾ [الانشقاق]

فالسما مع عظم خلقها تسمع وتطيع أمر خالقها أم أنت أيها لعبد فأى شيء تأمر ، وأنت لا تعرف أصلاً ما تأمره ؟ وهل تعرف أنت العضلات والأعضاء والأعصاب التى تشترك بذاذك لأداء عملية لقيام ؟ لديك ولعدم علمك بما بأمره جعل الله أعضائك وجوارحك تفعل لمجرد إرادتك

أما هو سبحانه فيقول (كُرْ) لأنه خالق كل شيء وكل شيء مؤتمر بأمره وقال سبحانه (كُرْ) حتى لا تقولها أنت ، فكانها سبقت منه سبحانه لصالحك أنت ، وأنت تفعل من باطن كُرْ الاولى التى تورعت عليك جميعاً

يَحْسِبُونَ الْأَحْرَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ

الْأَحْرَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ

فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ آبَائِكُمْ وَلَوْ

كَانُوا مِنْكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا

القرآن الكريم يحكي هذا الموقف عن المنافقين ، ويكشف مواياهم السيئة ، فبعد أن تجمع الأحزاب وخرجوا بمحاربة النبي ﷺ ما يرال هؤلاء المنافقون ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ . ﴿٢﴾ [الأحزاب] فهذا التجمع بخسفهم ويروغهم لذلك لم يُصدّقوه ، فقد رأوا النبي ﷺ ينتصر على أعدائه متفرقين . وهذه هي المرة الأولى التي يحتجم فيها أعداء الإسلام على اختلافهم

من استبعد المنافقون تجمع الأحزاب هذا التجمع ، وبعد ذلك يفسون دون أن يصنعوا حدثاً يذكر في التاريخ

والحُسابُ ظر ، أي ليس حقيقة

﴿وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادّون في الأحزاب﴾ . ﴿٣﴾ [الأحزاب] أي إن يتجمع الأحزاب يودّ المنافقون لو أنهم بادون أي مقيمون في البادية بعيداً عن المدينة ، لأنهم يخافون من مطلق لتجمع ، ولأنهم إن نقوا هي المدينة إما أن يحاربوا الأحزاب وهم غير وثقين من لنصر وإما ألا يحاربوا فيصيرون أعداء للمسلمين

مهم يريدون - إذن - أن يعيشوا في التفاق ، والأ يخرجوا منه ، لذلك يودون عيشة البادية مع الأحزاب ، ومن سعيد ﴿يسألون عن أنباءكم﴾ . . ﴿٤﴾ [الأحزاب] أي ما حدث لكم في هذه المواجهة

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة ﴿رَلَوْ كُنُوا فِيكُمْ مَا قَالُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥﴾ [أحزاب] أي درءاً للشبهات ، وذكراً لرماد في العيون ، إذن لا نأس عليهم ، ولا تحزن لتحلهم

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٦١﴾

أسوة قدوة ونموذج سلوكي ، والرسول ﷺ مُبَلِّغٌ عَنْ اللَّهِ مَهْجَهُ لصيانة حركة الإنسان في الحياة ، وهو أيضاً ﷺ أُسْوَةٌ سَلُوكٍ ، مما أيسر أن يعطى الإنسان ، وَنُ يُتَكَلَّمُ ، المهم أن يعبر على وفق مطوق كلامه ومراده ، وكذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ مُتَلَعًا وَأُسْوَةٌ سَلُوكِيَّةٌ ، لذلك هات عنه السيدة عائشة رضي الله عنها « كان خلقه القرآن »^(١)

كن ، ما الأسوة الحسنة التي قَدُمَهَا رسول الله في مسألة الأحزاب ، لَمَّا تَجَمَّعَ الْأَحْزَابُ كَانَ مِنْ دَعَائِهِ ﷺ « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، أَهْرِمِ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ أَهْزِمِهِمْ وَزَلْزَلِهِمْ »^(٢)

وجعل شعاره الإيمانى فيما بعد ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، صدق وعده ونصر عبده ، وأَعَزُّ جُنْدَهُ ، وهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ،^(٣) وما دام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩١/٦ - ١٦٢) وأبو بكر البيهقي في دلائل أسبغ (١ / ٢) من حديث عائشة رضي الله عنها أن سعد بن هشام بن عامر قال أتيت عائشة ، فقلت يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ قالت كان خلقه القرآن ما نقرأ القرآن قول الله عز وجل ﴿ وَإِنَّكَ لَنَاصِرٌ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٠) [القم]

(٢) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٢٢) وكذا مسلم في صحيحه (٧٤٢) كتاب الجهاد - باب لتسحاب الدعاء بالنصر (٧) من حديث عبد الله بن أبي أوفى

(٣) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٦٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٢٤) كتاب الذكر والدعاء - باب (١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولعلهما « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَأَعَزُّ جُنْدِهِ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، وَلَا شَيْءَ مَعَهُ »

هذا شعار المصطفى ﷺ فهو لكم أسوة

وقال تعالى عن المؤمنين في هذه المزوة ﴿وَرَلَوْا حَتَّى يَقُولَ
الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۖ﴾ (٢٤) [النقرة]

وفي ندر يقول أبو بكر يا رسول الله ، بعض مما شددتك ربك ،
فإن الله منجز لك ما وعدك^(١)

ولقائل أن يقول إذا كان الله تعالى قد وعد نبيه بالنصر ، فلم
الإلحاح في الدعاء ؟ يقول ما كان سيدي رسول الله يكبح في الدعاء
من أجل النصر ، لأنه وعد مُحقق من الله تعالى

واقرأ قوله تعالى ﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ لَمَنْ يُهْلِكْ أَشْيَاءَ اللَّهِ بِمَا يَكُونُ لَكُمْ
وَيُؤَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ انشَاوَةٍ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٧) [الأفعال]

والرسول لا يريد الانتصار على الغير ، وعلى محاربه قريش ، بما
يريد النفير الذي خرج للحرب

وقوله تعالى ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ ۖ﴾ (٢٧) [الاحزاب] كان الأسوة
الحسنة مكانها كل رسول الله ، فهو ﷺ ظرف للأسوة الحسنة في كل
عضو فيه ﷺ ، فهي لسانه أسوة حسنة ، ومن عيظه أسوة حسنة ،
وهي بده أسوة حسنة إلخ ، كله ﷺ أسوة حسنة

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٦٢٧/٢) أن رسول الله ﷺ عدل الصغرى يوم
يذر ورجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر الصديق يسر معه فيه عيره
ورسول الله ﷺ يداشده به ما وعده من النصر ويقول شعبا يقول اللهم إن يهلك هذه
العصابة اليوم لا تعبد وقد حمى رسول الله ﷺ حقيقة وهو في العريش ، ثم اسمه فقال
بشرك يا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخا يعان درس يفوده على ثمانية النقع
(ع القهار)

هذه الأسوة بمن ؟ ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَبِيرًا﴾ (٢٦) [الأحزاب]

وصف ذكر الله بالكثرة ، لأن التكاليف الإيمانية تتطلب من النفس
استعداداً وتهيوئاً لها ، وتؤدي إلى مشقة ، أما ذكر الله فكما قلنا
لا يكلفك شيئاً ، ولا يشق عليك ، لذلك قال تعالى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ..﴾ (٥٥) [المعنكوت]

يعنى أكبر من أى طاعة أخرى ، لأنه يسر على لسانك ،
تستطيعه فى كل عمل من أعمالك ، وفى كل وقت ، وفى أى مكان ،
ولذلك قلنا من آية الجمعة ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ
وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١٠) [الجمعة]

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٢٢)

أى لما رأى المؤمنون الأحزاب متصرفين مهرومين ﴿قالوا هذا
ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم ..﴾ (٢٢) [الأحزاب]
أى هذا النصر ، وهذا الوعد الذى تحقق ما رادهم ﴿إلا إيماناً
وتسليماً﴾ (٢٢) [الأحزاب]

وهذه المسألة دليل من أدلة ن الإيمان يريد وينقص ، فالإيمان يريد
بزيادة الحزئيات التى تعلية ، فعند الإيمان بالحق سبحانه وتعالى
هناك إيمان بالحزئيات التى تثبت صدق الحق فى كل تصرف
وتسليماً أى لله فى كل ما يُجرىه على أعباء

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ^(١) وَمِنْهُمْ
مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

برت هذه الآية في جماعة من المؤمنين صادقى لإيمان^(١) ، إلا
أنهم لم يشهدوا بدرأ ولا أحدًا ولكنهم عاهدوا الله إن جاءت معركة
أخرى ليُبايَرنَ ليها ، ويملُون فيها بلاءً حسنًا

وورد أنها نزلت في أنس بن النضر فقد عاهد الله لما فاتته بدر
و جاءت مع المشركين حرب أخرى ليملُون فيها بلاءً حسنًا ، وفعلًا
بما جاءت أحد إلى فيها بلاءً حسنًا حتى استشهد فيها فوجدوا في
جسده بيعة وثمانين طعنة برمح ، وضربة بسيف^(٢) ، وهذا معنى

(١) يحب أو يحب على نفسه بمرأ أو بدر بدرأ وقضى مصلحه وقضى بمره والسحب الله
ويقال لمن مات في سبيل الله قضى نَحْبَهُ أي وقى بمره لانه بدر أن يموت في سبيل
الله [القاموس القويم ٢/ ٢٥٥]

(٢) قال عن أبي طالب عن طلحة بن عبيد الله ذلك مرؤ برت فيه آية من كتاب الله تعالى
﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ (٢٣) [الاحزاب] طلحة من قضى نَحْبَهُ لا حساب
عليه فيما يستقبل وقال عيسى بن طلحة أن النسي بفتح مر طعه طلحة فقال هذا من
قضى نَحْبَهُ أو ردهم الوحيد النيسابوري في (أسباب النزول ص ٢٢ ٢٣ ٢٤)

(٣) عن أنس بن مالك قال غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر ، عشق عليه ، وبال
عنه عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ والله يشهدني الله سبحانه فسألًا ليرى الله
ما صنع فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال اللهم إني أرى أنك مما جاء به
هؤلاء المشركون وعذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ثم عشت بسيفه فلقه
سعد بن معاذ فقال أي سعد ، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة من أهد ، فقاتلهم
حتى قُتل قال أنس هو جنداه بين القتلى به سعد وثمانون جرحه من بين صوره
بالسيف وطعته بالرمح ورمية بالسهم رقد مكلوا به وما عرفناه حتى عرفه أخوه
ببانه وبرت هذه الآية أسباب النزول للواحد من ٢٢ وير سعد عن الطبع
الكبير ٢٢٩/٤

﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ..﴾ (٢٢) [الأحزاب]

وساعة بسمع كلمة ﴿رجالاً ..﴾ (٢٣) [الأحزاب] فى القرآن ، فاعلم أن المقام مقام جد وثبات على الحق ، وفخر بعزائم صلابة لا تلين ، وقلوب رسيخ فيها الإيمان رسوخ الجبال وهؤلاء الرجال وقوا العهد الذى قطعوه أمام الله على أنفسهم ، بأن يبلأوا فى سبيل نصرة الإسلام ، ولو بصل الأمر إلى الشهادة .

وقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ .﴾ (٢٣) [الأحزاب] قضى بحبه أى دى العهد ومات ، وانحب فى الأصل هو اندر ، فالمسراد أى ما نذره ، أو ما عاهد الله عليه من القتال ، ثم استعملت (النحب) بمعنى الموت

بكى ، ما العلاقة بين النذر والموت ؟ قالوا المعنى إذا بدرت فاحل الحياة ثمناً للوفاء بهذا النذر ، وجاء هذا التفسير ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ..﴾ (٢٣) [الأحزاب] لتعلم أن الموت يجب أن يكون منك بدرأ أى اندر الله أن تموت لكن فى نصرة الحق ومضى سبيل الله ، فكان المؤمن هو الذى ينذر نفسه وروحه لله ، وكان الموت عنده مطلوب ليكون فى سبيل الله

فالمؤمن حين يستصحب مسألة الموت ويستقرئها يرى أن جميع الخلق يموتون من لئس آدم عليه اسلام حتى الآن ، لذلك تهون عليه حياته ما دام فى سبيل الله ، فينذرهما ويقدمهما لله عن رضا ، ولم لا وقد صحيت بحياه ، مصيرها إلى روال ، واشتريت بها حياة باقية حافلة منعمة

وقد ورد فى الأثر « ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشك من يقين لحاس بالموت » ومع أننا نرى الموت لا يُبقى على أحد عبيد إلا أن كل

إنسان في نفسه يتصور أنه لن يموت

وَحَقُُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَنْذِرَ نَفْسَهُ ، وَأَنْ يَضْحَى بِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
لأن الله يقول ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفَعُونَ ﴾ (١٦٩) فراحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحظوا بهم من قبلهم ألا خوفٌ عنهم ولا هم يحزنون ﴿ ١٧٠ ﴾ يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴿ ١٧١ ﴾ [آل عمران]

وهذه الحياة التي عبد الله حساة على الحقيقة لأن الرزق سمة الحى الذى يعيش ويأكل ويشرب الخ ، وإياك أن تضن أنها حياة معنوية فحسب

وقد تسمع من يقول لك هذا يعنى أننى لو فتحت القبر على أحد الشهداء أجده حياً فى قبره ، ويقول لمن يحب أن يجادل فى هذه المسألة الله تعالى قال ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ . ﴾ (١٦٩) [آل عمران] وم يقل أحياء عندك ، فلا تحكم على هذه الحياة بقانونك أنت ، لا تنقل قانون الدنيا إلى قانون لأخرة

والمؤمن ينبغي أن يكون اعتقاده فى الموت كما قال بعض العارفين الموت سهم أرسل إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره إليك

والقرآن حين يعالج هذه المسألة يقول تعالى ﴿ تَبَرُّكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) الذى خلق الموت والحياة ﴿ ٢ ﴾ [الملك] فقدم اصوب على الحياة ، حتى لا نستقبل الحياة بفرور الحياة إنما نستقبلها مع بقصها حتى لا نفتن بها

وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَنْظُرْ .. ﴾ (١٢٢) [الاحزاب] أى يبطر البقاء بعنده مع الله وكان الله تعالى يقول الخير عيكم يا أمة محمد

يباق إلى يوم القيامة ﴿وَمَا يَدَّبُّوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) ﴿[الأحزاب] معنى التبديل
هنا أى ما يحاذلوا فى شىء عاهدوا الله عييه ونذروه فما جاءت
بعد ذلك حرب ، وتخاذل أحد منهم عنها ، ولا أدخل أحد منهم الحرب
مؤامرة ورياء ، فقتل من بعيد ، و تراجع خوفاً من الموت ، بل كانوا
فى المعصية حتى الشهادة
ثم يقول الحق سبحانه

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ
وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾

تأمل هنا رحمة الخالق بالخلق هذه الرحمة اتى ما حُرِّمَ منها
حتى المدقو ، فقال سبحانه ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ ..﴾ (٢٤) [الأحزاب]

وسبق أن تحدثنا عن صفتى المغفرة والرحمة وقلنا غفور
رحيم من صيغ المبالغة ، الدالة على كثرة المغفرة وكثرة الرحمة ،
وأمر القرآن كثيراً ما يقرن بينهما ، فالمغفرة أولاً لتستر العيب
والنقائص ، ثم ينسوها الرحمة من الله ، بأن تمتد يده سبحانه
بالإحسان .

وقد أوضحنا ذلك بالص تجده فى بيتك ، فتشعق عليه ، ثم تمتد
إليه يدك بالمساعدة التى يعينه على عدم تكرار ذلك وقلنا إن
العالم ان تسبق المغفرة الرحمة قليلاً ما يسبق الرحمة المعفرة
وقلنا إنه يشترط فى المغفرة أن تكون من الأعلى للأدنى ، فإذا

ستر العبد على سيده قبحاً لا يقال غفر له ، وكذلك في الرحمة وإن
مال الأقل بالإحسان إلى الأعلى لا يقال رحمة ، لأنه قد يعطيه عوضاً
عن قدم له أو يعطيه انتظار أن يرد إليه ما أعطاه مرة أخرى
ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْطِهِمْ لَمَّا نَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾

الغيظ احتدام حقد القلب على مقابل مبغض ، والمعنى أن الله
تعالى رد الكافرين والغيظ يملاً قلوبهم ، لأنهم حاءوا وانصرفوا دون
أن ينالوا من المسلمين شيئاً ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ (٢٥) ﴿[الأحزاب] ليس
الخير المطلق ، إنما لم ينالوا الخير في نظرهم ، وما يبتغونه من
النصر على المسلمين فهو خير لهم وإن كان شراً يراد بالإسلام

وقد رد الله الكافرين إلى غير رجعة ، ولن يفكروا بعدها في
الهُجُوم على الإسلام لذلك قال سيدنا رسول الله بعد انصرافهم
حائسين « لا يغرونا أبداً بل مغزؤهم نحن » ، فعلاً كان بعدها
فتح مكة

وقوله تعالى ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ (٢٥) ﴿[الأحزاب] أي

(١) حركه البخارى في صحيحه (٤١٩ ، ٤١١) واحمد في مسنده (٢٦٢ ، ٤) من
حديث سيبان بن عمرو قال العسقلاني في (معجم الباري ٢ ، ٧) « فيه غلظ من
أعلام النبوة فإنه ﷺ انصرف في السنة المعينة فصدته قرش عن البيت وولعت ايديهم
بيهم إلى أن نقصوها فكان ذلك سبب فتح مكة فوقع الأمر كما قال -

أن رد الكافرين لم يكن بسبب قوتكم وقتالكم ، إنما تولّى الله ردهم
ركفاكم اقتتل ، صحيح كانت هناك مناوشات لم تصل إلى حجم
المعركة ، ولو حدثت معركة بالنفس لكانت في غير صالح المؤمنين ،
لأنهم كانوا ثلاثة آلاف ، في حين كان المشركون عشرة آلاف

إن كانت رحمة الله بالمؤمنين هي السبب الأساسي في النصر ،
لذلك بُدلت الآية بقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الاحزاب]
قويا ينصركم دون قتال منكم ، وعزيزا أي يظلب ولا يُعلب

هذا ما كان من أمر قرش وحلفائها ، أما بنو برمكة فيقول الله
فيهم

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ

أَهْلِ الْكِتَابِ مِّنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [٢٦]

معنى ﴿ظَاهَرُوهُمْ﴾ [الاحزاب] أي عاونوهم ﴿مِّنْ
صَيَاصِيهِمْ﴾ [٢٦] [الاحزاب] أي من حصونهم وقلاعهم ﴿وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [٢٦] [الاحزاب] أي الحوف وهو جندي من جنود
الله ، وهذا الرعب الذي ألغاه الله في قلوب الكافرين هو الذي مرّقهم ،
ولم يحمل لكثرة اعداء لديهم قيمة ، وما فائدة أعداد كثيرة جائرة
مذعورة ﴿يَحْمِلُونَ كُلُّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [٢٦] [الاحزاب]

الم تُحدثنا صحابة رسول الله أنهم كانوا يستعملون السواك ،
فطر الكفار أنهم يستنّون أسنانهم ليأكلوهم ، هذا هو الرعب الذي نصر
الله به عباده المؤمنين

ومعنى ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٢٦) ﴿[الأحزاب] أى المقاتلين الذين يحملون السلاح﴾ وتأسروا فريقاً ﴿[٢٧]﴾ ﴿[الأحزاب] وهم النساء والفرارى وغيرهم ممن لا يحملون السلاح﴾

ثم يقول الحق سبحانه

﴿۱۷﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَمْنُوا فَيْسًا بِهِمْ
قَطُّ وَمَا أَكْبَرُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿۱۸﴾

معنى ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ .. (٢٧) ﴿[الأحزاب] أى أعطاكم أرض وديار
وأموال أعدائكم من بعد زوالهم وانتهزامهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطْنُوهَا
(٢٧) ﴿[الأحزاب] أى أماكن جديدة لم تذهبوا إليها بعد ، والمراد بها
حيدر ، وكان الله يقول لهم استصروا فسوف يأخذون منهم الكثير
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢٧) ﴿[الأحزاب]

وهكذا انتهى التعبير القرآني من قصة الأحزاب^١

(١) أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن لمير والسنن عن قتادة رضي الله عنه في قوله يا رسول الله ليس ظاهروهم من أهل الكتاب (٢٧٦) [الأحزاب] قال : هم منو قريظة ظاهروهم أي سفيان ورسوله ويكثوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ ميثما الميثي يميّز عند رسي سد حشش يمس رأسه وقد عسلت شفته ، إن تاه جبريل عليه السلام فقال عفا الله عنه ما وضعت العنانة عنيه السلام سلاحها منذ أربعين سنة فامهض لي بي قريظة فوسس قد نطحت أوتاهم وفسدت أموالهم وتركتهم في زوال ويلال

فأرسل رسول الله ﷺ فحاصرهم ومداهم يد بصوء الفؤاد فقالوا يا أيها القاسم ما كبر عجبنا فزلنا على حكم سعد بن معاذ وكان بينهم وبين قومه خلف فخرجوا إلى ناحية بينهم مودة فأجاب البهم أبو سبابة مكثرن : يا أيها الذي أمر لا يحرموا الله والرسول (٢٧٧) [الأحزاب] فحكم بينهم سعد أن يقتل مقاتلتهم وأن يسيب ذراريهم وأن يعفوهم للمهاجرين روي الأنصار فقال الأنصار أنتم المهاجرين بالاعتقاد عديا ، فقال سعد إنكم كنتم مولى عمار وأن المهاجرين كانوا لا اعتقاد بهم فذكر الله ﷻ رسول الله ﷺ كثر وقال : هي منكم معكم الله ﷻ فظفر المشي من التفسير بالمشاور ٦ ٥٩١ [

ويجب علينا الآن أن نستعرض القصة بفلسفة أحداثها ، وأن نتحدث عما في هذه القصة من بطولات ، وفيها بطولات متعددة لكل محل فيها دور

وتبدأ القصة حين ذهب كل من حيي بن اخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وكانا من غريظة ذهبا إلى قريش في أماكنها ، وقالوا جئناكم لتعاون معكم على إبطال دعوة محمد . فأتوا أئمة من أسفل ، ونزل من أعلى ، وبحيط محمداً ومن معه ونقضى عليهم

وكان في قريش بعض التعقل فعابوا لحيي بن اخطب وصاحبه أنتم أهل كتاب ، وأعلم بأمر لأديان مقولوا لنا أديننا الذي نحن عليه خير أم دين محمد ؟ فقال بل أنتم أصحاب الحق^(١)

سمعت قريش هذا الكلام بما لديهم من أهواء ، وكما يقال آفة الرأي الهوى ، لذلك لم يناقشوه في هذه القضية ، بل سمجوا على مواله ولم يدكروا ما كان من أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ . وأنهم كانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ويقولون لهم لقد أفل رمان بن جندب بنسعه وبفلكم به فمر عاد

(١) قال تعالى هأنتم من الذين أوتوا نصيب من الكتاب يرمدون بالحب والطفوت ويقولون الذين كفروا هؤلاء هادي من الله أممو سيلاً [١٠١] [النساء] وعن عكرمة قال جاء حيي بن اخطب ركب من لاشرف بن اهل مكة فقالوا لهم انتم اهل الكتاب واهل العلم فاصبروا عما وعن محمد فقلوا ما نسم وما محمد ؟ فقالوا نحن نصل الأرحام وننصر الكواء (النافه المظليه السام) ونسقى الماء عن النهر ونفك العاني الأسير) ونسقى الحجيج ومحمد صبيور قطع رحاما ونسقه سراق الحجيج من عمار نحن خير م هو ؟ فقالوا أنتم خير راهدى سيلاً [تفسير ابن كثير ٥١٣/١]

وإرم^١ ، لقد فات فريشاً أن تراجع حياً بن أخطب ، وأن تسأله
لماذا غيرتم رأيكم في محمد ؟

ثم جاء القرآن بعد ذلك ووضح هؤلاء هؤلاء ، فقال سبحانه
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا بَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالْفُتُوحَاتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ (٥١) [النساء]

فكانت هذه أول مسألة تغيب فيها العقول ، ويفسد فيها الرأي ،
فتنتهز فريش أول فرصة حين تجد من يناصرها ضد محمد ودعوته
ومن هنا اجتمع أهل الناطل من فريش وأحلافه من بني فزارة ، ومن
بني مرة ، ومن غطفان وبني أسد والأشجعيين وغيرهم ، اجتمعوا
جميعاً لقضاء على الدين الويد

ثم كانت أولى بطولات هذه المعركة ، لرحل ليس من العرب ، بل
من فارس عمدة النار ولعياد مائه وكان الحق سبحانه يُعدّ لنصرة
الحق حتى من جهة الناطل إنه الصحابي الحليل سلمان الفارسي^٢ ،

١ قال محمد بن إسحاق من عاصم بن عمرو من قتلة الأنصار من أشيخ منهم قال فيها
وشرّهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم بذلك هذه العصة يعني
﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستغفرون على الذين كفروا فلما جاءهم
ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة] قالوا كتب قد عوبناهم شهراً زهراً في الجاهلية ونحن أهل
شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سبيغت الأثر تبعه قد أظلم زمانه فنقتلكم معه
قتل عاد وجرم فلما بعث الله رسوله من قرش وأسمعه كفراً به - أوردته لس كثير من
تفسيره (١٢٠/١)

٢ سلمان الفارسي ، صحابي من مقدميهم ، اسمه من نجوى أصبحوا رحل إلى الشام ،
فالموصل فبغداد ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود وعلم بحر الإسلام فقصده النبي
فسمع كلامه ولم يدخل الإسلام إلا بعد أن صدر من اليهودية كان يسمع أن صوف
ويأكل من الطير من كسب يده موسى ٣٦ - الإعلام للزركلي ٣ ١١٢]



الذى قضى حياته جوالاً يبحث عن الحقيقة ، إلى أن ساقته الأقدار إلى المدينة ، وصادف بعثة رسول الله وآمن به

وكان سلمان أول بطس في هذه المعركة ، حين أشار على رسول الله بحفر الخندق ، وقال يا رسول الله كنا - يعنى فى فارس - إذا حَزَبنا 'مَرُ' القتال خندقنا يعنى جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً ، ولأقت هذه الفكرة ستحسناً من المهاجرين ومن الأنصار ، فأراد كل منهم أن يأخذ سلمان فى صفه ، فلما تنازعا عليه ، قال سيدنا رسول الله لهم « بل سلمان منا آل البيت »^(١) وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان رضى الله عنه

وهذه الفكرة دليل على أن الحق سبحانه يُحْتَد حتى الباطل لخدمة الحق فنحن لم يسبق لنا أن رأينا خندقاً ولا أهل الفارسي الدين جاءوا بهذه الفكرة ، لكن سبحانه الله ت رحلها خندقاً من جنوده على يد هذا الصحابي الجليل . نتعلم كما قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ثَمَرٍ وَقَلْبِهِ ..﴾ (٢٤) ﴿[الأنفال]

وقد أوضحنا هذه المعنى فى قصة فرعون لدى كان يدمع الأبطال

١) عن عمرو بن عوف المزنى قال خط رسول الله ﷺ عام الأحزاب من أجم السمر طرف سى حارثة حين بلغ الممداد ، ثم قطع لرمسى درعا بين كل عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً صفات الأنصار سلمان من وقالت المهاجرون سلمان منا فقال رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت » أخرجه السهقي فى دلائل النبوة (١٨٣ ، ١٨٤) والحدكم فى مستدرکه ٢ ، ٥٩٨ (وضعف الذهبي إسناده من أجل كثير من عبيد الله



بعد النوبة التي سمعها . ثم يأتيه طفل على غير العادة يحمله إليه
الماء . وهو في صندوقه . ولا يخفى على أحد أن أهله قصدوا بذلك
إبعاده عن خطر فرعون . ومع ذلك حال الله بين فرعون وبين ما في
قلبه . فآخذ الولد ورباه في بيته

وقد أحسن الشاعر الذي عير عن هذا المعنى ، فقال

إذا لم تُصَادِقْ في نيك عناية فقد كذب الراجي وخاب المؤملُ
فموسى الذي رباه جبريلُ كافرٌ وموسى الذي رباه فرعونُ مرسلُ
البطل الثاني في هذه الممركة رجل يُدعى نعيم بن مسعود
الاشجمي^(١) ، جاء لرسول الله يقول يا رسول الله لقد مال قلبي
للإسلام ، ولا أحد يعلم ذلك من قومي ، فقال له رسول الله « وما
تغنى أنت ؟ ولكن خذل عنا ، ” أي ادع عنا القوم بأي طريقة ،
أعدهم عنا ، أو ضللهم عن طريقنا أو قل لهم أننا كثير ليرهبونا .
الخ .

(١) نعيم بن مسعود بن عامر الاشجمي بن سلمة حنظلي مشهور ، أسلم ليالي الفتح
وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين قريظة وعظماؤهم في وقعة الجند فحالف بعضهم بعضاً
وربطوا عن المدينة فقتل نعيم في أول خلافة علي قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل ،
وقبل مات في خلافة عثمان ، والله يعلم [الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم
[٨٧٨٠]

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٢٨٧) أن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ ،
فقال يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمررتي بم شئت ،
فقال رسول الله ﷺ ، « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استنطقت ، هل من الحرب

هذا رجل كان بالأمس كافراً ، فماذا فعل الإيمان في قلبه ، وهو حديث عهد به ، نظر نعيم ، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل وبني قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى ، فاراد أن يدخل بالدسياسة بينهما ، فذهب لأبي سفيان وقال يا أبا سفيان ، أن صدقكم وأنتم تعلمون مفارقتي لدين محمد ، ولكنني سمعت همساً أن بني قريظة تداركوا أمرهم مع محمد ، وقالوا إن قريشاً وأحلافهم ليسوا بمؤمنين هي المدينة مثلنا ، فإن صادفوا نصراً ينتصرون ، وإن صادفوا هزيمة فروا إلى بلادهم ، ثم يتركون بني قريظة لمحمد ، لذلك قررنا ألا يقاتلوا معكم إلا أن تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم

سمع أبو سفيان هذا الكلام ، فذهب إلى قومه فقال لهم أنتم المقيمون هنا ، وليس هذا موطن بني قريظة ، وسوف يتركوتكم لمواجهة محمد وحدهم ، فإن أردتم ابقاء علي عهدهم في محاربه محمد ، فاطلبوا منهم رهائن تصموا بها مهابرتهم لكم

فذهب أبو سفيان ليكلم بني قريظة في هذه المسألة ، فقال هلك الحف والحافر - يعني الإنس والحيين - ولست بدار مقام لنا ، فهيا بنا ساحر^(١) محمد - هذا ، بعد أن مكثوا ثيفاً وعشرين يوماً يعدون ويتشاورون - فقالوا له هذا يوم السبت ، ولن يفسد ديننا من أجل قتال محمد وعلى كل حال نحن لن نشمرك معكم في قتال ، إلا أن تعطوا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندي ، ساعدني علم أبو سفيان أن كلام نعيم الاتساع في صدق ، فجمع قومه وقال لهم

(١) المساجرة هي القتل المبرر والمقاتلة وهو أن يبادر الفارس فيمارسه حتى يقتل كل

واحد منهم صاحبه أو يقتل أحدهما وساحر القوم - سافكوا بماءهم كأنهم اسرعو في

ذلك [لسان العرب - مادة - سحر]

الأرض ليست أرض مقام منا ، وقد هلك الخف والحافر مهيا بنا ننجو
 قالوا إن رسول الله ﷺ لما جاء نعيم بن مسعود ، وأحبر
 رسول الله بما حدث ، ووجد رسول الله الجو هادئا ، فقال « ألا
 رح منكم يذهب فيُحدثنا الآن عنهم وهو رفيقي في الحنة ؟ »
 والمراد أن ينسب بين صفوف الأعداء ليطلع أخبارهم

ومع هذه الإشارة اتى بشر بها سيدنا رسول الله من يؤدى هذه
 المهمة ، لم يَقم من الحاضرين أحد ، ودل هذا على أن الهول ساءتها
 كان شديدا ، والخطر كان عظيما ، وكان انقووم فى حال من الجهد
 والجوع والخوف جعلهم يتخاذلون عن القيام ، فلم يأس أحد منهم
 قوة فى نفسه يؤدى بها هذه المهمة

لذلك كلف رسول الله رجلا يدعى حذيفة بن اليمان بهذه المهمة
 قال حذيفة ولكن رسول الله قال لى لا تحدث أمرا حسي ترجع
 إلى ، فلما ذهبت وتسللت ليلا جيسست بين القوم ، فجاء أبو سفيان
 باديا من نبي قريظة ، يريد أن يرحل بمن معه ، فقال ليتعرف كل
 واحد منكم على جلسه ، محافة أن يكون بين القوم غريب

وهنا تظهر بفاع حذيفة وحسن تصرفه - قال فأسرعت وقلت
 لمن على يميني من أنت ؟ قال معارية بن أبي سفيان ، وقلت لمن
 على يساري من أنت ؟ قال عمرو بن العاص ، وسمعت أبا سفيان

(١) ذكر البيهقي فى دلائل النبوة (٢/ ٤١١) من حديث حذيفة « ان أبا سفيان حين أنه دخل
 معهم من غيرهم ، فقال يأخذ كل رجل منكم بيد جلسه فعبرت بيدي من الذى من
 يسبى فأحسب بيده ، ثم ضربت بيدي على الذى عن يساري فاحسب بيده ، (أخرجه
 الحاكم فى مستدركه ٢/ ٢١) وفى روايه أخرى ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٧١)
 وعراها لمحمد بن إسحاق « ان أبا سفيان قال يا معمر قرمش يسيطر كل امرئ من
 جلسه مال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى إلى حبي فقال من أنت ؟ فقال أنا
 فلان بن فلان ، ولم يذكر أمر معاوية ولا أمر عمرو بن العاص والله أعلم

يقول للقوم هلك الحف والحافر ، وليست الأرض دار مقام مهيا بنا ، وأنا أولكم ، وركب راحلته وهي معقوبة^(١) من شدة تسرعه قال حذيفة فهمت أن أقتله ، فأخرجت قوسي ووترتها ، وجعلت السهم في كندها ، لكنني تذكرت قول رسول الله « لا تحدث شيئاً حتى تأتيني » فلم أشأ أن أقتله ، فلما ذهبت إلى رسول الله وجدته يصلي ، فلما أحس بي فرج بين رجليه - وكان الحو شديد البرودة - فدخلت بين رجليه فنثر عليّ مِرْطَهُ ليدفئني ، فلما سلم قال لي ما خطبك فقصصت عليه قصتي^(٢)

وبعد أن جدد الحق سبحانه كلاً من معيم الأشجعي وحذيفة للبصرة الحق ، جاءت جنود أخرى لم يروها وكانت هذه الليلة باردة ، شديدة الرياح ، وهبت عاصفة اقتلعت خيامهم ، وكفأت دورهم وشرذمتهم ، ففرّ مَنْ بَقِيَ منهم

وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَكُنَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب] ﴿وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ..﴾ (٣١) [المدثر]

بعد أن ردّ الحق سبحانه كفار مكة بغيظهم ، وكفى المؤمنين القتال أراد أن يتحوّل إلى الحبهة الأخرى حذيفة سى قريظة فلما رجع رسول الله من الأحزاب لقيه حنبل عليه السلام فقال أوصعت لأمتك^(٣) يا محمد ، ولم تضع أملاكك لامتها للحرب ؟ اذهب فانصر لنفسك من ممي قريظة ، فقال رسول الله للقوم « من كان ساسماً

(١) عفل البعير قيده وربطه [لسان العرب - مادة عفل] يتصرف

(٢) ذكره السهمي في دلائل البصرة (٣ ٤٤٩) وانظر تفسير ابن كثير ، ٣ / ٤٧١

(٣) اللأمة الدرع وفيه السلاح ولأمة الحرب ونسبها وقال بعضهم اللأمة الدرع

الحصينة سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقها [لسان العرب - مادة لام]

مطيقاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة »^(١)

فاختلف الصحابة حول هذا الأمر ، منهم من نصاع له حرفياً ، وأسرع إلى بني قريظة يبوي صلاة العصر بها ، ومنهم من خاف أن يفوته وقت العصر فصلى ثم ذهب ، فلما احتتمعوا عند رسول الله أقرّ العربيين ، وصوبوا لرايين

وكانت هذه المسألة مرجعاً من مراجع الاجتهاد في الفكر الإسلامي ، والعصر حدث ، والحدث له زمان ، وله مكان ، فبعض الصحابة نظر إلى الزمان فرأى الشمس ترشك أن تغيب فصلى ، وبعضهم نظر إلى المكان فلم يصل إلا في بني قريظة لذلك أقر رسول الله هذا^(٢)

ويسعى على المسلم أن يحذر تأخير الصلاة عن وقتها لأن العصر مثلاً وقته حين يصير ظل كل شيء مثليه وينتهي بالمغرب ، وهذا لا يعنى أن تؤخر العصر لآخر وقته ، صحيح إن صليت آخر الوقت لا شيء عليك لكن من ضمن لك أن تعيش لآخر الوقت

إذن أنت لا تأثم إن صليت آخر الوقت لكن تأثم في آخر لحظة من حياتك حين يحصرك الموت وأنت لم تصل ، لذلك يقول سيدنا

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن حجر العسقلاني في شرحه للبخاري (فتح الباري ١ : ٨٧) من قول ابن مسعود وأصل الحديث عند البخاري في صحيحه (٤١١٩) من حديث ابن عمر

أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : « لا يصلين بعد العصر » في بني قريظة

(٢) حديث موقوف عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٤١١٩) وكذا مسلم في صحيحه

(١٧٧) كتاب الجهاد باب الميادرة بالغزو (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

وأما من بعض العلماء أدركه العصر في الطريق فقال بعضهم : « حتى حسي

بانيهم » وقال بعضهم : « يصل » ثم يؤد ما دلت فدرك ذلك للمسيح ﷺ قدم يدهما

واحداهما

رسول الله ﷺ « خير الأعمال الصلاة لوقتها »^(١) فليس معنى امتداد الوقت إباحة أن تؤخر .

وفي مسألة الأحزاب بطولة أخرى لسيدنا علي من أبي طالب رضي الله عنه ، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفار في الخديعة نقطة ضعيفة ، استطاعوا أن يجتروا على المسلمين منها ، وأن يقدموا منها حيوولهم ، فلما قذفوا بحيولهم إلى الناحية الأخرى فحالت الخيل في السبحة بين الضنق وجبل سلع ، ووقف واحد من الكفار وهو عمرو بن ود العامري^(٢) وهو يومئذ أشجع العرب وأقواها حتى عدوه في المحارك بألف فارس

وقف عمرو بن ود أمام معسكر المسلمين يقول وهو مشتهر سيفه من يارر ، فقال علي لرسول الله أنارره يا رسول الله ؟ قال ﷺ « اجلس يا علي . إنه عمرو » فأعاد عمرو أين جئكم التي وعدتم بها من قتل في هذا لسيل ؟ أحيوني

فقال علي أنارزه يا رسول الله ؟ قال « اجلس يا علي ، إبه عمرو » وفي الثالثة قال عمرو

وَلَقَدْ يُجِئْتُ مِنَ الدَّاءِ بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارَرٍ

(١) عن أبي مسعود قال سالت رسول الله ﷺ أي لأعمال أفضل ؟ قال الصلاة لوقتها قلت ثم أي ؟ قال ثم من الوالدن قلب ثم أي ؟ قال ثم للجهاد في سبيل الله حديثاً متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٨٢) وكذا مسلم في صحيحه (٨٥) كتاب الايمان

(٢) هو عمرو بن عبد ود ، مرشني من بني نؤي ، فارس قرش في الحافيه ، أدرك الإسلام ولم يسلم عاش إلى أن كاد وقعه الحمق لحضرها وقد تجاوز الثمانين وأصر على المداثة فقائله علي بن أبي طالب مقتله عام ٥ هـ محريه للأعلام للزركلي (٨١/٥)

وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الْمُشَجِّعُ مَوْقِفَ الْقُرْنِ لِمُنَاجِزٍ
إِنَّ الشُّجَاعَةَ فِي الْفَتَى وَالْجُودَ مِنْ خَيْرِ انْفِرَائِزٍ

عندها انتقص على رضى الله عنه وقال أنا له يا رسول الله ،
فأذن له رسول الله ، فأشار على عمرو ، وقال

لَا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَاكَ مَجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزٍ
ذُو نِيَّةٍ وَنَصِيصَةٍ وَالصَّدُوقُ مُنْجِي كُلِّ فَائِزٍ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَقِيمَ عَلَيْكَ نَائِحَةَ الْجَمَائِزِ
مِنْ صَرَبَةٍ نَجْلَاءَ^(١) يَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الْهَرَاهِزِ
أَيَ الْمَرُوبِ^(٢)

وكانت لسيدنا رسول الله درع سابغ اسماها ذات الفصول ،
بالبسها رسول الله علياً وأعطاه سيفه ذا الفقار وعمامته لسحاب ،
وكانت تسعة أكوار ، وخرج على رضى الله عنه لمبارزة عمرو بن
رد ، فضرب عمرو الدرقه^(٣) مشققاً مساحله على بضربة سيف على
عاتقه أردته قتيلاً ، فقال على ساعة وقع الله أكبر سمعه رسول الله
فقال : قُتِلَ عَدُو اللَّهِ ،

ثم حدث ربيعة العنبر^(٤) - وهو عبر الحرب - فحسنت المعركة .

(١) طعة مجلاء أي تسعة بيته المجر وسنن مجيب واسع الجرح ويطه بالرمح

طعمه وأوسع شفه [لسان العرب - مادة مجل]

(٢) ذكر هذه الأبيات في نحو هذا سياق أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة (٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩)

(٣) الدرقه : نوس يتخذ من الجلد ، ليس فيه حشب ولا عقب والجمع درق وأدراق ، قاله

ابن منظور في لسان العرب - مادة درق [

(٤) العنبر (بالثاء الساكنة) العنبر والمشيرف العرب حكاء سيبويه [لسان العرب

مادة عشر] راجع الحديث عند اسمعنى في دلائل النبوة ٣ ٤٣٩ - وثار العجاج

والعجاج العنبر وقيل هو من العنبر ما ثورته الريح

فذهب سيدنا عمر رضي الله عنه ليمر ما حدث ، فوجد علياً يمسح سيفه في درع عمرو بن و ، فقال الله اكبر ، فقال رسول الله « قُتل وأيم الله »

ومن الأخلاق الكريمة أتى سحبا سيدنا علي في هذه الصلوة أنه بعد أن قتل عمرواً سأل رسول الله ﷺ « ألا سلب درعه ، فإنه أفخر درع في العرب » فقال علي والله لقد سلبت سبأته ، فاستحييت أن أصنع ذلك^(١)

ثم أنشد رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، وهو يشير إلى عمرو^(٢)

نصر الحجارة^(٣) من سقافة رأيه ونصرت رب محمد بصوابي
قصدت حين تركته متجذلاً كالجذع بين دكاك^(٤) ودواي
وعففت عن أثوابه ولو أننى كنت المقسطر برئى أثوابي^(٥)

(١) السائل لعلي هو عمر بن الخطاب قيم أورده البيهقي في دلائل النبوة (٤٣٩/٣) أن عمر قال له « فلا استلبه درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها » فقال « خربتة يدقاسي بسوانه (أى جاسته) ، فاستحييت لبى عمى أن استلبه » فانه اعلم

(٢) ذكر ابن هشام هذه الاية في « اسيرة النبوة » (٢٣٥/٣) وعرفها لاي إسحاق ثم قال « وأكثر هل العلم بالشعر يشك فيها لعلي بن أبي طالب

(٣) المجارة (هنا) هي الأصعب والأصنام التي كانوا يعبدونها ويمنحون لها وقد ذكر البيهقي هذا البيت بلفظ آخر

هذه الحجارة من سقافة عقه وعجبت رب محمد بصواب

(٤) متجذلاً لاصفاً بالأرض والجذع فرع السلة والدكاك هو الرمح اللين والروابي جمع رابية وهي التكية المرتفعة

(٥) القطر الناهية وسحاب وطعه نقطه أى اللقاء على فطره أى جانبه [سائر العرب مادة قطر] والبر اسلب ، وير الشيء انثره [لسان العرب - مادة بر]

وفي هذه الواقعة قال سيدنا رسول الله ﷺ « لو لم يكن لك يا علي غيرها في الإسلام لكفنا »

بذلك قال العارفين بالله كان علياً رضي الله عنه حُسَد حين قتل عمرو بن ود ، فأصابته العين في نائه ، فقتل بسيف ابن ملجم ومن هنا قالوا أعر ضربة في الإسلام ضربة علي لعمر بن ود ، وأشام ضربة في الإسلام ضربة ابن ملجم علي

وفي المعركة بطولة أخرى لسيدنا سعد بن معاذ^(١) رضي الله عنه حيث يقول ضربني يوم الأحزاب حيّان بن قيس بن العرقة ، وقال حُدّها وأد ابن العرقة^(٢) - شملت عرق الله وجهك في النار ، فلمّا أصابني في أكحلي - والأكحل هو العرق الذي يضع فيه الحقنة ، ومنه يخرج دم الفصد والحجامة

فقلت اللهم إن كابت هذه آخر موقعة بيث وبين قريش فاحلني شهيداً ، وإن كنت تعلم أنهم يعودون فأبقني لأشفي نفسي معاً أخرج رسول الله وأذاه ، ولا تمنني حتى أشفي عيني من بني قريظة^(٣)

١ هو سعد بن معاذ بن النعمان الأوسي الأنصري ، صاحب من الأبطال ، من أهل المدينة كان له سيادة الأوس شهد بطلاً وأخيراً رمى بسهم يرم الحديق فمات من أثر جرحه عام ٥ هـ ، كان عمره سبعة وثلاثين عاماً (الأعلام للزركلي ١٨٨/٢)

٢ عرفته في ناله بيت سعد بن سهم وبكى م عظمه وسميت العرقه لطيب ريحها وهي جذة خديجة أم مها هالة (راجع الروض الانف للسهيلي)

٣) ذكره بن هشام في السيرة النبوية (٢٢٦/٢) ، والبيهقي في دلائل نبوه (١٤٩/٣) وسية بصفه انهم وإن كذب قد وصفت الحرب بيننا وبينهم حاجله من شهادته ولا تمنني حتى تفر عيني من بني قريظة ،

وقد كان . فبعد أن مكث الأحزاب وبنو فريضة قرايه خمسة وعشرين يوماً دون قتال ، وانتهى الأمر بالمفاوضات احتار سيدنا رسول الله سعد بن معاذ ليكون حكماً في هذه المسألة . فحكم سعد بقتل المقاتلين منهم . وأسر الذراري والنساء والأموال ، فلم يلب هذا الحكم رسول الله ﷺ قال : « لقد حكمت فيهم حكم ربك من فوق سبع سموات »^(١)

ثم ثار الحصر على سيدنا سعد حتى مات به ، فحملوه إلى حيمة رسول الله ﷺ فمات به . وجاءت الملائكة تقول رسول الله ﷺ من هذا الذي مات . وقد امتزأ له عرش الرحمن . قال : « إني بسعد بن معاذ »^(٢)

وقد قال تعالى ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (٣٦) [الأحزاب]
وفي قوله تعالى ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُورُهَا ﴾ (٤٧) [الأحزاب] إشارة للمسلمين بأن البلاد ستفتح لهم دون قتال وهذا حال جمهرة البلاد

(١) عن أبي سعيد الخدري أن أناساً دخلوا على حكم سعد بن معاذ فأرسل إليه فجاء على حمار ، فلما بلغ قريباً من المسجد قال النبي ﷺ : « قوموا إلى خيركم - أي سيدكم - فقال يا سعد بن هؤلاء - مرلوا على حكمك - قال : « بئس الحكم فيهم أن يقتل مقاتلتهم وتُأسر ذراريهم فقال ﷺ : « حكمنا بحكم الله أو حكم الناس » خرجوا البعاري من مسلميهم (٣٨ ٤)

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢ ٧ ٤) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك بن سعد ، عاش بقدومه أصابته سهم نحو من شهر حتى حكم في بني فريضة بأمر رسول الله ﷺ ورجع إلى مدية رسول الله ﷺ ثم أصبح كلفه (خرجته) سعد ، فلما قُتل خير بني رسول الله ﷺ قال : « من هذا الذي قُتل » أبو - سناء - وأسير له عرش الرحمن فخرج النبي ﷺ إلى سعد فوجدته قد مات . فقال : « من حفر في الفتح » (١٢٤ ٧) الصادق بإهداء العرش استبشاره بمنزلة بقدوم روحه

التي دخلها الإسلام فعالية هذه البلاد فتحت بالأسوة السلوكية للمسلمين آنذاك ، وذلك نستطيع أن مردُّ على من يقول إن الإسلام انتشر بحدُّ السيف

وإذا كان الإسلام انتشر بحدُّ السيف ، فأى سيف حمل المسلمين الأوائل على الإسلام وكانوا من ضعاف اقوم لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم ، إنى لا شيء إلا قدوة لسلوك التي حملت كل هؤلاء على الإيمان

وسبق أن ذكرنا أن عمر - رضى الله عنه - وما أدراك ما عمر قرة وصلاة يقول حين سمع قول الله تعالى ﴿ سِيَهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدِّينَ ﴾ (٥٥) ﴿ [القمر]

قال أى جمع هذا ، ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ، مما يراه من ضعف المسلمين وبطش الكافرين^١

ثم لو امتشر الإسلام بالسيف لأصبح سكان البلاد التي دخلها الإسلام كلهم مسلمين ، ولما كانت للجزية وجود في الفقه الإسلامى ، إنى بقاء الحرية على من لم يؤمن دليل على نضال هذه المفولة ودليل على عدم الإكراه فى الدين فالفتح الإسلامى كفر حرية العقيدة ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (٢٩) ﴿ [الكهف] وعليه الحرية ليث مال المسلمين مقابل ما تقدمه الدولة ليه من خدمات

فالحرية لتي تتحدونها سعة فى الإسلام دين على أن الإسلام

() ورد فى كثير من تفسيره وعراه لآل منى حاتم (٢ ٦ ٤) عن عمره قال : « ما برحت

« سيهم الجمع ويرون الدين » (٥٥) ﴿ [القمر] قال عمر : « جمع يهزم » و جمع نهد » قال

عمر : « ما كل يوم نهد » و « رسول الله ﷺ يد » فى الد » وهو يفرد » سيهم الجمع

ريولون لهدر » فمررت يومئذ تأويها

أفركم على دينكم ، إنما حمل السيف كان فقط لحماية الاختيار في الدعوة ، فإنما سأعرض الإسلام على الناس ، ومن حقى أن أقاتل من يعارضنى بالسلاح من حقى أن أعرض الإسلام كمبدأ ، فمن أس به فعلى العين والرأس ، ومن لم يؤمن فليبق فى دمنا

ثم يعلنا الحق سبحانه إلى بيوت أزواج النبى ﷺ فيقول سبحانه^١

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَا أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ﴾ (٤٨)

لسائل أن يسأل ما سر هذه النفقة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بنى قريظة إلى هذا التوجيه لأزواجه ﷺ ؟

قالوا لأن مسألة الأحزاب انتهت بقوله تعالى ﴿وَأُورثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطغوه﴾ (٤٧) ﴿[الأحرار] وربما طلست زوجات الرسول أن يتبعهن ويسبق عليهن مما يفتح الله عليه من خيرات هذه البلاد ، فحادث هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ (٤٨) [الأحرار] لتقرر أن الإسلام ما جاء ليحقق مرية لرسول الله ولا لآل رسول الله ، حتى الركاه لا تصح لاحد من فقراء بنى هاشم

لكن محى الآية هكذا بصيغة الأمر ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ﴾ (٤٩) [الأحرار] دليل على حدوث شيء منى يدل على بطلانهم إلى ربة الحياه ومنعها وقد روى عن عمر - رضى الله عنه

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٧ ٥٤٢٢) ، قال علماء : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إبداء النبى ﷺ ، وكس قد نادى ببعض الرواحل قبل سألته شيب من عرض بنينا ومير رادة فى لعنة وقير ، فيه يديره بعض على بعض

أنهن اجتمعن يسألن رسول الله النعمة وأن يؤسّع عليهن بعد أن قال
ﷺ عن الكفار أن يعرفوا ، بل يعرفهم ، وبعد أن بشرتهم الآيات
بما سيفتح من أرض جديدة

وقوله تعالى ﴿فَتَعَالَى أُمْتَعُكُمْ وَأَسْرَحُكُمْ سَوَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨)
[الاحزاب] يعنى ليس عدى ما تتصّلن إليه من ربّنه الدنيا وزخرفها .
ومعنى ﴿فَتَعَالَى ..﴾ (٢٨) [الاحزاب] نقول تعالّى يعنى اقبلن ،
لكها هذا بمعنى ارتفعن من اعلو ، ارتفعن عن مناهج البشر
والارض ، ورتقين إلى مباحج حلق البشر ، وخالق الارض لأن
السيادة في منهج الله ، لا في متّح الحياة وزخرفها

وقد ورد هذا المعنى أيضا في قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا
حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (٢٠١) [الاسم] فتعالوا أى ارتفعوا عن قوانين
البشر وقوانين الارض إلى قوانين السماء ، لأنه يشترط ميمص يصع
القانون ألا يفيد من هذا القانون ، وأن يكون ملما بكل الجوريات التي
تعرض لها القانون والبشر مهما بلغت قدرتهم ، فإنهم يعلمون شيئا
ويجهلون آخر ، لذلك لا ينبغي أن يفتن لهم إلا حاقهم عز وجل

ومعنى ﴿أُمْتَعُكُمْ﴾ (٢٨) [الاحزاب] أى أعطيكم المنفعة الشرعة
التي تُفرض للروحنة عند مفارقة روحها والتي قال الله فيها

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (١١٩٠ ، ٤١١٠) ، وأحمد في مسنده (٢٦٢/٤) من
حديث سليمان بن صرد رضى الله عنه ، وفي الرواية الثانية عند البخارى ، من مسير
اليهم . قال ابن حجر في الفتح (٤٥/٧) . فيه علم من اعلام النبوة ، فإنه ﷺ اسمر
في السنة المعيلة فصدت فريضة من البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها ، مكل ذلك
سبب فتح مكة . فوقع الامر كما قال ﷺ .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٩٧/١) . قد مر من هذه الآية من ذهب من العلماء إلى
وجوب المنفعة بكل مطلقة سواء كانت مفروضة أو مفروضا لها أو مطلقة قبل العيسس أن
مدحولا بها ، وهو قول عن الضالفي رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من
السلف واحتراره ابن جرير .

﴿وَالْمُطَلَّقاتُ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقٌّ عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤٦) [البقرة]

وقوله ﴿رَأْسُ حَكْمٍ ..﴾ (٢٤٨) [الاحزاب] التفسير هنا يعنى الطلاق
﴿سراحاً جميلاً﴾ (٢٤٨) [الاحزاب] ذلك يدُلُّ على أن المفارقة بين الزوجين
إن تمت إنما تتم بالجمال أى اللطف والرفقة والرحمة بدون بشاعة
وبدون عنف ، لأن التفسير في ذاته مفارقة مؤلمة ، فلا يحجم الله
عليها شدتين شدة الطلاق ، وشدة العنف والقسوة

ولك أن تلاحظ أن لفظ الجمال يأتي في القرآن مع الأمور الصعبة
انتى تحتاج شدة ، وقرأ قوله تعالى ﴿عَصْرٌ جَمِيلٌ﴾ (٨٢) [يوسف]
والصبر يكون جميلاً حين لا يصاحبه ضجر ، أو شكوى ، أو خروج
عن حد الاعتدال

ورسول الله ﷺ يعرض على زوجاته التفسير الجميل الذي
لا مشاحة فيه ولا خصومة إن اخترنهُ بأنفسهن ، وما كن رسول الله
ليمسك روجة اختارت عليه أمراً آخر مهما كان

والعلماء كلام طويل في هذه المسألة هل يقع الطلاق بهذا
التحجير ؟ قالوا التحجير لو أن من حب لمفارقة الذي يعطى لمرأة ..
كم يقول مثلاً العصمة هي يدها - فهي إن تَخَّار لنفسها ، فإن
قلت الحصار الأول ومع الصلاق وإن اختارت الآخر فيها وبعت
وانتهت المسألة^(١)

(١) قال الشافعي التحجير كناية فإنما خبر الزوج امرأته وأراد بذلك تحجيرها بين أن تطلق
منه وبين أن يسهر في عصمته فاختارت نفسها وأرادت بذلك الطلاق طلقت فهو قاتل
ثم رد باختيار نفسى الصلاق ، حدثت وقال اللوطي في المفهم فقال في الحديث إن
المسيء إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقاً من غير احتياج إلى تعليق لفظ
يدل على الطلاق أما إذا لم يدر حجب أو لا فقال من الظاهر من الآية أن ذلك
محصونه لا يكون طلاقاً بل لابد من أن الزوج الطلاق لأن فيها "لنعلم أن المتكلم
واسر حكمة" (٢٤٦) [الاحزاب] أى بعد الإحصار [سير الاوطار للشوكاني ٢/٦٢٤]

وأمرُ الله لرسوله أن يقول لزوجته هذا الكلام لا بُدَّ أن يكون به
رصيد من حواظر خطرتُ على زوجاته ﷺ لما رأينَ الإسلامَ تَفْتَحُ له
البلاءَ ، وتُجِبِي إليه الخيراتُ ، فتصلُعنَ إلى شيء من النفقة .

وكلمة الأرواح جمع زوج ، وتُقَال للرجل والمرأة ، والروح
لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الروح يعنى الفرد الذى معه
مثله من جسده ، ومثله تماماً كلمة التوأم ، فهى تعنى (واحد) لكن
معه مثله ، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ ومن كل شيء جلفاً
زوجي . (٤٩) ﴾ [الذاريات] يعنى ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ،
والأنثى وحده زوج وهذه القسمة موجودة فى كل المخلوقات
وتُجمع زوج أيضاً على زوجات

ونلاحظ فى الأسلوب هنا أن الحق سبحانه حين يعرض فى
رسوله أن يُحِبُّ زوجاته بين ربة الدماء وبعيم الأحرار يستخدم
(إن) الدالة على الشك ولا يستخدم مثلاً ، إذا (الدالة على
الحقيق ، وفى هذا إشارة إلى عدم المبالغة فى اتهامهن ، فالأمر
لا يعدو أن يكون حواظر حالتُ فى أذهان بعض زوجاته

وتعلمون أن سيد رسول الله جمع من النساء تسعاً معاً ، منهن
حمسٌ من قريش ، وهُنَّ عائشة ، وحفصة ، وسم حبيبة وسودة
بنى سعة ، وأم سلمة ابنة أبى سلمة ومن غير قريش صفية بنت
حبشى من أخطب الذى ذكرنا قصته فى الأحزاب ثم حويرة بنت
الحارث من بنى المصطلق ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية - ومن
ذهب عند التعيين وجد هناك ثمر ميمونة ، ثم ربيب بنت جحش من
بنى أسد ، هؤلاء هُنَّ أمهات المؤمنين النسعة اللائى جمعهن رسول
الله معاً

فلما سأل رسول الله البقرة كانت أجراً من في ذلك السيدة حفصة بنت عمر ، وقد حدث بينها وبين رسول الله مشادة في الكلام ، فقال لها « ألا تحبين أن أستدعي رجلاً بيننا » فوافقت ، فأرسل إلى عمر فلم جاء لها رسول الله تكلم أنت - يعنى اعرضى حاجتك - فقامت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً

أثارت هذه الكلمة حفيظة سيدنا عمر فهاج وقام إلى ابنه فوجأها فحجره رسول الله فتتارلها ثمانية فوجأها ثم قال لها إن رسول الله لا يقول إلا حقاً ، والله لولا أنا في مجلسه ما تركت حتى تموتى فقام رسول الله من المجلس ليفص هذا النزاع وذهب إلى حجرته ، واعتكف بها وقاطع الأمر كله مدة شهر^(١)

ونأمل قول الله تعالى ﴿ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. ﴾ (٢٨) [الاحزاب] فإني وصف أحقر ، وأقل لهذه الحياة من أنها دنيا ، وما فيها من منم إنما هي رينة ، يعنى ترف في المصهر ، لا في الجوهر ، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وِرْثَةٌ وَنَحْنُ نَكْثَرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (٣٠) [الحديد]

ثم نعرض رسول الله على زوجته اخيار الثاني المقابل للحياة الدنيا

﴿ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ ﴾
﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أََعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٩)

المتأمل حاسب التحبير هنا يجد أن المقارنة بينهما أمر صعب يوحى

(١) هذا الأمر احتفظت به الروايات فبعضها يورد هذا في حق عائشة وأبيها أنكر وبعضها الآخر في حق حفصة وأبيها عمر أما الأول فقد أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧٩ ١) وابن الأثير في إخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٦٨) ص ١١١١ ج ١ طبع
ومحور من الواقعة قد تكررت والله تعالى اعلم

يرمض التحيير بين طرفي هذه المسألة ، فمن يقبل أن تكون له حياة دنيا مقابل الله ، وأن تكون له ريبته مقبل رسول الله ثم رد على ذلك الدار الآخرة التي لم يُذكر قبالتها شيء في الجانب الآخر ، ثم إن الحياة الدنيا التي يعيشها حتى لو لم تُوصف بأنها دنيا كان يجب أن يُزهد فيها والحق أسهل فهم من هذا النص واحترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ومن يرضى بها بديلاً والحمد لله

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ (٣٥) [الأحزاب]

ثم يأتي جزاء من احترن الله ورسوله والدار الآخرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مَكْنَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٦) [الأحزاب] المحسنة هي الروح التي تعطى من الرحمة والمودة الروحية فوق ما طُلب منها

﴿ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنْكُنْ بِفَحِشَةٍ
مُّبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٣٧)

الحق - سبحانه وتعالى - بعد أن حير روجات النبي ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة أراد سبحانه أن يعطيهم المهنج والمبارىء التي سسررن عنيها في حياتهن ونلحظ أن آية التحيير كانت من كلام النبي عن ربه ، أما هنا فالكلام من الله مباشرة لنساء النبي

﴿ يَنْسَاءُ نِسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْتِيَهُنَّ مِنْكُمْ فِي فَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ لَّهُنَّ الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ (٣٨) [الأحزاب] فيما احترن الله ورسوله والدار الآخرة كدبرن رفقن إلى مسوئ الحطاب المباشر من الله تعالى كأنهن حققن إمراد من الأمر السابق ﴿ فعائين ﴾ (٣٨) [الأحزاب]

كلمة ﴿ نِسَاءُ ﴾ (٣٨) [الأحزاب] نعلم أنها جمع ، لكن لا تحد بها

مفرداً من لفصها ، إنما مفردها من لفظ آخر هو امرأة^(١) ، وفي اللغة حموع تُعُوسى مفردها بشهرة مفرد آخر رُقْ أو أسهل في الاستعمال ، وامرأة أو (مرة) يصح أيضاً من (امرؤ)^(٢) ، وهذه اللفظة تختلف عن الفاظ اللغة كلها بأن حركة الإعراب فيها لا تقتصر على الحرف الأخير إنما تمتد أيضاً إلى الحرف قبل الأخير فنقول قال امرؤ القيس وسمعت امرأة القيس وقرأت لامرئ القيس

وبعض الباحثين في اللغة قال إن (نساء) من النساء والتأخير ، على اعتبار أن خلقها جاء متأخراً عن خلق الرجل ، ومفردا إذن (نَسَاءً) وإن كان هذا ثكلاً لا داعي له

وبعد هذا النداء ﴿ يَنْسَاءُ إِلَهِي ﴾ [الأحرار] يأتي الحكم الأول من المنهج الموجّه إليهم ﴿ مَسْ يَاتْ مَكْنُ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ يَضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ صَغْفِيرٌ .. ﴾ [الأحرار] بلحظ أن الحق سبحانه لم يبدأ الكلام مع نساء النبي بقوله مثلاً مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ مَكُنْ إنما بدأ بالتحذير من إتيان الفاحشة لأن القاعدة الشرعية في التفتين والإصلاح تقوم على أن ، درء المفسدة مُقَدِّمٌ على حُبِّ المصلحة ، كما ننا قبل أن نتوضاً للصلاة نريّ أنفسنا من انتجاسة

ومَحْنُنا لذلك وَقُلْنَا هَبْ أَنْ وَاحِدًا رَمَاكَ بِنَفَاحَةٍ وآخر رمان حجير ، فأيهما أولى باهتمامك ؟ لا شك أنك تحوص أولاً على ردّ الحجير والنجاة من أذى وكذلك لو أردت أن تكوي ثوبك مثلاً وهو مُتَسَخٌّ ، لا بُدَّ أن تعسكه أولاً

(١) قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة نسا] : النساء والنسوان والنسوان

جميع المرأة من غير لفظه وقال ابن سيده : والنساء جمع نسوة إذا كثر .

(٢) قال البيهقي امرأة تانيث امرئ . ومن ابن الأنباري : طعرب في امرأة ثلاث لغات ، يقال

هي امراته ، وهي مرأته وهي مرة [لسان العرب - مادة مرا]

لذلك بدأ الحق سبحانه الوجهه لنساء النبي بقوله ﴿ مِنْ يَأْتِ مَكْرًا بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ۖ ﴾ (٦٥) [الأحراب] لكن الفاحشة أمر مستبعد ، فكيف يتوقع منتهى الذنوب من نساء رسول الله ؟ قالوا وبم لا ، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله ﴿ لَنْ أَشْرَكَ بِحَبْطِ عَمَلِكِ ﴾ (٦٥) [المرم]

ومعلوم أن رسول الله ليس مظنة الوقوع في الشرك ، إذن فالمعنى يا محمد ليس اصطفاؤك يعني أنك فوق المحاسبة كذلك الحال بالنسبة لنسائه إِنْ فَعَلْتَ إِحْدَاكَنْ فَاحِشَةً ، فسوف نضاعف لها العذاب ولن نستتر عليها لمكانتها من رسول الله ، فإيكن أن تظن أن هذه المكانية ستنشع لكن ، وإلا دخلت المسألة في نطاق إذا سرق الوصي أقموا عليه الحد وإذا سرق الشريف تركوه^١

إذن - منزلة الواحدة منكن ليست في كونها مجرد زوجة لرسول الله ، إنما مبريتها بمدى التزامها بأوامر الله ، وإلا فهناك زوجات للرسول هنّ أرواحهن وأهرا ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَحَبَّتَاهُمَا فَلَمْ يَغُيْبْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا الْبَارِعَ اذْخُلِينَ ﴾ (٦٦) [التحریم]

(١) حيث صنف عليه المرحوم البخاري في صحيحه (١٦٨٨) ، وقد قسم في صحيحه (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، إنما سئل من كان ، فلكم أمهم كتابه ، إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف منهم قاموا عليه الحد ، وإيم الله أن من فاحشه بعد محمد ، رد - فضع محمد مدها

(٢) من أين كثير في تفسيره (٢١٣١) : « من المراد بقوله (فحاشاهما) من فاحشه بل في الدين ، فمن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشه لحرمة الأنبياء - قال من عدس ما رثنا أنها حسنة امرأة نوح فكانت تحرم ابنه هودون - وأما حسنة امرأة لوط فكانت بد - مومها على أصيابه

ولك ان تسأل هذا حكم الفاحشة المبيّنة ، أن يُصاعف بها العذاب ، فما نال لفاحشة منهنّ ن كانت غير مُنيّبه ؟

قالو هذا الحكم خاصّ بفساد النبي ﷺ ، فإن حدث من إحداهن ذنب بينها وبين نفسها فهو ذنب واحد مقصور عليها ، وإن كان علانية فهو مُصاعف . لأنهم أسوة وقدره يطلع العيون إلى سلوكهن ، فإن ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعاً للأحرىات ، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبي

فمضاعفة العذاب - ذن - لأن لفساد تعدّي الدات إلى الآخرين ، وأحدث قدوة سوء في بيت النبي ﷺ فاستحققت مضاعفة العذاب ، لأنها أدّت شعور رسول الله - ولم تُقدّر منزلته وفصلت عليه غيره لتأتي معه الفاحشة ، وهذا يستوجب أصعاف العذاب ، فإنّ ضاعف لها الله أعباد ضعفين فحسب ، فهو رفق بها ومراعاة لماضيها في روجية رسول الله

كذلك إن فعلت إحداهن حسنة فلها أحرف أيضاً مُضاعف ، لأنها فعبت صالحاً في ذاتها كأيّ إسامة أحرى ، ثم أعطت قدره حسنة . وأُسوة طيبة لغيرها

قال أحدنا في الاعتبار حديث النبي ﷺ « من سن سنة حسنة ، فله أحرها وأجر من عمل بها لي يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لي يوم القيامة »

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/١ - ٢٦٦) ابن ماجه في سننه (٢٧)

واسنن في سننه (٢٦٧٥) ابن جرير في مسنده في فضل الموصي - حديث حسن

عَمَّا أَنْ أَجَرَ احْسَنَهُ لَا يُضَاعَفُ فَقَطْ مَرَّتَيْنِ ، إِنَّمَا بَعْدُ مَا أَثَرَتْ
فِيهِ الْأَسْوَةُ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الضَّعْفِ وَالصُّعْفِ الصُّعْفُ ضَعْفُ الشَّيْءِ
بِأَمْلِهِ ، أَمَّا الضَّعْفُ فَهُوَ فَقْدُ هَذَا الْمَثَلِ ، فَهُوَ أَقْلٌ

فَقُولْ ﴿وَإِنْ تَعَفَّرْ بِهِمْ﴾ (١٨) [المائدة] يقتضى أن يقول فبك
غفور رحيم . لكن الحق سبحانه علل إلى ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
(١٨) [المائدة] لأن الذنب الذى وقع فيه القوم ذنب فى القعة ، فى
الالهية التى أحدها من الله وجعلوها لعيسى عليه السلام ، وهذا
بمقتضى العقل يستوجب العذاب الشديد ، لكن الحق سبحانه لا يسأل
عما يعمل ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ . إِنْ غَفَرَ بِهِمْ فَبِصَفَةِ
العزة التى لا يعارضها أحد ، فكان المظن أن يسأل الله لماذا لم
تُعَذِّبْ هؤلاء على ما ارتكبوه ؟ لذلك دخر هنا من ناحية العزة ، التى
لا تُعَارَضُ . والحكمة التى لا تحصى

وبعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة الفحشة ، وما يترتب عليها
من عقاب ذكر سبحانه المقابل ، فقال تعالى

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ
وَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٣٦﴾

معنى ﴿يَقْنُتْ﴾ .. (٣٦) [الأحزاب] أى يحصع لله تعالى الخضوع
الدام ، وبحشع ويتدلل لله فى دعائه ، واحتر الحق سبحانه القنوت ،
لأنه سبحانه لا يحب من الطائع أن يدل على الناس بطاعته ، لذلك
يقول انصارفور رَبِّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثْتُ ذُلًّا وَامْكَسَرْتُ خَيْرٌ مِنْ طَاعَةِ
أَوْرَثْتُ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا^١

(١) هذه الحكمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى (مختصر شاذلى من العطاء تروى ٩ ٧
هـ) . فقد ذكر عبد الله كسحل هذه الحكمة لاس عطاء الله فى كتابه « ديو العبير
الدسوقي » طبعة دار الشعب - ص ٧٦

أو ﴿وَمَنْ يَقْتُ﴾ (٣٠) [الاحزاب] أى بالبحر فى الصلاح ، وبالبحر فى الورع حتى ذهب إلى الموت ، وهو الحضور والحضور .

والنتيجة ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ (٣١) [الاحزاب] الآية السابقة تقرر مضاعفة العذاب لمن تاتى بالعاقبة وهذه تقرر مضاعفة لأجر لمن تخضع لله وتخضع وتعمل صالحاً

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣٢) [الاحزاب] أى أعددناه وجهزناه لها من الآن ، فهو ينتظرها

وحسين تمام الأسلوب القرآنى فى هاتين الآيتين تطالعك عظمة الأبناء ، فحين ذكر الفحشة ومضاعفة العذاب جاء الفعل ﴿يُضَاعَفُ﴾ (٣٠) [الاحزاب] مبنياً لما لم يُسم فاعله ، أما فى الكلام عن الثبوت لله فقال ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا﴾ (٣١) [الاحزاب] فجاء الفعل مُسْتِثْنِياً إلى الحق سبحانه مباشرة ، وكان الحق سبحانه لم يُرد أن يواجه بدياته فى مقام العذاب ، إنما واحه بالعذاب فقط

ومجرد بناء الفعل ﴿يُضَاعَفُ﴾ (٣٠) [الاحزاب] للمجهول يدل على رحمة الله وتُطْفِئُ فى العبادة ، فالحق سبحانه يحب خلقه جميعاً ، ويتحبب ويتودد إليهم ، ويرجو من العاصي أن يرجع ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن أكثر من فرح أحكم حين يجد راحلته وقد صلت منه فى فلاة^(١)

وجاء فى لائى : يا ابن آدم ، لا تصاحب من دى سلطان ما دام سلطانى باقياً وسلطانى لا يبعد أبداً يا ابن آدم لا تحش من ضيق الرزق وحزائى ملأته وخزائى لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم خلقتك

(١) امرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنه

للعبداء فلا تلعب - والمراد باللعب العمل انذى لا جدوى منه -
وقسمت لك رزقك فلا تتعب »

والمراد هنا لا تتعب ، ولا تشغل قلبك ، فالتعب يكون للعوارح
كم جاء في الحديث النبوي الشريف « مَنْ بَاتَ كَالْأَمْرِ مِنْ عَمَلٍ يَدُهُ
بَاتَ مَعْفُورًا بِهِ ^(١) » ولم يأتِ رسول الله ﷺ يَدَا حَشَنَةً مِنَ الْعَمَلِ
قَالَ « هَذِهِ يَدَا صَبَاحَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(٢) »

فالتعب تعب القلب ، فأنشئ الذي يطيقه صدرك ، وتقدر على
تحمله لا يتعبك ، لذلك نجد حالي الصدر من الهموم يعمل في الصخر
وهو هاسئ البال ، يغنى بحداء جميل ونشيد رائع يُقَوِّى عَزِيمَتَهُ
وبعينة على المواصله ، فتراه مع هذا المجهود فرحاً مشرّح الصبر

وقد صوّن الشاعر العربي لهذه المسألة فقال

نَيْسَ بِحَمْلٍ مَا أَطَاقَ الظُّهْرُ مَا الْحَمْلُ إِلَّا مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

فامعنى أتعب حوارحك ، لكن لا تُتعب قلبك ، والكلى والتعب
لا يأتي على الجوارح إنما على القلب ، فأتعب حوارحك في العمل
الجاد النافع الذي تأخذ من ثمرته على قدر حاجتك ، وتقيص بالباقي
على غير القادرين

(١) ورد في السيوطي بهذا اللفظ في « الدرر المنتثرة » [حديث ١] من حديث أبي هريرة
وعنه لابن عساکر وأوردته الهيتمي في « مجمع الزوائد » ، [٦٢] من حديث أبي
عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « مَنْ أَمْسَى إِلَّا مِنْ عَمَلٍ يَدُهُ مَعْفُورًا بِهِ »
وقال « رَوَاهُ تَهْمِيذِي فِي الْأَوْسَطِ وَفِيهِ جَدَاعَةٌ لَمْ أَعْرِفْهُم » قال الحافظ العراقي في
مخرجه لأحاديث الإحياء [٢ - ٩] « فِيهِ ضَعْفٌ »

(٢) ما روى في هذا أن رسول الله ﷺ قال « مَا أَكَلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ خَبِثًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ
يَدُهُ » وان ميراث داود عليه السلام كان يأكل من « عَمَلِ يَدِهِ » أخرجه البحار في صحيحه

[٢٧٢] من حديث المصنف بن معيكر

ثم يقول « فَإِنَّ أَنْتَ رَصِيتَ بِمَا قَسَمْتُهْ لَكَ أَرَحْتُ قَلْبَكَ وَبَدَنَكَ ، وَكُنْتُ عِنْدِي مُحْمَرًا . وَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَرْمَسْ بِمَا قَسَمْتُهْ لَكَ مَوْعِزَتِي وَجَلَالِي لِأَسْطَرٍّ عَلَيْكَ الدُّنْيَا تَرْكُصُ فِيهَا رُكُصَ الْوَحْشِ فِي الْبَرِيَّةِ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ مِنْهَا إِلَّا مَا قَسَمْتُهْ لَكَ ، وَكُنْتُ عِنْدِي مَذْمُومًا ، يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ أُعْزِ بِخَلْقِهِنَّ أُيْعِيْنِي رَعِيْمًا أَسْوَقهْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ ، لَا تَطَالُبْنِي بِرِزْقِ عَدَدِ كَمَا لَمْ أَطَالِبْكَ بِعَمَلِ عَدَدٍ ، يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا لَمْ أَتَسَّ مِنْ عَصَايَ فَكَيْفَ مَعْنَى أَطَاعَنِي » .

وشاهدنا هنا قوله تعالى في آخر الحديث القدسي « يَا ابْنَ آدَمَ ، أَنَا لَكَ مُحِبٌّ فَحَقِّي عَلَيْكَ كُنْ لِي مُحِبًّا »^(١)

مُحِبُّكَ يظهر لك بذاته في مقام الحير وجلب النفع بك ، أما في أشرف فيشير إليك من بعيد ، وبفت نظرك برفق

كما يلحظ في أسلوب الآية قوله تعالى - والخطاب لِسَاءِ النَّبِيِّ ﴿وَمَنْ يَفْتَسِكُنْ﴾ . (٣١) [الأحراب] ولم يقل تقنت ثم أتت الفاعل في ﴿وَنَعْمَلْ صَالِحًا﴾ .. (٣٢) [الأحراب] فمرة يراعى اللفظ ، ومرة يراعى المعنى ، وسبق أن قلنا إن (مَنْ) اسم موصول يأتي للمفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث

ويقف أبصار هذا عبد وصف الرزق بأنه كريم ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُ رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣١) [الأحراب] قلت إن الرزق كل ما يُنتفع به من مأكَل أو مشرب ، أو ملبس ، أو مسكن ، أو مرافق ، وقد يأتي في صورة معنوية كالعلم والحلم إلخ ، وهذا الرزق في الدنيا لا يُوصف بأنه

(١) عر بالامر فهو عي وعي عجز عليه ولم يطو بحكمه [لسان العرب - مادة عيا

(٢) بورد هذه نقطة من الآثار الإمام أبو حامد الغزالي في « إحياء علوم الدين » ٢٩٦/٤]

قال « من نفس الكتب عبيد ما وجَّهَكَ لَكَ مُحِبٌّ فَحَقِّي عَلَيْكَ كُنْ لِي مُحِبًّا

كريم ، إنما الكريم هو الرازق سبحانه ، فلماذا وصف الرزق بأنه كريم ؟

قالوا مَرَقٌ بين الرزق في الدنيا والرزق في الآخرة ، الرزق في الدنيا له أسباب فالسبب هو الرازق من والد أو كآل أو آحير أو آآحر إلخ فالذي يجرى لك الرزق على يديه هو الذي يوصف بالكرم ، أما في الآخرة فالرزق يأتيك بلا أسباب ، فأناسب أن يوصف هو نفسه بأنه كريم ، ثم فيها ملحظ آحر إذا كان الرزق يوصف بالكرم ، فما مال الرازق الحقبي سبحانه ؟

ثم يقول الحق سبحانه

﴿يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتُ مِنْ اَلنِّسَاءِ
اِنْ اَتَقَبَّحْتُمْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي
فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٣٢)

كلمة (أحد) نستخدم في اللغة عدة استخدامات ، نقول مثلاً في لعدد أحد عشر إن كان المعدود مذكراً ، وأحدى عشرة إن كان المعدود مؤنثاً ، أما في حالة النفي فلا تستعمل إلا بصيغة واحدة (أحد) ، وبدل على المعرف والعشى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فتقول ما عندي أحد ، لا رجل ولا امرأة ولا رجلان ولا امرأتان ، ولا رجال ولا نساء ، لك جاء قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١)

وقوله سبحانه ﴿لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (٣٢) [الاحزاب] هذه خصوصية له ، لأن الأشياء تمثل احساساً وتحت الجنس النوع

والإنسان مثلاً جسد ، منه ذكر ومنه أنثى وكل نوع منهما تحته أفراد . والذكر والأنثى لم يفترقا إلى نوعين بعد أن كان جسماً واحداً ، إلا لاختلاف نشأتهما بعد اتفاق في الجسد فالجسد حَدٌّ مُشْتَرَكٌ حتى ياتق مظهر ، فلما افترقا إلى نوعين صار لكل منهما خصوصيته التي تُمَيِّزُهُ عن الآخر .

كما هنا في الزمن مثلاً ، فهو ظرف للأحداث ، فمن كانت أحداث حركة فهي النهار وإن كانت أحداث سكون فهي الليل ، فالليل والنهار نوعان تحت جسد واحد هو الزمن ، ولكل منهما خصوصيته ، وعلينا أن نراعى هذه الخصوصية فلا نخلط بينهما .

وتأمل قول الله تعالى ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ والنهار إذا تَحَلَّى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) [الليل]

فالليل والنهار متقابلان متكاملان لا متضادان ، كذلك الذكر والأنثى ولكل دوره ومهمته الخاصة ، فإن حاولت أن تجعل الليل نهاراً ، أو لذكر أنثى أو العكس فقد خالفت هذه الطبيعة التي اختارها الخالق سبحانه .

وحكيئذا قصه الرجل الذي مرَّ على عمدة القرية فوجده مصرّب عفيراً عنده فداهع من العفير وقال للعمدة لماذا تصرّبه يا عم إبراهيم ؟ قال مصرّبٌ عليه ووجدته نائماً ، فقال الرجل نام لآله قضى لنهار يروى لك أركبك ، ومنْ يحرث لا يحرس .

إذن تحت لجنس النوع ، وهذا النوع غيبر متكافئ ، لآله لو تساوى لكان مكرراً لا فائدة منه ، إنما يختلف الأفراد ويتميزون ، لذلك لا تطن أدب تمّار عن الآخرين ، لأن الله تعالى ورّع المواهب بين خلقه ، هامة تمّار في شيء ، وعبرون يمتار في شيء آخر . ذلك ليرتبط

الاساس في حركة الحياة ارتباط حاجة ، لا ارتباط تفصل كما قلنا

لذلك ، فالرجل الذي يكتسب لك الشارع مُمَيِّزٌ عنك ، لأنه يؤدي عملاً تستكشف أنت عن أمانه ، وإذا أدنى لك هذا العامل عملاً لا بُدَّ أن تعطيه أجره . في حين إذا سألك مثلاً سؤالاً وأنت العالم أو صاحب المنصب إلح عليك تجيبه ، لكن دون أن تأخذ منه أجراً على هذا الجواب وقد مكثت أنت السنوات الطوال تجمع لعلم وتقرأ وتسمع إلى رُ وصلت إلى هذه الدرجة ، وصارت لك خصوصية ، إذن لكل من ، ذكر أو نثى ، قرابية شخصية تُميِّره

هذا يقول الحق سبحانه لنساء النبي ﷺ كَأَحَدٍ مِّنَ السَّاءِ .. (٢٦) [الاحزاب] هذه هي الخصوصية التي يُمَيِّزهن عن غيرهن من مطلق النساء ، فمطلق النساء لسن قدوة ، إنما نساء النبي خاصة قدوة لغيرهن من النساء وأُسوة تُقتدى

والشرط بعد هذا النفي ﷻ إِنْ أَتَيْتُمْ . (٢٧) [الاحزاب] يعني ان روجيتهن لرسول الله ليست هذه ميرة إنما اميزة وخصوصية هي تفواهم لله ، وإلا فهناك من روجات الانبياء من كانت غير تقية

وقوله تعالى ﷻ فَلَا تَخْصَمَنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (٢٨) [الاحزاب] أي اقطع طريق الفسحشة من يديته ، ولا تقربن أسبابها ، واتركي الامور المشتبهة فيها ومعنى الحصوع بالقول أن يكون في قول امرأة حين تخاطب الرجال ليونة ، أو تكسُّد او ميوعة ، أو أن يكون مع لقول نظرات أو اقتراب

إذا اضطرتن لمحادثة الرجال فاحذرن هذه الاصغيات ﷻ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٠) [الاحزاب] والمعنى ان لا تنهمكن إنما الواحد منكن لا يصغر الرجل الذي قصدهن وربما كن في قلبه

مرض^(١) . فلا تعطيه الفرصة

وليس معنى عدم الخصم بالقول أن تُكَلِّمَ الناس بغلظة وخشوبة ، إنما المراد أن تكون الأمور عند حدودها لذلك يقول سبحانه بعدما ﴿ وَقَدْ قَرَأَ مَعْرُوفًا (٣٧) ﴾ [احزاب] فلم يهمل القرآن عن التصرف غير المناسب عرض البديل المناسب ، وهو القول المعروف ، وهو من المرأة لقول المعتدل والسماع بالأذن دون أن تمتد عينها إلى مُصَدِّثِهَا ، لأن ذلك ربما أطمعه فيها ، وحرَّاهُ عليها وهذا ما يريد الحق سبحانه أن يبيعه

لذلك حكى أن رجلاً رأى جادته على الباب تُحَدِّثُ شَابًا وسيما ، وكن يسألها عن شيء ، إلا أنها أطلت معه الحديث ، فضربه رب البيت ونهرها على هذا التصرف وفي اليوم التالي جاء شاب آخر يسألها عن نفس الشيء لدى سأل عنه صاحبه بالأمس فادبرته بالشتائم والسباب بعد أن ظهر لها ما في قلب هذا ، وأمثالها من مرض

وفي موضع آخر من هذه السورة سبحانه ﴿ يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ قُلُ لَأَرْوِجَنَّكَ وَمِثْلَكَ وَبَنَاتُكَ بِمِثْلِهِنَّ يَدْنِي عَلَيْهِنَّ مِنْ حُلَابِيٍّ هَـ ذَٰلِكَ أَذْنِي أَنْ يَفْرُقَ فَلَا يُؤَدِّي وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) ﴾ [احزاب] لأن الرجل حين يجد المرأة محشمة بسر مفاصل جسمها لا يتحرأ عليها ، ويعلم

(١) قال ابن عرفة المرض من القلب فتور عن الحق ومن الإبداء فتور الاعضاء ومن العين فتور النظر ومن مريضة هيها فتور رحمه قوله ﴿ فليطع الذي في قلبه مرضاً (٢١) ﴾ [احزاب] أي فتور عما امر به ونهى عنه بقوله ابن منظور في [لسان العرب - مادة مرض] وقال ابن كثير في تفسيره مرض أي دغل ، والدغل هو الفساد وأصل الدغل الشجر الملتصق الذي يكس به الفساد منه [لسان العرب - مادة دغل]

أنها ليست من هذا الصف الرخيص ، فقف عند حدوده .
وقد قال الحكماء أما ذ رأيت امرأة تظهر محاسنها لغير محارمها
وتُح في مرض نفسها على ارجال ، فكأنها تقول للرجل (فتح
يا بحم) تقول للغافل تنبه فتستثير فيه شهوته ، فتبجراً عليها
فالحق سبحانه يريد لزوجات النبي ﷺ أولاً أن يكمن الناس من
وراء حجاب ، وأن يكمن الناس بالمعروف كلاماً لا لين فيه ، ولا
ميوعة حتى لا يتعرض لسوء ، ولا يتجرا عليهن بدىء أو مستهتر .
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ
الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

معنى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ .. (٢٣) ﴿ الاحزاب ﴾ الرميها ولا تكثرن
الحروج منها ، وهذا أدب للنساء عامة لأن المرأة إذا شعلت نفسها
بمعل المطلوب منها في بيتها وفي خدمة زوجها وأولادها ومصالحهم
لما اتسع الوقت بالحروج ، لذلك كثيراً ما يعود الزوج فيجد زوجته
مُهمكة في أعمال البيت ، وربما ضاق هو نفسه بذلك ، لأنه لا يجد
متفرعة له

إدر المرأة المفلسة في بيتها هي التي تكثر الحروج ، وتقصي

مصالح بيتها من خارج البيت ، ولو أنها تعلمت الصناعات البسيطة
لَقَصَتْ مصالح بيتها ، ووفرت على زوجها ، وقد حكوا لنا عن لساء
في رمياط مثلاً ، كيف أن المرأة هناك تعمل كل شيء وتساعد
زوجها ، حتى أن الدنت تتعلم حرفة ولا تترفق أباهاً عند زواجها ،
بل وتوفر من المال ما يساعد زوجها بعد أن تتزوج

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَبْرُجْنَ تَبَرُّجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ۚ﴾ [الاحزاب] (٣٣)
كلمة التبرج من التبرج ، وهو الحصن ، ومعنى تبرج أى خرج من
البرج وبرز منه ، والمعنى لا تخرجن من حصن أنفسن ولا تبدين
الزينة والمحاسن الواجب سترها

وبار ﴿تَبَرُّجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ۚ﴾ [الاحزاب] أى ما كان من
التبرج قبل لإسلام ، وكانت المرأة . وتعنى بها الأمة لا الحرة
تبدى مفاظن جسمها ، بل وتظهر شبه عارية ، وكُنْ لا يَجْنُ عِصْيَانُ
فى ذلك ، وقد رأينا مثل هذا مثلاً فى إفريقيا

أما الحرائر فى الجاهلية ، فكانت لهن كرامة وعفة ، فى حين
كانت تُقام للإماء أماكن خاصة للدعارة والعياذ بالله ، لذلك لما أخذ
رسول الله العهد على امساء المؤمنات ألا يَرْتِينَ قالت امرأة أبى
سفيان^(١) " أو ترى الحرة يا رسول الله ؟ بعى هذا شيء مستكف
من الحرة ، حتى فى الجاهلية

ومن معنى البرج الاتساع ، فيكون المعنى لا تُوسَّعْ دائره
التبرج اتى حدها الشروع وهى الوجه والكفان

(١) هى عند بنت عميه بن ربيعة ، اختارها قبل الإسلام مشهورة ، وشهدت أحداً كافراً
ومعك ما فعلت بحمرة . استنم يوم الفتح بعد روجه أبى سفيان ، مات فى خلافة
عشر (الإمامة لابن عمر ٢٦,٨) وقد ذكر ابن سعد فى طبقاته (٢٣٦) ر
هذا حديث عند معاوية المصنف برسول الله ﷺ . وقد فى أم معاوية بن أبى سفيان

وفي موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ لِلَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. ﴾ (٦٠) [البور]

وتعجب من المرأة تبلغ الخمسين والستين ، ثم تراها تصنع لأحمر والأبيض ، ولا تحل من تجاعيد وجهها ، ولا تحترم السن التي بلغتھا

ثم يقول سبحانه ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ (٣٣) [الاحزاب] كثيراً ما قرن القرآن بين الصلاة والزكاة ، وبدأ بالصلاة ، لأنها عمدة التكاليف كلها ، وإن كُنت في الزكاة تنفق بعض المال ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الرمز ، فأنت في الصلاة تنفق الزمن نفسه وتضحى به ، فكأنك في الصلاة تنفق نسبة سبعة وتسعين ونصف يامنة ، فضلاً عن الاثنين ونصف نسبة لركاة

كما يفهم من إيتاء الزكاة هنا أن للمرأة ذمتها المالية الخاصة المستقلة عن دمة العمر من أب أو زوج أو غيره ، بسبب أن الله كلفها بإيتاء الزكاة ، لكن الحضارة الحديثة جعلت مال المرأة قبل الزواج للاب ، وبعد الزواج للزوج ، ثم سلت المرأة نسبتها إلى أبيها وبسببها بعد الزواج لزوجها

وهذه المسألة أشد على المرأة من سلبها المال ، لأن نسبتها لزوجها طمس ونعد على هويتها ، وانظر مثلاً إلى السيدة عائشة فما ردت حتى الآن بقول « عائشة بنت أبي بكر » ولم يقل أحد أنها عائشة امرأة محمد

(١) القواعد من اللواحي تحدى عن الأرواح وهي جمع مساعد وهي المرأة الكبيرة المسنة وقاعد المرأة عن الحيض والولادة بقعد قعوداً وهي قاعد انقطع عنها [سنن العرب

ثم يقول تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (٣٢) [الاحزاب] لان
لمسألة لا تقتصر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إنما هناك أمور
أخرى كثيرة تحتاج طاعة الله وطاعة رسول الله

ونلاحظ هنا ان الآية عطفت رسول الله على ربه تعالى ، وجاء
الأمر وحداً ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (٣٢) [الاحزاب] وحين يستقرىء
هذا الأمر في القرآن الكريم نجد مرة يكرر الفعل ، فيقول ﴿وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ (٦) [التفاير]

ومرة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ (١٣٧) [العنبر]

ومرة يقول تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا
مَنْكُمْ...﴾ (٥٩) [النساء]

وهذه الصيغ ، لكل منها مدلول ومعنى ، فساعة يقول أطيعوا
الله وأطيعوا الرسول كأن الله في الأمر طاعة في الإجمال ، ولرسول
طاعة في التفصيل ، فالحق سبحانه أمر بالصلاة وأمر بالزكاة أمر
إجمال ثم بين الرسول ذلك ومصل هذا الإجمال ، فقال « صَلُّوا
كما رأيتموني أصلي » وقال « خُذُوا عَنِّي مِمَّا سَكَمْتُ »^(١)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١) ، وأحمد في مسنده (٥٢ ، ٥) عن حديث مالك بن
الحويرث روى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنا حضرت الصلاة صائداً واقفياً
وليؤمكم أكبركم ، وصلُّوا كما تروني أصلي »

(٢) عن جابر بن عبد الله روى عنه قال : « ريت النبي ﷺ يرمي على راحته يوم المع
يقول بنا خذوا مما سَكَمْتُ فإني لا أدري لعلني ان لا أسمع بعد حجتي هذه » أخرجه
أحمد في مسنده (٣١٨ ، ٣) والنسائي في سننه (٢٧ ، ٥) ومسلم في صحيحه
(١٢٩٧)

إذن تكرر الفعل هنا ، لأن الله طاعة في إعمال الحكم ، وللرسول طاعة في تفصيله ، فإن جاء الفعل واحداً ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ﴾ (١٣٧) [ال عمران] فهذا يعنى تولد امر الله تعالى مع امر رسوله ﷺ ، فالطاعة إذن واحدة ، وهب أن الله تعالى له فعل ، ورسوله به فعل ، فلا يفصل أحدهما من الآخر ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا يَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَعَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٧٤) [التوبة]

فلم يقل واعناهم رسوله حتى يقول قائل كل منهما يعنى مقدره ، إنما جاء الفعل واحداً ﴿ أَعَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .. ﴾ (٧٤) [التوبة] واقرأ أيضاً قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٦) [التوبة] ولم يقل يرضوهم

أما قوله تعالى ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ .. ﴾ (٥٩) [النساء] فلم يكرر لأمر بالطاعة مع أوصى الأمر ، لأنه لا طاعة بولي الأمر إلا من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله

ثم يقول سبحانه ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (٢٣) [الأحزاب] الرجس بالسين هو الرجز بالراء ، وهو الفدارة سواء أكانت حسية كالميتة مثلاً ، كالحمر أو معنوية كالآثام والذنوب وقد جمعتها الآية ﴿ بِمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٦٦) [المائدة] وقد يزداد بالرجس النفاق والمرص

وكلمة (أهل) تُقال لعشيرة الرجل ، لكنها تُطلق على عرف الاستعمال على امرأته ومن بقية الاصطلاحات لهذا المعنى ما نقوله الآن حين نذهب لزيارة صديق مثلاً فنقول معي الأهل أو الجماعة والمعص يقول معي الأولاد ونقصد بذلك الزوجة لصداق قائلوا

لأن أمر المرأة مبني على الستر . فإذا كان اسمها مسياً على الستر . فكذلك معظم تكليفتاتها مبنية على استر في الرجل . وفادراً ما يأتي الحكم خاصاً بها

لذلك . السيدة أسماء بنت عميس^(١) زوجة سيدنا جعفر بن أبي طالب . وكانت قد هجرت إلى الحبشة ، فلما عادت سألت أنزل شيء في أمر المرأة في غيبتى ؟ فقالوا لها : لم ينزل شيء . فذهبت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله . ما أعظم خيبتنا وخسارتنا ، فليس لنا في الأحكام شيء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إنكن مستورات في الرجال »^(٢)

ومع ذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَاتِلِينَ وَالْقَاتِلَاتِ^(١) وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

(١) هي : أسماء بنت عميس بن المذركي النخعي . صحابية ، أسلمت قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بمكة . وهجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب ، ثم قتل عنها جعفر شهيداً في وقعة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمد بن أبي بكر ، وتوفي عنها أبو بكر فتزوجها علي بن أبي طالب فولدت له ، وماتت بعد علي وصفتها أبو يعين بمهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين [الاعلام للزركلي ١/ ٣٠٦]

(٢) لم أقف على هذا الحديث . ولكن أخرج الإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها : « النساء شقائق الرجال » وكذا للترمذي في سننه (١١٣) قال الحطابي في : معالم السنن ، ٧٩/١ : « أي : نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطباع فكانوا شقائق من الرجال »

(٣) القنوت هو الطاعة في سكوت . والقنات المطيع الذكورة تعالى . وهو العابد . قال ابن سيده : القنات القائم بجميع أمر الله [لسان العرب - مادة : قن]

فُرُوحَهُمْ وَالْحَالَظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾ [الأحزاب]

ونلاحظ في هذه الآية أيضا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ [الأحزاب] أنها تتحدث عن النساء .
لكنها تراعى مسألة سفر المرأة فتعود إلى صميم الذكور ﴿لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ ..﴾ ﴿٣٢﴾ [الأحزاب] ولم تقل عنكم كذلك في ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا
﴿٣٣﴾ [الأحزاب] ويصح أنه يريد أهل البيت جميعا رجالا ونساء

﴿وَاذْكُرْ مَا يَنْتَلِي فِي يَوْمِكُنَّ مِنْ آيَاتِ
اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ مَا يَنْتَلِي فِي يَوْمِكُنَّ ..﴾ ﴿٣٤﴾ [الأحزاب] أي
نساء النبي ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ ﴿٣٤﴾ [الأحزاب] أي آيات القرآن الكريم
﴿وَالْحِكْمَةِ ..﴾ [الأحزاب] أي حديث رسول الله ﷺ أو أن
عطف الحكمة على آيات الله من عطف الصفة على الموصوف لكن
لقول الأول أولى ما دام أن الأمر فيه سعة

ومعنى ﴿وَاذْكُرْ ..﴾ ﴿٢٤﴾ [الأحزاب] قل إن الذكر استحضار
واستدعاء معلومه من حاشية الشعور إلى بؤرة اشعور ، والمعنى
استحضر ذكر الله واجعله على بالك دائما ، لذلك قال تعالى ﴿وَلَذِكْرُ
اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ﴿١٠٢﴾ [المعكوت] أي أكبر من أي عبادة ، لأن العبادات
كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد ، وإلى وقت وإلى مشقة ، وإلى تفرغ
وعدم مشغولية

أما ذكر الله فهو يجرى على لسان في أي وقت ، وبدون استعداد

أو مضفة ، ويلهج به لسانك في أى وقت ، وعلى أى حال أنت فيه .
واقرا في ذلك قوله تعالى من سورة الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة] فما دام ان الذكر هو أن تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سعي ولا عمل لأن الذكر أحف العبادات وأيسرها على النفس ، وأثقلها في الميزان

ثم يامر ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْحُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [٢١] ﴿ [الاحزاب]

فمن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ أن ياله لم يحل لحظه من ذكر ربه أبداً لذلك ورد عنه ﷺ أنه قال عن نفسه « تخام عيني ولا ينام قلبي »^(١)

ثم تحتم الآية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [٢٢] [الاحزاب] اللطف هو الدقة في سائر الأشياء وحسن تأتي الأمور مهما كنت وسئلتها صبيقة ، وسبق أن أوضحنا هذا المعنى وقلنا إن الأشياء لصارة مثلاً كلما لطفت عرفت ، فالحديد الذي تجعله على النوافذ لحصيك من الدناب ، غير الحديد الذي يحصيك من الثعابين أو من الناموس والذباب ، إلخ ، لذلك نجد أن أفك الأمراض تأتي من الفيروسات الطيفة التي لم تعرف

وحسن تأتي للأمور يعنى التدخل في الأشياء مهما دقت ، فقد تضطر مثلاً لأن تدخل يدك في شيء صديق لتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع مسنعين على ذلك بالولد الصغير ، لأن يده أطف من يبك ، أو تستعين على ذلك مائة أدق لتؤدي بها هذا الغرض

(١) حديث صفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٢١١٣) كتاب صلاة التراويح وكذا أخرجه مسلم في صحيحه (٧٢٨) كتاب صلاة المسافرين من حديث عائشة أنها قالت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ قال لا عاصمة إن عيني تدمان ولا ينام قلبي .

ووصف اللطيف يُتممه وصف الحبير ، فإذا كان اللطيف يعني
الدقة في تداول الأشياء وحُسْر لِقَائِي ، فالخبرة تعني معرفة
الموضع ، فاللطيف لا يتأني إلا بالخبرة .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْفَتِينَ وَالْفَتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَافِظِينَ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَعِيشَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾

قلنا إن هذه الآية نزلت تطيباً لخاطر السيدة أسماء بنت عميس
زوجة سيدنا جعفر بن أبي طالب ، لما حدثت سيدنا رسول الله في

(٦) سبب نزول الآية أخرج الإمام أحمد في مسنده (١ / ١٠٢) عن أم سلمة قالت
قلت يا رسول الله ما لك لا تشكر في القرآن كما يذكر الرجال قالت هم يرمي به
يوماً إلا ويدأوه على السرير ينهاه الناس فقال وأنا أسرج رأسي ففعلت شجرة ثم دوت
من الباب فجعلت سمعي عند السجريد ، فسمعت الله يقول : « إن الله عز وجل يقول إن
المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » هذه الآية

وأخرج الترمذي في سننه (٢٢١٦) عن حديث أم عمارة الأمصارية أنها أتت النبي ﷺ
فقال ما أرى كل شيء إلا نرجال وما أرى النساء يذكرن شيء ، « مراد هذه الآية وإن
«سلمي والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات» (٣٥) [الأحزاب] قال الرمضاني « هذا حديث

أمر الأحكام وأنها تنزل وتنوِّجُه في لغالب إلى الرجال ، ويبدو أنها حدثت رسول الله في أمر النساء ، وأن منهن مثل الرجل مسلمات ومؤمّنات إلخ

ونلاحظ أن الآية بدأت بذكر الإسلام ، ثم الإيمان ، فأَيُّهُمَا يسبق الآخر ؟ ويجد إجابة هذا السؤال في قول الحق سبحانه وتعالى ﴿قَالَ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (١١٤) [الحجرات]

فالإسلام أن تؤدي أعمال الإسلام بصرف النظر أكان أداؤك لها عن إيمان أو عن غير إيمان ؟ لأن الإسلام تلقى حكم ، أما الإيمان فإن تؤمن بمن حكم ، وتصدق من بلعك هذا الحكم ، وعليه فالإيمان سابق للإسلام

لذلك جاءت هذه الآية لتفصح هؤلاء الأعراب الذين تسترو وراء الأعمال الظاهرة للإسلام ، وهم غير مؤمنين بها ، وقد باتى الإيمان بعد الإسلام حين تؤدي أعمال الإسلام فتحلوا لك ، وتجددك إلى لإيمان وانتصديق .

لذلك ، فرح هؤلاء الأعراب لقوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (١١٤) [الحجرات] وقالوا الحمد لله ، لأن (لما) لا تدخل إلا على ما يمكن أن يحىء كأن تقول لما يثمر بستانا ، وقد اشترت البساتين ، والمعنى أنه سيثمر فيما بعد

قالوا لأن هناك كثيراً من الأحكام أنت لا تؤمن بالذي حكم بها إلا إذا أدركت ودُفئت حللونها ، فالرجل الذي جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وطلب منه أن يبيت عنده ، أن يضيغه ، مساله إبراهيم

عليه السلام عن دينه فقال إنه محوسى ، مرد الباب في وجهه فعاقبه ربه في ذلك ، وقال له يا إبراهيم بريدك أن يغير دينه لضيفة ليلة وأنا أسعه طوال عمره وهو كافر بي ؟ فأسرع إبراهيم في إثر الرجل حتى لحق به وبعسه إلى بيته فقال الرجل لم تنهرنى منذ قليل مماذا حدث ؟ فقال لقد عاقبتى ربي فيك ، فقال الرجل نعم الرب رب يعاقب أحببه في أعدائه أشهد ألا إله إلا الله

وقد اشتملت هذه الآية على عشر صفات ، بدأت بالمسلمين ولمسلمات ، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وكان الله تعالى أوجد مراد السيدة أسماء بنت عميس في هذه الصفات العشر التي جمعت أرحام والنساء ، واشتملت على كل أنواع التكليف ، وهي برقية تدل على أن حكم المرأة التكليفى مضمور في باطن الرجل وهذه هي الأصوب

ومعنى ﴿واهانئين .. (٣٥)﴾ [الاحزاب] المداومون على عبادة الله وطاعته في خشوع وقضوع كما فهم من قوله تعالى ﴿والمتصدقين والمتصدقات .. (٣٥)﴾ [الاحزاب] أن للمرأة دمتها المالية المستقلة وحرة التصرف في مالها بغير إذن زوجها إذا كانت تملك إرثاً أو هبة من زوجها أو من غيره فلا ولاية عليها من أحد

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن الزكاة ، وهذه من ميراث المرأة في الإسلام ، حيث كانت قبل الإسلام وحتى في الحصارات الحديثة تابعة لانيها أو لزوجها ، والصدقة تشمل الزكاة ، لأن الله قال فيها ﴿إما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها .. (٣٦)﴾ [التوبة]

فالصدقة هي العنوان الأعم ، ومعناها أنك صدقت الحق سبحانه حين استأمتك على حير ، فاستنبط بمجهودك وسهيك في أرض الله التي خلقها ، فكانت تحقق ما كان من سيدنا أبي بكر حين سأله رسول الله ﷺ ماذا صنع بماله الذي كسبه في الغيمة ؟ قال تصدقت به كله ، فقال له « وماذا أبقيت لأهلك ؟ » قال أبقيت لهم الله ورسوله فلما سأل عمر - رضي الله عنه - قال تصدقت بصفه ، والله عدي بصفه^(١)

فكلّ منهم تصرف في ماله تصرفاً منطقياً يناسبه .

وإن كانت انزكاة يُراد بها نماء المال وطهرته ، فالصدقة عطاء لا يُراد به إلا وجه الله وثوابه في الآخرة ، فكان المتصدق يريد أن يبرّ وأن يعترف لله لمعطي بالفضل ، لأن الله مكّنه من مال لم يمكنه لصعيف ولا غير القادر

ثم ذكر الحق سبحانه تكليف الصوم ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ .. ﴾ (٣٥) [الاحزاب] والصوم أحد حكمًا فريداً من بين أحكام التكليف كلها ، والحق سبحانه جعل لكل تكليف من التكليف (كادر خاص) في الحزاء إلا الصوم ، فليس له (كادر) محدد ، لذلك قال عنه الحق سبحانه « لا اصوم ، فإنه لي وأنا أجزي به »^(٢) يعني فرار عال فوق الصنيع فلماذا أحد الصوم هذه المنزلة ؟

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، ١٦٧٨ ، والترمذي في سننه (٢٦٧٥) والحاكم في مستدركه (٤١٤/١) وصححه وقال الترمذي « حديث حسن صحيح »
(٢) حديث مشق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٤) وكذا مسلم في صحيحه (٨٦/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث قدسي عن رب العرش سبحانه

قالوا لأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن لم يمكن مثلاً في شهادة أن لا إله إلا الله أن يأتي من يمدح آخر ، فيقول له ليس في لكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الناصر ، وهناك من قال عن نفسه أنا الزعيم الأوحى كذلك في الصلاة ترى من ينحني ويسجد لمير الله كما يخضع ويسجد من في الصلاة ، وكذلك في الزكاة نتقرب إلى العظيم أو الكبير بإهداءها له أو لمن حوله

لكن ، هل قال بشر لميشتر أن أصوم شهراً ، أو يوماً تقريباً إليك ؟ لا لأن الصيام للغير المماثل تدنيس للمصوم له لا للصائم ، لأنه سيُضطرَّ لأن يظل طول اليوم يراقبك ، أكلت أم لم تأكل ؟

ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يتقرب بها بشر لبشر قال الله عنها في الحديث القدسي « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به »^(١) يعني حراؤه خارج المقرر كم قلنا

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحل لنا أشياء ، وحرم علينا أشياء أخرى بحريماً أدياً ، فالذي تحمّل التكليف ألف الحلال ولم يألّف م حُرْم عليه ورسحت هذه العقيدة في نفسه ، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً ، فلم يأت على باله مرة مثلاً أن يشرب الخمر ، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألة منتهية بالنسبة له ، فأراد الله تعالى أن يديم لذة التكليف على البشر ، ففرض الصوم الذي يُحرم عليك اليوم ما كان مُحللاً لك بالأمس ومألوفاً حتى صدر عادة

إذن هناك فرق بين دوام العبادة ولذة العبادة ، ونأمل مثلاً يوم الفطر ، والفطر عبادة لك في غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فبدأ ما جاء يوم عند الفطر أخرجك منك من عبادة إلى

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

لعبادة ، وحمله تكليفاً أنْ تَقْطُرَ قِينَ الحُجُوجِ للصلاة

ثم يقول تعالى ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ۖ ﴾ (٣٥) [الاحزاب] جاءت مسألة حفظ الفروج بعد ذكر الصيام لأن الصيام امتناع عن شهوات البطن والفرج ، شهوة البطن جعلها الله تعالى لحفظ الحياة بالصيام والشراب ، وشهوة الفرج جعلها الله تعالى لحفظ النوع بالنكاح والتناسل

قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ السَّيِّدَةَ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْمُصَنِّةَ لِحَنَنِ لِسَاءٍ ، فَذَكَرَ أَنْوَاعَ الْفِكَالِيفِ مَرَّةً لِمَذْكَرٍ وَمَرَّةً لِلْمُؤَنَّثِ لَكِنَّهُ رَاعَى فِي ذَلِكَ سِتْرَ امْرَأَةٍ ، وَهَذَا يُرَاعَى فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فيقول ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ۖ ﴾ (٣٥) [الاحزاب] حبيماً نكح من المدكر قال ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ ۖ ﴾ (٣٥) [الاحزاب] ومن يقل والحافظات فروجهن لأن أمر النساء ينبغي أنْ يُسْتَرَّ وَأَنْ يُصَانَ

ثم يقول سبحانه ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ۖ ﴾ (٣٥) [الاحزاب] ويعود إلى مسألة الستر مرة أخرى في قوله ﴿ أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٥) [الاحزاب] مقال (لهم) على سبيل التقليل وستر المرأة في الرجل ، وهذه مسألة مقصودة يُراد بها شرف للمرأة ، وصيانة لها ، لا إهمالها كما يدعى البعض ، ومن هذه الصيانة ما يقوله نحن عن المرأة معى أهل أو الأولاد أو الجماعة ، ونقصد بذلك سترها وصيانتها لا إهمالها ، أو التقليل من شأنها

(١) من بريدة الأسمي قال : كرس رسول الله ﷺ لا يعبو يوم العطر حتى ياكل ولا ياكل يوم الاضحى حتى يرجع لياكل من اصبحت . أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢١٥) عن الشيخ سيد سابق عي - معه اسنه (٣٦٨/١) - قال ان قدامة لا نظم في استعبار معجل الاكل يوم الفطر حلالاً ،

هَكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ حِينَئِذَا أَرْضَى السَّيِّدَةُ أَسْمَاءُ نِيَابَةً عَنِ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ . فَذَكَرَ مَا ذَكَرَ مِنْ جَمْعِ الْمُؤَثِّثِ الَّذِي يُقَابِلُ جَمْعَ الْمَذْكَرِ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ حَوْلَ الْمَرْأَةِ سِيَاحاً مِنَ السُّتْرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى هِيَ التَّكْلِيفُ

ونلاحظ على سياق الآية هنا أيضاً أنه قدّم المغفرة على الأجر ، لأن إغماضه كما قلنا إن درء المعسدة مُقَدِّمٌ عَلَى حَلِّبِ المصلحة ، ولحق سبحانه يُعَدُّ لعباده الأجر على الحسنة التي فعلوها ، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشيء ، إنما يعود نفعها على المكلف نفسه ، فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر في الآخرة

أما الحق سبحانه فعلى عَنَّا وعن طاعتنا ، وافقوا الحديث القدسي « يا عبادي . لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وحيكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم . ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وحيكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً »

إِنَّ نَحْنُ الْمُسْتَفِيدُونَ مِنَ التَّكْلِيفِ . فَعِيهَا صِلَاحُهَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ نَأْخُذُ عَلَيْهَا الْأَجْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

لذلك يجد الكثير من الرسل يقولون لأقوامهم ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ ۝ (٢٤) ﴾ [الشعراء] كما يقول الذي أوّديه بكم من تبليغ دعوة الله في عرف لا قصد والسبب يقتضي أن أحد عليه أجراً ، لأنني أوّدي لكم خدمة ، لكن ماذا ساعد منكم أيها العرايا وأجرى عمل لا يقدر عليه المكلف ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ (٧٦) ﴾ [يوسف] فهو

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) وكذا ترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه

وهذه القدر على أن يجازيني بما أستحق
ووصف الأجر بأنه عظيم يدل على كبر في الحجم ، ونفاسة في
الصفات ، وامتداد في الزمن ، وهذه هي عناصر العظمة في الشيء
وأى أجر أعظم من أجر الله لعباده في الآخرة ؟
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦)

جمعت هذه الآية أيضا بين المدكر والمؤنث في ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ ﴾ (٣٦) [الاحزاب] فهي امتداد للآية السابقة ، فهي تخدم ما
قبلها ، وتخدم ايضاً ما بعدها ، وما به أصل السبب ، لأنها نزلت في
عبد الله بن جحش وأخته زينب ، حين رفضا رواج زينب من زيد بن
حارثة ، فالمؤمن عبد الله بن جحش ، والمؤمنة أخته زينب من حيث
هما سبب لنزول الآية ، وإلا فهي لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات .
وسبق أن ذكرنا قصة زيد بن حارثة ، وملخصها أنه سرق من
أهله ، وبيع في سوق العبيد على أنه عبد ، فاشتراه حكيم بن حزام ،

(١) سبب نزول الآية قال ابن عباس : حسب رسول الله ﷺ ربيب بنت جحش فريد بن
حارث رضى الله عنه ، فاستنكحت منه ، وقال : أنا خير منه حبيباً ، وكانت امرأة مسها
حدة . فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ
مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الاحزاب] (٣٦) فورد ابن كثير في تفسيره (٤٨٩ ، ٢) والسيوطي في
استياد القرآن - (ص ٢٢) .

ثم وهبه للسيعة خديجة أم المؤمنين ، فوهبته خديجة رضى الله عنها
لسيدنا رسول الله ﷺ ، فصار مولى لرسول الله

وبينما هو ذات يوم بالسوق ، إذ رآه جماعة من قومه معروفه ،
واخبروا أباه أنه بالمدينة فجاءه أبوه واعمامه ، وحكوا لرسول الله
قصته ، وطلبوا عودته معهم ، فقال رسول الله ﷺ حيرره ، فإن
اختاركم فهيئت لكم ، وإن اختارنى فما كان لى أن أسلمه مردّ زيد
وقال والله ما كنت لأختار على رسول الله أحدا

فأراد سيدنا رسول الله أن يكافىء زيدا على هذا التصرف
فمنسبه إليه على عادة العرب فى هذا الوقت ، فسمّاه زيد بن محمد

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهى هذه العادة ومثلها عادة الظهار
تزل قوله سبحانه ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي حَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ..
(٤) ﴾ [الأحزاب]

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد ، كذلك لا يكون له إلا
أب واحد وشاء الله أن يبدأ بمقتضى رسول الله ، ليكون نموجا
بطبقيا عمليا أمام الناس ، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أن يرث
المقتضى من اعتبى بعد موته ، وأن تحرم روحه المقتضى أن يروحها
المقتبى

صحيح أن القضاء على هذه العادة فصاء على نظام اجتماعى
فاسد موحود فى الجزيرة العربية ، لكنه فى الوقت نفسه دليل على
أن رسول الله ﷺ تنبى كما يتنبى العرب ، وأن الله تعالى أبطل من

رسول الله هذا للتصرف وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أن يشمتوا فيه ، وأن قتناووه ألسنتهم ، لذلك غالج الحق سبحانه هذه القصيدة علاج ربّ بإفناء الأمر فى بصرة حبيب له ، قلم يشوّه عمل الرسول إنما جعل معنه عدلاً وحكمه سبحانه أعدل ، فقال ﴿ دَعُوهُمْ لآثَانِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ۝ ﴾ [الاحزاب]

والمعنى إن كنتم جعلتم من العدل والمحبة أن تكفلوا هؤلاء الأولاد ، وأن تسبواهم إليكم ، فهذا عذر بشرى ، لكن حكم الله أعدل وأقسط وشرف لرسول الله أن يرد الله حكمه إلى حكم ربه ، وشرف لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة ، وأنه يحكم ، فيرد الله حكمه إلى حكمه ، فهذا تكريم لرسول الله

بقوله تعالى ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ۝ ﴾ [الاحزاب] يعنى أن فعل محمد كان قسطاً وعدلاً بقانون البشر ، وقد جاء محمد ليغيّر قوانين العشر بقوانين ربّ لنشر وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المازق

أما زيد فقد عوضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله فصار زيد بن حارثة بعد أن كان زيد بن محمد ، عوضه الله وأصفه بأن جعله العلم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذكر اسمه فى القرآن الكريم بصفه وعصه ، فقال سبحانه ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ۖ ۝ ٣٧ ﴾ [الاحزاب] فحلّ زيد فى كتاب يتلى ويتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْسِقَةٍ أَنْ تَبْذُرُوا مَتْرَفَهُمْ ۚ ۝ ٣٦ ﴾ [الاحزاب] أنه تروج من السيدة زينب بنت جحش ، روجه إياها رسول الله ، وقد نزلت هذه الآية فى رجب

وفي أخيهما عبد الله^(١)

ومعنى ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ..﴾ [الاحزاب] معنى (ما كسب) أى أنه شيء بعيد ، لا يمكن أن يرد على العقل . أى أنه أمر مستبعد غير متصور ، وكان المصطفية تدل على جحد هذه المسألة ، فالمؤمن والمؤمنة ، ما دام أن الإيمان مباشر فلنذهب لا يمكن أن نتركها أمر الله وحكمه أو أمر رسوله إلى اختيارهما

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ [الاحزاب] ﴿٣٦﴾ ولا فلا إيمان لا شاة . ولا برسول الله

بأن قلت كيف وقد أثبت الله الاختيار ؟ نقول هناك فرق بين اختيار داخل في التكليف ، إن شئت فعلته أو لم تفعله ، وشيء في إيجاد التكليف بداية فليس للعدد دخل في إيجاد الشيء المكلف به ، إنما إذا كلفتهم أن فلاناً صاحب التكليف وكوّنهم بطبيعته أو لا بطبيعته ، فهذا أمر آخر ، ليس للعدد أن يعترضوا التكليف على هواهم ، لأن التكليف لى ولهم الاختيار فى طاعته وفى قبوله ، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أن يرضوا الأمر ، والأمر يصحوا عنه لى غيره

وقصة طلاق زيد وريبع ، ثم رواج سيدنا رسول الله ﷺ منها

(١) هو عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي صحابي ، تدعى الإسلام فهدى إلى بلاد الحبشة ثم إلى المدينة وكل من آمنه الرواية وهو صهر رسول الله ﷺ أبو زيد بن جحش أم المؤمنين فتل يوم أحد شهيداً فبعد هو والحجرة فى قبر واحد عام ٢ هجرة [الاعلام للبروكلى ٤ ، ٧٦] والحجرة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ هو حال عبد الله بن جحش فأنه هو أميمة بنت عبد المطلب

قصة خاص فيها المديون والمعرضون كثيراً وتجرأوا على سيد رسول الله بكلام لا ينبغي في حقه ﷺ ، ومن قولهم أن محمداً أحد زينب وأرادها لنفسه ، فأمرها أن تشاغب ريداً حتى يطلقها فيتزوجها

ويقول هؤلاء الأغبياء أولاً ربيب بنت حشش الأسدية هي بنت عمه رسول الله ، وكان ﷺ مكلماً بإداره أموالها ورعاية شئونها ، وقد نشأت تحت عينه . ولو أرادها لنفسه لتزوجها بداية . وهذا نص القرآن ﴿ ونحمي في نفسك ما الله مبديه .. ﴾ (٤٧) [الاحزاب]

ما أن أردت أن تعرف ما أحياه رسول الله فخذ مما أبداه الله والذي أبداه الله قوله تعالى ﴿ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيانهم . ﴾ (٤٧) [الاحزاب] وهذا يهدم كل ادعاءاتكم على رسول الله

أما قولهم بإشغال قلب رسول الله بريب يسئول ولماذا تجعلون إشغال قلب محمد إشغالا جسيماً ، ولر تتبعتم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، صحيحاً رسل رسول الله من يخطب زينب ضاً أحوماً عند الله وحبها حممة به جاء ليخصبها لرسول الله فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد عضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة ابقرشية وبنت عمه رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أدعوا له ووافقوا

ثم بعد أن تزوجت ربيب من زيد تعالت عليه . بل وشعر أنها تحترقه لهذا الفارق بينهما فكان ريد يشتكي لرسول الله سوء معاملة روحته له ، وأنها كما تقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه في بيت الزوجية بالقلب لا بالقلب بكر حبه لرسول الله كان يمدعه من طلاقها وهو أيضاً لا يريد أن يحسر هذا الشرف الذي ناله

بالزوج من بنة عمه رسول الله

وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مرة يشتمكي فيها ريد من ربيب
يقول له ﴿ أَمْسِكْ عَمِيكَ وَرُوحَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ۚ ۞ ﴾ (٣٧) [الاحزاب] ولو ارادها
الرسول لنفسه لقال له طلقها ، ووجد العريضة امامه سائحة

ويجب ان نبحث منا علاقة المرأة بالرجل ، قالخالق سبحانه خلق
الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ، لذلك نحد المرأة العربية أم إياس ،
وهي توصى ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول « أَيْ بُنْتِى ، إِنَّكَ لَوْ
تُرَكِّتْ بِلَا نَصِيحَةٍ لَكُنْتَ أَعْنَى النَّاسِ عَنْهَا ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً اسْتَفْتَتْ عَنْ
الزَّوْجِ لَغْنَى أَبَوَيْهَا وَشَدَّةَ حَاجَتِهَا إِلَيْهَا لَكُنْتَ أَعْنَى النَّاسِ ، وَلَكِنْ
الْرجُلُ لِلنِّسَاءِ حَقٌّ ، وَلَهُنَّ حُلُقُ الرِّجَالِ وَأَنَّ النِّصِيحَةَ لَوْ بَرَكْتُ
أَفْضَلَ أَدَبٍ لَتَرَكْتُ لَدُنْكَ مِنْكَ وَلَكِنِّي نَذْكُرُكَ لِلْعَافِلِ وَمَعُونَةٍ لِلْعَاقِلِ »

وقلنا إن الإنسان يستطيع أن يعيش أفضل ما يكون من مأكلا
ومشرب وملبس ومسكن . لكنه مع ذلك لا يستغنى بحال عن الروجة
والمرأة كذلك ، لذلك يقول رسول الله ﷺ « لو كنت امرأة أحدنا أن
يسجد لأحد لأمرت الروجة أن تسجد لزوجها »^(١)

بماذا ؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم وإخوانه ، ويرد
على ذلك مما لا يقدرين ولا يستطيعون

الشاهد أن المرأة بالرجل والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من
أسوار من عز أو من جبروت ، أو غيره

(١) حرجه أحمد في مسنده (٢٨١/٤) عن عبد الله بن أبي أوفى عن رسول الله ﷺ قال
لو كنت امرأة أحدنا أن يسجد لأحد لأمرت الروجة أن تسجد لزوجها ولا يؤذي المرأة حق
الله عز وجل عليها كله خير يؤذي حق زوجها عليها كله حتى لو سألها نفسها وهي على
ظهر قتب لأعطته إياها ، والقتب رحن صغير على قنر منام الحمل

إن المسألة بالنسبة لريد كانت صعبة ، لأن الله تعالى جعل للزواج ثلاث مراحل ، وريدتُ في قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ [الروم]

فالأولى أن يسكن الزوج إلى زوجته ، وأن يطمئن إليها ويرتاح بجوارها حين تمسح به عرقه ، وتحبويه بعد تعب اليوم ومشاق الحياة ، فإن امتنع السكُن سبب مُنْقِصَاتِ الحياه ، فيكُن بينهما مودة تجمعهم ، ولم لا وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة في قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتسحمله إن أخطأ ، وتسامحه إن أساء ، فما بالك بالدوجة ، أليست أحق بهذه المودة ؟

فإذا ما فقدت المودة أيضاً ، فليبق بين الزوجين التراحم ، فليبرح كل منهما الآخر إن أصابه الكبر أو المرض ، أو غير ذلك

وقد وصل ريد مع ربيب إلى مرحلة فقد فيها السكُن والمودة ولرحمة بسبب ما بينهما من فارق

أمر آخر إن كان رسول الله ﷺ قد مكر في أمر ربيب فلماذا نعدلون به إلى التفكير في العريضة ؟ ولماذا لا نعدلون به إلى مرئيه الإنصاف وهو الذي أرغم ربيب على لزواج من زيد ، وهي الشريفة الفرشية وهو العبد المملوك فلما وضعها في هذا المارق أراد أن يطيب خاطرها ، وبصلح ما كان منه بأن يصممها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين

ثم من الذي صنع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة وكل الرسل السابقين كان لهم هذه - هذا على عرض رعدة رسول الله ﷺ - لكن الناس لم يحسنوا الظن

واحدى ندنا على ان هذه المسألة كانت ترتباً ربانياً صرفاً ما
نجد من لرياضة الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله . ومولاه
ريد . وانه عمته ريب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما يقول
نحن الآن فلان عنده روح رياضية

يعنى يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات او احقاد . ولقد
انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية

ف الذين ياخذون من قوله تعالى في حق رسوله ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ
وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (١٣٧) [الاحزاب] ياخذونها سُنَّة في حق
ارسول ، فعليهم أن يعلموا أن الخشية نوعان خشية من شيء
تخاف أن يضررك ، وخشية استحياء بالخشية في ﴿وَتَخْشَى
النَّاسَ﴾ (٣٧) [الاحزاب] خشية استحياء ، ويكفي أن الحق سبحانه قال
في حق رسوله ﷺ ﴿إِنْ ذَلِكُمْ كَانُ يُوْدَى النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ
لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (٥٣) [الاحزاب]

فالخشية هنا تعنى خوف رسول الله من السنة الكبار التي
سنخوص في حقه ، والتي ستقول إن محمداً تروّج من امرأة مُتَنَفِّه ،
لكن عاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغى مسألة التمسى ، فليس لهم

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ حين منى (دخل) يرمي بنت حنظل ، صمغ ولحمة حذر ولحم
قدما الناس إليها فاحد بجى قوم شاكرون ويخرجون ثم يمشى قوم شاكرون ويخرجون
وبقى ثلاث رمط يتحدثون لم يخرجوا ورسول الله يريد ان يخلو برسب عروسه وهم
جالسون فخرج ثم عاد ثم خرج ثم عاد حتى اخرجوا القوم قد خرجوا وكان شدة
سحابة ، فرب قوله تعالى ﴿بِأَيِّهَا النَّبِيُّ تَوَلَّى لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُدْعَى لَكُمْ إِلَى مَعَامٍ غَيْرِ
نَظَرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيَ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مَسْئَلَةَ الْفَتَى كَانُ يُوْدَى النَّبِيِّ
فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (١٣٧) [الاحزاب] بطر أسباب البرز للواحدى
(من ٥ ٢) وتفسير اس كثير (٥ ٣ ٢)

حسنة ، وطبيعي أن يخاف رسول الله من السنة لكفار ، لأنه جاء لعقص عادات وتقاليد جاهلية . وكان هو ﷺ أو من تحمل بيعة هذا التغيير ، لأنه جاء على يديه وفي شخصه ﷺ

وسيدنا رسول الله حين يستحي من زواجه من زينب أو من كلام الناس . إنما يريد أن يبرىء عرضه وسحته ، مما يشين ، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً ، لذلك لما راه بعض أصحابه مع امرأة ، فمالوا عنه ﷺ خشية أن يتسببوا له في حرج ، فناداهما رسول الله « على رسلكما إنها صعبة » فقالوا نحن لا نشك فيك يا رسول الله ، فقال « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »^(١)

فرسول الله يريد أن ينقص عن نفسه أي شبهة ، يريد ألا يجعل لأحد جملأ عليه ، بأنه ستر على رسول الله

ولا دل على حيائه ﷺ من قصبه مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فلما دخل مكة فاتحاً ومنتصراً كان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، لأنه نال كثيراً من رسول الله^(٢) ، فعاد عثمان بن عفان رضي الله عنه يستأمن لعبد الله من رسول الله - يعني يطلب له الأمان فما رد عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القوم فيقتل عبد الله لكن عثمان أعادها مراراً على

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣١٩) وكذا مسلم في صحيحه (٢١٧٥) من حديث صعبة بن حنبل

(٢) كان عبد الله بن سعد من أبي سرح قد أسلم فهدم وكند لرسول الله ﷺ الوحى ثم انتفى وخرج من المدينة إلى مكة مرتداً فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح [الطبقات الكبرى لابن

رسول الله حتى أنه استحي من عثمان فأمن عبد الله ، فلما أمّنه أحذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله

يقول رسول الله لصحابه « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله »^(١) يعنى قبل أن يكلمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل^(٢) كما يقولون ، فقام عبد الله بن بشر وقال يا رسول الله ، لقد كانت عيني في عينك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسول الله - انظر إلى اعطمة « ما كان لنبي أن تكون له حائنة الأعين »^(٣)

ذكر أنه كان لنا أستاذ ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكما نذكر دروسنا قبل أن نحضر درسه ، وكان يصطفي من بين إخواني الموجودين أمثال الشيخ حسن حاد ، ولدكتور صفاحه وأبى العينين وغيرهم ، ليسألنى عن مذاكرتكم وما وقف أمامنا من فضله ، فإدائى وكان قد علم من أسى اسم أمى ، فإدائى بها فتقدمت إليه ، فصرننى على قفاى صرة انصت معها القصية التى كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذى يعانى من (الزعطة) صرة على ظهره فتذهب

وبما حدثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء فى اليوم البالى وقال - يا أولاد ، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه ، فقلت له

(١) العذل اللوم والنايب يقال ابن مخطوب فى [لسان العرب - مادة عدل] : قوبهم فى المثل سبق السيف العذل ، يضرب بها قيد الحب واصل ذلك أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله ، فأحضر بغيره فقال سبق السيف العذل

(٢) خرج أبو داود فى سننه (٤٢٥٩) ، وكذا النسائى فى سننه (١٠٥٧) (١٦٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ولفظه أسى داود والنسائى : إنه لا ينبغي لنبى أن يكون له حائنة الأعين .

كيف تستأمن لرجل قال في رسول الله كذا وكذا ؟ فقال لي ألا تعلم أن الله يحب من أتى ، فقلت لرسول الله ﷺ - ولم يقل أنا رأيت رسول الله - ما الذي جعلك تقبل شفاعته عثمان ؟ فقال ألا أستحي من رخص تستحي منه الملائكة ؟^(١)

فالنبي ﷺ بطبيعته كان شديد الحياء

ثم يقول تعالى ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد صلب ضللاً مبيناً ﴾ (٣٠) [الاحزاب] وهنا ثلاثة توكيدات قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضي ، ثم المفعول المطلق ضللاً ، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين

والضللال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدي إلى الغاية ، لكن قد يضل إنسان طريقه ، ثم يأتي من يفتح عليه ويدله ، أما هذا الذي يعصى الله ورسوله ، فضلاله ضلال مبين لا يجد من يدلّه ولا من يهديه أبداً ، لأن هذا الطريق الذي يسير فيه موصل إلى الآخرة وليس هناك شيء من ذلك

كانت هذه (لقطة) لسيدنا رسول الله ﷺ مع عثمان وعباد بن بشر أوصحت صفة الحياء في رسول الله ، نعود بعدها إلى ما كنا نصدده من الحديث عن الرياضة الإيمانية التي جمعت بين رسول الله وكل من ديد ورييب

(١) هذه العبارة قالها رسول الله ﷺ من عثمان رضي الله عنه في مناسبة أخرى في حديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤١) عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ مضطجاً في بيتي كلثماً عن فخذيه و ساقيه فاستأمن أبو بكر فادن له وهو على تلك الحال فنهذه ثم استأمن عمر فادن له وهو كذلك فنهذه ثم استأمن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه فمما خرج قالت عائشة دخل أبو بكر ولم يهتئ به ولم ياله ثم دخل عمر فلم يهتئ به ولم ياله ثم دخل عثمان فجلست وسويته ثيابي فدن إلا يستحي من جدي تستحي منه الملائكة

وكان سيدنا رسول الله إذا عاب زيد يذهب فيسأل عنه ، فذهب مرة ، فرأى ريب منشغلة في أمور بيتها ، وكانت ريب على حالة طيبة ، فقال ﷺ « تبارك الله أحسن الخالقين » كما يرى مثلاً أبنتك في مظهر حسن ، فتقول ما شاء الله

وكان رسول الله أراد أن يطيب خاطرها ، أو يرزع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد ، نظير أنها تعيش معه على مصصر ، فلما جاء زيد قالت له لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لي تبارك الله أحسن الخالقين فقال لها يا ريب أرى أن تكوسى لرسول الله ، لأنك وقعت في قلبه ، وأرى أن أطلقك ليتزوجك رسول الله ، فبدأ عليها الارتياح ، وتمجيب كأنها سم تصدق إذا طلقته أتزوج برسول الله ، كان هذا الحوار مجرد كلام

وبالله لو قيل هذا الكلام في غير هذا الموقف ، ولواحد غير زيد لغلى الدم في عروقه ، وفعل ما فعل ، إنما بمن الرياضه الإيمانية التي تحلى بها زيد

بقول تعالى في هذه المسألة

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

معنى ﴿وَإِذْ تَقُولُ .. (٢٦)﴾ [الاحزاب] واذكر حيداً واذكر مسألة زيد
 هي رأسب ، انذكر إذ تقول للذي أنعم الله عليه بالإيمان - وامرأه زيد
 - وأنعمت عليه بالعنق أولاً ، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأن جعلته
 بياً لك وأنعمت عليه بأن زوجته ، وهو عبد من قرشية هي ابنة
 عمك ، ثم أنعمت عليه حين قلت له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ
 (٢٧)﴾ [الاحزاب]

لكن ، لماذا قلت له هذه الكلمة يا محمد ؟ أخوفاً من كلام الناس
 أن يقولوا تروج من امرأة مُتَنَبِّهة ؟ كيف وهذا مقصود من الله
 تعالى ، إنه يريد أن ينهي عادة التنبؤ ، وأن ينهيها على يدك أنت ،
 فأنت تحفيه خوفاً من كلام الناس ، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه
 المسألة وأن نهايتها ستكون على يدك بأن تتزوج امرأة مُتَسَمِّكَ
 ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .. (٢٧)﴾ [الاحزاب] فدعك من الناس .

لذلك قال سبحانه في موضع آخر ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ
 وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ .. (٢٩)﴾ [الاحزاب]

وسبق أن أوضحنا أن خشية الله لم تكن خشية خوف من شيء
 بصره ، إنما خشية استجابة لدفع رسول الله الشبهة عن نفسه

وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ رَيْدًا مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا .. (٢٧)﴾
 [الاحزاب] الوطر هو الأشياء التي تناسب معاش الرجل ، فمعه العانة
 أو الحاجة ، وسبق أن قلنا إن وطر الرجل من زوجته أن تكون
 سكا . فمن لم يكن مودة تجمعهما ، فإن لم يكن فرجة متبادلة

وقد افترق ريد من زوجته كل هذه المراحل ، فلم يجد معها ، لا
 السكن ، ولا المودة ، ولا الرحمة ، فلماذا - إن - يستمر في
 الارتباط بها ؟ لذلك كان يذهب إلى رسول الله ، فبشكى له ما يلاقى

من زينب فكان رسول الله ﷺ يقول له

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ وَجْهَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ (٣٧) [الاحزاب]

ونأمل هنا هذه الرياضة الإيمانية بين سيدت رسول الله وزيد وزينب رضي الله عنهما لما صُنِّقَ زيدٌ زينب تركها رسول الله بتقصي عدتها ، فلما قصتُ العدة قال يا زيد اذهب إلى زينب فاخطبها عليّ ، فما هذه العظمة ؟ رسول الله يدعُ المصنِّق ليحطب له المطلقة ، وهذا يدل على ثقته في زيد ، وأنه قد قضى وطره من زينب ، ولم يعد له فيها حاجة .

ويدخل زيد على زينب ، فيقول لها أبشري يا زينب ، لقد بعثني رسول الله لأخطبك له ، فقالت والله لا أحبب حتى أسجد شكراً لله . فقامت زينب فسجدت ، عندها عاد زيد إلى رسول الله ، فأخبره ما كان من ريبب فجاءها رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بلا استئذان^(١)

نرى لماذا يدخل عليها سيدنا رسول الله بلا استئذان ؟ قالوا لأنها حينئذٍ صارت زوجته ، كما قال سبحانه ﴿فلما قضى زيد منها

(١) أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى (١ / ١) من حديث أنس قال : لما انفصلت عنة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ يزيد بن حذافة ما جد أنساً أمي عدي أو أوثق من نفسي حب ، ثم إلى زينب فاخطبها عليّ قال زيد يا زينب ابشري إن رسول الله بكرك . ولكن أخرج ابن سعد أيضاً في الطبقات (١ / ١٩٦) أن رسول الله ﷺ بعد انقضاء مدة رسب أمته خشيعة مَرَّي عنه وهو يتنسم وهو يقول من يذهب إلى زينب يبشرها ب الله قد زوجها من السماء . قال عائشة مخرجت سلمى خادم رسول الله ﷺ شئت متحدثها بذلك فأعطتها أوصها عليها

(٢) قاله أنس بن مالك رضي الله عنه : إن يرب ردت على زيد ما أنا بصانعها شيباً حتى أو مر رمي ، فقامت إلى معندها وبرز القرآن ﴿ فلما قضى زيد منها وطرها رجناكها ﴾ (٤٧) [الاحزاب] قال فجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١ / ١٦١) وابن الأثير في أسد الغابة (٢ / ١٢٥)

وَوَطَّأَ زَوْجَانِهَا ﴿٣٧﴾ [الاحزاب: ٣٧] زَوْجَهُ اللَّهُ مِنْ فَرْقِ سَبْعِ
سَمَوَاتٍ

لذلك كانت السيدة ربيب حين تجلس مع زوجات النبي ﷺ -
وهذه أيضاً من الرياضات لإيمانية - تقول لهن إني لأفتخر عليكن
جميعاً بأنكن زوجكن أوتياؤكن أما أنا فروجنى ربى فلا تجرو
إحداهن على الرد عليها

ليس هذا فحسب إنما تدل أيضاً على سيدنا رسول الله ، فتقول
له يا رسول الله ، أنا أدل عنك بثلاث ، فبصحت سيدنا رسول الله
ويقول أما الأولى ، فتقول أما الأولى فجئى رجبك واحد ، وأما
الثانية فلأن الله زوجنى من فوق سبع سموات ، وأما الثالثة فلأن
سفيرى فى الزواج لم يكن ريباً ، إنما كان خبريل^(١)

هأى عظمة هذه التى لاحظها فى هذه القصة ، وأى رياضة
إيمانية عالية من رسول الله وصحابته

ابن لم يتزوج رسول الله من ربيب ، إنما روجه ربه ، لذلك
نقول للمعمرين بالحوص فى هذه المسألة ، يحسنونها سنة فى حق
رسول الله أفهموا الفرق بين زوج وتزوج نروج أى نفسه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٢) من حديث ابن مالك أن ربيب كاتب تفسر
على الزواج النبى ﷺ تقول « رويكن هاليكن وروجى الله تعالى من فوق سبع
سموات

(٢) ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٤١٢/١٢) بعض هذه اللفاظ من مرسى
القبلى « قد ربيب يا رسول الله ، أنا أعظم مسائل عليك حق ، أنا خيرهن منك
وأكرمهن سفير وأقربهن رجباً ، فروجيتك الرحمن من فوق عرشه وكان جبريل هو
المسفير بذلك وأنا ابنة عمك وليس لك من سبائك مربيته عيرى - أخرجه الطبري
وغيره فى القدماء الطحاوى فى كتاب الحجج والبراهين - »

ويرعبه ، إنما رُوجَ أى رُوجِه عيره ، وكلمة ﴿رُوجَاكِهَا﴾ (٢٧) ﴿[الأحزاب] تحتوى على الفعل رُوجَ واضمير (نا) فاعل يعود على الحق سبحانه ، والكاف لخطاب رسول الله وهى مفعول أول . واللهاء يعود على اسيدة زيب ، وهى مفعول ثانٍ للفعل رُوجَ

فرسول الله فى هذه المسألة ، وفى كل زوجاته لم يحالف عن أمر الله فلتكربوا منصفين ، لأن لمسألة ليست عند محمد إنما عند رب محمد واقربوا إن شئتم ﴿عسى ربّه إن طلقك أن يبدله أزواجاً حيراً فكن منسلمات مؤلمات قاتلات تألمات عابدات سائحات﴾ ثيبات وأبكاراً (٢٥) ﴿[التحریم]

ثم هتوا - جديلاً - أن محمداً فعلها ، ما العيب فيها وقد كان المحدث موحوداً ، ولم يبدشء رسول الله تعدياً ، كان المحدث موحوداً فى الانبياء والرسول ، وفيكم وعبدكم

أما الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه وسع على نفسه ، فبدروج بسفا ، وصيوة على أمته بأربعة فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهات للمؤمنين ، وما نؤمن أمهات للمؤمنين ، فليس لأحد أن يتزوجهن بعد رسول الله ، أما غيرهن من المؤمنات فلأن كان مع الرجل سبعة مثلاً ، فعليه أن يهارق ثلاثة منهن ، وهؤلاء الثلاثة سيجدن من يتزوج بهن ، إذن على الرسول أن يمسك زوجاته كلهن وعلى غيره من المؤمنين أن يفارقوا ما زاد على أربع

(١) صحاح أى صحاح قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعمرهم أكثر ذكر بن كبر فى تفسيره (٢٩ : ٣٠) ثلاثة عشر عالماً آخر قالوا بهذا القول ثم قال وقال زيد ابن سلم وبنه عبد الرحمن سائحات أى مهجرات والعول الأور أبوس والله أعلم
(٢) السيد المدة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلقة أو أرمة قدر ابن منظور فى [نساء العرب عادة ثيب] ، الثيب من النساء التى تزوجت واهترقت زوجها بأى وجه كان بعد من مشها .

شيء آخر تطوبون أن رسول الله وسع الله له هذه المسألة ،
والحقيقة أن الله ضيق عليه إذ ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين .
فالمؤمن له أن يمسك أربع زوجات فإذا ماتت إحداهن تزوج
بأخرى وإن طلق إحداهن تزوج بدلاً منها . فإن مثنى جميعاً
أو طلقهن ، فله أن يتزوج غيرهن حتى يكمل الأربعة وهكذا يكون
للمؤمن أن يتزوج بعدد كثير من النساء

أما رسول الله - يعم تزوج تسعاً - لكن خاصية ربه بقوله ﴿ لا
يجز لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .
(٥٧) ﴾ [الاحزاب] فمن الذي ضيق عليه إذن ؟ محمد أم أمته ؟

ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء في العدد والاستثناء
في المعدود هل استثنى الله نبيه في العدد من أربع إلى تسع ، أم
استثناءه في معدود بذاته استثناءه في المعدود لا في العدد لأنه
لو استثناءه في العدد لكان له إذا ماتت إحدى زوجاته أن يسرع
بأخرى ، إنما وقف به عند معدود بذاته بحيث لو ماتوا جميعاً
ما كان له ﷺ أن يتزوج بعدهن

وبعد ذلك ظل الحكم على رسول الله هكذا ، لا ، إنما كان هي
بداية الأمر وبعد ذلك حينما استقرت الأمور وأمر الله رسوله قال له
افعل ما تشاء ، لأك مأمور على أمتك^(١)

(١) وذلك في قول تعالى « نوحى من نساء منهن نأوى اليك من نساء » (٥٧) [الاحزاب] وذكر
صعق القرطبي في تفسيره القول الفلن بأن هذه الآية ماسقة بقوله تعالى « لا يجز لك
النساء من بعد » (٥٧) [الاحزاب] ويرجع القرطبي (٨ / ٤٤٨٢) ، من مصنف التوسعة على النبي
ﷺ في ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته قال ، وهذا القول هو الذي
يناسب ما مضى وهو الذي ثبت بعده في الصحيحين عن عائشة قالت كنت أعار على الملائكة
وهبن أنفسهن لرسول الله وأقول أو يهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أدرك الله ﷺ ترجى من
نساء منهن (٥٨) [الاحزاب] قالت عائشة والله ما أرى ربك إلا يسارع في موافق

ثم نقول هتوا ان رسول الله له اختبار في هذه المسألة ، ولم تكن مُستعفة ، ألم يُؤدَّ معطَّه هذا إلى إلقاء عابه السيئ ، ثم أُرْعَتْ الرسالة من رسول الله بعد أن فعل ما فعل ؟ إذن لا يتناقض مراد الله ومرد رسول الله

ولذين تناولوا سيدنا رسول الله في هذه المسألة مثل الذين ندوبوا سيدنا يوسف - عليه السلام - لما قال الله فيه ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ (٢٤) [يوسف] وكانتهم أكثر عيرةً على يوسف من ربه عز وجل ، نعم همَّ بها يوسف أي هكَّرَ فيها أو غير ذلك ، ومن نقول بكم على الصواب لفظوا في حشركم ، لكن أروع الله من الرسالة بعد ما همَّ بها " إذن همَّ بها لم يناقض الرسالة ، فم تقولونه في هذه المسألة فضول منكم

ثم تأتي العلة من هذه المسألة ﴿ لَكِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ دُعَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۖ ﴾ (٣٧) [الاحزاب] ثم تحتم الآية بما لا يدع مجالاً لشك في رسول الله ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٣٧) [الاحزاب] أي لا بُدَّ أن يحدث ، ولن يترك لأى شخص آخر ، حتى لا تفسد الفصحة في إلقاء عابه السيئ ، إذن فإرواج رسول الله من امرأة مُتَبَيَّنَّه ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين ، والآن يصح لكل مُتَبَيَّنَّ أن يتزوج امرأة مُتَبَيَّنَّه

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨)

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٣٨) [الاحزاب] أي

إِثْمَ أَوْ عَلَامَةٍ ﴿فِيْمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ﴾ .. (٣٨) ﴿[الْأَحْزَابِ] أَيْ كَيْفَ تَلْعَمُونَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى تَنْفِيزِ أَمْرِ فَرَضَهُ اللَّهُ لَهُ وَنَاطِلِ ﴿فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ﴾ .. (٣٨) ﴿[الْأَحْزَابِ] أَيْ لِمَ صَالَحَهُ وَلَمْ يَقُلْ فَرَضَ عَلَيْهِ ۚ مَا دِمَ أَنْ اللَّهَ هُوَ الَّذِي فَرَضَ هَذَا ، فَلْتُصْعِدُوا الْأَمْرَ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ لِرَسُولِهِ دَنْبٌ فِيهِ

وهذه المسألة تشبه تماماً مسألة الإسراء ، فحين خبر سيدنا رسول الله قومه بخبر الإسراء قالوا يا محمد ادّعي أنك أتيت بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها كباد الإبل شهراً^(١) ، وهذا عباء منهم لأن محمداً لم يقل سريت إنما قال أسرى بي فالذي أسرى به ربه - عز وجل - إن المسألة ليسب من فعل محمد ولكن من فعل الله .

وسمى أن ضربنا لذلك مثلاً توضيحياً - والله المثل الأعلى - قلنا هَبْ أَنْ رَجُلًا قَالَ لَكَ أَمَا صَعِدْتُ بُولَدِي الصَّغِيرَ قَمَةً (إفرست) أتقول له كيف صعد ولدك قمة (إفرست) ؟

لكن انتقمنا الآن بقول المكذّبين ادّعي يا محمد أنك أتيت بيت المقدس في ليلة وبحر نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، لأن عباء المكذّب يؤدي به إلى عكس ما قصده من عبائه ، فهذا القول اتخذناه الآن دليلاً للرد على مَنْ يقولون بأن الإسراء كان رؤيا ، أو كان بالروح دون الحسد

فلو قال رسول الله رأيتُ في الرؤيا أنني أتيتُ بيت المقدس ما

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٦) لما أصبح رسول الله - بعد الإسراء به - على قريش فاجتمعهم الخبر فقال أكثر الناس هذا والله الإمر النبوي والله إن الخبر لنظروا شهراً من مكة إلى شام مدبره وشهراً مقبله فذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ٤

قالوا هذه المقالة ، إذن فهم القوم أن رسول الله أتى ميت المقدس بروحه وجسده ، وإلا ما قدرنا بين نهبهم وذمابه ، فالذين عاصروا هذه الحادثة قالوا هذه المقالة ، فكيف تأتي اليوم لنقول إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد ؟

وقوله تعالى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ (٢٨) [الاحزاب] أي إخوانه من الرسل السابقين ، أو فيما كان قبل الإسلام من التعداد فلم يكن رسول الله ندماً في هذه المسألة

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨) [الاحزاب] تلحظ أن الآية السابقة خُتِمتَ بقوله تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧) [الاحزاب] فنقائل أن يقول نعم مفعولاً في هذا الوقت الذي حدثت فيه هذه الأحداث ، لذلك قال هنا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨) [الاحزاب] أي أن ما حدث لرسول الله كان مقدراً أولاً ولا شيء يخرج عن تقدير الله ، وقد صح أن القلم قد جف على ما كتبت ، وعلى ما قدر

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ

أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَهَنَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩)

وكان الحق سبحانه يُعيدنا إلى قوله تعالى في نبيه محمد ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (٣٧) [الاحزاب] فالرسول

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٥٠٧٦) أن أبا هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن رجل شاب وإذا أضاف على نفسه العيب ، ولا أحد ما أتزوج به النساء ، فسكت عني ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عني ، ثم قلت له مثل ذلك ، فسكت عني ، ثم قلت مثل ذلك فقال النبي ﷺ « يا أبا هريرة ، جفأ الفلم بماء أنت لاق ، وكنا أخرجك من أبي عاصم في السنة (٥٠/١ ، ٤١) ، والساسى في سنة (٥٩/٦)

لا يَخْشَوْنَ شَيْئاً فِي الْبَلَاغِ عَنْ اللَّهِ ، فَكَانَ مَعَالَى نَفْسٍ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ
أَنْ تَكُونَ خَشْيَتُهُ فِي الْبَلَاغِ ، إِنَّمَا خَشْيَتُهُ اسْتِحْبَابُهُ مَخَافَةً أَنْ تَلُوكَهُ
أَلْسِنَةُ قَوْمِهِ ، وَإِلَّا فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لَهُ شَيْئاً يَضُرُّهُ أَوْ يَنْفَعُهُ

نلاحظ هنا أن ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا
إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٣٩) [الأحزاب] هذه عبارة مبتدأ^(١) لم يُحَرِّعْ عَنْهُ لَأَنَّ قَوْلَهُ
تَعَالَى ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩) [الأحزاب] ليس خبراً لهذا المبتدأ ، إنما
هو تعليق عليه ، فإين خبر هذا المبتدأ ، قالوا تقديره ، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ
رِسَالَاتِ اللَّهِ .. لَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَّهَمُوا بِأَنَّهُمْ حَشَوْا النَّاسَ مِنْ أَجْلِ الْبَلَاغِ

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩) [الأحزاب] أَي أَنْتُمْ لَنْ تَحْسَبُوهُمْ ، إِنَّمَا
سَيَحْسِبُهُمُ اللَّهُ ، وَكَانَ مُقْتَضًى الْحِسَابِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِنْ فَعَلَ مَا لَا
يَصَحُّ مِنْهُ أَنْ تَسْحَبَ مِنْهُ الرِّسَالَةُ ، وَأَنْ يَأْتِيَ اللَّهَ بِسَبِيٍّ آخَرَ ،
وَلَمْ يَحْدِثْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا .

ثم يعود السياق إلى أمر آخر هي قصة التثني ، فيقول سبحانه

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾

قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ .. ﴾ (٤٠) [الأحزاب]
لَأَنَّ عِلَاجَ قِصَّةِ النَّبِيِّ أَهَمُّ مِنْ أَبِيئِهِ ﷺ لِأَنَّ أَحَدَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ
رَسُولَ اللَّهِ لَا أَنْ أَبِيئِهِ لِأَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ بَشْيَاءٌ ، إِنَّمَا يَنْفَعُهُ الْبَلَاغُ عَنْ
اللَّهِ ، وَأَنْ يَحْمَلَ لَهُ سَهْجَ رَمَةِ الدِّمَى يَسْعِدُهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ (٣٩) [الأحزاب] مفعلاً لـ ﴿ الَّذِينَ ﴾

خبراً من قبل ﴿ (٣٨) [الأحزاب] ﴾

إِنَّ مَعْرِضَكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ كَرَسُولِ أُولَىٰ مِنْ مَعْرِضِكُمْ بِهِ كِتَابٍ
وَالْأَفْأَمَّا أَكْثَرُ مِنْ لَهْمِ آتَاءِ وَهُمْ أَشْقِيَاءُ فِي الْحَيَاةِ لَا قِيَمَةَ لَهُمْ

وقوله ﴿مَا كَانَ ..﴾ [الاحزاب] النبى هـا يفيد الجحود فهو
ينكر ويجحد أن يكون محمد أباً لأحد من رجالكم ، وتأمل عظمة الاداء
القرآنى فى كلمة ﴿مَنْ رَجَالِكُمْ﴾ [٤٠] [الاحزاب] ولم يقل مثلاً انا أحد
مكم بصاد ، قالوا لانه ﷺ كان انا لعبد الله وللناسم ولإبراهيم ،
وكانوا جميعاً منهم ، وهو ﷺ أسرههم ، فجاءت كلمة ﴿رَجَالِكُمْ﴾ ..
[٤١] [الاحزاب] لتُصريح هؤلاء الثلاثة ، لأنهم لم يبلُغوا مبلغ ارجال ،
محمد ما كان ابداً انا أحد من ارجال وإن كان أباً لأولاد صغار لم
يصلوا إلى مرحلة ارجولة

وقوله ﴿وَلَنَكُنْ .﴾ [٤٢] [الاحزاب] أى أنهم من أئوته أن يكون
رسول الله ﴿وَلَنَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ..﴾ [٤٣] [الاحزاب] ليس هذا فحسب ،
ولكن أيضاً ﴿وَحَاتَمِ النَّبِيِّينَ .﴾ [٤٤] [الاحزاب] أى الرسول والنبي
الذى يختم الرسالات ، فلا يستدرج عليه برسالة جديدة

ومنه من المسائل الى وقف عندها المستشرقون معترضين ،
يقولون جاء فى لقرآن ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ
كِتَابٍ وَحُكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ تَتُومِنُ بِهِ
وَلَنَبْصُرَنَّهُ .﴾ [٥٨]

ومحمد ﷺ من ضمن الأنبياء الذين أخذ عليهم هذا العهد ، بدليل
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ..﴾ [٥٧] [الاحزاب]

إِنَّ أَخَذَ اللَّهُ لِعَهْدٍ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ مَنْ ضَمِنَ مِبَادِيَهُمْ أَنْ يُبْلَغُوا
قَوْمَهُمْ بِمَقْدِمِ رَسُولٍ جَدِيدٍ وَأَنَّهُ إِذَا جَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ ،
وَأَنْ يَبْصُرُوهُ ، كَمَا بَشَّرَ مَثَلًا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

فَقَالَ ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ..﴾ (٤٦) . . .

فكيف يحسر الله عن محمد أنه حاتم الببين وهو واحد منهم ؟
يقول نعم هو واحد منهم لكن إن كانوا قد أمرو بأن يُبشِّروا وأن يُبلِّغوا أقوامهم برسول يأتي ، فقد أمر ﷺ أن يُبلِّغ قومه أنه حاتم الانبياء والرسول

لذلك يُروى أن رجلاً ادَّعى النبوة في زمن المأمون فامر به فوُضِعَ في السجن ، وبعد عدة أشهر ظهر رجل أحمر يدعى النبوة ، مرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر ، فأحضر المدعى الأول وقال له إن هذا لرجل يدَّعي أنه نبي ، فمادنا تقول فيه ؟ قال هو كذاب ، لأنني لم أرسل أحداً .. فارتقى إلى منزلة لالوهية ، لا مجرد أنه نبي

والمرأة التي ادَّعت النبوة أيضاً في زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قال لها ألم تدعي أن رسول الله قال لا نبي بعدى^(١) ؟ قالت بلى ، ولكنه لم يقل لا نبيه بعدى

ثم يحتمل الحق سبحانه هذه امسألة بقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٤٦) [الأحزاب] وما دام أن الله تعالى عليم بكل شيء فليس لأحد أن يعترض ، لأنه سبحانه هو الذي يضع الرسول المناسب في المكان المناسب والزمان المناسب ، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان

(١) مما رُوِيَ ليلاً على أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ حديث سعد بن أبي وقاص قال : « حنف رسول الله ﷺ على بن أبي طالب في عروه نبوك ، فقال يا رسول الله بطعنني في النساء والنسب قال أما ترضى أن تكون عسى بعدولة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدى ، لمرجه أحمد في مسنده (١٨٢ / ١)

ثم يقول الحق سبحانه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝١١﴾

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝١٢﴾

أمرنا ربنا سبحانه بذكره ذكراً كثيراً ، لأن الذكر عمدة العبادات
وأيسرهما على المؤمن . ذلك نجد ربنا يأمرنا به عند الانتهاء من
العبادات كالصلاة والصيام والحج . وجعله سبحانه أكثر فقال
﴿ولذكر الله أكبر .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

والذكر شغل الذاكرة ، وهي منطقة في المخ قلنا إن المعلوم
يستقبلها الإنسان في بؤرة شعوره ، فإذا أراد أن يحتفظ بها بحير
الحاجة إليها حفظها في الحافظة ، أو في حاشية الشعور ، فأنث مثلاً
تري شخصاً فتقرر هذا الرجل لم أره منذ عشرين سنة ، وحر مرة
رينه كان في لمكان العلامى

إن الذكر لشيء كان موحوداً في بؤرة الشعور ، الذكر يعنى
فصصة موجودة عند مواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلت
عنها علة بقتها إلى حاشية الشعور أو الحافظة ، بعد ذلك يريد منك
ألا تساهما في الحاشية أو في منطقة بعيدة حيث تحتاج إلى مجهود
لتذكرها ، إنما جعلها دائماً في منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك
تذكرها دون عناء

وكذلك بمعنى أن يكون ذكرك لله ، فهو القصيدة الحيوية التي
ينبغى أن تظل على ذكر لها دائماً وائداً ، وكيف تسمى ذكر ربك وقد
أخذ عليك العهد ، وأنت في عالم الدر وأخذت الإقرار بربه سبحانه

رَبُّكَ ، الحق سبحانه خلق العقر ليستقبل المعلومات بوسائل الإدراك
كما قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)

[البحر]
فكان السمع والبصر هما عمدة الحواس ، وبهما يعلم ما لم يُكْرَم
معلمه حين تولدنا من بطون أمهاتنا ، ونحن حين نستقبل المعلومات
نظن بعض الناس أن الناس يختلفون في ذلك دكاءً وبلادةً ، فواحد
يلتقط المعلومة من مرة واحدة ، وآخر يحتاج إلى أن تعيدها له عدة
مرات .

والواقع أن العقل مثل آلة (الموتوعراي) يلتقط المعلومة من مرة
واحدة شريطة أن يكون خالياً ومستعداً لاستقبالها غير مشغول
بغيرها ، لأن مؤثرة الشعور لا تسع ولا تستوعب إلا فكرة واحدة
وهذه المسألة تناولناها في قوله تعالى ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ
فِي حَوْفِهِ ۖ ﴾ (٢٤)

[الأحراب]
فالإنسان لدى هو الذي لا يشغل به أمرين في وقت واحد ،
ولا يفكر في شيء وهو يصدد شيء آخر ، فإذا كانت مؤثرة الشعور
حالة فالتناس جميعاً سواسية في النقاط المعلومة

لذلك ، المدرس الموفق هو الذي يستطيع أن يجتذب إليه انتباه
التلاميذ ، ولا يعطيهم الفرصة للانشغال بغير الدرس وهذا لا يتأتى
إلا بالتلطف إليهم وإشراكهم في الدرس بالأسئلة من حين لآخر ، ليظل
التلميذ متوقفاً لأن يسأل فلا يشغل ذلك رأياً أن الطريقة الحوارية
هي أنجح طرق التدريس ، أما طريقة سرد المعلومات فهي تجعل
المدرس في وادٍ والتلاميذ في وادٍ آخر كل منهم يفكر في شيء
يشغله

وسبق أن قلنا إن الطالب حين يعلم بهمية درس من الدروس فيذاكره وهو ذائب للامتحان وهو يصعد السلم إذا جاءه هذا لدرس يجيب عنه بنصه ، لماذا ؟ لأنه ذاكره في الوقت الحرج والفرصة ضيقه لا تحتل انشغاله ولا تهاوناً ، فيلتقط العقل كل كلمة ويُسجلها . فإن أراد استرجاعها جاءت كما هي ، لماذا ؟ لأنها صدفَت العقلَ حالياً غير مشغول

وتأم عظمة الخالق سبحانه في مسألة التذكُّر فالذكرة جزء صغير في المح ، فكيف بالطفل الصغير الذي لا يتجاوز اثمثة يحفظ القرآن كاملاً ويُعيدُه عليك في أي وقت ، وبحر نتعجب من شريط التسجيل الذي يحفظ لنا حلقة أو حقتين

والقرآن ليس حفظاً بحسب ، إنما معايشة ، فحروف القرآن ملائكة ، لكل حرف منه ملك ، والملك يحب من يؤدُّه ، فإذا كنت على صلة بالقرآن تكثر من تلاوته ، مكنك تود الملائكة ، فساعة تريد استرجاع ما حفظت تراصت لك الملائكة ، وجرى القرآن على لسانك فإن هجوته محرك ، وثقلت من ذاكرتك ، لذلك حذرنا رسول الله ﷺ من هجر القرآن فقال « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفصيلاً من ليل في عقلها »^(١)

وسبق أن قلنا إن الذكر هو العبادة الوحيدة التي لا تكلف شيئاً ، ولا تُعطى جراحة من حوارحك ، ولا يحتاج منك إلى وقت ، ولا إلى مجهود ، وليس له وقت محصور فمن ذكر الله قائماً وذكر

(١) تفصّل من الشيء ، يحلّس . ومعنى قوله ﷺ عن القرآن « هو أشد تفصيلاً من فرب الرجال من ألحم من عقلها » أي أشد ثقلًا وحرجًا [لسان العرب - مادة فصي

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١ - ٤٢٢) من حديث أبي مسعود وأخرجه مسلم في صحيحه

(٧٩١) كتاب حلال المسافرين من حديث أبي موسى الأشعري

الله قاعداً وذكر الله على جنبه عُد من الذاكرين - هذا بالنسبة لوضعك - ومن ذكر الله بُكْرَة وذكر الله أصيلاً أو غدراً وعشياً ، أصبح من الذاكرين - هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثلاثين مرة في اليوم كُتِب من الذاكرين ، ومن استيقظ ليلاً مايقظ أهله ، وصلى ركعتين فهر من الذاكرين

إذن فذكر الله مسألة سهلة تستطيع أن تذكر الله ، وأنت تفعل بالفأس ، أو تكتب بالقلم تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب إلخ فذكر الله وإن كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهل هين

وقوله تعالى ﴿وَسُحُورُهُ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ (١٢) [الاحزاب] التسميع هو التقديس ، والتقديس هو التنزيه ، فعن أى شيء نُذره الله ؟ قالوا بصره الله في داته وهي أفعاله ، وهي صفاته والله تعالى له وجود ، ولك أنت وجود ، وللنهر وللحبل وجود لكن وجوده تعالى ليس كوجود ما سواه ، وحده تعالى عن غير عدم ، أما وجود ما سواه فوجود عن عدم ، هذا في الدات .

أما في الأفعال ، فانه تعالى له فعل كما أن لك فعلاً ، لكن بزمه ربك أن يكون فعله كفعلك وهذا ما قلناه في حادثة الإسراء والمعراج وهي المرو بين سرى وسرى به ، فإذا كان الفعل لله تعالى فلا تنتظر إلى الزمر لأنه ليس فعلك أنت ، بل فعل الله وفعل الله بلا علاج ، إس بقول بل شيء كُنْ سيكون

وقلنا إنه حتى في طاقات البشر نجد الفعل يأخذ من الزمن على قدر قوة ماعله ، فالولد الصغير ينقل في ساعة ما ينقله الكبير في

دقيقة ، فلو قُسِّتَ فعل الله بقدرته تعالى وحدث الفعل بلا زمن

كذلك نُزِّهَ الله في صفاته ، فإله تعالى له سمع نُزِّه أن يكون كسمعك ، وله وجه نُزِّه أن يكون كوجهك إلخ كل هذا في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١٦)﴾ [الشورى]

وحين تستعرض آيات التسميع في القرآن تجدها كثيرة ، لكن للتسميع طابع خاص إذا جاء في استهلالات السور ، ففي أول الإسراء . ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء]

فبدأت السورة بتزيه الله لما تحتويه من أحداث عجيبة وغريبة ، لذلك قال بداية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] فإله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أن يفعل ، وسبحان الله قبل أن يوحد المسبح ، كما أنه تعالى خالق قبل أن يوجد من خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً حلو ، كما قلنا في الشاعر تقول فلان شاعر ، هل لأنك سمعت به قصيدة أم هو شاعر قبل أن يقولها ؟ هو شاعر من أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال

والمنتبح لالفاظ التسميع في القرآن يجد أنه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق المسبحين في قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] ثم بعد أن خلق الله الخلق ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١)﴾ [المشر]

وما يزال الخلق يُسَبِّحُ في الحاضر ﴿يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (١)﴾ [البقرة] فتسبيح الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألا يخرج عن هذه المنظومة المسبحة ، فيقول له

﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

وجاء الامر بذكر الله وبعد الامر بتسبيحه تعالى ، وكأنه يقول لك كلما ذكرته نزهه دائماً وصفاتاً وأعمالاً ، فمن مصلحتك في رحلة الحياة ألا يكون لله مثيل ولا شبيه ولا نظير ولا مد ، لأن الجميع سيكونون تحت عدله سبحانه ، فتتزيه الله لمصلحتك أنت أيها المسبح .

وسبق أن ذكرنا في ذلك قول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشتري له كبير) ، فوجود كبير فوق الجميع يحميك أن يتكبر أحد عليك ، إن عظمته تعالى وكبريائه من أعظم النعم علينا ، ساعة تُسبحه وتُزَّهه احمد الله لأنه مُنْزَه احمد الله أنه لا شريك له ، وأن الناس جميعاً بعده سواء ، احمد الله لأن كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب .

وكيف لا نذكر الله ولا نُسَبِّحه وبحمده ، وهو سبحانه الذى خلق اسطقس ، وقيل أن يخلقهم ربُّ لهم عاياتهم - والخلق إيجاد على تقدير لغية - بل وأعد لهم ما يخدمهم . مطراً الإنسان على كون معداً لاستقباله ، فقبل أن يخلق خلق له

ثم ما كلفك بمهجه مباشرة ، إنما تركك تربع في نعمه . منذ ميلادك إلى سن البلوغ بدور تكليف ، ومعنى البلوغ أن تصل سن الرشيد تستقبل على الله بعقل وفكر ، فالدين ليس تقليداً إنما عقيدة واقتناع

وسبق أن شبهنا نصج الإنسان بنصج الثمرة ، فالثمرة لا تحلو إلا حين تنضج بدرتها ، وتصير صالحة للإنسان إن زُرعت ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه ، ولو أن الثمرة تحلو وتستوى قبل نضج

بدرتها لأكلها الثمار مرة واحدة ، وبما انفع منها أحد بعددنا ، ومثلنا
بذلك ببذرة الطيخ إن وحدتها سوداء صلبة فاعلم أن ثمرتها استوت
وحلت وصارت صالحة للأكل ، وهذه المسألة جعلها الخالق سبحانه
لحفظ النوع

شيء آخر بعد أن بلغت سنَّ التكليف ، جاءك التكليف مستمراً على كل حركة في حياتك ؟ أحياء قيّداً لك ؟ حين تتأمل مسائل التكليف تجدها في نطاق محدود أمرك الله فيه بفعل كذا ولا تفعل كذا ، وهذه المنطقة لا تشغل أكثر من خمسة في المائة من حركة حياتك ، وترك لك سبعة الخمسة والتسعين أنت حرٌّ فيها ، تفعل أو لا تفعل ، فأىُّ عظمة هذه ؟ وأىُّ رحمة التي يعاملنا بها ربنا عز وجل وهذا إن دُلَّ فإنما يدلُّ على حبِّ الخالق سبحانه لحلقه وصنعه . أفلا يستوجب ذلك منا ألا نفعل عن ذكره ، وأن نكثر من تسبيحه وشكره ، في كل عدوة وعشبة .

والاعظم من هذا كله أنه - سبحانه وتعالى - جعل ذِكْرَ له
وتسبيح إياه لصالحك أنت ، وفي ميزانك ، لذلك قال في الآية التي
بعدها

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيْمًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿﴾

معنى ﴿الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ .. ﴿٤٣﴾ [الاحزاب] الصلاة هي الدعاء ، والدعاء لا يكون إلا بطلب الخير للداعي . ولا يدعو إلا قادر على هذا الخير ، وعليه كيف سبهم هذا المعنى " أيُدعو ربّ نفسه تبارك

وتعالى ٩ قالوا إذا كنت نهاية الصلاة طلب الخير ، وهنا الخير إذا طلب حصل ، فالحق سبحانه هو الداعي وهو الذي يملك مفتاح الخير كله ، فهو الذي يُصلى عليكم ، وهو الذي يعطيكم ، وهو الذي يرحمكم

وايضاً نُصلى عليكم الملائكة ﴿وَمَلَائِكُتْهُ﴾ (٤٣) ﴿[الاحزاب] وقد اخبرت سبحانه عنهم أنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٧٧) ﴿[الانباء]

وقال ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) ﴿[النحریم] والملائكة أقسام منهم المكلفون بخدمتنا ومناصتنا في الأرض ، ومنهم من يحفظنا من الأحداث التي قد تفاجئنا بإقدار الله لهم عليها ، ومنهم الحفظة والكرام الكاتون ، وهؤلاء الملائكة المتعلقون بنا هم الذين أمرنا بالسجود لآدم عليه السلام في قوله تعالى ﴿إِذَا سُوِّيَتْ وَنُفِخَتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاحِدِينَ﴾ (٢٩) ﴿[الحجر]

وهذا دليل على أنهم سيكونون في خدمته

وكان الله تعالى قال لإبليس طعتُ منك أن تسجد لآدم ، وطلب من الملائكة وأنت معهم ، فإن كنت من الملائكة فيسبغى أن تستجيب ، وإن لم تكن من الملائكة وحشرك سطاغتك في رمرتهم كان يجب عليك أن تطيع لأن الأعلى منك سجد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثل والله تعالى المثل الأعلى قُلْنَا إذا أعز في أحد الدواوين الحكومية أن الرئيس سرور هذا الديوان يوم كذا ، وعلى الوزراء أن يصطفوا لنحيته ، ألم يشم هذا الأمر وكلاء الوزارة من باب أولى ؟

فَإِذَا قَالَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ وَكَانَ مِنْهُمْ إِبْلِيسَ وَهُوَ أَقَلُّ
مِنْهُمْ ، فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْجُدَ ثُمَّ إِنَّ كُنْتَ يَا إِبْلِيسَ أَخَذْتَ مَغْزَلَةً أَعْلَى
مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِالطَّاعَةِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ طَاعَتِكَ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ،
فَأَمَّا مَلُومٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ، وَالْجِنُّ مَخْتَارٌ ،
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ

وهذا نوع آخر من الملائكة لا دخل لهم بالإنسان ولا بديار ،
وهم الملائكة العالون أو المهيمون ، وهم الذين قال الله فيهم لما أبى
إبليس أن يسجد قال له ربه

﴿ ائْتِكِرْبِ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥)

وهؤلاء العالون لم يشملهم الأمر بالسجود لأنهم لا يدرون شيئاً
عن آدم ، وليس بهم علاقة به وأخصهم حملة العرش وهم أكرم
الملائكة ، وهؤلاء هم الذين يُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ بَعْدَ أَنْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكُمْ ،
لذلك يَبَيِّنُ لَنَا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ وَدَوْرُهُمْ فِي الصَّلَاةِ غَلِيظٌ
وَالِاسْتِغْفَارِ لَنَا ، فيقول سبحانه

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٧٦)

فهؤلاء هم أخص الملائكة وأكرمهم يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ
بِهِ ، بَلَى مَا فَتَنَدَهُ (يؤمنون به) بعد أن سَبَّموه ؟ قالوا لأن
التسبيح قد يكون عن خوف ورهبة ، ما تسبيح هؤلاء فتسبيح عن
حبٍّ وعن إيمانٍ ، وأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يُسَبِّحَ ، ومن مهام
هؤلاء أيضاً أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وإن لم تكن لهم علاقة

بالناس ولسوا فى حدمهم ، إلا أنهم يُصلُّون عليهم ولسعرون لهم

إنّ نقول الصلاة من مالك الدعوه القادر على الإجابة رحمه وعطف وحنان ، والصلاة منّ دونه دعاء للقادر المالك للحير ، فهم يدعون الله للمؤمنين ولسعفرون الله لهم بل ولسالغور فى ادعاء ولسعطفون فيه ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧)﴾ [عافر]

بل لم يلقوا عند حدّ طلب النجاة للمؤمنين من النار ، إنما يطلبون لهم الجنة ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨)﴾ [عافر]

ثم يريدون على ذلك ﴿رفهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفرر العظيم (٩)﴾ [عافر]

وواش ، لو أراد المؤمن أن يدعو لنفسه ما وجد أعظم ولا أشمل من دعاء الملائكة له ، فبعد أن طلبوا له المفرة والنجاة من النار لم يتركوه هكذا فى أهل الأعراب ، لا هم فى الجنة ، ولا هم فى النار ، إنما سألوا الله لهم الجنة عملاً بقوله تعالى ﴿ومن رُحرح عن النار وأدخل الجنة فقد هار .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وهذه المسألة من المسائل التي وقف أمامها المستشرقون ، مقالوا إنها تتناقض مع الحديث النبوى « ما من يوم تطلع شمسه إلا ويبادى ملكان يقول أحدهما اللهم أعذ مُنقفاً خلفاً ، ويقول

الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً^(١) ، فكيف تقبلون إن الملائكة
يدعون للناس بالخير وهم يدعون عليهم بأشر ؟

وهم معذورون في اعتراصهم ، لأن ملكاتهم لا تستطيع فهم
لمعاني في الحديث الشريف ، والتناقص في نظرهم في قوله ﷺ
« ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً » ، فلاولى واصحة لا تناقص
فيها ، لأنها دعوة بالخير أما الثانية فهي دعوة بالأشر « اللهم أعط
ممسكا تلفاً »

ولو تأملوا نص هذه العبارة لوجدوا فيها الجواب ، فالتلف يُعطى
أم يؤخذ ؟ المفروض أنه يؤخذ ، فحين يقول رسول الله « اللهم أعط
ممسكا تلفاً » فاعلم أنه عطاء لا أخذ وإن كان في ظاهره تلفاً ،
والمعنى أن شيئاً شغلك وفتك فتصيبك فيه مصيبة تخلصك منه
فتعود إلى ربك إذن هو أخذ في الظاهر عطاء في الحقيقة

ثم يبين لنا الحق سبحانه العلة في صلاة الله وصلاة الملائكة
على المؤمنين فيقول ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..﴾ (١٣) ﴿
[الاحزاب] فكان مبهج الله بأفعل ولا تفعل هو أول صلاة الله علينا لأنه
اوسيلة التي تُخرجك من الظلمات إلى النور ، وجاء هذا بالشيء
الحسيّ لأنفس عليه المعنوي ، فأنت في النور ترى طريقك ونهنتى
إلى عانيتك فلا معاطب ، أما في الظلام فتتخبط خطاك وتصير الطريق
في لظلام ، تسير على غير هدى ، وعى غير بصيرة ، فتخطم
لأصعب منك ، ويحطبك الأقوى منك

والنبي ﷺ يوجهها حين ينام بالليل أن نطفئ المصابيح فيقول

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

« وأطفئوا المصابيح إذا رقدتم »^(١) وقد أثبت العلم أن للأنوار المضاءة أثناء النوم تأثيراً ضاراً على صحة الإنسان ، وأنه لا يربح في الضوء الراحة التامة بما يصيبه أثناء النوم من إشعاع الضوء كما حذرونا أيضاً من التعرض لأضواء التليفزيون مثلاً

إذن للنور مهمة ، وللظلمة مهمة - هذا في الحسيات .

كذلك مبهج الله بأهمل ولا تفعل هو النور المعنوي الذي يقيك العطب ، ويمنحك الإشراقات التي تهتدي بها في دروب الحياة ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحراب]

لكن إن كان سبحانه رحيماً بالمؤمنين ، فما بال الكافرين ؟ قالوا هو سبحانه بالكافرين رحمن ، فإله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، لأن رحمن الدنيا يعني أن حيره يعم الجميع المؤمنين والكافرين ، والطائع والعاصي ، أما هي الآخرة فتتجلى صفة الرحيم ، لأن رحمته في الآخرة بحصر المؤمنين دون غيرهم

والحق سبحانه حين يقول ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٣٥﴾ [الزمر] لا يعني هذا وصفاً لذاته سبحانه ، إنما يعني أنه سبحانه نور السموات والأرض أي منورها كما يقول المصباح نور المسحر .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقول أمي تمام في مدح المعتصم

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٨) من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « إذا استجبح الليل - أو كان جرح الليل - فكفوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنقشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فسلوهم وعلى بابك ، وادكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك ، وادكر اسم الله ، وأوك سقاك ، وادكر اسم الله وحمر إماءك ، وادكر اسم الله ولو تمر من عليه شيئاً »

إِذْ كَانُمْ عَمْرُو فِي سَمَاحَةِ حَادِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ
وعمرُو مضرب العنل عند العرب في الشجاعة ، وحاتم في
الكرم ، وأحنف بن قيس في الحلم ، وإياس بن معاوية في الذكاء
فقام إليه أحد الحاضرين وقال له - وكان حاقداً عليه - أمير
المؤمنين فوق ما تقول ، أشبَّهه بأجلاف العرب ؟ وأنشأ يقول
وشبَّهه المذَّاح في البأسِ والندى بمن لو رآه كان أصغر حادِمٍ
ففي حَيْشِهِ حَمْسُونَ أَلْفًا كَعَمْرٍ وفي حُرَابِهِ أَلْفُ حَاتِمٍ
عندهم أطرق أبو تمام هُنيئة ، ثم قال
لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُودًا فِي انْدَى وَإِيَّاسٍ
فَاللَّهُ قَدْ صَرَبَ الْأَقْلُ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ
إذن فالنور المعنوي يُجَنِّبُكَ العطب المعنوي ، كما أن النور
الحسي يُجَنِّبُكَ العطب الحسي . لذلك قال سبحانه عن نوره ﴿ تَوَرَّ عَلَى
نُورٍ ۚ ﴾ [النور] يعنى نور حسي يقيكم المعاطب الحسية ، ونور
معنوي يقيكم المعاطب المعنوية ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ ﴾ [النور]
[النور] والمراد به هنا النور المعنوي الذي يهتدى به المؤمن ويسير
عليه أما الكافر فهو لا يعرف إلا النور الحسي فقط
فإِنْ سَأَلْتَ فإين تجد هذا النور يا رب ؟ يُجَنِّبُكَ رَبُّكَ ﴿ لِي
يُوتَ أَذُنُ اللَّهِ أَد تَرْفَعُ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦)
رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿ [النور] (٣٧)
فإن أردت النور الحق فهو في خلوتك مع ربك وفي بيته ، حيث
تتجلى عليك إشراقاته ويفمرك نوره

وقبل أن تترك مسألة صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين
نذكر صلاتك نحن على النبي ﷺ عملاً بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا
(٥٦)﴾ [الاحزاب]

فالصلاة من الله تعالى تعني الحنان والرحمة والعطف ، والصلاة
من الملائكة تعني الدعاء واطلب من الذي يملك ، أما الصلاة منا نحن
على سيدنا رسول الله ، فالبعض يظن أنها دعاء منا لرسول الله ، وهي
ليست كذلك ، لأنك تقول هي الصلاة على رسول الله اللهم صل على
محمد ، فأنت لا تصلي عليه ﷺ ، إنما تطلب من الله تعالى أن يصلي
عليه . لكن كيف تطلب من الله أن يصلي على رسوله ؟ قالوا لأن كل
خير ينال الرسول منثور على أمته

والحق سبحانه وتعالى لم يدع محمداً يصلي عليه كل من آمن
به ، ثم لا يرد رسول الله عليه هذه التحية بصلاة مثلاً ، فقال
سبحانه ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (١٠٢) [التوبة] وكأنها
ردٌ للتحية وصلاة المؤمنين على رسول الله ﷺ
ثم يقول الحق سبحانه

﴿يَحْيِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (٤١)

الكلام هنا عن الآخرة ، وهذه التحية ، وهذا السلام ليس منا ،
ولكن من الله ، كما قال في موضع آخر ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ
(٥٨)﴾ [س]

فالرحمة التي ننالها ، والعصف واحسان من الله لنا في الدنيا

يعنى سداداً فى حركة الحياة واستقامة فى السلوك ، وراحة للبال ، واطمئناناً للنفس ، لكن مع هذا لا تخلو الدنيا من منغصات وأحداث تُصيبك . أما رحمة الله فى الآخرة فهي سلام تام لا يُغصه شيء . وإنسان أيضاً يتمتع بسعم الله فى الدنيا ، لكن يُغصها عليه حشية قوتها

أما فى الآخرة فيتمتع بمتعة خاصة لا يغصها شيء ، فالنعمة دائمة باقية لا يَفُوتها ولا تَقُوت . لقد كان فى الدنيا فى عالم الأسباب وهو الآن فى الآخرة مع المسبب سبحانه الذى يقول ﴿ يَوْمَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦٦) ﴾ [عافر]

لكن ما لمراد بقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَفْقُونَهُ (١٦٦) ﴾ [الاحزاب] أيوم القيامة للشواب ، أم يوم يَفْقُونَهُ بالموت وبانتهاء الحياه ، كما نقول مثلاً فى الموت فلان لقي ربه ، قالوا المؤمن لا يأتيه ملك الموت إلا إذا سلم عليه أولاً قبل أن يقبض روحه ، فإذا سلم عليه فهذا يعنى أنه من أهل اسلام ، وهذه أول مراتبه وقد يكون المراد السلام التام الذى يُلْقاه المؤمن يوم القيامة حيث يجد سلاماً لا منغصات بعده

لذلك نجد ان سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعانى سكرات الموت تقول له السيدة فاطمة لما رأت ما يعانى واكربه يبتاه ، فيقول لها « لا كرب على أميك بعد اليوم » فأى كرب على رسول الله بعد أن ينتقل إلى حوار ربى إلى السلام النهائى الذى لا خوف بعده

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه فى سننه (١٦٢٩) من حديث سى بن مالك أن رسول الله قال لفاطمة عندما سمع مقالبتها « لا كرب على أميك بعد اليوم » إنه قد حضر من أميك ما ليس بتارك منه أحد المرافقة يوم القيامة وأسنه من السارى (٤٤٦٢) أنه قال « ليس على أمك كرب بعد اليوم »

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَعِدُّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الاحزاب] فوصف الآخر نفسه بأنه كريم والذي يُوصَف بالكرم الذي أعدُّ الآخر ، فوصف الآخر بأنه كريم يعنى ان لكرم فتعدى من الرب سبحانه الذي اعده إلى الآخر نفسه ، حتى صار هو أيضاً كريماً

ومثال ذلك قوله تعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الاحزاب] فتعدى الكرم من الرزق إلى الرزق ، لأن الرزق في الدنيا له أسباب بأيدي الخلق ، لكن الرزق في الآخرة يأتيك بلا أسباب ، وليس لأحد فيه شيء ولماذا لا يُوصَف بالكرم وهو يأتيك دون سقَى منك ، وبمجرد الحاطر تستدعيه فتراه بين يمين

ثم يقول الحق سبحانه

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُبِيرًا ﴿١٦﴾

اشاهد هو الذي يؤيد ويثبت الحق لمصاحبه ، لذلك يطلب القاضى شهادة الشهود ليأتى حكمه في القضية عن تحقيق وبينة ودليل لذلك يقولون إن القاضى لا يحكم بعلمه ، إنما بالبينة حتى إن علم شيئاً في حياته العامة ، ثم جاء أمامه في القضاء يتركه ويتنحى عنه لقاضٍ آخر يحكم فيه حتى لا يبنى حكمه على عسه هو .

وحيث تتأمل هذه المسألة تجد أن الله تعالى يريد أن يوزع مسئولية الحكم على عدة جهات حتى إذا ما صدر الحكم يصدر بعد تدقيق وتمحيص وتصفية لضمان الحق

منرى مثلاً إذا حدثتُ حادثة نذهب إلى القسم لعمل (محصر)
بالحدث ، (المحصر) يحيله ضابط الشرطة إلى النيابة ، فتحيله
النيابة للقاضي ليحكم فيه ، ثم يُعاد مرة أخرى للسلطة التنفيذية
لِيُنْفِذَ ، كل هذه الدورة يُراد بها تحرى الحق ووضعها في نصابه

مما بالك إذا كان الحق سبحانه هو الذي يشهد ، وهو الذي
يحكم ، وهو الذي يُنْفِذُ الحكم ، لا شك أن العدالة هنا ستكون عدالة
مطلقة فإن قلتَ إذن علام يشهد رسول الله ؟

قالوا يشهد رسول الله أنه بلغ أمته ، كما يشهد الرسل جميعاً
أنهم بلغوا أممهم كما قال سبحانه ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (٤١)

إذن كل رسول شهيد على أمته ، وأنت شهيد على هذه الأمة أنك
قد بلغتها ، لكن مِيرَتُكَ على مَنْ سَبَقَكَ من إخوانك الرسل أن تكون
حاتمهم فلا يسيءُ بعدك ، وبذلك ساحل من امتك من يخلف الأنبياء
الذين يأتون بعد الرسل في مهمتهم

لذلك جاء في الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ « عماء امتي
كأنبياء بني إسرائيل »^(١)

إذن ضمن الحق سبحانه في أمة محمد أن يوجد فيهم مَنْ يقوم
بهمة الأنبياء في البلاغ ، وهذا معنى ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾
(١٤٣)

(١) قال شوكانى في « لقوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) « قال ابن حجر والبركشى
لا أصل له » وكذا قال السيوطى في « الدرر المنتثرة » (ص ٦١) قال الصلوى في
كشف الغم (١٧٤٤) « رده بحسبهم ولا يُعرف في كتاب معتبر وأشير إلى الواحد
بمعناه التفاضلى وفتح الدخيل الشهيد وأبو بكر الموصلى والسيوطى في الحصائص »

وكلمة الناس هنا عامة ، تشمل آدم عليه السلام وذريته إلى قيام الساعة ، فإن قلت كيف ؟ نقول يشهدون على الناس بشهادة القرآن أن الرسل قد بلغت أممها ، هذا بانفسه من مصي منهم ، أما من سيأتي فإنتم مصاليبون بأن تشهدوا عليهم أنكم قد بلغتوهم كما يشهد عليكم رسول الله أنه قد بلغكم .

إن فامة محمد أخذت حفظاً من النبوة ، وهو أنها ستستدعى وتشهد على الناس .

لذلك يعد رسول الله ﷺ أمته لهذه المهمة ، فيقول « بضُر الله امرءاً ، سمع مقالتي فوعاها ، ثم أتاهم إلى من يسمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع »^(١) .

واقراً أيضاً في ذلك قول الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة] لعاناً ؟ ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ ﴾ [البقرة] فهذه لامة في الوسط ، بحيث لا إمراط ولا تفريط ، وما أشبهها بالميزان الذي لا تميل كفة عن الأخرى إلا بما يوضع فيها فهي كالميزان العادل الذي لا يميل هنأ أو هناك

وقوله سبحانه ﴿ وَمُبَشِّرًا ۚ ﴾ [الاحزاب] لمن استجاب لك بثواب الله ، والبشارة هي الإخبار بالحير قبل أوانه ﴿ وَنَذِيرًا ۚ ﴾ [الاحزاب] أي مندرًا لمن لم يصدقك بعقاب الله والإندار هو التحذير بشر لم يأت أوانه ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ۚ ﴾ [الاحزاب] أي بأمر منه ، لا بطوعاً من عندك ، فقد يأتي زعيم من الرعماء أو مصلح من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه

في سننه (٢٣٢) والحميدي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود .

المصلحين بمنهج أو بأفكار من عبده وبيئتها في مجتمعه .

فعله تعالى ﴿يَادُّهُ .. (١١٦)﴾ [الأحراب] يبين الفرق بين الرسول والمصلح من البشر . فهذا الذي جاء به محمد من عند الله ، وما بَلَّغَكُمْ بِهِ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ

وَيُشْتَرَطُ فِيمَنْ يَدْعُو إِلَى مَنَهِجِ الْخَيْرِ ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ

الأول : ألاَّ يَتَقَرَّ بِشَيْءٍ مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ ، وهذا لا يوجد في بشر أبداً ، وقد رأينا حينما قَتَنَ الرأسماليون غَبَنُوا العمال ، وحينما قَتَنَ الاشتراكيون غبنوا الرأسماليين . وهكذا

وذلك لأن البشر لهم أهواء مختلفة متعددة ، وكلُّ يريد أن يُقَنَّنَ على أهواه ، وبما يخدم مصالحه ، يريد أن يُسَخَّرَ غيره لخدمة أهواه ، وبعد فترة قد تطول تفصحهم التجارب ، ويفضحهم الواقع . وتُظْهِرُ بِهِمْ أَنفُسَهُمْ مَسَاوِيءَ مَا قَسَّوْا حَتَّى يَثُورُوا هَمَّ عَلَى قَوَائِينِهِمْ ، وَيَنْتَقِضُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ، ويعودوا إلى تعديل هذه القوانين

الشرط الثاني : أن يكون على علم بالأحداث المحتملة بعد أن يُقَنَّنَ ، وألاَّ تغيب عنه جرئية من جرئيات الموضوع ، فيحتاج إلى تعديل القانون أو الاستدراك عليه

ثالثاً يُشْتَرَطُ فِيمَنْ يُقَنَّنُ أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا فِيمَا يُقَنَّنُ بحيث يضع الأمر في موضعه ، فلا يصف جماعة على حساب أخرى وأن يكون الجميع أمامه سواء

وحين سَأَمَ هَذِهِ الشُّرُوطَ الثَّلَاثَةَ نَجِدُهَا لَا تَقُوفُ إِلَّا فِي الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، إِنَّهُ يَنْبَغِي أَلَّا يُقَنَّنَ لِلْبَشَرِ إِلَّا رَبُّ الْبَشَرِ ، وسبق

أَنْ أَوْضَحْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِمِثَالٍ مِنَ الْمَحْصُوسَاتِ ، فَالْجَدُّ فِي الطَّلَمَةِ
يَحْتَاجُونَ لِبَعْضِ النُّورِ ، لِيَهْتَدُوا بِهِ إِلَى قَضَاءِ مَصَالِحِهِمْ فِي اللَّيْلِ ،
فَيُبِيرُ كُلُّ مَنَا لَيْلِهِ بِمَا يَنَاسِبُهُ مِنْ وَسَائِلِ الْإِضَاءَةِ ، فَوَاحِدٌ يَشْعَلُ
شَمْعَةً ، وَآخَرُ لَمْعَةً (نَمْرَةٌ خَمْسَةٌ) وَآخَرُ لَمْعَةً (مَصْرَةٌ عَشْرَةٌ) ،
وَبَعْدَ مَا اسْتَعْدَدْنَا الْكَهْرِبَاءَ رَأَيْنَا اللَّمْعَةَ لِعَادِيَةِ وَالْفُورُوسَنَتِ وَالنِّيْرَ
وَالْكَرْسِتَالَ إِخْ

إِذَنْ أَنْتُمْ تَنْيِرُونَ ظِلْمَتَكُمْ عَلَى قَدْرِ إِمْكَانَاتِكُمْ فَإِذَا مَا أَشْرَقَتْ
شَمْسُ الصَّبَاحِ ، أَتَبَيَّنُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَنْوَارِ ؟ لَا يَلْ يَطْفِئُ الْحَصِيعُ
أَنْوَارَهُ لَأَنَّ نُورَ الشَّمْسِ يَأْتِي عَلَى قَبْرِ إِمْكَانَاتِ خَائِقِهَا عَرَّ وَجَلْ ،
لِذَلِكَ نَقُولُ أَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ ، فَقَدْ طَلَعَتِ شَمْسُ اللَّهِ ، فَإِذَا كُنْ ذَلِكَ
فِي النُّورِ الْحَسِيِّ هُوَ أَيْضًا وَمِنْ بَابِ أَوَّلَى فِي النُّورِ الْمَعْنَوِيِّ ، فَإِذَا
جَسَدُكَ نُورَ التَّشْرِيعِ وَمُورُ الْمَنْهَجِ مِنْ اللَّهِ ، مَصَافِيءُ مَا عَدَاهُ مِنْ
بَشَرِيَّاتٍ وَمَصَاحِفِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَسَرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (٤٦) [الاحزاب] شَبَّهَ الْحَقُّ سَمْعَانَ
نَبِيَّهُ ﷺ بِالسَّرَاجِ ، وَلَا تَسْتَغْلِ هَذَا الْوَصْفَ فِي حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ ،
فَلَيْسَ مَعْنَى السَّرَاجِ أُمُّهُ كَالسَّرَاجِ الَّذِي يَضِيءُ لَكَ لِحَجَرَةٍ مِثْلًا ، إِنَّمَا
هُوَ كَالسَّرَجِ الَّذِي قَالَ لَهُ عَنْهُ ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (١٢٣) [الباق]

وَالْمُرْدُ الشَّمْسِ

فَإِذَا قُلْتَ فَلَمَّادًا لَمْ يُوصَفِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ شَمْسٌ ، وَقَدْ قَالَ
تَعَالَى عَنْهَا ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً ﴾ (٥) [يونس]

وَالشَّمْسُ أَقْوَى مِنَ السَّرَاجِ ؟ قَالُوا الْكَلَامُ هَذَا كَلَامُ رَبِّ
وَالْأَسْلُوبُ دَقِيقٌ مَعْرِ ، صَحِيحٌ أَنَّ الشَّمْسَ تَنْيِرُ الدُّنْيَا كُلَّهَا ، إِنَّمَا أُمُّ
مُحَمَّدٍ مَكْلُفَةٌ أَنْ تَقُومَ بِدَعْوَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ سَرَاجٌ

والسراج تأخذ منه النور دون أن ينقص نوره ، لكن لا تستطيع أن
تأخذ من الشمس

وحين سطعت أنوار الهداية على لسان رسول الله محمد لم يعد
للشرايع الأولى أن تتنخر على حد قول المادح
كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكِبُ
ثم يقول الحق سبحانه (١)

وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا
مَنْ اللَّهُ فَضْلاً كَبِيراً

يقول في الدعاء اللهم عاملنا بالفصل لا بالعدل ، لأن العدل أن
تأخذ الجزاء المساوي للعمل ، أو تأخذ حقه ، أما الفضل بأن تأخذ
فوق حقه وزيادة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ بِمُضِلِّ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴾ (٥٨)

ويقول النبي ﷺ « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا
ولا أنت يا رسول الله ؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »
لأنني حين أحسب عملي مقابل ما أعطاني ربي من نعم قبل أن أخلق ،
والى أن أطلع وأكلف ، أحد أنى هو قصيت حسبي كلها فى طاعة ربي
ما وفيت بحقه على

(١) قال ابن عطية قال لنا أبي رضى الله عنه هذه الآية عدى من كتاب الله تعالى
لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن ينشر المؤمنين بأن بهم عده فضلاً كبيراً ، وقد بين تعالى
الفضل الكبير في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ مِنْهُمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (١٠١) [الشورى] [نقطة القرطبي في تفسيره ٥٤٧٠/٨]

ثم من ناحية أخرى تجد أن العبادة والطاعة نفعها يعود إليك أنت ، ولا ينتفع الله تعالى منها بشيء ، فإذا كانت الطاعة والعبادة يعود نفعها إليك ، إذن فاستواب عليها يكون فضلاً من الله

ومثلنا لذلك - والله المثل الأعلى - بوندك تُشجِّعه على لمذاكرة ، وتُحصر له أدواته ، وتتفق عليه طوال العام ، فإذا ما نجح أحر العام أعطيتَه هدية أو مكافأة ، فهذه الهدية من باب الفضل

لذلك ، إن أردت أن تصلح بين متحاصمين ، أو تُؤلف بينهما ، فقلْ لهم اتحبُّوا أن أحكم بينكم بالعدل أم بالفضل ؟ سيقولون لك ليس هناك أفصل من العدل ، وعندها لك أن تقول بل الفضل أحسن من العدل ، لأن العدل أن تأخذ حالك من خصمك ، والفضل أن تترك حقك لخصمك لتأخذه من يد ربك عز وجل

وهذا ما رأيناه مُطَبَّقاً في قصة الإفك بين سيدنا أبي بكر حين عفا عن مسطح^(١) بعد أن نزل قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَصْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُوْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

فمن أراد أن يغفر الله له ذنوبه فليغفر لأبيه وأخته وسواك

(١) هو مسطح بن أثاث بن عيسى بن المطلب ، كان اسمه عوفاً ، أما مسطح فهو لقبه وأمه بنت حاتم بن بكر . كان أبو بكر يسموه لقرباه منه . لما حاس مع أهل الإفك في أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفي عليه قتلها . ﴿وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَصْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُوْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى﴾ [النور] معاد أبو بكر إلى الاتفاق عليه . وقد توسى مسطح عام ٣٤ هـ في خلافة عثمان ويقال مات عام ٣٧ هـ وشهد صفين مع علي . الإمامة في التعبير الصحيح (٧٩٢٩) [

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٤٨)

في أول السورة خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله ﴿يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ..﴾ (٤٨) [الأحزاب] وهنا حاصبه
ربه بقوله ﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٤٨) [الأحزاب] فالأولى كانت في بداية الدعوة ، حين
أخذ الكفار يكيّدون برسول الله ، فما بالك وقد قويت الدعوة ، واشتد
عورده ، لا بُدَّ أن يتصاعف كيّد الكافرين برسول الله

لذلك يكرر له مسألة ﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ ..﴾
(٤٨) [الأحزاب] ولا يعني ذلك أنتى سأسلّمك ، إنما أنا وكيلك ﴿وَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٤٨) [الأحزاب]

فإن قلنا كيف والوكيل أقرب من الأصل ؟ نقول لا ، فالأصل
ما وكل غيره ، إلا لأنه عزّ أن يفرض ، فاختر الأقرب ليفعل له

ثم يقول الحق سبحانه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُنتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ
تُرْطَلَقْنَوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِيعَتُهُنَّ وَسِرَّجُهُنَّ
سَرَّاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩)

تحدث الآية عن مسألة اجتماعية تخص حفظ النوع ، وحفظ النوع الإنساني لا يتأتى إلا بالزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، وأولى مراحل الزواج مرحلة الخطبة ، وكثيرون لا يفهمون معنى الخطبة وحدودها لكل من الرجل والمرأة ، فالخطبة مجرد أن يذهب طالب البنت إلى وليها ليقول له : إذا تقدمت لطلب يد انتك أكون أهلاً للقبول ؟

فيقول وليها مرحباً بك ، هذه تسمى خطبة ، وربما لا يتقدم ، فإن تقدم لها ، له أن يراها مرة واحدة بين محارمها ، لأن النبي ﷺ قال للشباب الذي أراد الخطبة : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما ^(١)

وعجيب أن يخط الناس بين الخطبة والعقد ، فيعطون الخطبة صفة العقد ، فإذا قبل لولي الخطب اتفق معه على المهر أو الشبهة وعلى كل تفاصيل الزواج ، وأباح له أن يجلس مع ابنته ، وأن يتحدث معها ، وربما يختلي بها ، وباليتم جعلوها عقداً ، فأخرجوا أنفسهم من هذا الحرج

فالحطبة إن عدل عنها اخاطب ما عليهم إلا أن يذهب إلى ولي البنت فيقول له : لقد طلبت منك يد انتك وأنا في حل من هذا الأمر ، أما العقد فلا يُفسح قبل الدخول إلا بالطلاق ، إن لا تجعلوها صورة خطبة وموضوعية عقد

(١) عن المعبر بن شعبة قال : خطبت امرأة يقال لي رسول الله ﷺ انصرت إليها ، قلت لا قال : انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١/٤) والترمذي في مسنده (١٨٧) وابن ماجه في مسنده (١٨٦٥) قال أبو بصير في الرد : إسناد صحيح ورجاله ثقات

والحق سبحانه وتعالى يُبَيِّنُ لنا في هذه آية الكريمة ما يتعلق
باحكام الطلاق إن وقع قبل الدخول ولزوجته ﴿يَأْيُهَا الدِّينَ أَمْرٌ إِذَا
كَحْتُمُ الْمُزْمَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ
تَعْتُدُونَهَا .. (٤٩)﴾ [الاحزاب]

فلنكاح هنا مقصود به العقد فقط ، وإلا لو قصد به المعنى الآخر
كما قال ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ .. (٤٩)﴾ [الاحزاب] والمسر كناية عن
الجماع ، وهو عملية دائمة يستمرها القرآن بالفاظ لا تدل عليه حقيقة
والحكم هنا ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتُدُونَهَا .. (٤٩)﴾ [الاحزاب]
فليس للزوج على زوجته عِدَّةٌ إن طلقها ، قبل أن يدخل بها ، لأن
العِدَّة إنما كانت لحكمة فالعِدَّة في حالة الطلاق الرجعي تعطى للزوج
فرصة أن يراجع زوجته ، وأن يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعِدَّة
تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خلوّه من الحمل ، وقد تكون العِدَّة ،
لا لهذا ولا لذلك ، ولكن لأنه تؤمّن عنها .

فالعِدَّة قبل الدخول بها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر ، وهذا
الفرق يتضح كذلك في مسألة المهر ، فعقل الدخول للزوجه نصف

(١) من إن طلقها قبل الدخول بها ، أما إذا توفى الزوج قبل أن يدخل بها فعليه العدة ويكره
عده الموقوف عليها زوجها كما لو كان قد دخل بها ، لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنْكُمْ
وَيَدْرُونَ أَرْوَاجَ بَنَاتِهِنَّ بِأَنفُسِهِنَّ أَثَافَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (٣٣)﴾ [البقرة] ، وبما وجبت العدة عليها فإن
لم يدخل بها وفاته بزوج المتوفى ومراعاة لحقه ، [فقه السنة ٢/٢٤٢] وقال ابن قدامة
في المسمى (٧٨ ٩) ، كل من موى عنها زوجها ولا حمل بها قبل الدخول
أو بعده حره أو أمه فعدها بدشهور .

(٢) العدة مأخوذة من العبد والإحصاء ، أى ما تخصصه المرأة وتعدّه من الأيام والألوان
وهي اسم لمدة التي تنتظر فيها المرأة ويمنع عن التزويج بعد وفاته زوجها أو سرائر
بها [فقه السنة الشيخ سيد سابق ٢/٢٤١]

مهرها ، كما قال سبحانه ﴿ فَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ .. ﴾ (٢٣٧) [البقرة] وقال هنا ﴿ لَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (٤٩) [الاحزاب] فإن سُمِّي المهر بين الطرفين فلها نصفه ، وإن لم يُسم فلها نصف مهر المثل .

أم العدة بعد الدخول ففيها تفصيل ، بحيث تختلف من حالة لأخرى مما يناسب الحالة التي تشرع فيها العدة ، والعدة كما قلنا تدل على أنها شيء محدود ، فإن كانت المرأة من دوات الحيض ، فهي ثلاث حيضات ، ليتأكد حلالها استبراء الرحم ، لكن للرحم يستبرئ من مرة واحدة ، فلماذا جعلها الله ثلاث حيضات ؟

قالوا الهدف من ذلك إعطاء الزوج فرصة لمقد يرجع نفسه وتهدأ نفسه ، فيرجع زوجته في هذه المدة ، فالشرح هنا يراعى بناء الأسرة ، ألا ترى أن لحو سبحانه شرع التقاء الزوج بزوجته بكلمة زَوْجَنِي وَزَوْجَتِكَ أم في حاله لطلاق وانفراق بين الزوجين ، فجعله على ثلاث مراحل ، لأن الله تعالى يريد ألا يجعل للغضب العابر سبيلاً لنقض كلمة الله في الزواج

وأذكر أنهم كانوا يسألون سؤالاً وكانه غز أو يعتد الرجل ؟ أو ليس لمرأة عدة عند الرجل ؟ قالوا نعم ، يعتد الرجل في حالة واحدة وهي إذا تزوج امرأة ثم طلقها وأراد أن يتزوج بأختها ، فعليه أن يمضي العدة ليحل له الزواج بأختها

أما عدة التي انقطع عنها الحيض فتلاثة أشهر ، وعدة الحامل أن تضع حملها أما عدة المتوفى عنها زوجها فأربعة أشهر وعشرة أيام لكن ما الحكم إذا اجتمع للمرأة الحمل مع وفاه الزوج ، فكيف نعتد ؟ قالوا نعتد في هذه الحالة بأبعد الأجلين لحمل ، أو الأربعة أشهر وعشرة أيام

ولك ان تسأل لماذا كانت عدّة المطلقّة ثلاثة أشهر ، وعدّة المتوفّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشره ايام ؟ قالوا . لأن هناك فرقاً بين الطلاق ولوامة بالنسبة لعلاقة الزوج بزوجه ، سببه ان الذى خلق الذكر والانثى جعل هناك كلمة تجمعهما ، هذه الكلمة هي زوجنى وزوجتك شريطة ان تكون علانية على رؤوس الاشهاد ، ولا تستهين بهذه الكلمة . فانت لا تعلم ما الذى تصنعه هذه الكلمة فى درات النكوين الإنسانى ، ولكنك تعرفها بآثارها .

وقلنا هبْ أنك تعرضت لشاب تعود معاكسة لبتك مثلاً . ماذا تصنع أنت ؟ لا شك أنك مستثور ، ويفور دمك ، وتأخذك الغيرة وربما تعرضت له بالإيذاء ، أما إن جاء من الباب وطلب يدها منك ترحب به وتسعد ويفرح الجميع ، فما الذى حدث ؟ وما الفرق بين الموقعير ؟ فالذى أهاجك أنه تلصص عليها من غير إذن خالقها ، لذلك يقول ﷺ « اتقوا الله فى النساء . فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحلنتم فروجهن بكلمة الله »^(١)

ويقول رسول الله لرجل كان مشهوراً بالغيرة على ناته . وقد جاء يدعو رسول الله ﷺ إلى رواج إحدى ناته ، فضحك رسول الله وقال « جدع الحلال أبف الغيرة »

فالعقد الذى يجمع الزوجين على كلمة الله يجعل الله به بين الزوجين سيالاً حلالاً عند كل منهما ، يلتقى هذان السيالان فى الحلال ومحت مظلة الشرح الذى جمعهما

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) كما فى صحيح رابن ماجه فى مسند (٢٠٧٤) .

وأبو داود فى مسنده (١٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ، فى حديث طويل فى حجة

النبي ﷺ . وهى حجة الرضاع

وعادة ما يصاحب الطلاق بُغْضٌ من الطرفين ، أو كُرْهُ من أحدهما
للآخر ، لذلك تكون العدة بينهما ثلاثة أشهر أو وَضْعُ الحمل ، لأن
الكراهية التي حدثت بينهما تميز حلايا الالتقاء بين الأنسجة ، وتسرع
بإنتهاء ما بينهما من سيال وتطمسه

أما في حالة موت الزوج ، فقد قطع النكاح قدرياً من الله ، فعادة
ما تكون الزوجة مُحِبَّةً لزوجها ، حريصة على فقده ، وتأتي فاحشة
الموت ، فتزيدها حُباً له ، وفي هذه الحالة ليس من السهل أن ينتهي
السيال بينهما ، لذلك يشاء الخالق سبحانه أن يطيل أمد العدة إلى أن
ينتهي هذا السيال الذي جمعهما ، فلا يدخل على سيال الرجل سيال
جديد ، فيحدث صراع بين السيالين ، لذلك كانت عدة المتوفى عنها
زوجها أطول من عدة المطلقة

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ . (١٩)
[الاحزاب] يعنى أن الطلاق قبل المسر والدخول كان موجوداً كما هو
موجود الآن ، ونحن نرى أطرفين أو أحدهما يتعجل العقد ، رغم أنه
غير مُستعد لفكقات الزواج ، إنما يتعجله لمصلحته تعود عليه من هذا
الارتباط

وقد ذكر لنا التاريخ أن كثيراً من الأسر ، خاصة الأسر العربية
الأصيلة كانت تفعل ذلك ، لكنهم لم يكونوا يسمحون بلروج في هذه
الحالة أن يختلي بالروجة ، وإن كان عاقداً عليها ، وبعض فتياننا لهن
قصص مُشرّفة في هذه المسألة

ومما رُوي في هذا الصدد قصة بهيئة بنت أوس بن حارثة الطائي
والحارث بن عوف ، وهو سيد من سادات بني مُرة ، وكان للحارث
ابن عوف صديق اسمه ابن سنان ، وفي ليلة جلس الحارث يتسامر

مع صديقه ابن سنان فقال له - قرني لو أمتي خطبتُ إلى أحد من
اعرب ابنته أيرتني ؟ قالها وهو مُعْتَزُّ بنفسه فسخور بسيادته على
قومه .

فلما رآه صاحبه على هذه الحالة قال له - نعم هناك مَنْ يردُّك ،
قال مَنْ ؟ قال أوس بن حارثة الطائي ، فنادى الحارث على غلامه
وقال أحضرس المراكب ، وهيا بنا إسي أوس بن حارثة الطائي ،
فذهبوا إليه ، فوجدوه جالساً في غناء بيته ، فلما رآه أوس قال له
مرحباً بك يا حارث ، فاقبل عليه الحارث ، وقال - بك يا أوس ،
ما الذي جاء بك ؟ وتركك على دانتة - قل - جئتُك حاطباً لاستك ،
فقال له - لست هناك - يعني لست أهلاً لها - فلوى الحارث زمام
دانتة منصرفاً ، في حين بدا على ابن سنان الارتياح ، لأن كلامه
صدق في صاحبه

فلما دخل أوس على امرأته سألتُه - مَنْ رجلٌ وقف معك فلم يُطل
ولم ينزل ؟ قال - إنه الحارث بن عوف سيد من سادات بني مُرة ،
فقلت - ولماذا لم تستنزله عندك ؟ قال - لقد استمتع - يعني
ارتكب حُماً - فقلت - وكيف هذا ؟ قال - إنه جاء يخطب ابنتي ،
فقلت - عجباً أو لا تريد أن تزوج بناتك ؟ قال - بلى ، قالت - فإذا
كنت لا تزوجهن من سادات العرب ، معن تزوجهن ؟ يا أوس ، انذهب
فتدرك الأمر ، قال - كيف وقد فرطتُ مني ما فرط ؟ قال - الحقُّ
به ، وفُلُّ له - إنك جئتني وأنا مُفْصَب من أمر لا دخل لك فيه ، ولما
راجعتُ نفسي جئتُك معذراً أطلب منك أن تعود ، وبك عندي ما تدب

فذهب الرجل ، فلم يجسد الركب ، فشئ على راحلته ، حتى صار
بينهما في الركب ، فالتفت ابن سنان ، وقال - يا ابن عوف ، هذا

أوس يلحق بنا ، فقال وماذا أصنع به أمض ، فناداه أوس
يا حارث ربع' على ساعة ، يعنى انتظرنى - ولك عندى ما تحب ،
ففرح الحارث وعاد معه

عاد أوس إلى بيته ، وقار لامرأته ادعى ابنتك الكبرى مجاءت ،
فقال يا بُنَيَّةُ إن الحارث بن عوف سيد بنى مرة جاء ليخطبك ،
فقلت لا تفعل يا أبى ، فقال ولم ؟ قالت بنى امرأة فى وجهى
ردة - يعنى قُنع يرد من يرانى - وفى حُلْفَى عُمْدَة أى عيب
وليس بابن عم لى فيردنى رحمى ، ولا بجار لك فى بلدك فيستحي
مك ، وأحاف أن يكره منى شيئاً ليُطْلَقْنى فيكون على فيه
ما تعرف فقال لها قُومى ، يارث الله فيك

ثم قال لامرأته ادعى ابنتك الوُسْطَى فجاءت ، فقال لها ما قال
لأختها ، فقلت لا تفعل يا أبى ، قال ولم ؟ قالت أنا امرأة خرقاء
- يعنى لا تُحسب عملاً - وليست لى صناعة ، وأحاف أن يرى منى
ما يكره فيُطْلَقْنى ، ويكون فى ما يكون ، فقال بها قُومى بارك الله
فيك ، وادعى أختك الصعري ، وكانت هذه منى بهيئة التى مضرب بها
المثل فى هذا الموقف .

لما عرض عليها أبوها الأمر قالت افعل ما ترى يا أبى ، قال يا
بُنَيَّتِي ، قد عرضته على أختيت فأبتاه ، قالت لكنى أنا الجميلة وحها ،
الصَّنَاعُ يدا ، الرفيعه حُلْفَاً إن طُلُقْنى فلا أحلف الله عليه ، فقال
بارك الله فيك ثم قام إلى الحارث وقال بورك لك يا حارث ، فلوئى
زوحتك انتنى بهيئة ، فبارك الله لكما ، قال وأنا قبلت رواجها .

(١) اربع على نفسك كف وأرلق كذلك معناه انتظر فهو بمعنى التوقف والانتظار

[لسان العرب - مادة ربع]

ثم قال لامراته هيئي ابنك واصنعي لها فسحاطاً بفناء البيت .
ولما صنع لفسطاط حملت إليه بهيئة ، ودخل عليها الحارث ، لكنه
لم يبيت طويلاً حتى خرج ، فسأله ابن سنان أعرمت من شأنك ؟
قال لا والله ، يا ابن سنان ، قال ولم ؟ قال جئت لأقترب منها
فقالت أعند ابى وإخوتى ؟ والله لا يكون ذلك ابداً ، فخرجت

فقال ما دامت لا ترضى وهى عند أبيها وإخوتها ، فهيا بنا
مرحل ، فامر بالرحيل ، وسار الركب بهم طويلاً ، ثم قال يا ابن
سنان تقدم أنت - يعنى أعطنا الفرصة - فنقدم ابن سنان بالركب ،
وانحار الحارث بزوجته إلى ناحية من الطريق ونصب حيمته ثم
دخل عليها فقالت له ما شاء الله تفعل بى كما يفعل بالسبية
الأصدة ، والأمة الحليبة ؟ والله لا يكون ذلك حتى اذهب إلى اهلك
وبلك ، وتذبح لى الذبائح ، وتدمو سادة العرب وتصنع ما يصنعه
مثلك لمتلى

الشاهد هنا - وهو درس لحنات اليوم - أنها لم ترض لزوجها ،
ولم تقبل منه فى بيت أبيها ، ولا فى الطريق ولم تتنازل عن شيء
من عريتها وكبريائها ، مع أنها زوجته

ولعلنا نعلم لها ما أرايت ، ودبحت لها الذبائح ودعى لها سادات
العرب ، فما دخل عليها وحاول الاغتراب منها قالت لقد ذكرت لى
شرفاً ما رأيت منك شيئاً منه ، فقل ولم ؟ قالت اتفرغ لأمر
النساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً - تريد الحرب الدائرة وقتها بين
عيسى وذبيان - اذهب فأصلح بينهما ، ثم عدْ لاهلك فلن يفوتك شىء
شئ فذهب لحارث وابن سنان ، وأصلحا بين عيسى وذبيان ،

وتحملاً ديات يقتلى ثلاثة آلاف بغير يؤذونها في ثلاث سنوات ، ثم عاد إليها ، فقالت له الآن لك ما تريد .

وهذه الآية ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُفِّرُوا بِالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ..﴾ (٤٩) [الاحزاب] بظاهرها أعطت فهما لبعض الناس الذين يريدون أن يتحللوا من أحكام الدين في أشياء قد ترفعهم فحتملاً الذي طلق امرأته ثلاث مرات ، واستوفى ما شرع له من مرات الطلاق حكمه أنه لا تحل له روجته هذه إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره ، فيأتي من يقول - بناءً على الآية السابقة - ما دام النكاح هنا بمعنى العقد^(١) فهو إذن كاف في حالة المرأة التي طلقت ثلاث مرات ، وأنه تحل لزوجها الأول بمجرد لعقد على آخر

ويقول لكن مالك أن رسول الله ﷺ فوض من ربه بالتشريع وبيان وتفصيل ما جاء في كتاب الله من أحكام ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ نُبِّئَ النَّاسَ مَا بَرَأَ إِلَيْهِمْ ..﴾ (١٤) [الحج]

فلو أن سنة رسول الله لم تتعرض لهذه المسألة ، لكان هذا الفهم جائزاً في أن مجرد العقد يبيح عوده بروجته ثانية ، لكن الذي أباط الله به مهمة بيان القرآن وقل عنه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ..﴾ (٧) [الحشر]

إذن فهو ﷺ له حق التشريع ، وقد بين لنا المراد هنا في قوله

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤٩٧/٢) . هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن به تصريح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح ، هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطاء أو فيهما ، على ثلاثة أقوال وسنعمد القرآن إنما هو في العقد والوطاء بعده إلا في هذه الآية ، فإنه استعمل في العقد وحده .

تعالى ﴿حَتَّى تَنْكَحَ رَوْحًا غَيْرَهُ ۖ﴾ (٢٩٠) [البقرة]

فابقي كلمة النكاح على أنها مجرد العقد ، ثم بين المراد من ذلك ، فقال للرجل ، حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتها ^(١) إذن تمام الآية لا يجوز لمن يقول إن مجرد العقد يبيح للرجل أن يعيد زوجته التي طُلِّقَتْ ثلاث مرات إلا بعد أن تذوق عُسَيْلَتَهُ ، ويذوق عُسَيْلَتَهَا ، وهذه المسألة جعلها الله تأديباً للرجل الذي تعود إطلاق ، وسهّل عليه النطق به ، حتى صار على لسانه دائماً .

ومن رحمة الخالق بالخلق ، ومن حرصه - تبارك وتعالى - على رباط الأسرة أن 'حُلَّ امرأة للرجل كما قلنا بكلمة زَوْجِي وزَوْجِكَ ، لكن عند الفراق لم يجعله بكلمة واحدة ، إنما جعله على مراحل ثلاث ، يبقى للمودة وللرحمة بين الزوجين مجالاً ، فإن استنفذ الزوج هذه الفرص ، وطلق للمرة الثالثة فلا بُدَّ أن يحرق أنفك بأن تتروح امرأتك من زوج غيرك زواحاً حقيقياً تمارس فيه هذه العملية ، وهي أصعب ما تكون على الزوج

ولنحط هنا أن دقّة التشريع أو صعوبة في كثير من أمثلة لا يريد الله منه أن يُصعّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهّب من ن فعل ذلك ، يريدك أن تتبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاً تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٢٢) كتاب النكاح - باب ١٢ من حديث عائشة أن امرأة ربيعة القرظي جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله كنت عند ربيعة فتمسستُ خلاصاً متزوجت عهد الرجلين من الزبير وإن ما سمعته مثل هدية الثوب (وهي دويلة ربيعة وأحدث بهنية من جلبابها) فتبسّم رسول الله ﷺ ، فقال أتريدان أن ترجعي إلى دفاعه ، لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلته .

لذلك يُعلمنا سيدنا رسول الله فيقول « إن أغض الحلال عبد الله الطلاق »^(١) ، فأذن يعترضون على الطلاق في شرعنا ، ويتعجبون كيف يفرق الزوج زوجته بعد العشرة الطويلة والحب والمودة يفارقها بكلمة ، ومات هؤلاء أن الطلاق وإن كان لأبغض إلا أنه حلال ، ويكفى أن الله تعالى جعله على مراحل ثلاث ، وجعله لا يُستخدم إلا عند الضرورة ، وحذر الرجل أن يتساهل فيه ، أو يجربه على لسانه ، فينعمده

ونلاحظ أن الحق سبحانه خص المؤمنين في قوله ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ .. ﴾ (٤٩) [الاحزاب] مع أن المؤمن يُباح له أن يتزوج من الكتابية^(٢) ، مسيحية كانت أو يهودية ، فكان في الآية إشارة لطيفة لمن أراد أن يتزوج هل يتزوج مؤمنة . ولا يمكن من مصححه إلا مؤمنة معه ، وهذا احتياط في الدين . فالمؤمنة تكون مأمونة على حياته وعلى عرضه ، وعلى أولاده وماله ، فإن غير المؤمنة لا تؤتمن على هذا كله

وقد رأينا بعض شبابنا الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، ونزجوا من جنسيات ، وبعد الزواج ظهرت النكبات والمصائب ، فالأم لا تقبى أنها يهودية أو نصرانية وثقت أفكارها ومعتقداتها في الأولاد ، ذن فعلى المؤمن أن يختار المؤمنة ، لأنها مؤتمنة عليه وعلى بيته ، وأذكر حين سافرنا إلى الخارج ، كما سُئِلَ لماذا أمحتم لأنفسكم

(١) أخرجه ابن ماجه في معتمه (٢١٨) ، وابو داود في سننه (٢١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤٩٧/٢) « قوله تعالى (المؤمنات) خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق ، وانظر أيضاً « فتح الرحمن بكشف ما ينسب في القرآن » (ص ٤٢)

أَنْ تَتْرُوهُمَا الْكَتَابِيَّةُ ، وَلَمْ تَبِيحُوا لَنَا أَنْ نَتَزَوَّجَ الْمُسْلِمَةُ ، وَكَانَ بَعْضُ
الْأَبَاءِ يَأْتُونَ بِبَنَاتِهِمُ اللَّائِي وَلَدْنَ فِي أَلْمَانِيَا مِثْلًا ، وَكَانَتِ الْبَنَتُ
تُحَاجُّ وَالِدَهَا بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، لِمَاذَا لَا أَتَزَوَّجُ أَلْمَانِيَا كَمَا تَزَوَّجَتْ أَنْتِ
أَلْمَانِيَّةٌ ؟

هَكَذَا نَرَدُ عَلَى سَائِلِنَا هُنَاكَ بِأَنَّ الْمُسْلِمَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ كِتَابِيَّةً ؛ لِأَنَّهُ
يُؤْمِنُ بِكِتَابِهَا ، وَيُؤْمِنُ بِبَيْتِهَا ، لَكِنْ كَيْفَ يَتَزَوَّجِينَ أَنْتِ مِنَ الْكِتَابِيِّ ،
وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِكِتَابِكَ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِبَيْتِكَ ؟ إِنْ كَانَ الْمُسْلِمُ مُؤْتَمِنًا عَلَى
الْكِتَابِيَّةِ ، وَغَيْرِ الْمُسْلِمِ لَيْسَ مُؤْتَمِنًا عَلَى الْمُسْلِمَةِ

وَقَوْلُهُ نَعَالِي ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّهِنَّ سِرًّا جَمِيلًا (٤٥)﴾ [الاحزاب]
وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ﴿وَإِنْ
طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً لِنِصْفِ مَا فَرَضْتُمْ ..
(٢٢٧)﴾ [البقرة]

وَيُمْكِنُ أَنْ نُؤَفِّقَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِأَنَّ الْأُولَى نَزَلَتْ فِيمَنْ لَمْ
يُقْرَصْ لَهَا مَهْرٌ ، وَالثَّانِيَّةُ فِيمَنْ قُرِصَ لَهَا مَهْرٌ ، الَّتِي لَمْ يُقْرَضْ لَهَا
مَهْرٌ لَهَا الْمُدَّةُ ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ .. (٤٥)﴾ [الاحزاب] وَالَّتِي قُرِصَ لَهَا مَهْرٌ لَهَا
نِصْفُهُ بِكُلِّ آيَةٍ تَحَصُّرُ وَتَعَالُجُ حَالَةَ مَعِينَةٍ ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ
سُنْخٌ

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَرَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ ، إِنْ قُرِصَ لَهَا مَهْرٌ أَنْ يُعْطِيَهَا
الْمُتَّعَةَ فَرَقَ نِصْفَ مَهْرِهَا ، وَهَذَا رَأْيٌ وَجِيهٌ فَالْعَدْلُ أَنْ تَأْخُذَ بِنِصْفِ
مَا قُرِصَ لَهَا ، وَالْفَصْلُ أَنَّ يُعْطِيَهَا الْمُتَّعَةَ هَوَى هَذَا النِّصْفِ ، وَيَسْعَى
أَنْ تُبْنَى الْمَعَامَلَاتُ دَائِمًا عَلَى الْإِفْضَالِ لَا عَلَى مَجْرَدِ الْعَدْلِ ، وَرَبَّنَا عَزَّ
وَجَلَّ يُعَلِّمُنَا ذَلِكَ حِينَ يَعْمَلُنَا سَمْعَانَهُ بِفَصْلِهِ لَا بِعَدْلِهِ ، وَلَوْ عَامَلُنَا
بِالْعَدْلِ لَهَلَكْنَا جَمِيعًا .

لذلك جاء في دعاء الصالحين اللهم غامسًا بالفضل لا بالعدل ،
وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب نعم ، فإن لم يكن في
الآخرة إلا الحساب لمن يكسب منا أحد ، وقد ورد في الحديث
« مَنْ تَوَقَّشَ الْحِسَابَ عَذَبَ »^(١)

ويقول سبحانه ﴿ قُرْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ
مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨) [يونس]

فالفرح لا يكون إلا حين يشمك فضل الله ، وتعمك رحمته ، وفي
الحديث الشريف « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ لُجَّةَ بَعْمَلِهِ » قالوا ولا أنت
يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أَنْ تَغْمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ »^(٢)

فإن قلت فكيف جمع بين هذه النصوص من القرآن والسنة
وبين مكان العمل ومنزله في مثل قوله تعالى ﴿ ادْخُلُوا لُجَّةَ بَعْمَلِ
كُتْمٍ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٧) [البحر]

قالوا صحيح أن للعمل منزلته وفضله ، لكنك حين تعبد الله
لا تقدم له تعالى خدمة بعبادتك له ، إنما الخدمة مقدمة من الله لك في
مشروعية العبد وإلا فالله تعالى بكل صفات الكمال خلق وحلق
الكون كله لك ، فإن كلفك بعد ذلك بشيء ، فإنما هو لصالحك . كما
تكلف ولدك بالجد والمذاكرة

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ « مَنْ حَوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَبَ »
قال عبد الله بن أبي مبيكة أنس قد قال الله عز وجل ﴿ فَسَوْفَ يَحْسَبُ حَسَابًا سِيرًا ﴾ (٢)
[الانشقاق] ، فقال ليس ذلك الحساب إنما ذاك العرس من توقش الحساب يوم
القيامة عذب ، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٦) قال النووي في شرحه « معناه أن
التفكير غالب في العباد ، فمن استقمسى قلبه ولم يسامح قلبه ونفسه لذات ، ولكن الله
تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء »

(٢) مطلق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٣) وكذا مسلم في صحيحه
(٢٨١٦) من حديث أبي هريرة وثبتته الله برحمته أدخله فيها وعمره بها [لسان
العرب مادة غمد]

ثم لو انك وضعت عملك في كفة ، ونعم الله عليك في كفة لما
وقفت أعمالك بما أخذته من نعم ربك إذن إن أثابك بعد ذلك في
الآخرة فإنما يفضله تعالى عليك ورحمته لك

ومثلنا لذلك - والله تعالى المثل الأعلى - بقولك لو لدتك لو نجحت
آخر العام سأعطيك هدية أو مكافأة ، فمع أنه هو المستفيد من نجاحه
إلا أنك تزيد ، لأنت صاحب له وتحب به الخير

إذن ينبغي أن نتعامل بهذه القاعدة ، وأن نتخلق بهذا الحلق ، خاصة
في مثل هذه الحالة ، حالة الزوجة التي طلقت قبل الدخول بها

فإن قلت ولماذا نأخذ الزوجة التي طلقت قبل لدخول بها نصف
المهر والمنعة أيضاً ؟ نقول هو عوض لها عن المفارقة ، فإن كانت هي
المفارقة الراعية في الطلاق ، فليس لها شيء من المهر أو منعة ، إما
عليها أن ترد على الزوج ما دفعه ، كما جاء في حديث المرأة التي جاءت
رسول الله ﷺ تخبره أنها لا تريد البقاء مع زوجها فقال لها « ردّي
عليه ما دفعه لك » وهذه العملية يسميها العلماء (الخلع) .

ثم بعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة المتعة قال ﴿ وَسَوْحُوهُنَّ
سَوْحًا جَمِيلًا ﴾ (٤٩) ﴿

السَّوْحُ في الأصل شجر له ثمر ، يوجد في البوادي ، ترعاه
الماشية وتحبه ، فالكبيره منها تأكل من أعلى الشجرة ، أما الصغيرة

(١) عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أمّ قنيس ﷺ فقالت يا رسول الله ، ثابت بن
قيس ما أخذ عليه في خلق ولا دين وبكى أكثر الكفر في الإسلام فقال رسول الله
ﷺ أنزوين عليه حديثه قالت نعم قال رسول الله ﷺ اتقوا المدينة وطلقها
تطلقت أخرج ابن جاري في صحيحه (٥٢٢٢) وابن ماجه في سننه (٢٠٦) من
حديث ابن عباس وقد صرح بتسمية امرأة ثابت ، فهي جميلة بنت سلول وفي رواية
أخرى (٢٠٧) أنها جينة بنت سهل

فبتعهدا الراعى إن كان عنده بقا رعاية ، بأن يضرب بعصاه غصون الشجرة ، فتساقط منها بعض الأوراق ، فيأكلها الصغير^(١) .

ومن ذلك قوله تعالى عن عصا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَمَى وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ آخَرُ ﴾ (١٨) ﴿

وروي أن سيدنا عمر مر على راع فقار له يا راع منظر الراعى إلى أمير المؤمنين ، وقال نعم يا راعيئنا - يعنى أنا راعى الغنم وأنت رعى الراعى ، فكانه لا يتكبر راع على راع - فقال عمر يا هذا فى الأرض التى تسجد عندك كذا وكذا سرخ أجمل من هذا وأخصب ، فانهب إليه بماشيتك

وهذا درس فى تحمل مسئولية الرعية والحرص عليها ، وكان عمر رضى الله عنه خير من تحمل هذه المسئولية ، فيروى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الرحمن بن عوف رأيا جماعة من التجار عابرى السبيل يلجئون إلى المسجد للمبيت فيه ، منهم من يحمل بضاعته ، ومنهم من يحمل ثمن بضاعة باعها ، فخافا أن يجترىء عليهم أحد فيسرقهم ، فبات عمر وعبد الرحمن يتسامران حتى الفجر لحراسة هؤلاء العابرين .

وحتى الآن ، فى الفلاحين يقول اذاذهب فى الصباح إلى الحقول (نسرخ) وللعودة آخر لمهار (سروح) ثم تدور هذا اللفظ فأطلق على كل خروج إلى شىء ، ومن ذلك نقول اعطى التسريح ، فكانى كنت محبوسا فسمع لك بالخروج ومن ذلك تسريح الروحة

لكن تسريح الزوجة وصفه الله تعالى بقوله ﴿ سراحاً جميلاً ﴾ (١٩) ﴿

(١) الذى فى لسان العرب لاير منظور (مادة سروح) من السرح شجر كبار عظيم طوال ، لا يؤعى وإنما يستظل فيه ، لا تست فى رمل ولا جبل ، ولا يأكله المال (الانعام) إلا قليلا ، له ثمر أصفر

[الاحزاب] وكل شيء وُصف في القرآن بالحمال به مزية في ذاته . كما في ﴿فَهَبْ لِي صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (١٨) [يوسف] وتسريح الروح عاده ما يصاحبه غضب وانفعال . فينبغي ان يكون التسريح جميلاً لا عنف فيه ، كان يطيب خاطرهما بقوله هذا قدرنا ، وارحوا الله ان يعرض عليك بخير متى او غير ذلك ، مما يراه مناسباً لتخفيف الحطب عليها ، ويكفي ان تحصل هي ألم المفارقة ومصيبة الطلاق وأي جمال فيمن يفارق زوجته بالسبب والشقاق ، ويؤذيها بان يصنعها حقاً من حقوقها

وهذه الآية عالجت قضية هامة من قصايا الأسرة لأنها مرادة للحق سبحانه ، فانه تعالى خلق الإنسان الخليفة ، وهو آدم عليه السلام . وخلق منه الزوجة ليحقق بهما الخلافة في الارض ، لكن لماذا هذه اخلافة ؟ قالوا ليستمتعوا بآثار قدرة ربهم وحكمته في كونه ، كم تسعد أنب حين تأتي لأولادك بما لذ وطاب من الطعام وتفرح حين تراهم يأكلون وينمتعون بما جنت به ، تفرح لأنك عدت أثر قدرتك للعير - والله تعالى المثل الأعلى -

فما دام الحق سبحانه جعل الخليفة في الأرض ثم حدد مهمته ، فقال ﴿هُوَ أَشْدَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْعَمُكُمْ فِيهَا﴾ (٢٦) [مريم] إن لا بد أن يضمن لهذا الخليفة مقومات حياته ومقومات استبقاء هذه الحياة لا تكتمل إلا بمقومات بقاء النوع ، فإنه لن يعيش في الدنيا وحيداً لأحر الزمن

واستبقاء الحياة يكرر بالقوت ، لذلك فإن ربك عز وجل قبل أن يستدعيك إلى الرجود ، وقبر أن يخلقك خلق لك ، خلق لك الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والهواء والماء ، فاعد للخليفة كل مقومات حياته

واقرا قول الله تعالى ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ

فِي يَوْمٍ رَتَجَعُلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا رَبَّارِكُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْرَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴿٧﴾ ﴿[فصلت]

إِذْ هُمْ فِي مَخَارِنِ الْقَوَاتِ مَمْلُوءَةٌ ﴿٨﴾ وَمَا تَنْزِيلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٩﴾ ﴿[الحجر]

وما دام خالق البشر قدّر لهم الأقوات مقدّماً ، فليس لك أن تقول « انفجار سكاني » قُلْ إِنَّكَ قَصُرْتَ فِي اسْتِنَاطِ هَذَا الْقَوَاتِ بِمَا أَصَابَكَ مِنْ كَسَلٍ أَوْ سُوءِ تَخْطِيطٍ

وَتَلَحَّظْ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِكَ تَعَالَى ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْهَرَقِ ﴿١١﴾ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴿[الحجر]

وَمِنْ الْكُفْرِ بِبِعْمَةِ اللَّهِ سَتْرُهَا بِالْكَسَلِ وَالْقَعْدِ عَنْ اسْتِنَاطِهَا ، وَقَدْ يَشْقَى حَيْلٌ بِكَسَلٍ جِيلٍ قَبْلَهُ ، لِذَلِكَ لَمَّا تَنَبَّهْنَا إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَبَدَأْنَا نَزْرِعُ الصَّحْرَاءَ وَنُعَمِّرُهَا أَنْعَرَحْنَا أَرْمَقْنَا إِلَى حَدِّ مَا ، وَلَوْ يَكْرُبُ بِرَرَاةِ الصَّحْرَاءِ مَا اشْتَكَيْتُمْ أَرْمَةً ، وَلَا صَاقَ بِنَا الْمَكَانِ

وَالْحَقُّ سَبِّحَهُ يُعَلِّمُنَا أَنَّهُ إِذَا ضَيَّقَ بِنَا الْمَكَانَ أَلَّا تَنْتَشِثَ بِهِ ، عَفَى غَيْرِهِ سَعَةً ، وَاقْرَأْ ﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿١٤﴾ ﴿[النساء]

لِذَلِكَ يَخَاطَبُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ ، حَتَّى فِي الْحَلُوقِ اللَّيْلِيَّةِ مَعَهُ ﴿١٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ .. ﴿١٦﴾ ﴿[المرمى]

إِلَى أَنْ يَقُولَ ﴿١٧﴾ عَلِيمٌ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مُرْضِي .. ﴿١٨﴾ ﴿[المرمى]

وَالْمَرْضَى غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ ، فَعَلَى إِنْقَادِ إِنْ أَنْ يَعْمَلَ لِيَسُدَّ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ غَيْرِ الْقَادِرِ ﴿١٩﴾ وَأَحْرُونَ يَصْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ يُسْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٢٠﴾ ﴿[المرمى]

إذن قانون الإصلاح الذي خطه الله لحياة البشر يقوم على دعامين: الضرب في الأرض ولسْعُ في مناكبها ، وقبض مَقُومَات الحياة ، ثم نقاتل في سبيل الله لبقاء الدعوة والمهج ، فالأولى لقلب ، وبها ناكل ونعيش ، والأخرى للقيم .

فلنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عنْ نِيْ منْ هاتينِ الدعامينِ هبعتْ وهلكتْ وصارتْ مطمعا لأعدائها . لذلك نحد الآن لأمم المتخلفة بقيرة ، تعيش على صدقات الأمم الغنية ، لأنها كبرتْ بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استباطها ، قعدتْ عن الاستعمار والاستصلاح .

أما الأغنياء فعندهم فائض لا يُعطى للفقراء ، إنما يُرمى في البحر ويُعدم ، لنظل لهم السيدة الاقتصادية ، لذلك نستطيع أن نقول بأن شر العالم كله والفساد إنما يأتي بكفر نعم الله ، إما بستورها وعدم استباطها ، أو بالبخل بها على غير الواجد

ولأممية القوت يأتي في مقدمة ما يمتسُّ الله به علم عباده في قوله ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿٤﴾ [نريش]

وكما ضمن الحق سبحانه للحليفة في الأرض مَقُومَات حياتها ضمن له أيضاً معاء بوعه وبسكه ، وجعل ذلك الزواج الذي شرعه الله ليأتي النسب بطريقة طاهرة شريفة ، لا بطريقة حسيية دنسة ، وفرق بين هذا وذاك . فالولد الشرعي تتلقفه أيدي الوالدين وتنتاهى به ، أما الآخر فإذا لم تتخلص منه أمه وهو حينئذ تحلصت منه بعد ولادته ، لأنه عار عليها

فالحق سبحانه شرع الزواج لطهارة المجتمع المسلم وبضافته وسلامته . مجتمع يكون حديراً بأن يتباهى به سيدنا رسول الله يوم القيامة ، فقد ورد في الحديث الشريف « تناكحوا تناسلوا ، فإنني

مباه بكم الاسم يوم القيامة ،
ثم يقول الحق سبحانه

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَرْوَاحَ النَّبِيِّ ؕ آتَيْتَ
أَجْرَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ
وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ
الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ
إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَرْوَاحِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ
عَفُورًا رَحِيمًا

(١) قال المجلوس في كشف الخفاء (٢٨ / ١) « رواه عبد الرزاق والبيهقي عن سعيد بن
أبي هلال مرسلاً بلفظ « شاكحوا بكثروا » يعني أفاض بكم الاسم يوم القيامة ، وقد أخرج
أبو داود في سننه (٢٠٥) من حديث معقل بن يسار قال جاء رجل إلى النبي ﷺ
فقال إني أصيب امرأة دا ، حسب وسمي وبني لا تزد أفانزوجها ؟ قال لا ثم أتاه
ثلاثة غيرها ، ثم أتاه الثالثة ، فقال « تزوجوا الودود الولود » يعني مكثروا بكم الاسم

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤٩٩ / ٢) « هذه الآية عدل وسط بين الإفراط والتفريط
فمن البصاري لا يتزوجن النساء إلا إذا كان الرجل بيده وسبب سبب أجداد فصاعدا
وليهود يتزوجن أحدهم بنت أبيه وبنت حنثه فجاءت هذه الشريعة الكاملة لظاهره وبهم
إفراط البصاري ما باع بنت المم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وبصريم ما فرطت فيه
اليهود من إبلة بنت الأخ والأخت ،

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٥٤٧٥ / ٨) « معلوم أنه لم يكن تحنه حد من بنات عمه
ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته ، ثبت أنه أحل له التزويج
بهذا ابتداء »

الحق - تبارك وتعالى - لم يخاطب نبيه محمداً ﷺ باسمه العلم
أبداً ، كما خاطب غيره من الأنبياء فقال يا نوح ، يا عيسى ،
يا موسى ، يا إبراهيم . إلخ ، أما رسول الله ، فعاداه ربه بقوله
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [الاحزاب] و ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ .. ﴾ [المائدة]
وذاء الشخص باسمه العلم دليل على أنه ليست به صفة مميزة ،
فإن ملك صفة مميزة تؤدي بها تقول يا شجاع ، يا شاعر ، إلخ ،
الآن الجميع يشتركون في العسمية إذن فنداء النبي ﷺ بيايها
النبي ، ويايها الرسول تكريم له ﷺ

وقوله تعالى ، ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ زَوْجَكَ .. ﴾ [الاحزاب] ما معنى
﴿ أَحْلَلْنَا .. ﴾ [الاحزاب] هنا ما دام الحديث عن أرواح ﷺ ؟
قالوا معناها أنه كانت في منطقة مُحَرَّمَة ثم أحلها الله له أي جعلها
حلالاً ، وهذا المعنى يتضح بقوله تعالى بعدما ﴿ اللَّاتِي آتَيْتِ
أَجُورَهُنَّ . ﴾ [الاحزاب] كان رسول الله أخذ بالحل أولاً ، بدليل أنه
تلى الأجر والمهر .

وقد كان للعلماء وقفة عند تسمية المهر أجراً ، قالوا كيف يُسمى
لمهر أجراً ، ومعنى الأجر في اللغة حُفْلٌ على منفعة موقوتة يؤديها
المُستأجر للمُستأجر ، أما المكاح فليس موقوتاً ، إنما من شروطه بنة
البايد والدوام ؟

والجواب على هذه المسألة نقول لا يصح أن تؤخذ الآيات ،
مفصلة بعضها عن بعض ، إنما ينبغي أن نجمع الآيات الواردة في
نفس الموضوع جنباً إلى جنب ، ليأتي فهمها تاماً متكاملاً

فالحق سبحانه يقول في موضع آخر مخاطباً نبيه ﷺ في شأن
زوجاته ﴿ تَرْجِي مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. ﴾ [الاحزاب] أي تؤخر

اسمعاك بها ﴿وَتَوَوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ..﴾ (٥) ﴿[الاحزاب] اى تضمها إليك

إذن ما دام لك أن ترجىء أزواحاً مهن وتمنعهن من القسمة ثم تضم غيرهن ، فكان المنفعة هنا موقوتة ، فتناسب ذلك أن يُسمى المهر أجراً

والحق سبحانه يعطى نبيه ﷺ فى كل مراحل سيرته أزكى المواقف وأطهرها وأصلها ، فقوله تعالى ﴿الَّتَى آتَتْ أَحْرُوهَى .﴾ (٥) [الاحزاب] دليل على أنه ﷺ ما انتفع بهن إلا بعد أن أدى مهرهن ، فى حين أن الإنسان أن يسمى المهر ، ويدخل بزواجه دور ، يدمج من المهر شيئاً ، ويكون المهر كله أو بعضه مؤجراً ، لكن تأخير المهر يعطى للمرأة حق أن تمتنع عن مضاجعتة فإن سمحت به فهو تفضل منها إذن فرسول الله احتار أكمل شيء .

رسول الله ﷺ جاء ليُبين للناس ما نُزِّل إليهم وجعله ربه أسوة سلوكية فى الأمور التى يعز على الناس أن يستقبلوها ، فنقذها رسول الله فى نفسه أولاً كما قلنا فى مسألة التبنى .

كذلك فى مسألة تعدد الزوجات ، فرسول الله أرسل والتعدد موجود عند العرب وموجود حتى عند الأنبياء السابقين ، لكن أراد الله أن يحدد هذا التعدد تحديداً يمنع الزائد من النساء ، ولا يجعله متاحاً فى كل عدد ، فامر رسوله أن يقول لأمته مَنْ كَانَ عَنْده أكثر من أربع فليمسك معه أربعاً ويفارق ما زاد عنهن ، فى حين كان عنده ﷺ نسج زوجات

فلو أن الحكم شمله ، فأمسك ربعا وسرَّج خمساً لأصحابه صرر كبير ، ولصبر معلقات ، لأنهن زوجات رسول الله وأمهات

المؤمنين ، وليس لأحد أن يتزوج إحداهن بعد رسول الله

إذن الحكم يختلف مع رسول الله ، والعدد بالنسبة له أن يقتصر على هؤلاء اتسعة بذواتهن بحيث لو ماتت إحداهن أو طُلِّقت فليس له أن يتزوج بغيرها ، لأن الله حاطه بقوله ﴿ لا يحلُّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .. ﴾ (٥٢) [الاحزاب]

وقد بينا للمستشرقين الذين خاضوا في هذه المسألة أن رسول الله لم يستثن في العدد ، إنما استثنى في المصداق ، حيث وقف عند هؤلاء لتسع بذواتهن ، وليس له أن يتزوج بأخرى ، أما غيره من أمته فله أن يتزوج ضِعْف أو أضعاف هذا العدد ، شريطة ألا يزيد عن أربع في وقت واحد ،

وكلمة ﴿ أحلَّلنا لك أزواجك .. ﴾ (٥٠) [الاحزاب] جاءت قيل ﴿ لا يحلُّ لك النساء من بعد . ﴾ (٥٢) [الاحزاب] وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالت : ما مات رسول الله حتى أبيع له أن يتزوج ما شاء فكيف ذلك ؟

قالوا لأن الله تعالى أراد أن يعطى لرسوله تميز الوفاء لأزواجه ، فسمح أن الله أباح له أن يتزوج بغيرهن ، إلا أنه ﷺ لم يفعل وماءً لهن ، ورسول ﷺ يفعل ذلك لأنه كان إذا حُبِّيَ بتحيةٍ يُحِبِّيَ بأحسن منها أو يرُدُّها بمثلها ، وقد رأى ﷺ من أزواجه سابقة خبر حين خيرهن باحترته ومضن العيش معه على زينة الدنيا ومتعها ، فكانه يرُدُّ لهن هذه التحية بأحسن منها

ومجيء ﴿ أحلَّلنا لك أزواجك . ﴾ (٥٠) [الاحزاب] قيل ﴿ لا يحلُّ لك

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٢١٦) والسنائي في سننه ، ٥٦/٦) من قول عائشة رضي الله عنها قال الترمذي هذا حديث حسن

النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ .. ﴿٥٢﴾ [الاحزاب] دليل على تكريم الرسول ومعاملته معاملة خاصة ، والله قد أحل له قبل أن يُحرّم عليه ، ومثال هذا التكريم قوله تعالى ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ . ﴿٥٣﴾ [البقرة] فسبق العتاب بالعفو

ونلاحظ في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أُحْصَيْنَا لَكَ أَرْوَاجَكَ ..﴾ ﴿٥٤﴾ [الاحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكر وهم يقل زوجاتك ، لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة ، والزوج في اللغة هو الواحد المفرد ومعه غيره من جنسه ، وليس لزوج يعنى الاثنين كما يعتقد البعض ، ومثلها كلمة (توأم) فهي تعنى لواء الذي معه غيره ، فكل منهما يُسمى توأماً ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثمانية أرواح من الضَّالَّاتِ اثْنَيْنِ ومن المَعْرَاتَيْنِ ..﴾ ﴿١٤٣﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى ﴿وما ملكتْ يمينك مما أفاء الله عليك ..﴾ ﴿٥٥﴾ [الاحزاب] يعرف أن منك اليمين يُقصد به المرأة المملوكة ، وجاء قوله تعالى ﴿مما أفاء الله عليك ..﴾ ﴿٥٦﴾ [الاحزاب] احتياط ، فملك اليمين بالنسبة لرسول الله جاء من طريق شرعى . جاء من الفىء والسرمد أسرى الحروب

وقد باشر ﷺ عملية السبي بنفسه ، لأن من الإماء حرائر أخذن عتوة أو سرقة ، ومنهن من بيعت في سوق الرقيق على أنها أمة ، وهذا ما رأيناه فعلاً في قصه سيدنا زيد بن حارثة ، إذن فسقوله تعالى ﴿مما أفاء الله عليك﴾ . ﴿٥٦﴾ [الاحزاب] أى أنك ملكتها ، وأنت وثق تمام ثقة أنها أمة وقيء أحله الله لك

﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات حالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها

حالة لك من ذرد المؤمنين .. (٥٠) ﴿ الاحزاب ﴾

وكذلك أحل الله لنبيه أن يتزوج من بنات عمه ، أو بنات عماته أو بنات خاله أو بنات خالاته ، والعمومة أقاربه من جهة أبيه ، والخولة أقاربه من جهة أمه ، ويلاحظ أن رسول الله لم يتزوج لا من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته والمعنى أن الله تعالى أحل له أن يتزوج من هؤلاء ما وجد ، لأن قرابته سيكونون مأمونين عليه ، ومعينين له على أمره

وحين تتأمل هذه الآية تجد أن العم والحال جاءت مفردة ، في حين جاءت العمات والخالات جمعاً ، لماذا ؟ قالوا لأن العم والحال اسم جنس واسم الجنس يُطلق على المفرد وعلى الجمع ، يدلل أنك تجد اسم الجنس في القرآن يُستثنى منه الجمع ، كما في ﴿ وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَرَامُوا بِالْحَقِّ وَنُصُو بِالصِّير (٣) ﴾ [العصر]

فالإنسان اسم جنس مفرد واستثنى منه الذين آمنوا وهي جمع أم العمات والحالات فليست اسم جنس ، لذلك جاءت بصيغة الجمع المؤنث

واسماً ، لأن العم صنو الأب ، فعلى فرض أنهم أعمام كثيرون ، فهم في منزلة الأب ، وأقر في ذلك قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَصَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] عدل العم في محمل الآباء

وكذلك سُمي العم أبا في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي .. (٧٤) ﴾ [الانعام] ومعلوم أنه كان عمه

وفي موضع آخر ، جاءت عم بصيغة الجمع ، وهو قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُخْوَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَالَاتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فجاءت العم والخال ها بصيغة الجمع لمدى ، قالوا لأن الحديث هنا عن البيوت التي يُباح لك أن تأكل منها ، وجاءت (بيوت) بصيغة الجمع ، والعم له بيت واحد ، فما دام قال بيوت فلا بُدَّ أن تأتي (أعمامكم) و (أخوانكم) بصيغة الجمع

ثم يقول تعالى ﴿وَأَمْرًاؤُةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] لو هب - انتقال ملكيه بلا مقابل ، نقول فلان وهبك كذا يعني أعطاه لك بلا مقابل ، ليس بيعاً وليس بدلاً مثلاً .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة - أتعجبُ لامرأة تبذل نفسها . وتعطى نفسها لرجل هكنا صحاباً بلا مقابل ، فنزل النص ﴿وَأَمْرًاؤُةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] عندها قالت السيدة عائشة لسيدنا رسول الله - يا رسول الله ، أرى الله يسارع إلى هواك ، فقال لها ﷺ « رأيت يا عائشة ، لو اتقيت الله يسارع في هواك »^(١)

(١) قوله (النبي) هنا دليل على أن هذا أمر من رسول الله ، فليس لأحد من أمته أن يزوج امرأة على سبيل الهبة بلز تزويج نفسها به ، وهذا من الأمور التي خص بها رسول الله ، لذلك قال تعالى ﴿خَالِفَةُ لَكَ مِنْ دُونِ الْعُومِينَ (٥٠)﴾ [الأحزاب]

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٨٨ ، ٥١١٣) وكذا مسلم في صحيحه (١٤٦٤) كتاب الرضاخ - وأحمد في مسنده (١٢٤/٦ ، ١٥٨ ، ٢٦٦) من حديث عائشة رضي الله عنها

والمعنى أن الله يسارع في هواي ، لأنني سارع في هواه ،
طلب مني فادّنت ، لذلك يلبي لي ما أريد من قبل أن أطلب منه

وقال ﴿وَأَمْرًا مُؤَمَّةً ۖ﴾ (٥٠) ﴿[الاحزاب] لأن لهبة هنا خاصة
بالمؤمنة فإن كانت كتابية لا يصح أن تهب نفسها للنبي ، لكن اتحل
له المرأة بمجرد أن تهب نفسها له ، قانوا لا ، إنما لا بد من
القبول ، فإن قالت المرأة لرسول الله أنا وهبت نفسي لك لا بد أن
يقبل من هذه الهبة ، لذلك علّق على هذه المسألة بقوله ﴿وإن وهبت
نفسها للنبي إن أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحِبَهَا ۖ﴾ (٥١) ﴿[الاحزاب] لأن المسألة
مبنية على إيجاب وقبول

وللعلماء كلام في هذه المسألة ، فبعضهم قال لم يأخذ رسول
الله امرأة هبة أبداً ، وقال آخرون^(١) بل عنده أربع موهوبات هن
ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ،
وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم

وليس في هذا لتعارض (مزورة) ، فمن السهل أن يجمع بين

(١) قاله ابن عباس أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٣٠، ٦) وعراه ابن جرير وابن أبي
حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في المس عن ابن عباس قال لم يكن عند رسول
الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٥٤٧٧/٨) ، وكذا ابن كثير (٥٠٠/٢) والسيوطي في الدر
المنثور (٦٢٨، ٦ - ٦٢٠) قال القرطبي ، الذي في الصحيحين يهوى هذا القول
ويبضده ، يرى منسب عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كنت أغار على اللاتي وهبن
أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول أما تستحي امرأة تهب نفسها لرجل حتى يقول الله تعالى
﴿رجعي من شاء منهن وتزوي إليك من شاء﴾ (٥٦) ﴿[الاحزاب] فقلت والله ما أرى ربك إلا
يسارع في هواك وروى البخاري عن عائشة أنها قالت كنت حولت بيت حكيم من اللاتي
وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، عدل هذا على أنه كن غير واحدة ،

مُذِينَ الْقَوَائِنَ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ ﴿وَأَمْرًاؤُةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحِهَا . (٥٠)﴾ [الاحزاب] فَرَبَّمَا وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ، بَكَه لَمْ يُرَد ، أَوْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ، فَأَرَادَ أَنْ يَكْرِمَهَا ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهَا مَهْرًا وَيَتَرَوَّجَهَا

وَكَلِمَةُ ﴿يَسْتَكْحِهَا .. (٥٠)﴾ [الاحزاب] مِثْلُ يَنْكَحُهَا ، فَهِيَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، مِثْلُ عَجَلَ وَاسْتَعْجَلَ

وَمَعْنَى ﴿خَالِصَةٌ لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . (٥٠)﴾ [الاحزاب] أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَصَرُ رَسُولِهِ بِأَشْيَاءَ مُتَّزِهِ بِهَا ، لِأَنَّ مِهْمَتَهُ ﷺ بِيَسْتُ مَعَ نَفْسِهِ هُوَ . إِنَّمَا مِهْمَتُهُ مَعَ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَلَيْسَ لِلنَّاسِ الْمَعَاصِرِينَ لَهُ فَحَسَبَ ، إِنَّمَا جَمِيعُ النَّاسِ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ

إِنْ مِمَّشْغُولِيَّاتِهِ ﷺ كَثِيرَةٌ كَبِيرَةٌ . كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿إِنَّا سَنُلْقِيْ عَيْنَكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥٠)﴾ [المرسل]

لِذَلِكَ أَرَادَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَلَّا يَشْغَلَهُ شَيْءٌ عَنْ مِهْمَتِهِ هَذِهِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَبْوِّهَ رَسُولَ اللَّهِ لِأَدَاءِ هَذِهِ الْمِهْمَةِ الَّتِي هُوَ بِصَدْدِهَا ، بِحَيْثُ إِنَّمَا مَا عَشَقَ عَمَلِيَّةَ الْبَلَاغِ عَنِ اللَّهِ وَبَدَمَجَ فِيهَا وَمَعَهَا تَمُوتُ فِي نَفْسِهِ كُلُّ الْأَهْوَاءِ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا انْشِغَالُهُ بِمِهْمَةِ الدَّعْوَةِ

بَدِيلُ أَنْ الْوَحْيَ فِي أَوَّلِهِ كَانَ بِجَهْدِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، وَكَانَ جَبِينُهُ يَتَقَصَّدُ عِرْقًا وَيَذْهَبُ إِلَى أَهْلِهِ فَرَبَّمَا يَقُولُ رَمُلُونِي ذَمُّونِي ، وَدَثُرُونِي دَثُرُونِي ، ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ هَذِهِ الْمَعْنَاةَ ، وَأَنْ يَرْبِيحَهُ مِمَّا أَنْقَضَ ظَهْرَهُ وَأَتَعَبَهُ ، فَفَقَّرَ الْوَحْيَ فِتْرَةً عَنِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى اسْتَرَاحَتْ أَعْصَابُهُ ، وَهَدَأَتْ طَائِفَتُهُ ، وَهَبَتْ مَعَهُ حَلَاوَةَ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ هَذِهِ الْحَلَاوَةُ الَّتِي جَعَلْتُ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ يَتَشَوَّقُ لِلْوَحْيِ مِنْ جَدِيدٍ ، وَشَوْقَكَ إِلَى أَشْيَاءٍ يُنْسِيكَ الثَّعْبُ فِي سَبِيلِهِ

وفي ذلك يقول تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

وعجيبٌ أن يقول المشركون عند انقطاع الوحي إن ربَّ محمد قلاه ، ففي الجحوة عرفوا أن لمحمد رباً يَجفوه ، أما حين الخوة والجلوة قاسوا مُفْتَرٍ وكَذَّابٍ وشاعر .. إلخ

ومعنى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾ [المسمى] يعنى ستكون عودة الوحي خيراً لك من بدايته ، لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأحدهك ، أما في الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه ، فطاقتك هذه المرة مستعدة لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد

إنى فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّرُ له امر الاندماج في المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحي لم يتفصّد حبيته عرقاً ولا أجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة لشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد

ثم يقول سبحانه ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَرْوَاحِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ (٥٠)﴾ [الاحزاب] أى من العدد الذى حدّد بأربعة ، ومن المهر الذى سُمّي ساعة العقد ، والمراد أن لكلّ حكمه وقانونه ، هلك يا محمد حكم يناسبك ، ولأمتك حكم

ويمتناسبة ما تحن بصدده من الحديث عن 'حكام الرواح' والمتعدد يجدر بنا أن نشير إلى الضجة التي يثيرها 'عداء الإسلام' بسبب مسألة « تعدد الزوجات » ، مع أن التعدد في مصر لم يصل إلى حدّ الطاهرة وليس وماء كما تُصوِّره الدفعر .

فَالَّذِينَ أَحْصَوْا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَجَدُوا أَنَّ لَّذِينَ عَدُّوا بِزَوْجَتَيْنِ ثَلَاثَةً
بِالْعَائَةِ ، وَالَّذِينَ عَدُّوا بِثَلَاثٍ وَاحِدَةً فِي الْأَلْفِ ، وَالَّذِينَ عَدُّوا بِأَرْبَعٍ
نِصْفَ فِي الْأَلْفِ ، فَلَمَّا دَا إِذْنُ إِثَارَةِ النَّاسِ ضِدَّ مَا شَرَعَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَلَمْ
يَعْتَمِرُ التَّعَدُّدُ فَاتُّضِحَّ مِنَ النِّسَاءِ ؟

وَتَأْتِي الرُّوحَةَ تَشْتَكِي بَعْدَ أَنْ عَشَّتْ مَعَهُ كَذَا وَكَذَا ، وَحَدَسَهُ
كَذَا وَكَذَا يَتَزَوَّجُ عَلَيْهِ ؟ فَأَقُولُ لَهَا - أَضَرَّكَ أَمْتُ ؟ تَقُولُ نَعَمْ ، أَقُولُ
لَكِنَّهُ نَفَعَ أُخْرَى ، فَوَاحِدَةٌ بِوَاحِدَةٍ ، وَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْمَتْرُوجَةِ ، وَنَغَلَ
الَّتِي بِمِ تَتَزَوَّجُ ، أَلَيْسَ مِنْ حَقِّهَا هِيَ الْآخَرَى أَنْ تَتَزَوَّجَ ؟

ثُمَّ إِنْ الْمَرَاهُ السِّ قَبِلَتْ أَنْ تَكُونَ الثَّامِيَةِ مَا قَبِلَتْ إِلَّا لِأَنَّهَا
لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكُونَ الْأُولَى ، وَكَذَلِكَ الثَّالِثَةُ مَا قَبِلَتْ ، إِلَّا لِأَنَّهَا
لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةِ . إِلَخْ ثُمَّ نَقُولُ لَهُؤُلَاءِ أَلَّا تَرْمِكُ رَبِّكَ أَنْ
تَعُدَّ ؟ هَذِهِ مَسْأَلَةُ أَبَاحِهَا الشَّارِعَ لِحُكْمَةٍ ، وَلَمْ يَلْمِمْكَ بِهَا ، فَبَيْنَ كَانَ
التَّعَدُّدُ لَا يَمُجِّدُكَ فَالْكُفُّ بِوَاحِدَةٍ

وَالَّذِينَ أَثَارُوا الصِّحَّةَ فِي تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ ثَارُوا أَكْثَرَ مِنْهَا فِي
مَسْأَلَةِ مَلِكٍ أَيْمِينٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَرَاحُوا يَنْهَمُونَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ
كَيْفَ يَجْمَعُ الرَّجُلُ فَوْقَ زَوْجَاتِهِ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَلِكٍ الْيَمِينِ ؟

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَلِكَ الْيَمِينِ كَانَ مَوْجُودًا فِي الْإِسْلَامِ وَطَلَّ مَوْجُودًا ،
حَتَّى دَعَا الْقَانُونَ أَسَدُولَى الْعَامِ إِلَى مَعَ ظَاهِرَةِ الْعِبْرِيَّةِ وَدَعَا إِلَى
تَحْرِيرِ الْعَبِيدِ ، فَسَرَّحَ النَّاسُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَبِيدِ وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ
يَشْتَرِي الْعَبِيدَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ ثُمَّ يُطْلِقُ سَرَاحَهُمْ

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ مَنْ كَانَ يَعُودُ إِلَى صَاحِبِهِ وَسَيِّدِهِ مَرَّةً أُخْرَى
يُرِيدُ الْعَيْشَ فِي كَنْفِهِ وَهُوَ عِبْرِيَّةً مَرَّةً أُخْرَى ، لِأَنَّهُ أَرِنَاحَ فِي ظِلِّ

هذه العبودية ، وعاش في حمايتها ، وكان بعضهم يفخر بعبوديته
ولا يسترها فيقول أنا عتيق آل فلان

والمنصف يحد أن ملك اليمين في الإسلام ليست سبة فيه ، إنما
مفحرة للإسلام ، لأن ملك ايمين وسيلته في الإسلام واحدة ، هي
الحرب المشروعة ، فالإسلام ما جاء ليشيء وفقاً إنما جاء ليشيء
عقلاً

الإسلام جاء والرق موجود ، وكان العبد يُباع مع الارض التي
يعملون بها ، ولا سبيل للحرية غير إرادة السيد في عتق عبده ، في
حين كانت مذبح الرق كثيرة متعددة ، فكان امدين الذي لا يقدر على
سداد دينه يبيع نفسه أو ولده لسداد هذا الدين ، وكان اللصوص
وقطاع الطرق يسرقون الاحرار ، ويبيعونهم في سوق العبيد . إلح

فلما جاء الإسلام حرم كل هذه الوسائل ومنعها ، ولم يُبقَ إلا
منعاً واحداً هو السبي في حرب مشروعة ، وحتى في لحرب ليس
من الضروري أن ينتج عنها رق ، لأن هناك تبادل أسرى ، ومعاملة
بالمثل ، وهذا التبادل يتم على مقدار الذسر ، فالقائد أو العيلسوف
أو العالم الكبير لا يُقتدى بواحد من العامة ، إنما يحدد بناسب قدره
ومكانته ، وقرأ في ذلك قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَصْعَ
الْحَرْبُ أَوْرَارَهَا . (٤) ﴾ [محمد]

لأن الحرب ما شرعت في الإسلام ليُرغم الناس على الدين ،
لكي نُحمي اضميأرهم للدين ، بدليل أن البلاد التي دخلها المتح
الإسلامي بقي فيها كثير من الناس على كفرهم ثم ألزمهم دفع
الجرية مقابل الركاة التي يدفعها المسلم ، ومقابل الخدمات التي
تؤديها إليه الدولة

ثم تأمل كيف يعامل الإسلام الأسرى ، وعلى المجتمع الظالم الذي ينتهك الإسلام في هذه الجزئية أن يعلم أن الذي أسرته في المعركة قد قدرت عليه ، وتمكنت منه ، وإن شئت قتلته ، فحين يتدخل الشرع هنا ويجعل الأسير ملكاً لك ، فإنما يقصد من ذلك حفظ دمه أولاً ، ثم الانتفاع به ثانية ، أما بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأن يخدمك بنفسه

إذن المقاربة هنا ليست بين رقٍّ وحرية كما يظن البعض ، إنما هي بين رقٍّ وقتل

إذن مشروعية الرق هي أسرى الحرب إنف جاءت لتحقق دم المأسور وتعطي الفرصة للانتفاع به ، فإذا لم يتم الفداء ولا تبادل أسرى وغلَّ أسيرك بيدك ، فاعلم أن له أحكاماً لا يصح تجاوزها ، فهو شريكك في الإنسانية المخلوقة لله تعالى ، وما أتاح الله لك أن تأسره ، وأن تملكه إلا لكي تحقن دمه ، لا أن تذله

وقرأ قول النبي ﷺ : « إخوانكم حولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه عبده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفه طبعته »^(١)

هنا إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أن حقن دمه أولاً ، ثم كرمه بأن جعله أحاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدي إلى عتقه وحرية ، فإن كسار للرق في الإسلام باب واحد ، فللحرية عدة أبواب ، منها العتق هي الكفارات وهي في تكفير الذنوب التي بين العبد وربه

(١) حديث منقول عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠ ٢٥٤٥) كتاب الإيمان وكما

مسلم في صحيحه (١١٦٦) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه



فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْكَ ذُنُوبٌ فَقَدْ رَعَيْنَا الشَّرْعَ فِي عُنُقِ الرِّقَابِ لاجْتِيَارِ
العقبة كما في قوله تعالى . ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا
الْعَقَبَةُ ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ (١٢) ﴿

[الباء]

هذا إن كان الأسير رجلاً ، فإن كان امرأة ، ففيها نفس التفصيل
السابق . وتعامل نفس المعاملة الطيبة يزيد على ذلك أن للأمة - وهي
في بيت سيدها - وضعاً خاصاً ، فهي ترى سيدتها تتمتع بزوجها ،
وترى البنت تتزوج ، فيأخذها زوجها إلى بيت الزوجية ، إلى آخر مثل
هذه الأمور ، وهي تعف موقف المتفرج ، وربما أخذتها الغيرة من مثل
هذه المسائل ، فيكرمها الله حين يُحلّها لسيدها ، فيكون لها
ما لسيدها الحرة ، فإذا ما أنجبت لسيدها ولداً صارت حرة به ، وهذا
منفذ آخر من منافع القضاء على الرق

وقوله تعالى ﴿ لَكِبَلًا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۖ ۝ (٥٠) ﴾ [الأحزاب] هذه
هي الهمزة الحالصة للنبي ﷺ دون أمته ، كأن الله يقول لنبيه : لا تريد
أن تُحمّلك ضيقاً في أي شيء تفرع أنت لمهمتك الصعبة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ
عَفُوًّا رَحِيمًا ﴾ (٥٠) ﴿

[الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ۚ
وَمَنْ أَنْصَبْتَ مِنْ عَمَلِكَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا
ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ (٥١) ﴾

اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ (٥١)

قوله ﴿تُرْجَىٰ مِنْ شَاءِ مَنْهْنٌ ۖ﴾ [٥١] ﴿[الاحزاب] أى تؤخر من
تشاء من زوجاتك عن ليلتها ﴿وَتُزَوَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ شَاءِ ۖ﴾ [٥١] ﴿[الاحزاب]
أى تصم إليك ، ونضاجع من تشاء منهم﴾ ومن ابتغيت .. ﴿[٥١]﴾
[الاحزاب] من طلبت من زوجاتك وقربت ﴿مِمَّنْ عَرِّيتْ ۖ﴾ [٥١] ﴿
[الاحزاب] أى اجتنبت بالإرجاء والتأخير ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [٥١] ﴿
[الاحزاب] أى لا إثم ولا حرج

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَأُ عَيْنَهُنَّ وَلَا يَقْرَأَ بِعَيْنٍ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۖ﴾
﴿[٥١]﴾ [الاحزاب] أى أنهن جميعاً سيفرحن ، التى تضمها إليك ، والتى
تُرحنّها وتؤخرها ، وسوف يرضين بذلك ، لأنهن يعلمن أن مشيئتك
فى ذلك بأمر الله ، فالتى ضمها رسول الله إليه تفرح بحب رسول الله
ولقائه ، والتى أحرّت تفرح لأن رسول الله أبقى عليها ، ثم عاد إليها
مرة أخرى وضمها إليه وقربها ، وقد يدور على أن لها دوراً ومنزلة
وأيضاً حين يكون ذلك من تشريع رب محمد لمحمد ، فإنه لا يعنى
أنه كرهها أو زهد فيها ، فإن فعلت ذلك يا محمد - مع أن فيه
مشقة - فإنما فعلته طاعة لأمر من ، لأمر الله ، فتأخذ ثواب الله عليه

وحين يتأمل كلمة ﴿تَقْرَأُ ۖ﴾ [٥١] ﴿[الاحزاب] تجد أنها كحكمة كلمات
القرآن (كالإلهام) ، لكل درة تكوينية فيه يربو حاص وإشعاع ،
لذلك يقولون عنه (ذا بيلالى) ومع كثرة بريقه لا يطمس شعاع
فيه شعاعاً آخر ، كذلك كلمات القرآن

(قر) وردت كثيراً فى القرآن كما فى ﴿قُرَّتْ عَيْنِي وَلِيْ وَلَكَ ۖ﴾
﴿(١٠)﴾ [القصص]

كلمة قر معانها سكن ، نقول قر بالمكان أى استقر فيه
وسكن ، والقر هو البرد ، وقرة العين تأتى بالمعنيين ، فالعين بسكن

عند شيء ما ، ولا تنتقل إلى غيره إن كان حميلاً يأسرها فلا تفارقه ، يقولون فلان قيد لنظر .

وفي المقابيل يقولون : فلان عينه زائغة يعني لا تستفر على شيء أو (عينه دشعة) عبد إخواننا الذين ينطقون الجيم دالاً مثل (ردة) يقصدون حرج ، والعين الجشعة^(١) بنفس المعنى ، وفي المعنى السياسي يقولون فلان له تطلعات يعني كلما وصل إلى منصب نظر إلى الأعلى منه .

أما القُرُ بمعنى البرودة ، فقُرَّة العير تعني برودتها ، وهي كناية عن سرورها ، لأن العين لا تسخن إلا في الحر والالم ، لذلك ثبت أخيراً أن حية العير (ترمومتر) دقيق لحالة الجسم كله ، وميزان لصحة ومرضه .

ولأهمية العين نقول في التوكيد جاءني فلان عينه ، وسبق أن تحدثنا عن ظاهرة الاستطراق الحراري في جسم الإنسان وقلنا إن من المعجزات في تكوين الإنسان أن الاستطراق الحراري في جسمه يتم بنظام خاص ، بحيث يحتفظ كل عضو في الجسم بحراره تناسبه ، فإن كانت حرارة الجسم العامة والمثالية ٣٧° ومن العجيب أنها كذلك عند سكان القطب الشمالي ، وهي كذلك عند سكان خط الاستواء - فإن حرارة الكبد مثلاً لا تقل عن ٤٠° مئوية ، أما العين فإذا زادت حرارتها عن عشر درجات تنفجر

إن فن فقرة عين روجيات النني وسرورهن في مشيئته . حين

(١) الجشع أسوأ النقص وعين هو أشد المرض على الأكل وغيره ، وقيل هو أن تأخذ بصيبيك وتطعم في مصب عيرك [لسان العرب - مادة جشم]

يُقَرَّبُ إِلَيْهِ مَنْ يُقَرَّبُ ، أَوْ يُؤَخَّرُ مَنْ يُؤَخَّرُ ، لِأَن مَشِيئَتَهُ تَابِعَةٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ

وقوله تعالى ﴿وَيَرْصِنَ بِمَا آتَيْتَهُمْ كُلَّهُمْ﴾ (٥١) [الاحزاب] أى
فى أى الحالات ، ثم جاء قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١) [الاحزاب] ليشير الى أن الرضا هنا ليس هو
رضا القواىب إنما يرد رضا القلب بتنفيذ أوامر الله دون أن يكون
فى النفوس خافئ أو اعتراض

قاله سبحانه ﴿كَانَ عَلِيمًا ..﴾ (٥١) [الاحزاب] يعلم ما فى القلوب
﴿حَلِيمًا﴾ (٥١) [الاحزاب] لا يحازكم على ما يعلم من قلوبكم ،
ولو جاراكم على قدر ما يعلم لاتعجبكم ذلك

وتأمل حم الله علينا ورحمته بنا فى مسألة البدء ببسم الله ،
فالنبي ﷺ يُعَلِّمُنَا أَنْ كُلَّ عَمَلٍ لَا يَبْدَأُ بِبِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَسْرَأَى مَقْطُوعُ
البركة ، فالإنسان حين يبدأ فى الفعل لا يفعله بقدرته عليه ، ولكن
بتفسير من خلقه له ، فحين تقول بسم الله أفعل كذا وكذا ، فإليك
تفعل باسم الذى سحر لك هذا الشيء

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَأَتْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ
تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا
كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ (١٣)

فعليك أن تبدأ ببسم الله حتى إن كنت عاصياً لله ، إياك أن تظن
أنك لست أهلاً لهذه الكلمة ، لأن ربك حلیم ، ورحمن رحيم

ثم يقول الحق سبحانه^(١)

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾

سبق أن تناولنا تفسير هذه الآية في إطار سياق الآيات السابقة ،
ونلخصها هنا في أن الحق سبحانه بدأ رسوله أولاً بأن أحل له في
قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠)﴾ [الاحزاب] ثم قيد
هذا التحليل هنا ، فقال : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ
مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الاحزاب]

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٥٠١/٢) : ذكر غير واحد من العلماء كتبت عباس ومجاهد
والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية مراد مجازاة لأزواج النبي ﷺ
ورحماً عنهم على حسن صيغتهم في اختيارهم الله ورسوله والبلد الأجرة لما حيرهم
رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية ، فلم يصبر رسول الله ﷺ على جرائم أن الله تعالى
قصره عليهم وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبه
حسنهن إلا الإسم والسراري فلا خرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عن الحرج في ذلك
وسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج ليتكون انقضاء
لرسول الله ﷺ عليهم .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥٤٩١/٨) : استلف العلماء في إبطال الأمة الكافرة لمسي
ﷺ على قوبس

الأول تعل بعدم قوله ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ .. (٥٢)﴾ [الاحزاب] قاله مجاهد وسعد بن
حمير رطاء والحكم

الثاني لا محل تكرمها للدره عن مباغرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تَسْكُرُوا
بِعَهْمِ الْمُكَافِرِ (٢)﴾ [الممتحنة] فكيف به ﷺ ؟

فالحق سبحانه يأتي بالمحرف في أشياء ، ثم يأتي بالمتكفل ،
يعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان ، ويُبَيِّنُ
فصله عليه ، كما قال له سبحانه ﴿عَمَّا اللَّهُ عَلَيْكَ ..﴾ (٤٣) [التوبة] قبل
أن يعاتبه بقوله ﴿لَمْ أَذَنْ لَهُمْ ..﴾ (٤٣) [التوبة]

ومنه الآية ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَرْوَاحٍ
وَلَوْ أَغْنَيْتُكَ حَسَنٌ ..﴾ (٥٦) [الاحزاب] توضح أن ما شرع لرسول الله
في مسألة تعدد الزوجات غير ما شرع لأُمَّته ، فرسول الله استثناه الله
تعالى في المعداد لا في العدد ، والفرق بين الاستثناء في العدد
والاستثناء في المعداد أن العدد يُدار في أشياء متعددة ، ولو أنه أباح
له عدد تسع ثم تُوفِّيَ لَكَ أن يتزوج بتسع أخر ، وإن ماتت
واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلاً منها

لكن الاستثناء لم يَكُنْ لرسول الله في العدد كامته ، إنما في
المعداد ، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهم ، والحكمة في ذلك
أن التي يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أن تتزوج بغيره ،
على خلاف زوجات رسول الله ، فإنهن أمهات للمؤمنين ، فلا يحل
لهن الزواج بعد رسول الله

ثم أوضحنا أن مساله ملك اليمين ليست سببة في جبين الإسلام ،
إنما هي ميزة من ميراثه ، فانه ملك الرقبة ليحميها من القتل ،
والمقاربة هنا ليست بين رق وحرية ، إنما بين رق وقتل كما
أوضحنا ، والذي يتأمل حال المملوك أو المصوكة في ظل الإسلام
لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع في هذه المسألة

ثم يقول الحق سبحانه (١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ
إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ لِإِنَّهُ
وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا
وَلَا مُمْسِكِينَ لِخَبَرٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُورِى
النَّبِيَّ فَيَسْتَخِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِي مِنْ
الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ
حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا
أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِندَ
اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٢﴾﴾

الحق - سبحانه وتعالى - وزع الامر بين رسول الله وبين أمته ،
فكما قال للرسول في أول السورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾

(١) قال حماد بن زيد هذه الآية نزلت في القلاء فالجمهور من المفسرين على أن سببها
أن رسول الله ﷺ لما تزوج ربيب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدما الناس ، فلما
طعموا جلس طوائف منهم يبهشون في بيت رسول الله وروجه مولى وجهها إلى الحائط ،
فتلقوا على رسول الله ﷺ قال أسس فما أدري أنا خبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا
أو أخبرني قال أسس فاسطلق ﷺ حتى دخل البيت ، فبهش أمخل معه فألقى السور بيبي
ومينه ودخل الحجاب قال ووعد القوم بما وعظوا به ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية
أورده القرطبي في تفسيره (٥٤٩٧/٨)

[الأحزاب] أمر أمته بذكره وطاعته ، وكما نكلم عن أمر يتعلّق برسول الله تكلم كذلك عن أمر يتعلّق بأمته في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ .. ﴾ (٤٩) [الأحزاب]

بعد ذلك قال لرسول الله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٩) [الأحزاب] ليبيّن عموم نفعه لأمته ، فجازاه عن الأمة بأن يصلّوا عليه ، وأن يتادّبوا حين دخولهم بيته ﷺ ، فقال هنا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ (٥٣) [الأحزاب] لأن التكليف لا بد أن يكون لمن آمن بالله ، وقلنا إن الحق سبحانه رب وإله ، ومعنى (رب) أنه سبحانه خلق ربّي وأعم وبفصل ، والحق والتربية والإنعام والتفضل ليس خاصا بالمؤمنين ، بل لكل من استدعاه الله للوجود من مؤمنين وكافرين .

والشمس تشرق على الجميع ، والمطر يروي أرض المؤمن والكافر ، والأرض تستجيب لكل ، فالذي يُحصن أخذ أسباب الله من عطاء الربوبية يأخذ النتيجة ، وينال بصيبه موقوتا بمدى الربوبية في الدنيا ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢٠) [السورى] والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

فالمؤمن الذى لا يأخذ يد الله الممدودة له بالأسباب ويهملها يعيش متحلّفا عالّة على غيره ، يعيش شحادا يستجدى قوته حتى من الكافر ، فإذا ما حلت الساحة للكافر ، وآخر هو بالأسباب ، وأعطاهما حقوقها أخذ هو عطاء الرب ، وكان أولى بالمؤمن ألا يتربّ عطاء ربه ، يأخذه من لا يؤمن بالله ، ثم يحلف هو عن ركّب الحصاره ، وإن كانت الحصاره التى وصل إليها الكفر اليوم حضرة فى العاديات فحسب

أما القيم والأخلاقيات فقد انحدرت في هذه المجتمعات ، بدليل أنك حين تذهب إلى هذه البلاد وتنزل مثلاً في فندق .. كما نزلنا .. تجد مكتوباً على باب الحجرة إذا دخل عليك اللصوص فلا تقاوم ، فإن حياتك أئمن مما معك ، إذ خرجت إلى الشارع فلا تحمل من المال إلا بقدر ضرورياتك إذن ارتقوا في شيء ، وانحدروا في أشياء

ورداً كان مظهر ارتقائهم في الناحية الاقتصادية ، فانظر إلى أعلى دخل للفرد في العالم تجده في السويد ، ومع ذلك تكثر عندهم الأمراض النفسية والمصيبة والانتحار والحنون والشذوذ وغيرها من الأمراض الاجتماعية .

لقد تحضّرت هذه البلاد حضارة مادية لأهم أخذوا بأسبابها ، فأنفق كلُّ عمله ، وأعطى وقت العمل للعمل ، فما بين الثامنة إلى الثانية عشرة لا تجد إنساناً في الشارع ، ولا تجد أحداً يجلس على (القهوة) مثلاً أو يضيع وقت العمل وفي وقت الراحة يذهب الجميع إلى المطعم لياكل (السندوتش) الجامر ، ثم يعود إلى عمله

هكذا يعيش المجتمع المادي ، فالذي لا يعمل فيه يموت من الجوع . والحمد لله أن شبابنا تنبهوا إلى أهمية العمل وتحلّوا عن الطفولة التي كانوا يعيشون فيها حتى الثلاثين ، وهم عائلة على الأبوين .

والحق سبحانه هنا يُعلّمنا الأدب مع رسول الله ، ويجعله لنا قدوة ، فهو ﷺ عاش عيشة الكفاف مطعماً وملبساً ومسكناً ، فليس عنده إلا عدة حجرات ، لكل زوجة من زوجاته حجرة واحدة ، فليس لديه حجرة صالون أو استقبال ، فلا بد أن تتعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة في مثل هذه الحالة ، وخاصة مع رسول الله في بيوته

فقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ

لَكُمْ .. (٥٣) ﴿ [الاحزاب] كلمة (بيوت) جمع بيت ، وهو ما أعد للبيتونة أى للمبيت فيه ، والمبيت فى الأغلب الأعم لليل ، فهو محل السكون والبيات ، أما النهار فهو محل لحركة ، ولا بد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوى بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفىء إليه ، لذلك سُمِّي البيت سكناً ، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفس

فالمبيت مسكن لإيواء القلب وراحته ، والمرأة سكن لإيواء للقلب وراحة النفس ، فكلاهما يسمى أن يكون مصدراً للراحة .

والبيت يُجمع على بيوت إن أردنا المسكن ، ويجمع على أبيات إن أردنا البيت الشعرى ، وسُمِّي الشعر بيتاً عند العرب وهم أمة فصاحة وبيان ، لأنه تأوى إليه المعانى ، كما نأوى نحن إلى بيوتنا ونسكن فيها . كذلك المعانى تسكن بيت الشعر . فيصير البيت نفسه حكمة

لذلك يقول أحمد شوقي رحمه الله لا يزال الشعر عاقلاً يعنى لا زينة له من قلوبهم المرأة العاقل أى التى لا زينة لها^(١) - ما لم تُزَيِّه الحكمة ، فهو بدورها وراء لا فائدة منه .

ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر يُحفظ ويُداول على مرَّ العصور ، كما نستشهد نحن الآن بأبيات المقتبى والمعرى وشوقي .. إلخ

والبيتونة فى كل شىء بحسبها ، فأنذين يعملون بالنهار بيتوهم بالليل ، وأنذين يعملون بالليل بيتوتهم بالنهار وإن كان الأصل فى البيات أن يكون ليلاً وإياك أن تشغل إنساناً وقت بيتوته سواء أكانت بالليل أو بالنهار ، فوقف العمل للعمل ، ووقت السكن للسكن

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مائة - مقل) ، المائلة لا تشمل السُر والإصبع والنومحة وأشياء ذلك ، والأوصاح حلى من الدراهم الصالح

لذلك فإن أهل الحكمة عندنا في املاحين يقولون (من يحرس) يعنى بالليل (لا بحرث) يعنى بالنهار ، لأن الإنسان إن اشغل وقت راحته لا يجيد عمله ولا يتقنه .

بصرف النظر ، أكان وقت الراحة في الليل أو في النهار ، فانت مثلاً حين تتأمل البلاد التي تشرق فيها الشمس ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وتغيب أيضاً ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، هل تتصور أن يحمل أهل هذه البلاد طوال الثلاثة أشهر ، وييامون ثلاثة أشهر ؟ لا إنما يُقسّمون هذه لغيره في ليل أو نهار إلى فترات فترة للعمل ، وفترة للراحة

لذلك تجد من عظمة القرآن أن يحتاج لمثل هذه الأمور ، فيقول سبحانه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاجْتَاؤُكُمْ مِّنْ نَّوْمِهِ .. ﴾ (٢٣) [الروم] فالنوم يكون بالليل ، ويكون أيضاً بالنهار من تستدعى طبيعة عمله أن يعمل بالليل

والبيت يكون على قدر إمكانيات صاحبه ، المهم أن يكون له مكان بأوى إليه وسريع فيه ، مهما قل ، حتى لو كان مكاناً ضيقاً على قدر ما يسع الإنسان أن يضع جنبه على الأرض ، فإن كان فيه متسع فيها ونعمت ، وعلى طارق البيت أن يراعى مدى البيوتة لمن يطرق عليه

وكما يتفاوت الناس في البيوت ، كذلك يتفاوتون في ترف الحياه وأسباب الراحة في البيت على حسب الإمكانيات ، وما دامت الراحة على قدر الإمكانيات ، فينبغي أن يتحلى كل بالرضا ، وأن يربط بين عمله ودخله وبين ترف حياته ، فقبل أن تفرس لنفسك حياة مترفة ، افرض لها أولاً عملاً مترقاً بمسعى المستوي ، بحيث توفر منه إمكانيات هذا الترف

وكما يقول المثل (عى قدر لحافك مدّ حليك) فإذا كانت
مكاناتك لا توفر لك إلا الكفاف ، فلتكن راضياً به . وإنْ تمردت
وطلبت المزيد فلتتمرّد أولاً على نفسك ، ولتعمل العمل الذى يوفر لك
ما تتطلع إليه .

وآلة الناس فى اقتصادهم أن يحدّدوا مستوى الحياة أولاً ، ثم
يرغمّون دخولهم وإمكاناتهم على هذا المستوى ، فيحدث العجز ،
ولا تفى الإمكانيات بالمتطلبات ، إما الواجب أن أحدّد مستوى حياتى
على ضوء دخلى وإمكاناتى ، وبذلك يعيش الإنسان سعيداً مرتاحاً
لا يرهقه شيء ، ولا يهوتنا ونحن نتحدث عن الدخول والإمكانات أن
نراعى الحلال فى الكسب وفى الإنفاق

وإذا كانت البيوت وأسباب الراحة فيها بحسب إمكانيات أصحابها
فينبغى أن تكون أحوالهم لنفسية أيضاً على قدر إمكانياتهم حتى
لا يمتلئ قلب الفقير حقداً على صاحب النعمة

إنّ لا بدّ لنا أن نتحلّى بالرضا ، وأنْ نقنع بما فى أيدينا ، ومنْ
يدريك لعل صاحب النعمة هذا ورثها ، وإنْ كان لم يتعب هو فيها فقد
تعب أبائُه وأجدانه ، وسبق أن قلنا إنّ الذى يعرق عشر سنين من
حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يعرق عشرين سنة يُريح أولاده ،
والذى يعرق ثلاثين يُريح أحفاده ، ومنْ ذا الذى عرق وكذا ولم يجد
ثمرة عرقه ؟

فمنْ أراد أن يعيش محترماً مكرماً حال شحوحته فليعمل فى
شبابه وحال قدرته ، وليعرق قبل أنْ يأتية يوم لا يجد فيه هذه
القدرة ، لذلك يراعى سيدنا رسول الله هذا المعنى فى قوله ﷺ

« أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه »^(١) .

أما لذين يتسكعون في الشوارع أو على الفسهاوى فييسو أهلاً لهذه الحياة الكريمة حال شيخوختهم ، كذلك العامل الذى لا يعطى للعمل حقه أو لا يتقنه ، أو يجلس يراقب صاحب العمل يتحين الفرصة لإضاعة الوقت . ومعلوم أن لقرش إذا اكتسبه صاحبه دون وجه حق كان وبالاً عليه وفساداً لحاله ، لأنه لم يعرق به .

واقراً إن شئت قول سيدنا رسول الله ﷺ « من أصاب مالا من مهاوش . أنهبه الله فى نهابر »^(٢) والمهاوش هي الطرق غير المشروعة لجمع المال ، وهو نفس المعنى الذى نقصده حين نقول مثلاً فلان جمع هذا المال من (الهبش) أو (التتش) ، والنهابر هي الأبواب التى تفتح لصرف هذا المال فيما لا فائدة منه . وكثيراً ما ترى بعض اناس دخولهم ورواتبهم كبيرة . ومع ذلك يعيشون عيشة الفقراء . لا ترى عليهم ولا على أولادهم أثراً لهذه النعمة .

والناس يختلفون فى نظرتهم إلى النعمة فى أيدي الآخرين فقوى الإيمان ساعة يرى النعمة فى يد غيره لا يحسده عليها ، إنما يرى أنها فضل الله على عباده ، وتراه يدعو لصاحب النعمة بالبركة . ويقول والله إنه يستحق هذه النعمة وأكثر منها ، لأنه جَدَّ واجتهد .

(١) أخرجه ابن ماجه فى ميمته (٢٤١٣) من حديث ابن عمر ، قال أبو بصير عن الرواشد إسماعيل ضعيف ، فيه ضعيفان . وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبرسى فى معجمه الصغير (١ / ٢) من حديث جابر ، وأبو يعقوب فى الطلية (١٤٢ / ٧) من حديث أبي هريرة . فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن . وبه أصل فى صحيح البخارى عن أبي هريرة . كتاب البيوع .

(٢) أورده العجلونى فى كشف الحفاء (٣١٢ / ٢) وعراه القضاة عن أبي سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال الثعلبى السبكى لا يصح والمهاوش مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصلب من غير حله ولا يدرى ما وجهه كالغصب والسرقة وهو ذلك [لسان العرب - مادة هوس] والنهابر المهالك أى أنهبه الله فى مهالك وأمر متبذرة [لسان العرب - مادة مهبر]

لمؤمن يقول ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله . اللهم بارك له وأعطني من نعمك ، المؤمن يرى في نعمة الدنيا نموذجاً مُصغراً لنعمة الآخرة . فيقول هذا ما أعدّه البشر لأنفسهم فكيف به أعدّه الله لحقّه ؟ عندها يتراءى له نعيم الجنة ، فيقبل عليها بقلب يملؤه الإيمان واليقين ، وهذه النظرة للنعمة عند الآخرين تسمى غبطة

أما غير المؤمن - والعياد بالله - فيحقد على صاحب النعمة ، ويراه غير أهل لها ، ويتمنى زوالها من عنده ، ويصده عليها ، وهذا كله دليل على ضعف الإيمان والاعتراض على أقدار الله في خلقه .

وتُسمى المساجد بيوت الله ، وتُسمى المسجد بيت الله . لأنه جعل خصيصاً لكي تقابل فيه الله حينما نسمع نداء الصلاة ، لذلك حذرنا رسول الله أن ندخل الدنيا معنا بيوت الله . فحذر أن تُعقد الصفقات في المساجد ، أو تُشدد فيها الصالة ، ولا أدن على ذلك من قوله ﷺ لمن عقد صفقة تجارية في بيت الله . لا بارك الله لك في صفقتك ^(١) وقال لمن تشد ضالته في المسجد . لا رد الله عليك ضائعك ^(٢)

لأن الإنسان يعيش طوال وقته الدنيا فلا يجوز أن يأخذها معه حتى في وقت الصلاة ، فوقت الصلاة للقاء الله . وهذا الوقت لا يعطل حركة حياتك إنما يعطيك شحنة إيمانية تُقويك على متابعة حركة حياتك ، وسبق أن قلنا إن هذه الشحنة أشبه شحنة البطارية ، فهل يقال لمن أخذ البطارية لي شحنها أنه عطّل البطارية ؟

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال . إذا رأيتم من يبيع أو يباح في المسجد فقولوا لا أبيع الله تجارتك . أخرجه الترمذي في سننه (١٢٢١) وقال

« حديث حسن عريب »

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٨) كتاب المسجد من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من سمع رجلاً يشد ضالة في المسجد فليقل لا ردّها الله عليك فإن المسجد لم تكن له »

كذلك أنت صنعة الله وخلقته . وما بالك مصنعة تُعرض على صامعها كل يوم خمس مرات ، أيصيبها عطب بعد ذلك ؟ وكذلك أنت حين تعرض نفسك على ربك ، تأخذ من هذا اللقاء شحنة إيمان رقيق ، وتتخلص من همومك ومشاكلك .

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ كلما حَرَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة^(١) ففي الصلاة ترمى بنفسك وترمى بهمومك ومشاكلك في (أحضان) ربك ، لأنه سبحانه أعطى الكون اسماً ، فإذا عزتُ عليك الأسباب ولم تُفدك بشيء فاترك الأسباب ، والحا إلى المسبب سبحانه

وقلنا إن المسجد بيت الله باختيار الخلق ، أما بيت الله الحرام فهو بيت الله باختيار الله ، لذلك جعله الله قبلة كل البيوت فإذا ما رُزئ ولو مرة واحدة أصلح حياتك كلها .

يعود إلى بيوت النبي ﷺ وما ينبغي أن يتحصى به المؤمنون من دُب في دخولها ، وما يجب أن يُراعى في دخول هذه البيوت بالذات ، لأن لها طبيعة خاصة تناسب مهمة صاحبها ﷺ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ .. ﴾ (٥٣) [الاحزاب] يعني لا تتهاصموا عليها ، لأنها ضيقة وليست فيها سعة للاستقبال في كل الأوقات ، والإذن هنا مُقْبَد بالطعام ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ .. ﴾ (٥٤)

وحتى إذا دُعيت إلى طعام رسول الله لا تذهب إليه قبل وقته ، فإذا كان العشاء مثلاً الساعة الثانية ، فلا تذهب أنت الساعة العاشرة ، لأنه لا يليق بك أن تشغل رسول الله وله في بيته مهمات يجب ألا

(١) عن حديفة رضي الله عنه قال : « كل النبي ﷺ إذا حربه أمر صبي » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٣١٩)

ينشغل عنها مهام مع ربه ، ومهام مع أهل بيته ، وهذا معنى ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنَّا هُوَ﴾ [٥٣] ﴿[الاحزاب] أى بضج الطعام واستوانه وإعداده ، وافعل (إنى) على وزن رصا ، وفى لغة أنى أنياً مثل رمى رمياً

وهنا تحذير للمؤمنين إذا دُعُوا إلى طعام رسول الله أن يدخلوا بيوته ينتظرون تَضَجَ الطعام ، إنما عليهم ألا يدخلوا إلا بعد تَضَجَ الطعام وإعداده ، بحيث يقول لهم تفضلوا الصعام ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا﴾ [٥٣] ﴿[الاحزاب] فالطعم جاهر ومُعَدٌّ﴾ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا.. [٥٣] ﴿[الاحزاب] فكما نهامهم فى أولية الطعام عن انتظار تَضَجِهِ ، كذلك نهامهم فى آخريته عن عدم الجلوس بعده ، إنما ينبغى عليهم إذا أكلوا أن ينتشروا .

والانتشار أن يأخذ شئ حيزاً أوسع من حجمه ، والانتشار يُعِينُك على تحقيق العاية ، ألسنا نشر الملاص بعد غَسْلُهَا ؟ لماذا ؟ لأن شَرَّ الفسيل يساعد على جفافه ، ولو تركته فى حيزه الضيق لاحتاج أسبوعاً لكى يجف ، إذن فى الانتشار فائدة

وسبق أن أوضحنا هذه الظاهرة بكوب الماء إذا تركته مثلاً وسافرت لمدة شهر ، فإنك ستعود فتجده كما هو لم ينقص إلا القليل ، لكن إن سكبته فى أرض الحجرة فسوف يجف قبل أن تخرج منها

فقوله تعالى ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ [٥٣] ﴿[الاحزاب] أى تفرقوا ، لأن المكان الذى اسم فيه فى بيت النبی صيق ، إذن ليذهب كل إلى عمله ، وماذا يراد من المؤمى بعد أن تناول طعامه ؟ أن يسعى فى مذاكى الأرض ، لا أن يجلس خاملاً عالّة على غييره ، وتأمل أيضاً قول الله تعالى فى سورة الجمعة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله .. ﴿٦﴾ [الجمعة]

إن أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار ، لأن له هدفاً وعايةً ، فالهدف السعي وطلب الرزق ، وماداً بعد أن تناولتم طعامكم ؟ أليق بكم أن تتعدوا مثل (تنابلة السلحفاة) في بيت رسول الله . وأنتم تعلمون أنه يعيش عيشة الكفاف في كل شئون حياته *

ومن معنى الانتشار السياحة ، وهي مأخوذة من سآح الماء إذا فاض ، وأخذ حيزاً أكثر ، والانتشار أو السياحة ينبغي أن تكون مُنظمة كما تنتشر نقطة الماء على العماش ، فتحدث فيه دائرة منتظمة

كذلك في انتشاركم في الأرض للسعي في طلب الرزق يجب أن يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكديس في مكان أو رحام ، في حين يحلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ، ويسبب حيراته

والسياحة في الأرض أو الانتشار فيها ، الله تعالى يريد من لعبتبي

الأولى : الضرب في الأرض وابتغاء رزق الله وفصله كما قال الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَأَخْرُوجُ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .. ﴾ ﴿٦٠﴾ [المرسل]

والضرب في الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ، لأن الخالق سبحانه نثر القوات من ماء الأرض بالنسأوى ونثر فيها الخيرات ، لذلك كل يوم تعطينا الأرض جديداً من نعم الله ، كنا لا نعرف من حيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدست العلوم والاكتشافات وتطورت أدواته عرفنا المعادن والبترول

والكنوز لمطمورة في أرض الله ، وكل أثر كنزى في الأرض
لا يستخرجه ولا تعرفه إلا بالضرب في الأرض ، وسبق أن قلنا
لصرب إيقاع شيء بقوة

كما سحّب من الناس الذين يسكنون البوادي والصحراء ويشفق
عليهم ، كيف يعيشون في هذا الجذب والقحط ؟ ولماذا لا يتركون هذا
لمكان إلى غيره ؟ والآن وبعد الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى
الناس وتأتيهم كل خيرات الدنيا تحت أقدامهم . لماذا ؟ لأنهم تمسكوا
بأرضهم وببلادهم وصبروا عليها ، حتى أن الألوان لجنى خيراتها ،
ولو أنهم يتسوا منها ما نالوا كل هذا الخير

وسبق أن أوضحنا أن حيرات الأرض متسوية ، وشبهاتها بقطاع
طولي في البطيخة مثلاً ، وإن تعددت ألوان هذه الخيرات واختلفت من
مكان لآخر

والأخرى أن تكون السياحة للاعباد والمآمل في آيات الله في
كوبه ، فبالتنقل راسير في الأرض أرى آيات ليست موجودة في
بيئتي ، وفي ذلك يقول تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
الْحَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣)
[المنكوب] ويقول سبحانه في موضع آخر

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴾ (٤)

والمعنى أن السَّيْر في الأرض لا يقتضئ الوزق ببغى أن يصاحبه
مظر وتأمّل لآيات الله .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَلَا تُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤَدَّى

النَّبِيُّ فَيَسْتَنْحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ لِحَقٍّ .. ﴿٥٣﴾ [الاحزاب] أى لا ينبغي أن تجلسوا بعد الطعام للحديث ونحسوها (سهراية) فى بيت رسول الله ، وهذا البهى كان به سبب وحادثة وقعت ، فزلت هذه الآية سيدت رسول الله لم يوم وليمة فى عُرْس من أعزاسه إلا بزيب بنت جحش ، فذبح ﷺ شاة ، وأعد لهم الحيس ، وهو النمر المخلوط بالزبد والسمر ثم يوضع عليه اللبن الحامض أو الرائب .

فلما أكل الناس جلسوا يتحدثون ، انتظر رسول الله أن يقوموا وينصرفوا ، فلم يَقمُ منهم أحد ، وحياؤه ﷺ يَمْنَعُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ قُومُوا ، فأراد ﷺ أن يُظْهِرَ لَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُومَ ، وقام فصلاً وخرج ، فلم يَقمُ منهم أحد ووجد ﷺ آخرين جالسين بالحارج ، فعاد إلى مجلسه ، فشعر القوم بما يريد رسول الله فأنصرفوا

يقول سيدنا أنس مَحْتُتُ فَأَصْبِرْتُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّهُمْ انْطَلَقُوا ، فعاء ﷺ ودخل ، فدهشت لأجل وراءه ، فالتقى الحجاب بينى وبينه .. يعنى لا أحد يدخل حتى أنت

ومعنى ﴿إِنْ دَلَّكُمْ كَادَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَنْحِي مِنْكُمْ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الاحزاب] لأنه ﷺ يريد أن تنصرفوا ، لكن يَمْنَعُهُ حَيَاؤُهُ ، وهذا لأن المكان ضيق ، ورسول الله فى يوم عُرْس ، وليس من اسمناسب الجلوس عنده

﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ لِحَقٍّ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الاحزاب] لذلك قالوا^(١) حسب الثقل أن الله لم يحتلمهم هكذا حدثتنا الآية فى صدرها عن

(١) قاله ابن أبى عائشة فى كتاب الشطبي أنه قال حسبك من الثقل أن الشروع لم يحتلمهم

[ذكره القردطى فى تفسيره ٥٤٩٢/٨]

آداب الدخول ، وآداب الاستئذان ، وآداب الأكل ، وآداب الجلوس عند رسول الله .

ثم تحدثنا بعد ذلك عن الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون في علاقتهم بزوجاتهم عليهن السلام ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (٥٣) [الاحزاب]

المتاع أوامى البيت التي لا تتيسر للجميع ، فعادة ما يكون في الشارع أو الحرة بيت أو بيتان مستوران ، عندهم مثل هذه الأشياء ماجور العحين ، أو لمنخل ، أو الغربال ، أو الهون ، إلخ

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى حاره فيستعيرها منه ، وهذا ما قال الله فيه ﴿أَرَأَيْتَ لَدَىٰ يَكْدَبُ بِالَّذِينَ (٢) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٤) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٥) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٦) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٧) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]

فالمتاع هو الماعون ، وهو أدوات البيت التي يستعيرها منك حارك غير القادر على توفيرها في بيته

إذن الحق سبحانه في حين جعل للمؤمنين أدبا خاصا مع رسول الله في الدخول عليه أو الأكل في بيته والجلوس عنده ، لم يمنع لانتفاع بما عنده عليه السلام من متاع البيت ، ومتاع البيت يُطلب بأن تطرق الباب على أهله تقول أعطونا كذا وكذا ، وعادة ما تُسأل المرأة لأنها ربة البيت والمسئولة عن هذا المتاع ، فإذا طلبتم شيئا من زوجات النبي فاطبوه من وراء حجاب ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (٥٣) [الاحزاب]

سبق أن قلنا إن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التي تستقر في النفس ، هذه المظاهر الشعورية تتكون على مراحل ثلاث آلة تدرك ، ووجدان يستقبل ، إما بامحبة ، وإما بالكراهية ثم نفس تنزع ، ومثلنا لذلك بالوردة تراها في البستان جميلة تصرة وتشم رائحتها ركية عطرة ، فهذا إبداع بحاسة البصر وحاسة الشم نتج عنه إعجاب وموحيدي ، يترتب عليها أن تمددك لتقطفها ، وهذا هو النزوع

والشرع لا يتدخل ، لا في الإدراك ، ولا في الوجدان ، إنما يتدخل في النزوع ، فلك أن ترى جمال الوردة كما تشاء ، ولك أن تشم عبيرها ، لكن إن امتدت يديك إليها قلنا لك قف أمي حق لك ؟ إن كانت حقا فخذها ، وإلا فهي محرمة عليك لأنها ليست ملكك ، وليس في هذا حجراً على حريتك ، لأن الذي قيد حريتك في الاعتداء على مال الغير قيد حرية الآخرين في الاعتداء عليك فأعطاك قبل أن يأخذ منك نس فالشرع في صالحك أنت

نقول الشرع لا يتدخل إلا عند مرحلة النزوع ، إلا في علاقة لرحس بالمرأة والبطر إلى جمالها ، فإنه يتدخل فيها من بدايتها ، فيحظر عليك مجرد الإدراك ، لأنك حين ترى جمال المرأة ، وربما كانت أجمل من امرأتك أو لم يسبق لك الزواج ، فإنك تعجب بها

وهذا الإعجاب لا بُد أن يدعو إلى النزوع فكيف تنزع في هذه الحالة ؟ والنزوع في هذه المسألة له شروط أولها أن تأتيه من باب الحلال ، فإن لم تكن قادراً على باب الحلال ، فلما أن تعف نفسك ، وإم أن تعربد في أعراض الآخرين ، لذلك تدخل الشرع في هذه المسألة من أولها ولم يتركك حتى تقع في المحذور وتنزع فيما لا يحل لك ، لأن المرأة الجميلة لا شك تهيج في الرجل معاني خاصة

وقى ذلك يقول الشاعر^(١)

سُبْحَنَ مَنْ حَقَّ الْحَمْدُ وَالْأَنْهَزَامُ لِسَطْوَتِهِ
وَلِذَاكَ يَا مُرْتَا بَغْضٍ لِلطَّرْفِ عَنْهُ لَرَحْمَتِهِ
مَنْ شَاءَ يَطْلُبْهُ فَمَا إِلَّا بِطَهْرٍ شَرِيعَتِهِ
وَبِذَا يَدُومُ لَهُ التَّمَتُّعُ هَامُنَا وَمَجِئَتِهِ

أما الذى يدعى أن نظره إلى جمال المرأة لا يترك فيه هذا الأثر فهو مخالف للطبيعة ، حتى وإن كان متزوجاً ، وإياك أن يظن أن امرأة تُفسى جمالها عن جمال فى سواها ؛ لذلك يقولون النساء كالخمر ، كل مليعة بعداق ، مهم كانت روجتك جميلة ، وفيها كل المواقف التى تعجبك فسوف تجد فى غيرها الحديد مما ليس فيها . إن . من رحمة الله بك أن لا تدخل فى هذه المسألة من أول مراحلها ، فحرم مجرد النظر

وإذا كان هذا فى المعنى العام للناس ، فكيف يكون مع زوجات النبى ﷺ ، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الاحزاب] أى بالنظر إلى زوجاته ؛ لأن النظر إدراك يتبعه أن تجد فى نفسك شيئاً ، صحيح أنت لا تستطيع أن تقدم . لأمهن أمهات المؤمنين ، إنما سينشعل قلبك ، ومجرد خواطر القلب هنا إيذاء لسيدتنا رسول الله ، بدليل أنه قال بعدما ﴿وَلَا أَنْ تَكُونُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ . (٥٣)﴾ [الاحزاب]

وروى أن رجلاً رأى السيدة عائشة قتل الحجاب فابهر بها ، فقال والله إن مات رسول الله لاتزوجن هذه الحميراء وإن كان كفر من هذه القولة وحج ما شياً ، واعتق الرقاب ، ليفقر الله له هذه اجرة

(١) من شعر الشيخ رحمه الله

على رسول الله ﷺ^(١)

فمعنى ﴿وَاللَّيْلُ لَكُمْ﴾ .. (٥٣) ﴿[الاحزاب] أى أمرنا بأن تسألوهن من وراء حجاب ، وهذا الأمر احتياط للطرفين ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ .. (٥٣) ﴿[الاحزاب] لقلوبكم أولاً ، ولقلوبهن ثانياً .

وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ .. (٥٣) ﴿[الاحزاب] أى لا ينبغي ولا يكون وهذا يعنى أن شيئاً لم يحدث ، بل مجرد الحاضر بعد إبداء ، لأنه من حق من " فى حق رسول الله .

وقوله ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ .. (٥٣) ﴿[الاحزاب] هذا تكريم لرسول الله ولازواجه ليس فى مدة حياته فحسب ، إنما حتى بعد مماته ، لأنهن أمهات للمؤمنين ، وليس لأحد أن يتزوج منهن بعد رسول الله

(١) تحقيق هذا الأمر أن رجلاً قال لو قبض رسول الله ﷺ مروجت عائشة ، فزلت هذه الآية

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ .. (٥٣) ﴿[الاحزاب] ولكن لختلف فى تحديد عبد الرجل - قال ابن عباس فى رواية عطاء - قال رجل من سادة قريش ذكره الواحدي فى أسباب النبوة (ص ٢٠٦)

- وقال ابن عباس أيضاً - ليريد الأمر بحديثاً - قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حراء فى نفسه لو تولى رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة ، وهى بنت عمى ذكره القرطبي فى تفسيره [٥٤٩٧/٨] نقلاً عن القطيبي أبى نصر عبد الرحيم

قال قتادة ومقاتل ومعر والسدي أنه طلحة بن عبيد الله ، بل إن السدي نقل كلاماً لا يليق أن يكون قد صدر من طلحة رضى الله عنه انظر الدر المنثور للسيوطي (٦ / ٦٤٣)

قال ابن عسبة هذا عدى لا يصح على طلحة بن عبيد الله - قال شيخنا أبو العباس وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء المصاحفة وحاشاهم عن مثله والكذب فى نقله وإنما يليق مثل هذا القول بالمناقب الجاهل نقله القرطبي فى تفسيره (٥٤٩٧/٨) ثم قال يدعى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد حميم بن حذافه ما نال محمد يتزوج سائماً ، والله لو قد مات لأجلنا السهام على سائمه ، صرت الآية فى هذا

ومعلوم أن للزوجة بالنسبة لروحها خصوصية ، فعادةً في طبيعة التكوين الإنساني ترى الرجل عنده ألوان من الخير ، فإن كان صاحب أريحية لا يمنعت شيئاً تتطلبه أو تستعيره منه ، يعطيك من ماله ، من متاع بيته يعيرك سيارته ، إلخ .

إلا ما يتعلق بالمرأة ، فإنه يغر حتى من مجرد أن تنظر إليها ، ليس ذلك وهي في حورته وملكه ، إنما حتى لو كان كارهاً لها ، حتى لو طلقها يغار عليها أن تتزوج بآخر .

إن المرأة هي المتاع الوحيد لدى يحتل هذه المبرلة ، وسال هذا الحفظ وهذه الرعاية ، لماذا ؟ لأنها وعاء النسل ، وكان الله تعالى يريد للأمة كثرة انسل شريفة أن يكون من طهر وعفة ونقاء ، فوضع في قلب الرجل حبها والغيرة عليها

بذلك ، تأمل هذا الوصف الذي وصف الله به الأنصار لما استقبلوا المهاجرين ، وأنسحوا لهم في أملاكهم وفي بيوتهم فوصفهم الله وصفاً أرقى ما يوصف به مكان في مكين .

فقال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَكُونُونَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۖ﴾ (٩) [الحشر]

وما استحق الأنصار هذا الوصف من الحق سبحانه إلا لإيثارهم إخوانهم المهاجرين ونذل شيء لم يبدله أحد قبلهم ، حيث كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر أن يطبق له إحدى روجاته لينزوجها ، وهذه هي المسألة التي تثبت أن إيمان هؤلاء طغى على كل ما عده ، وصار أحب شيء إليهم حتى من المرأة ، ومن الغيرة عليها

وقوله تعالى ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ [الاحزاب] أى ما سبق أن ذكر من سؤال أمهات المؤمنين من وراء حجاب ، وألا يؤدوا رسول الله أو تتكحوا أزواجه من بعده ، كل هذا ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الاحزاب] وكيف يؤذى رسول الله ، وهو ما جاء إلا ليحمينا من الإيذاء فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنْ تَبَدُّواْ مَثِيئًا أَوْ نَتَخَفُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [٥٤]

فكان فى الآية إشارة تحذير إياكم أن تسرقكم حواطركم فى هذه المسألة ، لأن ربكم لا تحصى عليه حافية ، ولا يعرب عن علمه شيء ، وإن كانت الخواصر والهواجس لا يحاسب عليها المرء إلا أنها محطوره منهى عنها ، إن كانت فى حق رسول الله

لقد ورد فى الحديث الشريف « مَنْ هَمَّ بِسِيئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » هذا فى الأمور العامة ، أما إن تعلّق الأمر برسول الله فلا ، لأن مراد الحق سبحانه أن يوفر طاقة رسول الله للمهمة التى أرسل بها ، وألا يشغله عنها شاغل ، وأى مهمة أعظم من مهمة هداية العالم كله ليس فى ربه ﷺ وإنما منذ بعثته وحتى قيام الساعة .

وقوله تعالى ﴿إِنْ تَبَدُّواْ مَثِيئًا﴾ [٥٤] [الاحزاب] أى أى شيء

(١) عن ابن هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » ومن هَمَّ بِسِيئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِينَ صَعْفًا ، ومن هَمَّ بِسِيئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا بِم تَكْتَبْ وَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَتْ » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢) كتاب الإيمان

مهما كان ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الاحزاب] وعليم صيغة مسافة في العلم ، لأن علم الله تعالى علم أزلي ليس مُتَجَدِّدًا مُتَجَدِّدُ الحدث ، فالله يعلم قبل الفعل وأثناء الفعل وبعده

لذلك قلنا إن الزمن عندنا نحن ماض وحاضر ومستقبل ، أما بالنسبة لحق سبحانه فليس هناك ماض ولا حاضر ولا مستقبل ، لذلك يتكلم سبحانه عن المستقبل وكأنه ماض

واقرا مثلاً ﴿أَنِّي أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴾ [الاحزاب] واتي فعل ماض ومع ذلك فإن بعده ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴾ [الاحزاب] والاستعجال لا يكون إلا لشيء لم يأت وقته ، فكان (أتى) معافا بالنسبة لكم سيأتي ، أما بالنسبة للحق سبحانه فإنه أتى بالفعل ، لأن الزمن كله في علم الله سواء

ومعنى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الاحزاب] أي كان وما يزال عليمًا ، لأنه سبحانه ما دام كان عليمًا ، وهو سبحانه لا تتأثر فيه الأعيان ، فهو سبحانه عليم فيما مضى ولا يزال ، لأنه لا يتغير ، فكان هنا لا تعني أن علمه تعالى نتيجة لحدثكم الذي أحدثتموه ، إنما هو سبحانه عالم قبل أن يحدث منكم

وهذه الآية من الآيات التي وقف عندها المستشرقون ، ليستدركوا كما يطعون على كلام الله ، لأنهم دائماً يتهموننا أننا ننظر إلى القرآن بقداسة ، وأنه كلام الله فلا نعمل فيه عقولنا ، وأهم حين يدققون في القرآن ويتحررون على البحث فيه يجدون فيه مأخذ - على حد زعمهم

روجه اعتراضهم في قوله تعالى ﴿إِنْ تَبَدَّلُوا شَيْئًا أَوْ تَخَفَوْهُ فَإِنَّ

اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ [الاعراب] ومثله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [النور]

يقولون إذا كان الله يمتنُّ بعلم ما نُخْفِي . فما الميزة وما العظمة
في علم ما نبدي ؟

يقول بياك حين تقرأ كلام الله أنْ تُحَكِّمَ فيه عقلك قدر أنْ تؤمن
أنه صادر من الله تعالى ، وأن هذا كلامه سبحانه ، وعندها أدر
المسألة في عقلك وابتحها حتى تصل إلى الحكمة ووجه الإعجاز
فيها

فقوله تعالى ﴿إِنْ نُبْدُوا﴾ ﴿٥٤﴾ [الاعراب] الله لا يحاطب فرداً ،
إنما يحاطب جمهرة الناس ، والإبساء من الجمهرة لا يمكن لك أن
تحدد مصدر الفعل فيه ، بحيث تردُّ كلُّ صوت ، وكلُّ حركة إلى
صاحبها

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالمظاهرة مثلاً التي تحتلظ فيها الأصوات
وتعلو الهتافات ، وسمعنا مثلاً مَنْ ينادي يسقوط فلان ، أسطيع في
هذه الحالة أنْ حدد صاحب هذا الهتاف ؟ لا لا يستطيع بسبب
احتلاط وتداخل الأصوات . مع أنه حُهر أعلت صاحبه بأعلى صوته
وأيده على الملا ، ومع ذلك لا يستطيع أنت تحديده

أما الحق سبحانه . فيعلم لصوت ، ويعلم صاحبه ويعلم أثره
ونسيجته ، ويرد كل كلمة ، بل وكل نفس إلى صاحبه ، فالذين
يحاولون النسر والاستخفاء في جمهرة الناس عليهم أنْ يعذروا إنْ
شَوْشوا على الخلق . وسُتَخَفُوا منهم ، فس يستخفوا من الله ، فإله
لا تشتت عليه اللغات ، ولا محتلظ عليه الأصوات .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أُنْسَائِهِنَّ وَلَا
إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِبْنَوْنِهِنَّ وَلَا أُنْسَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا
يَسَائِهِنَّ وَلَا مَمْلَكَتٍ أَيْمَنَهُنَّ وَتَقِينَ اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝﴾

بعد أن نزلت آية الحجاب ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۝﴾ [الاحزاب] اشتكى أقارب أمهات المؤمنين وقالوا حتى نحس يا رسول الله ؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي أَبَائِهِنَّ.. ۝﴾ [٥٥]

ومعنى ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ.. ۝﴾ [٥٥] [الاحزاب] أى لا حرج ولا إثم أن يدخل عليهن هؤلاء المنكحون ، لأن مكانتهم من المرأة معلومة ، ولا يخشى من دخولهم عليها ، وهم الآب ، والابن ، والآخر ، وابن الأخ ، وابن الأخت

والكلام فى ﴿وَلَا يَسَائِهِنَّ.. ۝﴾ [الاحزاب] وهى مضاف ومضاف إليه ، والإضافة فى اللغة تأتى بمعان ثلاثة بمعنى (من) مثل أردب شعير يعنى من شعير ، وبمعنى (فى) مثل (مكر الليل) أى فى الليل ، وتأتى بمعنى (اللام) مثل مال زيد يعنى لزيد ، واللام هنا للملكية أو للاختصاص بمعنى مال زيد يعنى

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٩٩/٨) : لم يذكر العم والحسن لأنها يجري مجرى الوالدين وقد يسمى العم أباً ، قال الله تعالى ﴿وَصِبْهُ يَتِيمًا إِنَّكَ لِأَبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [البقرة]

مَلِكٍ لِرَيْدٍ ، وَتَقُولُ لِحَامِ الْفَرَسِ ، فَلِلْجَمِ لَيْسَ مَكًا لِلْفَرَسِ ، إِنَّمَا يَحْتَصِي بِهِ

فَهَذَا كَلِمَةُ ﴿نِسَائِهِمْ .. (٥٥)﴾ [الاحزاب] تَأْتِي بِمَعْنَى (مِنْ)
وَبِمَعْنَى اللَّامِ أَيْ نِسَاءُ هُنَّ ، أَوْ نِسَاءُ مِنْهُنَّ ، وَلَا تَأْتِي هَذَا بِمَعْنَى
(فِي) إِسٍ فَالْمُرَادُ نِسَاءً مِنْهُنَّ يَعْنِي مِنْ قَرَانَتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
يَعْنِي التَّابِعِينَ لَهُنَّ مِثْلَ الْخُدَمِ شَرِيطَةً أَنْ يَكُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَةَ
هِيَ الْمُؤْتَمَنَةُ عَلَى الْمُؤْمَنَةِ ، أَمَّا الْكَتَابِيُّ أَوْ الْكَافِرَةُ فَلَا يَصَحُّ أَنْ تَقُومَ
عَلَى خِدْمَةِ الْمُؤْمِنَةِ ، لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَصِفُهَا لِقَوْمِهَا

لِدَلَالَةِ مَلْحَظِ دَقَّةِ التَّعْبِيرِ هَذَا فِي عَدَمِ ذِكْرِ الْأَعْمَامِ وَالْأَحْوَالِ ، لِأَنَّ
الْعَمَّ أَوْ الْخَالَ - رَغْمَ أَنَّهُ فِي مَنْزِلَةِ الْوَالِدِ - إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَصِفُ النِّسَاءَ لِأَنَّهُ ،
فَإِنْ كَانَ لِعَمٍّ أَوْ لِحَالٍ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ، فَدَلِيلُهُ مَقْشُودَةٌ ، وَيَجُوزُ التَّسَامُلُ
مَعَهُمَا - إِسٍ - فِي الدِّخُولِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَإِدَاءِ الزَّيْنَةِ أَمَامَهُمَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. (٥٥)﴾ [الاحزاب] فَلَمَّا إِنْ
مَلِكٍ الْيَمِينِ يَأْتِي مِنَ الْأَسْرَى فِي حَرْبٍ مَشْرُوعَةٍ وَقَدْ بَاشَرَتْ أَسْرَهُ
بِنَفْسِكَ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ سَمَّ يَكُونُ حَرًّا ، ثُمَّ أَخَذَ وَبِيعَ عَلَى أَنَّهُ عَيْدٌ ثُمَّ بَعْدَ
الْأَسْرِ يُمْكِنُ أَنْ تَأْخُذَ مَلِكُ الْيَمِينِ سَأْلُ تَشْتَرِيهِ ، أَوْ تَأْخُذَهُ إِرْثًا
أَوْ تَأْخُذَهُ هِبَةً ، وَمَلِكُ الْيَمِينِ قَدْ يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ فَتَدْخُلُ فِي نِسَائِهِمْ ،
أَوْ يَكُونُ مِنَ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الرِّجَالِ

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿أَوْ الظُّفُرُ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى
عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، (٣٦)﴾ [النور]

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَيْضًا التَّابِعُونَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَيْتِ كَالسَّوَابِيحِ
وَالسَّائِقِينَ وَالطَّبَاحِينَ إلخ ، وَالشَّرْعُ يَتَسَاهَلُ مَعَ هَؤُلَاءِ ، لِأَنَّ الْعَرَفَ
الْاجْتِمَاعِي يَأْبَى أَنْ تَنْشَأَ عِلَاقَةٌ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ ، فَهَؤُلَاءِ

التابعون يعملون في البيوت ، وبها نساء وبنات جميلات ، لكن كم من هؤلاء تجرأ على أن ينظر إلى سيده ، ذلك لأن لمركز الاجتماعي جعل بينهما حاجزاً .

ثم يقول سبحانه ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ (٥٥) [الاحزاب] كأن الحق سبحانه يقول لقد بينت لكم الحكم في الدخول على المرأة ، وبينت الأبواب التي لا حناح عليكم في مصوبهم ، والحارس عليكم في هذا تقواكم لله ، فتقربوا لله في التي تحمك على طاعته وتمنعك من الخروج عنها ، ويكفي بعد الأمر بالتقوى أن تعلم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ ..﴾ (٥٥) [الاحزاب] وما يزال ﴿على كل شيء شهيداً﴾ (٥٥) [الاحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦)

جاء النبي ﷺ بالخير لأمته مبشراً للمؤمنين ، نذيراً للكافرين ، وكان ﷺ حريصاً على هداية قومه ، كما قال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨)

كان ﷺ يالماً ويحزن إن تقلت أحد من يده ، وخرج من ساحة الإيمان ، وكان يكلف نفسه في أمر الدعوة فوق ما يطيق ، وهو ما طلب منه ، حتى خاطبه ربه بقوله ﴿فَلْعَلَّكَ بَاحِعٌ^(١) نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ

[الكهف]

(١) مع نفسه فتلها عنك أو عما كان الغراء في معنى الآفة ، أي مخرج نفسك وقال نفسك [لسان العرب - مادة باع]

ومعهم أن سيدنا رسول الله لم يطلب منه إلا البلاغ فحسب ، أما الهداية فمن الله عز وجل لأنه تعالى قال ﴿إِنْ نَشَأْ نُزَلِّ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْقَابُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۖ﴾ (٤) [الشعراء]

فلشدة حرصه ﷺ على هداية قومه عاتبه ربه ، لأنه شق على نفسه ، فالتفت إلى لسانه ﷺ ، كما جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَعِيَ مَرْغَابَ أَرْوَاجِكَ ..﴾ (١) [المحريم]

وهذا العقاب أشبه بعقابك لوليك الذي أراهو نفسه في المذاكرة حتى أنك أشفقت عليه ، وأنت لا تلومه على تقصير ، إنما على المبالغة في عمل لا تطبيقه قوته

وقد ظهرت قمة حرصه ﷺ على أمته حين أنزل الله عليه ﴿وَلِصْحَىٰ (١) وَالزَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا فَلَئِي (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

فالتقطها رسول الله من ربه وجعلها لأمته ، فقال : « إنى لا أرضى وواحد من أمتى في النار » (١) .

فإذا كان رسول الله حريصاً عليكم بهذا الشكل ، فهو يستحق منكم أن تصلوا عليه ، لأن كل خير يناله يعم عليكم ، ويعود إليكم . لذلك قال سبحانه ﴿إِنَّ لِلَّهِ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الاحزاب]

وتلاحظ أن الخبر ﴿يُصَلُّونَ . (٥٦)﴾ [الاحزاب] خبر عن الله ولعلائكة ، فجمع الحق سبحانه بين صلاته وصلاة ملائكته ، وانسى ﷺ سمع مرة

(١) أخرج الحطيب في تلخيص المششبه - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال لا يرضى محمد ، وواحد من أمته في النار - وخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال - رضاه أن تكون أمة الله كلهم

خطيباً يحطّب ، يقول - مَنْ يَنْوِ الله ورسوله يُثْبِتْهُ الله - ومن معصهما يعاقبه الله ، فقال ﷺ له - « يَنْشُ خطيبُ القومِ أنت »^(١) لماذا ؟

قالوا لأنه جمع بين الله تعالى ورسوله في (ومن معصهما) ، وكان عليه أن يقول ومن يعص الله ورسوله ، فالله وحده هو الذي يجمع معه سبحانه من يشاء فإن سبحانه ﴿ وما تَقْهَمُونَ ﴾^(٢) إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . (٧٤) ﴿ (التوبة)

أما نحن فليس لنا أبداً أن تأتي بصيغة تشويكية بين الله تعالى وأحد من خلقه

وقول تعالى ﴿ إِنْ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ (٥٦) ﴿ [الاحزاب] هكذا قال الله . وجمع معه سبحانه مَنْ يشاء من خلقه ، وانت لا يجوز لك أن تجمع هذا الجمع إلا إذا كنت تقرأه على أنه قرآن ، فإن أردت أن تتشبه كلاماً من عندك فلا بد أن تقول الله يُصَلِّي على النبي . والملائكة يُصَلُّون على النبي

لذلك احتاط علماء التفسير^(٣) بهذه المسألة فقالوا أن (يصلون)

(١) عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غرى فقال رسول الله ﷺ - ينش الخطيب أنت من ومن يعص الله ورسوله فقد غوى - أخرجه مسلم في صحيحه (٨٧) وأحمد في مسنده (٢٥٦ / ٢ ، ٢٧٩) ، وأبو داود في سننه (١٩٩٦)

(٢) بقم الشيء ، أنكره وعليه وكبره وحده قومه تعالى ﴿ هل تَقْمَرُونَ ﴾ إلا أن أمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴿ [المائدة] ﴾ أي هل تكفرون وتطمعون هذا إلا إيماننا بآيات ربنا ، وهذا أمر لا يقتضي التهمة [القاسوس القويم ٢ / ٢٨٤]

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٨٠ ، ٥٥) : اختلف العلماء في الضمير في قول « يصلون » فقالت فرقة الضمير فيه لله والملائكة ، وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته قالوا لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير ، وه أن يفعل في ذلك ما يشاء وقالت فرقة في الكلام حذف ، تقديره إن الله يصلي وملائكته يصلون ، وليس في الآية اجتماع ضمير وذلك جائز لبشر عمله

ليست حبراً للكل ، إما تقدير الخبر أن الله يصلي على النبي ،
والملائكة يصلون على النبي

وإذا كان الله يصلي على النبي والملائكة يصلون على النبي ،
فماذا عنكم أنتم ؟ يجب أن تصلوا أنتم كذلك على النبي ﴿يَأْتِيهَا الدِّينُ
أَمْوَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦)

سبق أن بيّنا أن الصلاة من الله لها معنى ومن الملائكة بها
معنى ، ومن المؤمنين المأمورين بها لها معنى ، فكلٌ محسنه ،
والصلاة في الأصل هي الدعاء والدعاء يقتضي داعياً ومدعواً به
ومدعواً ، فمثلاً حين أدعو الله أن يعمر فلان ، فأنا الداعي والله
تعالى مدعو ، وفلان مدعو به ، فإذا كان المصلي والداعي هو الله عز
وجل ، فمن يدعو ؟ إذن معنى الدعاء لا يأتي مع الله تعالى

لذلك قلنا إنك لو نضرت إلى الأحداث تجد أن صاحبك مثلاً إذا
قال لك أعدك أن أعطيك غداً كذا وكذا ، فهذا وعد منه ، لا يملك هو
من أسباب الوفاء به شيئاً ، أما إن قال لك أدعو الله أن يعطيك كذا
وكذا ، وسبب إعطاء الله تعالى بهذا أرخص لتحقيق ، لأنه منسوب
إلى الله فإن قبل الدعاء تحقق المطلوب ، فإن كان الله تعالى هو الذي
يأمر لك بهذا العطاء فلا بد أن تعاله لا محالة .

إذن الصلاة من الله ليست بمعنى الدعاء ، إنما هي تنفيذ مباشر
ورحمه سبحانه وعامه ، يكفي من رحمته تعالى لسيده ﷺ أن جعله
حاتم لرس ، فلا يستدرك عليه أحد ، يكفي من رحمته وإعامه
ونثاته عليه أن قرر اسمه باسمه ، لذلك خاطبه بقوله ﴿ورفعنا لك
دكره﴾ (٥٧)

[الشرح]

يكفيه من تكريم الله له أنه سيقبل شفاعته يوم القيامة ، لا لامته محسوب ، إنما للخلق جميعاً ، يكفيه أن الله تعالى خاطب كل رسوله باسمائهم المشخصة لهم ، وخاطبه هو بالوصف المكرم في ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ..﴾ [المنحة] و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ..﴾ [٤٦] ﴿[المائدة]

أما عن صلاة الملائكة ، فهي دعاء ، وقرأ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَرِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمِنْ صَلَاحٍ مِنْ أَمَانِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [عنقر]

فإذا كان الخلق جميعاً محل صلاة الملائكة واستغفارهم ومغفرتهم . حتى الذين أديبوا منهم ، ثم تابوا ، فما ذلك برسول الله ، وهو هادي الناس جميعاً ؟

أما الصلاة من المؤمنين ، فهي الاستغفار . واستغفارهم ليس لرسول الله ، إنما هو استغفارهم لأنفسهم ، لأن رسول الله جاء رحمة لهم ، وما دام جاء رحمة لهم كان من الواجب ألا يغيب توقيره عن بالهم أبداً ، فهُمْ إِنْ اسْتَغْفَرُوا ، فَاسْتَغْفَرَ عَنِ الْعَفْوَ عِندَ اللَّهِ ، أَوْ عَنْ أَنْهُمْ لَمْ يَتَقَدَّمْ اسْمُهُ ، فَيَصَلُّونَ عَلَيْهِ

والمؤمن حين يُصَلِّي على رسول الله ، ماذا يملك من عطاء يُؤديه لرسول الله ؟ ماذا بأيدينا ؟ لذلك تأمل لفظ صلاتك على رسول الله ، إنك لا تقول أصلي ، ولكن تقول اللهم صل على محمد ، أو صل على

الله على محمد ، فتطلب ممن هو أعلى منك أن يصلي على رسول الله .
لأنه لا يوجد عطاء عندك تؤدّيه لرسول الله

إذن فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة ، والصلاة من
الملائكة الدعاء ، ولصلاة من المؤمنين الاستغفار

لذلك سئل سيّدنا رسول الله يا رسول الله تلك صلاة الله ، وتلك
صلاة الملائكة ، فما الصلاة عليك ؟ يعني كيف ؟ قال ﷺ ، قولوا
اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى
آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على
إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميدٌ مجيدٌ ^(١) .

ودخل عليه صحابي ، فقال يا رسول الله ، ما رأيك بهذه
الطلاقة والبشر قبل انيرم ؟ فقال ﷺ « إن جبريل جاءني فأخبرني
أن من صلى على صلاة صلي الله بها عليه عشرًا ، وكتب له عشر
حسنات ومحي عنه عشر سيئات ^(٢) »

وقال عمر رضي الله عنه دخل رجل على رسول الله ، فسأله
ما الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال ﷺ « ذلك من العلم المكنون ،
ولولا أنكم سألتموني ما قلت » إن الله وكل بي ملكين ، فإذا صلي
واحد عليّ قل الملكان عفر الله لك ويقول الله آمين وتقول

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٤٧٩٧) من حديث كعب بن عجرة ، قيل يا رسول الله ،
أما السلام عليك فقد عرّفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال قولوا اللهم صلّ على محمد
وآل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ اللهم بارك على محمد وآل محمد
كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميدٌ مجيدٌ .

(٢) أوردته السيوطي في الدر المنثور (٦ / ٦٥) وعراه للبخاري في الأدب المفرد عن أس
ومالك بن أس بن الحذاف بن الحنفى قال « إن جبريل عليه السلام جاءني فقال من
صلى عليك واحدة صلي الله عليه عشرًا ، ورفع له عشر درجات »

الملائكة أمين^(١)

سبحان الله الله عز وجل بذاته يُؤمِّنُ على دعاء الملوك

وقالوا الصلاة على رسول الله فرض على المؤمن ، كالحج مرة واحدة في العمر . لكنها واجبة عليه عند كل ذكر لرسول الله . لذلك جاء في الحديث : « أبخل الخلاء من تَكَرَّبَ عنده فلم يُصَلِّ على »^(٢)

وقوله تعالى بعدها ﴿ وَاسْلَمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٥٦) [الأحزاب] لك أن تلحظ في صدر الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى نَبِيِّ .. ﴾ (٥٦) [الأحزاب] ولم يقل سبحانه ويسلمون . فلما أمر المؤمنين قال ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٥٦) [الأحزاب] مراد وسَلِّمُوا تسليماً

قال لعلماء لأن الصلاة على رسول الله لا تكون إلا مع التسليم له بمعنى طاعته والإنعاش لأمره ، وإن تُسَلِّمَ رماحك له في كل صغيرة وكبيرة ، وإلا فكيف تُصَلِّي عليه وأنت نعصى أوامرهم ، وقد قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتُمْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٥٥) [النساء]

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٥٢، ٦) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه وعزاه للطبراني وابن مردويه وابن التيجار . ولفظه : قال الحسن قالوا يا رسول الله ، أرايت قول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب] فقال : « بئ هذا من المعقوم ، ولولا أنكم مسألتموني عنه ما أحسرتكم ، إن الله وكل بي ملكين لا أنكر عند عبد مسلم قيمي على إلا من يملك الملك . فمر الله لك . وقال الله وملائكته جواباً لبيك الملوك أمين . ولا أنكر عند عبد مسلم فلا يصلي على إلا قال بذك الملك لا غير الله لك . وقال الله وملائكته لبيك الملوك أمين » قال ابن كثير في تفسيره (١٥/٢) عن هذا الحديث : غريب جداً ، ورسده به صنف شديد .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٢١٦/٦) ، وابن حبان في صحيحه (٢٢٨٨ - موارد الظمان) من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « البسين من تَكَرَّبَ عنده ثم لم يصل على »

ومن معاني لتسليم أن يقول السلام عليك أيها النبي كما يقول
في التشهد ، والسلام اسم من أسماء الله ، ومعنى السلام عليك
يا رسول الله أي جعل الله لك وقاية ، فلا ينالك أحد بسوء .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

الإيذاء إيقاع الألم من المؤذي للمؤذى ، سواء أكان الإيذاء
بالقول أم بالفعل ، والإيذاء بهذا المعنى أمر لا يتناسب مع الحق
سبحانه وتعالى إذن ما معنى يؤذون الله ؟

قالوا الله تعالى لا يؤذى بالفعل ، لأنهم لا يستطيعون ذلك ، فهو
أمر غير ممكن ، أما القول فممكن ، والإيذاء هنا يكون بمعنى إغضب
الله تعالى بالقول الذي لا يليق به سبحانه ، كقولهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَئِيرٌ
وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [العراف] وبعضهم أنكر وجود الله

وقولهم ﴿ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ ۖ ۝ ﴾ [الأنعام]

وقولهم ﴿ عَزَّيْرُ أَبِي اللَّهِ ۖ ۝ ﴾ [الدوينة]

وبعضهم يسبُّ الدهر ، والله يقول في الحديث القدسي « يؤذيني
معدى ، وما كان له ن يؤذيني ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى
الأمر ، أقلب الليل والدمار »^(١) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، ٤٨٢٦ ، ٦١٨١ ، ٧٤٩١) ، وكذا مسلم في صحيحه

(٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الألب ، وأحمد في مسنده (٢٢٨ ، ٢٧٢) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه

وهل الزمن له ذنب في الأحداث التي تؤلمك ؟ الزمن مجرد طرف للحدث ، أما الفاعل فهو الله عز وجل ، إذن لا تسبوا الدهر ، فالدهر هو الله ، وهم أنفسهم قالوا ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَبِحَيَاتِنَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ ۝ (٧٤) ﴾ [الحاشه]

كل هذا إيذاء بالقول ، لكن ينبغي أن ننظر فيه أهو كذب وبهتان ؟ أم قول صادق يقوم عليه دليل ؟ وقد يؤذيك شخص بكلمة ، لكنك لا تؤدي منها ، وفي هذه الحالة يأخذ هو إثمها ، وتسلم أنت من شرها وتسلم من ألمها فهذه الأقراء منهم في الواقع فيها إيذاء ، لكن ليس لله تعالى ، إنما إيذاء لهم ، كيف ؟

الحق - سبحانه وتعالى - حينما استخلف الإنسان في الأرض خلق به الكون قبل أن يخلقه فطراً الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فيه مقومات بقاء الحياه ، ومقومات بقاء النوع ، ثم أعد له أيضاً قاننون صيانتته ، بحيث إن أصابه عطش استطاع أن يصلحه ، هذا القاننون هو منهجه سبحانه المحفوظ في كتابه ، وقرأ قول الحق سبحانه ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن]

فقاوم الصيانة في القرآن موجود قبل أن يخلق الإنسان ، لأن الإنسان خلق الله وصنّعه خلقه الله في أحسن تقويم وعلى أحسن هيئة ، ويريد له أن يعمل هكذا سوى التكوين في كل شيء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قاننون صيانتته ، فإنه ولا شك لا تدُّ أن يغضب الله لأن الله يريد أن تظل صنّعه جميلة ، كما أبدعها سبحانه

إذن فالدين أنكروا وجود الله أو اسدين أشركوا به ، والذين

قالوا : « إن الله فقير ونحن أमीاء » أو قالوا الملائكة بيات الله
إلج هذه الأقوال التي ترتب عليها غضب الحق سبحانه ، لأنه طبعته
في الأرض لم يؤد المطلوب منه على حسب منهج الله

ومقول لهؤلاء : إياكم أن تظنوا أنكم بكفركم خرجتم من قبضة
الحق سبحانه ، بل أنتم في قبضته ، وتحت مشيئته . ولو شاء
سبحانه لقهركم على طاعته ، أو خالفكم على هيئة الصلاح لا تأتي
مكم المعصية كما خلق الملائكة ، إنما جعلكم مختارين فيما كلفكم به ،
من شاء آمن ، ومن شاء كفر ، ليعلم من يقبل عليه محب لا يقهر

والدليل على ذلك أنكم مخلوقون ، على هيتين هينة لكم فيها
اختيار وهي التكاليف ، وهينة مقبوضين في قبضة الحق سبحانه وهي
القضاء ، فما دمت تعودتم التمرد على التكاليف ، فلماذا لا تتمرّدون
على أقدار الله فيكم ، كالمرض والموت مثلاً ؟

ومع ذلك ما دمت قد احترت الكفر وأنا رب ، ومطوب مني أن
اعينك على ما تحب ، فسوف أحسن على فلك ، سمحت لا بدخله
الإيمان ، ولا يخرج منه الكفر الذي تحبه إنن أنا جئت على مرادك
مما يدل على أن كورك بي لا يضرني ولا يؤذي

وقد ورد في الحديث القدسي (يا عبادي إنكم لن تبلعوا نفعي
فتنفعوني ، ولن تبغوا ضرّي فتضروني)^(١)

وإن كانت لكم منطقة اختيار في الدنيا هي أمور التكاليف ،
فسيأتي يوم القيمة ، ويمتنع الاختيار كله ، فلا اختيار لأحد في شيء

(١) أحده مسلم من صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد في مسنده (١٦ ، ٥) ، والبيهقي في
سننه الكبير (٩٣ / ٦) والبخاري في الأدب المفرد (ص ٧٢ ، ٩) من حديث أبي
در رضى الله عنه الطويل وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوي قصة منه في شرح الأحاديث
القدسية بتحقيق (المجلد ٢ ص ٢ - ٤٠) بشر در الروضة - القاهرة

يوم يقول الحق سبحانه ﴿لَمْ يَلَمْزْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [عافر] فلا يجيب أحد ، لا مالك ولا مملوك ، فيجيب الحق سبحانه على ذاته . ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [عافر]

هذا في معنى إيذاء الله تعالى ، أما الإيذاء في حق سيدنا رسول الله ، فرسول الله بشر ، يمكن أن يصيبه الإيذاء بالفعل والإيذاء بالقول ، فكما قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء قالوا عن رسول الله كاهن وساحر ومجنون وشاعر ، ثم تعدى الإيذاء إلى النفس الذي أصاب رسول الله وآله بالفعل

ألم يرم بالحجارة حتى ندمت قدماء في الطائف^(١) ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سلا البعير في مكة^(٢) - أي سقط البعير - ألم تكسر رباعيته يوم أحد^(٣) ويشج ويسبل لعمه^(٤) ؟

فرسول الله ناله مع ربه - عز وجل - إيذاء بالقول ، ثم ناله إيذاء آخر بالفعل ، إيذاء بشري فيه إيذاء ، وقمة الإيذاء بالفعل ما يتعرض لأمر محارمه وأزواجه^(٥)

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١٢١/٢) : أن أهل الطائف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه وعضيخونه حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (بستان) لعنة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة ، أما إدماء رجله ﷺ فقد ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٤١٥/٢) فقال : قصدوا له صديق على طريقه وجعلوا لا يدع رجله ولا يضعفها إلا رشمها بالحجارة وكانوا أعدوها حتى أمموا رحليه ،

(٢) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢٧٨/٢) عن حديث عبد الله بن مسعود قال : بينما رسول الله ﷺ سجد وحوله من قريش وثم سلا بعير (العملا هو لظافة من الجلد تكون حول الجنب في النمن) فمألوا من يأخذ سلا هنا الجور أو البهز فيسندفه على ظهره ، فجاء عتبة بن أبي ميط فقدمه على ظهر النبي ﷺ فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك ، وهو في صحيح البخاري (٣١٨٥) وكذا في صحيح مسلم (١٠٨) كتاب الجهاد والسير

(٣) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (ص ١٤٢٨) غزوة أحد ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ جعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفتح قوم خصموا وجه سيدهم وهو يدعهم إلى ربهم ،

لذلك قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ.. (٥٣)﴾
[الاحزاب] اي بمخالفة ما جاء به ، أو بأن تتهموه بما ليس فيه ،
أو تتعرضوا له بإيلاام جسدى . ثم لم يخص من ألوان الإيذاء إلا
مسألة الأزواج . فقال ﴿وَلَا أَنْ تَنْكَحُوا أَزْوَاجَهُمْ بَعْدَهُ أَبْدًا.. (٥٣)﴾
[الاحزاب] وذكر هذه المسألة بالذات صراحة مراعاة لطبيعة النفس
البشرية . فقد قلنا إن الرجل يمكن أن يتجمل على أصحابه أو أحبائه
بغلى ما يملك ، لكنه أبداً لا يقبل أن يبطر أحد إلى روحته ، يحميها
ويغارُ عليها من مجرد النظر

لذلك قيل سيدنا حذيفة وكان يحب امرأته ، فقال لها ألا
تحبين أن تكوى معى فى الجنة ؟ فقالت بلى ، فقبل لها إذن إذا
مِتُّ فسلا تتزوجى بعدى - فهو يغار عليها حتى بعد موته - لاني
سمعت رسول الله يقول « المرأة لأحر أزواجها »^(١)

لكى هذا الحديث ووجه حديث آخر لم سئل رسول الله أى
نساء الرجل تكور معه فى الجنة ؟ فقال « أحسنهن خلقاً معه »^(٢)

وقد رأى البعض معارضاً بين هذين الحديثين ، ولواقع أنه ليس
بينهما تعارض ، لأن الأحرية هنا لا يراد بها احرية الرمن ، إنما احرية
الانتقل . كما لو تمتعت برحلة جميلة مع أحد الأصدقاء منذ عشرين سنة ،
قلما ذكرت به قال كانت آخر متعة ، مع أنك تمتعت بعدها برحلات أخرى

(١) أورده العجايسى فى كشف الحفاء (٤١٠/٢) وعراه للطبرانى عن أبى الدرداء وللخطيب
عن عائشة قال وهذا هو الصحيح وقيل لأحسنهم خلقاً وقيل تُحِبُّ

(٢) أخرج ابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٢٦٢/٣) من حديث أم سلمة أنها
قالت يا رسول الله الصراة مع تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم صوت فتدخل الجنة
ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال يا أم سلمة ، إنها تُحِبُّ فتختار أحسنهم خلقاً .
فتقول أى رد . إن هذا كان أحسنهم خلقاً معى فى دار النسي فزوجيه ، يا أم سلمة
ذهب الخلق الحسن بخير الديب والآخره قال ابن عدى هذا حديث منكرو قال ابن القيم
فى . حادى الأرواح . (ص ٢١٦) « صنفه أبو حاتم »

فالمعنى تكون لأخر أرواحها فى المتعة وإن كان مُتقدماً
بحسب الخلق ، إذن فالمعنيان متفقان ، لا يعارضُ بينهما .

ومسألة غيرة الرجل على المرأة لها جذور فى تاريخنا وأدينا
العربى ، ومن ذلك قول الشاعر^(١)

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ قلبُ أمْتُ فوا أسفى منْ ذا بهيمٍ بها بعدى
فهو مشغورٌ بها حتى بعد أن يموت ، لكن يؤخذ عليه أنه شغل بمر
يحل محله فى هيامه بمحبوبته ، لذلك كان أبلغ منه قول الآخر^(٢)
أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فبنْ أمْتُ فلا صلحتُ دعدٌ لدى خلّة بعدى
إذن فهذه الغيرة مراتب ودرجات

ويُحدثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين - أظنه الهادى - كان
يحب جارية اسمها غادر ، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها ، وفى
خلوة من حلوات الهيام والعشقى قال لها هامدينى - لأن سمته
لم تكن على ما يرام - إذا أنا متُ أن لا تتزوجى بعدى ، وفعلأ أعطته
هذا العهد ، فلما مات الهادى لم تلبث أن نسيته غادر عشقها للهادى ،
ونسيته حزنها عليه - وهذا من رحمة الله بنا أن كل شيء بدأ صغيراً
ثم يكبر إلا المصائب ، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر

بعدها تزوجت غادر من أخى الهادى ، وفى يوم من الأيام
استيقظت فمرعة صارخة ، حتى اجتمع عليها من فى انقصر ،
وسألوها ، ماذا بك ؟ قالت جاءنى الهادى فى المنام ، وقال لى
خلفت عهدى بعداً جاورتُ سكران المقابر
ونكسحتُ غادره أحنى صدق الذى سَمَاك غادر

(١) هو نصيب بن رباح أبو محجن توفى عام ١٨ هـ - مولى عبد العزيز بن مروان ،

شاعر به شهره دائعة [الموسوعة الشعرية]

(٢) هو عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ، وقد عاب بيب نصيب السابق

لا يهنك الإلفُ الجديدُ ولا عبتُ عنك الدوائرُ
ولحفتُ بي منذُ الصُّباحِ وصرتُ حيثُ ذهبتُ صائرُ

وما كادت تنتهي من قوبها حتى لعلتُ أنفاسها الأخيرة وماتت

لذلك ، فالحق سبحانه يراعى هذه الفرائض الإنسانية وهذه الطبيعة ، ألا ترى أن عدّة المتوفّي عنها زوجها كانت سنة كاملة ، كما في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَوُّونَ أَرْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَرْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ﴾ (٢٤٤) [البقرة]

ثم جعلتُ عدّة المتوفّي عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام احتراماً لهذه الغريزة في المرأة

ثم يبين الحق سبحانه الجزء العادل لمن يؤذى الله ويؤذى رسول الله ، فنقول سبحانه ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. ﴾ (٥٢) [الاحزاب] أي طردهم من رحمته ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (٥٧) [الاحزاب]

ثم يعطينا الحق سبحانه إشارة إلى أن هذا الجراء العاسل الذي أعدّه لمن يؤذى الله ورسوله ليس تعصّباً لله ، ولا تعصّباً لرسول الله ، بدليل أن الذي يؤذى مؤمناً أو مؤمنة لا بد أن يُجازى عن هذا الإيذاء ، فسوى المؤمن والمؤمنة في إرادة الإيذاء بإيذاء الله ، وإيذاء رسول الله ، فقال سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ

مَّا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهْتَانًا وَإِنَّمَا صِينَا ۝٥٨﴾

(١) قال الأكثرون هذه الآية مسبوحة بالي قبلها وهي قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَوُّونَ أَرْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَرْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ﴾ (٢٤٤) [البقرة] نقل ابن كثير في تفسيره (٢٩٦/١) أن ابن قريير قال قلت لعنعل بن علقم قد سمعتها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها قال يا بني أحى لا أعير شيئاً منه من مكانه

لما تكلم الحق سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات خص هذا الإيذاء بقوة ﴿بغير ما كتبت﴾ .. (٥٨) ﴿[الاحزاب] لأن هناك إيذاء مشروعاً أوجهه الله للدين يخرجون على حدوده ، محد الرنا والقذف وشرب الخمر . إلح كلها فيها إيذاء للمؤمن والمؤمنة ، لكنه إيذاء مشروع لا يعاقب من قام به ، كما في إيذاء الله ورسوله

لذلك يقول تعالى في الذين يأتیان العاصفة ﴿واللذان يأتيانها منكم فادرها﴾ .. (٦١) ﴿[الساء]

والحق سبحانه حين شرع هذه الحدود وهذا الإيذاء ، إنما شرعه ليكون عقوبة لمن يتعدى حدود الله وتطهيراً له من ذنبه ، ثم لتكون رادعاً للآخرين ، فسيدنا عمر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات﴾ .. (٥٨) ﴿[الاحزاب] بكى فقال له جليسه ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال لأننى أدبْتُ امؤمنين والمؤمنات ، قال يا أمير المؤمنين إنك تؤذى لمعلم ولتقوم والله تعالى أمرت أن نرجم ، وأن نقطع ، فضحك عمر وسراً .

بل أكثر من هذا يأمرنا الحق سبحانه في الحدود ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ .. (٢) ﴿[النور]

لأن لرافة في حدود الله رحمة حمقاء ، ولستنا أرحم بالخلق من

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٥٧/٦) وعنه سعيد بن جعيّد وابن المنذر وابن حاتم عن قتادة في الآية قال إياكم وأذى المؤمنين مؤن الله يصوبهم رينصب لهم ، وقد روي أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأنزع ذلك حتى ذهب إلى أبي بن كعب رضى الله عنه فدخل عليه فقال يا أبا المنذر ، إني قرأت آية من كتاب الله تعالى وقعت مني كل مواعظ ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات﴾ (٥٨) ﴿[الاحزاب] والله إنني لأعاقبهم وأصوبهم ، فقال له إنك لست منهم ، إنما أنت معلم وانتظر تفسير القرطبي (٩/٨ ٥٥) . إنما أنت معلم ومقوم »

الخالق سبحانه ، والله تعالى حين يُضَمُّ العقوبة ويؤكد عليها . إنما يريد ألا نجترى على حدوده ، وألا نُعرض أنفسنا لهذه العقوبات ، ولك أن تسأل حين تقرأ قوله تعالى ﴿ وَنُكْمٌ فِي الْفَصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١٧١) [القرة]

كيف تكون الحياة في القتل ؟ نعم . هي انقصاص حياة ، لأنك حين تعلم أنك إن قُلت تُقتل ، فليس تُقدم أبداً على القتل ، وبذلك حمى الله القاتل والمقتول ، وهل يُعدُّ هذا إيناء ؟

ومعنى ﴿ بَغِيرَ مَا اكْتَسَبُوا .. ﴾ (٥٨) [الاحزاب] أى بغير جريمة تستحق الإيذاء ، وكلمة ﴿ اكْتَسَبُوا .. ﴾ (٥٨) [الاحزاب] قلنا هناك فرق بين فعل واعتل . فعل أى الفعل الطبيعي الذي لبس فيه مبالغة ولا تكلف ، أما اعتل بفعل فيه تكلف ومبالغة . كذلك كسب واكتسب . كسب أن تأخذ في شيء فوق ما أعطيت ، كما لو اشتريت بخمسة وبعثت بسبعة مثلاً فهذا كسب ، أما اكتسب ففيها زيادة واعتعال .

لذلك نجد في العُرف اللغوي العام أن كسب تأتي في الخير واكتسب تأتي في الشر ، مثل قوله تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴾ (٢٨٦) [البقرة] لها ما كسبت تفيد الملكية ، وعليها تفيد الدين .

ذلك لأن الأمر الحلال يأتي طبيعياً تلقائياً ، أما احرام فيحتاج إلى محاولة واعتعال واحتياط . فحين ننظر مثلاً إلى روجتك تكون طبيعياً لا تتكلف شيئاً . أما حين ننظر إلى امرأة جميلة في الشارع ، فإنك تتلصص لذلك وتسرق النظرات ، خشية أن يطلع احد على فعلتك ، هذا هو الفرق بين الحلال والحرام

وفي آية واحدة في كتاب الله جاء الفعل كسب في الشر . وذلك في قوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مِنْ كَسْبٍ مَيْتَةٍ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأَرْكَنَكَ أَصْحَابُ النَّارِ . ﴾ (٨١)

فلماذا قالوا لأن الآية ميمنة تعود السيئات وأحاطت به الخطايا حتى أصبحت عادة ، وسهلت عليه حتى صارت عنده كالحلل ، بفعله بلا تكلف ، بل ويجاهر به ويتباهى ، هذا هو المجاهر الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « كل أمي معافى إلا المجاهرين »^(١) وفيه « ستر الله عليه وأصبح يفضح نفسه »

وهذا الذي يُسر بالمعصية ويتباهى بها بلغ به الاحتراف أنه يستطيع أن يستر حركات انفعاله في الحرام . كأنها الحلل بعينه لذلك جاء الفعل كسب هنا ، وكان السيئة أصبح مكنة

أذكر بمناسبة التكلف والافتعال في الحرام رجالاً من بلدتنا اسمه الشيخ مصطفى ذهب إلى السوق لشراء بقره ، وأخذ النقود في جيبه ، ومن حرصه وضع يده على جيبه خوفاً من اللصوص ، فلما رآه في السوق يمسك جيبه بيده عرفوا أنه ضلّتهم . فكيف احتالوا لبسرقوه ، لطح أحدهم كتفه بروث الدهانم . ثم احتك بالشيخ مصطفى . حتى اتسخت ملابسه فغضب ، وأخذ يظف ملابسه من الروث ، ويسئ مسألة النقود التي في جيبه لسرقوه

وكما يأتي الحرام بافتعال ، كذلك يكون العقاب فيه أيضاً افتعال

(١) حديث متفق عليه أخرجه البصري في صحيحه (٦٦٩) وكذا مسلم في صحيحه (٢٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - كل أمي معافى إلا المجاهرين - إن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البرحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله

ومبالغة تناسب افتعال الفعل ، لذلك يقول سبحانه في عقاب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا .. (٥٨)﴾ [الاحزاب] ولم يَقُلْ حملوا ، وهرق بين حمل واحتمل ، حمل تُقال بما في طاقتك حمّله ، إما احتمل يعنى فرق الطاقة ، وإن حمّلته تممله بمشقة ، فالسجاء هنا من جنس السعمل ، فكما تفاعلت وتكلفت في المعصية كذلك يكون اجزاء عيها

﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾ [الاحزاب] البهتان أن تقول في عيرك ما ليس فيه ، فالبهتان كذب ، أما الإثم - فإن يرتكب دينا في حقه بأن تؤذيه بصفة هي فيه بالفعل ، لكنه يكره أن تصفه بها ، كما تقول للأعمى مثلاً : يا أعمى .

لذلك ورد في الحديث لما سئل سيدنا رسول الله ﷺ رأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »^(١) أي كذبت واغتربت عليه

ووصف الحق سبحانه الإثم هنا بأنه مبين ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾ [الاحزاب] يعنى جلي واضح ، لأن الوصوح في الإثم إما أن يكون بأن تُقر أنت به وتعتزف بدنبك ، وإما أن يكون بالبينة ، فلو سألناك أنت قلت بهذا الرجل يا أعمى ، أحب أن توصف أنت بصفة تكرهها ؟ لا بد أن تقول لا أحب إذن فالإثم هنا واضح ، ويكفى إقرارك به

وينمى أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك كما علمنا سيدنا رسول الله ﷺ فكما أنه لا يُرصىك أن يسرق الناس منك ، كذلك أنت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٩) كتاب البر والسلة وكذا أحمد في مسنده (٢ / ٢٢٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال يترك أماله بما يكره قيل أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد عتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته .

لا تسرق منهم ، وكما يؤدبك الإثم كذلك يؤذيه

ثم يأخذنا الحق سبحانه إلى آداب آخر من آداب الأسرة ، فيقول
سبحان

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ
يُكْرِمُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ خَلْقٍ بِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ
وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾

نلاحظ أن الأمر توجه أولاً لأزواج النبي ، ثم لبناته عليه السلام ، وهذا
يعني أن رسول الله لا يأمر أمته بشيء هو عنه بنجوى ، إنما يأمرهم
بشيء بدأ به بآهل بيته ، وهذا أدعى لقبول الأمر وتنفيذه ، فقبل أن
أمركم أمرت نفسي فلم أتميز عنكم بشيء .

لذلك جاء في سيرة القائد المسلم « طارق بن زياد »^(١) أنه لما
ذهب لفتح الأندلس وقف بجنوده على شاطئ البحر ، وأعداؤه على
الشاطئ الآخر ، ثم قال للجنود أيها الناس أنا لن أمركم بأمر أنا
عنه بنجوى ، وإنما عند ملتقى القوم سابقكم ، فمبارز سيد القوم ،
فإن قتلته فقد كُفيتُم أمره ، وإن قتلني قلن يعوركم أمير معدى .

أي أنني سابقكم إلى القتال ، ولن أرسلكم واجلس أتفرج وأرقب
ما يحدث ، يعني . أنا لا أتميز عنكم بشيء .

(١) طارق بن زياد اللبني بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن
نصير ، ومن طارقاً ١٢ ألفاً معظمهم من البربر ، قتل منهم البحر واستولى على الجبل
(جبل طارق الذي سمي باسمه) ، وواصل متوجه في الأندلس مع موسى بن نصير
مولده عام ٥ هـ ومات ٦٢ هـ عن ٥٢ عاماً [الإعلام للبرقلى ٢١٧/٢]

وبهذه المساواة أبصا ساد عمر - رضى الله عنه - القوم وقاد
لعالم وهو يرتدى مرفعة بالمدينة ، لذلك لما راه رجل وهو قائم
تحت شجرة كعامة الناس قال حكمت فعدلت فأمنت ، فمنت يا عمر

وكان رضى الله عنه - إذا أراد أن يأخذ قراراً فى أمر من أمور
رعيته يعلم أن الفساد إنما يأتى أولاً من الحاشية والأقارب والأتباع
ومن مراكز القوى التى تحيط به لذلك كان يجمع قرابته ويحذرهم
أما أمرت أن أصدر قراراً فى كذا وكذا ، فوالذى نفسى بيده من
خالفنى منكم إلى شئ منه لجعلته نكالا للمسلمين ، أيها القوم إياكم
أن تدخل عليكم من يدعى صلته بى ، فتعطونه غير حق من لم
يعرفنى ، والله إن فعلتم لأجعلنكم نكالا للمسلمين

ورود النص للقرآنى بلفظ ﴿يَأْيُهَا السُّيُوفُ لِلْأَزْوَاجِ﴾ (٥٩)
[الأحزاب] دليل على أن سيدنا رسول الله كان ينقل النص الذى جاءه ،
والصيغة اتى نكلم الله بها دون أن يُقَيَّر فيها شيئاً وإلا فقد كان
بإمكانه أن ينقل الأمر لأزواجه ، فيقول يا أيها النبى أزواجك وبناتك
يدنين عنهن من جلابيبيهن إنما نقل النص القرآنى كما أنزل عليه ،
ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، وما محمد إلا مُبَلِّغ عن الله ، فمن أراد
أن يناقش الأمر فليناقش صاحبه .

وأزواج النبى ﷺ ساعة نزلت عليه هذه الآية كن تسعة أزواج ،
كرمهن الله وخبرهن فاخترن رسول الله ، كان منهن خمس من قريش
هن عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ،
وثلاث من سائر العرب هن ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ،
وجويرة بنت الحارث من بنى المصطلق ، وواحدة من نسل هارون أخى
موسى - عليهما السلام - هى السيدة صفية بنت حى بن أخطب .

أما بنات رسول الله ، فـرسول الله أنجب البنتين والبنت البنون ماتوا جميعاً في الصُّعر ، أما البنات فابقاهنَّ الله حتى تزوجنَّ جميعاً ، وهُنَّ زينب ، ورقية ، وأم كلثوم

وأصغرهن فاطمة . وهي الوحيدة التي بقيت بعد موت سيدنا رسول الله ، أما زينب ورقية وأم كلثوم فقد مُتْن في حياة رسول الله .

ولفاطمة قصة في الضحك والبكاء . لذلك بعض العارفين كان يقول في موه تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي﴾ [النجم] اسم ان السيدة فاطمة حينما سُئِلت ما الذي أبكاك وما الذي أضحكك ؟ قالت لأنني لما دخلتُ على أبي وهو مريض قال لي : إن هذا هو مرض الموت يا فاطمة فبكيت ، ثم انصرفت فأشار إلي وقال لي يا فاطمة ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي فضحكت لذلك لم تمكث فاطمة بعد رسول الله ، لا ستة أشهر .

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أن لقاء الأموات يكون بمجرد الموت ، وإلا لو كان اللقاء في البعث والقيامة لاستقوى في ذلك من مات أولاً . ومن مات آخراً ، فدلُّ قوله « ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي » على أن لقاءه ﷺ بها سيكون بمجرد أن تموت

الشاهد في هذه القصة أن أحدهم - أظنه الإمام علياً - قال لفاطمة الله يقول ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي﴾ [النجم] أما رسول الله فأبكاك أولاً ، ثم أضحكك حتى لا يكون أضحك وأبكي كرب

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٦ - ٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة لبيته فسارها فبكيت ، ثم سارها فضحكت ، فقالت عائشة : فقلت لفاطمة ما عد الذي سارك به رسول الله ﷺ فبكيت . ثم سارك فضحكت ؟ قالت : سارني فاحيرني بموته فبكيت ، ثم سارني فاحيرني أمر أول من اتبعه من أهله فضحكت

أما السيدة ربيب^(١) فسروجت العاص بن الربيع^(٢) قبل أن يحرم
الزواج من الكفار ، وقد أسرو العاص في غزوة بدر ، فهديت ربيب
لتفديته ، وقدمت قلادة كانت معها ، فلما رآها رسول الله وجد أنها
قلادة خديجة - رضى الله عنها - قد وهبتها لابنتها ، فقال : إن رأيتم
أن تردوا لها فلادنها وتفكوا لها أسيرها فافعلوا ، مرد^(٣) الأمر إلى
من ينقذ به ، فتنازلوا عن القلادة^(٤)

أما رقية وأم كلثوم فهما حوادث ، منها حوادث مؤسفة ، ومنها
حوادث مسهحة ، أما المؤسف فلأن عتبة بن أبي لهب عقد على رقية ،
وأخوه عتبة عقد على أم كلثوم ، وكان هذا قبل بعثة رسول الله ﷺ ، فلما
بعث رسول الله وحدث ما حدث بينه وبين أبي لهب وأزل الله تعالى
﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾ [السد]

قال لابنه عتبة رسي ورأسك عسى حرام حتى تطلق رقية
فطلقها ، بعدها مر عتبة على رسول الله ، وفعل فعلته فيها استهزاء
برسول الله ، فقال له ﷺ : « أكلك كلب من كلاب الله »^(٥)

(١) ربيب بنت سيد البشر محمد بن عبد الله كبرى بناته ، تزوج بها ابن خالتها أبو العاص
بن الربيع ، وحدث له عيباً وأمارة ، فمات على صغيراً ، ووقعت أمانة متزوجاً على بن أبي
طالب بعد موت فاطمة الزهراء ، فوعدت ربيب عام ٨ هـ أي قبل وفاة رسول الله بعامين
[الأعلام للزركلي ٦٧/٣]

(٢) هو أبو العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزى ، مصابي ، زوج ربيب الكبرى بنات
النبي ﷺ ، تزوجها في الصغرى بمكة وتاجر إسلامه ، فكانت حبيباً لها بالمدينة وأسلم
فأعادت إليه عطف عليه بعد (أبو العاص) وكان يلتب « جزو النصف » ويقال له
« الامير » توفي عام ١٧ هجرية [الأعلام للزركلي ١٧٦/٥]

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢١/٩) ، أسره عبد الله بن جبير في بدر ، وجاء أخوه
عمر بن الربيع ليفتيه وبعثت معه ربيب بنت رسول الله وهي يومئذ بمكة بقلادة لها
كانت لأمها خديجة ، كانت خديجة قد أحسها بها على أبي العاص حين تزوج بها

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٢٨/٢ ، ٢٢٩) وأورده البيهقي في مجمع الروايات
(١٩/٦) وعزاه للطبراني مرسلاً وقال : « قيا وهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه
الحاكم في مستدركه (٥٣٩/٢) من حديث أبي عقرب ومحمدة وحسنة ابن حجر في
الفتح (٢٩)

أخبر عتبة أباه بما كان من دعاء رسول الله عليه ، وكان أبو لهب يعلم صدق رسول الله ، وأن دعاءه مستجاب لا يرد ، فخاف على ابنه ، وأخذ يحثاه له ، ويوصي به رفاقه في رحلات تجارته - وعجيب أنه مع هذا كله لم يؤمن .

وفعلًا كان عتبة في رحلات التجارة ينام في وسط القوم ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وفي إحدى الليالي جاءه أسد ، فأحذه من بين القوم ، ولم يبقَ منه إلا ما يُعرف به .

علق على هذه الحادثة أحد المغرضين فقال إن رسول الله قال « أكلك كلب » وهذا أسد ، فردَّ عليه أحد انصارين فقال إذا نُسب الكلب إلى الله ، فلا تُدُّ أن يكون أسداً ، فرسول الله لم يقل كلب من كلابكم ، إنما من كلاب الله^(١)

هذا ما كان من أمر عتبة ، أما عتبية فقد طُلق أم كلثوم لكنه لم يتعرض لرسول الله بإيذاء ، بل قالوا أنه كان يستحي أن يواجه رسول الله ، لذلك لم يدعُ عليه رسول الله

أما الحادث المبهج في حياة رقية وأم كلثوم ، فقد أبدلهما الله خيراً من عتبة وعتبية ، حيث تزوج رقية من سيدنا عثمان ، فلما ماتت تزوج بعدهم من أم كلثوم ، لذلك نُقِبَ - وصي الله عنه - بذي النورين ، وكانت النساء يُعْنين حين تزوج عثمان برقية

أَحْسَنَ مَا رَأَى إِنْسَانٌ رُقِيَّةً وَرَوْحَهَا عَثْمَانُ^(٢)

(١) الكلب كل سمع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيرين : علب الكلب على هذا النوع النابح وقد يكون للكلب واقفاً على العهد وسباع الطير . وقال مالك عن الموطأ : كل ما عقور الناس وعدا عليهم وأحافهم مثل الأسد والسر والعهد والنسب هو العقور [انظر فتح الباري لابن حجر المصنعي ٤/ ٣٩]

(٢) لفظ تفسير القرطبي (٥١٠/٨)

أحسن شخصين رأى إنسان رقية وروحها عثمان

فانظر إلى عظم هذا العوض أن يُبذلها الله بعتبة وعتبة من
ثمان . نعم العوض هذا ، والعوض في مثل هذه المسائل إنما يتأتى
بتقبل لقضاء في نظائره ، فهذا أصيب لإنسان فاستسلم وسلم الأمر
للله ، فقال كما علمنا رسول الله « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم
أجرني في مصيبتى - أيا كانت هذه المصيبة - واخلفني خيراً
مها »^(١)

إذا قال ذلك وعلم أن الله حكمة في كل قضاء يقضيه لا بد أن
يُعوضه الله خيراً ، وأظن أن قصة السيدة أم سلمة مشهورة في هذا
المقام ، فلما توفي زوجها أبو سلمة حزنّت عليه حزناً شديداً ، ولما
حاضها النسوة يُعزيْنها في زوجها قالت إحداهن يا أم سلمة ، قولى
كما قال رسول الله إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في
مصيبتى ، وحلّفتي خيراً منها ، فقالت وهل هناك خير من
أبى سلمة ، يعنى هو في نظرها أحسن الناس وخيرهم .

لكنها مع هذا رصيت بقضاء الله فما انقصت عدتها حتى طرق
عليها طارق يقول يا أم سلمة ، إن رسول الله ﷺ يخطب لنفسه ،
فضحكّت لأن الله عوضها بمن هو خير من أبى سلمة^(٢)

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٦١٨) كتاب الجناز من حديث أم سلمة أنها سألت سمعت
رسول الله ﷺ يقول « ما من مسلم تمسيه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه
راجعون اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها ، إلا أطف الله له خيراً منها .
وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٩٦)

(٢) أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨٧/١) من حديث أم سلمة أن أبا سلمة لما
احتضر قال اللهم اظهرني في أهلى بخير ، فلما قبضت قلت إنا لله وإنا إليه راجعون
اللهم عندك أصبحت مصيبتى فأجرني فيها ، وأردت أن أقول وأبدلت بها خيراً منها
فقلت من خير من أبى سلمة ؟ فما زلت حتى تلتها فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر
فردته ثم خطبها عشر مرّات ، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت مرحباً برسول الله
ويرسوله الحديث

بعد أن أمر الحق سبحانه أزواج النبي وبناته أولاً بهذا الالف شيء
بنساء المؤمنين ، فقال ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ
الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ
اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) ﴾ [الاحزاب] لأن أسرة رسول الله ليست أزواجه
وبناته فحسب ، إنما العالم كله ، وكلمة (نساء) جمع ، لا واحد له
من لفظه ، فمفرد أزواج زوج ، ومفرد بنات بنت ، أما (نساء)
فمفردتها من معناها لا من لفظها ، فتقول امرأة ، واستثقل جمع
امرأة على امرأت فقالوا نساء وأصلها في اللغة من النسء ، قالوا
لأن المرأة أجل خلقها بعد خلق الرجل ، وفي اللغة النسء أي
التأخير والتأجيل ، فقالوا نساء

ثم يذكر سبحانه الأمر الذي وجهه إلى زوجات النبي ، وبناته
ونساء المؤمنين جميعاً ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الاحزاب]
فالفعل ﴿ يُدْنِينَ .. (٥٩) ﴾ [الاحزاب] محزوم في جواب الطلب (قُلْ)
مثل ، اسكُتْ مَسْكُومٌ ، ذاك تسج ، وفي الآية شرط مقدر إن تقل
لهن أدنين يدنين

كما في ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (٢٧) ﴾ [الحج] لأن
الخطاب هنا للمؤمنات ، وعلى رأسهن أزواج النبي وبناته ، وإن لم
يستجب هؤلاء للأمر ، فقد اختل قيهن شرط الإيمان

ومعنى الإدناء تقريب شيء من شيء ، ومن ذلك قوله تعالى
في وصف ثمار الجنة ﴿ فَطُورُهَا دَائِيَةٌ (٧٣) ﴾ [المائدة] أي قريبة التناول
سهلة الحنى ، والمراد يدنين جلابيبهن أي من الأرض لتستر
الجسم وقوله ﴿ عَلَيْهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الاحزاب] يدل على أنها تشمل
الجسم كله ، وأنها ملفوفة حوله مسدولة حتى الأرض

وكلمة ﴿جَلَابِيهٍ..﴾ (٤٩) [الاحزاب] مفرد ما جلباب ، وقد اختلفوا في تعريفه فقالوا هو الثوب الذي يُلبس فوق الثوب الداخلي ، فتحت الجلباب مثلاً (فائلة) أو قميص وسروال ، ويجوز أن تكون الملابس الداخلية قصيرة ، أما الجلباب فيجب أن يكون سابعاً طويلاً قريباً من الأرض^(١)

وقالوا الجلباب هو الحمار الذي يعطى الرأس ، ويُصرب على الجيوب - أي فتحة الرقبة - لكن هذا غير كاف ، فلا بد أن يُسدل إلى الأرض ليستتر المرأة كله لأن جسم المرأة عورة ، ومن اللباس ما يكشف ، ومنه ما يصف ، ومنه ما يلفت النظر

وشرط في لباس المرأة الشرعي ألا يكون كاشفاً ، ولا واصفاً ، ولا مُلفتاً للنظر ، لأن من النساء من ترتدي الجلباب الطويل السَّاع الذي لا يكشف شيئاً من جسمها ، إلا أنه صيق يصف الصدر ، ويصف الأرداف ، ويُحسَمُ المفاتن حتى تبدو وكأنها عارية^(٢)

لذلك من التعبيرات الأدبية في هذه المسألة قَوِّ أحدهم - وهو على حق - إنَّ مخالفة المراه في بَرُوحها إلحاحٌ منها في عَرَض نفسها على الرجل يعني تريد أن تُلفت نظره ، تريد أن تُنبِّه الغافل وكأنها تقول نحن هنا . وإنَّ تساهلنا في ذلك مع البنت التي لم تتزوج

(١) وهذا ما ذهب إليه القرطبي في تفسيره (٥٥٦١/٨) قال : الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الحمار وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الوباء وقد قيل إنه القناع والصحيح أنه الثوب الذي يستتر جميع البدن .

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه (١٨٧/٤) من حديث يحيى بن حليفه الكلبى أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى مرقل فسما رجلاً أعطاه رسول الله ﷺ قُبْطِيَّة (ثوب مصري) فقال أجعل صديقتها (نصفها) قميصاً ، وأعط صاحبك (امرأتك) صديقاً تحتمر به . فلما رلى قال مرها بجعل تحب شيئاً لئلا يصف قال الحاكم حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه قال الذهبي . فيه انقطاع .

ربما كان لها عُدْر ، لكن ما عذر التي قزوجت ؟

ثم يُبَيِّنُ الحق - تبارك وتعالى - الحكمة من هذا الأدب في مسألة اللبس ، فيقول ﴿ ذَلِكُمْ .. ﴾ (٥٩) [الأحزاب] أى إبداء الجنب إلى الأرض ، وسُتْرَ الجسم ، وعدم إبداء الزينة ﴿ أَذْنِي .. ﴾ (٥٩) [الأحزاب] أى اقرب ﴿ أَنْ يَعْرِفَ فَلَا يُؤْذِي .. ﴾ (٥٩) [الأحزاب]

فالمرأة المسلمة تُعَرِّفُ بزيها وحشمتها ، فلا يجروا أحد على التعرض لها سوء أو مضايقتها ، فلباسها ووقارها يقول لك إنها ليست من هذا النوع الرخيص الذى ينتظر إشارة منك . وليست معنٌ يَعرِضُ نفسه عَرَضاً مُهْجِئاً مَسْمِئاً مُلْغِئاً

وقوله تعالى بعد ذلك وفى حتام الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٥٩) [الأحزاب] جاء وصِفُ المَعْفرة والرحمة هنا ليشير إلى أن عقوبة الله ليست بأثر رجعى ، فما سبق هذا الأمر من محاورات مَقْفُورٍ مَعْفُورٍ عنه برحمة الله ، والعبرة بسلوك العؤمنة بعد أن تسمع هذا الأمر بإبداء الحلياب والتستُّر

والحق سبحانه يمثل هذا الأدب إما يُؤْمِنُ حياه المرأة المسلمة ، كيف ؟ نقول معنى التامين أن نأخذ منك حل يُسْرِكُ ، وحين تكون واحداً ، لنعطيك حينما تكون غير واحد

كذلك الإسلام حين يستر حمل المرأة ومفاتها حال شعابها ونضارتها يسترها حين تكبر ، وحين يتلاشى لجمال ، ويحلُّ محله أمور تحرص المرأة على سترها ، فالإسلام فى هذه الحالة يحمي المرأة ويحفظ لها عزَّتها

ثم يقول الحق سبحانه

لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَلَا أَنْ نَدَّعِيَهُمْ
وَأَلْمَزَجُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغَرِّبَكَ بِهِمْ ثُمَّ
لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ
أَيُّهَا تَقَفُوا أَجْدُوا وَقَتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾

المطيع لموكب الرسالات يجد أن الرسل واحوا في بشر رسالتهم
ثلاثة اصناف من البشر صنف آمن ، وصنف كفر ، وصنف وقف
مترددا بين الكفر والإيمان ، هؤلاء هم المنافقون .

ذلك ، لأن الرسول حين بُعث إنما يُبعث لتغيير وضع اجتماعي
بلغ من العور درجة لا يحتملها الناس ، فالذي يعنى من هذا الوضع
ينتظر هذا الرسول الجديد ، فما أن يُبعث حتى يبادر إلى الإيمان به ،
لأنه جاء بمبادئ جديدة ، لا ظلم فيها ، ولا قهر ، ولا استبداد ،
ولا رشوة ، ولا فساد .

إن من عصيه هذه الأحداث ، وشقى بهذا الفساد سرع إلى
الإيمان ، وكذلك آمن أهل مصر ، وما إن دخلها الإسلام حتى أسرعوا
إليه لمادا ، لأنهم شقوا قبه بحكم الرومان ، وكذلك آمن الفرس
بمجرد أن سمعوا بالإسلام ، ورأوا الأسوة الحسنة في المسلمين بعد
أن عصتهم فساد غير المسلمين

ساعة يشقى الناس بفساد الأوضاع يتطعمون إلى عنقذ . فإن

(١) أرخى في الناس أو من المدينة خاص في الفتنة وأشاع الأخبار المقلقة السيئة التي توقع

الناس من الاضطراب [القاموس القويم ٢٥٧/١]

جاءهم اتبعوه ، خاصة إن كان منهم وله فيهم ماضٍ مُشرفٌ
لم يُحربوا عبه كدماً ولا بقبصة

وهذا ما راياه مثلاً في قصة إسلام سيدنا أنى بكر ، لما أن أعلن
محمد أنه رسول الله حتى سارع إلى الإيمان به دون أن يسأله عن
شيء ، لماذا ؟ لأنه عرف صدقه وعرف أمانته ، ووثق من ذلك .

ومثله كان إيمان السيدة خديجة - رضي الله عنها - بما أن جاءها
رسول الله مُضطرباً مما لاقى من نزول الملك عليه حتى احتضنته ،
وهبات من روعه ، وأنصفت ، ودهبت به إلى ورقة بن نوفل لتثبت له
أنه على الحق ، وأن الله تعالى لن يُسلعه ولن يتخلى عنه .

وكن مما قالت : « والله إنك لتقرى الضيف ، وتحمل الكل ،
وتكسب المعنوم ، ويعين على موائب الدهر . »^(١)

لذلك قال العلماء ، السيدة خديجة كانت أول فقيهة في لإسلام
قبل أن ينزل الإسلام

وطبيعى أن يكون أهل الفساد والمستفيدون منه على لقيص ،
فهم ينتفعون بالفساد والاستجداد ، ويريدون أن تظل لهم سيادتهم
ومكانتهم ، وأن يظل الناس عبيداً لهم ، يأكلون خيراتهم ويستذلونهم

وهؤلاء الدين استعبدوا الناس ، وجعلوا من أنفسهم سادة بل
آلهة ويعلمون أن ارسول ما جاء إلا للقضاء على سيادتهم وألوهيتهم

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى في صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ،
وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه (١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها

ومعنى : تحمل لكل ، أى - يعير المثل ومنه الإنفاق على المسكين واليتيم والمبال

و - تكسب المعنوم - أى - تستفيد المال المعدوم وقد كان النبي ﷺ مخطوفاً في تجرته

، تقرى المسيف - أى - تلمسه طعام الأصناف و - موائب الحق - أحداث الأيام انظر

شرح النووي على مسلم (٥٦١/٢) وفتح البخارى للعسقلاني (٢٤/١)

لكاذية ، هؤلاء لا مدُّ أن يصادموا الدعوة . لا مدُّ أن يكفروا بها ، وأن يحاربوها ، حفاظاً على سيادتهم وسلطتهم الزمنية

وعجيب أن ترى من عامة الناس من ألف هذه العبودية ، ورضي هذه المدلة ، واكتفى بأن يعيش في كف هؤلاء اسادة مبهما كانت التبعات ، هؤلاء وامثالهم هم الذين قالوا ﴿ وَلَنُؤْتِيَنَّكَ آيَاتِنَا فَارْجِعْ إِلَىٰ آلِهَتِكَ إِن كَانَ لَكَ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ فَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَنُلَاقِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ السَّمَاءُ كَٱلْغُبِّ ۚ وَهُمْ فِي سَلَٰبٍ مُّطَوَّيَاتٍ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ ۚ ﴾ [الاحزاب]

فبعد أن جاءهم الرسول المصدق رآه يتطلعون إلى عظيم يستعبدهم

وكل من هين الفريقين (المؤمنين ، والكافر) كان منطقياً مع نفسه ، فالمؤمن آمن بقلبه ، وصق بلسانه ، والكافر كفر بقلبه ، وكفر بلسانه ، لأنه لم ينطق بكلمة التوحيد والإنسان قلب وقالب ، ولا بد من الإيمان أن يوافق القالب ما في القلب

أما الصنف الثالث وهو المنافق ، فليس منطقياً مع نفسه ، لأنه آمن بلسانه ، ولم يؤمن بقلبه ، فهو جبار يظهر لك الحب ، ويضممر الكره ، لديك جعلهم الله في الدرك الأسفل من النار

لذلك ، فالعرب لما سألهم رسول الله أن يقولوا ، لا إله إلا الله ، ليبتل بها سيادة زعماء الكفر أبوا أن يقولوها ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تُقال ، إنما لها تبعات ، وتترتب عليها مسئوليات لا يقدرُونَ هم على القيام بها ، وبو أنها كلمة تُقال لقالوها ، وانتهى العداء بينهم وبين رسول الله

فمعنى لا إله إلا الله لا عبودية إلا لله ، ولا حصوع إلا لله ، ولا تشريع إلا لله ، ولا نافع إلا الله ، إلخ ، وكيف تستقيم هذه المعاني مع من ألف العبودية والحصوع لغير الله ؟

والحق تبارك وتعالى - لما تكلم هنا عن المنافقين حصص المدينة، فقال سبحانه ﴿لَيْسَ لِمَنْ يَتَّبِعِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (٦٠) [الأحراب] فالنفاق لم يظهر في مكة وهي معقل الكفر والأصنام، إنما ظهر في المدينة وهي التي آوت مهاجري رسول الله، وكان غالبية أهلها من أهل الكتاب، وهم أقرب إلى الإيمان من الكفار، فلماذا هذه الظاهرة؟

قالوا لا الإسلام كان ضعيفاً في مكة، وصار قوياً في المدينة، فالنفاق ظاهرة صحيحة للإسلام، لأنه لولا قوته ما نافقه المنافقون، فظهور النفاق في المدينة دليل على قوة الإسلام فيها، وأنه صارت له شوكة، وصارت له سطوة، لذلك وافق ضعاف الإيمان، لياحدوا حين الإسلام، وليجتنبوا بحمه، ولا فالضعيف لا ينافق.

نعم، ظهر النفاق في المدينة التي قال الله في حق أهلها ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (٩) [الحشر]

ويقول عنها رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَارِدُ^(١) إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَارِدُ الْحَيَّةُ إِلَى حُجْرِهَا»^(٢)

(١) تبوأوا الدار سكنوا دار الهجرة وهي المدينة أولاً وهم الأنصار وعطفت الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه [القاموس العويم ١، ٨٨]

(٢) يارِد أي يتضم - الإسلام إلى المدينة - ويجمع بعضه إلى بعض فيها [لسان العرب - مادة رد]

(٣) حديث منقول عنه أخرجه البخاري في صحيحه (١٨٧٦)، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظ الحديث «لِيُؤْتِ الْإِيمَانَ

وأيضاً القرآن هو الذى قال عن أهل المدينة ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا^(١) عَلَى النَّفَقِ .. (٦٠)﴾ [النوبة] وهذا ليس استضعافاً للمدينة ، إنما إظهار لقوة الإسلام فيها ، بحيث أصبحت له سطوة وقوة تُناقض مما قوله تعالى ﴿لَنْ لَمْ يَتَّهِ الْمُنَافِقُونَ .. (٦٠)﴾ [الاحزاب] ساعه تسمع ﴿لَنْ لَمْ يَتَّهِ .. (٦٠)﴾ [الاحزاب] فاعلم أن الله تعالى أقسم بشيء ، وهذا القول هو جواب القسم ، والحق سبحانه لا يُقسم إلا على الشيء العظيم ، ونحو البشر نقسم لتؤكد كلامنا ، كما تقول والله إن ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا

أم الحق سبحانه ، فكلامه صادق ووافذ بوزن قسم ، فما بالك إن أقسم ؟ لذلك يقول بعض اعارمين إذ سمع الله تعالى يُقسم من أغضب الكريم حتى ألجاء أن يقسم ؟

كلمة ﴿الْمُنَافِقُونَ . (٦٠)﴾ [الاحزاب] مفرداً منافق ، ماحوذ من نافقاء اليربوع ، وليربوع حيوان صغير يشبه الفأر ، يعرفه أهل البادية ، يعيش فى جحور ، فيقرصدونه ليصطادوه ساعة يخرج من جحره ، لكن هذا الحيوان لصعير بيه لُوم ودهاء ، لمانا بفعل ؟ يجعل لعقره مدحجين ، وحد معروف ، والآخر مستتر بشيء ، فإذا أحسن بالصياد على هذا المدخل ذهب إلى المدخل الآخر ، لذلك أشبه المنافق تماماً الذى له قلب كافر ولسان مؤمن

وتلاحظ أن المنافقين وصفهم الله هنا بصفات ثلاث ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَإِمْرَاجُورٌ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الاحزاب] فالعطف هنا لا يقتضى المعايرة ، إنما عطف صفات مختلفة لشيء

(١) مرد على الشيء مرن عليه ومرو فيه ، وأكثر ما يستعمل فى السر ، ومن ذلك قوله

﴿مردو على النفاق (٦٠)﴾ [النوبة] [القاموس القويم ٢/ ٢٢٢]

واحد . وجاءت هذه الصفات مستقلة ؛ لأنها أصبحت من الوضوح فيهم ، بحيث تكاد تكون نوعاً معبراً بداته^(١)

وقد وصف القرآن في موضع آخر المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً ، فقال سبحانه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَحِبُّونَ مَا جَاءَهُمْ وَلَا يَظُنُّونَ أَنِ اللَّهُ مُبْتَلِيهِمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١) يحادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٢) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (٣) ﴾ [البقرة]

وفي هذا دليل على أن الواو هنا أفادت عطف صفة على صفة ، لا طائفة على طائفة ، ومنه العطف في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ دُونِهَا فَأُولَٰئِكَ يَرْجُونَ أَوَّلَ عَذَابٍ ﴾ (٤) [المشر] فالدار أي المدينة . وكذلك الإيمان يُراد به المدينة أيضاً

ومعنى ﴿ الْمُرْجِفُونَ .. ﴾ (٥) [الاحزاب] المرجف من الإرجاف ، وهو الهزة العيفة التي تدلزل ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ (٦) تتبعها الرادفة (٧) ﴾ [الزلزلة] فالمرجعون هم الذين يحاولون زلزلة الشيء الثابت ، وزعزعة الكيان المستقر ، كذلك كان المنافقون كلما رأوا للإسلام قوة حاولوا زعزعتها وهرأها لإصعاقه والقضاء عليه

وهؤلاء هم الذين تسميهم في التعبير السياسي الحديث (الطابور الخامس) ، وهم الجماعة الذين يُروجون الإشاعات ، ويدعون لأباطيل التي تُضعف التيار العام وتهدد استقراره

وكثيراً ما تعد المنافقون يقولون إن قبيبه فلان وقبيله فلان

(١) قال أبو زرعيه : هو شيء واحد يعنى أنهم قد جعلوا هذه الأشياء وبيع كل منهم - أي من المنافقين - قوم يرجفون ، وقوم متمسكون النساء للريبة ، وقوم مشككون المسلمين . نقله القرطبي في تفسيره (٥١٣/٨)

اجتمعوا للهجوم على المدينة والقضاء على محمد ورسالته وهدفهم من هذه الإشاعات إضعاف وهزيمة الروح المعنوية لدى المسلمين الجدد والمستضعفين منهم

حتى على مستوى الأفراد ، كانوا يذهبون إلى مَنْ يكره في الإسلام ، أو يرون أنه ارتاح إليه ، فيقولون له ألم تعلم ان فلانا أخذه قومه ، أو أخذه سيده وعذبه حتى الموت لأنه اتبع محمداً ذلك لبصرفوا أساس عن دين الله

إنّ المرجفُ يعنى الذى يمشى بالفتنة والأكاذيب ، ليصرف أهل الحق عن حقهم ، بما يشيع من بهتان وأباطيل

بذلك يهتد بهم الحق سبحانه لئلا لم ينته هؤلاء المنافقون عن الإرجاف في المدينة وتضليل الناس ليُكونوا لنا معهم شأن آخر كان هذا وقت مهادة ومعاودة بين المسلمين واليهود وأتباعهم من المنافقين ، وكان الله تعالى يقول لقد سكتنا على جرائهم إلى أن قويت شوكة الإسلام ، أما وقد صار للإسلام شوكة فإن نقصوا عهدهم معنا فسوف نواجههم

وعجيب من هؤلاء المرجفين أن يظنوا أن الله لا يعلم أباطيلهم ، ولا يعلمها رسوله ، والله تعالى يقول ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (٢٩) وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ قَلْعَتَهُمْ بِسِمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣﴾ [محمد]

ومعنى نحن نقول أن يميلوا بالكلام عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم في السلام على رسول الله اسام عليكم ، والسام هو الموت ، وكما لووا السنتهم بكلمة (رعا) فقالوا راعون يقصدون الرعونة وأغرب من ذلك ما حكاه القرآن عنهم ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (٨) [المجادلة]

فهذا القول منهم دليل على غيائهم . أولاً . لأنهم يتمنون العذاب .
ثانياً لأنهم قالوا ذلك في أنفسهم لم يقولوا للناس . ولم يقولوا
حتى لبعضهم لبعض . لأن (يقولون) جمع ، و (في أنفسهم) جمع ،
فكان كلاً منهم كان يقول ذلك في نفسه

إذن ألم يسأل واحد منهم نفسه من الذي أعلم رسول الله بما
في نفسه ؟ ألا يدل ذلك على أن محمداً موصوف بربه . وأنه لا يد
فأضمرهم . وكشف مكنونات صدورهم . إذن هذا غيائ منهم

والمتتبع لتاريخ اليهود والمنافقين في المدينة يجد أن الإسلام لم
يأخذهم على غرة إنما أعطاهم العهد وأمنهم ووسع لهم في المسكن
والمعيشة طالما لم يؤذوا المسلمين ، لكن مع رسول الله ﷺ أبهم
يتتاجون بالإثم والعدوان ، فيعت إليهم ونهاهم عن التباحي بالإثم
والعدوان . لكنهم عادوا مرة أخرى ، كما قال القرآن عنهم ﴿ ألم فر إلى
الذين يهوا عن الحجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ (٨) [المجادة]

إذن لم يبق إلا المواجهة على حد قول الشاعر^(١)
أناة فإن لم تغب عقب بعدها وعيدا فإن لم يغن أغنت عزائمه^(٢)
لذلك يأتي جواب الشرط ﴿ لك لم ينه المنافقون والذين في قلوبهم
مرض والموجهون في المدينة لتخريك بهم .. ﴾ (١٠) [الاحزاب]
جواب الشرط ﴿ لتخريك بهم .. ﴾ (٦) [الاحزاب] من الإغراء ،
وهو باب من أبواب الدراسات النحوية اسمه الإغراء ، ويقابله التحذير،
الإغراء أن تحمل المخاطب وتحميه في أمر محبوب ليفعله كما تقول
لولدك مثلاً الاجتهاد الاجتهاد .

(١) الشاعر هو إبراهيم بن العباس الصولي ، كاتب العراق في عصره ، لصلته من حراس
لشأ في بغداد فكان كاتباً للمعتصم والواثق والحتوكل . واد ١٧٦ هـ وتوفي ٢٤٣ هـ .
وهو من شعراء العصر العباسي

(٢) البيت من قصيدة له من بحر الطويل . ونظر الاساسي للأخيهائي والأوائل لأبي غلام
المسكوي (ص ٤١٩)

أما التحذير فإنَّ تَخَوُّفه من أمر مكروه ليجتنبه كما تقول
الأسد الأسد ، أو الكس الكسل

فمعنى ﴿لُغْرِيكَ بِهِمْ ..﴾ (٦) [الأحزاب] أى نُسَلِّطُكَ عَلَيْهِمْ ،
وَنُغْرِيكَ بِمُوَاجِهَتِهِمْ وَالتَّصَدَّى لَهُمْ ، فكان هذه المواجهة صارت أمراً
محبوباً يَغْرَى بِهِ ، لأنها ستكون حِزَاءَ مَا فَرَعَوْكَ وَأَقْلَقَوْكَ

وما دمعاً سنسلطك عليهم ، وما دمتم سنصيرون إلى قوة وشوكة
تُغْرَى بِعَدُوِّمَا ، فلن يستطيعوا البقاء معكم فى المدينة

﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦) [الأحزاب] أى فى المدينة ،
وكلمة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦) [الأحزاب] يعكس أن يكون المعنى قليل منهم ،
أو قليل من الزمن ريثما يجدوا لهم مكاناً آخر يرحلون إليه مُشِيعِينَ
بلعنة الله

﴿مَلْعُونِينَ أَيْمًا تُنْقَرُوا أَنْحَدُوا وَقَتْلُوا تَقِيلًا﴾ (٦) [الأحزاب]

الملعون المطرود من رحمة الله ، أو مطرود من المدينة بعد
أن كشف الله دحائل نفوسهم الخبيثة لذلك طردهم رسول الله من
المسجد ، لأنهم كنوا من خبيثهم ولؤمهم يدخلون المسجد ، بل
ويُصَلُّون فى الصف الأول ، يظنون أن ذلك يستر بفسادهم

لكى رسول الله كان يطردهم بالاسم يا فلان ، يا فلان ،
فكان ﷺ يعرفهم ، ولم لا وقد قال الله له ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ
فَلَمْرُفَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ..﴾ (٣) [محمد]

(١) أورد القرطبي فى تفسيره (٥٤٦٥/٨) أنه لما حثت سورة - براءة - جمعوا فقال النبي
ﷺ ، يا فلان قم فاحرج إليك مطلق ، ويا فلان قم - فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا
إخراجهم من المسجد - ولنقل أيضاً (زاد المسير) لأبي الجوزى (٤٩٢/٣)

ومعنى ﴿أَنِيبُوا تَقُفُوا ..﴾ (٦٦) [الأحزاب] أى وُجِدُوا ﴿أُحِدُوا ..﴾ (٦٦) [الأحزاب] أى أُسِرُوا ﴿وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا﴾ (٦٦) [الأحزاب] ولا حظ بالمبالغة فى ﴿وَقَتَّلُوا ..﴾ [الأحزاب] والتوكيد فى ﴿تَقْتِيلًا﴾ (٦٦) [الأحزاب] يعنى اقتلوهم بعنف ، ولا تأخذكم فيهم رحمة حزاء ما ارتكبوه فى حق الإسلام والمسلمين

ولأن المانق الذى طبع على البفاق صارت طبيعته مسمومة مَلُوثَةٌ لا نصفو أبداً ، فالنفاق فى دمه يلازمه أيما ذهب ولا بُدَّ أن ينتهى أمره إلى الطرد من أى مكان يحل فيه

لذلك ، فمع أن الله تعالى قطعهم فى الأرض أمماً ، إلا أن كل قطعة منهم فى بلد من البلاد لها تماسك فيما بينها ، بحيث لا يدورون فى المجتمعات الأخرى فتظل لهم أماكن خاصة تُعرف بهم ، وفى كل البلاد تعرف حارة اليهود ، لكن لاند أن يكشف الناس فضائحهم ، ويذهب الأمر بضردهم وإبادتهم ، وآخر طرد لهم ما حدث مثلاً فى ألمانيا

وصدق الله حين قال فيهم ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ لِيُعَذِّبَهُنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسْأَلُهُمْ سَاءَ الْعَذَابُ﴾ (١٧٧) [الأمراء]

ثم يفوز الحق سيحانه

﴿مُسْنَةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ يَجْعَلَ لِمُسْنَةِ اللَّهِ بَدِيلًا﴾ (٧٧)

بعد أن من الحق سيحانه نهاية أعبات بالتفتيل وانتصار رسوله ﷺ ، أوضح أن هذا ليس شيئاً حديداً فى موكب الرسالات ، إنما هى

سنة مُتَبِعَةٌ وَمُتَوَاتِرَةٌ ، وَهَلْ رَأَيْتُمْ فِي مَوْكِبِ الرِّسَالَاتِ رَسُولًا أَرْسَلَهُ
اللَّهُ ، ثُمَّ خَدَلَهُ أَوْ تَخَلَّى عَنْهُ ، وَانْتَهَى أَمْرُهُ بِخَصَرِ أَعْدَائِهِ عَلَيْهِ ؟

وَالسَّنَةُ هِيَ لَطَرِيقَةُ الْفَطْرِيةِ الطَّبِيعِيَةِ الْمَسْوُورَةِ الَّتِي لَا تَتَحَلَّفُ
أَبَدًا ، فَلَا مَرَّ إِذَا حَدَثَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ لَا يُسَمَّى سَنَةً ، فَالسَّنَةُ إِذْنٌ لَهَا
رِقَابَةٌ وَاسْتِقَامَةٌ .

فَالْمُرَادُ بِالسَّنَةِ هَذِهِ غَلَسَةُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴿فِي الدِّينِ حَلُولًا ..
(٦٢)﴾ [الاحزاب] يَعْنِي الدِّينَ مَضُوءًا مِنَ الْأَمْرِ السَّائِقَةِ ، وَمَا زَالَتْ
سَنَةُ اللَّهِ فِي بَصَرِ الْحَقِّ قَائِمَةً ، وَاسْتَظَلَّ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، لَا يَبْقَى
سَنَةٌ

﴿وَلَوْ نَحَدَّ لَسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢) [الاحزاب] نَعَمْ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا
تَتَغَيَّرُ ، لِأَنَّهَا سَنَةٌ مِّنْ سَنَةِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ سَبِيحَانَهُ لَيْسَ لَهُ ظَلَمٌ ،
وَلَيْسَ لَهُ شَرِيكَ يُبَدِّلُ عَلَيْهِ ، أَوْ يَسْتَدْرِكُ عَلَى حُكْمِهِ بِشَيْءٍ

يَعْدُ ذَلِكَ أَرَادَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يَحْبِرَنَا أَنَّ الْمَنْهَجَ الَّذِي جَاءَ بِهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ وَفِيهِ أَوَامِرُهُ ، وَفِيهِ نَوَاهِيهِ وَفِيهِ سَبِيلُ
الْخِلَاصِ مِنَ الْحَصُومِ ، هَذَا الْمَنْهَجُ لَا نَدُّ أَنْ يُحْتَرَمَ ، لِأَنَّهُ سَيُسَلِّمُ
النَّاسَ حَمِيصًا إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى يُسْتَقْبِلُونَ فِيهَا اسْتِقْلَالًا ، لَا يَنْفَعُهُمْ فِيهِ
إِلَّا أَعْمَالُهُمْ

حَيَاةٍ أُخْرَى يَعِيشُونَ فِيهَا مَعَ الْمُسَبَّبِ سُبْحَانَهُ ، لَا مَعَ الْأَسْبَابِ
فَلْيَاكُمُ أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَتَنْعَمْتُمْ بِنِعَمِهِ فِي الدُّنْيَا
وَانْتَهَتْ الْمَسَآلَةُ ، وَأَفَلَتُمْ مِنْ عِقَابِهِ مَنْ خَرَجَ عَلَى مَنْهَجِهِ ، لَا يَلِ
تَذَكَّرُوا دَائِمًا أَنَّكُمْ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ ، وَلَنْ تُفْلِتُوا مِنْ يَدِهِ

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (١٣)

سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ كَثِيرًا عَنِ السَّاعَةِ وَالسُّؤَالُ ظَاهِرَةٌ صَحِيحَةٌ إِذَا كَانَ فِي أَمْرِ التَّكْلِيفِ ، لِأَنَّ السُّؤَالَ عَنِ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّائِلَ آمَنَ بِرَسُولِ اللَّهِ ، وَأَحَبَّ التَّكْلِيفَ ، فَارَادَ أَنْ يَهْنِي حَرَكَةَ حَيَاتِهِ عَلَى أَسَاسِ إِسْلَامِيَّةٍ مِنَ الْبَنَاءِ .

فَعَلَى مَرَصٍ أَنْ الْإِسْلَامَ جَاءَ عَلَى أَشْيَاءَ كَانَتْ مُتَوَارِقَةً مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَقْرَبَهَا الْإِسْلَامَ ، فَيَأْتِي مَنْ يَسْأَلُ عَنِ رَأْيِ الْإِسْلَامِ فِيهَا حَرُصًا مِنْهُ عَلَى سَلَامَةِ دِينِهِ وَحَرَكَةِ حَيَاتِهِ

لَكِنْ أَرَادَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يُهَوِّنَ الْمَسَائِلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُونَهَا عَنْ أَشْيَاءَ وَإِنْ تُبَدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ..﴾ (١٠) [الماشئة]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : دَعُونِي مَا تَرَكْتُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ^(١) .

إِذْ السُّؤَالُ الْمَطْلُوبُ هُوَ السُّؤَالُ عَنِ الْأُمُورِ التَّكْلِيفِيَّةِ الَّتِي تَهْمُ الْمُسْلِمَ ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَدْ أَقْرَبَ الْإِسْلَامَ كَثِيرًا مِنْهَا ، فَالذِّمَّةُ مَثَلًا فِي الْإِسْلَامِ جَاءَتْ مِنْ جَنْبَرٍ كَانَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ وَأَقْرَبَهَا الْإِسْلَامَ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمَ بِأَنْ يَسْأَلَ عَنِ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٤٧/٢) ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ [١٢٣٧] كِتَابُ الْحَجِّ ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَلَفْظُ الْحَدِيثِ : دَعُونِي مَا تَرَكْتُمْ ، قَوْلًا مِنْ هَذَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، هَذَا أَمْرُكُمْ بِشَيْءٍ فَحَدِّثُوا عَنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا سَأَلْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَأَسْبِغُوا .

مثل هذه المسائل في قوله تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣) ﴿

[الحل]

أما السؤال عن الساعة ، فالساعة أمر عيني لا يعلمه إلا الله ، فهو سؤال لا جدوى منه ، لذلك لما سُئِلَ رسول الله ﷺ متى الساعة ؟ قال للمسائل ، وماذا أعددت لها ،^(١) فأخذته إلى ما ينبغي له أن يسأل عنه ويهتم به

وهذه الآية الكريمة ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. ﴾ (٦٣) ﴿ [الأحزاب] جاءت بعد معركة الإيذاء لله تعالى ، والإيذاء لرسوله وللمؤمنين به ، هذا الإيذاء جاء مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالسَّمَاءِ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَلَاغِ عَنْ اللَّهِ بِوَسْطَةِ رَسُولِهِ

وإيذاء هؤلاء لله تعالى هو في الحقيقة إيذاء لأنفسهم ، لأنه لا يصل إلى الله تعالى ، والله يريد لهم الخير : لأنهم عباده وصنعتهم ، فحين يخرجون على منهجه فإنما يؤذون أنفسهم ، أما إيذاؤهم لرسول الله ﷺ فقد آذوه ﷺ في أهله وفي نفسه ، فقد تعرَّضوا له ﷺ بما يتأبى عنه أي إنسان كريم ، آذوه بالقول وبالفعل ، ومع ذلك صبر ﷺ ، وصبر أصحابه ، وقد آذوا في أنفسهم وفي أموالهم

والمتمامل يجد أن هذا الإيذاء مقصود وله فلسفة ، فقد أراد الله تعالى ليُحصن المؤمنين ، وليرى - وهو أعلم سبحانه - من يثبت على

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ «متى الساعة؟» قال له رسول الله ﷺ «ما أعددت لها؟» قال «حباً لله ورسوله» قال ﷺ «أنت مع من أحببت، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٩) ، والبخاري في صحيحه (٦١٦٧ - ٦١٧١) وفي لفظ عبد البخاري أن الرجل قال «ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكنني أحب الله ورسوله» فقال ﷺ «أنت مع من أحببت» .

الإيمان ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٦) ﴿ [المنكبات]

وسبق أن أوضحنا أن الإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما الإيمان مسئولية وعمل ، ولهذا السبب امتنع كفار مكة عن النطق بكلمة الإيمان لأنهم يعلمون حقيقتها ، وهم أهل بيان ومهم للأساليب والمعاني .

وثبات سيدنا رسول الله وصبره هو والذين آمنوا معه دليل على أنهم أجروا مقاربة بين هذا الإيذاء في الدنيا من بشر له قدره محدودة ، وإيذاء الله سبحانه في الآخرة ، وهذا إيذاء يناسب قدرته تعالى ، ولا يمكن أن يفر منه أحدٌ

إن تقول إن للإيذاء فلسفة مقصودة ، وإلا فقد كان من الممكن أن يأخذ الله أعداء ديه أخذ عرير مفتدر ، كما أخذ قوم نوح بالهوفان ، وقوم فرعون بالفرق ، وكما حسف بقارون الأرض ، لكن أراد سبحانه أن يعذب هؤلاء بأيدي المؤمنين وبأيدي رسول الله ، وربما لو مزلت بهم أحده عامة لقالوا آية كونية كالزلازل والبراكين مثلاً ، لذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿ فَاتْلُوهُمْ بَعْدَهُمْ اللَّهُ بَأْيَدِيكُمْ وَبِخَزَمِهِمْ وَيَنْصَرِّكُم عَلَيْهِمْ . . ﴾ (١٤) ﴿ [الدوة]

ثم يصبر الحق سبحانه نبيه ويسلّيه ﴿ فَإِذَا مَرِيتُكَ بِعُضِّ الدَّيِّ نَعْدَهُمْ أَوْ تَرَفِّكُ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧) ﴿ [عافر]

إن رد الحق سبحانه على هذا الإيذاء جاء على نوعين موج في الدنيا بأن ينصر الله نبيه عليهم كما بشره الله بقوله ﴿ وَسَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٤٥) ﴿ [القمر]

والآخر رَدَّ آخَرُى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَئِكَ قَانَ تَعَالَى ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ . (٦٣)﴾ [الاحزاب]

والسؤال الذى سئلَه رَسولُ الله ﷺ كان متوجهاً إلى امرين الأول : إِمْجَارِى لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَهْمُونَ مِنْ كُتُبِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ بَعْضَ الْأُمُورِ ، فَيُرِيدُونَ أَنْ يُجَرِّحُوا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ حِينَ يَسْأَلُونَهُ عَنْهَا ، فَلَمْ يَجِدُوا جَوَاباً ، وَهُمْ يَعْزِضُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أُمِّىٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَمْ يَجْلِسْ أَبَداً إِلَى مُعَلِّمٍ ، لَكِنِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ كَانَ يُسَعِّفُ رَسُولَهُ وَيُعَمِّمُهُ الْجَوَابَ مُجِيبٍ عَلَيْهِمُ الْجَوَابَ الصَّحِيحَ ، فَيَمُوتُونَ غِيظاً ، وَيَتَحَكَّرُونَ فِى أَىْ مَسْأَلَةٍ لِيُثَبِّتُوا لَأَنفُسِهِمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَا يَعْلَمُهَا

مِنْ ذَلِكَ مِثْلًا سَوَّالُهُمْ عَنْ أَمْرِ الْكَهْفِ كَمْ لَبِثُوا ؟ فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاذًا سَبْعًا (٢٥)﴾ [الكهف] فَقَالُوا بَحْرٌ نَعْلَمُ أَنَّهَا ثَلَاثُمِائَةٌ فَمِنْ أَيْنَ هَذِهِ الزِّيَادَةُ ؟ وَجَهِلُوا أَنَّ تَوْقِيتَ الْمَنَاسِكِ الْإِلَهِيَّةِ فِى الدِّينِ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى التَّقْوِيمِ الْهَلَالِىِّ لَا عَلَى حَرَكَةِ الشَّمْسِ ، لِأَنَّ مُقْتَضَى مَا تَعْلِيهِ لَنَا الشَّمْسُ أَنَّ نَعْلَمَ بِهَا بَدَايَةَ الْيَوْمِ وَنَهَايَتَهُ ، لَكِنِ لَا نَعْرِفُ بِهَا أَوَّلَ أَشْهُرٍ وَلَا آخِرَهُ .

أَمَّا التَّوْقِيتُ الْعَرَبِىُّ الْهَلَالِىُّ ، فَهُوَ عَلَامَةٌ مُمَيِّزَةٌ هِىَ ظُهُورُ الْهَلَالِ أَوَّلَ الشَّهْرِ وَإِذَا مَا قَارَنْتَ بَيْنَ التَّقْوِيمِ الْهَلَالِىِّ وَالتَّقْوِيمِ الْمِيلَادِىِّ تَجِدُ أَنَّ كُلَّ سَنَةٍ هَجْرِيَّةٍ تَنْقُصُ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا عَنِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ ، فَالْثَلَاثُمِائَةُ سَنَةً الْمِيلَادِيَّةِ تَسَاوِىْ فِى السَّنَةِ الْهَجْرِيَّةِ ثَلَاثُمِائَةً وَتِسْعَةً

فَكَانَهُمْ أَرَادُوا تَجْهِيلَ مُحَمَّدٍ ، فَتَنْبِئَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَسْمِهِمْ هُمُ الْحَقْلَةُ . وَعَجِيبٌ أَنْ يَعْزِضَ الْبَهْرَ عَلَى هَذَا انْتِزَاعِىٍّ . مَعَ أَنَّهُ التَّوْقِيتُ الْعِبَادِىُّ لِعَبِيدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ . (١٢)﴾ [الاعراف]

إذ فقله تعالى ﴿وَأَزِدْ دُرّاً تَسْعَا﴾ [الكهف] فيه إعجاز أداسي بليغ ، يدل على أن التسع سنين إنما جاءت زيادة من داخل الثلاثمائة ، وليست خارجة عنها .

ثم سألوه ﷺ عن رجل جوال ، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ . (٨٢) [الكهف]

فكان ينبغي أن يلفتهم ذلك إلى صدق محمد ﷺ ، وأن يسألوا أنفسهم من أين له هذا العلم ، وهو الأمي الذي لم يجلس مرة إلى معلم ؟ لذلك قلنا إن الأمية عيب في كل إنسان ، إلا أنها كانت شرفاً وميزة في رسول الله بالذات ، لأنها تعني في حق رسول الله أنه لم يعلمه بشر كما اتهموه ، إنما علمه رب

كذلك كانت الأمة التي نزل فيها القرآن أمة أمية ، وهذا أيضاً شرف في حلقها ، فلو أن هذه الأمة كانت أمة علم وثقافة يقالوا عن الإسلام إنه قفزة حضارية ، لكنها كانت أمة أمية يسودها النظام القبلي ، فكل قبيلة قانونها ونظامها ، ولكل قبيلة رئيسها ، ومع ذلك خرج منهم من جاء بنظام عام يصح لسياسة الدنيا كلها ، إلى أن تقوم الساعة ، وهذا لا يتأتى إلا بمنهج إلهي

ذن الأمية في العرب شرف ، وعجزهم عن محاكاة القرآن ، والإتيان بمثلها أيضاً شرف لهم ، فكون الحق سبحانه يتحدثهم بأسلوب القرآن دليل على عظمتهم في هذا المجال ، وإلا فانت لا تتحدى الضعيف إنما تتحدى القوى في مجال التحدي ، فكان تحدى الله للعرب شهادة منه سبحانه بأنهم أفصح الخلق ؛ لذلك جاءهم بمعجزة من جنس ما بلغوا فيه .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب] وهم يسألون عن الساعة يعنى عن يوم القيامة ، لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألا يكون هذا اليوم ، حتى لا يقفوا موقف المسئلة والحساب على ما أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعريضة وسفك للدماء ، ولغو فى أعراض الناس

ولو بحث هؤلاء قضية القيامة واحساب بالعقل - لا بخصوص القرآن - لوجدوا أنها أمر منطقي لا بُدَّ أن يحدث ، فمثلاً نحن عاصرنا الحرب الشيوعى فى روسيا سنة ١٩١٧ ، رأينا كيف أخذوا الإقطاعيين والرأسماليين وعذبوهم ، ومخلوا بهم الأفاعيل ، وصادروا ممتلكاتهم جراً لهم على ظلمهم للناس ، وكما نقول لهم نعم هذا أمر منطقي أن تقتصر من الظالم ، لكن ما نال كثير من الظلمة الذين ماتوا أو لم تدركوهم وأفلتوا من قبضتكم ؟

يا الله لو جاء شخص ودلّكم على مكان أحد الظلمة هؤلاء ، أستم تحمدون له هذه المساعدة ؟ فكيف به لو قال بل سأحصره وأجاسه وأقتصر منه ، أليست هذه إعدة بكم على مهمة الانتقام من الظالمين ؟

لذلك نقول كان من الواجب أن يكون الشيوعيون أول الناس إيماناً بيوم القيامة وبالبعث والحساب لئلا يركبوا من أفلت من أيديهم

شئ آخر أستم تضجعون - فى أى نظام من أنظمتكم الوضعية - القوانين المنظمة ؟ ما معنى القانون القانون قواعد يحدد للمواطن ما له وما عليه ، ليس فى قوانينكم هذه مبدأ الثواب للمحسن ، والعقاب للمفسر ؟

إذن كل مجتمع لا بُدَّ أن تكون فيه عناصر خارجة على نظامه

وتستحق العقوبة ، فمن استطاع أن يدلس على المجتمع ، وأن يدارى جريمته ما حظه من العقوبة . وقد ستشرى فساده وكثر ظلمه ؟

إن لا يد أن يؤمن بقدرة أخرى لا يخفى عليها أحد ، ولا يدلس عليها أحد ، ولا يهرب منها أحد ، قدرة تعرف الخفايا وتفضحها ومحاسب أصحابها هذه القضية لا بد أن تسويقك إلى فطرية الإيمان بالله تعالى ، وأنه سبحانه خبير عالم ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في ﴾ [الأنعام]

لماذا إذن تذكرون القيامة وأنتم في أنظمتكم الديوية تحثون الجواسيس والمخابرات ، وتخصون همس الناس لمعرفة الدين يحتالون في ألا يراهم القانون ؟ اليس من فصل الله عليكم أنه سبحانه يعلم ما خفى عليكم ويقتص لكم من خصومكم ؟

نقضية لقيامة والحساب وضحة بالفطرة ، لذلك تجد أن المنكرين لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب في هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به وكان هنا الهروب هو الحل

وسورة الكهف نعطينا نموذجا لهؤلاء ، وهو صاحب الحبة الذي قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ [الكهف] بعد أن أسرف على نفسه وجحد نعمة الله عليه ، ولما تنبه وراجع فطرتة قال ﴿ ولئن رُدِّدْتُ إلىٰ ربِّي لأجدنَّ خيراً منها مُنقلباً ﴾ [الكهف]

فالتكذيب بيوم القيامة هو الأغلب ولاكذ والشك في ﴿ ولئن رُدِّدْتُ إلىٰ ربِّي ﴾ [الكهف] . . . ﴿ ﴾ [الكهف] يعني وعلى فرض أنني رُدِّدْتُ إلىٰ ربِّي يوم القيامة فسوف يكون لي عنده أفضل مما أعطاني في الدنيا ، فكما أكرمني هنا سيكرمني هناك

وهذا اعتقاد خاطيء وفهم احمق ، فانه تعالى لا يكرم في الآخرة
إلا من أكرم نفسه بتباع منهجه في الدنيا ، ومن لم يكرم نفسه هنا
بصحيح الله لا يكرمه الله في الآخرة .

لذلك كثيراً ما سمع دعوتُ فلم يُستجب لى . خصوصاً
السيدات ، حاءنى إحداهن تشتكى أنها توجهت إلى الله بالدعاء ومع
ذلك البيت لم تتروح والولد كذا والروح كذا فكانت أقول لها (كتر
خبر) أولاً أنك عرفت أن لك رباً تمزعين إليه وقت الشدة كما قال
مسيحاه ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَصْرَعُوا ۝٤٣ ﴾ [الاعلام]

إنما أسألك هل أنت أجيب الله أولاً فيما طلبه منك كي تنتظري
منه أن يجيبك إلى ما طلبت ؟ ألحيت الله في شعرك هذا ؟ ألحيت الله
فى (شفائيك) وتعيبك لخلق الله ؟ فكانت لا تجد جواباً ، إلا أن
تقول والله أنا قلبى (صافى) ولا أؤذى أحداً . إلخ .

إذن أخذتم على الله أنكم دعوتُم فلم يُستجب لكم ، ولم تأخذوا
على أنفسكم أنه مسيحاه دعاكم أولاً وبددكم فلم تستجيبوا لندائه ،
احرصوا أولاً علىجابة نداء الله ، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم

نعود إلى ما كنا بصدده من الحديث عن السؤال فى القرآن
الكريم ، فسؤالهم عن الساعة إنما ليتأكد السائل أنها ستحدث ، وإما
لأنه يستبطنها ويربدها الآن

ومادة السؤال جدهب كثيراً فى كتب الله . لأن القرآن لم ينزل على
رسول الله جملة واحدة ، إنما نزل مُنْجِماً حسب الأحداث ليعطيهم
الفرصة لسؤال . وجاء السؤال إما لتمدى رسول الله ، وإما
للاسبرادة من أحكام الله التى أنزلها على رسوله ﷺ ، وهذا حاء معن

عشقوا الإيمان فاحبوا أن تُبنى حركة حياتهم على هدى الإيمان
حتى المسائل التي كانت لها جذور في الجاهلية راحوا يسألون
عنها ، لماذا ، مع أن الإسلام أقربها ؟ قالوا لأنهم أرادوا أن يبنوا
أعمالهم على العبادة ، لا على العادة الجاهلية

والقرآن حينما عرض لهذه الأسئلة قال مرة ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ
لُحْيِز قُلْ هُوَ أَذَى .. ﴾ (٢٩٦) [البقرة] فرسول الله ﷺ حينما سُئل هذا
السؤال لم يقل هو أذى لأن الجواب ليس من عنده ، إنما هو مبلّغ
عن الله ، والله هو الذي يقول ، فقال ﴿ قُلْ هُوَ أَذَى .. ﴾ (٢٩٧) [البقرة]
مكلمة قُلْ هذه من مقرر الله تعالى ، وإن أقولها كما هي

لذلك نحب ممن يبدى بحذف كلمة (قُلْ) من القرآن ، بحجة
أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، في حين أنها دليل على صدق سيدنا
رسول الله ﷺ ، ودليل على أن ما جاء به ليس من عنده ، إنما من
عند الله ، وهو مبلّغ محسوب . مريبه قال له قُلْ وهو يقولها كما هي
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْغَوْ .. ﴾ (٢٩٨) [البقرة]

ومى موضع آخر ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أُنْفِقُ مِنْ شَيْءٍ
فَلَوْلَا دِينِي وَالْأَقْرَبِينَ .. ﴾ (٢٩٩) [البقرة]

لكن قُلْ تأتي مرة مقترنة بالفاء ، ومرة أخرى غير مقترنة بها ،
فلماذا ؟ هذا مكمّل ، عجازي في أداء القرآن ، لأن الجواب يُقْلُ يعنى أن
السؤال قد حدث بالفعل ، مثل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَافِقُ النَّاسِ
وَالْحَجَّجُ .. ﴾ (١٨٦) [الحج]

أما الجواب حين يقترن بالفاء ، فإنه يعنى وجود شرط ، فالسؤال
لم يحدث بالفعل ، إنما سيحدث في المستقبل ، كما في قوله تعالى

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه]

والمعنى : إن سألك في المستقبل عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ، فالجواب مُعَدَّ مسبقاً لسؤال لم يُسأل بهُذ ، لكنه لا بُدَّ أن يُسأل ، وأن يقع منهم ، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، ولا فقد كان بإمكانهم ألا يسألوا ، لكن مبهات أن يتقضى أحد كلام الله ، أو يتقضى علمه تعالى .

ما دام الله قال فلا بُدَّ أن يقولوا ، وهذه المسألة أوضحناها في قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهَبٍ رَتْبًا﴾ (١) ما أغنى عنه ماله وما كسب (٢) سيصلي نارا ذات لهب (٣) وأمراته حمالة الحطب (٤) لي جدها جبل من مسند (٥) [المسد]

فحكم الله تعالى على هذا الكافر العنيد أنه سيموت على كفره ، وسيكون مصيره وزوجته النار ، وقد سمع أبو لهب وأمراته هذه الآية ، وعرفوا صدقها ، لكنه مع ذلك لم يؤمن ولو نقاشاً ، وقد آمن من هو أشد منه كفراً وعناداً ، أمثال : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وغيرهما .

لكن الذي حكم وأخبر أنه لن يؤمن يعلم أنه سيمتسهي إلى هذه النهاية مهما حذره وأذره : لذلك كان أبو لهب مثالا لغباء الشرك ، فلو أنه جاء في مصفّل من محافل قريش بعد نزول هذه السورة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأخرج رسول الله وكذب القرآن . لكن لم يحدث شيء من هذا ، وما كان ليحدث بعد أن قال الله ، مع أنه حرّ مختار .

وفي آية واحدة من كتاب الله وردت الإجابة عن السؤال غير مُصدّرة بـ (قل) ولا (فقل) ، وهي قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

عبادى عني فإني قريب .. ﴿١٨٦﴾ [البقرة] ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال هنا عن ذات الله تعالى ؛ لذلك جعل الجواب منه سبحانه مباشرة بلا واسطة ؛ لأن المقام مقام سؤال عن قريب مباشر لك ، كذلك جاءت الإجابة مباشرة .

هذا عن السؤال ، أما عن الساعة التي سألوا عنها ، فكلمة الساعة حين نطلقها في هذا العصر نريد بها الآلة المعروفة التي تحدد أجزاء الوقت من ليل أو نهار بالسوية ، فليس هناك ساعة أكبر من ساعة .

والعرب حينما اخترعوا الساعة أو المزولة ، كانت ساعة دقاقة بالماء ، وهي عبارة عن خزان يقطر منه الماء قطرة قطرة ، وكلما نزلت قطرة الماء حركت عقارب الساعة بالتساوي ، وسميت ساعة بالذات ؛ لأن الساعة هي أقرب أجزاء الوقت لليل أو للنهار ، وبعد ذلك عرفنا الدقيقة والثانية والجزء من الثانية .

وقد حرص العرب بالذات على حساب الوقت ، وفكروا في آلة تضبطه ؛ لأن الإسلام يقوم على عبادات موقوفة لا بد أن تؤدي في وقتها ، من هنا اخترعوا الساعة .

وكان الحق سبحانه استعار فطرة البشر منهم ، حين سمى القيامة (الساعة) فالساعة التي تنتظرونها هي آلة مواقيتكم في الحركة ؛ لذلك قال شوقي رحمه الله :

دَقَاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَشَوَانِ

والحق سبحانه يقول : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ..﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يَقْسَمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ..﴾ [الروم] أى : ساعتكم وأنكم التي تعارفتم عليها لضبط الوقت ، فجمع سبحانه بين

الساعة الفاصلة بالقيامة ، وبين الساعة التي هي جزء من الليل ،
أو من النهار .

والمعنى : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب] يعني :
اتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت توجد ، قالوا : ﴿فَأَتَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه تكلم في السؤال عن الساعة في موضعين : هنا
﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب]

وفي سورة الشورى : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا
يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى]

ونلاحظ أولاً أن كلمة (قريب) جاءت بدون تانيث ، والساعة
مؤنثة ، فلم يُقُلْ قَرِيبَةً ، قالوا : لأن المراد وقت قيامها : وما يدريك
لعل وقت قيامها قريب . وقال اللغويون^(١) : إن (قريب) على وزن
فعليل ، وهذا الوزن يستوي فيه المذكر والمؤنث ، كما في قوله
سبحانه : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾ [التحريم]

ثم في الآية الأولى جاء بالفعل تكون ، فقال : ﴿تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾
[الأحزاب] وفي الأخرى قال : (قريب) لماذا ؟ قالوا : لأن السؤال مرة
يكون عن أصل الوجود ، ومرة يكون عن شيء تابع لأصل الوجود .

(١) قال ابن منظور في (لسان العرب - مادة : قرب) : « الواحد والاثنان والجميع في ذلك
سواء . وقوله تعالى : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى] ذكر قريباً لأن تانيث
الساعة غير حقيقي ، وقد يجوز أن يُذكر لأن الساعة في معنى البعث . وقال ابن السكيت :
تقول العرب هو قريب مني ، وهما قريب مني ، وهم قريب مني . وكذلك المؤنث : هي
قريب مني ، وهي بعيد مني ، وهما بعيد مني ، وهن بعيد مني . »

وفي الدراسات النحوية تُدرّس لللاميذ كان وأخواتها ، وهي فعل ماضٍ ناقص ، يرفع المبتدأ وينصب الخبر ، وقد تأتي كان تامة تكفي بفاعلها كما في ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ۖ ﴾ (٢٨٠) [البقرة] يعنى : إِنْ وَجِدَ ذُو عُسْرَةٍ .

إذن : إِنْ أَرَدْتَ الوجود الأول فهي تامة ، وَإِنْ أَرَدْتَ وجوداً ثانياً طارئاً على الوجود الأول فهي ناقصة ، كما لو قُلْتَ : كان زيد مجتهداً ، فانت لا تتكلم عن الوجود الأول لزيد ، إنما تتكلم عن شيء طرأ على وجوده ، وهو اجتهداده ، وهذه هي كان الناقصة : لأن الفعل يتبني أَنْ يَدُلَّ على زمن وحدث ، والفعل كان دَلَّ على زمن فقط ، فاحتاج إلى خبر ليَدُلَّ على الحدث ، فكانت قُلْتَ : اجتهد زيد .. فى الزمن الماضى .

كذلك نقول فى الوجود الأول وكان التامة : « كان الله ولا شيء معه »^(١) هذا هو الوجود الأعلى ، فَإِنْ أَرَدْتَ شيئاً آخر مُتَعَلِّقاً بهذا الوجود الأول نقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (١٥٢) [النساء]

فالحق سبحانه فى هاتين الآيتين يردُّ على الذين يسألون عن الساعة ، إما لأنهم ينكرونها وجوداً ، أو يؤمنون بها ، ويسألون عن وقتها ، فقال مرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (١٢) [الاحزاب] ومرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ (١٧) [الشورى]

كلمة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ۖ ﴾ (١٧) [الشورى] معنى الدراية : الإعلام ، كما نقول : هل دريتَ بالموضوع الفلاضى ، يعنى : علمتَ به .

(١) أخرجه أحمد فى مستدره (٤ / ٤٢١) ، والبخارى فى صحيحه (٢١٩١) من حديث عمار بن حصين ، وقسمه : « كان الله ولم يكن شيء غيره » وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض .